رحلة إلى الشرق

تأليف: جيرار دي نرفال ترجمة: د. كوثر عبد السلام مراجعة: د. سهير القلماوي



الدار المصرية للتأليف والترجمة

رحلة إلى الشرق

الجزء الأول

تأليف

جيرار دى نرفال

ترجمة

دكتورة كوثر عبد السلام البحيرى

مراجعة

الدكتورة سهير القلماوى

الدار المصرية للتأليف والترجمة



مقدمة

نحو الشرق

إلى أحد الأصدقاء

الطريق إلى جنيف

لست أدرى إذا كانت أسفار سائح بدأ رحلة من باريس فى أواسط شهر نوفبر ستثير الكثير من اهتمامك ! إنها سلسلة حزينة من المغامرات الفاشلة ، ووصف سقيم. إنها لوحة بلا أفق بل ، بلا منظر ، وقد أصبح من المستحيل فيها استخدام المناظر السويسرية أو الإيطالية الثلاثة أو الأربعة التى صورتها لى نفسى قبل رحيلى ، وكذلك الأحلام الحزينة التى تدور حول البحر ، والشاعرية الغامضة للبحيرات ، وما درسناه عن جبال الألب ، والخصب الشعرى الذى تتيحه الأهواء التى تحيا الشمس ، والتى تجعل الطبقة البورجوازية فى باريس تأسف أمر الأسف لأنه ليس فى مقدورها أن تسير إلى أبعد من مونتروى أو مونمورانسى !

ونعبر « ميلون » و « مونتيرو » و « جوانى » ، ونتناول غداءنا فى « أر جزير » وليس فى كل هذا ما يثير . ولكن تخيل مسافراً نزقاً تمنعه نزواته من أن يقبل الخط الحديدى شبه المستقيم ، فيسلم نفسه لعربات السفر وما فيها من مصادفات ، تلك العربات الغاصة دائما تقريبا والتى قد لا تمر إلا فى اليوم التالى ! إن هذا الرفيق الأهوج ليترك القطار السريع يمر دون أسف ، ذلك القطار الذى قاده من قبل إلى مائدة حافلة. وإنه ليقسم لتعاسة الضيوف الآخرين الذين يضطرون إلى ترك نصف عشائهم ، ويتبادل الأنخاب فى هدوء مع الأشخاص الثلاثة أو الأربعة الباقين الذين

اعتادوا الإقامة فى هذا المكان ، والذين كان لديهم ساعة أخرى من الزمن يقضونها على المائدة . ووسط رضاه عن فكرته تراه يستعلم عما فى المدينة من متع ، وينتهى بأن يتركهم يقودونه إلى الحفلة الأولى للسيد أوجست فى بوديدان ، تلك الحفلة التى تقام فى محراب بأحدى الكنائس بعد تحويلها إلى مسرح .

وفى اليوم التالى يستيقظ رجلنا هذا فى أية ساعة تحلو له ، بعد أن يكون قد أخذ من النوم زادا يكفيه ليلتين . وطبيعى أن تفوته تبعا لذلك العربة التى تسمى « العمومية » . ماذا لو استقل ثانية قطار « لافيت وجايار » الذى استقله الليلة الماضية ؟ ويتناول فطوره ويمر « لافيت » ، وليس به أماكن خالية إلا فى العربة الخفيفة .

ويقول له صاحب المكان ، وهو شديد الرغبة فى أن يحتفظ بمسافر لطيف : ـ ما زال أمامك عربة التجارة . وتصل تلك العربة فى الساعة الرابعة مليئة بطائفة من عمال النسيج المسافرين فى رحلة إلى ليون . إنها عربة شديدة المرح. فهى لا تكف عن الغناء والتدخين طيلة الطريق ، بيد أنها تحمل طبقتين من المسافرين الواحدة فوق الأخرى . لم يبق إذن إلا عربة « شالون » . فأى عربة هى ؟ إنها سيدة العربات الفرنسية ، وهى لا تبدأ سيرها إلا فى الخامسة ، وعلى ذلك فما زال لديك الوقت الكافى لتتناول غداءك .

إن هذه الطريقة فى التفكير، فيها من الإغراء ما يحملنى على حجز مكانى ؛ وبعد ساعتين أتخذ مكانى فى العربة إلى جوار السائق .

وهذا السائق رجل حلو المعشر . وقد كان ضمن مرتادى مائدة الخان . ولم يكن يبدو عليه أنه فى عجلة من أمره ، وذلك لأنه يعرف عربته معرفة وثيقـــة !

— أيها السائق ، إن طرق المدينة المرصوفة جد رديئة !

— لا تحدثني عن ذلك يا سيدى ، فهناك جماعـــة فى المجلس البلدى لا تفهم فى ذلك أكثر من . . . وقد عرض عليهم رصفها على الطريقـة الإنجليزيه بالمكدام ، كما عرضت عليهم الطرق الخشبية فماذا حدث ؟ إنهم يفضلون الحجارة الكبيرة والصغيرة ، وكل ما يمكنهم العثور عليه لجعل العربات تقفز !

— ولكن ها نحن أولاء على الأرض الرخوة ، أيها السائق، ومع ذلك فنحن نقفز بنفس الشكل تقريبا .

— إنى لا ألاحظ ذلك ياسيدى ... ذلك لأن الحصان يخب فى سيره .

— الحصان ؟

— نعم ، نعم ، وكنا سنستبدله بآخر من أجل المطلع .

ولدى مربط الخيل التالى أنزل لكى أتفحص عربة « شالون » تلك العتيقة. إنها جديرة بأن تعرض فى المتاحف إلى جوار البنادق ذات العجلات والمدافع قاذفة الحجارة والمعاصر الخشبية . وربما كانت عربة شالون تلك هى العربة الفرنسية الوحيدة التى لم توقف عن عملها . ستفهم عن هذا كل شىء ، وستعرف كيف أنى لم أجد راحة إلا فى البقاء معلقا بعض الوقت فى سيور العربة ، وكيف كنت آخذ درسا فى الخبب دون حصان طوال ست وثلاثين ساعة ، وكيف أنى أنزلت أخيرا فى شوارع شالون فى الثانية صباحا، وكانت تجتاح المدينة حينذاك أشد عواصف الموسم عنفا .

إن السفينه البخارية تبدأ سيرها فى الخامسة صباحا . حسن جدا . وليس هناك فى المدينة بيت واحد مفتوح فى ذلك الوقت.أهذه حقا مدينة « شالون » الواقعة على نهر « الساون » ؟ ولو أنها كانت « شالون » الواقعة

على المارن فما العمل ؟ كلا ، فهذا حقا ميناء « شالون » الواقع على نهر السامون بدرجاته الحجرية ، التى تنزلق منها فى يسر وسهولة نحو النهر. وهاهما الباخرتان المتنافستان ما زالتا ساكنتين ، كل منهما إلى جوار الأخرى فى انتظار السباق بينهما. وقد أفلحت إحداهما منذ وقت قريب فى التغلب على منافستها .

ويبدأ القارب يمتلىء بالتجار ضخام الأجسام، وبالإنجليز ومندوبى البيوت التجارية للانجليز ، وبعمال النسيج المرحين . إن كل هؤلاء يتوجهون الى ثانى مدن فرنسا، أما أنا فسوف أتوقف فى ما كون . ما كون ! لقد مررت بهذه المدينة منذ ثلاث سنوات فى فصل أنسب وأجمل من ذلك، ثم هبطت منها الى إيطاليا .

وكانت الفتيات اللاتى جئن فى ملابسهن الشبيهة بالملابس السويسرية لدى القنطرة يعرضن عناقيد العنب الضخمة ، هن أول من أرى من بنات الشعب منذ غادرت باريس . وليس لدى الباريسى ، فى الواقع ، أيه فكرة عن جمال الفلاحات والعاملات اللاتى يمكن أن تصادفهن فى مدن الجنوب. ان «ما كون» مدينة من الجنوب نصف سويسرية نصف فرنسية ، وهى على كل حال تتمتع بقسط غير قليل من القبح .

ولقد أرونى بيت « دى لامارتين » ، وهو بيت كبير معتم . وهناك على المرتفع كنيسة جميلة . وألقت الشمس نظرة إلى المدينه بعثت الروح لحظة فى الشرفات المسطحة القرميدية المستديرة ، كما انتزعت بعض أوراق العنب الشاحبة العالقة بفروعها المتسلقة على الجدران . لقد كانت النزهة تحت الأشجار، وقد تساقطت أوراقها ، ما زالت مغرية فى شعاع الشمس هذا .

وتبدأ عربة بورج سيرها فى الثانية. وقد زرنا جميع أركان «ما كون» ، وأخذنا نطوى فى بطء حقول إقليم « البريس » الرتيبه ، تلك الحقول التى

نراها ضاحكة فى الصيف . وحوالى الساعة الثامنة وصلنا إلى «بورج». إنها مدينة تستحق المشاهدة من أجل كنيستها ذات الطراز البيزنطى الجميل ، هذا إذا استطعت رؤيتها جيدا فى الظلام ، أو لعلها من الطراز القريب من عصر النهضة ، والذى يعجبون به فى « سانت أوستاسن » .

ولاريب أنك ستقبل عذر مسافر ما زال محطماً من تأثير عربة شالون، لأنه لم يتمكن من البت فى هذا الموضوع وسط الظلام الدامس .

وكنت قد درست طريق جيدا على الخريطة. ومن وجهة نظر العربات وعجلات لافيت وعجلات البريد ، أى حسب الطريق الرسمى ، كان فى مقدورى أن أنتقل إلى ليون، ثم أستقل عربة إلى جنيف . ولكن الطريق فى هذا الاتجاه كان ملتويا التواء كبيرا واسعا، وأنا أعرف مدينة ليون، ولكنى لا أعرف إقليم « لابريس» . وقد سلكت طريقا قيل إنه الطريق الذى يخترق بينهما ، فهل كان أقصر الطرق ؟

وإذا كانت اليوميات الساذجة لمسافر متحمس مهتم يريد أن يخاطر ويصبح مسافرا ، فاعلم أنه من بورج إلى جنيف ، لا توجد عربات تسافر رأسا . وعليك أن تدور حول ليون مسافة ثمانية عشر فرسخا ، ثم تعود أدراجك مسافة خمسة عشر أخرى فى اتجاه بون دين . حينئذ تكون قد وجدت حلا للمشكلة بعد أن تكون أضعت عشر ساعات .

ولكن من الأسهل أن تذهب من بورج إلى بون دين ، وهناك تنتظر عربة ليون .

ولقد قالوا لى : «إن لك هذا الحق». والعربة تمر فى الحادية عشر مساء، وسوف تصل فى الثالثة صباحاً . وفى الساعة المذكورة وصلت عربة رديئة وبعد ذلك بأربع ساعات أنزلنى السائق فى الطريق العام ، وحقيبتى بين قدمى .

كانت السماء تمطر رذاذا خفيفا ، وكان الطريق مظلما ، فلم تكن تميز لا المنازل ولا الأنوار . وفي طية كبيرة قال لي السائق : « أسلك الطريق الرأسي ، وبعد مسيرة كيلومتر ونصف تقريباً سوف تعثر على خان ، وإذا لم يكونوا قد ناموا فسوف يفتحون لك » .

وواصلت العربة سيرها نحو ليون.

وحملت حقيبتي وصندوق قبعاتي ، ووصلت إلى الخان الذي دلني عليه السائق . وقرعت الباب قرعا شديدا ساعة كاملة ، ولكن ما إن دخلت حتى نسيت كل متاعبي . . .

إن خان بون دين خان مليء بالخيرات . ذلك أني لما نزلت من غرفة نومي في صبيحة اليوم التالي وجدت نفسي في مطبخ فسيح عظيم ، تدور فيه الطيور المذبوحة على أسياخ فوق النار ، وتطهى الأسماك على الأفران . وكانت هناك مائدة حافلة تضم رهطا من الصيادين ، وقد بدا عليهم الاهتمام الشديد . وكان صاحب الخان رجلا بدينا وزوجته امرأة ممتلئة ، وكانا هما الاثنان يتسمان بكثير من الظرف والبشاشة.

ولما كنت قلقا بعض الشيء على عربة « جنيف » قيل لي

— « أنها ستمر غدا يا سيدي في نحو الساعة الثانية » .

— آه ! هذا كثير ! .

— ولكن أمامك هذا المساء عربة البريد .

— عربة البريد ؟

— نعم .

— حسن جداً .

ولم يعد أمامى سوى أن أقضى النهار كله فى النزهة . وإنى لمعجب بمنظر الخان . وهو بناء من القرميد ذو أركان من حجر من عصر لويس الثالث عشر . وقد زرت القرية ، وهي تتكون من شارع واحد غص بالدواب والأطفال، وبالقرويين الذين أسكرهم النبيذ ، وكان اليوم هو يوم أحد . ثم عدت أدراجى وأنا أتبع مجرى نهر الاين الأزرق زرقة رائعة ، ومجراه السريع يدير مجموعة كبيرة من الطواحين .

وفى العاشرة مساء وصل موزع البريد . وفى الوقت الذى كان فيه يتناول طعام العشاء اصطحبت إلى الحظيرة التى بها عربته ، لأعلم المكان الذى سوف أشغله منها .

يالدهشة ! إن العربة لم تكن أكثر من سلة . نعم إنها مجرد سلة معلقة على هيكل عربة قديمة .

وإذا كانت تناسب اللفائف والخطابات كل التناسب، فإن المسافر فيها يعتبر طردا من الطرود .

وكانت هناك سيدة شابة ترتدى ملابس الحداد ، والدموع تترقرق فى عينيها . وقد قدمت من جيرونبل مستقلة هذه العربة التى لايتصورها العقل، فاتخذت مكانى إلى جوارها .

وكانت استحالة اتخاذ وضع ثابت وسط اللفائف هى التى خلطت مصائرنا اضطراريا . وانتهت السيدة بأن منحت دموعها هدنة ، تلك الدموع التى سببتها وفاة عم لها فى جنيف . وكانت عائدة إلى « فرينى » موطن أسرتها .

وتحدثنا كثيراً عن فولتير . وكان حديثنا بطيئا بسبب الصعود والهبوط المستمر . وكان موزع البريد شديد الاحتقار لعربته ، حتى أنه رفض أن يتخذ لنفسه مكانا فيها . فكان يضرب بسوطه الحصان من أسفل حينما يراه ، من

حين لآخر ، يكاد يلامس حافات المنحدرات السحيقة . وكان نهر «الرون» ، ينساب إلى يميننا على بعد بضعة مئات من الأقدام تحت الطريق . وكانت بعض مراكز الجمارك تبدو هنا وهناك وسط الصخور . ذلك أن ، حدود إقليم سافوا كانت على الضفة المقابلة .

وكنا نتوقف بين الفينة والفينة لحظة قصيرة في بعض المدن الصغيرة ، أو في قرى لا يسمع فيها سوى صرخات الحيوانات التي أيقظها مرورنا . ويأخذ السائق يقذف باللفائف إلى أيد أو أقدام لا نراها ، ثم يعاود سيره ، وحصانه الصغير يركض ركضا حثيثاً .

وما إن انبثق نور النهار حتى لمحنا من فوق الجبال بساطا كبيراً من الماء ، بساطاً يعترض الأفق من بعيد كأنه البحر . إنها بحيرة ليمان .

وبعد ساعة ، تناولنا القهوة في مزيني في انتظار قطار ركاب جنيف .

ومن هناك ، وبعد رحلة استغرقت ساعتين عبر حقول مازالت خضراء ، وبلاد رائعة الجمال ، وخلال حدائق ومنازل صغيرة بهيجة ، وصلت إلى موطن جان جاك روسو .

إن الطعام في جنيف جيد الطهو ، والمجتمع غاية في البهجة . ويتحدث الجميع الفرنسية بإتقان ، ولكن بلهجة تذكرنا بعض الشيء بطريقة نطق أهل مرسيليا . والنساء جميلات جداً ، وجلهن ذوات طابع واحد في الملامح ، يجعل من اليسير تمييزهن من غيرهن . وإذا كانت شعورهن عموماً سوداء أو بنية اللون ، فإن بشرتهن ناصعة البياض شديدة الرقة ، وتقاطيع وجوههن منتظمة ، وخدودهن موردة ، أما عيونهن فجميلة هادئة .

وبدا لي أن أجملهن هن اللاتي تقدمن في السن بعض الشيء ، أو بتعبير أصح من وصلن إلى سن النضج ، فزادت أكتافهن وأذرعتهن روعة

وُقدُودَهنّ امتلاء. إنهن نساء تشأن على أفكار سانت بيف ، وجمالهن مصبوغ بصبغة الجمال على شواطىء البحيرات .

وإذا كانت جوار بهن زرقاء ، فلابد أن السيقان التى بداخلها رائعة الجمال .



٢ — الملحق بالسفارة

لم تسألنى بعد إلى أين أنا ذاهب : فهل أعرف أنا إلى أين؟ سوف أحاول رؤية بلاد لم أرها من قبل. وليس لنا، فى هذا الفصل، حق اختيار الطريق، إذ ينبغى أن نسلك الطرق التى لم تجتحها الثلوج أو الفيضانات أو اللصوص فتسدها. وقصص الفيضانات حتى الآن هى أكثر القصص مثاراً للذعر. ولقد قصت علينا منذ قليل إحدى تلك القصص قصة حدثت فى ظروف من الغرابة، بحيث لا أستطيع مقاومة الرغبة فى البعث بها إليك.

حدث فى الأيام الأخيرة أن عبرت إحدى عربات البريد الحدود، مكلفة ببعض الرسالات العاجلة، ذاهبة إلى إيطاليا. وكان بها موظف سفارة هو ملحق بسيط تنتفخ جوانبه غروراً، لأنه يسافر على نفقة الدولة جالسا على مقعد وثير فى عربة جديدة محملة بالمسائل الهامة والنقود. وباختصار كان شابا فى مركز ممتاز. وكان خادمه يجلس فى المقعد الخلفى، وقد تدثر بمعاطف ثقيلة.

وأخذ نور النهار يخبو، والمياه تغمر الطريق فى أماكن عديدة. وأسرع مجرى من مجارى السيول سابقا ما عداه من المجارى، وراود الأمل السائق فى أن يعبره مثل ما عبر غيره، ولكن هيهات. وإذا بالمياه تجتاح العربة، والخيل تندفع سابحة. ولم يفقد السائق عقله، وإنما تمكن من فك قيود خيله، ثم لم يره أحد بعد ذلك.

أما الخادم فقد قذف بنفسه من فوق مقعده، وما هى الا خبطتان من ذراعيه حتى وصل الى الشاطىء.

وفى تلك الأثناء كان مقعد العربة، وهو جديد كل الجدة كما قدمنا

عكم الإقفال يهبط يبطء نحو النهر المذكور . أتدرى ماذا كان الملحق يفعل فى ذلك الوقت ؟ لقد كان الغلام السعيد نائما !

ومع ذلك فقد استيقظ منذ الهزات الأولى ، وواجه الأمر ببرود ، وقدر أن العربة لن تتمكن من الطفو هكذا لمدة طويلة ، فأسرع بخلع ملابسه ، وأنزل زجاج باب العربة ، ولم تكن المياه قد وصلت إليه بعد ، وأمسك برقياته بأسنانه ، وساعده قده الممشوق على أن يلقى بنفسه إلى الخارج .

وبينما هو يسبح فى شجاعة ذهب خادمه بعيدا فى طلب العون . فلما بلغ مراسلنا السياسى الشاطىء كان وحيدا عاريا ، كما لو كان أول رجل خلق على الأرض . أما عربته فكانت تعوم بعيدا .

وخطا الشاب بضع خطوات ، ولحسن الحظ لمح كوخا من أكواخ إقليم سافوا ، فأسرع إليه يطلب المأوى . ولم يكن فى البيت سوى امرأتين إحداهما العمة والثانية ابنة أخيها . ويمكنك أن تتخيل الصيحات التى أصدرتاها ، وعلامات الصليب التى رسمتاها ، وهما تبصران هذا السيد يتقدم نحوهما ، وقد تنكر فى صورة نموذج من نماذج الفنانين فى أكاديميات الفنون .

وتوصل الملحق السياسى إلى إفهامهما سبب كارثته . ولما شاهد حزمة من الحطب إلى جوار المدفئة ، طلب إلى العمة أن تلقى بها فى النار واعدا إياها بدفع ثمنها بسخاء .

فقالت العمة : — ولكن بما أنك عار كما ولدتك أمك ، فليس معك اذن أية نقود .

وكانت حجة لاتقبل دحضا . ولكن لحسن الحظ وصل الخادم إلى البيت ، فغير ذلك من وجه المسألة . وأشعلت حزمة الحطب ، وتدثر الملحق السياسى بغطاء من الأغطية ، وعقد اجتماعا مع خادمه .

ولما كانت تلك الجهة خالية من أى ملجأ يلجأ إليه، وكان هذا البيت هو المسكن الوحيد على بعد فرسخين دائرين، فلم يكن هناك بد من عبور الحدود لطلب المعونة (والنقود) كما قال الملحق السياسى لخادمه فرونتان .

وفتش هذا الأخير فى جيوبه . وكما فعل خادم « ألسست » بطل مسرحية موليير لم تخرج يده إلا بلعبة من لعب الورق وخيط وزر وبعض الفلسات، وكلها غارقة فى الماء (مبللة) .

وقال الخادم :

— لدى فكرة ياسيدى ! سوف أتدثر أنا بغطائك، أما أنت فسوف ترتدى سروالى، وزيى . وإذا سرت بهمة فسوف تصل إلى « .. ا .. » فى بحر أربع ساعات، فتجد هناك الضابط الطيب القائد فى الذى كثيرا مايهلل لتحيتنا حينما نمر به .

وارتعد الملحق السياسى لهذا العرض؛ إذ كيف يلبس زى خادم وسرواله، ويظهر أمام سكان « ا »، وأمام حاكم المكان وزوجته ! ولقد شاهد كثيرا مسرحية « روى بلا »، ولم يكن فى ذلك مايشجعه على قبول هذه الطريقة .

فقال لمضيفته :

— أيتها السيدة الطيبة، ماسوف أستعمل فراشك، وسأنتظر عودة خادمى الذى بعثت به إلى مدينة « ا » ليحضر لى نقوداً .

ولم تكن السيدة شديدة الثقة فيما يقول، ومن جهه أخرى فإنها تنام هى وابنة أخيها فى هذا السرير، وليس لديها سواه . ومع ذلك فقد انتهت ذيلوماسية رسولنا بالانتصار على هذه العقبة الأخيرة . ورحل الخادم وعاد السيد إلى نومه الذى كان قد استغرق فيه منذ ساعة حينما لحق به ذلك الإزعاج المروع .

واستيقظ عند مطلع النهار على ضوضاء لدى الباب . وكان خادمه هو القادم ، يتبعه سبعة رجال شاهرين رماحهم، فقد رأى القائد أن هذا هو أقل ما ينبغي عمله لصديقه الشاب . ولكنه . . . لم يرسل أية نقود .

وقفز الملحق السياسى إلى أسفل سريره .

— « ما ذا يريد القائد أن أفعل بهؤلاء الرماحة السبعة ؟ إنى لم آت لغزو إقيم سافوا » .

فقال الخادم

— ولكن ، ياسيدى ، لقد قدموا لانتشال العربة .

— وأين هى العربة ؟

وانتشروا فى البلد . وكان السيل ما فتىء ينهمر فى جلال. أما العربه فلم تخلف وراءها أى أثر . وبدأ القلق يراود السيدتين . ولحسن الحظ لم يكن الديلوماسى الشاب ممن ينقصهم حسن التصرف، فتمكن ، وهو يمسك برقياته بيده، من أن يقنع الرماحة باضطراره إلى ألا يفقد ساعة واحدة، ووافق أحد هؤلاء العسكريين على إعارته رداءه الرسمى، وأن يبقى فى مكانه فى السرير أو أمام النار وقد التف بغطائه .

ورحل الملحق من جديد إلى « ا » ، تاركا جنديا من الرماحة رهينة لدى السيدتين (ويمكننا أن نأمل أنه لم يترتب على ذلك شىء يعكر ما بين الحكومتين من صفاء) . ولما وصل إلى المدينة توجه لملاقاة حاكمها الذى وجد صعوبة فى التعرف عليه ، بسبب ردائه العسكرى .

— ولكن ياسيدى القائد ، لقد رجوتك أن تبعث إلى بملابس ونقود . .

فقال القائد :

— هل فقدت إذن عربتك ؟

ـــ للآن لم أتلق أى أخبار عنها . وعندما تعطينى النقود من المحتمل أن أتمكن من انتشالها، بواسطة أناس من البلد.

ـــ ولماذا تستخدم أناسا من البلد، ولدينا الرماحة الذين لا يكلفوننا شيئا ؟

ـــ ولكن ياسيدى القائد لا يمكن أداء جميع الأعمال بواسطة الرماحة ! وحينما تعيرنى ثيابا أخرى . . .

ـــ تستطيع أن تحتفظ بثوبك هذا مما زال لدينا منه فى المخزن .

ـــ حسن ! سوف استخدم ما تعطينى من نقود فى التنقل فى أرجاء الإقليم .

— آسف يا صديق، فلا يوجد أى مبلغ تحت يدى . . . ولكن كل ما تستطيع السلطة العسكرية أن تضعه تحت تصرفك من عون هو . . .

— بحق الله يا سيدى القائد لا تكلمنى عن رماحتك ! سوف أحاول الحصول على نقود فى المدينة ، ولن يمنعنى هذا من أن أشكر لك فضلك .

— إن كل شىء فى خدمتك يا صديقى العزيز .

وكان تأثير الملحق فى العمدة وفى مسجل العقود ضئيلا، وخصوصا وهو فى ثيابه تلك. فاضطر إلى التوجه إلى أقرب مركز بوليس فرعى، حيث استطاع بعد محادثات طويلة أن يحصل على ما يريد. وانتشلت العربة من الماء، وسدد رهن الجندى الرماح ، وحصلت السيدتان على أجر سخى مقابل حسن ضيافتهما ، ورحل رجلنا الديلوماسى من جديد بعربة البريد.

وإن فى الإمكان أن تتخذ من تلك القصة موضوعا لمسرحية كاملة من نوع « الفودفيل » مع إضافة بعض التفصيلات . فإن الرماح الذى تركه الملحق رهينة ، لم يستطع أن يبق طوال الوقت فى الفراش : وأعارته السيدة

الشابة فستانا من فساتينها، ووجدته السيدتان مسليا جدا فيه ،فضحكتا كثيرا.
وهكذا تم رسم الخطوط الأولى للزواج، ودفع الملحق السياسى المهر .

ولكن النهايات لا تتم إلا على خشبة المسرح . أما الحقيقة فليس لها نهاية .

وفى الحقيقة إن هذه الآلام تروعنى . لماذا لا أنتظر الخريف فى مدينة جنيف الطيبة تلك حيث النساء رائعات الجمال ، والطعام لا بأس به ، والنبيذ هو نبيذنا الفرنسى ، ولا ينقصنا للأسف إلا السمك الطازج ، فإن القليل الذى نراه منه كان يأتينا من باريس .

ولو حدث وغيرت قرارى هذا فسأكتب لك بذلك .



مناظر سويسرية

ها أنا قد وصلت إلى جنيف: ولكن للأسف يا لها من طرق ويا لها من عربات! ولكن ماذا تراني كنت أكتب إليك، لو أنني قد سلكت طريقي كما يسلك الناس جميعا طرقهم على مقعد وثير في عربة الركاب أو في عربة مريحة، وقد غطيت وجهي بغطائه الخاص، ودثرت جسمي بالمعاطف والأغطية، ودسست قدمي في خفين من الفراء، وجلست فوق وسادة مستديرة دافئة؟ إني أحب أن أسلم نفسي بعض الشيء للصدفة: فإن محطات السكة الحديد ذات الأرقام الدقيقة، والبواخر ذات المواعيد المحددة التي تصل في ساعات وأيام محددة، لا يرتاح الشاعر ولا الرسام إليها، بل ولا حتى عالم الآثار البسيط، أو من كان مثلي من جامعي المعلومات.

ولقد بددت حياة جنيف الحسية إرهاقي الأول تبديدا كليا. أين أذهب؟ أين يتمنى المرء أن يذهب في الشتاء؟ إني أريد أن أذهب حيث الربيع وحيث الشمس.. فإنها تضوى أمام عيني وسط ضباب الشرق الملون، وقد أتتني تلك الفكرة، وأنا أتنزه فوق شرفات المدينة العالية التي تحيط بما يشبه الحديقة المعلقة. ومنها نشاهد منظر الغروب بالغا حد الروعة.

إنها قمم الألب الشاهقة، التي نكتشفها في كل جهة في الأفق. ولكن أين الجبل الأبيض؟ هذا ما قلته لنفسي في أول أمسية. وتبعت شاطيء البحيرة، ودرت حول سور المدينة، دون أن أجرؤ على أن أسأل أي إنسان: أين إذن الجبل الأبيض؟ وانتهى بي الأمر إلى أن شاهدته، وتأملته في إعجاب، وقد اتخذ شكل سحابة كبيرة بيضاء وحمراء وجدت فيها تخفيفا لما تخيلته عنه. ولكن لسوء الحظ، بينما أنا منهمك في ذهني في تقدير مدى الخطر الذي نتعرض له عندما نصعد الجبل ونغرس فوق قمته علماً مثلث

الألوان ، وبينما أنا أتخيل الدية السوداء تنزلق على ثلوج قمته الطاهرة ، إذا بجبلى الأبيض يفقد قاعدته فجأة . أما الجبل الأبيض الحقيقى، فى استطاعتك أن تستنتج أن تأثيره على فيما بعد كان ضعيفا .

أما النزهة فى جنيف فما أجملها فى ذلك الغروب بأفقها المترامى وأشجار الزيزفون القديمة ، وقد تساقطت الأوراق عن أغصانها. وقد بدا جزء المدينة الذى نلمحه فى عودتنا فى خير وضع لتجتلى العين جماله بنظرة قصيرة ، وهو يكشف لنا عن مدرج من الشوارع والحدائق : هى متعة الناظر إليها لا بهجة السائر فيها .

وفى أثناء نزولنا نحو البحيرة ، نتبع الطريق الواسع الباريسى ، طريق « الكوراتيرى » حيث توجد أثمن الحوانيت .

إن طريق بحيرة ليمان الذى يكون زاوية مع هذا الطريق الأخير ، والذى يتمتع جزء منه بمنظر الميناء ، هو مع ذلك أهم الشوارع التجارية وأكثرها حركة .

ومدينة جنيف، مثلها فى ذلك مثل مدن الجنوب جميعاً ـ ليست مرصوفة إلا بالظلط . وتشكل الممرات الطويلة المظللة ، على الطريقة العتيقة ، وسائل اتصال بين الطرقات . وتضفى المصانع التى تحجب قاع البحيرة ومنابع الرون طابعاً شرقياً على المدينة .

هل أحدثك كذلك عن الحى الجديد الواقع على الضفة الأخرى للرون، والذى شيد كله على طراز شارع ريفولى ، وعن قصر المحسن دابنار . الذى تعرف صوره العديدة المطبوعة على اللوحات الجيرية ، والتى كانت تباع فيما مضى لصالح اليونانيين السود ؟ .

من الأفضل أن نتوقف وسط القنطرة على جزيرة مزروعة بالأشجار،

حيث يوجد تمثال جان جاك روسو .

إن هذا الرجل العظيم قائم هنا، وقد التف بملابسه على الطريقة الرومانية ، فى وضع هنرى الرابع على القنطرة الجديدة . إلا أن روسو واقف على قدميه ، كما هو جدير بأحد الفلاسفة . إنه يتبع بناظريه مجرى الرون الذى يخرج من البحيرة جميلا رائعاً ، بل وسريعاً وأزرق ، لدرجة أن الإمبراطور الإسكندر كان يجد فيه ما يذكره ببحيرة «نيرا» ، وهى أيضاً زرقاء كالبحر !

وطرف بحيرة ليمان، المحاط بأرصفة المدينة، قد غطته جزئيا تلك الأكواخ القبيحة ، التى تستعمل كطواحين مياه أو كغاسل ، مما يمنحنا منظراً يتسم بالتغير أكثر مما يتسم بالجلال . وعلى العكس من ذلك فحين ندير ظهورنا للمدينة لنتجه ناحية لوزان ، وحينما تخرج السفينة التجارية من الميناء المزدحم بالسفن الصغيرة ، فإن المنظر يعطى العين لأول وهلة فكرة البحر العريض . ومع ذلك فإن منظر الضفتين لا يغيب عن العين أبداً غياباً تاماً ، إلا أن خط القاع يقطع الأفق بوضوح بشفرته الزرقاء .

وتتأرجح القلاع البيضاء من بعيد ، وتتمحى الضفتان تحت صبغة بنفسجية اللون ، حينما تتألق القصور والمدن من حين لآخر تحت أشعة الشمس وقت الشروق . إنها صورة مصغرة لمضايق خليج نابولى الضاحكة التى نحازيها لمدة طويلة قبل أن ننزل إلى البحر .

ولا تلبث السفينة أن تتوقف فى لوزان ، فأنزل إلى الشاطىء بأمتعتى بين أذرع رجال الجمارك . ولما تبين لهم فى وضوح بأنى لا أحمل السيجار الفرنسى (الريجى الحقيقية) الذى يهتم به السويسريون أسلمونى إلى أربعة من الوسطاء يصرون على اقتسام حوائجى ، فيحمل أحدهم حقيبتى والآخر قبعتى والثالث مظلتى ، ولا يحمل الرابع شيئاً . ثم يفهمونى فى صعوبة ، إذ أن هنا تتوقف اللغة الفرنسية ، أن الأمر يتعلق بسير فرسخ كامل على الأقدام فى صعود

دائم. وبعدساعة، وعند طريق هو أصعب الطرق وأبهجها، أصل إلى لوزان، وأخترق الرصيف الرائع الذى يستخدم كمتنزه عام وحديقة للملهى .

إن المنظر من هنا رائع ؛ فالبحيرة تمتد إلى اليمين إلى مالا نهاية، وهى تعكس وهج الشمس، بينما تبدو لنا إلى اليسار، وكأنها نهر يضيع بين الجبال الشاهقة منطوياً تحت ظلالها الكبيرة. إن قمم الثلوج تتوج منظر الأوبرا هذا، وتمتد أشجار الكرم المصفرة تحت الشرفة لدى أقدامنا كبساط حتى شاطىء البحيرة . هذا هو المنظر المميز للطبيعة السويسرية، كما قد يقول الفنان . ولقد رأيناه مصوراً فى كل مكان ابتداء من النياشين حتى اللوحات المائية، ولا ينقصه إلا بعض الناس بملابسهم الوطنية. إلا أن هؤلاء لا يرتدون لباسهم الوطنى إلا فى موسم الإنجليز، أما فى غير هذا الموسم فهم يرتدون ما أرتديه أنا وأنت . لا تعتقد الآن أن لوزان هى أكثر مدن العالم ابتساماً . إن الأمر مختلف عن ذلك تماماً . إن لوزان مدينة مقامة على درجات، والأحياء فيها مقسمة بناء على طوابق : وتقع الكاتدرائية على الأقل فى الطابق السابع، إنها كنيسة قوطية رائعة الجمال، وقد أفسدها مآلها البروتستنتى اليوم، وجردها من جمالها، شأنها فى ذلك شأن جميع كاتدرائيات سويسرا الرائعة من الخارج، الباردة والعارية من الداخل .

وثمة طائفة من الدوارات الدالة على اتجاه الريح، والأسقف المـــدبية تتميز بطابع جد بهيج .

وحينما خرجت من الكنيسة، وفكرت فى تناول عشائى، أجابونى فى كل مكان بأن الوقت قد فات. وانتهى بى الأمر بالتوجه إلى الملهى، إذ أنه أكثر الأماكن ظهوراً . وهناك لم يفعل صاحب الملهى المعتاد على نزوات السادة الإنجليز العجيبة إلا أن ابتسم لطلبى، وأراد أن يذبح دجاجة من أجـــلى .

ولما كانت هذه المدينة قليلة التسلية، فقد أسعدنى أن أركب العربة العامة

وأن أنحشر بين سيدتين بدينتين من لوزان ، كانتا متوجهتين كذلك إلى برن.

ها أنا أغادر أخيراً فرنسا الصغيرة المتصوفة الحالمة ، هذه التى منحتنا أدباً كاملا وسياسة كاملة . ولسوف أقطع هذه المرة فى سويسرا بكل ما فى أسنانى من قوة . إنها بحيره نيوشاتل التى نتركها إلى يسارنا، والتى تبعث إلينا طوال الليل بانعكاساتها الفضية. إننا نصعد ونهبط، ونخترق الغابات والسهول، وقمم الألب البيضاء المسننة تلمع طوال الوقت فى الأفق . ولدى مطلع النهار انزلقنا على طريق حسن الرصف، ومررنا بأبواب عديدة، وأعجبنا بتماثيل كبيرة للدببة كانت تصادفنا فى كل مكان مثل دببة « برادواروين » فى دافرلى : إنها أسلحة برن . إننا فى برن أجمل مدن سويسرا بكل تأكيد .

ليس فى المدينة شىء مفتوح. لقد جبت شارعاً كبيرا من نصف فرسخ ، يحفه من الجانبين أروقة تحمل المنازل الضخمة . ومن بعيد كانت تتراءى لى الأبراج المربعة الكبيرة التى تحمل الساعات الشمسية الكبيرة . إنها المدينة التى لا يتعب المرء فيها فى معرفة الوقت . وفى وسط الشارع كان ثمة جدول كبير ، مغطى بألواح خشبية يجمع سلسلة من النافورات الأثرية، التى تبعد الواحدة عن الأخرى بما يقرب من مائة خطوة . ويحمى كلا منها فارس جميل منحوت ، يستعد لإطلاق حربته . أما البيوت المبنية على الطراز « الروكوكو » اللانظامى، فقد كانت مزدانة كذلك بالأسلحة والشعارات : إن برن تتميز بطابع نصف بورجوازى ونصف أرستقراطى ، وهو مع ذلك يلائمها ، كما تقول جميع التقارير . أما الشوارع الأخرى، وهى أقل اتساعاً ، فهى تتبع نفس الطراز تقريباً . وحينما هبطت إلى اليسار ألفيت نهراً تحف به الأكواخ الخشبية من جميع الجهات، كما هو الحال فى بحيرة ليمان فى جنيف . وبعضها يحمل عنوان « حمامات » ، ومع ذلك فهى ليست أكثر زينة من غيرها . ولقد ذكرنى هذا بفصل فى مذكرات « كازانوفا » ، يدعى

فيه أن الخدمة فى هذه الحمامات تتولاها غاسلات عاريات تم اختيارهن من بين أكثرفتيات الإقليم براءة . وهن لايخرجن من الماء أبداً بدافع الحياء ، إذ ليس لهن من حجاب غيره ، إلا أنهن يخطرن حولك كما لو كن من حوريات الرسام روبنس . وإنى لأشك ، رغم شهادات بعض المسافرين الأكثرحداثة ، فى أن تكون تلك العادة هى التى كانت متبعة فى برن خلال القرن الثامن عشر. ومع ذلك فإن حماماً بارداً فى هذا الموسم كفيل بتحطيم كل شعور بمثل هذه المتعة .

ولما صعدت إلى الطريق العام فكرت فى تناول طعام الإفطار، ودخلت لهذا الغرض إلى خان الوجهاء ، وهو خان أرستقراطى ـ إذا كان ثمة خانات أرستقراطية ـ مزدان كله بالشعارات والزينات التى تعلو الأبواب . ولقد أجابونى بأن الوقت لم يحن بعد ، وكان فى ذلك صدى عكسى لما حدث حين طلبت العشاء فى لوزان ؛ ولذا فقد قررت زيارة النصف الآخر من المدينة. كانت المنازل الكبيرة الثقيلة هى السائدة فى ذلك النصف كذلك ، وكذلك الطرقات حسنة الرصف والأبواب الجميلة ؛ فهى فى جملة الأمر مدينة حسنة التنظيم، كما يقول التجار. والكاتدرائية القوطية بها لا تقل جمالاعن مثيلتها فى لوزان، إلاأن ذوقها أشد تزمتاً . وإن النزهة فى الحدائق المدرجة كجميع المنزهات فى سويسرا تكشف لك عن أفق واسع فى الوديان والجبال . والنهر نفسه الذى رأيته فى الصباح ينثنى كذلك فى تلك الجهة . أما المنازل أو القصور الرائعة الواقعة بحذاء هذا الخط، فلها شرفات مدرجة تغطيها الحدائق، وتهبط ثلاثة أو أربعة طوابق، حتى تبلغ مجرى ذلك النهر الصخرى . إنه منظر جد جميل، لاتمل العين رؤيته . والآن إذا علمت أن برن تملك ملهى ومسرحا وكثيراً من أصحاب المكاتب ؛ وأنها مقر السلك السياسى ومركز الارستقراطية السويسرية ، وأن القوم بها لا يتحدثون إلا الألمانية ، وأن الغداء بها على جانب من الرداءة ، فإنك تكون قد علمت ما ينبغى معرفته ، فتتعجل طريقك إلى زيورخ .

وإنى أستمحيك عذراً ، لأنى أعبر البلاد بمثل هذه السرعة ، وأصف أماكن لها مثل هذه الأهمية هذا الوصف الردىء . إلا أن سويسرا ينبغى أن تكون معروفة لديك من قبل ، كما هى معروفة لدى لمناظرها كلها وجميع انطباعات السفر الممكنة ، حتى لا تكون بنا أدنى حاجة لتغيير طريقنا لرؤية ما بها من طرائف .

وكل ما أسعى إليه هو مشاهدة طرق البلاد والتأكد من صلابة عرباتها ، وكل ما يقال بها ويعمل ويؤكل هنا وهناك فى اللحظة الراهنة .

ولقد أيقظنا طريق زيورخ غير المستوى فى الخامسة صباحاً . ها هى إذن تلك المدينة الشهيرة التى جددت أيام (وليام تل) الجيلة حين قلبت طاقية الأستاذ ستراوس (١) الوقحة ، ها هى تلك الجبال التى كان يهبط منها جحافل الفلاحين المسلحين ، وهم يرددون أغانيهم بصوت واحد ، وها هى تلك البحيرة الجيلة التى تشبه بحيرة سيسيرى (٢) ، أما فيما عدا ذلك فإن المكان على أكبر قدر من الابتذال . وفيما عدا بعض البيوت القديمة المزدانة بالصخور والتماثيل محددة المعالم والمحاطة بأسوار وشرفات رائعة الصنع ، فإن هذه المدينة أقل من المستوى الذى يمنحه لها وضعها الطبيعى .

ومع ذلك فإن بحيرتها وجبالها تمنحها المناظر الرائعة . والطريق المؤدى الى بحيرة كونستانس يشرف لمدة طويلة على هذا المنظر الفسيح ، ويستمر طيلة اليوم وسط أجمل المتناقضات من وديان وجبال .

ولقد اتخذ المنظر فعلا طابعاً جديداً : إنه منظر جبل «السراب» الأخضر الأقل وعورة ومغامرات الغابة السوداء المتموجة ، وهذه الغابة ما زالت

---

١ — دافيد استراوس مؤلف « حيـاة المسيح » كان قد عين سنة ١٨٣٩ أستاذا فى جامعة زيورخ ، إلا أن هذا التعيين صادف معارضة حادة ، فلم يتمكن من استلام عمله .

٢ — الرسام ب . ل س سيسيرى (١٧٨٢ — ١٨٦٨)

فسيحة ، إلا أن الطرقات والمزارع تنيرها. ونعبر آخر مدينة سويسرية جهة الجنوب ، ويتألق طريقها الرئيسى باللافتات المذهبة . إنها تتميز بالطابع الألمانى كله ؛ فالمنازل مطلية والنساء جميلات والحانات غاصة بالمدخنين وشاربى البيرة . وداعاً إذن يا سويسرا وبلا أسف كبير . وبعد ساعة تغير لون عربتنا من الأزرق الى الأصفر ، وأخذ أسد زيرينجن يلمع فوق أعمدة الطريق بفمه المذهب مبيناً الخط الفاصل بين البلدين . ها نحن فى إقليم كونستانس ، وها هى بحيرته تتوهج بين الجبال .

بحيرة كونستانس

كونستانس ! إنه اسم جد جميل ! إنها أجمل مدن أوربا موقعاً ، والختم الرائع الذى يجمع شمال أوربا بجنوبها ، وغربها بشرقها ! إن خمس دول تشرب من بحيرتها التى يخرج منها نهر الرين مكتملا ، كما يخرج الرون من بحيرة ليمان .

وكونستانس هى قسطنطينية صغيرة ، تنام نوما هادئاً فى مدخل بحيرة كبيرة على شاطىء نهر الرين . ويسير الهابط إليها سيراً طويلا وسط سهول محمرة وتلال مغطاة بالكروم المباركة ، التى ما زالت تنشر حتى الآن اسم البحيرة فى العالم أجمع ؛ إن الأفق فسيح ، وهذا النهر وهذه البحيرة وهذه المدينة تتخذجميعاً ألف هيئة رائعة . إلا أننا حين نصل قرب أبوابها ، فإننا نبدأ ندرك أن الكاتدرائية أقل روعة مما كنا نظن ، وأن المنازل حديثة تماماً والشوارع ضيقة ، كما كان الأمر فى العصور الوسطى ، لم تحتفظ من تلك العصور إلا بالقذارة المبتذلة . ومع ذلك فإن جمال النساء سرعان مايعدل تلك الانطباعة . إنهن سلالة أولئك اللاتى كان منهن العشيقات الجميلات لكبار القساوسة والكرادلة بالمجمع المقدس ، وأعنى بذلك تحت تأثير السحر ، وليس لدى أدنى مبرر للتعريض بأخلاقهم .

إن مائدة فندق بروشيه رائعة الخدمة . ولقد كانت الصحبة فيها فى تلك الأمسية لطيفة وممتازة . ولقد ألفيت نفسى جالساً بجوار سيدة إنجليزية جميلة ، طلب زوجها فى أثناء تناول الحلو زجاجة من الشمبانيا ، وقد أرادت زوجته حمله على العدول عن ذلك ، قائلة إن ذلك مضر بصحته . وقد كان هذا الإنجليزى فى الواقع يبدو معتل الصحة ، إلا أنه أصر وأحضرت له الزجاجة . وما كادوا يصبون له قدحا منها ، حتى أخذت « الليدى » الجميلة

الزجاجة ، وقدمت منها لجيرانها جميعاً . وأصر الإنجليزى على طلب غيرها ، فأسرعت زوجته إلى نفس الوسيلة ، دون أن يبدو على الإنجليزى المهذب جداً أى شىء من الضيق . وفى المرة الثالثة كنا على وشك الاعتذار ، فتوسلت إلينا الإنجليزية ألا نتخلى عنها فى نواياها الطيبة . وانتهى الأمر بالمضيف أن فهم إشارتها ، ولدى الطلب الرابع أجاب بأنه لم يعد لديه شىء من نبيذ الشمبانيا ، وأن هذه الزجاجات الثلاث كانت الأخيرة . وحان وقت الانصراف ، إذ أننا لم نكن سوى شخصين على المائدة بجوار السيدة ، وإلا لعرضت إنسانيتنا عقولنا للخطر . ونهض الإنجليزى فى برود غير راض ، لأنه لم يشرب سوى ثلاثة أقداح من ثلاث زجاجات وذهب لينام . وأخبرنا المضيف أنه ذاهب الى إيطاليا عن طريق برجنز للاستجمام . وأشك فى أن نصفه الآخر الذكى سوف يتمكن دائماً من حمله على التزام الحمية بنجاح .

ولسوف تسألنى لماذا لا أتوقف يوماً ثانياً فى كونستانس ، حتى أرى الكاتدرائية وقاعة اجتماع الكرادلة والميدان الذى أحرق فيه جان هوس ، وغير ذلك من الأماكن التاريخية الطريفة التى وجد الإنجليزى الوقت الكافى لتأملها فى إعجاب . والحقيقة أننى لا أريد أن أفسد فى مخيلتى منظر مدينة كونستانس أكثر من ذلك . ولقد أخبرتك كيف أنى حينما هبطت من مغارات الجبال فى منطقة زيورخ ، وهى منطقة مغطاة بغابات كثيفة ، رأيت كونستانس من بعيد وكان الغروب رائعاً ، رأيتها وسط الحقول الشاسعة الغارقة فى الأشعة الحمراء ، وهى تحيط ببحيرتها ونهرها ، كما لو كانت استامبول الغرب . وقلت لك كذلك إن المرء كلما اقترب وجد المدينة فى حد ذاتها غير جديرة بسمعتها وبموقعها الرائع . وأعترف أننى بحثت عن هذه الكاتدرائية المائلة للزرقة ، وهذه الميادين ذات المنازل المنحوتة ، وهذه الشوارع الغريبة المشوهة ، وهذه العصور الوسطى التصويرية كلها التى منحها إياها فى شاعرية رسامو الأوبرا لدينا . حسن! إن كل ذلك لم يكن إلا حلما

واختلاقاً : ولنتخيل « بوفراز » مكان « كونستانس » ، فنجد أنفسنا فى مزيد من الواقع .

إننى الآن أخشى ألا تكون قاعة الجمع المقدس سوى مخزناً قبيحاً للغلال ، وأن تكون الكاتدرائية هزيلة فى مظهرها الداخلى ، كما هو الحال فى مظهرها الخارجى ، وألا يكون جون هوس قد أحرق إلا على فرن من أفران الريف . لنسارع إذن بمغادرة كونستانس قبل أن يطلع النهار ، ولنحتفظ لأنفسنا على الأقل ببعض الشك حول كل هذا آملين أن يقول لنا بعض المسافرين ممن هم أقل تزمتاً منا فيما بعد :

« ولكنكم مررتم مروراً سريعاً جداً ! إنكم لم تروا شيئاً » .

وجدير بالذكر أنه مما يحز فى النفس أن نفقد ، ونحن نواصل السير ، هـــذا العالم الجميل الذى خلقناه لأنفسنا فى شبابنا بالقراءات واللوحات والأحلام مدينة مدينة وبلداً بلداً . إن العالم الذى يتكون هكذا فى رؤوس الأطفال يكون غنياً جداً وجميلا جداً ، حتى أن المرء لا يعرف ما إذا كان نتيجة مبالغاً فيها لأفكار تعلمناها ، أو إذا كان استعادة لذكرى حياة سابقة وجغرافيا سحرية لكوكب مجهول . ومهما تكن روعة بعض المشاهد والأقاليم ، فليس ثمة ما يدهش المخيلة دهشة كلية ، ويقدم لها شيئاً مذهلا لا يتصوره العقل . واستثنى من ذلك السياح الإنجليز الذين يبدو أنهم لم يروا ولم يتخيلوا أى شىء على الإطلاق .

ولقد أيقظ مضيف فندق بروشيه فى أمانة وإخلاص جميع المسافرين ، الذين سوف يسافرون إلى البحيرة فى منتصف الليل . وتوقفت الأمطار إلا أن الريح كانت شديدة . وسرنا الى الميناء فى ضوء المصابيح . وأخذت الباخرة ترسل دخانها ، وقادونا إلى الممرات تحت الأرضية حيث استأنفنا نومنا على الأرائك الخشبية . وبعد ساعتين دخل إلى القاعة نور مائل للشهبة

وكانت مياه البحيرة سوداء مضطربة . كانت المياه تقطع الأفق إلى يسارنا، وإلى اليمين لم يكن الشاطىء إلا كخط من الأهداب .

ها نحن قد أسلمنا إلى متع الجماعة التى لم تكن تتكون من عدد كبير . كان قبطان السفينة،وهو شاب لطيف يتحدث فى لباقة إلى سيدتين ألمانيتين قدمتا من نفس الفندق الذى كنت أنزل فيه . ولما كان بالصدفة جالساً بالقرب من أصغرهما سناً، فلم يكن أمامى إلا التحدث إلا أكبرهما التى كانت تتناول القهوة إلى يسارى . وبدأت ببعض جمل بألمانية حسنة الصياغة نوعاً ما حول قسوة انخفاض الحرارة وتقلب الجو .

وقالت لى السيدة الألمانية : هل تتكلم الفرنسيه ؟ فقلت لها بشىء من الخجل «نعم أجل ياسيدتى بكل تأكيد ، إننى أتكلم كذلك الفرنسية» ومنذئذ صار حديثنا أكثر سهولة .

ينبغى القول بأن النبرة الألمانية والنطق شديد التباين فى البلاد المختلفة يقدمان صعوبات كبيرة للفرنسيين الذين لم يتعلموا اللغة إلا فى الكتب ؛ ففى النمسا تصبح الألمانية لهجة مختلفة تماماً ، تختلف عن الألمانية ، كما تختلف البروفانسية عن الفرنسية . ومما يسهم فى تأخر ثقافة المسافر فى هذا الصدد هو أن الناس فى كل مكان يتحدثون إليه بلغته ، وهو يستسلم بلا إرادة إلى هذه السهولة التى تجعل حديثه أكثر فائدة للآخرين منه بالنسبة لنفسه .

ولما زادت حدة العاصفة ظن القبطان أنه يجب أن يتخذ طابعاً يتسم بالقلق والحزم فى وقت واحد، فأخذ يصدر أوامره حتى يبعث المطأنينة فى نفوس السيدات . ولقد جرنا هذا بطبيعة الحال إلى الحديث عن قصص البحر، وكانت صغرى السيدتين تبدو متعمقة جداً فى هذا النوع من الأدب، سواء منه ما كان إنجليزيا أو فرنسيا ؛ إذ أن الأدب الألمانى لا يحرى قصصا بحرية . ولم تلبث أن جرنا الحديث إلى سكريب وبول دى كرك . ويجب

أن تعترف أنه بفضل نجاح هذين السيدين فى أوربا فإن الأجانب قدكونوا لأنفسهم فكرة غريبة عن المجتمع الباريسى والمحادثة الباريسية .

ولقد كانت السيدة المسنة تحسن الحديث لدرجة كبيرة : فقد رأت الفرنسيين فى شبابها كما كانت تقول فى مرح . إلا أن أصغرهما سناً كانت تحب التحدث باللهجة الحديثة مما كان يجرها أحياناً إلى استعمال الكلمات الجديدة استعمالا غريباً .

فكانت تقول لى : « تتصور ياسيدى أن « باسو » التى نعيش فيها ليست متخلفة عن أى شيء آخر : فلدينا مجتمع «مجدول» على أكبر قدر فى بافاريا . إن ميونخ الآن مدينة تبعث الملل لدرجة أن أبناء الطبقة الراقية يأتون إلى « باسو » حيث تقام سهرات على درجة مدهشة من الأناقة » .

إيه ياسيد بول دى كوك ! أهذه هى الفرنسية التى تلقنها لجيراننا ! ولكن ربما وقع من يتقنون الألمانية منا فى هذه الأخطاء الاصطلاحية نفسها ! ولحسن الحظ لم أبلغ أنا هذه الدرجة بعد .

لقد كان الملك داجوبير يقول لكلابه ، وهو يقذف بها من النافذة : إن كل صحبة طيبة لابد أن تنتهى بالفراق ! . وليت هذا المثل الذى أسوقه حرفيا يشكل بالنسبة لمرحلة انتقال بين رحيل الكثير من المسافرين الذين غادروا سانت جال واللوحة التى سأحاول رسمها للتسلية التى أسلم لها البحارة أنفسهم على ظهر السفينة فى انتظار أن تستأنف الباخرة سيرها إلى مورسبرج . إن فكرة اللوحة مبتذلة إلا أنها على درجة من البهجة ، وجديرة بأن تستخدم فى أدب البحار ، لقد كان ثمة ثلاثة كلاب على ظهر الباخرة كان أحدها غير حذر إذا اشتد اقترابه من المطبخ لدرجة أن أحد الصبيان عن له أن يغمس ذيله الجميل ذا الشعر الكثيف فى الصلصة . ثم استأنف الكلب نزهته ، واندفع أحد الكلبين الآخرين فى إثره وعض

ذيله بقوة . ولما رأى الثالث تلك النتيجة المضحكة اندفع يفعل الفعلة نفسها بالكلب الثانى ، كما فعلها الأول بكليه الثالث ، وهكذا أخذت الحيوانات التعسة تدور فى دائرة دون أن تفلت بعضها البعض ، وقد اشتدت الرغبة بكل منها لأن يعض زميله كما كان هائجا لأن زميله يعضه . تلك قصة جميلة من قصص الكلاب ! كما قد يقول السيد دى برانتوم . . . ولكن ماذا يمكن أن يقال أفضل من ذلك عن رحلة على بحيرة كونستانس فى وقت عاصف ؟ لقد كانت المياه سوداء كالمداد، كما كانت الشواطىء عارية فى كل مكان ، ولم تكن القرى التى نمر بها تتميز إلا بأبيات أجراسها المبنية على شكل البصلة تزينها قشور من الصفيح ، وتحمل فى أعلى نقطة بها كرات من النحاس المجدول .

وكان من أمتع ما فى الرحلة أننا كنا نتعرف فى كل ميناء نتوقف فيه على أمة جديدة . لقد كانت دوقيه باد وورتمبرج وبافاريا وسويسرا تقوم من بعيد، كما لوكانت قوى بحرية .. .. من الماء العذب . ولقد كان أسطولها يحارب بصفة خاصة الجرائد الفرنسية والسويسرية الرديئة التى كانت تطيرفوق البحيرة تحت راية الحياد . ولقد كانت أحداها تسمى فعلا : « أوراق البحيرة » وهى جريدة ألمانية تقدمية كانت كما أعتقد لا تهرب من مختلف أنواع الرقابة إلا بطبعها فوق الماء وتوزيع اشتراكاتها من قارب لآخر دون أن ترسو على البر أبداً .

يا للحرية فوق البحار! كما قال بايرون . ولما حاذينا إلى اليسارشواطىء مدينة باد لمحنا أخيراً الأراضى الضحلة ذات الضباب فى مملكة ورتمبرج . ولقد أعلنت إلينا تلك الغابة من المدخنات التى تتقاطع مع الأبراج المدببة وأبيات الأجراس أننا سوف نلتقى قريبا بالمرفأ الوحيد لبافاريا . إنه مرفأ لندو ، وتملك النمسا فيما وراءه ميناء برجنز .

ولم نتعرض لأى حجر صحى، إلا أن رجال الجرك القساة أمروا بنقل

حقائبنا فى مخزن فسيح . ولقد سمحوا لنا انتظار الساعة الزيادة بالذهاب لتناول الغداء . لقد كان الوقت ظهراً ، وهى الساعة التى يتناول الجيع فيها غداءهم فى ألمانيا . وتوجهت إذن الى أحسن الحانات مظهراً ، وكانت لافتتها الذهبية تتألق وسط باقة من أغصان الصنوبر المقطوعة حديثا . لقد كان البيت كله فى عيد ، وقد ارتدى المدعون العديدون ملابس الحفلات . وقد شاهدت فى النوافذ المفتوحة فتيات جميلات ذوات تسريحات براقة وضفائر ذهبية طويلة ، وكن يدعون غيرهن من القادمات من الكنيسة أو الأسواق. كان الرجال يغنون ويشربون ، وكان بعض سكان الجبال يترنمون بأناشيدهم الشاكية .

كانت الموسيقى تسيطر على كل هذه الضوضاء ، وكانت القطعان تثغى فى الغناء . ذلك أنى وصلت فى يوم السوق . وسألنى المضيف عما إذا كنت أرغب فى أن يقدم إلى طعامى فى غرفتى .

فقلت : « من تظننى أيها البافارى المبجل ؟» إننى لا أجلس أبداً إلا إلى مائدة الفندق العامة ! وأية مائدة هى ! لقد كانت تدور حول القاعة الشاسعة . إن هؤلاء القوم الطيبين يدخنون فى أثناء الطعام ، والنساء يرقصن الفالس كذلك (وهن يتناولن الطعام) بين الموائد . بل ويوجد كذلك بعض البهلوانات من البوهيميين الذين كانوا يدورون حول القاعة ، وهم يشكلون أهرامات بشرية ، حتى أن المرء ليجازف فى كل لحظة بأن يرى وسادة تسقط فى صحنه .

كانت ثمة حركة ونشاط ومرح شعبى . لقد كانت الفتيات جميلات والفلاحون أنيق الملابس . وليس فى ذلك أدنى شبه بحفلاتنا العريدة التعسة . لقد كان النبيذ والبيرة المزدوجة يتخاطفان شرف بعث كل هذا القدر من المرح الطائش ، كما كانت الصحون الموميروسيه تختفى فى لمح البصر .

لقد دخلت إذن إلى ألمانيا فى هذه الصحبة الضاحكة . ولما انتهى الطعام أخذت أجوب المدينة التى ازدانت شوارعها وميادينها كلها بواجهات وحوانيت يوم السوق ، وأخذت أعجب فى كل مكان بالفتيات الجميلات القادمات من البلاد المجاورة، وقد ارتدين ملابس الملكات بطاقياتهن المصنوعة من الجوخ الذهبي وصديرياتهن البراقة .

والأمر يتعلق الآن باختيار عربة نتوجه بها إلى ميونخ . إلا أنه لم يكن لى حق الاختيار بتاتاً : لم تكن أمامى الا عربة البريد فى كل مكان . لم تكن ثمة عربات خاصة فى أى مكان فى تلك الجهة ، ولا أية منافسات قد تؤدى إلى أن يخشى المرء نتيجة التطاحن ، لقد كانت الخيول تستعمل الطرق فى احتراس ، وكان رجال المحطات يعاملون الخيول فى احتراس وسائقو العربات يستعملون العربات فى احتراس، فقد كان كل شىء ينتمى إلى الدولة .

ليس ثمة من يشعر بالعجلة للوصول إلى هدفه ، إلا أن الجميع كانوا يصلون فى النهاية . إن نهر الحياة يسير بطء فى هذه الجهات ، ويتخذ هيئة جليلة « لماذا نأتى بكل هذا الضجيج ؟ » .

كما كانت تقول تلك المرأة العجوز فى مذكرات فرتر . ومع ذلك فقد انتهى بى الأمر إلى الوصول إلى ميونخ عن طريق أبسبرج الحديدى .

٥ — يوم في ميونخ

في عهد كان الناس قلما يسافرون فيه بسبب قلة السفن التجارية والطرق الحديدية ، بل وحتى الطرق العادية — نشأ كتاب مثل راسوس ولوبير وسيرانو دي برجواك الذين نشروا فكرة الأسفار التي يقال عنها أسطورة.

كان هؤلاء السياح المجازفون يصفون القمر والشمس والكواكب، ويستخدمون في اكتشافاتهم أسماء لوسيان ومرلان كوكيه ورابليه : وأذكر أنني قرأت لدى أحد هؤلاء الكتاب وصف نجم كان غاصاً بالشعراء ، وكانت العملة في هذا البلد من الشعر المضروب ضرباً جيداً ، كانوا يتغدون بقصيدة حب ويتعشون بمقطوعة شعرية .

أما هؤلاء الذين يملكون في حوافظهم ملحمة شعرية، فكان في استطاعتهم امتلاك ضيعة كبيرة .

وثمة بلد آخر من هذا النوع لم يكن يسكنه سوى الرسامين ، وكانوا يحكون كل شيء حسب رغبتهم . وكانت المعارك المنتظمة تنشب أحياناً بين المدارس المختلفة . وأكثر من ذلك أن جميع الشخوص التي يرسمها كبار الفنانين في الأرض كانت لهم هناك حياة مادية ، فكان من المستطاع التحدث إلى جوديث دي كاراڤاج والساحر الذي رسمه ألبير دورير ومارلين التي رسمها روبنس .

وحينما يدخل المرء مدينة ميونخ، فإنه يخيل إليه أنه قد انتقل فجأة الى هذا الكوكب العجيب. وقد كان في استطاعة الملك الشاعر الذي زينها أن يحقق الحلم الآخر ويغني زملاءه إلى ما لا نهاية بتماثيل أبولو . إلا أنه لم يكن يحب إلا الرسامين الذين كان لهم وحدهم امتياز ضرب النقود على لوحات ألوانهم :

إن الرسام الخائب كان يجد النجاح فى تلك العاصمة التى يعتبرها أثينا الحديثة ... إلا أن الشاعر يشيح عنها بوجهه ، ويصب عليها فى حديثه لعنة مينرفا، إذ ليس فيها أى شىء يصلح له .

فإذا هبطنا من العربة ، وخرجنا من مبنى دار البريد الملكى الكبيرة ، فإنا نجد أنفسنا أمام القصر فى أجمل ميادين المدينة . وينبغى هنا أن يخرج المرء نظارته المكبرة وكتيبه ؛ إذ أن المتحف قد بدأ فعلا ، واللوحات تغطى الجدران ، وكل شىء يتألق وينبض فى الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس الساطعة .

إن «القصر الجديد» قد شيد مطابقاً لطراز قصر بيتى فى فلورنسا تماماً ، والمسرح مطابقاً لمسرح الأوديون فى روما ، ودار البريد مطابقة لقصر كلاسيكى آخر ، وكلها مطلية من أعلى إلى أسفل باللون الأحمر والأخضر والسماوى . إن هذا الميدان يشبه تلك الزينات المعجزة التى تجازف بها المسارح أحياناً . وهناك أثر صلب من النحاس الأحمر أقيم فى وسط الميدان ويمثل الملك ماكسيدليان الأول ، وهو وحده يناقض هذه الفكرة الوهمية . أما دار البريد، وهى مطلية بلون أحمر فى لون دم الثور يسمى بالأحمر العتيق وتتميز عنه أعمدة صفراء اللون ، فقد ازدانت ببعض اللوحات الكبيرة على طراز يومبيا ، تمثل موضوعات خاصة بالفروسية . أما مسرح الأوديون فيعرض على واجهته لوحة هائلة تسيطر عليها الألوان الزرقاء والوردية ، وتذكرنا بلوحاتنا منذ خمسة عشر عاماً . أما قصر الملك فقد طلى بلون واحد هو اللون الأخضر الهادىء الجيل . ويحتل الجانب الرابع للقصر منازل ذات ألوان مختلفة . وإذا سرنا فى الطريق الذى تدل عليه تلك المنازل ، والذى يتسع بعد ذلك ، فإننا نسير بحذاء واجهة ثانية من واجهات القصر ، أقدم وأجمل من الأخرى ، حيث نجد التماثيل والغنائم النحاسية ، التى تتميز بذوق متكلف ، ولكنه ضخم ، تزين بابين من أبوابها .

وبعد ذلك يستمر الطريق فى الاتساع ، وتلوح أبراج الأجراس

والأبراج الرشيقة من بعيد . وإلى اليسار يمتد إلى مدى البصر صف من القصور الحديثة كفيلة بإرضاء معجبي شارع ريفولى فى باريس . وإلى اليمين نجد مبنى فسيحاً ملحقاً بالقصر ، وقد ازدان من ناحية الشارع بالحوانيت المتألقة ، ويشكل رواقاً من ناحية الحدائق التى يحيط بها إحاطة تامه تقريباً . إن كل هذا يدعى الشبه بأروقة القصر الملكى لدينا . فالمقاهى وبائعات المستحدثات وتجار الجوهرات وأصحاب المكاتب كلهم على غرار باريسى . إلا أن صفاً طويلا من اللوحات الكبيرة التى تمثل أوجه البطولة فى بافاريا — وقد اختلطت بمناظر إيطالية — يشهدمن رواق إلى آخر بولع الملك السابق لهذا البلد بالرسم ، أى نوع من الرسم على ما يبدو . ويعترف الكتيب المرشد بأن هذه اللوحات الكبيرة من صنع تلامذة صغار . إن فى ذلك اقتصادا لقماش اللوحات ؛ إذ أن الجدران تتحمل كل شىء .

أما الحديقة الملكية التى تحيط بها هذه الأروقة الثقافية ، فقد زرعت فى صفوف متبادلة على مساحة بسيطة ، وتعرض واجهة القصر التى تطل على هذه الناحية ، التى مازال العمال يعملون بها ، صفاً من الأعمدة على قدر من الأهمية . وإذا درنا حول القصر عن طريق الحديقة نلتق بواجهة أخرى تتكون من مبان غير منتظمة ؛ منها كنيسة البازيليك ، وهى أنجح الآثار الحديثة فى ميونخ .

إن هذه الكنيسة الجيلة ، رغم صغر حجمها الشديد تعتبر جوهرة حقيقية . فهى قد أنشئت طبقاً لنموذج بيزنطى ، وتتألق من الداخل باللوحات ذات القواعد الذهبية ، وقد رسمت على نفس هذا الطراز .

إنها مجموعة عجيبة رائعة من جميع النواحى . فما ليس ذهباً أو رسوما فيها يكون من الرخام أو الخشب الثمين . والزائر وحده هو الذى يعتبر بقعة غريبة فى هذا الوسط الداخلى الرائع الذى يذكرنا بمكتبة آل دى مديتشى فى فلورنسا فى صورة أصغر .

وإذا خرجنا من كنيسة البازيليك ، فلا يكون أمامنا إلا بضع خطوات نسيرها لنلتقى بالمسرح من جديد ؛ إذ أننا قد درنا دورة حول القصر الذى ترتبط به كل هذه المبانى كملحقات مباشرة . ولماذا لا ندخل إلى هذا المسكن الفسيح ؟ إن الملك سوف يتناول طعامه فى تلك الساعة بالضبط ، وهى الساعة التى يسمح للزوار فيها بزيارة القاعات التى لا يوجد بها الملك طبعاً .

ولقد استقبلنا فى أول الأمر فى قاعة الحرس المزدانة كلها بالحراب ، والتى لا يحرسها مع ذلك إلا موظفان ومثلهما من الحراس . لقد طليت هذه القاعة باللون الرمادى الذى يمثل رسوماً بارزة وأعمدة وتماثيل لا وجود لها طبقاً للوسائل الاقتصادية المدهشة التى ابتكرها السيد قابيل دى بوجول . وعلى أحد مقاعد الانتظار أخذنا نتبع الضابط ورجال القصر فى روحاتهم وغدواتهم . إنهم حقا رجال القصر ، كما نراهم فى المسرحيات الكوميدية ، على الأقل من ناحيـــة المظهر الخارجى . وحينما أرانا السيد سكريب فى الأوبرا — الهزلية البلاطات الألمانية من الداخـل كانت ملابس الممثلين الثانويين وإلقائهم أدق مما تتصور . فهذه سيدة من سيدات القصر تمر وقد ارتدت فوق رأسها عصفوراً من عصافير الجنة وباقة منفوشة وثوباً ذا ذيل وماسات صفراء ، مما ذكرنى تماماً بالسيدة بولا نجيه .

وكان ثمة أمناء مثقلون بالشرائط والنياشين يبدو أنهم على استعداد لكى يسمعوا الناس بعض قطع أو بير(١) الموسيقية .

وأخيراً مر طعام الملك يحف به اثنان من الحرس . وهنا استطعنا الدخول إلى القاعات الأخرى . ومن أهم ما ينبغى ملاحظته القاعة المزدانة بلوحات كبيرة للرسام شنرر على رسوم لكورنيليوس اقتبست موضوعاتها من ملحمة «نيلونجن» الجرمانية الكبرى . وقد صممت هذه الرسوم الرائعة

---

(١) موسيقى فرنسى

بطريقة ثقيلة صارخة ، بحيث يصعب على العين ملاحظة ما بها من انسجام . ثم إن الأسقف المثقلة بوجوه العمالقة الحانقين الثائرين تكاد تقصم ظهر قاعاتهم الهزيلة ذات الزينات المتواضعة . ويبدو فى كل مكان فى ميونخ أن الرسم لا يكلف كثيراً ، إلا أن الرخام والحجر والذهب تستعمل استعمالا يتسم بمزيد من الحرص . وهكذا نرى أن هذا القصر الرائع مبنى من القرميد الذى يضفى عليه الجير والدهانات مظهر الحجر الصلد المنحوت فى صلابة ؛ وهذه الجدران الزاهية والأعمدة المرمرية والمصنوعة من رخام مدينة سينا الإيطالية ، اقترب منها واخبط عليها بإصبعك ، وستجد أنها مصنوعة من الرخام الزائف . أما عن الأثاث فذوقه هو أكثر الأذواق التى عرفتها اقتراباً من طراز الإمبراطورية ، فالمرايا نادرة ، والثريات والشمعدانات تبدو وكأنها ضمن أثاث أحد المنتديات أو ملاهى الريف . أما الثروة الحقيقية فتكمن فى الأسقف .

ولما انتهى الملك من تناول طعامه ، استطعنا أن نبدأ نحن فى تناول طعامنا . ولا يوجد فى المدينة إلا صاحب مطعم واحد ، وهو فرنسى ، ولولاه لكان علينا أن نعرف مواعيد الطعام فى الفنادق . الطهو لا بأس به فى ميونخ ، واللحم لذيذ الطعم . وتلك ملاحظة أهم مما تتصور فى بلد أجنبى . وقد لا تعرف بقدر كاف أن أوربا محرومة من « البفتيك » و « الكستليتة » المقبولة ، وأن لحم العجل يسود فى بعض المناطق بدرجة متشابهة ، تبعث الضجر .

أما المقهيان القائمان فى الرواق الملكى ، فهما ليسا على درجة كبيرة من الامتياز . ولا يجد المرء بهما شيئا من الجرائد الفرنسية . إلا أن ثمة قاعة فسيحة للمطالعة وشيئاً مايشبه الملهى يطلقون عليه اسم « المتحف » يحتويان على معظم الجرائد الفرنسية التى تدعها الرقابة تمر فى حرية . صحيح أن بعض الأعداد تنقص من حين لآخر ، ويقرأ المشتركون بدلا منها هذا الإعلان :

إن الجريدة صودرت فى باريس فى البريد وفى المكاتب . وتتكرر هذه العملية بشكل متواز لدرجة تحملنى على الشك فى أن نيابة ميونخ تسعى إلى التشهير بنيابة باريس . وقد نتج عن هذه الحجة أن أهل ميونخ الشجعان أصبح يساورهم الشك الدائم فى استقرار الأمور فى عاصمتنا ؛ ذلك أن عاصمتهم هادئة ومبهجة ومفتوحة لدرجة تجعلهم لا يفهمون أبسط الاضطرابات التى تسود حياتنا السياسية والمدنية ، والسكان لايحدثون أية ضجة ، وتسير العربات بلا صوت على الطريق المترب غير المرصوف . ويعرف الفرنسى فى كل مكان بأنه يلقى الشعر أو يدندن الأنغام وهو سائر . وفى المقهى يتحدث بصوت مرتفع ، وينسى فى المسرح أن يخلع غطاء رأسه . وهو لاينى يتحرك حتى وهو نائم ، ولذا فإن السرير الألمانى لا يتحمله أكثر من عشر دقائق . تصور أن البطاطين فى حجم المناشف ، والغطاء لا يمكن حبس أطرافه داخل المراتب ، واللحاف كتلة ترسخ فى توازن على النائم. حسن ! إن الألمانى ينام وهو يحمل كل هذا حتى اليوم التالى . وفوق ذلك فلما كانوا على علم بما يتسم به من عقل وحكمة ، فهم يقدمون له أجمل الوسائد ، وهى مطرزة الأطراف ومكسوة « بالدنتلا » فوق قاعدة من الحرير الأحمر أو الأخضر . وإن أفقر أسرة الحانات يتألق بهذا الترف البرىء .

إنى لأشعر جيداً بأنك على عجلة من أمرك للتعرف بمتاحف الجليبتوتيك والبينا كوتيك . إلا أن هذه المتاحف تبعد عن وسط المدينة بعداً شديداً ، ويعوزنا الوقت للوصول إليها . وقد اهتم الملك لويس ، تحدوه فكرة تكبير عاصمته إلى مالا نهاية ، بتشييد آثاره الرئيسية ، بحيث تفصل أحدها عن الآخر مسافة كبيرة ، أو على الأقل تلك التى يأملون فى أن تتجمع حولها المنازل فى المستقبل . ولقد كانت مدينة ميونخ كما شيدتها الطبيعة مدينة صغيرة جداً ، فى حجم أوجسبورج على الأكثر . وقد شيدمنها الملك الشاعر المنشئات والأبنية الرائعة . وكم كان يود — كما فعل أمفيرن — أن ينقل الحجارة إلى هذا العمل الكبير ، إلا أنه لم تكن ثمة حجارة فى

البلد كله . ذلك هو سوء الحظ الذى منيت به هذه العاصمة المرتجلة لمملكة مازالت فى مقتبل العمر . ومن هنا كثر استعمال القرميد المطلى والرخام الزائف والحجارة المصنوعة من الورق المقوى ، ومن هنا كانت الشوارع المليئة بالرمل أو بالأتربة حسب الموسم. والحجر الرملى غير متوفر ، وتتردد البلدية بين مشاريع مختلفة قدمتها إليها شركات الحمرة ، ومازالت ميونخ ، كما هو الحال فى الجحيم ، غير مرصوفة إلا بالنوايا الطيبة .

وبعد كثير من الميادين لا يكاد المرء يلاحظها ، وكثير من الشوارع التى تكاد تكون غير مخطوطة والتى يعطون الأراضى فيها بالمجان ، كما هو الحال فى صحارى أمريكا ، لمن يريد أن يبنى فوقها — نصل إلى الجليبتوتيك أى إلى متحف التماثيل . إن الإنسان ليبدو يونانياً فى ميونخ ، حتى ليقولون : إن المرء يجب أن يكون بافارياً فى أثينـا . هذا على الأقل ما اشتكى منه اليونانيون الحقيقيون . والمبنى من القدم فى أبعاده ، بحيث لا يمكن إلا للأبطال تسلق الدرجات المؤدية إلى المدخل . وثمة سلم صغير فى أحد الأركان يغطى هذا العيب الذى أحرص على عدم تسميته باسم الإنشاء . ففى الداخل ترى القاعات فسيحة ، وقد صممت على أساس ارتفاع الأثر كله . وهى مطلية كلها بهذه الصبغة الحمراء القانية ، حتى أن الـكتيبات المرشدة استمرت تتضمن اللون الأحمر العتيق الحقيق . أما الزينات التى صممت فيه ، فقد كانت دائماً على طراز بومبيا هذا الذى أتخمتنا به مقاهينا وممراتنا وزينات الملعب .

ويضم « الجليبتوتيك » مجموعة ثمينـة جداً من النوادر العتيقة . وتحف المثال كانوفا ، يوجد من بينها تمثال «التى ترتعد من البرد» وفينوس - بورجيز ، تمثال نصفى لنابليون ، وآخر للأمير أوجين . وتقتسم بعض تماثيل المثال الضارب الشهرة ثورو الديش مع تماثيل كانوفا شرف العرض فى قاعة خاصة ، حيث نجد أسماءهما ملاصقة لأسماء فيدياس وميكل أنجلو . وربما كانوا فى ميونخ يجهلون أسماء الفرنسيين : بوجيه وجان جوجون .

أما « البينا كوتيك » أى متحف الرسم ، فيقع على مسافة قريبة من «الجليبتوتيك» . وهو من الخارج أكثر جلالا ، رغم أن طرازه الإغريقى أقل نقاء . وقد بنى كلا المبنيين مهندس يدعى ليون دى جلنز .

وليس أمامى هنا سوى أن أوجه المدح : فالقاعات كبيرة ولا يزينها إلا رسوم لأساتذة قدامى . وثمة رواق خارجى ، لم يفتح بعد للجمهور ، وهو مع ذلك مزدان برسوم وزخارف رشيقة ، وقد صممت الزينات العتيقة فيه على الطريقة الإيطالية ، ولكن بمزيد من الفخامة والخفة . ويطول بنا المقام لو أخذنا فى سرد جميع التحف التى يحويها البينا كوتيك . ويكفى أن نقول إن الرواق الرئيسى يضم ستين لوحة لروبنس اختيرت من بين أكبر اللوحات القماشية . وهنا توجد لوحة « المحاكمة الأخيرة » لهذا الأستاذ الذى اضطروا من أجله إلى تعلية السقف بمقدار عشرة أقدام . وهنا كذلك نجد النسخة الأصلية للوحة « معركة الأمازون » .

وبعد أن نجوب القاعات الكبيرة المخصصة للوحات الكبيرة ، نعود عن طريق سلسلة من القاعات الصغيرة المقسمة حسب المدارس الفنية ، وحيث تعرض اللوحات الصغيرة . ولقد أدت هذه الطريقة الذكية فى الترتيب إلى اللوحات خدمات كبيرة من ناحية التأثير .

ما الذى تبقى لنراه فى المدينة ؟ لقد سئمنا تلك المبانى حديثة الطراز ذات الطراز الإغريقى الشديد التى تزينها الرسوم العتيقة حديثة الصنع . لقد بقى أمام كل إنجليزى أن يبدى إعجابه بوزارات ست منها ما هو بأعمدة ، ومنها ما هو بدونها ، ودار تثقيف لفتيات الأسر الكريمة ، والمكتبة ، وكثير من الملاجىء أو الثكنات ، وكنيسة رومانية وأخرى بيزنطية وثالثة على طراز عصر النهضة ورابعة قوطية . وتقع هذه الأخيرة فى الضواحى ، ونرى من بعيد سهمها المدبب . وربما أخذت على أننى قصرت فى زيارة

كنيسة قوطية من عهدنا . إنى إذن أخرج من المدينة تحت قوس نصر على الطراز الإيطالى للقرن الرابع عشر ، تزينه لوحة عريضة تمثل المعارك البافارية . وعلى مسافة ربع فرسخ أصادف الكنيسة ، وقد بنيت هى الأخرى كجميع الاثار بالقرميد المطلى بالجير.

وهذه الكنيسة صغيرة الحجم ، ولم ينته العمل بها تماماً فى الداخل .

وما زالوا يعرضون بها طائفة من التماثيل الصغيرة للقديسين من الجير المطلى . وتسود بها الزينـــات المصنوعة من الورق المقوى المضغوط : وتلك مصيبة كبيرة .

أما اللوحات الزجاجية ، فهى أفضل من الطراز القوطى ؛ فلقد توصلوا بفضل الوسائل الحـــديثة والاكتشافات الكيميائية إلى الحصول على موضوعات كبيرة تنفذ على قطعة واحدة من الزجاج بدلا من استخدام قطع زجاجية صغيرة مغلفة بالرصاص . ويتم تركيب القطع الزجاجية بواسطة القطران الملون . أما المنحوتات الخشبية فتؤدى بنجاح تام بواسطة العجائن الملونة ، والشعلات والصلبان مصنوعة من المعـدن الإنجليزى ، وتنظفه كما تنظف الفضة . ولقد استطعت الصعود إلى السهم الذى ذكرنى بسهم كاتدرائية روان الذى أعاد السيد ألافوان صنعه .

ولنعد إلى ميونخ . إن السهم المصنوع من الحديد الأجوف يعتبر تضحية للتقدم ، ولست أريد المبالغة فى توجيه اللوم إلى ذلك . وفى مقابل ذلك فهى ما تزال تملك البرجين الجميلين لكاتدرائيتها ، وهى الأثر الوحيد القديم الذى تملكه ، والذى يشاهده المرء على بعد ستة فراسخ . وفى الوقت الذى شيد فيه هذا المبنى الجليل كانوا يقضون قروناً بطولها فى تكملة أعمال كهذه . لقد كانوا يصنعونها من الحجر الصلد أو من الرخام أو الجرانيت . ولذلك فلم

يكونوا يرتجلون فى عشر سنوات عاصمة تبدو كزينات دار الأوبرا توشك أن تتلف انطلاق صفارة من يتولى تسيير الآلات.

وفوق ذلك فقد فهمت أن دوقية بافاريا القديمة ، التى تحولت إلى مملكة بفضل نابليون ، قد اهتمت بأن تجعل من مدينة صغيرة قديمة رديئة البناء ، لا يوجد بها حتى ما يكفى من الحجارة لبنائها ، أن تجعل منها عاصمة لها . إلا أن نابليون نفسه لم يكن يستطيع أن يجعل عدد السكان يتناسب مع التوسع المفرط للمدينة ، وما كان يستطيع أن يفعل سوى استجلاب أسر تموت فيها من الملل ، شأنها فى ذلك شأن سحالف حديقة الحيوان .

وما كان بمستطيع أن يحول الجدول الصغير الذى ينساب فى ميونخ إلى نهر ، ذلك الجدول الذى يعدونه — غنياً بالخزانات والمنشئات الخشبية والسدود ، حتى يكون لهم الحق يوماً فى أن يبنوا عليه قنطرة على الطراز الرومانى . يا للأسف يا مولاى ملك بافاريا ! إن فى ذلك لسلوى كبيرة لنا معشر الفقراء . إنك ملك وأمير مطلق ورئيس مملكة ذات ولايات ، لا تريد أن يخلط بينها وبين الممالك الدستورية . ولكنك لا تستطيع أن تأتى بالمياه إلى نهرك ولا بالحجارة إلى الأرض التى تبنى فوقها ! .

إننى راحل إلى فينا ، ومنها أتعشم الذهاب إلى القسطنطينية ، بأن أهبط مجرى الدانوب . لقد رأيت سالزبرج حيث ولد موزار الذى يعرضون حجرته لدى أحد بائعى الشوكولاتة . إن المدينة تشبه الصخرة المنحوتة ، وتشرف قلعتها الكبيرة على مناظر رائعة . إلا أن فينا تدعونى ، وأتعشم أن تكون بالنسبة لى فاتحة شهية قبل بلوغى الشرق .

٦ — غراميات ڤيينا

لقد طلبت منى وعداً بأن أرسل إليك بين حين وآخر انطباعاتى العاطفية عن سفرى ، وقلت إنها تهمك أكثر مما يهمك أى وصف تصويرى وهأنذا أبدأ بذلك ، وعسى أن يهب ستيرن وكازانوفا لمساعدتى فى تسليتك. وليست لى سوى رغبة واحدة هى أن أنصحك بإعادة قراءتها ، مع الاعتراف لك بأن صديقك لا يملك لا أسلوب الأول ولا الفضائل الكثيرة التى يتميز بها الثانى ، وأنه إذ يقلدهما تقليداً كاريكاتورياً فهو إنما يعرض ما تكنه له من تقدير لخطر جم . ولكن مادام الأمر يتعلق بصفة خاصة بخدمتك عن طريق الملاحظات التى تستطيع فلسفتك أن تنهل منها الحكم ، فقد رأيت أن أبعث إليك حيثما اتفق بكل مايحدث لى سواء أكان هاماً أم لا ، يوماً يوم على قدر المستطاع ، على طريقة الكابتن كوك الذى يكتب أنه قد رأى فى يوم كذا سفينة صغيرة أو طيراً من طيور البنجوان ، ولم ير فى يوم آخر سوى جذع شجرة يطفو ، وأن البحر كان صافياً هنا وعكراً هناك . إلا أنه كان يحلم خلال هذه اللمحات عديمة الجدوى ، والأمواج المتغيرة بالجزر المجهولة ذات العبير ، وانتهى به الأمر ذات مساء إلى أن رسا على تلك الجزر التى تعتبر خلوة الحب الصافى والجمال الخالد .

اليوم الحادى والعشرون — لقد كنت خارجاً من مسرح ليوبولدستار . وينبغى أن أبدأ بذكر أننى لا أفهم إلا قليلا تلك اللغة الدارجة التى يتحدثون بها فى ڤيينا .

كان من الضرورى إذن أن أبحث عن فتاة جميلة فى المدينة تعرفنى بتلك اللغة الدراجة . تلك هى الضحية التى كان بايرون يعطيها المسافرين . ولقد مرت بى ثلاثة أيام أخذت فيها أتتبع السمراوات والشقراوات فى المسارح

والملاهي والمراقص ، التي يسمونها بطريقة شعبية «سبرل» (ولست أرى هنا تقريباً إلا الشقراوات) إلا أنني لم ألق بصفة عامة إلا القليل من التشجيع .

ولقد خرجت بالأمس من مسرح ليوبولدستار ، بعد أن علمت مكاني بعلامة :

وسألتني فتاة شقراء لدى الباب عما إذا كان العرض قد بدأ . وتحدثت إليها ، وعلمت منها أنها عاملة ، وأن سيدتها رغبة منها في أن تعود معها إلى البيت قد طلبت منها أن تنتظرها بباب المسرح . وبناء على هذا الإيضاح أخذت أكيل لها أسخى العروض ، فتحدثت إليها عن المقصورات الأولى والمقاعد المواجهة للمسرح ، ووعدتها بعشاء رائع ، إلا أنها رفضت عروضي رفضاً مهيناً . والنساء هنا يملكن صيغ المبالغة معدة للاستعمال ضد الوقحين ، ومع ذلك فلا ينبغي أن نفزع لذلك .

لقد كانت تلك الفتاة تبدو قلقة جداً لتأخر سيدتها ، فأخذت تعدو من أول الطريق لآخره ، وتبعتها وأنا أمسك بذراعها التي كانت تبدو جميلة جداً . وفي أثناء الطريق كانت توجه إلى جملا بجميع اللغات ، مما جعلني أتوصل بصعوبة إلى فهم ما تقول .

وإليك قصتها . لقد ولدت في مدينة البندقية ، وأحضرتها سيدتها وهي فرنسية إلى فيينا ، ولذلك كما قالت لي في طرافة بالغة ، لم تعد تتقن أية لغة ولكنها تتحدث ثلاث لغات بطريقة بسيطة . ولم يسمع أحد شيئاً عن مثل هذا إلا في مسرحيات ماكيافلي وموليير الفكاهية . لقد كانت تدعى كاتارينا كولاسا . وقلت لها في ألمانية واضحة (وهي تفهمها ولا تتقن الحديث بها) : إنني لم أعد أستطيع التخلي عنها ، ونظمت لها نوعاً من الشعر الغزلي الطريف . وفي تلك اللحظة كنا أمام بيتها ، فرجتني أن أنتظر ، ثم عادت

لتقول لى : إن سيدتها مازالت فى الواقع فى المسرح ، وأنه ينبغى لنا العودة إلى هناك .

ولما عدنا أمام المسرح عدت فاقترحت عليها أن نحجز أماكن أمام المسرح ، إلا أنها أصرت على الرفض ، وحجزت فى المكتب مكاناً فى الدرجة الثانية، واضطررت أن أتبعها بأن قمت لمراجع التذاكر تذكرة الدرجة الأولى ، التى كنت أحملها على أنها تذكرة بالدرجة الثانية ، مما أدهشه دهشة بالغة . وهنا استسلمت الفتاة لفرح شديد ، وهى ترى سيدتها فى إحدى المقصورات مع رجل ذى شارب . وكان لابد أن تذهب للتحدث إليها ، ثم قالت لى إن العرض لايعجبها ، وأن الأحرى بنا أن نخرج للنزهة . ومع ذلك فقد كانوا يقدمون مسرحية للسيدة بيرخيفيفر . ولكنها فى الواقع لم تكن مسلية . وهكذا اتجهنا إلى « البراتر » ، واندفعت ، كما تستطيع أن تتصور فى أكثر أنواع الإغراء تعقيداً .

إيه أيها الصديق ! تصور أنها كانت تمثل نوعاً من الجمال الذى كثيراً ما كنا نحلم به ، لقد وجدت المرأة المثالية فى لوحات المدرسة الإيطالية ، وجدت فتاة البندقية كما صورها جوتزى فى لوحته « الشقراء المتكلفة » ، وآسف لأنى لا أتقن فن الرسم بالقـــدر الكافى حتى أصور لك جميع ملامحها .

تخيل رأساً أشقر أبيض ، وبشرة لا يمكن تصديق ما بها من جمال ، لدرجة أن المرء ليتصور أنها قد حفظت تحت الزجاج ، إنها تملك أنبل السمات : أنفا أخيلياً وجبهة عالية وفماً كالكرز ، ثم عنقاً ممتلئاً كعنق الحمامة يحده عقد من اللؤلؤ ، ثم كتفين بيضاوين ثابتين ، بهما قوة هرقل وضعف طفل فى عامه الثانى وسحره .

يبدت لهذه الفتاه الجميلة أنها تعجبنى ، خصوصاً لأنها نمساوية فيليسية ،

ولأنها تجسد فى حد ذاتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولم يؤثر فيها هذا الإطراء إلا قليلا .

وصحبتها خلال شبكة من الطرق الملتوية . ولما لم أكن أفهم العنوان الذى كان يساعدنى على أن أجدها مرة أخرى ، فقد تفضلت وكتبته لى على ضوء مصباح الطريق ، وإنى لأرسله لك طى رسالتى ، لأريك أن فك طلاسم خطها ليس أسهل من فك طلاسم كلامها . وأخشى أن تكون تلك الحروف لا تنتمى إلى أية لغة ، ولذا فإنى قد رسمت على الهامش كما ترى خطة تدلنى على مكان بيتها بطريقة أضمن .

والآن إليك بقية المغامرة . لقد ضربت لى موعداً فى الطريق وقت الظهر . ولقد أتيت مبكراً لأكون كالديدبان أمام منزلها السعيد رقم ١٨٩ . ولما لم تنزل ، فقد صعدت أنا . ووجدت عجوزاً على إحدى بسطات السلم تطهو الطعام على موقد كبير . ولما كان مرأى امرأة عجوز فى العادة ينبىء عن امرأة شابة ، فقد تحدثت إليها فابتسمت ، وطلبت منى الانتظار ، وبعد خمس دقائق ظهرت الفتاة الجميلة الشقراء أمام الباب وطلبت إلى الدخول . وكان ذلك فى بهو كبير ، وكانت تتناول غداءها مع سيدتها ، فرجتنى أن أجلس خلفها على أحد المقاعد . والتفتت السيدة : كانت سيدة شابة طويلة بارزة العظام ، وسألتنى السيدة بالفرنسية عن اسمى ونواياى وكل ما عن لها من أسئلة ، ثم قالت لى : « حسن ، ولكنى فى حاجة إلى الآنسة اليوم حتى الساعة الخامسة وبعد ذلك أستطيع أن أترك لها الحرية فى أثناء السهرة » وشيعتنى الشقراء الحسناء مبتسمة وقالت : « إلى الساعة الخامسة » .

وها أنذا فى الانتظار ، وإنى أكتب إليك الآن من مقهى أنتظر فيه حتى تحين تلك الساعة . إلا أن كل ذلك يبدو وكأنه قصة من القصص الرعوية .

اليوم الثانى والعشرون — إليك قصة أخرى . ولكن لتلتقط خيط الأحداث ثانية . فبالأمس فى الساعة الخامسه أتت كاتارينا أو كاتى كما يسمونها فى بيتها ، أتت للقائى فى المقهى الذى كنت أنتظرها فيه . لقد كانت غاية فى السحر ، وقد وضعت قبعة جميلة من الحرير فوق شعرها الجميل والقبعات هنا لاترتديها إلا سيدات المجتمع — كان ينبغى أن نذهب إلى مسرح باب كارنفيا لنشهد عرض أوپرا بليزاريو . ولكنها رغبت فى العودة إلى ليوبولد ستراد قائلة إنها يجب أن تعود مبكرة . باب كارنفيا يقع فى الطرف الآخر من المدينة . حسن ! لقد عدنا إلى ليوبولد ستراد ، وأرادت أن تدفع ثمن تذكرتها وأعلنت لى أنها ليست فتاة للتسلية ، وأنها تصر على الدفع ، وإلا فلن تدخل إلى المسرح . يا إلهى ؟ لو أن جميع السيدات كن يدركن مثل هذه الأمور الصغيرة ! ... ويبدو أن ذلك ما زال يدخل ضمن العادات الخاصة بهذا البلد .

يا للأسف ! إننا ياصديقى زئور نساء ضعاف هزال . لقد حاولت معها أسود أنواع الإغراء ، فلم يؤد ذلك معها إلى أية نتيجة . وكان لابد من تركها تذهب بمفردها ! على الأقل حتى مدخل شارعها . إلا أنها ضربت لى موعداً فى الساعة الخامسة من اليوم التالى ، أى اليوم .

والآن لقد بدأت إليا ذتى تتحول إلى أودسة . ففى الساعة الخامسة كنت أتجول أمام المنزل رقم ١٨٩ ، وأضرب أرض الطريق بقدم ثابتة . ولم تخرج كاتارينا من بيتها . وضايقتنى هذه الحراسة (فالحرس الوطنى يعفيك من سخرة كهذه فى جو عاصف) ، فدخلت إلى البيت وقرعت الباب ، وخرجت لى فتاة أخذتنى من يدى ونزلت بى حتى الشارع . وإلى هنا لايعتبر الأمر شيئاً . وهناك شرحت لى أنه يجب أن أرحل وأن السيدة ثائرة وأن كاتارينا ذهبت إلى بيتى خلال النهار لتنذرنى . أما أنا فقد فقدت خيط الجيلة الألمانية وتخيلت إزاء فعل غامض النطق أنها

تقصد أن كاتارينا لاتستطيع الخروج ، وأنها ترجونى أن أستمر فى الانتظار ، فقلت : حسن ! ولما بينت لها أن نطقها قد غير بالنسبة لى معنى الكلمات دخلت ثانية وعادت بورقة سجلت فيها جملتها . وأخبرتنى تلك الورقة أن كاتارينا قد ذهبت للقائى فى فندق النسر الأسود حيث أقيم .

وحينئذ هرولت إلى فندق النسر الأسود . وقال لى الخادم : إن فتاة قد حضرت فى الواقع تسأل عنى خلال النهار . وأرسلت صيحات كصيحات النسر ، وعدت إلى رقم ١٨٩ . وقرعت الباب فنزلت إلىّ الفتاة التى تحدثت إلى من قبل . وها هى ذى فى الطريق تستمع إلى فى صبر الملائكة . وشرحت لها وضعى وبدأنا من جديد نختلف على معنى إحدى الكلمات ، فدخلت وعادت إلى بإجابتها مكتوبة . إن كاتارينا لاتسكن هذا البيت ، إنها لاتأتى إليه إلا خلال النهار ، وإنها فى هذه اللحظة ليست موجودة . هل ستعود فى المساء ؟ إن أحداً لا يدرى . إلا أننى توصلت إلى إيضاح أعم . إن الفتاة وهى مثال فى الرقة واللطف (تصور تلك الفتاة فى الطريق وهى تذر الرماد على نار عاطفتى المتأججة) قالت لى إن السيدة كانت ثائرة جداً (ولقد عبرت لى عن هذه الثورة بحركات معبرة) ـ ولكن أخيراً ؟.. لقد علموا أن لكاتارينا عشيقا آخر بالمدينة . فعلقت قائلا : آه ! يا إلهى ! (إنك تفهمنى ، فلم أكن أقصد أن أحصل على قلب جديد كل الجدة) ... حسن ! هذا يكفى ، أعرف ذلك ، إنى لمسرور وسأراعى ألا أعرض بها . إلا أن العاملة الشابة أجابت قائلة : لا (وإنى لأعدل من أجلك هذا الحديث أو بالأحرى أختصره) إن سيدتى هى التى غضبت لأن الشاب قد قدم مساء الأمس للقاء كاتارينا التى كانت قد أخبرته أن السيدة فى حاجة إليها حتى المساء . ولم يجدها لأنها كانت معك ، وقد ظلا مدة طويلة يتحدثان معاً .

والآن ياصديقى إليك ما وصلت إليه : لقد كنت أعتزم اصطحابها إلى المسرح هذا المساء ، ثم إلى ملهى الكر نفر ساسيرن حيث نجد الموسيقى والغناء ، وإنى وحيد فى الساعة السادسة والنصف أشرب كأساً من الروزلير فى

مقهى الجاسترن فى انتظار افتتاح المسرح ، ولكن كاتارينا المسكينة ! إننى لن أراها إلا فى الغد ، سوف أنتظرها فى الشارع الذى تمر فيه للذهاب لسيدتها ، وسأعرف منها كل شىء !.

اليوم الثالث والعشرون — لقد لاحظت أننى لم أتحدث إليك بعد عن المدينة . وقد كان لابد من شىء من الإخراج لمغامراتى الغرامية ، إذ أنك لم تصل بعد إلى نهايتها .

إن النظرة الأولى لفيينا لا تعطيك عنها سوى فكرة مبتذلة . وإن المرء ليجتاز ضواحى طويلة ذات بيوت موحدة الشكل ، وبعد ذلك نجد المدينة وسط حزام من الحدائق ، وخلف سور من الحفر والجدران ، وحجمها لا يزيد على حجم حى واحد من باريس . ولتتخيل أن دائرة القصر الملكى قد عزلت وأحيطت بجدران حصينة وطرقات عرضها ربع فرسخ ، وتركت حولها الضواحى بكل ما بها من اتساع ، إنك حينئذ تحصل على فكرة كاملة عن موضع مدينة فيينا وغناها وما بها من حركة ، ألا ترى للتو أن مدينة مبنية بهذه الطريقة لا يوجد بها مرحلة انتقال بين الترف والبؤس ، وأن حى وسط المدينة هذا بكل ما يحويه من بريق وثروات يحتاج فى الواقع إلى مشارف وحفر تعزله حتى تعيش ضواحيه العاملة الفقيرة حياة كريمة .

لقد شعرت بقلبى يمتلىء حزناً لحظة دخولى هذه العاصمة . وكان ذلك حوالى الساعة الثالثة فى يوم من أيام الخريف ذات الضباب . وكانت الممرات الفسيحة التى تفصل بين المدينتين ممتلئة بالرجال أنيق الثياب والنساء المتألقات الذين كانت عرباتهم تنتظرهم بطول الطرق . وأبعد من ذلك كانت الجموع الصاخبة تتزاحم تحت الأبواب المظلمة . وفجأة وما كدت أعبر السور حتى وجدت نفسى فى قلب المدينة . ويالتعاسة من لا يركب عربة فوق هذا الطريق المرصوف بالجرانيت ! يالتعاسة الفقير والحالم وعابر السبيل ! ليس ثمة مكان هنا إلا للأغنياء وأتباعهم ، لرجال البنوك والتجار . إنه ترف غير معقول وسط المدينة ، وفقر فى الأحياء المحيطة بها . تلك هى فيينا لدى النظرة الأولى ،

وليس هناك ما هو أبعث على الضيق من أن تضطر فى المساء إلى ترك وسط المدينة المتألق الوضاء ، وأن تعبر تلك المتنزهات الطويلة بممراتها ذات المصابيح التى تتقاطع حتى الأفق ، وذلك للذهاب إلى الضواحى .

إن أشجار السرو تترنح تحت ضربات الرياح المتوالية ، وعلينا دائماً أن نعبر نهراً أو قناة ذات مياه سوداء ، وليس مايدل على أننا فى وسط المدينة إلا دقات الساعات الكئيبة . ولكن ما إن نبلغ الضواحى حتى نشعر وكأننا فى عالم آخر نتنفس فيه بمزيد من الراحة . إنها مواطن شعب ذكى مرح . فالشوارع مزدحمة وهادئة فى وقت واحد . وإذا كانت العربات تمر بها ، فما ذلك إلا فى اتجاه المراقص والمسارح . وفى كل خطوة تجد أصوات الرقص والموسيقى ومجموعات من الشبان المرحين يرددون مقطوعات تلك الأوبرا . أما الأقبية والحانات فتغص باللافتات المضيئة والزينات الشفافة الغريبة : فهنا نستمع إلى مغنيات ستيرات ، وهناك إلى منشدين إيطاليين مرتجلين ، بخلاف ألعاب القردة .

وحاملو الأثقال وإحدى المغنيات الأوائل فى أوبرا باريس ، وأحد عارضى الحيوانات من مورافيا والمهرجون ، وأخيراً كل مالا نراه فى باريس إلا فى أيام الأعياد ـ قد توفر لرواد الحانات دون أى مقابل . وإلى الأمام من ذلك تجد لافتة لأحد الملاهى يحيط بها الزجاج الملون ، وهى موجهة فى آن واحد إلى اعلى الطبقات وإلى العسكريين المحترمين والجمهور العزيز . أما المراقص « المهملة » ، المراقص المخصصة لهذه القومية أو تلك فهذا هو ما يفضله ذوق أهل هذه البلاد .

ولندخل إلى مسرح ليوبولد ستراد الشعبى حيث يعرضون الفكاهات الشعبية المحلية المسلية جداً ، وحيث أتردد بكثرة لأنى أقيم فى الحى الذى يحمل هذا الاسم ، وهو الوحيد الذى يتصل بوسط المدينة ولا يفصله عنه إلا فرع من فروع الدانوب .

٧ - بقية المذكرات

فى ذلك اليوم الثالث والعشرين ، حينما وجدت نفسى بلا عمل فى هذا المجال، وحيداً تقريباً وسط المتحضرين الحقيقيين ، إذ أن الباقى كانوا يتكونون من مجريين وبوهميين ويونانيين وأتراك وتيروليين ورومانيين وترنسيانيين ، فكرت فى أن أعود إلى تمثيل دور كازانوفا الذى كنت قد بدأته بداية حسنة أول أمس . إن كازانوفا محتمل التحقيق أكثر مما يبدو فى ظاهر الأمر فى عادات هـذه البلاد . لقد جلست على التوالى بالقرب من ثلاث نساء منفردات ، وانتهى بى الأمر إلى مجاذبة إحداهن أطراف الحديث ، ولم تكن لغتها تتميز كثيراً بطابع لغة فيينا . وبعد ذلك حاولت توصيلها ، ولكنها لم تسمح لى إلا بلمس ذراعها لحظة تحت معطفها ، وهو ذراع رائع الجمال وسط جميع أنواع الأقمشة الحريرية وشعر القطن أو الفراء . ولقد قضينا وقتاً طويلاً جداً فى النزهة ، ثم أوصلتها إلى باب منزلها ، ولو أنها رفضت أن تدعنى أدخل . وعلى كل فقد ضربت لى موعداً فى الساعة السادسة من هذا المساء .

ولم تكن هذه تعدل الأخرى جمالا ، إلا أنها كانت تبدو من طبقة أعلى وسوف أتبين هـذا الأمر فى المساء . ولكن ألا يختلط عليك الأمر إذ ترى أجنبياً يعقد الصلات الوثيقة بين امرأتين فى ثلاثة أيام ، وأن إحداهما تحضر إلى مسكنه ويذهب هو إلى مسكن الأخرى ؟ ثم أنه ليس ثمة أى مظهر يثير الشك فى كل هذا . كلا ، ولقد أنذرونى من قبل ، ولكنى لم أكن أعتقد فى ذلك ، هكذا يعالج الحب فى فيينا ! حسن ! إن هذا لرائع . أما فى باريس فإن النساء يعذبنك لمدة ثلاثة أشهر ، تلك هى القاعدة المتبعة . ولذا فإن قليلا من الناس هم الذين يصبرون على انتظارهن . وهنا تم الاستعدادات فى ثلاثة أيام ، وتشعر منذ اليوم الأول أن المرأة قد تستسلم لولا أنها تخشى

أن يكون لهاعليك تأثير فتيات اللهو ، ويبدو أن ذلك هو أكثر مايشغلهن ومع ذلك فليس هناك ما هو أدعى للتسلية من هذه المطاردة السهلة فى المسارح والملاهى والمراقص ، وإن القوم ليتقبلون ذلك لدرجة أنه لا يثير لدى أعرقهم أية دهشة .

وتحضر ثلثا النساء على الأقل إلى أماكن الاجتماع وحيدات أو يسرن بمفردهن فى الشوارع . فلو ساقك القدر إلى واحدة من المحصنات ، فإن مسعاك لن يضايقها فى شىء ، وسوف تتحدث معك ماطاب لك الحديث . ان كل امرأة تقترب منها تتركك تمسك بذراعها وتوصلها إلى منزلها ، وهناك أمام باب بيتها حيث يحدوك الأمل فى الدخول تحييك تحية لطيفة جداً وساخرة جداً ، وتشكرك على توصيلها ، وتقول لك إن زوجها أوأباها ينتظرها فى البيت . واذا تمسكت بتكراراللقاء بها فسوف تقول لك بصراحة إنها فى اليوم التالى أو الذى يليه يجب أن تذهب إلى هذا المرقص أو ذاك المسرح . فإذا حدث فى المسرح أثناء حديثك مع امرأة بمفردها أن عاد الزوج أو العشيق ، الذى كان قد ذهب يتنزه فى الأروقة أو الى المقهى ، عاد لجأه بجوارها ، فلن يدهش إذ يراك تتحدث إليها بلا كلفة وسوف يحييك ويدير عينيه إلى الناحية الأخرى ، وقد أسعده أن تخفف بعض الوقت من صحبة زوجته .

إننى أتحدث اليك هنا بقليل من تجاربى وكثير من تجارب الغير . ولكن إلام يرجع هذا ؟ ذلك أننى لم أر قط مثل هذا ، وحتى ولا فى ايطاليا ، إنه يرجع بلا شك إلى أن ثمة نساء كثيرات جميلات فى المدينة فى حين أن الرجال الذين يناسبونهن أقل منهن عدداً نسبياً . أما فى باريس فإن النساء الجميلات من الندرة بحيث يعرضن فى المزادات ، ثم يتولى الرجال تدليلهن وحراستهن ، ويشعرن تماماً بكل ماجمالهن من قيمة . أما هنا فالنساء قليلات الاهتمام جداً بأنفسهن وبسحرهن ، وذلك لأنه من المؤكد انهن شائعات

شيوع الزهور الجميلة والحيوانات الجميلة والطيور الجميلة ، وهى كلها فى الواقع شديدة الشيوع لو بذلت العناية لرعايتها وحسن تغذيتها . إن حضرية البلد تجعل الحياة ميسرة وطيبة لدرجة أنه ليس ثمة امرأة تشكو من سوء التغذية ؛ وعلى ذلك فلم يتكون أى جيل من هذه الأجناس البشعة التى يتكون منها الصناع لدينا أو نساء الريف . إنك لا تتصور أية غرابة تجدها فى اللقاء فى كل لحظة بفتيات باهرات فى الجمال وذوات تكوين جسدى رائع يدهشن لمجرد أن أنظارك قد التفتت إليهن .

وإنك لتجد فى جو الجمال والجاذبية والسحر هذا شيئاً ما يبعث على الثمل : فالمرء يفقد رأسه ويتنهد ويجن غراماً لا بواحدة من هؤلاء النساء ، بل بالنساء جميعاً مرة واحدة .

إن رائحة المرأة توجد فى كل مكان فى الهواء ، وان المرء ليستنشقها من بعيد كما يفعل دون جوان . وكم نأسف لأننا لسنا فى فصل الربيع ! لا بد من منظر طبيعى لتكملة مثل هـذه الانطباعات البارعة الجمال . ومع ذلك فإن ذلك الفصل لا ينقصه السحر ، فقد دخلت هذا الصباح إلى الحديقة الأمبراطورية الكبيرة فى طرف المدينة ، ولم أجد بها أحداً . وتنتهى ممراتها الكبيرة بعيداً جداً فى الآفاق الساحرة الرمادية والزرقاء . وفيما وراء ذلك تجد حديقة غير مستوية الأرض ، تتخللها البرك وتملؤها الطيور وكانت أرضها على قدر من التلف بسبب رداءة الجو ، بحيث تدلت الورود من شجيرات الورد المنكسرة فى الوحل . ويطل النظر فيما وراء ذلك على البراتز والدانوب . ولقد كان منظراً رائعاً رغم برودة الجو . أه ! أترى ؟ إننا مازلنا فى ريعان الشباب ، إننا أكثر شباباً مما تظن . . . !

السابع من ديسمبر — إننى أخط هنا خمسة أسطر على ورقة أخرى . لقد مرت أيام طوال منذ أن كتبت لك الصفحات الأربع السابقة . ولقد تلقيت منى رسائل ورأيت الجانب الضاحك من الوضع الذى أنا فيه .

وإن شهراً تقريباً يفصلني عن هذه الانطباعات الأولى لإقامتي في فيينا. ومع ذلك فثمة رابطة مباشرة بين ما سوف أقوله لك وما سبق أن كتبته لك. ذلك أن النهاية التي قد تتوقعها حين تقرأ الصفحات الأولى قد توقفت كل ذلك الوقت... وإنك لتعلم أنني لا أستطيع كتابة القصص المسلية وأن أوجه مشاعري نحو الأمور الغريبة، أليس كذلك؟ حسن! إذا كانت غرامياتي الأولى في فيينا قد راقت لك فلتعلم...

الثالث عشر من ديسمبر — لقد مر الكثير من الأحداث منذ الأيام الأربعة الأولى التي قدمت بداية هذه الرسالة، حتى ليصعب عليّ ربطها بما حدث لي اليوم. وإني لا أجرؤ على أن أقول لك إن مهنتي كزير نساء ظلت متواصلة بالقدر نفسه من النجاح... إن كاتي في برون معي الآن لتكون بالقرب من أمها المريضة. ويجب أن ألحق بها بهذا الخط الحديدي الجميل الذي يمتد ثلاثين فرسخاً في مدخل البراتز. إلا أن هذا النوع من الأسفار يرهق أعصابي بطريقة غير محتملة. وفي انتظار ذلك ثمة مغامرة تتشابك خيوطها وإني لأقص عليك بأمانة تفاصيلها الأولى.

ولتعلم، كملاحظة عامة، أنه لا توجد في هذه المدينة امرأة واحدة تمشي مشية طبيعية. وإنك لتلاحظ واحدة منهن وتتبعها، وحينئذ تأخذ في اللف والدوران بشكل لا يمكن تصديقه من شارع إلى آخر. ثم إنك لتختار مكانا منعزلا بعض الشيء للاقتراب منها، ولن ترفض أبداً أن ترد عليك. ذلك أمر يعرفه الجميع. إن فتاة فيينا لا ترد أحداً. فإذا كانت ملكا لأحد، وإني لا أتحدث عن زوجها، فهو لا يعد أبداً في الحسبان) وإذا كانت مشغولة من جهات مختلفة قالت لك ونصحتك ألا تطلب منها موعداً إلا في الأسبوع التالي، أو طلبت إليك أن تصبر دون أن تحدد لك يوما. ولن يطول بك الأمر، وسوف يصبح من سبقك من عشاقها أحسن أصدقاء لك.

وإنى أعود الآن من متابعة فتاة جميلة لاحظتها فى البراتز حيث يتزاحم الناس لرؤية الزحافات ، وتبعتها إلى باب بيتها دون أن أوجه إليها حديثا ؛ لأننا كنا فى وضح النهار. إن ذلك النوع من المغامرات يسلينى أجمل تسلية . ولحسن الحظ جداً كان هناك مقهى يكاد يواجه بيتها . وعلى ذلك فقد عدت وقت هبوط الظلام وجلست بجوار النافذة . وكما قدرت لم تلبث الفتاة الجميلة أن خرجت ، وتبعتها وتحدثت اليها فطلبت إلى ببساطة أن أمنحها ذراعى، حتى لا يلاحظنا المارة . ثم قادتنى الى جميع أنواع الأحياء .

أولا لدى أحد تجار الكوهلماركت حيث اشترت قفازات ، ثم لدى أحد بائعى الحلوى حيث قدمت لى نصف كعكة ، ثم عادت بى إلى البيت الذى خرجت منه ، وظلت ساعة تتحدث إلى تحت الباب ، ثم طلبت الى أن أعود مساء الغد . وعدت فى اليوم التالى فى إخلاص ، وقرعت الباب ، وفجأة وجدت نفسى وسط فتيات أخريات وثلاثة شبان مرتدين جلود الخراف، وقد غطوا رؤوسهم بقبعات هى أقرب شىء لقبعات فالاشيا . ولما استقبلنى القوم استقبالا ودياً هممت بالجلوس . ولكن لا . لقد أطفئوا الشموع وساروا فى الطريق نحو أماكن بعيدة فى الضواحى . ولم ينافسنى أحد على فتاة الأمس رغم أن أحد الشبان كان وحيداً بلا رفيقة ، وأخيراً وصلنا إلى حانة قد اختنق جوها بالدخان . وهنا يبدو أن الشعوب السبعة أو الثمانية التى تتقاسم مدينة فيينا الطيبة قد تجمعت من أجل متعة ما . ومما كان أكثر تأكيدا هو أنهم كانوا يشربون النبيذ الهادىء الأحمر مخلوطا بنبيذ أبيض أكثر عتقا . وطلبنا بعض أباريق من هذا الخليط ، ولم تكن به أية غضاضة ، وكانت هناك شبه منصة فى أقصى القاعة كانوا يغنون عليها بعض أغنيات الحب الحزينة بلغة غير محددة ، مما كان يبعث كثيرا من التسلية فى نفوس من يفهمونها . وجلس الشاب الذى لا رفيقة له بجوارى . ولما كان يتحدث الألمانية بطلاقة كبيرة ، وهو أمر نادر فى هذا البلد ، فقد سررت لحديثى معه . أما عن المرأة التى صحبتها فقد انهمكت فى رؤية العرض

الذى كان يقدم أمامنا . والواقع أنهم كانوا يلعبون تمثيليات فكاهية خفيفة خلف هذا . كان ثمة أربعة أو خمسة من المغنين يصعدون على المنصة ويلعبون فصلا ثم يعودون فى ملابس جديدة . كانت مسرحيات كاملة ، يتخللها ترديد المجموعة وبعض المقاطع . وفى فترات الاستراحة كان الملدانيون والمجريون والبوهيميون وغيرهم يأكلون الكثير من لحم الأرنب والعجول . وبدأت المرأة الجالسة بجانبي تنتشى شيئا فشيئا بتأثير النبيذ الأحمر والنبيذ الأبيض ، وكانت ساحرة فى نشوتها ، إذ أنها كانت فى أوقاتها الطبيعية يشوبها بعض الشحوب . إنها تمثل الجمال السلافى الحقيق ، وتدل ملامحها الكبيرة القوية على أنها من جنس أصيل مخلوط . ويجب أن أضيف هنا أن أجمل النساء هن نساء الشعب وطبقة النبلاء . إننى أكتب لك من أحد المقاهى التى أنتظر فيها ساعة العرض إلا أن الحبر ردىء جداً ، ولذا فإنى أؤجل بقية ملاحظاتى .

رحلة إلى الشرق

الحادى والثلاثون من ديسمبر يوم عيد القديس «سيلفستر» ، هذا اليوم نفسه الذى كان يقول عنه « هوفمان » يا له من ناصح خاص كالحوى . !

وسوف تفهم لأى غرض كان هذا التعجب . !

إننى أكتب إليك . لا من ذلك الحان الملىء بالدخان ، ومن أقصى هذا القبو العجيب الذى تآكلت درجاته تآكلا شديداً . حتى أنك لا تكاد تضع قدمك على أول درجة ، حتى تشعر دون رغبتمنك ، أنك قد دفعت إلى أسفل ، ثم جلست إلى منضدة بين جرة من النبيذ المعتق ، وأخرى من النبيذ الطازج . وفى الطرف الآخر تجد الرجل الذى فقد صورته المعكوسة ، والرجل الذى فقد ظله يتحدثان حديثاً بالغ الجد . إننى أتحدث إليك عن حان لا يقل عن ذلك دخانا . إلا أنه أروع من الراتكلر فى مدينة بريم . أو الأوبرسباخ فى مدينة ليبزج . عن قبو اكتشفته بالقرب من الباب الأحمر ، ومن المستحسن وصفه لك لأنه هو هــــذا الحان الذى ذكرت لك عنه بعض الكلمات فى خطابى السابق .

هناكانت ترسم الخطوط الأولى لغرامياتى :

إنه فى الواقع قبو فسيح ومحفور فى عمق . وإلى يمين البـاب تجد نضد صاحب الحان يحيط به درابزين مرتفع محمل كله بجدار من الصاج . من هنا تسيل البيرة الإمبراطورية سيلا ، وكذلك بيرة باكاريا . وبيرة منغاريا . التى تتميز جميعاً بأسمائها الغريبة . وإلى اليسار من المدخل تجد مائدة محملة باللحوم والفطائر والحلوى . ويتصاعد الدخان فيها باستمرار من صحن الورشل . ذلك الصحن المفضل لدى أهل فيينا . وتقوم خادمات رشيقات الحركة

بتوزيع الصحاف من مائدة إلى أخرى . حينما يتولى الصبيان تقديم البيرة والنبيذ وهى خدمة أصعب . ويتناول كل عشاءه هكذا . مستعيضاً عن الخبز بالفطائر باليانسون . أو الفطائر المملحة التى تدفع إلى الشرب كثيراً .

ولن نتعرض كثيراً الآن فى هذه القاعة الأولى التى يستخدمها صاحب الخان كمكتب . ويستخدمها الممثلون فى الوقت نفسه لمجال خلق . ولا تصادف فيها إلا راقصات يرتدين أحزمتهن ، أو بطلات تمثيل يضعن المساحيق على وجوههن ، أو جنود يرتدون ملابسهم كممثلين ثانويين . وهنا توجد خزانة الملابس التى يحفظ فيها راقصو الفالس ملابسهم . ومأوى الكلاب التى لا تحب الموسيقى ، ولا الرقص . ومكان استراحة التجار اليهود الذين يذهبون فى فترات الاستراحة من الرقص أو من الغناء لتقديم مالديهم من روائح وعيدان شرقية ، أو لتوزيع ذلك العدد الذى لا يحصى من تذا كر يانصيب سبرلنج الكبير .

ينبغى أن تصعد درجات كثيرة ، وتخترق الجوع لتدخل أخيراً إلى القاعة الرئيسية ، وهى كالمعتاد رواق ذوقية منتظمة ومغلقة من جميع الجهات . وتسود المناضد المتلاصقة بطول الجدران المكان ، إلا أن وسط القاعة قد ترك خالياً للرقص . أما الزينات فهى رسوم بالظلط . وفى أقصى المكان خلف الموسيقيين والممثلين تجد خميلة من أغصان الكرم والعرائش . أما الجمع فهو خليط كما تقول . ومع ذلك فليس فيه أى شىء . وأغلب المجريين يرتدون لباسهم نصف العسكرى بشرائطه الحريرية الزاهيــــة ، وأزراره الفضية الكبيرة . أما الفلاحون البوهيميون فيرتدون معاطف بيضاء طويلة ، وقبعات صغيرة مستديرة مقلوبة الشرائط أو الزهور . ويلفت السيترمون النظر بقبعاتهم الخضراء المزدانة بالريش ، وملابس صيادى البترول التى يرتدونها ونادراً ما يختلط الغريبون والأتراك بهذا الجمع الغريب الذى يجمع بين كل هذه الشعوب التى تتكون منها النمسا ، والتى قد يكون سكان النمسا الحقيقيون أقلها عدداً .

أما نساء فيينا عدا بعض المجريات اللائى كانت ملابسهن نصف يونانية — فملابسهن بصفة عامة غاية فى البساطة. وجلهن جميلات خفيفات الحركة حسنات الهيئة، وأغلبهن شقراوات ذوات بشرة رائعة اللون. وهن يسلمن أنفسهن للفالس بحب غريزى غريب، ولا يكاد الأوركسترا يبدأ فى العزف حتى يندفعن من الموائد ويتركن كؤوسهن نصف الفارغات ويتوقفن عن إتمام العشاء.

وحينئذ تبدأ وسط الضوضاء ودخان التبغ الكثيف دوامة من الفالس والركض لم تكن لدى عنها أية فكرة. وما إن ينتهى الفالس حتى يعدن إلى الأكل والشراب. وحينئذ يظهر المغنون أو المهرجون فى أقصى القاعة خلف نوع من النضد مزود بمفرش وتضيئه الشموع.

وفى الغالب تعرض مسرحية دراميـــة أو فكاهية دون مزيد من الاستعدادات. وهذا يتصل بالمسرح والفن والاستعراض فى وقت واحد. إلا أن التمثيليات دائمـــاً تقريبا مسلية جداً. وتؤدى بكثير من الحرارة والتمثيل الطبيعى. وفى بعض الأحيان نستمع إلى أوبرات تهريجية صغيرة على الطريقة الإيطالية. ولا يكفى المسرح الضيق دائماً لسير الحوادث. وحينئذ يلجأ الممثلون إلى تصرفات شتى. فتنشب المعارك حتى وسط القاعة بين الممثلين الثانويين فى ملابسهم. وتصبح القاعة مدينة محاصرة أو سفينة يهاجمها القرصان. وفيما عدا هذه الملابس وهذا الإخراج فليس بها أية زينات تفوق ما كان فى لندن فى زمن شكسبير، ولا حتى اللافتة التى كانت تعلن أن فى هذا المكان توجد مدينة وفى ذاك توجد غابة.

وتنتهى التمثيلية سواء أكانت ملهاة أو تمثيلية هزلية. يأخذ كل ممثل فى غناء المقاطع للجمهور على نغمة شعبية لا تتغير، يبدو أنها كانت تعجب أهل فيينا كثيراً، ثم ينتشر الممثلون فى الصالة وينتقلون من مائدة إلى أخرى يتلقون التهانى والتحايا. والممثلون والمغنيات معظمهن بارعات فى الجمال، وهن يأتين بلا كلفة، فيجلسن إلى الموائد، وليس ثمة عامل أو طالب أو جندى لا يدعوهن إلى مشاركته الشراب. ولا تفعل هـذه الفتيات التعسات

سوى أن يغمسن شفاههن فى الكؤوس ، إلا أن تلك مجاملة لا يستطعن رفضها .

تلك هى أيها الصديق وسائل التسلية الحاذقة لهذا الشعب . إنه لا يتصلب أبدا ، كما قد يعتقد الناس مع التبغ أو البيرة ؛ فهو شعب لماح وشاعر ومحب للاستطلاع كالشعب الإيطالى ، ولكن بمسحة زائدة من الطيبة والحب . ويجب ملاحظة ما يشعر به من حاجة لأن يشغل جميع حواسه فى وقت واحد ، وأن يجمع بين المائدة والموسيقى والتبغ والرقص والمسرح فى وقت واحد .

وحينما يخرج المرء من هذه الحانات يدهش ! ، إذ يرى دائما فوق الباب صليبا كبيرا ، وفى كثير من الأحيان يشاهد كذلك فى أحد الأركان صورة من الشمع لإحدى القديسات ترتدى الملابس البراقة .. ذلك أن هنا ، كما فى إيطاليا لادخل للدين فى المرح أو المتعة إن للحانة طابعها الجدى ، كما أن الكنيسة كثيرا ما توقظ فيها أفكار العيد والحب . وفى سهرة عيد الميلاد منذ ثمانية أيام استطعت أن أتبين تلك الصلة : ان الشعب السعيد بالعيد كان ينتقل من الكنيسة إلى المرقص ، دون أية حاجة منه تقريبا لتغير استعداده ، ثم إن الشوارع كانت تغص بالأطفال الذين يحملون أشجار البلوط المقدسة ، وقد ازدانت أغصانها بالشموع والفطائر والحلوى . لقد كانت أشجار عيد الميلاد التى تعطينا لكثرتها صورة الغابة المتنقلة التى كانت تسير أمام ما كتب . ولقد كان داخل الكنائس لاسيما كنيسة القديس إلبين رائعا متآلفا ، ولم أكن أعجب بالجموع الحاشدة فى ملابس العيد ولا بالمذبح الفضى البراند وسط مرددى التراتيم ولا تحيات الموسيقين وقد علقوا على هذا القول بالحواجز المزيلة الساندة بطول الأعمدة فحسب ولكن بهذا الإيمان الخالص الصريح الذى كان يجمع الأصوات كلها فى نشيد عام كبير إن تأثير هذا الترديد الذى تقوم به آلاف الأصوات كلها

فى نشيد عام كبير . إن تأثير هذا الترديد الذى تقوم به آلاف الأصوات ليدهشنا حقا معشر الفرنسيين الذين اعتدنا صوت المنشدين ذوى الوتيرة الواحدة ، أو على صوت الراهبات الحاد . ثم إن ما تضمنه الجوقة الموسيقية من آلات كالكمان وآلات النفخ وصوت المغنيات وهو ينبعث من المنصات والفخامة المسرحية للقداس ـ كل ذلك لا بد أن يبدأه وبصفة دينية حقيقية فى أعين شعوبنا المتشككه ، ولكن لا يوجد شعب غيرنا يتمسك بفكرة الكاثوليكية هذه ذات الطابع الجد الغيور الملىء بأفكار الموت والحرمان حتى أن قليلا من الناس هم الذين يشعرون بأنهم جديرون بممارستها واعتناقها ، أما فى النمسا كما فى إيطاليا وأسبانيا ، فالدين يحتفظ بسلطانه ، لأنه ميسر ومحبب إلى النفس ويتطلب من الإيمان أكثر مما يستلزم من التضحيات .

وهكذا كانت تذهب هذه الجموع الصافية التى قدمت كما قدم المؤمنون الأوائل لتصعد تحت أقدام الله بمولد العام الجديد السعيد كانت تذهب لإنهاء ليلة العيد فى الولائم الكبيرة والرقص على أنغام هذه الآلات الموسيقية نفسها . ولقد كنت أغبط نفسى إذ أشهد مرة أخرى ذلك الجلال الجميل الذى أستبعدته كنائسنا والذى يحتاج حقاً لأن يحتفل به فى البلاد التى يأخذ الناس جميعا منها الدين على محل الجد . إنى لأشعر جيداً بأنك تريد معرفة نهاية مغامرتى الأخيرة ، وربما كنت مخطئاً إذ كتبت لك كل ما سبقت لى كتابته لابد أننى قد بدوت لك كرجل فى متحذلق وكمسافر سطحى لا يمثل بلاده إلا فى الحانات ، ويجره حبه غير المتزن للبيرة الإمبراطورية والانطباعات الغريبة إلى مغامرات الحب الرخيصة ، ولذا فسوف أنتقل للتو إلى مغامرات أكثر جدية ، أما عن المغامرة التى تحدثت إليك عنها فيما سبق فآسف لأننى لم أذكر لك تفاصيلها أولا بأول إلا أن الوقت قد فات . إننى متخلف كثيراً عن مذكراتى اليومية ، وكل الأحداث الصغيرة التى كان فى الإمكان قصها لك بالتفصيل حينئذ لم أعد أستطيع ولا حتى مجرد تذكرها اليوم . فلتكتف بأن تعلم أننى حين كنت أوصل السيدة فى وقت متأخر تدخل فى حبنا كلب

كان يعدو كمجرد فاوست، وقد بدا عليه الخبل . ولقد شعرت على الفور بأن ذلك فأل سيء . وقد أخذت الحسناء تلاعب الكلب الذى كان مبتلا تماماً ، ثم قالت لى: إنه لا بد قد فقد أصحابه وأنها تريد إيواءه لديها ، فطلبت أن تأوينى مثله، ولكنها أجابتنى : لا ! أو إذا شئت أبدا ! قالتها بلهجة تصميم جعلتنى أفكر فى غزو عام ١٨١٤ وقلت فى نفسى إنه هذا الكلب الأسود اللعين الذى جلب لى النحس .

ومن المؤكد أنه لولاه لاستقبلتنى أحسن ! إن ما حدث هو أنه لا أنا ولا الكلب قد دخلنا . فنى اللحظة التى انفتح فيها الباب هرب هذا المخلوق العجيب وضربت لى الحسناء موعدا فى الغد .

وفى اليوم التالى كنت سائراً متضايقا ، فقد كان البرد شديداً وكانت لدى بعض المشاغل. فلم أذهب فى الموعد المضروب، ولكن فى وقت أكثر تأخرا، ففتح لى الباب رجل سألنى وكأنه رأس جمل كانوت : من أنت ولما كان غير مخيف ، فقد هممت بأن أجيب أننى أريد الآنسة ... ولكن يا سوء الحظ ! لقد لحظت أننى أجهل كلية اسم عشيقتى .

ومع ذلك، فقد كنت أعرفها منذ ثلاثة أيام ، كما ذكرت لك . فأخذت أتمتم بعض الكلمات ، والرجل ينظر إلى نظرة مريبة ، ثم انصرفت . حسن جداً .

وفى المساء أخذت أحوم حول البيت ورأيتها تعود إليه فاعتذرت إليها وقلت لها بحنان بالغ .

يا آنستى : هل من الفضول الآن أن أسألك عن اسمك ؟

قالت ؟ فاهى .

ماذا من فضلك ؟

فاهي.

أه ؟ أه أما هذا الاسم فأنى أطلب كتابته . أه ! إنك إذن بوهيمية أو مجرية ؟ إن هذه الطفلة العزيزة، من المتنزه .. إن فاهي هذا بوهيمي ومع ذلك فالفتاة وديعة وشقراء وتنطق اسمها برقة شديدة تجعلها تبدو كمل وديع يتحدث بلغته الأصلية . ثم طال بنا الأمر وفهمت أن على أن أغازلها وذهبت ذات صباح لزيارتها، فقالت لى بتأثر كبير! أه ! يا إلهى إنه مريض ، من هو ؟ فنطقت حينئذ باسم بوهيمى كاسمها وقالت لى : ادخل . فدخلت إليه غرفة ثانية . فرأيت شخصا كبير الجسم من سكان الفلاندر راقدا على السرير ، ذلك الذى قدم معنا ليلة العرض المسرحى ألحانه ، وكان يرتدى ملابس الأوبرا الفكاهية . ولقد استقبلنا هذا الفتى بمظاهر الابتهاج وكان له كلب قناص يرقد بجوار السرير ، ولما لم أدر ماذا أقول قلت : هذا كلب جميل ، وأخذت أداعب الكلب وأتحدث اليه ، واستمر هذا الأمر طويلا. وقد لاحظت فوق السرير بندقية ذلك السيد ، ولم يكن فى ذلك أية غضاضة إزاء استقباله اليائس وقال لى: إنه مصاب بالحمى ما يضايقه كثيراً، لأنه يحب القنص وسألته فى سذاجة عما إذا كان يصطاد حيوان الشاموا . . . فأرانى حينئذ الحجلان النافعة التى كان بعض الأطفال يلهون بها فى أحد الجوانب . أه احسن جداً ياسيدى . ولما لم تعد الفتاة الحسناء قلت بطريقـــة بورجوازية حتى لا ينقطع حبل الحديث:

حسن ! هل هؤلاء الأطفال من العلماء ؟ لماذا لم يذهبوا إلى المدرسة ؟ فأجابنى الصياد قائلا : إنهم ما زالوا صغارا . فأجبت إنه فى بلادى . يبعثون بالأطفال إلى المدرسة من المهد ، واسترسلت فى سلسلة من الملاحظات على هذه الطريقة فى التعليم . وفى هـذه الأثناء دخلت فاهي وقد حملت فى يدها فنجانا .فقلت للصياد نظراً لإصابته بالحمى:أهذا شراب الكينا ؟ فقال لى : نعم . وبدا أنه لم يفهم، فقد رأيته بعـد لحظـة يقطـع

خبزا فى الفنجان . ولم أكن قد سمعت من قبل قط عن حساء الكينا الذى لم يكن فى الواقع سوى منقوع مغلى . ولقد كان منظر هذا الصبى وهو يتناول حساءه مملا، كهذا الحديث الذى أسوقه إليك ياله من موعد جميل ذلك الذى ضربته لى. فحييت الصياد متمنيا له الشفاء، وعدت إلى الغرفة الأخرى. وقلت للبوهيمية الشابة : حسن هذا السيد المريض أهو زوجك ؟ لا : أهو أخوك ؟ لا ــ أهو عشيقك ؟ لا — من يكون إذن ؟ إنه صياد. هذا كل ما هناك . ويجب ملاحظة : إزاء خرافة أسئلتى أن الغرفة الثانية كانت تضم ثلاثة أسرة أحدها كان سريرها كما هو، وأن هذا هو ما كان يمنعها من استقبالى. وأخيراً لم أستطع أبدا فهم وظيفة هذه المخلوقة، ولقد طلبت الى مع ذلك أن أعود فى اليوم التالى، ولكنى رأيت أنه لو كان ذلك لكى أتمتع بمجاذبة هذا الصياد أطراف الحديث ، فالأحرى أن أنتظر حتى يشفى . ولم أرفاهى إلا بعد ذلك بثمانية أيام ولم تدهش لعودتى ، كما لم تدهش لغيبتى الطويلة ، وكان الصياد قد شفى وخرج .. .. فلم أعرف سببا لنفورها إذ قالت لى أن الأطفال فى الغرفة الأخرى، فقلت لها: أهم أطفالك! فقالت نعم. ياللشيطان! انهم ثلاثة أطفال شقر الشعور كسنابل القمح ومثلها هى، ولقد وجدت فى ذلك ما يدعو للاحترام، فلم أعد حتى الآن إلى البيت وسوف أعود حينما أريد. ولن يكون الأطفال والصياد والفتاة قد تحركوا من أماكنهم ــ سوف أعود حين أجد الوقت لذلك .

٩ — بقية المذكرات

تلك هى حياتى . إننى أستيقظ كل يوم وأتبادل التحيات مع بعض الإيطاليين الذين ينزلون مثلى بفندق النسر الأسود، ثم أشعل سيجارة وأهبط إلى الشارع الطويل بضاحية هيوبولدستاد . وفى الزوايا المطلة على رصيف فيينا ، وهى نهر صغير يفصلنا عن المدينة الرفين يوجد مقهيان يلتقى فيهما دائماً خلايا كبيرة من الإسرائليين ذوى الأنوف المدببة ،كما يقول الشاعر هنرى هين ، ويكونون هناك ما يشبه البورصة ، وبعضهم يقيمها فى الهواء الطلق ، والبعض الآخر وهم الأكثر ثروة ، فيقيمونها فى قاعات المقهى. وهناك منازل ذوى اللحى الرائعة ، لحى الليثيين الحريرية السوداء الدهنية بعض الشىء . وهناك كذلك نسمع طنيناً مستمراً يبرر التعبير الذى ذكره الشاعر . إنها حقيقة خلايا يختلط فيها النحل بالزنابير. ومن الأمور الطيبة أن يتناول المرء كوباً صغيرة من الكيرشنواسر، فى هذه المقاهى ، وبعد ذلك يستطيع المرء أن ينحو ما شاء على القنطرة الحمراء التى تقودنا إلى روفنتور باب المدينة الحصين . ولنتريث قليلا لدى الربوة لنقرأ إعلانات المسارح على جانب الجدار أن البرج ثياتر، الذى يشبه الكوميدى فرانسيز يعلن عن بعض مسرحيات جوته أو شيلر وهما تمثلان كورنى وراسين فى المسرح الألمانى الكلاسيكى .أما مسرح باب كارنثيا فيعرض إما مسرحيات لميربير أو لبللين أو دونيزتى ، وبعد ذلك يعرض مسرح فيينا مسرحيات من نوع الميلدراما والتورفيل، وهى مترجمة عادة عن الفرنسية ، ويأتى بعد ذلك مسارح جوزنيستادو ليوبولد ستاد الخ . هذا بخلاف طائفة من المقاهى ذات المسارح التى تحدثت إليك عنها فيما سلف .

وما أن يستقر قرارى على طريقة قضاء السهرة حتى ، أعبر الباب الأحمر

تحت السور وأتجه يسار أنحو إحدى الحانات حيث توجد أصناف جيدة من نبيذ المجر وصنف التركى يبـــاع فيها بسعر ٦ كروتزر للكوب الكبيرة ويستخدم فى سق كستليتة الضأن أو الخنزير الطازج التى يرفع طعمها بواسطة ربع ليمونة .

وهناك توجد طريقة جميلة للدفع ، فلا توجـــد حافظة للنقود فهم لا يعرفونها إلا فى صورة عملة إقليمية تساوى سبعة عشر فلسا فرنسياً تقريباً . ولا تستخدم هذه العملة إلا للتكملة . أما فيما عدا ذلك فيكون الدفع بالأوراق وهناك أوراق مالية جميلة تملأ حافظة نقودك تتدرج ما بين الفرنك حتى أكبر المبالغ التى يمكن تصورها وهى مزدانة بصور مطبوعة على درجة مدهشة من الدقة، وتوحى إليك الصورة الجـانبية لامرأة تدعى أوستريا «أى النمسا» بأشد الأسف إذ تفقد بعض الأوراق التى تحمل هذه الصورة، وكذلك بأشد الرغبة فى أن نكتسب منها أوراقا جديدة . وينبغى أن نلاحظ أن هذه الأوراق المالية من نوعين ، فهى إما نقود تقليدية، ولا تمثل حينئذ إلا نصف قيمتها، أو نقود حقيقية تقدر قيمتها طبقا للظروف السياسية .

وبعد الغداء عادة أتبع طريق روثنترمسترلس ، وهو الشارع التجارى ، الذى يجعله قربه من الأسواق مزدحما حتى ألف نفس ميدان كنيسة سانت إيتين . كاتدرائية فينيا الشهيرة التى يعتبر سهمها أعلى سهم فى أوربا ، وطرف السهم منحن قليلا بسبب إصابته فيما مضى بضربة مدفع من الجيش الفرنسى ، وسطح المبنى مغطى بطبقـة من الموزايكو البراق اللامع تعكس أشعـة الشمس من بعيد .

وتمثل هذه الكنيسة بحجارتها البنية دقائق لا يصدقها العقـــل عن الهندسة الإقطاعية . وإذا تركنا هذا الأثر الشهير إلى اليسار، فإننا نصل إلى ملتقى طرق يتجه أحدها نحو باب كارنثيا والآخر نحو كوهل ماركت والثالث

نحو الجارين وفى زوايا الشارعين الأولين يوجد ما يشبه العمود ذا المصير العجيب، وهم يسمونه ستوك — أم — إيسن .

وفى الواقع ما هو إلا جذع شجرة يقال إنها كانت فيما مضى جزءاً من الغابة التى شيدت فينيا أركانها ، وقد احتفظ بهذا الجذع بعناية تقديسية محفورا فى واجهة أحد محال المجوهرات . وعلى كل عامل من أية حرفة يقدم إلى فينيا أن يدق مسماراً فى هذه الشجرة . ومنذ سنوات كثيرة لم يعد فى الإمكان دق المزيد من المسامير فيه ، ويتبارى القادمون فى المراهنة على هذا الموضوع . ها نحن أولاء على الجارين إنها الميدان الأوسط البراق فى فينا. وهى تمثل مربعاً يميل إلى الاستطالة ، وهو الشكل الذى صممت عليه جميع ميادين المدينة . أما المنازل فهى من القرن الثامن عشر، وتنتشر الزينات المرسومة بالزلط فى كل مكان،وفى وسط الميدان يوجد عمود تذكارى يشبه فى شكله العصا القصيرة للعبة البيلبواكيه .

أما الكرة التى تصاحب العصا فتتكون من سحب . متحركة تحمل ملائكة مذهبة . أما العمود نفسه فيبدو بلارأس ولا أذرع مثل تماثيل المذهب السيمانى . والكل محمل بالتعاريج والشرائط والزينات . ولنتمثل الآن جميع المحال الأنيقة فى أحياء باريس نفسها وحينئذ ستكون المقارنة حقة ، لاسيما أن أغلب المحلات يشغلها بائعو المستحدثات الذين يشكلون جزءاً أما يسمونه هنا بالجالية الفرنسية . وفى وسط الميدان يوجد محل مهدى إلى الأرشيدوقة صوفيا ، التى لابد أنها كانت امرأة رائعة الجمال إذا صدقنا اللافتة المرسومة على الباب .

ولم يتبق لى سوى شارع صغير أعبره لكى أصل إلى أهم مقهى فى كوهل ماركت ، حيث يستمتع صديقك بتناول مايسمى بالخليط ، وما هو إلاقهوة

---

(١) عصا قصيرة مدببة من طرفها مفلطحة من الطرف الآخر .

باللبن تقدم فى كوب ذات كعب ، وقراءة الجرائد الفرنسية التى تسمح الرقابة بدخولها .

الحادى عشر من يناير — إنى أجد نفسى مضطراً لقطع وقصة المتع التى أحظى بها طول اليوم لأخبرك بمغامرة أقل جمالا من جميع ما سبقها ، وقد أتت لتعكير صفوى .

ومما يجدر بك معرفته هو أنه من العسير جداً على الأجنبى أن يطيل إقامته أكثر من بضعة أسابيع فى عاصمة النمسا . بل إنه لا يسمح له ولا حتى بثمانية وأربعين ساعة ، لو لم يسع للحصول على توصية أحد رجال البنوك الذى يضمن بصفته الشخصية الديون التى تتكبدها . ثم بعد ذلك تأتى المسألة السياسية فابتداء من الأيام الأولى خيل لى أن ثمة من يتبعنى فى جميع جولاتى . وأنت تعلم أية سرعة وأى جنون للبحث والاستقصاء يدفعانى فى تجوالى بشوارع مدينة أجنبيـة ، حتى أن مهنة التجسس لابد أنها لم تكن سهلة فيما يختص بى .

وأخيراً لاحظت فرداً ذا شعر باهت كان يبدو أنه يتبع بصفة مستمرة الشوارع نفسها التى أسير فيها . واتخذت قرارى وعبرت أحد الممرات ، ثم توقفت فجأة . وحينما استدرت وجدت نفسى وجها لوجه مع ذلك الرجل الذى كان يقوم بدور ظلى . وقد كان لاهثا من التعب .

وقلت له !! من العبث أن تتعب نفسك أكثر من ذلك . فإنى معتاد على السير بسرعة كبيرة ، ولكنى أستطيع أن أضبط خطاى على خطاك وأتمتع هكذا بمحادثتك .

وبدا الارتباك الشديد على هذا الرجل المسكين . ولقد أشعت الطمأنينة فى نفسه حين ذكرت له أننى أعرف إجراءات الحيطة التى تضطر شرطة

فينا إلى اتخاذها إزاء الأجانب والفرنسيين بصفه خاصة . وسوف أذهب فى الغد إلى رئيسك وأطمئنه على نواياى .

ولم يتفوه هذا الشرطى بشىء يذكروا نفلت هاربا، وهو يتظاهر بعدم فهمه ألمانيتى الرديئة فهما جيداً .

ولكى أؤكد لك هدوئى فى مثل هذه المواقف أذكر لك أن صحفيا من أصدقائى كان قد أعطانى خطاب توصية رائعا لأحد قواد شرطة فينا . وكنت قد عزمت على عدم استخدامه إلا فى مناسبة من المناسبات الخطيرة . وفى اليوم التالى اتجهت إلى مركز الشرطة .

ولقد استقبلت استقبالا طيبا جداً . والشخص المعنى ويدعى البارون س شاعر عاطفى قديم ، وهو عضو سابق فى جماعة توحيد من الجمعيات السرية . وقد انخرط فى الشرطة حينما تقدمت به السن، كما يتحسن سلوك المرء بعد طيش الشباب، وكثير من شعراء ألمانيا قد مروا بهذه الظروف والشرطة فى فينا لها طابع تطوير فى تيسير أحسن تغير لهذا النوع من التطور .

ولقد تحدثنا فى الأدب ، وبعد أن تأكد السيدرى س » من موقفى رفع الكلفة شيئاً فشيئاً فيما بيننا .

وقال لى : أتعلم أن مغامرتك تبعث التسلية الشديدة فى نفسى ؟

وأية مغامرات تعنى ؟

تلك التى تقضيها بطريقة مسلية لصديقك . . . والتى تضعها هنا فى البريد لترسل إلى باريس .

آه ! أتقرأ هذا ؟

آه ! لا تقلق لذلك ، فلا شىء فى مراسلاتك من شأنه أن يعرضك

للخطر ، بل إن الحكومة لتضع محل التقدير أولئك الأجانب الذين بدلا من حبك المؤامرات يستفيدون من حرارة المتع التى تقدمها لهم مدينة فيينا الطيبة .

وانتهى بأن أخذ منى وعدا بالعودة متى أشاء لقراءة جرائد المعارضة فى مركز الشرطة . إذ أن ذلك هو أكثر الأماكن حرية فى الإمبراطورية . ويستطيع المرء أن يتحدث فيه عن كل شىء دون خطر . إن فيينا تبدو لى كأنها باريس فى سنة ١٧٧٠ مثلا . بل إنى أعتبر نفسى شاعراً أجنبيا تافها فى ذلك المجتمع الذى يتكون نصفه من الأستقراطية ونصفه من الشعب الذى يتسم بعدم المبالاة . وإن مايعوز الطبقة الدنيافى فيينا لكى تمثل شعب باريس القديم هو وحدة الجنس . فالأجناس السلافية والماجاربه والبترولية والإليريه وغيرها مشغولة بقومياتها المختلفة ، وليس ثمة وسيلة بينهم للتفاهم فى حالة تقارب مبادئهم . وعلاوة على ذلك فإن الشرطة الإمبراطورية الحذرة لا تترك فى المدينة عاملا واحداً بلا عمل : إن كل المهن منظمة فى طوائف ، ويخضع العامل القادم من الريف لنفس القواعد التى يخضع لها الأجنبى تقريباً . ولا بد من أن يوصى به رئيس الطائفة أو أحد الأعيان فى المدينة ، ويعتبر مسئولا عن سلوكه وماقد يعقده من ديون ، فإذا لم يتمكن من تقديم هذا الضمان يسمح له بإقامة مدة ثمان وأربعين ساعة لرؤية الآثار والغرائب ، ثم يوقعون له بطاقة الذهاب إلى أية مدينة يختارها حيث تنتظره هذه الصعوبات نفسها . وفى حالة ما إذا أبدى مقاومة يعاد إلى مسقط رأسه حيث تعتبر البلدية مسئولة عن سلوكه وتجعله عادة يعمل فى الأرض إذا كانت الصناعة فى المدن معطلة .

وإنى متفق معك على أن هذا النظام كله غاية فى التسلط ، ولكن لا بد من أن تؤمن بأن النمسا هى الصين بالنسبة لأوربا . لقد عبرت سورها العظيم . . ولا يؤسفنى إلا أنه ينقصها الموظفون المثقفون .

إن مثل هذا النظام الذى يسيطر عليه العقل كان لابد أن يكون أقل مساوىء مما هو . وتلك هى المشكلة التى حاول حلها الإمبراطور الفليسوف جوزنيف الثانى المتشرب بآراء كولتير وجماعة دائرة المعارف . إن الإدارة المالية تتبع هذا التقليد فى طغيان ، ولما لم تعد فيلسوفه فقد اكتفت بأن تكون جنية .

والواقع أن فكرة إقامة تدرج أدبى ربما كانت فكرة رائعة ، إلا أنه فى بلد يسودفيه تقليد الميراث ، فمن الشائع أن يظن الناس فيه أن ابن الأديب هو نفسه أديب . فهو يتلقى الثقافة الملائمة ، ويقرض الشعر ويكتب التراجيديا كما تعلم أن يفعل فى المدرسة ، ثم يرث موهبة أبيه وعمله دون أن يثير أية معارضة . أما إذا عجز تماما عن ذلك ، فإنه يكلف مدرسه بتأليف كتاب فى التاريخ أو بكتابة ديوان شعر أو تراجيديا بطولة ، ويحصل بذلك على النتيجة نفسها .

ومما يثبت مدى التخبط الذى يقع فيه النبلاء فى حمايتهم للأدباء أننى رأيت بعضا من أشهر كتاب ألمانيا وقد امتهنوا واستعبدوا وأخذوا يجدون فى الوظائف الحقيرة عظمتهم وقد أصابها التدهور .

ولقد كنت أحمل خطاب توصية لأحد هؤلاء ، ربما كان اسمه فى باريس أشهر منه فى فيينا . ولقد صادفت الكثير من المتاعب فى العثور عليه فى ذلك الركن المتواضع الذى يشغله من المكتب الوزارى ، ولقد كنت أود رجاءه فى أن يقدمنى فى بعض الصالونات التى لم أكن أحب أن أقدم فيها إلا تحت رعاية النبوغ . ولقد أدهشتنى إجابته وآلمتنى إذ قال : قدم نفسك ببساطة بصفتك أجنبى ، وسوف تستقبل استقبالا حافلا ، فهنا الناس كلهم طيبون ، ويسعدهم استقبال الفرنسيين أو على الأقل من لا يتسببون منهم فى أية متاعب للحكومة . أما نحن معشر الشعراء البائسين فبأى حق نلمع وسط الأمراء ورجال البنوك ؟

وآلمني هذا الاعتراف ، وكذلك التشاؤم الساخر الصادر من هذا الرجل الشهير الذى اضطره القدر إلى قبول عمل حقير فى مجتمع يعرف مع ذلك قدره ،ومع ذلك فلم يقدم لنبوغه إلا أكاليل غار عقيمة . أما وضع الفنانين فيختلف عن ذلك : إنهم يتمتعون بميزة تسلية مجتمع النبلاء الذى يستقبلهم بكل مظاهر الود والإعجاب ، وهم يصبحون فى سهولة أصدقاء كبار السادة ومريديهم الذين يرضى غرورهم أن يسدلوا عليهم حمايتهم . ولذا فهم يدعونهم إلى جميع حفلاتهم ، ولكن عليهم أن يحضروا معهم أدواتهم الموسيقية، وسيلتهم لكسب العيش . وتلك هى القلادة التى يقلدونهم بها .

الثامن عشر من يناير — لنتحدث قليلا عن متع شعب فيينا ، فهذا أدعى للتسلية . إن المهرجان يقترب، وإنى لأتردد كثيراً على مراقص « السيول » والبيرة ، وهما أكثر تسلية من غيرهما ويخاطبان الطبقة البورجوازية بصفة خاصة . إنها أمكنة فسيحة ذات زينات فخمة ، والنساء أكثر أناقة فى الملبس أى أنهن يتبعن المستحدثات الباريسية أكثر مما تفعل الطبقة الدنيا ،وهذا مما يمثل هنا طبقة العاملات . أما رقصة الثانى فهى فى مثل القوة والحيوية اللتين تؤدى بهما فى الحانات ، وسحب الدخان التى تثيرها ليست قط أقل كثافة .

وفى السيول كذلك يتناول الناس عشاءهم وسط الرقص والموسيقى ، ويدور الرقص الراكض وسط الموائد دون مضايقة من يتناولون عشاءهم .

وآسف إذ لم أستطع أن أتحدث إليك حتى الآن إلا عن المتع الشتوية لشعب فيينا . ان البراتز الذى لم أره إلا وقد تجرد من خضرته لم يفقد مع ذلك كل جوانب الجمال فيه . وفى أيام سقوط الثلج بصفة خاصة يقدم لنا منظراً ساحراً وتأتى الجموع من جديد لتجتاح مقاهيه العديدة وملاهيه وحدائقه الأنيقة التى تبدو لنا خمائلها فى أول الأمر خاوية . وتجوب قطعان التيوس الجبلية هذه الدانواب فى تقسيم الغابات والمراعى الى جزر . والى اليسار من الدانواب . ذلك ان فيينا ليست أقرب إلى الدانوب من ستراسبورج بالنسبة لنهر الراين .

ذلك هو الطريق الذى يمثل الشانزليزيه فى هذه العاصمة . لم تكن حدائق شونبرن أقل الحدائق كآبة فى اللحظة التى جبتها فيها . وشونبرن هى فرساى فينا . وتعتبر قرية هتيزنج المجاورة لها ملتقى الصحبات المرحة فى جميع أيام الاحاد . ويقود اشتراوس الابن فرقته الموسيقية فى ملهى هيتزنج طوال اليوم ، ثم يعود فى المساء فيقود رقصات الكالس فى سيرك . ولكى يصل المرء إلى هيتزنج ينبغى أن يعبر فناء قصر شونبرن . وثمة تماثيل من المرمر تحرس المدخل وقد زين هذا الفناء المهجور المهمل كله على طراز القرن الثامن عشر . أما القصر ذو الواجهة التى توحى بالعظمة ، فلا يحوى من مظاهر الأبهة من الداخل سوى اتساع قاعاته حيث تغطى الدهانات فى كل مكان الزلط المذهب القديم ، ولكن إذا خرجنا من ناحية الحدائق فسوف نمتع أنظارنا بمنظر رائع لا تقلل ذكرى سان كلوو فرساى من تأثيره . وقد بنى جناح الأمبراطورة ماريا تريزا الذى يقع على تل تمتد تحت أقدامه بساط فسيح من الخضرة على طراز غاية فى السحر لا أستطيع أن أقارن به شيئاً ؛ فهو يتكون من بهو طويل ذى أعمدة مكشوف كله ، وقد أحيطت الأروقة الأربعة فى وسطه وحدها بالمرايا لتكون غرفه للاستراحة . وهذا البناء يعتبر قصرا و قوس نصر فى وقت واحد . وإذا شاهدناه من الطريق فهو يتوج القصر بعرضه كله ويبدو كأنه جزء منه ، ذلك أن التل الذى شيد فوقه ترتفع قاعدته إلى مستوى أسطح منازل شونبرن . ويجب أن نصعد طويلا مارين بممرات الصنوبر والنجيل والنافورات المنحوته على طراز بوجيه وبوشاردون .

وتبدى غادتان فرنسيتان إعجابهما بجيل أوليا المصطنع هذا ، حتى نصل أخيراً إلى درجات هذا الممر المعبد الجدير بها الذى ينتصب بشدة فى الهواء جاعلا جميع تماريجه والآنسة دى سكودرى وأعالى أعمدتها تطفو فيه .

وإنى لأهرب وسط الحديقة لأعود إلى ضواحى فينا عن طريق ذلك

الطريق الجميل طريق ماريا هيلف الذى يزدان إلى مسافه فرسخ بصفين من أشجار السرو، الضخمة وتتزاحم الجموع فى ملابس الأحد دائماً نحو هتزنج، ويتوقفون كثيراً فى المقاهى والملاهى التى تحف بوسط الطريق كله، وهذا هو أجمل مداخل فيينا، إنها كورتيل الوقور البورجوازية التى لا تسبح عنها المواكب الجميلة.

ولكى أنتهى من وصف ضواحى فيينا التى لا يمكن إطلاقا أن نفصل عنها شوينرن وهتزنج يجب أن أذكر لك المزيد عن المسارح فى فيينا. ومسرح جوزنيستان وليوبولد ستاد هى فى الواقع مسارح مخصصة للشعب ونستطيع مقارنتها بمسارح الفرق الدنيا.

أما مسارح فيينا الأخرى كمسرح البرج للكوميديا والدراما ومسرح باب كارنتيا للباليه والأوبرا فتقع لدى سور المدينة. ومسرح فيينا رغم مهمته المتواضعة هو أجمل مسارح المدينة وأورعها زينة، وهو فى مثل اتساع أوبرا باريس، ويشبه أكبر مسارح إيطاليا بهيكله وزيناته. وتؤدى فيه الدراما التاريخية وباليه الحور وبعض التمثيليات الصغيرة التى تستخدم كمقدمة والتى تقلد عادة التورفيل لدينا.

تلك هى المتع التى يتمتع بها شعب فيينا أثناء الشتاء، ولا يمكننا دراسة تلك المدينة بكل مالها من طابع طريف نصف سلافى ونصف أوربى. أما فى الصيف فيرحل المجتمع المرموق ليجوب إيطاليا وسويسرا ومدن الحماميات أو يبقى فى قصورها فى هنغاريا أو بوهيميا، وينقل الشعب إلى البراتز وأوجارتن وهيتزنج جميع أعياده وما يتصل بها من فالس ودعـــوات إلى النساء لا نهاية لها.

فيحب إذن أن نستقل السفن فى الدانوب أو البريد الامبراطورى ونترك تلك العاصمة وحياتها اليومية التى تعتبر متغيرة وواحدة الوتيرة فى وقت واحد.

١٠ — بقية المذكرات

لنعد إلى قصة مغامراتنا .. والآن لننفخ فى النفير ولنعط هذا الشقاء السابق ثمنا لجميع الانتصات التى حققناها اليوم . ها نحن من الضاحيـة قد انتقلنا إلى المدينة .

لا لم يتم ذلك بعد .

لقد وصفت لك حتى الآن ياصديق بأمانة علاقاتى مع حسناوات من الطبقات الدنيا . . . ياللحسان المسكينات ؟ إنهن مع ذلك على قـدر كبير من الطيبة والوداعـة : لقد أعطتنى أولاهن كل ما تستطيع من حب : ثم رحلت كلك جميل لزيارة أمها فى برون : أما الفتاتان الأخريان فقد كن يستقبلننى فى ودشديد ويفترلى ثغرهن عن ابتسامه كالزهر ينتظر الثمر ، ولم يكن أمامى سوى الصبر بعض الوقت من أجل المدينة والضواحى : ولـكن ياجيلاتى إن الرجل الفرنسى طائش : لقد حطم الفرنسى الثلج الذى يشكل عقبات للمسافر البسيط فى فينا ، ذلك الذى يمر مر الكرام ويطير :

أما الآن فقد اكتسبنا حقنا المدنى،وأصبح لنا بيت مستقل.إننا نتحدث إلى سـيدات عظيمات ؟ وكما يقول صديق بوكاج : إنهن سـيدات عظيمات كما ترى !

وسوف ترى الآن كيف أنى قـد جننت من الفرح : كلا إنى هادىء جداً ؟ إن الأمر كما قصصته عليك : هذا هو كل شىء .

إنى أتردد فى أن أتم لك اعترافى أيها الصديق! وكما تستطيع أن تلاحظ لقد ترددت طويلا فى البعث بهذه الرسالة إليك :

ألا يعتبر سلوكى مشينا إزاء هذه المخلوقات الطيبة اللاتى لم يكن يتصورن أن أسرار جمالهن وتذوقهن سوف تتناثر فى العالم أجمع وتذهب إلى مسافة

أربعمائة فرسخ لتبعث السرور فى نفس واعظ متبرم ، هو أنت نفسك ، وتقدم له سلسلة من الملاحظات الفسيولوجية ؟

لا تفش للبارسيين خاصة سر نجوانا هذه ، أو قل لهم إن كل ذلك من نسج الخيال، وأنه قد حدث من زمن بعيد ، كما قال راسين فى مقدمة مسرحية بإجازن ، وأخيراً ان السماء والعناوين والبيانات الأخرى من الغموض بحيث لا يبدو منها أى شىء كأنه إفشاء للسر . ومع ذلك فماذا يهم؟ اننا لا نحيا ولا نحب، وإنما ندرس الحياة ونحلل الحب. إننا فلاسفة !

للقصور مدفأه كبيرة من الرخام المنحوت . والمدافىء نادرة فى فينا ولا توجد إلا فى القصور ، والكراس ذات الأذرع ، والأرائك ذات أرجل مذهبة ، وحول القائمة توجد نضد مذهبة . إن كل شىء كامل كما ترى :

وأمام هذه المدفأة تجلس ثلاث ساحرات إحداها من فينا والثانية إيطالية والثالثة انجليزية .

وإحدى الثلاثة هى سيدة البيت ، ومن الرجال الموجودين هنا اثنان برتبة كونت والثالث أمير مجرى والرابع وزير والآخرون من شباب المستقبل . والنساء يصحبن أزواجهن أو عشاقا معترفا بهم وأنت تعلم أن العشيق يتخذ صفة الزوجة أى لا يعتبر شخصا مذكرا . إن تلك الملاحظـــة متطرفة أليس كذلك !

وهكذا وجد صديقك نفسه الرجل الوحيد فى هذا المجتمع إذا تأملنا فى وصفه . واذا استبعدنا سيدة البيت أو هذا ما ينبغى عمله ، فإن لصديقك الحظ فى لفت نظر اثنتين من السيدات الباقيات ، بل ولن يكون له فضل كبير فى ذلك للأسباب التى شرحتها لك .

ولقد تناول صديقك عشاءه فى راحة تامة ، وشرب من نبيذ فرنسا والمجر

وتناول القهوه والمشروبات . إنه حسن الهيئة وملابسه تتميز بدقة لذيذة ، وشعره ناعم ذو تموجات خفيفة . إن صديقك يخالف ليعرف ، وهو أمر قد استنفذ منه عشر سنوات فى بلادنا إلا أنه مازال حديثا هنا ، ولا يستطيع السادة الأجانب الكفاح فى هذا الميدان الذى طالما قلبنا أرضه . إن صديقك يشع ويتطاير منه الشرر ، وإذا لمسته خرجت منه النار ، إنه لشاب جرىء وتعجب به السيدات إعجابا شديداً ، بل إن الرجال كذلك قد سحروا به . إن سكان هذا البلد على قدر كبير من الطيبة ! ويعتبر صديقك متحدثا مرحا ، ويشكو الناس من قلة كلامه . ولكن إذا ما أخذه الحماس انطلق لسانه ! وأذكر لك أن إحدى السيدتين تعجبنى كثيرا والأخرى تعجبنى هى الأخرى كثيراً ، ومع ذلك فان لهجة الانجليزية فى الحديث لطيفة جداً ، وهى تملأ مكانها بجوارى . إن شعرها أشقر جميل ذو انعكاسات حمراء وجلدها أبيض جداً ، إنها مزيج من الحرير والقطن والتيل واللآلىء والكهرمان ، ولا نعرف ماذا عسى أن يوجد وسط كل هذا إلا أن كل شىء حسن التنسيق .

هذا نوع من الجمال والسحر بدأت الآن فى فهمه . إننى أقترب من الشيخوخة لدرجة أننى أقضى السهرة كلها مشغولا بتلك المرأة الجالسة فى مقعدها . أما الأخرى فيبدو أنها كانت مسرورة جداً بالحديث إلى رجل متقدم فى السن يبدو أنه شديد التعلق بها كعاشق ولهان ، مهمته لا تعدو أن يتبعها فى كل مكان على المسرح . لقد كنت أتحدث إلى السيدة الصغيرة الزرقاء ، وأعبر لها بحرارة عن إعجابى بشعر الشقراوات ولون بشرتهن ، وها هى الأخرى تعبر لنا أنها تقطع الحديث مع عاشقها فجأة لتشترك فى حديثنا ، وأرادت أن تغير موضوع الحديث . وكانت قد سمعت كل شىء . فأسرعت باستثناء السمراوات وذوات البشرة البيضاء . فقالت لى إن بشرتها سوداء بحيث أن حديثك قد أصبح مضطرا إلى الاستثناءات والمجاملات والمعارضات

فظننت حينئذ أنى لم أخسر إعجاب السيدة السمراء . وقد استأت لذلك لأنها رغم كل شيء جميلة جداً وشديدة العظمة فى ثوبها الأبيض وتشبه لاجديز فى الفصل الأول من مسرحية (دون جوان). ولقد ساعدتنى هذه الفكرة على وضع الأمور بعض الشيء فى نصابها . وبعد يومين التقيت فى الملهى بأحد الكونتين اللذين كانا هنا، لقد ذهبنا بالمصادفة للعشاء معاً ثم إلى المسرح . وهكذا اتصلت العلاقة بيننا ، ووقع الحديث على السيدتين اللتين تحدثت عنهما فيما سبق،فاقترح على أن يقدمنى إلى إحداهن السوداء.واعترضت بذلك الخطأ السابق الذى ارتكبته ، فقال لى إن ذلك على العكس قد كان له أحسن الأثر . إن هذا الرجل عميق التفكير . ولقد خشيت فى أول الأمر أن يكون عشيقا لتلك السيدة . ولا يهدف إلا إلى الخلاص منها . لاسيما حين قال لى : إن معرفتها بسرعة جداً،لأن لهامقصورة فى مسرح باب كارتينا وسوف يكون لك أن تذهب متى تشاء ، فقلت أيها الكونت العزيز إن هذا أحسن جداً فلتقدمنى لهذه السيدة .

وأخطرها بالأمر وهأنذا فى اليوم التالى لدى هذه السيدة الجميلة فى حوالى الساعة الثالثة . وكانت قائمة . فلم يكد يحس أحد بوجودى ، ومع ذلك فقد حيانى أحد الإيطاليين ، وانصرف، ثم تلاه شخص بدين ذكرنى بهير براند المسجل المساعد لهوفمان ،ثم ذلك الرجل الذى ينوى تقديمى، وكان مشغولا ، وتبق الأمير المجرى والعاشق الولهان . وأردت النهوض بدورى إلا أن السيدة استبقتنى وسألتنى ما إذا . . !

لقدكنت على وشك كتابة فيهاشيء من الدلالة.وأخيرا أعلم أنها لم تطلب إلىَّ إلا أن أؤدى لها خدمة صغيرة أستطيع أداءها . وذهب الأمير ليلعب جولة من جولات كرة الطابق . أما الرجل المسن ، ولتسمه المركيز إذا شئت ، أما المركيز المسن فقد صمد . فقالت له يا عزيزى المركيز لا أطلب منك الانصراف . إلا أننى يجب أن أقدم بعض الأعمال الكتابية ، فنهض

ونهضت أنا أيضاً . فقالت لى : لا بل ابق يجب أن أعطيك الرسالة . ها نحن أولاء قد أصبحنا وحدنا، ثم استرسلت قائلة : ليس لدى رسالة أعطيها لك . لنتحدث قليلا . فإن الحديث إلى الكثرة من الناس يبعث على السأم .

ولكن يخيل إلى أنى سوف أقص عليك أكثر المغامرات شيوعا فى العالم هل تسر بذلك ؟ ولماذا ؟ إننى أعترف لك بأن تلك المغامرة قد انتهت نهاية سيئة . ولقد كنت قد استرسلت فى لذة وصف غراميات الطريق التى صادفتها . إلا أن ذلك لم يكن إلا نوعا من دراسة العادات البعيدة عنا . وكان الأمر يتعلق بنساء لا يتحدثن تقريبا أية لغة أوربية . أما عما تبقى لى أن أقوله ، فقد تذكرت فى الوقت المناسب ذلك البيت من الشعر : لكلوبسترك . هنا يشير إلى كتمان السر بأصبعه الحديدية .

ملاحظة : لاتسرف فى لومى على هذه المراسلة المفككة ؛ فلقد عشت فى فينا هذا الشتاء فى حلم متواصل . ترى أهو جو الشرق اللطيف الذى يؤثر فى فكرى وقلبى . ومع ذلك فإنى مازلت فى منتصف الطريق .

الأدرياتى

ياللكارثة ! أيها الصديق . كيف أصف لك كل ما حدث لى ، أو كيف أجرؤ بعد الآن على أن أبعث برسالة خاصة عن طريق البريد . الإمبراطورى .

إنى أكتب إليك ومدينة تريستا تلوح لناظرى . وهى مدينة عامة تقع على لسان من الأرض يمتد فى الأدرياتى بشوارعها الكبيرة التى تقسمها إلى زوايا قائمة ، والتى تهب منها الرياح بصفة مستمرة . وهناك ولاشك مناظر جميلة على الجبال القائمة التى تخترق الأفق . بيد أنه فى مقدورك أن تقرأ عنها الكثير من روائع الوصف فى روايتى : حسان سبوجار ، مدموازيل دى مارسان ، تشارل نوريه . فمن العبث إذن أن نأخذ فى وصفها من جديد . أما عن رحلتى هناك فى فينا فقد قمت بها بالقطار فيما بعد . وقد تسألنى لماذا لم أتوجه إلى الشرق عن طريق الدانوب كما كنت أنوى من قبل . ولذا فإنى أخبرك بأن المغامرات اللطيفة التى جعلتنى أتوقف فى فينا وقتا أطول مما كنت أود . قد عاقتنى عن اللحاق بآخر باخرة هابطة نحو بلغراد أو سملين . حيث يستقل الناس عادة العربة التركية .

وبدأ تساقط الثلوج ولم يعد من المستطاع الإبحار . وقد كنت فى ظنى أعتزم قضاء الشتاء فى فينا . وألا أرحل من جديد إلا فى الربيع . وربما لا أرحل أبدا إلا أن الآلهة قد قررت أمرا آخر .

كلا إنك لم تعرف شيئا بعد ، وكان يجب أن أضع البحر بامتداده الشاسع بينى وبين . . .

ذكرى جميلة حزينة .

وهبطنا الأدرياتى فى جو فظيع . كان من المستحيل رؤية أى شىء فيما عدا شواطىء إفليريا التى يحجبها الضباب . إلى اليسار وجزر أرخيل والمساسيا العديدة . أما بعد الجبل الأسود نفسه فلم يكن يظهر فى الأفق إلا ظل قاتم لحناه ونحن نمر أمام راجوزا . المدينة الإيطالية الطابع . وتوقفنا فيما بعد فى كورفو لنتزود بالوقود ونستقبل بعض المصريين . وعلى رأسهم تركى يدعى سليمان أغا . ولقد استقر هؤلاء القوم الشجعان فوق السفينة ، حيث ظلوا جالسين القرفصاء نهاراً وراقدين ليلا . كل فوق البساط الخاص به . أما رئيسهم فقد انضم هو وحده إلينا فيما بين الطابقين . وجعل يتناول وجباته على مائدتنا . لقد كان يتحدث الإيطالية قليلا ، ويبدو أنه رفيق على شىء غير قليل من المرح .

وازدادت حدة العاصفة حينما كنا نقترب من اليونان، وكانت اهتزازات السفينة من جانب إلى آخر أثناء الغداء من العنف بحيث جعلت رواد المائدة يلوذون شيئاً فشيئا بأسرتهم المعلقة .

وفى مثل هذه الظروف ، حينما يأخذ الجالسون على المائدة فى التناقص بشكل غير محسوس ، بعد أن كانوا يملئون القاعة ، ووسط قهقهات من كان منهم مازال يقاوم تأثير الاهتزازات الطويلة للسفينة ، فإنه سرعان ما تتكون بين هؤلاء شبه أخوة بحرية . ومالم يكن بالنسبة للباقين وإلى مأدبة حافلة يسعون إلى إطالتها أطول وقت ممكن . ومثل ذلك مثل الزجاجة فى لعبة البلياردو . فالأمر يتوقف على عدم الموت ...

سوف نرى ما إذا كانت الإشارة إليه هى إشارة مازحة : قد يتبقى منا أربعة على المائدة بعد أن رأينا ثلاثين ممن يأكلون يفشلون فشلاذريعاً، وكان هناك بخلاف سليمان وبخلاف قبطان انجليزى وراهب من الأراضى المقدسة . يدعى الأب (شارل) كان قبطاننا يضحك بقلبه معنا . ولقد لفت

نظرنا إلى أن سليمان لم يصب لنفسه أى نبيذ فى ذلك اليوم، فى حين أنه عاد يعب منه عبا ، ولما أبدى له تلك الملاحظة مازحا لم يجب التركى .

أما اليوم فإن الرعد جد شديد وفرغ الأب شارل من المائدة وسحب سيجارة من كمه وقد تدلى فى ورقة كبيرة وأشعله . وكنت أود أن أبقى فى صحبة الاثنين الباقيين . ولكن لم ألبث أن شعرت بأنه من الأصح أن أذهب لاستنشاق الهواء على ظهر السفينة. ولم ألبث على ظهرها إلا فترة ،إذ أن العاصفة كانت على أشدها . وأسرعت إلى اللجوء إلى ما بين الطابقين ، حيث كان الانجليزى مستسلما لمرحه وقهقهته . وهو يأكل من الصحاف جميعاً، ويقول إنه يستطيع فى سهولة أن يأتى على غداء الرواد جميعا . وصحيح أن التركى كان يساعده فى ذلك بشدة . وإتماما لهذا التحدى طلب زجاجة من نبيذ الشمبانيا، وقدم لنا جميعا منها ، فلم يقبل أحد دعوته . كانوا راقدين على فراشهم ـ حينئذ قال للتركى : حسن سوف نشربها معا . إلا أن الرعد فى هذه اللحظة كان مازال يوالى ضرباته،وغادر سليمان المائدة . ربما ظنا منه بأن ذلك إغراء من الشيطان واندفع خارج المكان ، دون أن يجيب بشىء .

وصاح الانجليزى فى حرج : حسن مرحى سأشربها وحدى، ثم أشرب أخرى بعدها . وفى صبيحة اليوم التالى كانت العاصفة قد هدأت . ولما دخل الخادم القاعة وجد الانجليزى راقداً نصف رقدة إلى المائدة ،وقد أسند رأسه إلى ذراعيه . ولما هزه وجده ميتا ،وصاح التركى « بسم الله » وهى العبارة التى ينطقون بها لإبعاد كل شر مستطير .

نعم . لقد مات الإنجليزى ، وأسف الأب شارل ، لأنه لم يتمكن من الصلاة عليه كقسيس ، ولكنه بكل تأكيد قد صلى عليـــه فى دخيلة نفسه كرجل .

ياللمصير المحتوم الغريب : لقد كان هذا الإنجليزى الذى كان قبطانا قديما فى شركة الهند يشكو من مرض فى القلب ، وقد نصحوه بأن يشرب من ماء النيل ، إلا أنه النبيذ لم يمنحه الوقت الكافى لكى يصل إلى الماء .

ترى : أهذه ميتة جد تعسة ! سوف نمر فى سيريجو فنترك بها جثمان الإنجليزى ، وستكون تلك فرصة لى لزيارة تلك الجزيرة التى لا تتوقف بها السفينة عادة .

الأرخبيل

كان قد أعلن إلينا مساء أمس : أننا سوف نتمكن لدى الفجر من رؤية شواطىء المورة ، ولقد كنت على ظهر السفينة ابتداء من الساعة الخامسة أبحث عن تلك الأرض المختفية ، ووقفت على حافة تلك العجلة الزرقاء القائمة التى ترسمها المياه تحت قبة السماء . أرقب جبل الميناء قرب « إسبرطة » البعيد ، كما أرقب ظهور أحد الآلهة . وكان الأفق مازال معتما . إلا أن نجمة الصباح كانت ترسل أشعة من النار الصافية فترسم الخطوط على صفحة البحر . وكانت عجلات السفينة تطرد الزبد البراق الذى كان يرسل ذيله الفوسفورى الطويل بعيدا خلفنا . ولقد قالت كورين بطلة رواية « مدام دى ستايل » وهى تلتفت نحو الأدرياتى . إن اليونان تقع فيما وراء هذا البحر .... لا تكفى هذه الفكرة للتعبير عن فيننا .

أما أنا ، وأنا أسعد حالا منها ومن رينكان . الذى ظل طول حياته يحلم باليونان ومن أغا كريون العصر الحديث الذى يتمنى أن يموت فيها . أما أنا فسوف أراها مضيئة تنبعث من مياه البحر مع الشمس .

وقد رأيت اليونان هكذا . مارأيتها . وبدأت يومى كلحن من ألحان « هوميروس » لقد كان الفجر ذو الأصابع الوردية هو الذى فتح لى حقا أبواب الشرق ولنكف عن الحديث عن الفجر فى بلادنا . فإن اللهفة لا تذهب بعيدا إلى هذا الحد . إن مانسميه نحن الهمجيين بالفجر أو مطلع النهار ليس إلا انعكاسا باهتا . ويزيد فى بهتانه ما تشعر به أجواؤنا من إجداب .

ولتنظر انبعاث الأشعة الوردية المتجمعة فى باقات من ذلك الخط

المتوهج الذى يزداد اتساعا فوق حلقة المياه . فتجعل الهواء يمث الحياة فى زرقة السماء . ذلك الهواء الذى كان مايزال ساكنا فى الطبقات العليا . أفلا يخال المرء أن إحدى الالهات بجبينها وذراعيها الممتدتين ترفع شيئا فشيئاً خمار الليالى المتوهج بالنجوم .

إن اليونان قادمة نحونا . إنها تقترب . تنزلق فى روعة فوق الأمواج المقدسة التى منحتها « الهة سيتر » الحياة . ولكن ماذا أقول .

إن أمامنا هناك فى الأفق ذلك الساحل القرمزى . وتلك التلال الأرجوانية التى نخالها سحبا . إنها جزيرة فينوس نفسها . إنها «سيريجو» القديمة ذات الصخور الرخامية . إن تلك الجزيرة تدعى اليوم «سيريجو» وتقع تحت سيطرة الانجليز .

ذلك هو حلمى ... وتلك إفاقتى . والسماء والبحر مازالا ماثلين : سماء الشرق وبحر أيونة اللذان يتبادلان كل صباح قبلة الحب . ولكن الأرض قد ماتت . ماتت تحت يدى الإنسان . وطارت منها الآلهة . ولنعد إلى النثر فنعترف بأن « سيتير » لم تحتفظ من جمالها الغابر كله إلا بصخورها الرخامية الحزينة فى مرآها ، كما لو كانت صخورا بسيطة من الحجر الرملى . ولا توجد شجرة واحدة على الشاطىء الذى سرنا بحذائه ، ولاوردة واحدة للأسف . ولا قوقعة واحدة على هذا الشاطىء الذى اختفت فيه آلهة البحر الأبيض المتوسط صدفة فينوس . كنت أبحث عن ذراع الرسامة نازد وبراعتها وشعورها المزدانه بأكاليل من الزهـــور وهى تقترب من الشواطىء المزهوة ، وكنت أحلم بزرافات حجاج الحب ذوى المعاطف الحريرية البراقة المتوهجة الألوان . فلم ألمح إلا وجيها يصطاد الدجاج البرى والحمام وبعض الجنود الالتوسيين الشقر الشعر الحالمين الذين كانوا ربما يتطلعون إلى الأفق إلى ضباب بلادهم .

وقد اضطر الحادث الذى أرسلت الحديث عنه السفينة إلى التوقف فى ميناء سان فوكولديا ، فى الطرف الشرقى للجزيرة فى مواجهة جليد ساتتانج الذى كنا نلمحه على بعد أربعة فراسخ من البحر ، ولم يسمح وقتنا الضئيل لأحد بزيارة كابسالى عاصمة الجزيرة إلا أننا كنا نلمح ناحية الجنوب الصخرة المشرفة على المدينة ونتمكن منها من رؤية سطح سيرجو بأكمله ، وكذلك جزء من المورة ، بل وحتى شواطىء كاندى عندما يكون الجو صافياً

إن معبد فينوس السماوية يقع على هذا الارتفاع ، ويحف به اليوم أحد القصور الحربية . كانت الإلهة مرتدية ملابس الحرب ومزودة بحربة . وتبدو للرائى كما لو كانت تسيطر على البحر ، وتسهر على مصائر الأرخبيل اليونانى ، مثلها مثل تلك الوجوه الغامضة المسحورة التى نراها فى القصص العربية التى ينبغى القضاء عليها لإبطال السحر الملازم لوجودها .

إن الرومان من سلالة فينوس عن جدهم إينوم الذين استطاعوا وحدهم نقل تمثال فينوس الرائع المصنوع من خشب الرند من تلك الصخرة . وتدل خطوطه القوية الملتفة بعلامتها الرمزية على الفن البدائى لشعب اليونان والأرخبيل العتيق . لقد كانت هى نفسها الآلهة العظيمة الولود ، أفروديت ، السوداء التى تغطى رأسها بهلالها المرصع المقدس ، وقد قيدت قدماها بالحديد كما لو كانت مرتبطة بالقوة بمصائر اليونان التى هزمت غزوا ضد موطنها العزيز ، ولقد نقلها الرومان إلى الكابتول وبعد قليل . يالعجائب المقادير ـ أصبحت اليونان تنتمى إلى السلالة الناهضة من مهزومى طروادة .

١٣ — قداس ڤينوس

إن كتاب « هيبنيروماكيا » يعطينا بعض التفاصيل المثيرة عن ديانة فينوس السماوية فى جزيرة سيتير . ودون ماحاجة إلى اعتبار هذا الكتاب الذى لون الخيال فيه كثيراً من الصفحات حجة،فإننا نستطيع أن نصادف فيه كثيرا نتائج دراسات وانطباعات أمينة .

لقد استعد الحبيبان بوليفيل وبوليا للحج إلى سيتير فاتجها إلى شاطىء البحر إلى معبد فينوس فبسبوزويا . وهناك قامت الراهبات بتوجيه من متعبدة تغطى رأسها بغطاء عال مدبب الطرف بتوجيه الصلوات إلى الإلهة فوريكول وليمنتان والإلهة كاردنيا . وكانت الراهبات مرتديات ثياباً حمراء قانية ،ويلبسن كذلك قمصانا كنائسية من القطن الفاتح اللون أقصر قليلا من الثياب . وكانت شعورهن تتدلى على أكتافهن . وكانت أولاوهن تمسك بكتاب الاحتفالات والثانية بحرملة من الحرير الرفيع والأخريات بصندوق للمخلفات من الذهب وبسكين الضحية وإناء النبيذ ، والسابقة تصنع غطاء للرأس من الذهب بكل مايتدلى منه . وكانت هناك راهبة أصغر من الأخريات تحمل شمعة بكر . وكن جميعاً يضعن تيجانا من الزهور . وكانت الحرملة التى ترتديها المتعبدة متصلة على الجبين بقفل مرصع بحجر طلسم ، يمكن بواسطته رؤية وجوه الآلهة .

وقامت المتعبدة بتقريب العشاق من بئر وسط المعبد ، وفتحت غطاءه بمفتاح من الذهب ،ثم أخذت تقرأ فى الكتاب المقدس على ضوء الشمعة وباركت الزيت المقدس ونثرته فى البئر وأدلت الشعلة قرب الفتحة ،وهى تقول لبوليا : ماذا تطلبين يا ابنتى ؟ فقالت لها : إننى ياسيدتى أطلب الرحمة للشخص الذى يرافقنى ويتمنى لو استطعنا أن نذهب معا إلى مملكة الأم الكبيرة المقدسة لنشرب من نافورتها المقدسة ، وعلى ذلك استدارت المتعبدة جهة

بوليفيل وسألته السؤال نفسه ، وطلبت منه أن ينير الشعلة تماما فى البئر. ثم ربطت الإناء المسمى «ليباست» بحبل رفيع ودلته حتى الماء المقدس وملأته لتسق منه بوليا . وأخيراً أغلقت البئر ودعت الإلهة أن ترعى العاشقين .

وبعـــد هذه الطقوس اتجهت الراهبات إلى ما يشبه أن يكون غرفة لملابس الراهبات ، حيث كن قد أحضرن بجعتين بيضاوين وإناء مملوءاً بمـاء البحر ، ثم يمامتين مربوطتين فى سلة مزدانة بالودع والورود وضعت كلها على مائدة القرابين . وركعت الفتيات حول المعبـد وأخذن يصلين للوصيفات القـديسات أجلايسة وتاكيا وأفروزينيه وزيرات سيتير ، ودعونهن أن يغادرن النافورة أسيدال الـكائنة فى أرشومين حيث يقمن بوصفهن وصيفات مقدسات الصلوات المقدسة باسمهن إلى سيدتهن .

وبعد هذه الدعوات اقتربت بوليا من المعبد المغطى بالروائح والعطور وأشعلت النار بنفسها ،وأخذت تغذى النار بأغصان الرند الجافة. ثم وضعت فيها اليمامتين بعد ذبحهما بسكين القرابين ونزع ريشهما على مائدة الطقوس والاحتفاظ بدمهما فى حوض مقدس .

وحينئذ بدأت الطقوس الدينية على أنغام إحدى المنشدات ، وكانت الأخريات يرددنها خلفها . وكانت راهبتان شابتان تجلسان أمام المتعبدة يصحبان الحفل على الناى الليدى بأنغام ليديه . (١)

وكانت كل راهبة من الراهبات تحمل غصنا من أغصان الرند، وتغنى على أنغام الناى ، وترقص حول المعبد أثناء احتراق القربان.

---

(١) نسبة إلى مملـكة ليديا ، وهى مملـكة قديمة على بحر ايجه

١٤ – حلم بوليفيل

إن رغبتى أبعد ما تكون عن ذكر بوليفيل كدليل على قاطع . لقد استسلم بوليفيل أى فرانشسكو كولونا ، بلا شك لأفكار زمانه وخيالاته . إلا أن هذا لا يمنع من أنه قد استوحى بعض أجزاء كتابه من المراجع اليونانية واللاتينة . ولقد كنت أستطيع أن أحذو حذوه إلا أننى فضلت ذكره هو كمرجع .

ويصفح عنى بوليفيل وبوليا شهيدا الغرام المقدس ، لأننى أتعرض لذكرهما ! فإن المصادفة ، إذا كانت هناك مصادفة ، هى التى وضعت قصتهما الصوفية بين يدى . ولقد كنت أجهل فى تلك الساعة نفسها أن عالما أكثر شاعرية منى ، وشاعراً أكثر منى علما قد أضاء على هذه الصفحات آخر بريق العبقرية التى كان يخفيها جبينه المحنى . لقد كان مثلهما واحدا من أوفى رسل الغرام الخالص ... ومن يعتبر بيننا واحداً من خير هؤلاء الرسل .

ولتتل كذلك يا صديق الطيب نوديه هذه الذكرى لواحد من أصدقائك المجهولين ، وهو نفس جميلة مقدسة ، كان يخلدهما وهو يموت ! لقد كنت مثلك أومن بهما وأومن مثلهما بالحب السماوى الذى كانت بوليا تشعل جذوته وفى الفضاء كان بوليفيل يشيد له فى فكره قصره الفخم على صخور سيتير . إنك تعرف اليوم من هم الآلهة الحقيقيون ، إنهم أرواح مزدوجة التيجان ؛ فهى وثنية بالفكرة ومسيحية بالقلب !

وأنا الذى سأهبط فى تلك الجزيرة المقدسة التى وصفها فرانشسكو دون أن يراها ، ألم أزل للأسف ابنا لهـــذا القرن الضائع فى الأوهام ،

الذى يحتاج لأن يلمس الشىء حتى يؤمن به ، وأن يهيم فى أحلام الماضى ، وعلى أنقاضه ؟ لم يكفنى أن أوارى القبر غراميانى بلحمها ورمادها حتى أتأكد من اننا نحن الذين نسير فى عالم من الأشباح .

لقد عرف بوليفيل ، وهو أرجح منا عقلا سيتير الحقيقية فلم يزرها ، والحب الحقيقى فرفض صورته الفانية . إنها قصة مؤثرة تجب قراءتها فى كتاب ورديه الأخير، حين لا نستطيع تخيلها تحت التصوير الشعرى لحلم بوليفيل .

لقد كان فرانشسكو كولونا ، مؤلف هذا الكتاب ، رساما بسيطا من رسامى القرن الخامس عشر، أحب الأميرة لوكريشيا بوليا أميرة تريفيز حيا جنونيا : ولما كان يتيما تولى تربيته جيا كوبو بللينى والد الرسام الشهير الذى نعرفه،فلم يكن يستطيع أن يرفع عينيه إلى رؤية بيت من أكبر بيوتات إيطاليا . فكانت هى التى قامت بتشجيعه ، منتهزة فرصة الحرية التى تمتعت بها فى ليلة الكرنفال،فشجعته على أن يقول لها كل شىء ،وأبدت تأثرها لآلامه ، إن وجه لوكريشيا بوليا لوجه نبيل ، وهى الأخت الشقيقة لجوليت ولبونور وبيانكا كابيللو . ولقد كان الزواج بينهما مستحيلا نظرا لتباعدهما الاجتماعى ؛ لحرما من معبد المسيح إله العدالة !.. وهكذا أخذا يحلمان بمعبد آلهة أكثر تسامحا واتجها إلى الإله وايروس العتيق وأمه أفروديت، وأخذت صلواتهما تقرع أبوب السماوات البعيدة التى لم تعتد سماع صلواتنا. ومنذ ذلك الحين صمما على الحياة منفصلين،على أن يلتقيا بعد الموت محتذيين فى ذلك حذو أرباب الهوى العذرى من متعبدى الإلهة فينوس أورانى : ومن الغريب أنهما قد اتبعا الطقوس المسيحية فى تنفيذ هذا القسم الوثنى . . هل كانا يعتقدان أن العذراء وابنها هما الرمز القديم للأم الكبرى المقدسة والابن السماوى الذى يحرق القلوب ؟ وهل جرؤا على أن ينفذا خلال الظلمات إلى إيزيس الإلهة الأولى ذات الخمار الأبدى والقناع المتغير التى تمسك بإحدى يديها الصليب المعقوف ، وتحمل على حجرها الطفل حوريس فتفدى العالم ؟ :

وهكذا انتشرت هذه التشابهات الغريبة فى إيطاليا انتشاراً كبيراً ، وانتصرت المدرسة الأفلاطونية الجديدة فى فلورنسا على أرسطو العتيق ، وتفتح اللاهوت الإقطاعى ، كما تتفتح القشرة السوداء أمام البراعم الجديدة للنهضة الفلسفية التى ازدهرت فى كل مكان. وأصبح فرنشسكو راهباً ولوكريشيا راهبة . . . واحتفظ كل منهما فى قلبه بصورة جميلة ظاهرة للآخر ، وأخذا يمضيان النهار فى دراسة الفلسفات والديانات القديمة، وفى الليل يحلمان بالسعادة المقبلة وتجميلها بالتفصيلات الرائعة التى كان كتاب اليونان القدامى يقدمونها لها . ياللمصير المزدوج المبارك . لو صدقنا قصة حبهما ! وكانت حفلات الكنيسة الإيطالية الفخمة تقرب بينهما أحيانا فى كنيسة واحدة أو بطول الطرقات أو فى الميادين التى تسير فيها المواكب الدينية . فكانا وحدهما وفى غفلة من الجماهير يحييان بعضهما البعض بنظرة هادئة حزينة : أيها الأخ ، يجب أن نموت ! — أيتها الأخت يجب أن نموت ! أى أنه لم يبق أمامنا إلا قليل من الوقت نجر فيه قيودنا . . . لم تكن تلك الابتسامة المتبادلة تقول غير ذلك .

وفى هذا الوقت كان يوليفيل يكتب (وقد خلف إعجاب عشاق المستقبل) قصة ـ هذا الصراع النبيل وهذه الآلام وهذه اللذات. لقد صور الليالى الساحرة التى كان يهرب فيها من عالمنا الذى يسيطر عليه قانون إله قاس ،فيرتبط روحيا بيوليا اللطيفة فى منازل سيتير المقدسة . ولم تكن النفس الوفية تتركه ينتظرها طويلا، فسرعان ما كانت تلحق به فتتفتح أمامها الإمبراطورية الميثولوجيه كلها . لقد كانا فى حلمها المزدوج يعبران الفضاء والأزمنة السحيقة كما فعل بطل إحدى المقطوعات الشعرية الحديثة التى لا تقل عن ذلك سحراً . لقد كانا يعبران الأدرياتى .

وتساليا المظللة حيث ينطفىء روح العالم القديم فى حقول فرساليا ! وتبدأ النافورات تخر فى نهيراتها والجداول تعود أنهاراً وقمم الجبال الجرداء

تتغطى بالغابات المقدسة . ويبدأ بر يبنيه من جديد يغمر شواطئه العطشى، وتسمع فى كل مكان الأصوات المكتومة التى يحـدثها الجن «كابير» وداكتيل، وهم يئنون من أجلهما شبح عالم خاص بهما. وكانت نجمة فينوس تكبر كالشمس السحرية ، وتسكب أشعتها الذهبية على هذه الشواطىء المهجورة التى سوف يعمرها موتاها من جديد . وتستيقظ الحيوانات المقدسة فى غارها ونبعها ، وتهرب الحوريات من خمائلها التى عاد إليها الاخضرار . وهكذا كانت الأمنية التى تهفو إليها هاتان الروحان الطاهرتان أن تعود للعالم، وللحظة واحدة قواه المنهارة والملائكة الحارسة لخصوبته العتيدة.

وهكذا كان هذا الحج يتم ليلة بعد ليلة عبر سهول اليونان، وجبالها التى عاد إليها شبابها ، ويقود عاشقينا إلى جميع معابد فينوس السماوية الشهيرة ، ويقودهما فى نهاية المطاف إلى المعبد الرئيسى للالهة فى جزيرة سيتير حيث يتم الاقتران الروحى للراهبين بوليفيل وبوليا .

ولقد مات الأخ فرانشسكو أولا بعد أن أتم حجه وكتابه ، وقد أوصى بمخطوطه إلى لوكريشيا التى لم تخش لمكانتها كسيدة عظيمة ونفوذها من نشره بواسطة الدمانوتش ، وزينته بالرسوم الجميلة التى ، يصور معظمها أهم مشاهد الحلم والاحتفال بالقرابين والمعابد ووجوه الأم الكبرى المقدسة إلهة سيتير ورموزها .

ولقد أصبحت قصة الهوى الأفلاطونى هذا ، ولمدة طويلة إنجيل القلوب المحبة فى هذا البلد الجميل إيطاليا ، الذى لم يكن دائماً يقدم لفينوس السماوية مثل هذه الصلوات المطهرة .

فهل أستطيع قبل أن أصل إلى سيتير أن أفعل شيئا خيرا من قراءة كتاب بوليفيل العجيب الذى يقدم لنا ، كما لاحظ نوديه شيئا غريباً فى صورة ساحرة:

لقد وقع الكاتب باسمه واسم حبه ، حين كان يستعمل على رأس كل فصل من فصول كتابه عدداً معينا من الحروف المنتقاة ، تتكون منها الأسطورة التالية:

إن الأخ فرانشسكو كرلونا قد أحب بوليا حباً شديداً .

١٥ — سان نيكولو

حين وضعت قدمى على أرض سيريجو لم أستطع دون ألم أن أبعد فكرة أن هذه الجزيرة كانت فى السنوات الأولى من هذا القرن ملكا لفرنسا. فلقد أخذت انجلترا بدورها تجردبلادنا (وريثة ممتلكات البندقية) من ممتلكاتها وتعلن هنا ، كما تعلن فى مالطة ، باللاتينية إلى المارة على لافتة من الرخام أن « أوربا ، قد أجمعت كما أجمع الحب فى هذه الجزر على منحها السيادة عليها منذ سنة ١٨١٤ » . أيها الحب يا إله أهل سيتير ، أأنت حقا الذى صدقت على هذا الادعاء ؟

وحينما كنا نسير بحذاء الشاطىء ، وقبل أن نبلغ سان نيكولو كنت قد لمحت أثرا صغيراً يلوح بشكل غامض تحت زرقة السماء ، ويبدو من فوق إحدى الصخور كما لو كان تمثالا مازال قائما لأحد الآلهه الحماة . . ولكن لما اقتربنا أكثر تبينا بوضوح ذلك الشىء الذى يلفت نظر المسافرين إلى هذا الشاطىء . ولقد كان مشنقة ذات ثلاثة أفرع ، كان أحدها فقط هو الذى يحمل جسداً . لقد كانت أول مشنقة حقيقية قدر لى أن أراها على أرض سيتير ، وهى خاضعة لانجلترا !.

ولن أذهب إلى كابسالى ، فإنى أعلم أنه لم يبق أى شىء من المعبد الذى أقامه باريس لفينوس ديونيه — حين اضطرته رداءة الأحوال الجوية إلى الإقامة فى سيتير ستة عشر يوما مع هلين بعد اختطافها من زوجها . صحيح أنهم مازالوا يرون الناس النافورة التى زورقها وماشيتها بالماء ، والحوض الذى كانت تقوم فيه أجمل نساء الأرض بغسل ثيابها وثياب عشيقها بيديها . إلا أنه قد بنيت كنيسة على أنقاض المعبد ، ويشاهدها الناس وسط المياه ، ولم يبق

شيء كذلك على جبل معبدفينوس — أوراني الذى حلت محله قلعة فينيسيا التى تحرسها اليوم فرقة من جيش إيقوسيا .

وهكذا لم تخلف فينوس السماوية ولا فينوس الشعبية ، التى يدعون أولاهما فوق المرتفعات والأخرى فى الوديان ، أى أثر فى عاصمة الجزيرة. ولم تكد الحفائر تتعدى أطلال مدينة سكانديا القديمة القريبة من ميناء أفليمونا التى كانت مختفية فى أعماق الأرض .

ولم نشهد من ميناء سان — نيكولو إلا بعض أكواخ بحذاء الخليج الرملى، حيث يجرى أحد الجداول ، وحيث جرت على الرمال بعض قوارب الصيادين ،بينما ترى قوارب أخرى تفرد فى الأفق قلاعها اللاتينية على الخط القائم الذى يرسمه البحر فيما وراء رأس « سياتى » النقطة الأخيرة للجزيرة ورأس « ماليه » التى ترى بوضوح من ناحية اليونان .

ولم أفكر منذذلك الحين فى قداسة ، إلا فى السعى وراء أطلال معابد إلهة سيتير ، فعبرت صخور رأس « سياتى » حيث شيد أخيل أحد المعابد لدى رحيله إلى طروادة ، وبحثت بناظرى عن كرانيه ،التى تقع فى الجهة الأخرى من الخليج والتى كانت المكان الذى اختطفت فيه هيلين إلا أن جزيرة « كرانيه » ، كانت تختلط بعيداً مع شواطىء « لاكونيا » ولم يخلف المعبد حجرا واحدا على الصخور التى لا نرى من أعلاها ، ونحن نلتفت ناحية الجزيرة إلا طواحين مياه يحركها نهر صغير يصب فى خليج سان نيكولو

وحين هبطت وجدت بعض المسافرين يعدون مشروعا للذهاب إلى المدنية الصغيرة ،التى تقع على بعد فرسخين من هنا ، وهى أهم حتى من كابسالى .

فامتطينا البغال،وسرنا بقيادة أحد، الإيطاليين ممن يعرفون البلادو تحسسنا طريقنا وسط الجبال.ولن يصدق أحد، حين يرى من البحر مشارف صخور

سريجو الوعرة أن داخل الإقليم يحتوى على كل هذه السهول الخصبة . إنها أرض يبلغ محيطها سبعين ميلا ، وتغطى المساحة المنزرعة فيها بشجيرات القطن وأشجار الزيتون والتوت المنبثة وسط الكروم .

وأهم منتجاتها التى يعيش عليها السكان هى الزيتون والحرير . وتجـــد السيتيريات ، ولا أحب أن أقول السريجيات ، فى إعداد الحرير عملا لطيفاً مناسباً لأيديهن الجيلة . وعلى العكس من ذلك فقد تأثرت زراعة القطن بالاحتلال الإنجليزى .

وكان هدف زملائى من الرحلة هو « بوتامو » وهى مدينة صغيرة ذات طابع إيطالى ، إلا أنها فقيرة ومهملة . أما هدفى أنا فكان تل «أبلو نورى» الذى يقع على مسافة صغيرة ، حيث قيل لى إنى سوف أجد به بقايا أحد المعابد . وقد كنت آمل بعد فشل رحلتى إلى رأس سباق . أن أعوض بهذه الرحلة وأن أملأ جيوبى ، كما فعل القس ى ليل ببعض البقايا الميثولوجية . يالحسن الحظ ! لقد صادفت وأنا أقترب من « أبلو نورى »غابة صغيرة من أشجار التوت والزيتون كانت بها بعض أشجار الصنوبر تنتشر ظلالها هنا وهناك . وكانت أشجار السند والصبار تنتصب وسط الأحراش ، وإلى اليسار يطل علينا البحر من جديد بعد أن غاب عن أعيننا لبعض الوقت ـ كعين كبيرة زرقاء . وكان ثمة جدار من الحجر يبدو كأنه يغلق الغابة جزئياً . واستطعت ان أجد على لوحة من الرخام ـ من بقايا قوس قديم كان يعلو أحد الأبواب المربعة ـ هذه الكلمات . . . شفاء القلوب .

لانشاهد على تل أبلو نورى إلاالقليل من الأطلال ، إلاأنه قد احتفظ ببقايا أكثر ندرة للنباتات المقدسة التى كانت فيما مضى تزين جبين الجبال . لقد كانت ثمة أشجار سرو ، وبعض أشجار الزيتون العتيقة اتخذت النحل من جذعها الأجوف بيوتا ، ولقد حافظ الناس على هذه الأشجار بحدوهم نوع من التقديس التقليدى ، الذى يرتبط بهذه الأماكن الشهيرة . وكانت ثمة بقايا سور تحمى من جهة البحر فقط هـذه الغابة الصغيرة ، وهى ميراث لإحدى الأسر . والباب يعلوه حجر ذوقبة أخذ من الأطلال . وقد أشرت فيما سبق إلى ماعليه من كتابات ، ونرى فيماوراءالسور بيتا تحيط به أشجار الزيتون ، ويسكنه بعض الفلاحين اليونانيين الفقراء ممن رأوا أعلام فينيسيا وفرنسا ثم انجلترا تتوالى منذ خمسين عاماً على أبراج القلعة التى تحمى سان نيكولو ، والتى نشاهدها من الطرف الآخر للخليج . وما تزال ذكرى الجمهورية الفرنسية والجنرال بونا بارت الذى حررهم وضمهم إلى جمهورية الجزر السبع ـ ماثلة فى أذهان الشيوخ .

ولقد حطمت انجلترا تلك الحريات الواهية منذ سنة ١٨١٥ ، وقد شهد سكان سريجو دون حماس انتصار إخوانهم فى المورة ـ إن انجلترا لا تحول سكان البلاد التى تحتلها إلى انجليز ، أقصد البلاد التى تضمها إليها ، وإنما تجعل منهم عبيداً وأحيانا خدما . هذا هو مصير سكان مالطه ، وسيكون هذامصير يونانيي سريجو ، إذا لم تحتقر الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية الإقامة فى هذه الجزيرة المتربة القاحلة . ومع ذلك فيوجد نوع من الثروة استطاع جيراننا أن يجردوا منها سيتير القديمة ، وأعنى بعض الرسوم البارزة والتماثيل التى ما تزال تميز الأماكن الجديرة بالذكرى . فقد انتزعوا من أبلو نورى لوحة

الرخام نستطيع أن نقرأ عليها ، رغم بعض الاختصارات هذه الكلمات التى التقطها عام ١٧٩٨ بعض موظفى الجمهورية الفرنسية : معبد فينوس الآلهة سيدة السيتيريين والعالم أجمع .

ولا تجعل هذه الكتابة مجالا للشك حول طابع هذه الأطلال . وفيما عدا ذلك توجد نقوش بارزة انتزعها الإنجليز ، وقد استخدمت مدة طويلة كشاهد قبر فى غابة أبلونورى ، ويستطيع المرء أن يميز عليها صور عاشقين قدما لتقديم الحمائم إلى الإلهة ، ويتقدمان فيما وراء المعبد الذى وضع بجواره إناء النبيذ . كانت الفتاة فى ثوبها الطويل تقدم الطيور المقدسة ، بينما كان الشاب وهو يستند بإحدى يديه إلى درعه يبدو وكأنه يساعد بالأخرى رفيقته على وضع هديتها لدى أقدام التمثال . وكانت فينوس ترتدى تقريباً من الثياب مثل ماترتديه الفتاة ، وكان شعرها المعقود ضفائر على صدغيها يتدلى فى لفات على رقبتها .

ومما لاشك فيه أن المعبد الواقع على هذا التل لم يكن مقاماً لفينوس — أورانى ، أو السماوية ، التى كانوا يعبدونها فى أحياء أخرى من الجزيرة ، ولكنه مقام لفينوس الأخرى أى الشعبية أو الأرضية ، التى كانت تتولى عقد الزيجات . أما الأولى فقد أتى بها بعض سكان مدينة أسكالون بالشام ، وهى إلهة قاسية ذات رمز معقد ومشكوك فى جنسها ، وتتسم بكل ما يميز الصور البدائية المحملة بالصفات والكلام الذى لا يقرأ مثل ديانا إلهة أبو نيه على بحر إيجه وسيبيل إلهة فريجيا . وقد اعتنق أهل أسبرطة ديانتها ، وهم أول من استعمر الجزيرة . أما الثانية فهى أكثر ابتساما وإنسانية ، وقد أدخل أهل أثينا ديانتها حين انتصارهم ، وكانت هذه الديانة موضع حروب أهلية بين السكان . وقد أقيم لها تمثال اشتهر فى اليونان كلها على أنه إحدى روائع الفن . لقد كانت عارية وتحمل يدها اليمنى قوقعة بحرية . وكان ولداها إيروس وأنتيروس يصحبانها . وأمامها توجد الحور الثلاث ينظر

إليها اثنتان منهن ، أما الثالثة فكانت ملتفتة إلى الجهة المقابلة . وفى الجزء الشرقى من المعبد نلاحظ تمثال هيلين ، وربما كان هو السبب الذى جعل سكان البلاد يطلقون على هذه الأطلال اسم قصر هيلين .

وقد تطوع شابان لاصطحابى إلى أطلال مدينة سيتير القديمة التى كانت أكوامها المترية تلاحظ بطول البحر فيما بين تل أبلو نارى وميناء سان — نيكولو . لقد كنت إذن قد تعديت تلك الأطلال حين توجهت لزيارة «بو تامر» من داخل الأراضى . إلا أن الطريق لم يكن من المستطاع استخدامه إلا سيرا على الأقدام ، وكان لابد من إعادة البغل إلى القرية . ولقد غادرت آسفا هذا المكان قليل الظل ، وهو أغنى بالذكريات من بقايا الأعمدة ورءوسها التى ازدراها جامعو الآثار من الإنجليز . وخارج سور الغابة ظلت ثلاثة أعمدة منتصبة وسط أحد الحقول المزروعة ، بينما استخدمت أطلال أخرى فى بناء بيت صغير ذى سطح مستو يقع على أكثر نقاط الجبل وعورة ، إلا أن طريقا عتيقا من الحجارة كان يضمن متانته . ولقد استخدمت بقايا أساس هذا المعبد كذلك فى تكوين ما يشبه الشرفة التى تسند الأرض الخضراء اللازمة للزراعة والنادرة فى الجزيرة منذ إزالة الغابات المقدسة .

ونشاهد كذلك فى هذا المكان حفراً تركتها الحفائر ، وقد استخرج منها تمثال من الرخام الأبيض ، وقد التف بالثياب على الطريقة العتيقة ، وكان بالغ التشويه ، وكان من المستحيل تمييز طابعه الخاص . وحين هبطت خلال الصخور المترية التى تتخللها أحيانا أشجار الزيتون والكروم عبرنا جدولا يهبط ناحية البحر ، مكونا بعض الشلالات ، وينساب وسط أشجار الفستق والورد والرند .

وقد أقيمت كنيسة يونانية صغيرة على شواطىء هذه المياه الطيبة ، ويبدو أنها قد حلت محل أثر آخر أقدم عهداً .

١٧ — باليوكاسترو

وأخذنا نسير من ذلك الحين بحذاء البحر، فنسير على الرمال، ونعجب من بعيد بالمغارات التى يأتى الموج ليختبىء فيها فى أثناء هبوب العواصف. وكان سمان سريجو الذى يعجب به الصيادون كثيرا يقفز هنا وهناك على الصخور المجاورة وفى باقات النبات القوية ذات الأوراق المغبرة . ولما وصلنا إلى أعماق الخليج كنا قد متعنا أنظارنا بتل باليوكاسترو كله المغطى بالأطلال ، والذى مازالت تسيطر عليه الأبراج والجدران المتداعية لمدينة سيتير القديمة . ويبدو سور تلك المدينة واضحا على المنحنى المتجه ناحية البحر ، أما بقية الأبنية فقد اختفى جزء منها تحت رمال البحر المتراكمة بسبب مصب أحد الأنهار الصغيرة. ويبدو الجزء الأكبر من المدينة قد اختفى تدريجيا بتأثير البحر المتزايد ، اللهم إلا إذا كان أحد الزلازل مما تحمل هذه الأماكن آثارها قد غير من طبيعة هذه الأرض . وحسب مايقول السكان ، فإن المرء يرى فى قاع البحر حين تكون مياهه صافية أجزاء من مبان على جانب من الكبر .

وحين نعبر النهر الصغير نصل إلى المقابر القديمة المقامة على صخرة تشرف على أطلال المدينة، ويصعد المرء إليها عن طريق ملتو محفور فى الأحجار.

ولقد صدعت الكارثة التى تبدو فى بعض تفاصيل هذا الشاطىء المهجور هذه الصخرة فى علوها الشاهق ، وأظهرت للعيان ماتحتويه من مقابر ، ويمكننا أن نلاحظ من الفتحة جوانب كل قاعة من القاعات ، تلك الجوانب التى ظلت منفصلة ، كما لو كان ذلك بأعجوبة . وبعد أن نعبر الصخرة نتمكن من الهبوط إلى المقابر التى تبدو وكأنها كان يسكنها بعض الرعاة منذ قليل . وربما كانت تستخدم كمخبأ إبان الحروب ، أو فى أثناء حكم الأتراك.

وقمة هذه الصخرة نفسها عبارة عن رصيف يزيد طوله على عرضه ، تحف به وتملؤه الأطلال الدالة على انهيار بناء يفوقها كثيرا فى الارتفاع . ولاشك أنه كان معبداً يشرف على المقابر كانت ترقد تحته رفات الصالحين . وفى الغرفة الأولى التى نصادفها بعد ذلك نلاحظ تابوتين نحتافى الحجر وغطيا بإطارمقوس. أما البلاط الذى كان يغلقهماوالذى لم نعد نرى منه سوى البقايا ، فقدكان وحده من قطعة أخرى . وفى الجانبين كانت ثمةفجوات سوداء لوضع المصابيح أو أوانى الدموع أو لوضع الجرار الجنائزية . ولكن إذا كانت هناك جرار ، فلماذا وضعت بعيداً عن التوابيت ؟ ومن المؤكد أنه لم يكن دائما من عادة القدامى حرق الأجساد ، فقد وجد مثلا أحد أبطال طروادة مدفونا تحت الأرض . ولكن إذا كانت العادات قد تغيرت مع الوقت ، فكيف نجد العادتين معا ، وقد تمت ممارستهما فى أثر واحد ؟ وهل يحتمل أن يكون مايبدو لنا على أنه مقابر ليس إلاأحواض الماء المقدس وقد تعددت لخدمة المعابد ؟ إن الشك مباح هنا .. وتبدو زينات هذه الغرف على درجة كبيرة من البساطة من ناحية العمارة ، فلا نجد بها أى نحت أو أعمدة تغير من وحدة تصميمها ، فالجدران منحوته بشكل مربع والسقف مسطح ، إلا أننا نلاحظ أن الحواجز قد غطيت فى الأزمنة السحيقة بطلاء تبدو عليه آثار رسوم قديمة ، تم تنفيذها باللونين الأحمر والأسود على طريقة الاتروريه .
Les Eitrusques

ولقد أتى بعض محبي الاستطلاع وانتزعوا مدخل إحدى القاعات الكبيرة المقامة فى صلب الجبل . وهى فسيحة ومربعة ومحاطة بغرف صغيرة تفصلها أعمدة مبنية فى الحائط ، وربما كانت هذه الغرف قبوراً أو كنائس صغيرة إذ يرى الكثيرون أن هذا التجويف الهائل ربما كان أحد المعابد المخصصة للآلهة تحت الأرض .

من الصعب أن نجزم بأن معبد فينوس السماوية كان مشيدا على هـذه الصخرة ، ذلك المعبد الذى دلنا عليه بوزانياس ، وقال : إنه يشرف على جزيرة سيتير ، أو بأن هذا الأثر كان مقاماً على التل الذى تغطيه حتى الآن أطلال هذه المدينة التى يسميها بعض الكتاب كذلك بمدينة مينيلاس . ومهما يكن من أمر ، فإن موقع هذه الصخرة الفذ قد ذكرنى بمعبد آخر لأورانى وصفه الكاتب اليونانى على أنه مقام فوق تل خارج جدران مدينة إسبرطة ، ويدهش بوزانياس نفسه، وهو الكاتب اليونانى الذى ينتمى إلى عصر الانحلال والوثنى فى عصر فقدت فيه معانى الرموز القديمة ، يدهش للطريقة البدائية الشديدة التى بنى بها المعبدان المتقابلان والمخصصان لهذه الإلهة . فنراها فى أحدهما الأسفل ، مغطاة بعدة من السلاح مثل مينوفا (كما تصورها إحدى مدائح أو زون) ، وفى الآخر نراها مغطاة تماما بخمار ، وقد قيدت قدماها بالأغلال . ويقال إن هذا التمثال الأخير وهو من خشب الأرز قد أقامه لها تا ندار ، وكان يسمى مورفو وهو اسم آخر من أسماء فينوس . أهى فينوس تحت الارض التى يسميها اللاتينيون ليبيتينا ، والتى يمثلونها فى الجحيم تزوج بلوتومن برسيفونيه الباردة ، والتى يخلطون أحيانا بينها وبين نيحيزيس الجميلة الشاحبة تحت اسم كبرى إلهات الجحيم وسيدات مصائر الناس .

ولقد ابتسم الناس لما شغل هذا المسافر الشاعرى به نفسه الذى« كان يقلق لبياض التماثيل المرمرية الناصع» ، وربما دهش الناس فى هذه الأزمنة إذ يرونى أنفق كل هذا الجهد والبحث لإثبات الشخصيات الثلاث لإلهة سيتير . ومن المؤكد أنه لم يكن من العسير أن نجد بين أسمائها وصفاتها الثلاثمائة الدليل على أنها كانت تنتمى إلى طبقة هذه الآلهة الذين كانوا يسيرون قوى الطبيعة كلها فى المناطق الثلاث : السماء والأرض وماتحت الأرض ، إلا أننى

قد أردت بصفة خاصة أن أوضح أن ديانة الإغريق كانت تتجه أساسا إلى فينوس الجادة المثالية المتصوفة ، التى استطاع الفلاسفة الأفلاطونيون الجدد فى الإسكندرية أن يقابلوا دون خجل بينها وبين عذراء المسيحيين . ولقد استطاعت هذه الأخيرة ، وهى أكثر إنسانية وسهولة للفهم من الجميع أن تهزم بورانيا الفيلسوفة ـ أما اليوم فإن الإغريقية باناجيا قـــد خلفت أفروديت العتيقة على هذه الشواطىء نفسها ـ ولقد شيدت الكنيسة أو المصلى الصغير بأنقاض المعبد ، وعنيت بتغطية محتوياته . إن الخرافات نفسها تتصل فى كل مكان تقريبا بصفات متشابهة . إن باناجيا التى تمسك بيدها طرف مقدمة سفينة قد احتلت مكان فينوس بوتنيا ، وتلقت أخرى ، وهى فينوس كالفا ، قربانا من الشعر كانت الفتيات تعلقه على جدران كنيستها الصغيرة . وفى مكان آخر أقيمت فينوس إلهة اللهب أو فينوس إلهة الأغوار السحيقة ، وفينوس أبوستروفيا التى تبعد الناس عن الأفكار الدنسة ، أو فينوس بريستيريا التى كانت تتميز بوداعة الحمائم ورقتها . ومازالت باناجيا تكفى لتحقيق جميع هذه الشعارات . ولا تطلب المزيد من العقائد من سلالة ـ سكان أشيا(١) ، فالمسيحية لم تهزمهم ، وإنما طبعوها بآرائهم ، وسوف يسيطر المبدأ المؤنث ، وكما يقول جوته المؤنث السماوى دائما على هذا الشاطىء . إن العقائد التى يؤمنون بها إيمانا راسخا هى عقائد ديانا الكثيبة القاسية فى البوسفور ، ومينرفا الحذرة فى أثينا وفينوس المسلحة فى إسبرطة : وإن اليونان لتستبدل بعذراء واحدة كل هذه الأنواع من العذارى المقدسات ، ولا تعير كثيراً من الاهتمام لتثليث المذكر ولجميع قديسى الأساطير ، باستثناء القديس جورج ذلك الفارس الشاب اللامع .

وحين غادرنا تلك الصخرة الغريبة التى حفرت بها القاعات الجنائزية فى كل مكان ، والتى يأكل البحر قاعدتها بصفة مستمرة .

---

(١) مقاطعة فى بلاد الإغريق القديمة شمال البليوبونيز.

وصلنا إلى مغارة زينتها الزوائد الجيرية بأعمدة وشراريب رائعة ، ولقد كان الرعاة يحمون عنزاتهم بها من حرارة النهار . إلا أن الشمس مالبثت أن مالت ناحية الأفق ، وهى ترسل أشعها القرمزية إلى صخرة سيريجوتو البعيدة مأوى القرصان العتيق . وكانت المغارة معتمة رديئة الإضاءة فى هذه الساعة ، ولم أجد ميلا للدخول إليها بالمشاعل . ومع ذلك فكل شىء فيها يدل على إيغال هذه المغارة التى أحبتها السموات فى القدم . لقد استخرجت من هذه المغارة أجسام متحجرة وحفريات بل وأكوام من العظام ترجع إلى ماقبل الطوفان ، وكذلك استخرج مثل ذلك من أجزاء أخرى كثيرة بالجزيرة . ولذا فإن الشعب العتيق الذى سكن اليونان وشرق البحر الأبيض المتوسط قبل الإغريق لم يختر دون سبب هذا المكان ليضع فيه مهد ابنة أورانوس ، هذه الفينوس المختلفة تماما عما صورها الرسامون والشعراء ، والتى يذكرها أورفيه بهذه العبارة : أيتها الإلهة المبجلة التى تحب الظلمات . . . التى ترى ولا ترى . . . التى ينبعث منها كل شىء إذ أنك تسنين القوانين للعالم أجمع ، بل تأمر إلهات الجحيم سيدات مصائر الناس بأمرك ، ياسيدة الليل !

١٩ — جزر أرخبيل اليونان

كانت جزيرتا سيريجو وسيريجوتو — مازالتا تبديان فى الأفق خطوطهما الخارجية ذوات الزوايا ، ثم مالبثنا أن درنا حول رأس ماليه ومررنا بالقرب من المورة ، استطعنا أن نميز تفاصيل مناظرها كلها ، ولقد استرعى انتباهنا مسكن غريب ، كانت ثمة خمسة أو ستة أقواس من الحجارة تسند واجهة ما يشبه المغارة التى تطل على حديقة صغيرة ، وقال لنا البحارة إنه كان مسكن أحد النساك كان يعيش هنا منذ زمن طويل ، ويصلى فى هذا الرأس المنعزل . والواقع أنه كان رائعا فعلا لكى يحلم فيه المرء على خرير الأمواج ، كما كان يفعل راهب بايرون الرومانسى . وكانت السفن التى تمر تبعث أحيانا بأحد قواربها يحمل الصدقات إلى هذا الناسك المنعزل ، الذى ربما كان موضع فضول الإنجليز . ولم يظهر الناسك لنا ، وربما كان قد مات ، وفى الساعة الثانية صباحا استيقظنا جميعاً على صوت السلاسل وهى تعزف الهلب ، وتعلن لنا وسط أحلامنا أننا سنحاذى فى هذا اليوم نفسه أرض اليونان الحقيقية الناهضة ، وكان خليج سيرا الفسيح يحيط بنا كالهلال .

وإنى أعيش منذ ذلك الصباح فى نشوة تامة . إننى أريد أن أتوقف تماما لدى هذا الشعب اليونانى الطيب وسط هذه الجزر ذات الأسماء الرنانة ، والتى يفوح منها عبير الشعراء الأغريق الأمجاد أنداد راسين ، كما يفوح أريج الحدائق . آه ! كم أشكر الآن أساتذتى الطيبين الذين طالما كنت ألعنهم ، لأنهم علمونى كيف أقرأ فى سيرا لافتات الحلاقين والحذائين وصانعى الثياب . ماذا ! انها هى نفسها تلك الحروف المستديرة وحروف البداية الكبيرة ... التى أعرف قراءتها جيدا ، والتى كنت أتلذذ بتهجيها بصوت عال فى الطريق .

وقال البائع بلهجة ودية ، وهو يكرمنى مدعيا أنه لم يكن يظننى باريسيا .

— صباح الخير ،

فقلت له وأنا أختار بضاعة لا أهمية لها .

كم تطلب ؟

فأجابنى بلهجة تقليدية .

— عشر دراخمات .

إنه لرجل سعيد إذ يعرف اليونانية بالمولد ، ولا يشعر فى هذه اللحظة بأنه يتحدث كإحدى شخصيات لوسيان .

وفى هذه الأثناء كان النوتى يتبعنى حتى الرصيف ، وهو يصيح بى كما كان يصيح كارون (١) بميلبب .

« أيها السافل ، ادفع لى ثمن المرور ! »

ولم يرضه نصف الفرنك الذى أعطيته إياه ، وكان يريد دراخما ، أى ستين سنتا ، إنه لن يحصل على فلس واحد. فقد أجبته بشجاعة ببعض جمل من حديث الموتى ، فانسحب وهو يزمجر ببعض شتائم أرستوفان .

لقد كان يخيل إلى أننى أسير وسط نوع من الكوميديا . كيف السبيل إلى الإيمان بهذا الشعب ذى السترة المطرزة والقرطن (٢) ذى الثنيات الكثيرة والذى يضع على رأسه غطاء أحمر يتدلى زره الحريرى السميك فوق أكتافه .

ويتمنطق بمنطقة مدججة بالأسلحة البراقة ، ويلبس الأخفاف والشباشب ، وأغطية الساق . إنه بالضبط لباس جزيرة القراصنة أو مدينة بسيولونجى .

---

(١) المراكبى الذى ينقل الناس إلى العالم الآخر فى الميثولوجيا اليونانية .

(٢) هو ذلك الجزء من الثياب الذى يسمى باللغة الدارجة (الجونلة) .

ومع ذلك فكل يمر دون أن يخطر بباله أنه يشبه الممثلين الثانويين ، ولا يثير الانشراح لديهم أحياناً إلا ملابسى البارسية البشعة .

نعم أيها الأصدقاء ! إننى أنا الذى أعتبر متوحشا وشخصا خشنا من أبناء الشمال ، وأنا الذى أبدو كبقعة وسط جماعات متعددة الألوان . . ومثل آنا كارسيس من شعب يأجوج ومأجوج . . . آه ! معذرة إننى شديد الرغبة فى التخلص من هذه الموازنة الباعثة للسأم .

ولكن إنها شمس الشرق بعينها ، وليست شمس الثريات الباهتة ، تلك التى تضىء مدينة سيرا الجميلة هذه التى تبدو للرائى لأول وهلة ، وكأنها زينة مستحيلة التنفيذ . إننى أسير محاطا بالصبغة المحلية ، وأنا المشاهد الوحيد لمنظر غريب يبعث فيه الماضى تحت غلاف الحاضر .

إليكم هذا الشاب ذا الشعر المجعد الذى يمر ويحمل على كتفه جسدا مشوها لعنزة صغيرة . . . يالقوة الآلهة ! إنها قربة للنبيذ قربة هوميروسيه مغطاة بالشعر ويتصبب منها النبيذ ، وابتسم الصبى لدهشتى وعرض على فى رقة أن يحمل رباط إحدى سيقان عنزته ، حتى يملأ لى كأسا من نبيذ ساموس المعسل .

إيه أيها اليونانى الشاب ! فيم ستصب لى هذا البلسم ؟ إذا عرفت أننى لا أحمل أية كئوس .

فقال لى — وهو يخرج من منطقته قرنا أجوف مطعم بالنحاس ويصب من ساق القربة سيلا من السائل ذى الرغوة :

اشرب

وشربته كله دون أية غضاضة ، ودون أن أبصق أى شىء احتراما لأرض سيروس العتيقة التى وطئتها أقدام أخيل فى طفولته !

وأستطيع أن أذكر اليوم أن طعم السائل كان مخلوطا بطعم الجلد والعسل الأسود وصمغ البطم(١) بشكل مقزز ، ولكنه بكل تأكيد كان ذلك النبيذ نفسه الذى كانوا يشربونه فى أعراس بيليه ، وإنى لأبارك الآلهة التى منحتنى معدة أحد أبناء شعب لابيت وسيقان أحد أبناء ستتور (٢)

ولم تكن ساقاى هاتان بغير ذات فائدة بالنسبة لى فى هذه المدينة الغريبة المبنية على شكل مدرج والمنقسمة إلى مدينتين إحداهما وهى الجديدة تحف بالبحر والأخرى ، المدينة القديمة ، تتوج قمة أحد الجبال كقرص من السكر ، يجب أن يصعد الناس الجبل إلى ثلثيه قبل أن يصلوا إليها .

ولتعفنى البييريت العفيفات بنات هييروس ملك مقدونيا التسع، من صب اللعنات اليوم على جبال اليونان الصخرية ! إنها العظام القوية لتلك الأم العتيقة ، أمنا جميعاً ، التى نطؤها بأقدام واهنة . إن هذا النجيل النادر الذى تنمو وتزهر فيه شقائق النعمان الحزينة لايكاد يجد ما يكفى من الأرض لينشر عليه رواءه المصفر . يا ربات الشعر ! إيه سيبيل ! ألا توجد أية أحراش أعلى أو باقة واحدة من العشب تدل على الجدول القريب . . . يا للأسف ! لقد نسيت أن الماء النقى يباع فى المدينة الجديدة التى مررت بها للتو فى زجاجات ، وأننى لم أصادف بها إلا حامل نبيذ ،

أخيرا هأنذا فى الريف بين المدينتين . إن إحداهما وهى التى تحف بالبحر ، تعرض مابها من مظاهر الفخامة والرفاهية بوصفها المدنية المفضلة لدى التجار والنوتية ، وتعرض سوقها نصف التركى وأحواض بناء السفن وحوانيتها ومصانعها الجديدة وشارعها الجديد الذى يحف به من الجانبين تجار الخردوات والخياطون وأصحاب المكتبات وإلى اليسار حى برمته من التجار وأصحاب البنوك وممونى السفن الذين عبرت

---

(١) مادة تستخدم فى إعداد القرب

(٢) شعبان ميثولوجيان من تساليا وقد اشتهر اللابيت بعمر كتهم ضد السنتور فى عرس بيريتوس، حيث شرب هؤلاء حتى ثملوا وتوجهوا بالإهانات إلى النساء .

محلاتهم ، وهي غاية في الفخامة ، الصخرة ، وغطتها شيئاً فشيئاً ، تلك الصخرة التي تطل رأساً على البحر الأزرق العميق . أما المدينة الأخرى التي تبدو من الميناء ، وكأنها تشكل قمة بناء هرمي الشكل ، فتبدو الآن وقد فصلتها عن قاعدتها الظاهرية ثنية عريضة من الأرض ينبغي عبورها قبل بلوغ الجبل الذي تتوج قمته بهذا الشكل الغريب . من هنا لا يذكر مدينة لا يوتا التي ذكرها الكاتب الطيب سويفت(١) والتي تجعلها قوة سحرية معلقة في الجو ، والتي تأتي من حين لآخر فتستقر في مكان ما على أرضنا لتتمون بما ينقصها . تلك بالضبط هي صورة سيرا القديمة ، إلا أنه ينقصها القدرة على الانتقال . إنها هي نفسها كذلك التي تتسلق السحاب من طابق لطابق بعشرين صفاً من المنازل الصغيرة ، ذات الأسطح المنبسطة التي تتناقص في انتظام ، حتى تبلغ كنيسة القديس جرجس آخر صف في هذه القمة الهرمية . وثمة جبلان أكثر ارتفاعاً تشمخ قمتهما المزدوجة خلف هذه القمة ، وتبدو بينهما من بعيد تلك الزاوية من المنازل المطلية بالجير ، فتصور للعين منظراً فريداً في نوعه .

---

(١) الكاتب الإنجليزي مؤلف رحلات جاليفر .

٢٠ – القديس جرجس

ونواصل الصعود ولمدة طويلة نوعاً وسط المزارع حتى تأتى جدران صغيرة من الحجارة الجافة فتدل على نهاية الحقول . ثم يصبح الصعود أسرع وتسير على الصخر العادى . وأخيراً نصل إلى أول المنازل . إن الشارع الضيق يتقدم على شكل حلزونى نحو قمة الجبل وبه حوانيت بسيطة فى مظهرها ، وقاعات أرضية يتسامر فيها النساء أو تعزلن وجماعات من الأطفال بأصواتهم الأجشة وسماتهم الساحرة يركضون هنا وهناك ، أو يلعبون على عتبات الأكواخ وفتيات يضعن الخبز على عجل وقد روعتهن رؤية ذلك الأمر النادر الحدوث ، وهو مرور أحد غريب ، وخنازير رضع ودواجن وقد شاع بينها الاضطراب وسط ما تشعر به من سعادة لامتلاك الطريق العام فتلجأ إلى الداخل . وهنا وهناك ربات بيوت بأجسامهن الضخمة يدعون أطفالهن أو يخفينهم ليحمينهم من عيون الحساد . ذلك المشهد المبتذل الذى يصادفه الغريب هنا فى كل مكان .

الغريب ! ترى هل أنا غريب حقا على أرض الماضى هذه ؟ آه كلا ؟ لقد وجهت بعض الأصوات الطيبة التحية إلى ثوبى الذى كنت أشعر بالحرج منه منذ لحظة . طاب يومك ! تلك هى الكلمة التى كان بعض الأطفال يرددونها حولى .

ولقد قادونى وسط الصيحات العالية إلى كنيسة القديس جرجس التى تشرف على المدينة وعلى الجبل . إنها كنيسة كاثوليكية ، إنكم على قدر كبير من الطيبة أيها الأصدقاء . إنها كاثوليكية حقا ، وكنت قد نسيت ذلك . وقد كنت أفكر فى الآلهة الخالدين الذين أوحوا بكل هذه العبقريات النبيلة . والفضائل العالية ! وكنت أدعو الأشباح الضاحكة التى كان يحلم بها آباؤكم

أدعوها من البحر المقفر ومن الأرض القاحلة ، وأقول فى نفسى وأنا أرى هذا الأرخبيل كله على هذه الدرجة من الكآبة والإملاق وهذه الشواطىء المجدبة والخلجان غير المضيافة: إن لعنة نبتون قد حلت على اليونان سريعة النسيان إن إلهة النافورات والأنهار الخضراء ، قد ماتت مجهدة فى مغاراتها واختفت آلهة الخمائل من هذه الأرض التى لا ظل فيها ، وانسحبت منها تدريجيا كل هذه الآلهة المقدسة التى تبعث الحياة فى المادة ، كما تبعث فى الجسد البارد آه ! ألم يفهم الناس هذه الصرخة الأخيرة التى أطلقها عالم يحتضر حينما أتى بعض الملاحين، وقد شحب لونهم يقصون أنهم سمعوا وهم يمرون ليلا بشواطىء تساليا صوتا قويا يصيح « إن بان (١) قد مات ! » لقد مات رفيق العقول البسيطة المرحة ، ذلك الإله الذى كان يبارك التزاوج الخصب بين الأرض والإنسان ! لقد مات الذى اعتاد كل شىء أن يحيا به ، مات بلا مقاومة لدى أقدام جبل أو لمب الذى لحقه الدنس ، مات كما يستطيع أن يموت الإله بلا خور ولا طقوس ، وقد طعنه الجحود والنسيان فى قلبه ، كما يحدث للآباء ، والآن لنتوقف أيها الأطفال حتى أتأمل هذا الحجر المجهول الذى يذكرنا بدياناته والذى حبسوه بالصدفة فى جدار الشرفة التى تستند إليها كنيستكم . دعونى ألمس هذه النقوش المنحوتة وبعض الصنج ووسطها كأس يتوجها اللبلاب . تلك هى ضحايا مذبحة الريف الذى أحاط به أجدادكم فى شغف فى أزمنة كانت الطبيعة تبتسم فيها للعمل ، وكانت فيها سيرا تسمى سيررس .

إننى هنا أختم فقرة طويلة لأفتح قوساً اعتراضيا لا يخلو من فائدة . لقد خلطت فيما سلف بين سيروس Syros وسيروس Scyros إن اختلافا بسيطا فى الهجاء سوف يجعل هذه الجزيرة اللطيفة تفقد الكثير من تقديرى

---

(١) إله القطعان فى ميثولوجيا اليونان .

ذلك أنه فى غير هذا المكان قطعا قد ترى أخيل بين نبات ليكومود . وإذا رجعنا إلى خط السير الذى نتبعه ، فإن سيرا لا تستطيع أن تنسب لنفسها من الأمجاد إلا مولد فيريسيد أستاذ فيثاغورس ومخترع البوصلة . . . إن خطوط السير على درجة كبيرة من العلم .

لقد ذهبوا يبحثون عن خادم الكنيسة ليفتحها . وفى انتظار ذلك جلست على حافة الشرفة وسط جماعة من الأطفال السمر والشقر كما نراهم فى كل مكان ، إلا أنهم فى جمال التماثيل الرخامية القديمة. لولا أن الرخام لا يستطيع أن يصور جمال عيونهم ، وكذلك لا يستطيع الرسم تثبيت بريقها المتحرك . لقد كانت الفتيات الصغيرات فى ملابسهن كالسلطانات الصغيرات بما يضعنه على رءوسهن من عمائم من شعرهن المضفر . أما الصبية فقد ارتدوا ملابس الفتيات بسبب المجول اليونانى ذى الثياب والشعر الطويل المعقوص على الكتفين . هذا هو ما تواصل سيرا إنتاجه بدلا من الزهور والشجيرات . إن هذه الشبيبة مازالت تبتسم على هذه الأرض الجدباء . أليس لديهم فى لغتهم بعض الأغانى الساذجة التى تقابل الأغانى التى تغنيها فتياتنا ، وهن يدرن فى دوائر يسكين فيها الغابات المهجورة وأشجار الغار المقطوعة ؟ إلا أن سيرا ربما أجابت على ذلك بأن غاباتها تخطط مياه البحر وأن أشجار الغار بها قد نفذت فى تتويج هامات البحارة ! أيتها الصخرة الطيبة ! ألم تكونى كذلك الوكر الكبير للقراصنة . أنت يا ذات الكاثوليكية المزدوجة ، فأنت لاتينية فوق الجبل ويونانية على الشاطىء . ثم أما زلت وكراً للمرابين ؟

إن خط سيرى يضيف أن معظم التجار الأثرياء بالمدينة السفلى قد أثروا فى أثناء حرب الاستقلال بهذا النوع من التجارة ! كانت سفنهم التى تحمل العلم التركى تستولى على السفن التى كانت أوربا تبعث بها بالنجدات المالية والأسلحة إلى اليونان . ثم كانوا يذهبون تحت العلم اليونانى ليبيعوا الأسلحة والمؤن إلى إخوانهم فى المورة وشيو . أما المال فلم يكونوا يحتفظون به ، بل

يقرضونه كذلك بضمان أكيد فى سبيل قضية الاستقلال ، فيوفقون هكذا بين عاداتهم كرابين وقراصنة وواجباتهم كيونانيين . وينبغى أن نذكر كذلك أن المدينة العليا كانت بصفة عامة متحيزة للأتراك بسبب تبعيتها للكنيسة الرومانية . ولقد كاد الجنرال فابفيه أن يقتل فيها حين مر بسيرا وظن نفسه وسط اليونان الأرثوذكس . وربما كانوا يودون لو استطاعوا أن يبيعوا لليونان المقرة بالجميل جسد ذلك المحارب العظيم .

ماذا ! هل فعل أباؤكم هذا أيها الأطفال الوسماء ذوى الشعور الذهبية والأبنوسية الذين تنظرون إلى فى إعجاب ، وأنتم تروننى أقلب صفحات هذا الكتاب الصادق فى قوله فى انتظار وصول خادم الكنيسة . كلا ! إننى أفضل تصديق عيونكم الهادئة ، وإن ما يوجه إلى جنسكم من لوم ينبغى أن ينسب إلى تلك الحثالة من الأجانب مجهولى الاسم والعقيدة . والوطن والدين ما زال يزخر بهم ميناء سيرا ملتقى الأرخبيل . ثم إن هدوء طرقاتكم القفراء وهذا النظام وهذا الفقر . . . ها هو الخادم حامل مفاتيح كنيسة القديس جرجس . لندخل : كلا . . . لقد فهمت جلية الأمر إنها طائفة متواضعة من الأعمدة ومذبح ريفى وبعض اللوحات المصورة القديمة التى لاقيمة لها وصورة للقديس جرجس على لوحة مذهبة ، وهو يطرح أرضا ذلك الذى لايلبث دائما أن ينهض واقفا . أهذا يعادل المجازفة بالإصابة بالبرد تحت هذه القباب الرطبة ، وبين هذه الجدران الصماء الثقيلة المقامة على أطلال أحد معابد الآلهة المندثرين ؟ كلا !

إننى لا أرغب فى ذلك اليوم الواحد الذى أقضيه فى اليونان فى أن أتحدى غضب أپولو ؟

لاسيما أن فى ذلك الكتاب الذى أمسك به فقرة قد أثرت فى تأثيرا كبيرا : « قبل أن يصل المرء إلى دلفى فإنه يجد فى طريق ليفاريا الكثير

من المقابر القديمة . أما إحدى هذه المقابر ، وتتميز بيابها الضخم ، فقد أصابها زلزال بالتصدع وخرج من الصدع جذع شجرة غار برية . ويقول لنا دودويل إن ثمة تقليدا فى البلد يقول بأن أحد رهبان أبولو كان يقدم قربانا فى هذا المكان نفسه فى اللحظة التى مات فيها المسيح ، فتوقف فجأة وهو يصيح : إن إلها جديدا قد ولد تعادل قوته قوة أبولو ، إلا أن الأمر سينتهى به إلى أن يستسلم له . وما كاد ينتهى من نطق هذا السب حتى شقت الصخرة وسقط ميتا وقد ضربته يد غير مرئية » .

ألم أحسن صنعا أنا ابن ذلك القرن الذى يتسم بالشك ، حين ترددت فى عبور عتبة الكنيسة ، وفضلت التوقف لدى الشرفة أتأمل جزيرة تين القريبة وجزر ناكوس وپاروس وميكون المنثورة على سطح الماء ، ثم فيما وراءها ذلك الشاطىء المنخفض المقفر الذى مازلنا نراه على حافة السماء ، شاطىء جزيرة ديلوس جزيرة أبولو ! .

٢١- طواحين سيرا

حينما عدت فهبطت نحو الميناء حدثت لى حادثة غريبة فى إحدى هذه الطوحين ذات الأجنحة الستة التى تضفى زينة عجيبة على جميع مرتفعات الجزر اليونانية .

وإن طاحونة الهواء ذات الأجنحة الستة التى تضرب الهواء فى مرح شديد ، وكأنها أجنحة الصرصور الطويلة ذات الأغشية لاتفسد جمال المنظر ، كما تفسده الطواحين البشعة لمقاطعة بيكارويا فى بلادنا . ومع ذلك فهى ليست إلا صوره غير ذات أهمية كبيرة إذا قورنت بالأطلال القديمة المجيدة . أليس من المؤسف أن نرى شاطىء جزيرة ديلوس خلوامنها ؟ إن الطواحين هى مصدر الظل الوحيد فى هذه الأماكن القاحلة التى كانت تغطيها فيما مضى الغابات المقدسة . وحينما هبطت من سيرا القديمة إلى سيرا الجديدة المبنية على شاطىء البحر على أطلال هرمربوليس القديمة اضطررت إلى أخذ قسط من الراحة فى ظلال هذه الطواحين التى يجعلون من أرضيتها عادة ملهى «كاباريه» . وثمة موائد مصفوفة أمام الباب حيث تقدم لك النبيذ المائل للحمرة الذى يميل طعمه إلى القطران والجلد فى زجاجات مغلفة بالقش ، واقتربت امرأة عجوز من المائدة التى كنت جالساً إليها ، وقالت لى كلمتين يونانيتين . ونعرف أن اليونانية الحديثة لاتبتعد كثيرا كما قد يتبادر إلى الذهن عن اليونانية القديمة . وهذا صحيح إلى حد أن الصحف . وأغلبها يكتب باليونانية القديمة يفهمها الناس جميعا ... ولا أدعى أنى فى الدرجة الأولى من حيث إتقانى لليونانية ، ولكنى لاحظت من الكلمة الثانية أن الأمر يتعلق بشىء جميل . أما عن الكلمة الأولى فقد حاولت عبثا العثور على أصل لها فى ذكراتى التى لاتعى إلا عشاريات لانسلوت .

ومع ذلك فقد قلت فى نفسى : إن تلك المرأة تعرف أنى أجنبى ، وربما كانت ترغب فى أن ترينى بعض الأطلال أو بعض الطرائف. وربما كانت تحمل رسالة عاطفية مادمنا فى الشرق بلد المغامرات . ولما أشارت إلى أن أتبعها تبعتها ، فقادتنى بعيدا إلى طاحونة أخرى ، ولم يكن بها أى ملهى : لقد كانت شبه قبيلة منعزلة مكونة من ستة أو سبعة أشخاص زرقى الهيئة يملئون القاعة السفلى . كان بعضهم نائمين ، بينما كان البعض الآخر يلعبون لعبة العظام الصغيرة . ولم يكن فى هذه اللوحة الداخلية أية بهجة . وعرضت على العجوز الدخول . ولما كنت قد فهمت على وجه التقريب ماهية هذا المبنى ، فقد أبديت الرغبة فى العودة إلى الملهى الشريف الذى صادفتنى فيه العجوز ، إلا أنها أمسكت بيدى وهى تصيح من جديد بكلمتها السابقة . وإزاء ما أبديت من اشمئزاز للدخول إلى هذا المكان أشارت إلى بالاكتفاء بالبقاء حيث كنت .

وابتعدت بضع خطوات ، ثم وقفت وكأنها ترصدنى خلف حاجز من الصبار كان يحف بممر يؤدى إلى المدينة ، وكانت الفتيات يمررن من وقت لآخر وهن يحملن جرارا كبيرة من النحاس على الأرداف وهى فارغة وعلى الرأس وهى ملآنة . كن يذهبن إلى نافورة قريبة من هذا المكان أو يعدن منها . وعرفت من ذلك الحين أن تلك هى النافورة الوحيدة فى الجزيرة . وفجأة أخذت العجوز ترسل صفيرا توقفت له إحدى الفلاحات ومرت بسرعة من إحدى فتحات السور . وفهمت للتو معنى الكلمة التى قالتها العجوز . لقد كان الأمر يتعلق بصيد الفتيات . لقد كانت العجوز ترسل صفيرها ... ربما الصفير نفسه الذى كان يرسله الثعبان المسن تحت شجرة الشر . ووقعت فلاحة مسكينة فى الشرك .

وفى الجزر اليونانية لاتخرج النساء جميعا إلا محجبات ، كما لو كن فى بلد

ترك . وأعترف أنى لم أكن مستاء فى ذلك اليوم الوحيد الذى أقضيه فى فى اليونان من أن أكتفى على الأقل برؤية وجه امرأة . ومع ذلك ألم يكن فى فضول المسافر البسيط هذا تواطؤ مع حيلة هذه العجوز البشعة ؟ كانت المرأة الشابة تبدو مضطربة وغير ثابتة ، وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى تخضع فيها للإغراء الكامن خلف هذا السور المشئوم ! ورفعت العجوز الخمار الأزرق المتواضع الذى كانت ترتديه الفلاحة ، فرأيت وجها شاحبا منتظم السمات ذا عينين مستوحشتين .

وكان يحيط برأسها كالعمامة ضفيرتان كبيرتان من الشعر الأسود . لم يكن بها أى شىء من سحر الخطر الذى كان يميز العاهرات اليونانيات القدامى . ثم إن الفلاحة كانت تلتفت فى كل لحظة ناحية الحقول فى قلق ، وهى تردد : زوجى ! زوجى ! ، كان البؤس هو الذى يبدو على هيئتها كلها لا الحب . وأعترف أن فضلى لم يكن كبيرا فى مقاومة الإغراء . وأمسكت يدها ووضعت فيها قطعتين أو ثلاثة من الدراخمات وأشرت إليها أن باستطاعتها العودة إلى الممر .

وبدا عليها التردد لحظة . ثم رفعت يدها إلى رأسها وأخرجت من بين الضفائر المعقودة حول رأسها تعويذة من تلك التعاويذ التى تحملها نساء الشرق جميعا وأعطتها لى ، وهى تقول كلمة لم أستطع فهمها .

لقد كانت جزءا صغيراً من إناء أو مصباح عتيق ، لا بد أنها عثرت عليه فى الحقول ، وكان ملفوفا فى قطعة من الورق الأحمر أعتقد أننى تبينت عليها صورة صغيرة لجنية تركب عربة بجنحة بين ثعبانين . وعلى كل فإن الرسم كان على درجة من التآكل بحيث يستطيع المرء أن يرى فيه أية صورة يريد .. أرجو أن يجلب لى الحظ فى رحلتى .

وحينما هبطت إلى الميناء رأيت إعلانات تحمل عنوان تراجيديا ماركو بودجارى لأليكوسودز ، ويليها باليه .

وكان كل ذلك مطبوعا بالإيطالية للتيسير على الأجانب — وبعد أن تناولت عشائى فى فندق إنجلترا فى قاعة كبيرة مزدانة بالورق المحلى برسوم تمثل أشخاصا — طلبت توصيلى إلى الملهى الذى يدور فيه العرض . لقد كان الناس يسلمون غلايينهم الكبيرة المصنوعة من خشب الكرز قبل الدخول فيما يشبه أن يكون مكتبا للغلايين : إن أهل البلد لا يدخنون داخل المسرح حتى لا يضايقوا السياح الإنجليز الذين يستأجرون أجمل المقاصير . وكان جميع المشاهدين من الرجال فيما عدا بعض النساء الغربيات عن المكان . وكنت أنتظر بفارغ الصبر رفع الستار حتى أحكم على مستوى العرض . وبدأت المسرحية بمشهد تمهيدى بين بودجارى وموضع سره باليكار ، وحتى لو لم تنتزع منى طريقتهما التفخيمية والخلقية فى الكلام معنى الأشعار لكنت نابغة لو فهمتهما — واليونانيون ينطقون حرف الإيتا كما لو كان ى ، وال تيتا كالو كان ز ، والبتيا كما لو كان ف والإبسيلون كالو كان ى وهكذا . وربما كانت تلك هى الطريقة القديمة فى النطق ، إلا أن الجامعة قد علمتنا غير ذلك . وفى الفصل الثانى رأيت مصطاى باشا وسط نساء سرايه ، ولم تكن هؤلاء النساء سوى رجال يرتدون ملابس الوصيفات . ويبدو أنه فى اليونان لا يسمح للمرأة بالظهور على المسرح ياللغزى ! لقد فهمت شيئا فشيئا من تتبعى للمسرحية أن ماركو بودجارى ماهو إلا ليونيداس حديث استبدل مقاومة الثلاثمائة اسبرطى بثلاثمائه باليكار لقد قوبلت هذه المسرحية اليونانية التى سارت حوادثها تتقدم طبقا للقواعد الكلاسيكية ، ثم انتهت بطلقات البنادق — بالتصفيق الحاد .

ولما عدت إلى الباخرة استمتعت بالمنظر الفريد لهذه المدينة الهرمية التى يشع الضوء حتى من أعلى منازلها . لقد كان المنظر بابليا حقا ، كما قد يقول الإنجليز . ولقد غادرت فى سيرا الباخرة النمساوية واستقلت الباخرة ليونيدلس ، وهى سفينة فرنسية راحلة إلى الإسكندرية ، وسوف تستغرق هذه الرحلة ثلاثة أيام .

لابد أنك فهمت الفكرة التى حدت بى إلى مغادرة فيينا فجأة ... إننى أنتزع نفسى من بعض الذكريات، ولن أضيف كلمة واحدة على ذلك فى الوقت الحاضر : إننى لا أحب إذاعة آلامى كالحيوان الجريح الذى يعتزل بعيداً أو يقبع فى وحدته ليتألم طويلا ، أو ليموت دون أن يشكو .

إن مصر مقبرة فسيحة ، تلك هى الانطباعة التى أحدثتها فى نفسى ، وأنا أهبط إلى شاطئ الإسكندرية ، الذى يعرض للعين بأطلاله وأكماته مقابره المنتشرة على أرض من الرماد .

إن أشباحا ملتفة بأكفان مائلة للزرقة تجوس خلاله هذه الأطلال . ولقد ذهبت لرؤية عمود بومبي وحمامات كليوباترا ، ولم يكن ثمة مايذكر بالطبيعة الحية إلا النزهة على ترعة المحمودية ونخيلها دائم الخضرة .

ولن أحدثك عن الميدان الكبير ذى الصبغة الأوربية الخالصة ، الذى تكونه قصور القناصل وبيوت أصحاب البنوك ، ولا عن أطلال الكنائس البيزنطية ، ولا عن المبانى الحديثة التى يمتلكها والى مصر والتى تحيط بها حدائق لتربية النباتات. كم كنت أفضل عليها ذكريات اليونان القديمة إلا أن كل مايمت إليها قد تحطم واندثر ولم يأبه له أحد .

إننى أبحر هذا المساء على ترعة الاسكندرية إلى العطفه ، ثم أستقل زورقا شراعيا أصعد به مجرى النهر إلى القاهرة . إنها رحلة طولها خمسون فرسخا يقومون بها فى ستة أيام .

نساء القاهرة

حفلات العرس القبطية

١ — القناع والخمار

إن القاهرة هي المدينة الشرقية التي تجدفيها أكثر النساء تمسكا بالحجاب وتشدداً فيه . ففي القسطنطينية وأزمير يغطي النساء وجوههن بخمار أبيض رقيق ، يسمح أحياناً بأن نستشف ملامح المسلمات الجميلات ، وقلما تتوصل أشد القوانين صرامة إلى حملهن على جعل هــذا الخمار أكثر سمكا . إنهن راهبات رشيقات متأنقات ، ورغم أن الواحدة منهن تكرس نفسها لزوج واحد،إلا أنه لا يضيرها أن تبعث الأسى على الحرمان من جمالها في نفوس المعجبين. أما مصر الجادة التقية ، فهي دائماً موطن الأحاجي والألغاز . والجمال فيها يحاط ،كما كان الحال في الماضي ، بالخمر واللفائف . ومن السهل أن يثبط ذلك الوضع الكئيب حمية الأوربي العابث ، فيهجر القاهرة بعد ثمانية أيام ويسارع بالتوجه إلى شلالات النيل باحثاً عن المتاعب، وخيبة أمل أخرى يدخرها له العلم لا يمكن أن يتغلب عليها .

إن الصبر كان أكبر فضائل (المحنكين) القدامى . فلماذا هكذا نمر سريعاً ، فلنتوقف قليلا محاولين . أن نرفع طرفاً من خمار إلهة الوجه البحري الوقور ، ثم أليس من المشجع أن نشاهد النساء بالآلاف في الحوانيت والشوارع والحدائق في بلاد يقال عنها إن النساء فيها سجينات ، في حين أنهن يتجولن دون هدف : فرادى أو أزواجاً ، أو يرافقهن طفل من الأطفال ؟ إن الأوربيات في الواقع لسن أكثر حريةمنهن . حقيقةإن نساء الطبقة الممتازة يخرجن على ظهور الحمير، على حال لا يمكن الوصول إليهن فيها . ولكن نساء

نفس الطبقة فى بلادنا لا يخرجن قط إلا فى العربات . لم يبق إلا الحجاب يميزهن . ولكنه ليس بالحاجز العسير الاجتياز ، كما قد يتبادر إلى الذهن .

ومن بين الملابس العربية والتركية الفاخرة التى حافظ عليها الإصلاح ، تلك الملابس العجيبة التى ترتديها النساء ، والتى تضفى على الجموع التى تملأ الطرقات منظر حفل تنكرى بهيج ، مع فارق وحيد هو أن الملابس فى هذا الحفل ذات لون أسود لا أزرق . إن نساء الطبقة الأرستقراطية يلففن قدودهن بحبرة من نسيج « التافتاه » الخفيف . أما نساء الشعب فيتدثرن فى رشاقة بقميص بسيط من الصوف أو القطن ، كما لو كن تماثيل قديمة . وتفسح تلك الوجوه المقنعة المجال للخيال ، بيد أن القناع لا يخفى جميع مفاتنهن . فكثيراً ما تفلت الأيدى الجميلة ، المزدانة بالخواتم ذات الطلاسم والأساور الفضية ، بل وأحياناً تفلت الأذرع العاجية بأكملها من الأكمام الواسعة المرفوعة إلى ما فوق الكتفين ، أو الأقدام العارية المثقلة بالخلاخيل ، والتى يهرب منها الحذاء فى كل خطوة ، وتصدر كعوبها رنيناً فضياً . هذا هو كل ما هو مصرح لنا أن نعجب به ، وأن نحدس فى شأنه ، وأن نباغته دون أن نثير الجماهير ، أو أن تبدى المرأة نفسها ما يدل على أنها قد شعرت به . وأحياناً تتزحزح ثنيات الخمار المبطن بالأبيض والأزرق ، والذى يغطى الرأس والكتفين قليلا من مكانها فتسمح فيما بين هذا الخمار والقناع الطويل الذى يسمونه «البرقع» برؤية صدغ المرأة الفاتن . وعلى هذا الصدغ يلتوى الشعر الكستنائى فى ثنيات متقاربة، كما يبدو ذلك فى التماثيل النصفية لكليوباترة . وتسفر تلك الفتحة أو الفجوة عن أذن صغيرة ثابتة يتدلى منها فيما بين الرقبة والخد قرط فى شكل عنقود من الذهب، أو فى شكل قرص محلى بالفيروز وبخيوط من الفضة ، وحينئذ نشعر بالحاجة تدفعنا إلى سؤال عينى المصرية المحجبة، وهذا أخطر ما فى الموضوع . أما القناع فيتكون من قطعة طويلة وضيقة من النسيج تنسدل من الرأس إلى القدم ، وبها ثقبان فى مكان العينين ، كما فى لباس القساوسة . وقد ثبتت بعض الحلقات الصغيرة اللامعة فى المكان الذى يصل جبهة القناع بالذقن ، إنها هنا فى

انتظارك خلف هذه الأسوار تلك العيون الساخنة ، وقد تسلحت بكل ما تستطيع استعارته من الفن من وسائل الإغراء . فالحاجب ومحجر العين، وحتى الجفن وما بين الرموش قد أبرزت جمالها الأصباغ ، ومن المستحيل أن تكون هناك طريقة خير من تلك لإظهار جمال ذلك الجزء الصغير الذى يحق للمرأة هنا أن تبديه من نفسها .

ولم أدرك أول الأمر مقدار ما فى هذا الغموض من جاذبية، هذا الغموض الذى يحيط به نفسه نصف الشعب الشرقى الأحرى بالاهتمام والشوق . ولكن بضعة أيام كانت كافية لتعليمى أن المرأة التى تشعر بالتفات الناس إليها، لا تعدم عادة الوسيلة لتمكينهم من رؤيتها ، لو كانت ذات جمال . أما من لسن على شىء من الجمال، فهن أشد حرصا على الخمار، ولا ينقم عليهن أحد بسبب ذلك .

حقاً إن هذا البلد هو بلد الأحلام والأوهام ! إن القبح هنا يخفى كما تخفى الجرائم ، فى حين أنه فى مقدور المرء دائماً أن يلمح شيئا مما تتمتع به المرأة من قوام ورشاقة وشباب وجمال .

والمدينة نفسها تشبه النساء من سكانها ؛ فهى لا تكشف إلا قليلا قليلا عن أماكنها الخلوية الظليلة وحياتها الداخلية الساحرة . لقد كنت مساء يوم وصولى إلى القاهرة شديد الحزن خائر العزم . ذلك أننى تبينت بعد بضع ساعات من النزهة على ظهر حمار بصحبة أحد التراجمة أننى سوف أقضى هنا فترة ستة شهور، ستكون أكثر الفترات بعثا للسأم ، وكان كل شىء قد أعد من قبل لكيلا تنقص مدة إقامتى عن ذلك يوما واحداً .

وكنت أقول لنفسى : « ماذا ؟ أهذه هى مدينة ألف ليلة وليلة وعاصمة الفاطميين والسلاطين ؟ وكنت أغرق فى شبكة الشوارع الضيقة المتربة التى لا مخرج منها وسط جموع من الناس مهلهلة الثياب، وتزاحم الكلاب والجمال

والخير عند اقتراب المساء ، إذ سرعان ما تنتشر ظلاله بسبب التراب الذى يجعل السماء تبدو كالحة ، ثم بسبب ارتفاع المنازل أيضاً .

أى شىء نستطيع أن نأمله من هذا التيه المختلط الذى قد يصل إلى اتساع باريس أو روما ، وماذا نأمل فى هـــذه القصور وتلك المساجد التى تعد بالآلاف ؟ إنها كلها ولا ريب كانت جميلة رائعة ، ولكن ثلاثة أجيال مرت بها ، ولذا فأحجارها تكاد تتداعى فى كل مكان ، وقد أصاب العفن أخشابها ، وإن المرء ليخيل إليه أنه يسافر فى الأحلام فى مدينة من مدن الماضى ، لا يسكنها سوى الأشباح التى تملؤها دون أن تبعث فيها الروح . إن كل حى من أحيائها محاط بأسوار ذات ثقوب ، وتغلق عليه أبواب ثقيلة ، كما كانت تغلق عليه فى العصور الوسطى . وهو ما يزال محتفظاً بالطابع الذى كان يميزه دون شك فى عصر صلاح الدين . وهناك ممرات ذات بواكٍ تصل الشوارع بعضها ببعض هنا وهناك ، وكثيراً ما يحدث أن نتورط فى طريق لا مخرج له ، فنضطر حينئذ إلى أن نعود أدراجنا . إن كل شىء يغلق أبوابه شيئاً فشيئاً ، ماعدا المقاهى التى تظل مضاءة . ويجلس المدخنون على أقفاص من سعف النخيل فى ضوء مصابيح الزيت الخافتة ، يستمعون إلى قصص طويلة تروى بصوت أخنف . أما المشربيات فتضاء فى هذا الوقت ، وهى حواجز مصنوعة من قطع خشبية غريبة الصنع والتقطيع ، وهى تمتد فوق الشارع وتؤدى مهمة النوافذ ، ولا يكفى النور الصادر منها لإضاءة طريق المارة ، لا سيما أن ساعة إطفاء الأنوار سرعان ما تحل ويزود كل امرىء نفسه بمصباح ، ولا يرى أحد خارج المنازل اللهم إلا بعض الأوربيين أو الجنود الذين يمرون فى دورياتهم الليلية .

أما أنا فلم أكن أدرى ماذا عساى أن أفعل فى الشوارع بعد هذه الساعة ، أعنى الساعة العاشرة مساء . لذا فقد أويت إلى فراشى فى حزن شديد ، وأنا

أقول لنفسى — واليأس من متع تلك العاصمة الغابرة يحيط بى — : إن الأمر سوف يتكرر دون شك كل يوم من الأيام التالية .

وبشكل لا يمكن تفسيره اصطدم نومى فى الليلة الأولى بصوت مزمار وكان صدىء كان يؤذى أعصابى إيذاء شديداً . وكانت تلك الموسيقى العنيدة تكرر فى إصرار نفس الجملة بنغمات متعددة ، كانت تصور فى خيالى حفلات عيد الميلاد القديمة فى مقاطعة بورجونيا أو پروفانس . أحلم هذا أم حقيقة ؟ لقد تردد عقلى بعض الوقت قبل أن يفيق تماماً من غفوته . وكان يخيل لى أن أحداً يحملنى إلى الأرض بطريقة جادة وتهريجية فى آن واحد ، وقد التف بى منشدو الكنائس الريفية وبعض الشاربين وقد توجوا بأكاليل العنب . كانت تلك التصورات تختلط بنوع من البهجة الكنسية وحزن الأساطير القديمة فى هذا الامتزاج العجيب الذى تكون فيه بعض النغمات الكنسية المروعة قاعدة لنغم هزلى كفيل بأن يضبط إيقاع رقصة من رقصات الأساطير. ولما ازداد الصوت اقتراباً وصخباً صحوت وأنا مازلت مسترخياً بتأثير النوم . وأنبأنى الضوء الذى نفذ من الجزء الخارجى من نافذتى : أن الأمر يتعلق بمشهد مادى واقعى . ومع ذلك فإن ما ظننته حلماً قد تحقق جزء منه . كان هناك رجال شبه عارى الأجساد وقد توجوا رءوسهم كما كان يفعل المصارعون القدامى ، وكانوا يتصارعون وسط الجموع بالسيوف والدروع ، ولكنهم كانوا يكتفون بضرب نحاس الدروع بصلب السيوف وهم يتبعون نغمات الموسيقى . ثم كانوا يستأنفون سيرهم ليبدءوا نفس مشهد تمثيل المصارعة هذا فى مكان أبعد . وكانت هناك مشاعل كثيرة وشموع على شكل أهرام يحملها الصبية ويضيئون بها الطريق إضاءة ساطعة ، وهم يقودون موكباً كبيراً من الرجال والنساء لم أتمكن من ملاحظة كل التفاصيل المميزة لهم . وكان هناك شىء ما يشبه الشبح الأحمر يحمل تاجاً مرصعاً بالفصوص ، ويتقدم ببطء بين امرأتين جادتين فى هيئتهما وخليط من النساء يرتدين الملابس الزرقاء ويسددن الطريق ، وعند كل مرحلة يصدرن صوتاً نفاذاً كصياح الدجاج له تأثير جد غريب .

لم يعد هناك شك فى أن تلك كانت حفلة عرس . وكنت قد رأيت فى باريس مشهداً كاملا لهذه الاحتفالات محفورا فى رسوم الفنان كساس . ولكن ماشاهدته من ثقوب نافذتى لم يكن كافياً فى إطفاء ظمأ استطلاعى ، وأردت ، مهما يكن الأمر ، أن أتابع الموكب وأن أتريث الوقت الكافى لتأمله . ولما بحت برغبتى تلك لترجمانى عبد الله تظاهر بالارتعاد فرقا من جرأتى ، لأنه لم تكن به رغبة فى أن يجوب الشوارع ليلا ، وحذرنى من أننى قد أقتل أو أضرب نتيجة لذلك . ولكنى لحسن الحظ كنت قد اشتريت عباءة من وبر الجمل يسمونها «المشلح» وهى تغطى الرجل من كتفيه إلى قدميه . ولما كانت لحيتى قد طالت بعض الشىء ، فإن منديلا معقوداً حول الرأس كفيل بأن يجعل تنكرى تنكراً كاملا .

عرس على ضوء المشاعل

كانت الصعوبة فى اللحاق بالموكب الذى اختفى فى تيه الشوارع والطرقات المسدودة. وكان الترجمان قد أشعل مصباحا من الورق ، وكنا نجرى على غير هدى ، وكانت أصوات المزامير البعيدة أو ومضات الأضواء المنعكسة التى لم توجد إلا عند تقاطع الطرق ، توجهنا أحيانا وتخدعنا أحيانا أخرى . وأخيراً بلغنا باب حى فى شارع طويل يتلألأ نوراً ويعج بالضجيج المدوى ، وقد غص بالناس الذين تجمعوا فى كل مكان حتى فوق أسطح المنازل .

وكان الموكب يتقدم ببطء شديد على النغمات الحزينة لآلات تحاكى صوت باب يئز فى إصرار أو صوت عربة تجرب عجلات جديدة . وكان المتسيون فى هذه الضوضاء ، وهم نحو عشرين شخصا ، يسيرون ، وقد أحاط بهم رجال يحملون حرابا تقذف اللهب. ويلى هؤلاء صبية يحملون شمعدانات ضخمة تضىء شموعها كل ما حولها . واستمر المتصارعون يعرضون ألعابهم طيلة الفترات العديدة التى كان الموكب يتوقف فيها . وكان بعضهم يسيرون على عكاكيز حديدية مرتفعة ، ويزينون رءوسهم بالريش ويتضاربون بالعصى الطويلة . وبعيدا عنهم نجد شبابا يحملون الرايات والعصى ، وقد علتها الشعارات والمدائح المكتوبة بالخط المذهب على نحو ما يشاهد فى حفلات النصر الرومانية ؛ ثم آخرون يحملون شجيرات مزدانة بأكاليل الزهور والتيجان ، وقد تجملت فوق ذلك بالشموع المضاءة والكرات البراقة ، وكأنها شجرة عيد الميلاد . وكانت هناك لوحات عريضة من النحاس المذهب مرفوعة على أقواس ومغطاة بالزينات والعبارات المكتوبة ، فكانت تعكس هنا وهناك تلك الأضواء المتلألئة . يلى ذلك المغنيات (العوالم)

والراقصات (الغوازى) وقد ارتدين ثيابا حريرية مخططة ، ووضعن على رءوسهن طرابيش ذات أقراص مذهبة . وكانت ضفائرهن متدلية ، وقد ازدانت بالنقود الذهبية. وكان بعضهن يحلين أنوفهن بحلقات طويلة ويسفرن عن وجوه طليت بالمساحيق الحمراء والزرقاء ، بينما البعض الآخر قد أسدلن الخمر على وجوههن بعناية ، مع استرسالهن فى الرقص والغناء . وكانت الدفوف النحاسية وصاجات الأيدى والطبول تصاحبهن فى الأداء . ويسير خلف هؤلاء صفان طويلان من العبيد ، وهم يحملون الصناديق والسلال تتألق فيها الهدايا المقدمة للعروس من عريسها أو زوجها ومن أسرتها . وخلف هؤلاء يسير المدعوون، وقد توسطتهم النساء المتدثرات فى معاطفهن السوداء الطويلة، وقد غطين وجوههن بخمر بيضاء تقليدا لنساء الطبقة الراقية. أما الرجال فكانوا فى أفخر حللهم . وقال لى ترجمانى بهذه المناسبة : إن الفلاحين فى مثل هذا اليوم فى مقدورهم الحصول على الملابس التى تظهرهم فى المظهر اللائق . وأخيراً ، ووسط هالة كبيرة من أنوار المشاعل والشمعدانات والمصابيح كان الشبح الأحمر الذى لمحته من قبل يتقدم فى بطء، ولم يكن سوى الزوجة الجديدة أى العروس ، وقد تحجبت حجابا كاملا بغطاء من الكشمير ، تنسدل أطرافه حتى قدميها . وكان نسيجه الخفيف يسمح لها دون شك بأن ترى دون أن يراها أحد . لم يكن هناك أعجب من هذا الهيكل الطويل الذى يتقدم تحت خماره ذى الثنيات الطولية ، وقد زاد فى طوله التاج الهرمى الموضوع على رأسه ، وهو يتألق بالفصوص البراقة. وكانت هناك امرأتان ترتديان ثيابا سوداء وتسندانها فى سيرها، وقد أمسكتا بها من تحت زنديها . وهكذا كانت تبدو وكأنها تنزلق يبطء على الأرض. وتولى أربعة من العبيد حمل مظلة من القطيفة فوق رأسها ، بينما كان آخرون ينظمون وقع خطواتها لتنضبط على دقات الدفوف النحاسية والطبول .

وبينما أنا أتأمل هذا المشهد توقف الركب من جديد ، وأخذ بعض الصبية

يوزعون المقاعد لكى تستريح العروس وأقاربها . ورجعت « العوالم » إلى الوراء وأخذن يسمعن الحاضرين بعض الأغانى المرتجلة الجاعية تصاحبهن الموسيقى والرقص . وكان الحاضرون جميعا يرددون بعض مقاطع الأغانى معهن . أما أنا فقد وجدت نفسى فى ذلك الوقت محط الأنظار ، ففتحت فى كالآخرين أردد ما استطعت كلمات «ليسون» ومعناها «آمين» التى يختمون بها أبعد المقاطع عن الدين . ولكن كان ثمة خطر أكبر يهدد تنكرى ؛ فلم أكن قد تنبهت إلى أن العبيد كانوا يمرون على الجموع ، وهم يصبون سائلا فاتح اللون فى فناجين ، ثم يوزعونها عليهم . وكان هناك مصرى طويل القامة ، لابد أنه من الأسرة ، يرتدى الملابس الحمراء ويشرف على عملية التوزيع ويتلقى شكر الشاربين . ولم يكن يبعد عن مكانى إلا مسافة خطوتين ، ولم تكن لدى أية فكرة عما ينبغى أن أهديه من تحية . ولحسن الحظ كان لدى الوقت لملاحظة حركات الناس القريبين منى ، فلما حل دورى أخذت الفنجان باليد اليسرى ، وانحنيت وقد وضعت يدى اليمنى على قلبى ثم على جبينى وأخيراً على فمى . إنها حركات سهلة ، ومع ذلك ينبغى الحذر من عدم إتيانها بالترتيب أو من إتيانها دون سلاسة فى الحركة . وما إن أديتها حتى صار لى الحق فى ابتلاع محتويات الفنجان . ولشد ما كانت دهشتى ، فقد كان مشروبا خمراً باليانسون . كيف نفسر توزيع مشروب خمر فى أعراس المسلمين ؟ الواقع أننى لم أكن أتوقع سوى شراب الليمون أو عصير الفواكه المخمر ، ومع ذلك فقد كان من اليسير ملاحظة أن « العوالم » والموسيقيين ومهرجى الموكب قد تناولوه أكثر من مرة .

وأخيرا نهضت العروس وتابعت مسيرها . وتجمعت الفلاحات فى ملابسهن الزرقاء خلفها ، وهن يصدرن أصواتا كصياح الدجاج ، وواصل الموكب سيره الليلى حتى بلغ منزل العروسين .

وقد سرنى أننى ظهرت كقاهرى أصيل ، وأحسنت التصرف فى هذا

الحفـــل ، فأشرت إلى ترجمانى أستدعيه ، وكان قد ابتعد عنى ليقترب من موزعى المشروبات، ولكنه لم يكن عجلا فى العودة فقدسره حضورالحفل، وقال لى بصوت خافت :

— لنتبعهم إلى البيت .

— ولكن بماذا أجيب لو وجه إلى أحد الحديث ؟

— لا تقل سوى « طيب » ففيها الجواب على كل شىء . ومهما يكن من أمر فسأكون حاضرا لأدير دفة الحديث .

وكنت أعرف من قبل أن كلمة « طيب » هى أساس اللغة . وهى كلمة تلبس جميع المعانى حسب النغمة التى تقال بها. ومع ذلك فلا يمكن مقارنتها بكلمة goddam الإنجليزية ، اللهم إلا إذا كان ذلك لإظهار الفارق بين شعب مهذب تهذيباً أكيدا وأمة تعتبر على أكثر تقدير مجرد مهذبة . إن كلمة « طيب » تؤدى هذه المعانى بالتتالى :

حسن جداً ، ما أحسن ذلك ، هذا شىء رائع ، أو أنا فى خدمتك . وتضيف اللهجة والحركة إلى تلك الكلمة مفارقات لانهاية لها من المعانى . وبدت لى طريقة الترجمان هذه أكثر بعثا للاطمئنان من تلك التى تحدث عنها الرحالةالشهير «بلزونى»على ما أظن. فقد دخل مسجداً متنكراً تنكرابارعاً، وأخذ يؤدى كل الحركات التى رأى القريبين منه يأتونها . ولكن لما كان لايستطيع الإجابة على أى سؤال يوجه إليه فقد ،قال ترجمانه لمستطلعى أمره :

«إنه لايفهم ، فهو تركى إنجليزى» .

ومن باب مزدان بالزهور والأغصان دلفنا إلى فناء تتلألأ فيه أنوار

المصابيح الملونة . ومن خلف خشب المشربيات المثقب كنا نرى المنزل وقد أضيء بالأنوار البرتقالية وغص بالناس . وكان لا بد لنا من أن نتوقف هنا ونتخذ أماكننا فى الدهاليز ، الداخلية ، فالنساء وحدهن هن اللاتى يصعدن إلى البيت حيث يخلعن الحجاب ولا أحد يلمح سوى هياكلهن الغامضة وألوان ثيابهن وبريق مجوهراتهن من بين الثغرات الخشبية .

وبينما كانت العروس ونساء الأسرتين يستقبلن السيدات ويرحبن بهن ، نزل العريس من فوق حمار موهو يلبس ثوبا أحمر مذهباً ، وأخذ يتقبل تهانى الرجال . ثم دعاهم إلى اتخاذ أماكنهم على الموائد المنخفضة التى مدت فى أعداد كبيرة فى قاعات الدور الأرضى وحملت بالصحاف الممتلئة كالهرم . وكان يكفى أن تجلس القرفصاء على الأرض ، وأن تسحب صحفة وكأساً وتأكل ماتشاء بأصابعك . كانوا يرحبون بكل قادم فلم ، تكن هناك مجازفة لخرق آداب اللياقة من طرفى حين شاركت فى الوليمة . وكان الغناء أجمل أجزاء الحفل ، حيث كان الرقص يؤدى وسط الضجيج الكبير . كانت هناك فرقة من الراقصين النوبيين تؤدى أغرب الخطوات وسط حلقة كبيرة كونها الحاضرون . كانوا يذهبون ويجيئون تقودهم امرأة محجبة ترتدى معطفا ذا خطوط عريضة ، وهم يمسكون بأيديهم سيفا مقوساً ، فيبدون كما لو كانوا يهددون الحاضرين تارة أو يهربون منهم تارة أخرى . وكانت « العوالم » ترافق الرقصة بأغانيهن ، وهن يقرعن بأيديهن طبولا من الفخار (دربكة) يمسكن بها بأحد أذرعهن على ارتفاع الأذن . ولم تتوان الفرقة الموسيقية . وهى مكونة من حشد من الآلات الغريبة ، عن الاشتراك فى هذه المجموعة ، كما اشترك فيها الحاضرون بضبط الإيقاع بأيديهم . وفى الفترات التى تتخلل الرقص ، كان الخدم يدورون بأكواب المرطبات ، ومن بينها نوع لم أكن أتوقعه . ورواحت الجوارى يرججن قنينات صغيرة من الفضة فوق الحاضرين ، وكانت تحوى ماء معطرا ، لم أتعرف على رائحة الورد الذكية

فيه إلا عندما شعرت على خدى وذقنى بالقطرات التى رشتها الجوارى كيفما اتفق .

وفى هذا الوقت تقدم أحدهم نحوى ، وهو شخصية من الشخصيات المرموقة فى العرس ، وقال لى شيئا أجبت عليه بالكلمة الظافرة « طيب » التى يبدو أنها أرضته كل الرضاء ، فوجه كلامه إلى جيرانى. وحينئذ استطعت أن أستفسر ترجمانى عما يعنى . فقال لى هذا الأخير : « إنه يدعوك إلى منزله لرؤية العروس » . وبلا شك كان جوابى قبولا للدعوة . ولكن لما كان الأمر لن يعدو جولة نساء محجبات حجابا محكما فى قاعات غاصة بالمدعوين ، فقد وجدت من غير الملائم أن أدفع المغامرة إلى مدى أبعد من ذلك . حقيقة إن العروس وصاحباتها سوف يبدون حينئذ بملابسهن البراقة التى كان يخفيها الحجاب الذى كن يضعنه وهن فى الطريق ، ولكن عدم تأكدى من إجادة النطق بكلمة « طيب » ثنانى عن المجازفة داخل بيوت الأسر . وتمكنا أنا والترجمان من بلوغ الباب الخارجى الذى يطل على ميدان الأزبكية .

وقال لى الترجمان :

— « يا للأسف ! لقد فاتتك رؤية التمثيلية بعد ذلك .

— كيف ؟

— نعم ، الملهاة .

وظننت أنه يعنى « القراقوز » الشهير ، ولكنه لم يكن كذلك .

« فالقراقوز » لا يعرض إلا فى الحفلات الدينية... أما التمثيلية التى يتحدث عنها فلابد أنها تتكون من بعض المشاهد المضحكة التى يؤديها الرجال ، ويمكن مقارنتها بالأمثال التى تبنى عليها التمثيليات فى مجتمعنا . وكان الغرض من تلك المشاهد التمثيلية هو تسلية الناس فى الفترة الباقية من

السهرة فى الوقت الذى يكون العروسان وأقاربهما قد انسحبوا فيه فى الجزء المخصص للنساء من المنزل .

ويبدو أن احتفالات هـذا الزواج كانت مستمرة منذ ثمانية أيام . وأخبرنى الترجمان أن الذبائح قد نحرت يوم عقد القران على عتبة الباب ، قبل مرور العروسين . كما حدثنى عن احتفال آخر يكسرون فيه كرة من الحلوى حبست بها حمامتان . ويعتبر إطلاق سراح الحمامتين فألاحسنا . إنها عادات قد تكون موروثة منذ القدم .

وعدت إلى بيتى وقد تأثرت بهذه المشاهد الليلية . فقد أظهرت لى أن الزواج لدى هذا الشعب يحتل مركزاً هاماً . ورغم أن مظاهر هذا الحفل تدل على يسر العروسين ، فمن المؤكد أن الفقراء كذلك يتزوجون وسط مظاهر صاخبـة لا تقل عن ذلك . وهم لا يدفعون اجراً للموسيقيين والمهرجين والراقصين ، فهم من أصدقائهم ، أوهم يجمعون النقود من الحاضرين . أما الملابس فيستعيرونها . ويمسك كل واحد من الحاضرين بيده شمعة أو مصباحا . أما تاج العروس فلا يقل ترصيعا بالماس واليواقيت عن تاج ابنة الباشا . أين يمكن العثور على مساواة أحق من تلك ؟ إن تلك المصرية الشابة التى قد لا تكون جميلة إذا بدت من خلف خمارها ، ولا غنية إذا جردت من تاجها الماسى — لها يوم نصر تتقدم فيه فى فرح وحبور خلال المدينة التى تشاهدها وتعجب بها وتسير فى ركابها . إنها تعرض المخمل والمجوهرات الجديرة بالملكات، ولكن أحداً لا يعرفها ، ويحيطها الغموض تحت حجابها كربة النيل القديمة . إن رجلا واحداً سيئول إليه سر هذا الجمال وتلك الرشاقة المجهولة ، رجل واحد يستطيع طيلة يومه أن يتابع مثله الأعلى ، ويشعر بأنه الرجل المفضل لدى إحدى السلطانات أو الجنيات . وحتى إذا أصيب بخيبة أمل فى ذلك الجمال، فستظل كرامته مستورة مكفولة . وأيا ما كان ، أليس لكل رجل فى هذا البلد السعيد الحق فى تجديد يوم النصر والأوهام هذا أكثر من مرة ؟

٣ — الترجمان عبد الله

إن ترجمانى رجل لا غنى عنه ، ولكنى أخشى أن أقول : إنه ربما كان أنبل من أن يكون خادماً لسيد متواضع مثلى . لقد كان لقائى به على ظهر السفينة «ليونيداس» فى الإسكندرية . وقد بدا لى حينئذ محاطا بكل أبهته وفخامته . فقد اقترب من السفينة فى قارب تحت إمرته . وكان بالقارب زنجى صغير ليحمل له ترجيلته ، وترجمان آخر أصغر منه سناً ليكون فى ركابه . كان يرتدى قيصاً طويلا أبيض يغطى ملابسه ويظهر لون وجهه ، ذلك الوجه الذى بدا كقناع يلونه دم نوبى استعير من رأس أبى الهول : إنه ولاشك خليط لجنسين بشريين . وكانت هناك حلقتان عريضتان من الذهب تتدليان من أذنيه . وساهمت مشيته المتكاسلة وملابسه الطويلة فى جعله يبدو أمامى كعبد معتق من عبيد الامبراطورية البيزنطية .

ولم يكن بين الركاب إنجليز ، فارتبك الرجل قليلا ، وتعلق بى لأنه لم يجد من هو أفضل منى . ولما نزلنا إلى البر استأجر أربعة حمير له ولرفاقه ولى ، وقادنى رأسا إلى « فندق انجلترا » ، حيث قبلوا أن يستقبلونى بأجر قدره ستون قرشا فى اليوم . أما عن إقامته هو فقد شاء أن ينقص تلك القيمة إلى النصف ، بما فى ذلك نفقات إقامة الترجمان الآخر والزنجى الصغير .

وبعد أن ظللت اليوم الأول أجر ورائى فى تجوالى ذلك الحرس المهيب ، لمست عدم جدوى الترجمان الثانى ، بل وكذلك عدم جدوى الصبى الصغير . ولم يجد عبد الله (هكذا كان يسمى) أية صعوبة فى شكر زميله على خدماته . أما الزنجى الصغير فقد احتفظ به على نفقته . وفوق ذلك فقد خفض نفقات إقامته هو إلى عشرين قرشاً فى اليوم ، أى حوالى خمسة فرنكات .

ولما وصلنا إلى القاهرة ، قادتنى الحمير رأساً إلى الفندق الإنجليزى الذى

يوجد فى ميدان الأزبكية . ولكنى اعترضت همة الترجمان لما علمت أن الإقامة فى ذلك الفندق كانت بنفس شروط الإسكندرية .

فقال لى ترجمانى الأمين عبد الله :

— أتريد إذن أن تنزل فى فندق « راجهورن » فى الحى الإفرنجى ؟

— إنى أفضل فندقاً لا يكون إنجليزيا .

— حسن ! أمامك فندق دوميرج الفرنسى .

— هيا بنا إليه .

— عذراً ، إنى أرافقك إليه بسرور ، ولكنى لن أقيم فيه .

— ولماذا ؟

— لأنه فندق لا يكلف فى اليوم إلا أربعين قرشاً ، وأنا لا أستطيع الإقامة فيه .

— أما أنا فسأذهب إليه عن طيب خاطر .

— إن أحداً لايعرفك هنا ، أما أنا فمن المدينة . ولما كنت عادة فى خدمة السادة الإنجليز فعلى ، أن أحافظ على مستواى .

ومع ذلك فكنت أرى أن سعر هذا الفندق ليس بالرخيص ، لا سيما فى بلد يقل سعر كل شىء فيه ست مرات عن مثله فى فرنسا ، ويبلغ أجر الرجل فيه فى اليوم قرشاً واحداً أى ستة فلسات بعملتنا .

واستأنف عبد الله كلامه قائلا :

— هناك طريقة لتسوية الأمور . لتبق يومين أو ثلاثة أيام فى فندق دوميرج ، أذهب للقائك فيها كأحد أصدقائك . وفى تلك الأثناء استأجر لك بيتاً فى المدينة ، فيتسنى لى أن أبقى فيه فى خدمتك دون صعوبة .

وكثير من الأوربيين على مايبدو كانوا فى الواقع يستأجرون المنازل فى القاهرة بمجرد وصولهم للإقامة فيها ردحاً من الوقت . فما إن تبادر ذلك إلى على، حتى خولت لعبد الله السلطة المطلقة فى التصرف .

ويقع فندق دوميرج فى نهاية طريق مسدود ، يطل على الشارع الرئيسى فى الحى الإفرنجى . وهو رغم كل شىء ملائم جداً وحسن الإدارة . وتحيط مبانيه بفناء داخلى مربع مطلى بالجير وتسقفه تعريشة كرم تتعانق فيها العناقيد . وكان ضمن نزلاء الفندق رسام فرنسى لطيف المعشر ، رغم ما به من صمم بسيط . وهو ذو موهبة كبيرة ولو أنه يهتم اهتماماً خاصاً بطبع الصور على المعادن الحساسة . وقد اتخذ هذا الرسام دهليزا من دهاليز الطابق العلوى مرسماً له . وكان بين حين وآخر يستقدم فيه بعض بائعات البرتقال والقصب فى المدينة ، وكن يقبلن عن طيب خاطر أن يتخذ منهن نماذج لرسومه . فكن يسمحن له دون صعوبة بأن يدرس عليهن تفاصيل الأجناس المصرية الرئيسية ، بيد أن أغلبهن كن يتمسكن بالاحتفاظ بالحجاب على وجوههن . . .

وكان فى الفندق الفرنسى فوق ذلك حديقة على شىء كبير من البهجة . أما مائدة الفندق ، فكانت تقاوم بنجاح الصعوبة التى كانوا يلقونها فى تنويع أصناف الطعام الأوربية فى مدينة تعز فيها الثيران والعجول . وهذا يفسر ارتفاع الأسعار فى الفنادق الإنجليزية حيث كانوا يستعملون المعلبات من لحم إلى خضر ، كما يحدث فى السفن . إن الإنجليزى فى أى بلد لا يغير أبداً طعامه اليومى من لحم العجل البارد إلى البطاطس إلى شراب « البورتر » و « الإيل » .

وعلى مائدة الفندق قابلت ضابطا برتبة كولونيل ، وأسقفا من الأساقفة وبعض الرسامين ، وإحدى مدرسات اللغات ، وهنديين من بومباى أحدهما يشرف على تربية الآخر . ويبدو أن طعام جنوب فرنسا الذى يقدمه

الفندق كان يبدو لها بلا طعم ، فقد أخرجا من جيوبهما قنينات من الفضة تحوى الفلفل الأسود والمستردةوأخذوا يرشون منها على صحافهم ، وقدموا لى منها . وإن ما يحس به المرء عند ما يمضغ لحماً ملتهباً لكفيل بأن يعطينا فكرة دقيقة عما لتلك التوابل من طعم حريف .

ويمكننا أن نكمل لوحة الإقامة فى الفندق الفرنسى بأن نتمثل « بيانو » فى الدور الأول ومنضدة « بلياردو » فى الدور الأرضى . ومعنى ذلك أنه كان أولى بنا ألا نغادر مرسيليا . كنت أفضل من ناحيتى محاولة أن أحيا حياة شرقية تماماً . والمرء هنا يمكنه الحصول على منزل جميل جداً مكون من بضعة طوابق ، وبه أفنية وحدائق بإيجار قدره ثلاثمائة قرش (أى خمسة وسبعون فرنكا) فى السنة ، وقد أرانى عبد الله الكثير منها فى حى الأقباط والحى اليونانى ، كان بها قاعات قد ازدانت زينة رائعة بالأرضيات الرخامية والنافورات والدهاليز والسلالم على نحو ما نرى فى قصور جنوى والبندقية ، هذا فضلا عن الأفنية المحاطة بالأعمدة والحدائق التى تظللها الأشجار النادرة . إن تلك البيوت تهىء لنا حياة كحياة الأمراء بشرط أن نملأ بالجوارى والخدم تلك القاعات الرائعة . ورغم كل ذلك فليس بها غرفة واحدة يمكن أن تسكنها إلا بتكاليف باهظة ، فالنوافذ الطريفة فى تجزيئها والمكشوفة للهواء مساء وللرطوبة ليلا لا زجاج لها . هكذا يعيش الرجال والنساء جميعاً فى القاهرة ، ولذا فأمراض العين كثيراً ما تعاقبهم على هذا التهور الذى تفسره الحاجة إلى الهواء والجو المنعش ، ولم أكن بطبيعة الحال من الراغبين فى حياة كحياة المعسكرات فى ركن من أركان قصر شاسع . وينبغى أن نضيف أن كثيراً من تلك الأبنية كان مقراً قديماً لأرستقراطية آلت إلى الزوال ، وقد تمتد جذورها إلى عصر السلاطين المماليك ، ولذا فجلها مهدد جديا بالانهيار .

وانتهى الأمر بعبد الله أن عثر لى على منزل أقل اتساعاً من تلك ، ولكنه

أكثرمنها بعثاً للاطمئنان ، كما أن نوافذه أكثر إحكاماً . فإن الإنجليزى الذى كان يسكنه منذ وقت قريب قد زوده بالنوافذ الزجاجية، واعتبر الناس ذلك من الغرائب . وكان ينبغى أن نستدعى شيخ الحى حتى أتمكن من عقد الاتفاق مع السيدة القبطية صاحبة البيت . كانت تلك السيدة تمتلك أكثر من عشرين منزلا ، ولكن بالوكالة عن بعض الأجانب، لأن الأجانب ليس لهم حق الملكية فى مصر . وكان هذا البيت فى حقيقة الأمر ملكا لواحد من حاملى الأختام بالقنصلية الإنجليزية .

وكتب العقد باللغة العربية ، وكان لزاماً على أن أدفع نفقاته وأقدم الهدايا للشيخ ومسجل العقود ورئيس أقرب فرقة حرس من المنزل ، وبعد ذلك أوزع العطايا والمنح على الكتبة والخدم ، وبعد ذلك سلمنى الشيخ المفتاح . وهذا المفتاح لا يشبه المفاتيح عندنا فى شىء ، فهو يتكون من قطعة واحدة من الخشب تشبه المقاطع التى يستعملها الخبازون ، وقد دق فى طرفها خمسة أو ستة مسامير ، كما لو كان ذلك من قبيل المصادفة ، ولكن لم يكن فى الأمر أية مصادفة : فالمفتاح يدخل فى فتحة غريبة فى الباب وتتقابل رءوس المسامير بثقوب فى الداخل غير مرئية . وفيما وراء تلك الثقوب يوجد مزلاج خشبى يسمح بالدخول عند ما يغير مكانه .

أما مفتاح بيتك الخشبى ذاك ، الذى يستحيل وضعه فى الجيب ، وإنما يعلق فى المنطقة ، فإن الحصول عليه لا يكفى ، وإنما ينبغى كذلك الحصول على أثاث يناسب فخامة البيت . ولكن هذا الأمر التفصيلى يعتبره سكان القاهرة من أبسط الأمور . وقد صحبنى عبدالله إلى سوق من الأسواق، حيث قمنا بوزن بضع أقات من القطن ، وحضر المنجدون إلى المنزل ، وأحالوا القطن وبعض المنسوجات الإيرانية فى بضع ساعات إلى وسائد وآرائك ، والوسائد تتحول فى الليل إلى مراتب .

ويتكون الأثاث من قفص طويل يصنعــــه النجار تحت عينيك من جريد النخيل . وهو خفيف مرن وأكثر احتمالا مما تظن . ولن ينقصك بعد

ذلك لكى تستقبل أكرم من فى مجتمع المدينة إلا الحصول على منضدة مستديرة وبعض الفناجين وبعض النرجيلات ، اللهم إلا إذا فضلت استعارة ذلك من المقهى المجاور . إن الباشا وحده هو الذى يملك أثاثا كاملا . بل ويملك فوق ذلك المصابيح والساعات الدقاقة . ولكن لم يكن غرضه من ذلك فى الحقيقة إلا أن يبدو مشجعا للتجارة وللتقدم الأوربى .

ويجب كذلك الحصول على أبسطة من القش وبعض السجاجيد ، وحتى بعض الستائر لمن يريد أن يعلن عن ترفه . وفى السوق قابلت يهوديا تدخل بلطف كبير بين عبد الله وبين البائعين ، ليثبت لى أن كلا الطرفين يسرقنى . وانتهز هذا اليهودى فرصة فرش الأثاث وترتيبه فاستقر فوق إحدى الأرائك ، كما لو كان صديقا من الأصدقاء ، فاضطررنا أن نقدم إليه غليونا ، ثم قدمنا له القهوة . كان يسمى يوسف . وهو يشتغل بتربية دود القز ثلاثة أشهر فى السنة . أما فيما بقى من أشهر السنة ، فقد قال لى إنه ليس لديه ما يشغله سوى ملاحظة أشجار التوت والتأكد من أن أوراقها تنمو وأن المحصول سيكون وفيراً . وهو يبدو فى الواقع عفيفا ولا يلح فى صحبة الأجانب إلا ليصقل ذوقه ويقوى معلوماته فى اللغة الفرنسية .

ويقع منزلى من حى الأقباط فى الشارع الذى يصل إلى باب المدينة المقابل لممرات شبرا . وفى مواجهته يوجد مقهى يليه محلة لأصحاب الحمير الذين يؤجرون دوابهم بسعر قرش صاغ للساعة الواحدة . وأبعد من ذلك يوجد مسجد صغير ذو مئذنة . ولما سمعت صوت المؤذن فى الليلة الأولى صافيا هادئا وقت الغروب ، شعرت بحزن لا قدرة لى على وصفه .

وسألت الترجمان .

— ماذا يقول ؟

— لا إله إلا الله ، أى لا يوجد إله غير الله .

— إنى أعرف هذا التعبير . ولكن ماذا بعد ذلك ؟

— أنتم يا من ستنامون أودعوا أرواحكم لدى الله الذى لا ينام أبداً .

من المؤكد أن النوم حياة ثانية ينبغى أن يحسب لها حساب . ومنذ وصولى إلى القاهرة وكل حكايات ألف ليلة وليلة تراود فكرى ، فأرَى فى المنام الأشباح والعمالقة الذين وجدوا منذ عهد سليمان . إن الناس فى فرنسا يضحكون كثيراً من العفاريت التى يخلقها النوم ، ولا يرون فى ذلك إلا أنه نتيجة لخيال مضطرب . ولكن هل هذا الرأى يجعل هذه العفاريت أقل وجوداً بالنسبة إلينا ؟ ألسنا نحس فى تلك الحالة بكل ما فى الحياة الواقعية من أحاسيس ؟ إن النوم كثيراً ما يكون ثقيلا شاقا فى جو حار كجو مصر . ويقولون إن الباشا له خادم يقف دائما إلى جواره فى أثناء نومه، فيوقظه كلما أتى بحركة أو دل تعبير وجهه على اضطراب نومه .

ولكن ألا يكفى أن نسلم أمرنا ببساطة وبكل تقوى وإيمان إلى من لا ينام أبداً ؟

٤ — متاعب الأعزب

قصصت فيما سبق قصة ليلتى الأولى ، ويفهم منها أنى لابد أن أكون قد استيقظت بعدها من نومى متأخراً . وأعلن إلى عبد الله مقدم شيخ الحى الذى أسكن فيه ، ذلك الشيخ الذى كان قد أتى من قبل فى الصباح . لقد ظل ذلك الشيخ الطيب ذو اللحية البيضاء ينتظر حتى أستيقظ فى المقهى المواجه للبيت ، ومعه سكرتيره والزنجى الذى يحمل غليونه . ولم أعجب لما أوتى من صبر ، فكل أوروبى لا ينتمى إلى طبقة الصناع أو التجار يعتبر فى مصر شخصية كبيرة . وجلس الشيخ على أريكة وأعد له الزنجى غليونه وقدمت له القهوة . ثم بدا حديثه الذى كان عبد الله يتولى ترجمته أولا بأول وقال عبد الله .

— إنه قادم ليرد لك النقود التى دفعتها فى إيجار المنزل .

— ولماذا ؟ وما هى الأسباب التى يقدمها ؟

— يقول إن أحداً لايعرف على أى نحو تعيش ، وما هى أخلاقك .

— هل لاحظ أن أخلاقى سيئة ؟

— ليس هذا ما يقصد ، فهو لا يدرى شيئاً عن هذا الموضوع .

— إذن فرأيه فى ذلك ليس طيباً !

— يقول إنه كان يظن أنك سوف تعيش فى المنزل مع امرأة .

— ولكنى لست متزوجاً .

— إنه لا يعنيه فى شىء أن تكون متزوجاً أو لاتكون . ولكنه يقول إن جيرانك لهم نساء وسوف يقلقهم ألا تكون لك امرأة . ومهما يكن الأمر فهذا هو العرف هنا .

— وماذا يريد منى أن أفعل ؟

— عليك . إما أن تغادر البيت أو أن تختار امرأة لتعيش معك .

— قل له : إنه ليس من اللائق فى بلادنا أن يعيش المرء مع امرأة لا يكون زوجها .

وجاء رد الشيخ على هذه الملاحظة الأخلاقية مصحوبا بتعبير أبوى لم تستطع الألفاظ المترجمة أن تؤدى معناه فيما يبدو إلا بشكل ناقص .

فقال لى عبد الله : « إنه يسديك النصيحة : فهو يقول إن أفنديا مثلك لاينبغى أن يعيش بمفرده ، وإنه من المشرف دائماً أن تأوى امرأة وتطعمها وتسدى إليها الخير . وأحسن من ذلك أن تطعم الكثير منهن إذا سمح الدين الذى تعتنقه بذلك » .

وقد أثرت فى طريقة هذا التركى فى التفكير . ومع ذلك فإن ضميرى الأوربى كان يقاوم وجهة النظر هذه التى لم أفهم مدى ما فيها من صواب إلا بعد دراسة وضع النساء فى هـذا البلد . وكان جوابى إلى الشيخ أن رجوته أن ينتظر حتى أستشير أصدقائى فيما ينبغى أن أفعل .

وكنت قد استأجرت المنزل لمدة ستة أشهر ، وقمت بتأثيثه ، وطابت لى الإقامة فيه . وكل ماكنت أبغى هو أن استفسر عن طرق مقـــاومة ادعاءات هذا الشيخ ومطالبته بإلغاء العقدو إخراجى من البيت بسبب أنى أعزب . وبعد كثير من التردد قررت أن أطلب النصيحة من الرسام الذى يقطن فى فندق دوميرج ، والذى كثيراً مادعانى من قبل إلى مرسمه لإطلاعى على عجائب فنه فى التقاط الصور على المعادن الحساسة . وكان هذا الفنان من الصمم ، بحيث تعتبر المحادثة عن طريق المترجم أدعى للتسلية وأسهل من المحادثة معه .

ومع ذلك فقد توجهت إليه ، وعبرت ميدان الأزبكية . وعند ناصية شارع من الشوارع المتجهة إلى الحى الإفرنجى سمعت صيحات فرحة تصدر من فناء فسيح ، كانت تتريض فيه فى ذلك الوقت بعض الجياد الرائعة . واندفع أحد الذين يروضون الجياد إلى عنق وضمنى بين ذراعيه . كان فتى بدينا يرتدى بزة زرقاء ويغطى رأسه بعمامة من الصوف المائل إلى الصفرة . وعند رؤية وجهه الذى يشبه الرءوس الضخمة المرسومة على أغطية توابيت المومياء تذكرت أنى رأيته من قبل على ظهر السفينة التجارية .

فقلت لهذا الفتى العاطفى ، وأنا أحاول التخلص من عناقه باحثا خلفى عن الترجمان عبد الله :

— « طيب ، طيب ! »

ولكن هذا الأخير كان قد اختفى وسط الجماهير . ولا شك أنه لم يكن يرحب بأن يراه أحد وهو يرافق واحداً من أصدقاء السائس البسيط . ولم يكن هذا المسلم الذى أفسده السياح الإنجليز يتذكر أن محمداً كان راعياً للجمال(١) .

وفى تلك الأثناء قادنى هذا المصرى من كم سترتى وجرنى إلى الفناء ، وهو فناء خاص بحرس الباشا والى مصر . وهناك فى أقصى دهليز من الدهاليز تعرفت على زميل آخر من زملاء رحلتى كان مستلقياً على أريكة من الخشب إلا أنه ، من الناحية الاجتماعية ، كان من الممكن الاعتراف به والظهور معه أكثر من رفيقه . إنه سليمان أغا الذى قابلته على السفينة النمساوية « فرنشسكو بريمو » . وقد عرفنى سليمان أغا بدوره . ورغم أنه أكثر تحفظا من زميله فى طريقة اللقاء ، فقد أجلسنى إلى جواره وقدم إلى غليونا وطلب لى القهوة .

---

(١) هكذا فى النص والمعروف أن محمداً (ص) رعى الغنم وعمل فى تجارة الشام .

وهنا أضيف تفصيلا يعتبر من مميزات أخلاق المصريين ، وهو أن السايس البسيط كان يشعر شعوراً مؤقتا بأنه جدير بمجالستنا ، فجلس القرفصاء على الأرض ، وتناول غليونا مثلى، كما أخذ فنجاناصغيراً من تلك الفناجين المليئة بالقهوة المغلية والتى يضعون فناجينها فى أوعية مذهبة ، حتى لا تحرق أصابعنا . ولم تلبث أن تكونت حلقة من الناس حولنا .

ولما رأى عبد الله أن معارفى قد اتخذوا شكلا أليق من ذى قبل ، ظهر أخيراً واشترك فى حديثنا . وكنت أعرف من قبل عن سليمان أغا أنه خفيف لطيف المشعر . ورغم أن علاقتنا فى رحلتنا لم تتعد الإشارة ، لكن صلة أحدنا بالآخر كانت قد توثقت إلى درجة تخول لى أن أحدثه دون حرج عن أمورى الخاصة ، وأن أطلب إليه النصح .

وصاح الرجل أول الأمر .

— ما شاء الله ! إن الشيخ على حق فشاب مثل سنك كان ينبغى أن يكون قد تزوج عدة مرات !

وفى خجل أبديت له الملاحظة الآتية :

— أنت تعرف أن دينى لا يسمح بالزواج ماكثر من واحدة ، ثم تبقى مشكلة معاشرتها مدى الحياة . ولذلك يحتاج الواحد منا عادة إلى بعض الوقت للتفكير لأنه يريد اختيار الأحسن .

فقال وهو يضرب على جبينه :

— أنا لا أتكلم عن نسائكم الروميات (الأوروبيات) فهن للناس جميعاً ولسن لكم . إن تلك المخلوقات المسكينة الحقى يكشفن وجوهن كاملة لمن يريد رؤيتها فحسب بل وحتى لمن لا يريد رؤيتها .

ثم أضاف وهو ينفجر ضاحكا ويلتفت نحو بعض الأتراك الآخرين عن كانوا يستمعون إليه :

تصوروا أنهن كن جميعاً ينظرن إلى فى الطريق بشغف، بل ودفع الفجور بعضهن إلى الرغبة فى تقبيلى ».

ولما رأيت الحاضرين قد روعوا إلى أقصى حد ظننت من واجبى ، محافظة على سمعة الأوربيين ، أن أقول لهم إن سليمان أغا يخلط بلا شك بين رغبـــة بعض النساء المغرضة ، وبين حب الاستطلاع البرىء لدى العدد الأكبر منهن ».

وأضاف سليمان أغا دون أن يجيب على ملاحظتى ، التى ظن أن الدافع إليها هو الكرامة الوطنية :

« وليت هؤلاء الجميلات كن ممن يستحققن أن يسمح لهن المؤمن بتقبيل يده ! ولكنهن زراعة شتوية ، لا لون لها ولا طعم . وجوه مريضة ينهشها الجوع ؛ ذلك أنهن قلما يتناولن طعاماً ، ومن السهل أن أحتوى جسم الواحدة منهن بين يدى . أما الزواج منهن فأمر آخر . فقد نشأن تنشئة سيئة ، لدرجة أن من يتزوجهن لن يشهد فى بيته سوى الحرب والتعاسة . أما عندنا فالنساء يعشن معاً فى جانب ، والرجال فى جانب آخر ، وتلك هى الطريقة الوحيدة للحصول على الهدوء .

فقلت :

ولكن ألا تعيشون مع نسائكم فى الحريم ؟

فصاح الرجل قائلا :

يا قوة الله ! من ذا الذى لا تحطم ثرثرتهن رأسه ؟ ألا ترى أن الرجال الذين لا عمل لهم هنا يقضون وقتهم فى النزهة أو فى الحمام أو المقهى أو المسجد أو حلقات الحديث أو الزيارات التى يتبادلها الناس ؟ ألا ترى أن الحديث مع الأصدقاء أو الاستماع إلى القصص أو الأشعار أو التدخين

وأنت تحلم أدعى للتسلية من الحديث إلى النساء ، اللاتى لايشغلهن إلا الأمور السخيفة كالزينة والقيل والقال ؟

— ولكن لابد أنكم تتحملون ذلك فى الساعات التى تتناولون فيها طعامكم معهن .

— أبداً ، فهن يأكلن معاً أو كل واحدة على حدة كما يتراءى لها . وكذلك نحن نأكل إما بمفردنا أو مع أبنائنا وأصدقائنا . وهناك عدد قليل من المؤمنين يفعلون غير ذلك ، ولكن الناس لايقرونهم على ما يفعلون ، كما أن حياتهم تتسم بالرخاوة ، ولا جدوى منها . إن صحبة النساء تجعل الرجل جشعاً وأنانياً وقاسياً ، كما أنها تقتل الأخوة وروح البر عند الناس . وهى تسبب المشاجرات والظلم والاستبداد . والأحرى أن يعيش كل جنس مع من يماثله! ويكفى أن يعود السيد إلى بيته فى المساء ، فيجد فى استقباله وجوهاً باسمة وهيا كل لطيفة ترفل فى الثياب الفاخرة . . وإذا استدعى العوالم لتغنى وترقص أمامه ففى مقدوره أن يحلم بالجنة قبل أن يراها ، ويخال نفسه فى السماء السابعة(١) حيث أجمل الحوريات وأطهرهن ، أولئك اللاتى استحققن دون سواهن أن يكن زوجات خالدات لذوى الإيمان الحق .

هل هذا هو رأى المسلمين جميعاً أم رأى عدد معين منهم ؟ قد نرى فى ذلك نوعاً من بقايا الأفلاطونية القديمة أكثر مما نرى فيه احتقاراً للمرأة . فالمرأة المحبوبة إلى درجة العبادة أليست شبحاً مجرداً وصورة ناقصة للمرأة المقدسة ، التى يوعد بها المؤمنون من قديم الأزل ؟ إن تلك الأفكار هى التى أوجدت فكرة أن الشرقيين ينكرون أن للمرأة روحا . ولكنا نعلم اليوم أن المسلمة المؤمنة إيماناً حقاً تأمل هى نفسها أن تحقق مثلها الأعلى فى السماء .

---

(١) فى الأصل الثالثة ولكن التعبير العربى المألوف « السماء السابعة »

إن التاريخ الدينى للعرب يضم الكثير من القديسات ، وإن فاطمة الشهيرة ابنة النبي محمد هي ملكة تلك الجنة النسوية .

وانتهى سليمان أغا بأن نصحنى أن أعتنق الإسلام . وشكرته مبتسما ، ووعدته بالتفكير فى ذلك . وبذا أكون فى تلك المرة قد وقعت فى مأزق أكبر مما سبق . ومع ذلك كان أمامى أن أذهب لاستشارة الرسام الأصم ، الذى يسكن فى فندق دوميرج ، كما كنت قد قررت من قبل .

٥ - الموسكى

ما إن نستدبر الشارع تاركين مبنى الحرس على يسارنا ، حتى نشعر بازدحام المدينة الكبيرة . والشارع الذى يلف حول ميدان الأزبكية لا يوجد به إلا ممر ضيق من الأشجار يحميك من الشمس . ولكن هناك منازل كبيرة من الحجارة تعترض لارتفاعها أشعة الشمس المحاطة بالأتربة ، والتى تصبها الشمس على ناحية واحـــدة من الشارع تقطعها فى خطوط متعرجة .

ويكثر المارة عادة فى هـذا المكان ، وهو شديد الضوضاء ، ويغص بائعات البرتقال والموز والقصب ، وكانت عيدانه ما تزال خضراء ، ويستطيب الشعب مص لبه ذى العصير السكرى . وهناك أيضا بعض المطربين والمصارعين والحواة الذين يحملون الثعابين الضخمة ملتفة حول أعناقهم . وكان ذلك المشهد يحقق بعض صور أحلام « رابليه » الفكاهية . وكان هناك شيخ مرح يقوم بركبتيه بترقيص أجسام صغيرة ، تتصل ببعضها بخيط يخترق أجسامها ، وتشبه تلك التى يعرضها سكان إقليم سافوا عندنا ، غير أنها تعرض حركات صامتة أقل احتشاما من مثيلاتها عندنا . وهذه الأجسام ليست هى « القراجوز » الشهير الذى لا يعرض عادة إلا فى صورة « خيال الظل » . وكانت هناك حلقة من النساء والأطفال والعسكريين قد تهللت وجوههم إعجابا ، فكانوا يصفقون فى براءة لهذه العرائس الفاجرة . وإذا ابتعدت قليلا رأيت قرداتى ، وقـــد أنهض قردا ضخما ليرد بعصاه على اعتداءات الكلاب الضالة فى المدينة ، وكان الأطفال يجعلونها تتحرش بالقرد .

وإذا أوغلت فى الابتعاد وجدت الطريق ينكمش ويعتم بسبب ارتفاع

المبانى . وعلى اليسار يطل علينا مأوى الدراويش « الدوارة » وهم يقيمون حلقة عامة كل يوم ثلاثاء . يلى ذلك باب كبير قد علق عليه تمساح كبير محشو بالقش يثير الإعجاب ، وهذا الباب يميز البيت الذى تخرج منه العربات التى تعبر الصحراء من القاهرة إلى السويس . إنها عربات خفيفة جدا يذكرنا هيكلها بهيكل عربة « كوكو » البعيد عن الشاعرية . وفتحاتها العريضة تفسح المجال للهواء والأتربة ، ولابد أن تلك كانت إحدى الضرورات ! أما عجلاتها الحديدية فكانت ذات نظام مزدوج من أنصاف الأقطار الخشبية التى كانت تبدأ عند كل من طرفى الجزء الأوسط للعجلة ، لتلتقى عند الدائرة الضيقة التى تحل محل الإطار الداخلى ، وكانت تلك العجلات الغريبة تمزق سطح الأرض أكثر مما تستقر عليها .

ولكن لنواصل سيرنا . هناك على اليمين مشرب مسيحى ، وهذا يعنى مخزنا فسيحا يقدمون فيه الشراب على براميل .

وأمام الباب يقف عادة شخص أحمر الوجه ذو شارب طويل . إنه يمثل فى جلال « الإفرنج » من سكان البلد ، أو بتعبير أصح الفرع الشرقى من هذا الجنس . ولا يدرى أحد هل هو ملطى أو ايطالى أو أسبانى أو من مرسيليا .

ولكن من المؤكد أن احتقاره للملابس الوطنيـــة وشعووه بتفوق المستحدثات الأوربية فى الملابس قد دفعا به إلى أنواع من التأنق أضفت على مجموعة ثيابه الرثة نوعا من الطرافة . فعلى مايشبه الردنجوت » الأزرق الذى استبد له الناس منذ زمن طويل بما فيه من أزرار بالردنجوت » الانجليزى ذى الأهداب ـ خطرت له فكرة إضافة ضفائر من الخيوط تتقاطع عليه كما لو كانت أشرطه . أما سرواله الأحمر فيدخل فى بقايا حذاء ذى رقبة

مسلح بالمهاميز . وتخفف ياقة القميص العريضه والقبعة البيضاء المحدبة ذات الحافة الخضراء المرفوعة ، ما لهذا اللباس من طابع عسكرى ، وتعطيه طابعه المدنى . أما عصب الثور المجفف الذى يمسك به فى يده، فهو أيضا من امتيازات الإفرنج والأتراك ، وكثيرا مايستخدم للضرب على أكتاف الفلاح المسكين الصبور .

وفى الجهة المقابلة للشرب تقريبا يغرق نظرك فى طريق مسدود ضيق ، يزحف فيه شحاذ مقطوع القدمين واليدين . إنه يطلب الصدقة من الإنجليز الذين يمرون فى كل لحظة ، إذ أن فندق « واجهورن » يقع فى هذا الطريق الصغير المعتم الموصل إلى مسرح القاهرة ، وإلى قاعة المطالعة الخاصة بالسيد « بونوم » التى تعلن عنها لافتة كبيرة مكتوبة بالفرنسية . إن كل ملذات المدنية تتلخص هنا ، وليس فى ذلك مايثير رغبة العرب . وإذا واصلنا السير وجدنا على اليسار بيتا ذا واجهة هندسية ،قد نحتت وحليت بالكتابات العربية المطلية . وكان هذا هو كل مارأيته حتى الآن مما قد يبعث العزاء فى نفس الفنان والشاعر . وبعد ذلك يكون الشارع مايشبه الكوع ، وهنا ينبغى لنا أن نقاوم مسيرة عشرين خطوة تزاحم الحمير والكلاب والجمال وباعة الخيار وبائعات الخبز . فالحمير تعدو والجمال ترغى وتزبد والكلاب تقف فى إصرار صفا واحداً أمام أبواب ثلاثة من الجزارين . إن هذا الركن الصغير لم يكن لينقصه الطابع العربى ، لو لم نلمح أمامنا لافتة ذلك الخان الخاص بالإيطاليين والملطيين .

ذلك أنه فى الناحية المواجهة لنا يوجد الشارع التجارى للحى الافرنجى بكل مافيه من ترف . وهو الشارع الذى تسميه العامة « الموسكى » والجزء الأول » منـــه ، وهو مغطى حتى منتصفـــه بالمظلات والألواح الخشبيه ، يعرض لنا صفين من الحوانيت المليئة بالبضائع ، تعرض فيها البلاد

الأوربية كلها أكثر منتجاتها استعمالاً . ولانجترا الصدارة فيما يختص بالمنسوجات والأدوات المنزلية ، ولألمانيا الصدارة فيما يختص بالأصواف ، وفرنسا بالمستحدث من الأزياء ، ومرسيليا بالبقالة واللحوم المدخنة وغيرها من الأشياء الصغيرة من نفس تلك الأنواع . وإذا كنت أفصل مرسيليا عن فرنسا ، فذلك لأنه فى الشرق سرعان ما يلاحظون أن أهل مرسيليا يكونون أمة منفصلة ، وأنا أقرر هذا هنا ، دون أن يحمل هذا التقرير إلا واللطف الود لأخواتنا المرسيليين . ومن بعد الدكاكين التى تبذل فيها الصناعة الأوربية قصارى جهدها لجذب الأغنياء من سكان القاهرة والأتراك التقدميين والأقباط واليونانيين ، وهم الأكثر استعداداً لتقبل عاداتنا ـ يوجد مشروب إنجليزى من مشارب الجعة يذهب الناس إليه لمقاومة مفعول مياه النيل التى تصيبهم أحياناً بالرخاوة ، وذلك بشرب «الماديرا» « والبورتر » « والإيل » . وهناك مكان آخر يأوون إليه للابتعاد عن الحياة الشرقية ، وهو صيدلية كاستانيول ، فيأتى إليه البكوات والمشيرون والنظار من ذوى الأصل الباريسى ، ليتحدثوا إلى المسافرين ويستعيدوا ذكريات وطنهم . ولا يدهش أحد عندما يرى مقاعد المكتب وحتى المقاعد الخارجية ، وقد احتلها الشرقيون المشكوك فى شرقيتهم ، وقد رصعوا صدورهم بالنجوم البراقة وأخذوا يتحدثون بالفرنسية ويقرأون الصحف ، بينما وقف السائسون تحت تصرفهم على مقربة من المكان ، ممسكين بخيول يقظة ذات سروج مطهمة بالذهب . ويفسر كثرة قدوم هؤلاء كذلك بقرب مكتب البريد الإفرنجى ، وهو يقع فى الشارع المغلق الذى يصل إلى فندق «دو ميرج» ، وهم يقبلون كل يوم فى انتظار المراسلات والأخبار التى تصل على فترات تزداد بعداً حسب حالة الطرق وعربات المسافرين . أما الباخرة الإنجليزية ، فلم تعد تسافر إلى أعالى النيل إلا مرة كل شهر .

وبلغت غاية ما أردت من سيرى عندما قابلت رسام الفندق الفرنسى فى صيدلية « كاستانيول » كان آتيا لاستحضار شىء من كلورور الذهب

مما يستخدم فى التصوير . وعرض على أن أرافقه لإلقاء نظرة على المدينة ، فصرفت الترجمان الذى أسرع بالتوجه إلى مشرب البيرة الإنجليزى ، إذ أن كثرة مخالطته لعملائه السابقين قد ولدت عنده ميلا متطرفا للبيرة اللاذعة والويسكى .

وعندما قبلت تلك النزهة المقترحة كنت أسر فى نفسى فكرة أجمل من ذلك . وهى أن أدع الرسام يقودنى إلى أكثر أماكن المدينة تعقيداً ، ثم أتركه لشأنه وأتجول على غير هدى بغير ما دليل أو رفيق . وكان ذلك مالم أتمكن من الحصول عليه حتى الآن ، لأن الترجمان يدعى أنه لا غنى لى عنه . وقد عرض على جميع من قابلت من الأوربيين حتى الآن أن يرونى « ما فى المدينة من جمال » ويبنغى أن تكون قد جبت جنوب فرنسا قليلا ، لكى تفهم كل ما فى هذا العرض الماكر من مقصد خفى . فإذا اعتقدت أن المقيم الرفيق يرافقك عن طيبة نفسى فأنت واهم . لأنه لما كان لاعمل له فقد طغى عليه السأم ، وهو فى حاجة إليك لتسليه وترفه عنه وتتحدث إليه . ولكنه لن يريك أى شىء لا تكون أنت قد استطعت ملاحظته من النظرة الأولى . بل وأكثر من ذلك إنه لايعرف المدينة معرفة وثيقة ، ولا يدرى شيئاً عما يحدث بها . إنه يبحث عن نقطة وصول معينة لتلك النزهة وطريقة لبعث الضجر فى نفسك بملاحظاته وتسلية نفسه بملاحظاتك . ثم ما قيمة المنظر الجميل والآثار والتفاصيل الطريفة ، إذا لم تضف إليها الصدفة وغير المتوقع؟

وهناك عادة تعودها الأربيون من سكان القاهرة ، فهم لا يستطيعون السير عشر خطوات دون حمار يركبونه وبرفقتهم مكاريه . وأعترف بأن الحمير جد جميلة ، وهى تعدو وتخب فى براعة فائقة . المكارى يؤدى لك مهمة القواص وهو يبعدعنك الزحام بصياحه . ها ! ها ! يمينك ! شمالك ! ويقصد بهذا . اتجه إلى اليمين أو إلى اليسار . ولما كانت النساء أشد صمماً أو عنادا من غيرهن من المارة ، فإنك تسمع المكارى يصيح فى كل لحظة : « يابنت » بلهجة آمرة تشعرك بتفوق جنس الذكور .

٦ – مغامرة

وسرنا نخب فى سيرنا : أنا والرسام يتبعنا حمار يحمل الآلة الخاصة بنقل الصور على المعادن الحساسة ، وهى آلة معقدة سهلة الكسر ، وكان المهم هو وضعها فى مكان يلفت إلينا الأنظار ويحيطنا بالتبجيل . وبعد أن يجتاز المرء الشارع الذى قت بوصفه ، يصادف ممراً مغطى بأنواح خشبية تعرض فيه التجارة الأوربية أكثر منتجاتها بريقاً . إنه شىء يشبه السوق وينتهى عنده الحى الأفرنجى . واستدرنا ناحية اليمين ثم ناحية اليسار وسط جمهور يزيد عدده زيادة مطردة . وسلكنا شارعاً شديد الاستقامة ، يلفت النظر ما نجده فيه على مسافات متباعدة من مساجد ونافورات وتكية للدراويش وسوقاً كاملة للأدوات المصنوعة من الحديد والصلب والصفيح والفخار الإنجليزى . وبعد مئات اللفات أصبح الطريق أكثر سكوناً وزاد مابه من أتربة وأصبح أكثر إقفاراً . إن المساجد قد غدت أطلالا تكاد تتداعى والمنازل تهدم هنا وهناك . أما الصخب والضوضاء فقد انقطعا ، ولم يعودا يظهران إلا فى صورة طائفة من الكلاب تعوى فى إصرار خلف حمارينا، وهى تتبع بصفة خاصة ملابسنا الأوربية السوداء البشعة . ولحسن الحظ مررنا تحت باب دلفنا بعده إلى حى آخر ، وهكذا توقفت هذه الحيوانات عن تتبعنا ، وهى تزمجر غيظاً لدى الحد الذى لا ينبغى لها أن تتعداه . إن المدينة بأجمعها مقسمة إلى ثلاثة وخمسين حياً محاطة بالجدران ، وكثير من هذه الأحياء ينتمى إلى البلاد القبطية واليونانية والتركية واليهودية والفرنسية . وحتى الكلاب ، وهى التى تجوس خلال المدينة فى سلام فى أعداد كبيرة دون أن تكون ملكا لشخص معين ، حتى الكلاب تعرف هذه التقسيمات ولا تجازف بتعدى حدودها دون أن تتعرض للخطر .

وعند ما ننتقل من حي إلى آخر سرعان ما تحل فرقة جديدة من الكلاب محل الفرقة التي تركتنا في الحي السابق ، وتقودنا حتى « الخزانات » الواقعة على ضفة القناة التي تعبر القاهرة والتي يسمونها « الخليج » .

ها هنا قد بلغنا مايشبه الضاحية ، وتفصلها القناة عن أحياء المدينة العامة ، وهناك مقاه عديدة وملاه تحف بالضفة المواجهة للمدينة . أما الضفة الأخرى فيحدها شارع فسيح بعض الشيء تجمله بعض أشجار النخيل المتربة . أما مياه القناة فهي خضراء راكدة نوعاً ما . ولكن هناك سلسلة طويلة من العرائش ذات القباب وعرائش الكروم واللبلاب ، وهي تستخدم كقاعة خلفية للمقاهي ، وتعرض للعين منظراً باسما . أما المياه الهادئة المحيطة بها فإنها تعكس بشكل طريف ملابس المدخنين الفرية وقنينات الزيت التي تضيء الثريات لا ينيرها إلا ضوء النهار . وترسل الترجيلات المصنوعة من الزجاج الشفاف لألاءها بينما يسبح الشراب ذو الرحيق العنبري في الكئوس الرقيقة التي يوزعها العبيد السود في أظرف من الأسلاك الذهبية المشكلة .

وبعد فترة راحة قصيرة في مقهى انتقلنا إلى الضفة الأخرى للخليج . وهناك وضعنا الآلة فوق ركيزتها ، وأخذت الشمس تتدرب فيها في مرح على مهنة رسم المناظر . إن أطلال مسجد ذي مئذنة منحوتة بطريقة مثيرة أو نخلة باسقة ترتفع في رشاقة وسط مجموعة من أشجار اللبان ، إن لقطة كهذه مع كل مايحيط بها ، هي كل ما يكون لوحة جديرة بالرسام «ماريلا» كان رفيق في نشوة . وبينما كانت الشمس تعمل على رقائق المعدن المصقولة رأيت الفرصة سانحة لمحادثة ثقافية معه بأن أوجه إليه أسئلة مكتوبة بالقلم الرصاص . ولم تمنعه عاهته من الرد عليها بصوته . ولقد صاح بي قائلا :

— « لا تتزوج وخصوصا لا تلبس العمامة أبداً . ماذا يطلبون منك ؟ أن تكون هناك امرأة تعيش معك في بيتك ؟ أتلك مشكلة ؟ لو أني مكانك لاستحضرت منهن ما شئت . إن بائعات البرتقال ذوات اللباس الأزرق

هذا والأساور والعقود الفضية رائعات الجمال ، ولهن قدود التماثيل المصرية والنهود الكاعبة والأكتاف والأذرع الرائعة والأرداف قليلة البروز ؛ أما أفخاذهن فهى دقيقة وصلبة . إنهن تماثيل أثرية ، ولا ينقصهن إلا غطاء رأس يعلوه الصقر واللفائف حول الجسد والصليب ذو اليد فى أيديهن ، لكى يمثلن إيزيس أوهاتور » .

فقلت له :

— ولكنك تنسى أنى لست فنانا . ومهما يكن فهؤلاء النسوة ذوات أزواج أو أسر ، وهن فوق ذلك محجبات . فأنى لى أن أحدس شيئا عن جمالهن ، وزيادة على ذلك فأنا لا أعرف من العربية سوى كلمة واحدة ، فبأى طريقة أقنعهن .

— « إن التقرب إلى النساء ممنوع منعا باتا فى القاهرة ولكن الحب ليس ممنوعا فى أى مكان . فإذا صادفت امرأة تلفت النظر بمشيتها وقوامها ورشاقتها فى طريقة التفافها بملابسها ، وإذا كان هناك شىء ما ليس فى مكانه فى خمارها أو فى غطاء رأسها ، وينم عن الشباب أو الرغبة فى أن تبدو لطيفة ، فما عليك إلا أن تتبعها . فإذا أطلت فى وجهك فى اللحظة التى تعتقد فيها أن أحداً من الجمهور لا يلاحظها ، فاسلك طريق منزلك ، وإنها لتابعتك حتما ، وفيما يختص بالمسائل النسائية لا تثق إلا فى نفسك ، فالتراجمة سوف يسيئون توجيهك ، وادفع من ذات نفسك فهذا « أدعى للثقة » .

وعندما غادرت الرسام تاركا إياه لعمله كان هناك جمع من الناس يحاصرونه ، وتم نظرتهم إليه عن الاحترام ، لاعتقادهم أنه مشغول بعمليات سحرية . وكنت أقول لنفس وقتئذ : ولكن لماذا أعدل عن أن أعجب النساء ؟ إن النساء محجبات ولكنى لست محجبا . وقد يكون للونى الووردى بعض السحر فى هذا البلد . وإذا كنت فى فرنسا أعتبر فارساً عاديا ، فإنى فى القاهرة

أصبح فتى لطيفا من فتيان الشمال . وهذا اللباس الإفرنجى الذى تتجمع بسببه الكلاب خلفى ، من مزاياه أنه يلفت النظر إلى ، وفى هـذا أكثر من الكفاية .

وهنا كنت قد دخلت فعلا الشوارع الآهلة ، وأخذت أخترق الجماهير التى كان يدهشها رؤية إفرنجى يسير على قدميه دون مرشد فى الجزء العربى من المدينة . وكنت أتوقف عند أبواب الحوانيت والمصانع ، وأنا أفحص كل شىء بطريقة عابرة ، ولم تكن تجذب إلى سوى الابتسامات .

كان الناس يقولون لأنفسهم : « لقد فقد مرشده ، وقد لا يكون معه من النقود ما يستأجر به حماراً . . . فكانوا هكذا يرثون لحال الأجنبى الذى اندس وسط زحام الأسواق أكد فى تيه تلك الشوارع . أما أنا فقد توقفت لمشاهدة ثلاثة من الحدادين أثناء تأديتهم لعملهم . كانوا يبدون وكأنهم قدوا من نحاس ، وكانوا ينشدون أنشودة عربية يساعدهم نغمها على ضبط الدقات المتواصلة التى يوجهونها إلى قطع المعادن التى يضعها لهم أحد الصبية الواحدة تلوا الأخرى ، على السندان . وكنت أرتعد عندما أفكر أنه لو حدث وضل أحدهم بعض الشىء فى ضبط ما بين الدقتين من زمن لطحن يد الصبى . وكانت هناك امرأتان قد توقفتا خلفى وهما تضحكان من استطلاعى فاستدرت ودلنى وشاحاهما المصنوعان من « التافتاه » الأسود ومعطفاهما المصنوعان من الحرير الأخضر أنها ليستا من طبقة بائعات البرتقال بحى الموسكى . واندفت أمامهما ، ولكنهما أسدلتا خماريهما وأقلتا . وتبعتهما ، ووصلت بعد قليل إلى شارع طويل تعترضه أسواق حافلة ، وهو شارع يخترق المدينة كلها . ودلفنا تحت قبة عظيمة الهيئة تتكون من ألواح خشبية منحوته على الطراز العتيق ، حيث الطلاء والنقوش الذهبية تعلو الكتابة العربية الرائعة بتفاصيلها الدقيقة . وربما كان هذا هو « بازستان » الشراكسة الذى دارت فيـه حوادث القصة التى قصها التاجر القبطى على سلطان

كشغر[١] هأنذا أعيش فى جو ألف ليلة وليلة . ليتنى كنت تاجراً من التجار الشبان الذين طلبت إليهم إحدى السيدتين أن يفرد أمامها منسوجاته ، كما كانت تفعل ابنة الأمير أمام حانوت بدر الدين . إذن لقلت لها حينئذ ما قال فتى بغداد : دعينى أرى وجهك ثمنا لهذا المنسوج ذى الأزهار الذهبية ، فأكون قد قبضت الثمن مضافا إليه الفائدة ، ولكنهما كانتا تحتقران حرائر بيروت ومنسوجات دمشق ذات الخيوط الذهبية ومناديل بروسة التى كان الباعة يتسابقون فى عرضها . وذلك أنه لم تكن هناك حوانيت بالمعنى الصحيح ، إنما هى معارض بسيطة ترتفع أقسامها المختلفة حتى تصل إلى القبة ، ويفصل كل قسم عن الآخر لافتة مغطاة بالحروف وبعبارات الإطراء المذهبة . أما البائع فإنه يجلس القرفصاء يدخن غليونه الطويل أو نرجيلته على منصة ضيقة . وهكذا تنتقل النساء من بائع إلى بائع . وبعد أن يجعلن أحدهم ينشر أمامهن كل ما لديه من بضاعة يكتفين بالانتقال إلى الآخر ، وهن يحيين الأول بنظرة ازدراء .

أما السيدتان الجميلتان اللتان كنت اتبعهما فقد صممتا على طلب منسوجات القسطنطينية ، فقد كانت القسطنطينية هى التى تبعث بالمستحدثات إلى القاهرة ، فكان الباعة يعرضون أمامهما منسوجات قبيحة من «المنسوج الشفاف» المطبوع وهم يصيحون : «استمبولدان» (أى وارد استامبول) فكانت صيحات الإعجاب تصدر منهما . إن النساء هن النساء فى كل مكان .

واقتربت بطريقة العارف بالأمور ، ورفعت طرف منسوج أصفر طبعت عليه أغصان فى لون النبيذ وصحت : «طيب» (أى هذا جميل) . ويبدو أن ملاحظتى قد حازت الإعجاب ، لأنهما توقفتا عند هذا الاختيار . وأخذ البائع يقيس المنسوج بشىء يشبه نصف المتر ويسمى «بيك» ثم كلفت السيدتان صبيا بحمل المنسوج فى لفافته .

---

(١) كشغر إقليم فى الهند .

وخيل إلىّ لحظة أن إحدى السيدتين قد أطلت فى وجهى . ومهما يكن من شىء فإن تباطأهما فى المشى، والضحكات التى كانتا كتماها ، وهما سائرتان عندما رأتانى أتبعهما ، والحبرة السوداء التى كانت تنزاح من حين لآخر ، لكى تكشف عن قناعهما الأبيض، مما يدل على أنهما من الطبقة الراقية . وأخيراً كل تلك الحركات المتحيرة التى يتكلفها الشخص المتنكر فى حفلة الأوبرا ، لكى يتوصل إلى إغرائك ، كل هذا كان فى نظرى دليلا واضحا على أنهما لا يكنان لى أى نفور . كان يبدو أن اللحظة التى أتقدم فيها وأسلك طريق منزلى قد حلت . ولكن كيف السبيل إلى العثور على منزلى هذا ؟ فالشوارع فى القاهرة لا تحمل لا فتات ، والمنازل لا تحمل أرقاماً ، وكل حى من أحياء المدنية محاط بالأسوار ، وهو فى حد ذاته تيه متكامل ، وفوق ذلك فإنك بين كل عشرة طرق مسدودة تجد طريقا واحداً مفتوحاً . واستمررت أتبعهما ، رغم ما كان يحيط بى من شك . وغادرنا الأسواق المليئة بالضجيج والضوء ، حيث كل شىء يتلألأ وينبض ، وحيث تتضارب المعروضات الفاخرة مع الطابع الهندسى ، والفخامة التى تحيط بالمساجد الهامة المطلية بخطوط أفقية عريضة صفراء وحمراء . ها نحن أولاء نجتاز ممرات ذات قباب وأزقة ضيقة معتمة ، تطل فيها النوافذ ذات الأقفاص المخرمة (المشبة) ، كما كانت الحال فى شوارعنا فى العصور الوسطى .

وكانت تلك الطرق تحت الأرضية تقريبا تمتاز برطوبة تعتبر مأوى يحميك من حرارة شمس مصر ، وتعطى الشعب كثيراً من ميزات المناطق المعتدلة . وهذا يفسر بياض البشرة الشاحب الذى تحتفظ به الكثيرات من النساء تحت الحجاب ، إذ أن كثيرات منهن لم يغادرن المدينة قط ، إلا ليذهبن للنزهة تحت ظلال شبرا الوارفة .

ولكن كيف نفسر تلك اللفات والدورات التى تجعلنى السيدتان ألفها معهما وأدورها ! ترى هل يتهربان منى أم تراهما يسايرانى فى مغامراتى ، رغم أنهما يتقدمانى . ومهما يكن فقد دخلنا شارعا كنت قد اجتزته فى الليلة الماضية ،

وقد تعرفت عليه خصوصا من الأريج العطرى الجميل الذى تنشره الزهور الصفراء لشجرة من شجر الفتنة ، إن تلك الشجرة المحجوبة عن الشمس ترسل من وراء الجدار فروعها المكتسية بالشرابات المعطرة .

وكانت هناك نافورة منخفضة تحتل ركنا من أركان الطريق ، وقد أقيمت لغرض خيرى يهدف إلى إطفاء ظمأ الحيوانات فى تجوالها . وهذا منزلى جميل المظهر تزينه نقوش محفورة فى الجبس . وفى ثقب بابه أدخلت إحدى السيدتين مفتاحاً من تلك المفاتيح الريفية التى سبق أن تداولتها يدى ، واندفعت فى إثرهما فى الدهليز المعتم ، دون ما تردد أو تفكير ، وإذا بى فى فناء فسيح ساكن ، تحيط به الدهاليز ، وتشرف عليه المشربيات بمخرماتها العديدة .

٧ — بَيتٌ خطيرٌ

واختفت السيدتان . لست أدرى فى أى ســلم معتم لدى المدخل . واستدرت وأنا صادق النيةفى أن أعود أدراجى إلى باب الخروج فىاللحظة التى كان فيها عبد من الأحباش ، وهو ضخم الجسمقوى البنية ، يهم بإغلاقه

وأخذت أبحث عن ألفاظ لإقناعه بأنى أخطأت المنزل ، وأنى كنت أظن أنه منزلى . ولـكن كلمة « طيب » ، على مالها من استعمالات عامة ، لم تبد لى كافية للتعبير عن كل ما أردت أن أقول . وفى تلك الأثناء حدث صخب كبير داخل المنزل وخرج السياس من الخطائر فى دهشة ، ومن شرفات الدور الأول أطلت رءوس ذات أغطية حمراء . ومن أقصى الدهليز الرئيس ظهر شخص تركى ، من أكثر الأتراك عظمة ومهما بة ، وأخذ يتقدم نحوى .

وفى مثل تلك اللحظات يكون من أسوأ التصرفات أن يظل المرء ساكنا . وقلت فى نفسى : إنمعظم المسلمين يفهمون اللغة الأفرنجية ، وهى خليط من جميع أنواع لهجات جنوب أوربا ، وهميستعملونها حيثما اتفق ، حتى يصلوا إلىفهممعناها . إنها لغة أتراكموليير. فجمعت إذن كل ماأعرف من كلمات إيطاليةوأسبانية وبروفانسيةويونانية ، وكونت من كلهذاحديثا هائلا . وكنت أقول فى نفسى إن نواياى على كل حال طاهرة وإن إحدى السيدتين علىالأقل قد تكون ابنته أوأخته . وبما أن هناك أشياء لا يمكن تجنبها ، فمن يدرى فقد أتزوج وقد أرتدى العمامة آخر الأمر . إنى أعتقد فى القدر :

ومهما يكن الأمر، فإن هذا التركى تبدو عليه الطيبة ، ولا ينبىء وجهه ،

الذى يظهر عليه آثار الغذاء الطيب ، عن العنف أو القسوة . وبشىء من الخبث غمز بعينه ، وهو يرانى أحشد أغرب ماورد فى ربوع المشرق من أسماء بعضها فوق بعض . وقال لى وهو يمد لى يداً رخصة محملة بالخواتم :

أيها السيد العزيز ، ماذا لوكلفت نفسك عناء الدخول إلى هنا ، حيث تتوفر لنا الراحة فى الحديث .

يا للعجب ! إن هذا التركى الشجاع فرنسى مثلى ! ودخلنا قاعة مفرطة فى الجمال ، تطل نوافذها على حدائق غناء ، واتخذنا أماكننا على أريكة وثيرة، وقدمت لنا القهوة والغلايين . وأخذنا نتحدث ، وبذلت جهـدا كبيرا لـكى أفسر له كيف دخلت منزله وأنا أظن أننى أدخل ممراً من الممرات العديدة التى تخترق مجموعة المنازل فى القاهرة ، ولـكنى فهمت من ابتسامته أن السيدتين الجميلتين قد أوتيتا الفرصة لخيانتى . بيد أن هذا لم يمنع حديثنا من أن يصبح بعد قليل حديث ود وصداقة . فى البلاد التركية تعقد أواصر التعارف بسرعة بين سكان البلد الواحد . وشاء مضيفى أن يدعونى لتناول الطعام على مائدته . ولما حانت الساعة رأيت سيدتين رائعتى الجمال تدخلان وكانت إحداهما زوجه والأخرى أختها . إنهما بعينهما السيدتان المجهولتان اللتان قابلتهما فى سوق الشراكسة ، وكلتاهما فرنسيتان . لعمرى إن الأمر أشد إثارة للخجل ! ولقد عتبوا على بشدة من ادعائى المقدرة على أن أجوب المدينة دون مرشد ودون مكارى ، وضحكوا من إصرارى على ملاحقة سيدتين مقنعتين لا تبدو لهما أية هيئة ، وربما أخفيتا تحت حجابيهما عجوزين شمطاوين أو زنجيتين . ولم تعترف السيدتان لى بأى فضل فى هذا الاختيار المبنى على الصدفة ، لا على الإعجاب بمحاسنهما ، إذ ينبغى الاعتراف بأن الحبرة السوداء ، وهى أقل سحرا من خمار الفلاحات البسيطات ، تحول كل سيدة إلى لفافة لا شكل لها ، وعندما تنتفخ بتأثير الهواء تصبح كبالون نصف منتفخ .

وبعد الغذاء ، وقد قدم إلينا على الطريقة الفرنسية البحتة ، أدخلت قاعة

أكثر فخامة من سابقتها، وقد غطيت جدرانها بالقيشانى الملون، وصنعت أرائكها المنحوتة من خشب الأرز. وكانت وسط القاعة نافورة رخامية تقذف خيوطها الرفيعة من الماء. وكانت الطنافس وبللور البندقية تكمل هذا المثل الرائع للترف العربى، ولكن المفاجأة التى كانت تنتظرنى هنا سرعان ما استحوذت على كل انتباهى. فقد كانت هناك مائدة بيضاوية يجلس حولها ثمان فتيات قد انهمكن فى تطريز ما بأيديهن من أشغال فوقفن وحيينى وتقدمت أصغر اثنتين منهن فلثمتا يدى، وكنت أعرف أنه لا ينبغى رفض مثل هذه التحية فى القاهرة. ومما كان يزيد دهشتى من منظرهن الطريف أن لون بشرة هؤلاء الفتيات الصغيرات ذوات الملابس الشرقية كان يتدرج من البنى القاتم إلى الزيتونى، ويصل عند الأخيرة إلى لون «الشكولاته القاتمة. وربما كنت مجانبا للياقة لو أننى استشهدت أمام أكثرهن بياضا بشعر جيته :

« أتعرفين البلد الذى ينضج فيه الليمون ؟ »

ومهما يكن الأمر فإنهن جميعا يعتبرن آيات من الجمال عند الأجناس الممتزجة. أما ربة البيت وأختها فقد اتخذتا مكانيهما على الأريكة، وهما تقهقهان من إعجابى ودهشتى. وقدمت لنا الفتاتان الصغيرتان الشراب والقهوة.

ورغم أنى كنت أكن لمضيفى عميق الشكر، لأنه أدخلنى حريمه غير أنى كنت أقول فى نفسى : إن الفرنسى لا يحسن تقمص شخصية التركى، ولذا فإن الفخر الذى يشعر به عندما يرى النـــاس عشيقاته أو زوجاته يتغلب لديه على الخوف من تعريضهن للفتنة. وكنت مخطئا فى ذلك أيضا. فإن تلك الزهور اليانعة المختلفة الألوان لم تكن زوجات الرجل بل بناته. ذلك أن مضيفى ينتمى إلى ذلك الجيل من العسكريين الذين وهبوا حياتهم لخدمة نابليون، وبدلا من أن يعرضوا أنفسهم لحركات التطهير من بعده، عرض كثير من هؤلاء الشجعان خدماتهم على الحكام الشرقيين،

فاستقبلت الهند ومصر عدداً كبيرا منهم ، وتوجد فى هذين البلدين ذكريات جميلة للعظمة الفرنسية ، ولقد اعتنق بعضهم دين الشعوب التى آوتهم وعاداتها ؛ فكيف السبيل إلى لومهم على ذلك ؟ إن معظمهم ، وقد ولدوا فى أثناء الثورة لم يعرفوا لهم دينا سوى دين التيوفيليين(١) والجمعيات السرية . وللإسلام ، كما يرى فى البلاد التى يسود فيها ، من العظمة ما يأخذ أكثر العقول تشككا ولقد استسلم مضيفى وهو مايزال شابا إلى مغريات الموطن الجديد تلك . وكان قد حصل على لقب « بك » لمواهبه وخدماته ، وغصت سرايه بالجمال المجلوب من الحبشة وسنار وحتى من بلاد العرب ، لأنه كان قد ساهم فى تحرير بعض المدن المقدسة من نير المسلمين المتزمتين ، ثم بعد أن تقدمت به السن بعض الشيء راودته الأفكار الأوربية من جديد ، فتزوج بفتاة لطيفة هى ابنة أحد القناصل . وكما فعل سليمان الكبير عندما تزوج روكسلان ، فقد سرح كل من فى سرايه من عبيد وجوار ، ولكنه احتفظ بالأطفال وهم الفتيات اللاتى كنت أراهن هنا ، أما الأولاد فكانوا فى المدارس الحربية .

ووسط كل هذا الحشد من الفتيات الصالحات للزواج شعرت أن الكرم الذى يحيطوننى به فى هذا المنزل قد يعرضنى لمواقف خطيرة . ولم أجرؤ على عرض موقفى الحقيقى قبل أن أحصل على معلومات أوسع نطاقا .

وفى المساء أوصلونى إلى منزلى ، وعدت من تلك المغامرة ، وأنا أحمل عنها أجمل الذكريات . ولكن ، فى الواقع ، لم يكن هناك مايدعونى ، وأنا أزور القاهرة ، إلى أن أتزوج من عائلة فرنسية

وفى اليوم التالى أتانى عبد الله مستأذنا فى أن يصحب بعض الإنجليز إلى السويس . وكان فى حاجة إلى أسبوع ، ولم أشأ أن أحرمه من تلك الرحلة الرابحة

---

(١) مذهب ظهر فى باريس سنة ١٧٩٦ ليخلف المسيحية يعتمد على الإيمان بالطبيعة ويحاول أن يمزج عبادة الله بإجلال الإنسان ...

وظننت أنه ربما كان مستاء من تصرفى البارحة ، فالمسافر الذى يستغنى عن مرشده يوما بطوله والذى يتجول على قدميه فى شوارع القاهرة ويتناول غداءه ، لاندرى أين يجازف بأن يحمل الناس على أن يظنوه مخادعاً . ومهما يكن من شيء فقد قدم لى عبد الله صديقا له من السود يدعى إبراهيم ، وكان هذا « البربرى » (تلك هى الصفة التى يطلقونها هنا على الخدم عادة) لايعرف إلا قليلا من العامية الملطية

٨ — الوكيل

كان اليهودى يوسف ، الذى تعرفت عليه فى سوق القطن ، يحضر كل يوم فيجلس على أريكتى ، ويتمرن على الحديث باللغة الفرنسية وقد قال لى يوما .

— « لقد تبادر إلى على أنك فى حاجة إلى امرأة ، وقد عثرت لك على وكيل .

— وكيل ؟

— نعم ، وهذا يعنى رسولا أو سفيراً . ولكن فى حالتنا هذه يقصد بذلك رجلا أمينا مهمته الاتفاق مع أهل الفتاة التى يراد تزويجها . وهو إما أن يحضرهن إليك أو يصحبك إليهن .

— آه ، آه ! ولكن من أى نوع من الفتيات هن .

— إنهن فتيات شريفات ، ولا يوجد غير هذا النوع فى القاهرة ، منذ أن نفى صاحب السمو الأخريات إلى إسنا ، التى تقع شمالى الشلال الأول .

— بودى أن أصدق ذلك . حسن ! سوف نرى آتنى بهذا الوكيل .

— لقد أتيتك به ، وهو الآن ينتظر عند مدخل البيت .

وكان الوكيل ضريراً ، ومعه رجل طويل القامة قوى البنية هو ابنه الذى يقوده فى تواضع كبير . واعتلينا نحن الأربعة ظهور الحمير ، وكنت أضحك كثيراً فى دخيلة نفسى ، وأنا أقارن هذا الضرير بإله الحب وابنه بإله الزواج .

وكان اليهودى يتولى إرشادى فى أثناء السير ، وهو لا يدرى شيئاً عن تلك الدلالات والرموز الميثولوجية .

وأخذ اليهودى يقول لى .

— أمامك هنا أربع وسائل للزواج : أما الأولى فهى أن تتزوج من فتاة قبطية أمام « الترك »

— ومن هو الترك ؟

— إنه شيخ مسلم يباركك بدعواته ويساندك أمام القاضى ، ويقوم بعمل القسيس نظير شىء من النقود تعطيها له . إن هؤلاء الرجال يقدسون فى هذا البلد ، وكل مايعملونه يعتبره الناس حسنا . وإذا لم تهتم أنت بدينهم ، فإنه لا يهمهم فى شىء معرفة على أى دين أنت . ولكن الفتيات الشريفات جداً لا يقبلن هذا النوع من الزواج .

— حسن ، لننتقل إلى نوع آخر ،

— هذا النوع الآخر هو زواج جدى ، وبما أنك مسيحى والأقباط كذلك مسيحيون ، فسيتولى القساوسة الأقباط تزويجك ، رغم أنك لا تنتمى إلى كنيستهم ، بشرط أن تضمن للزوجة فى حالة ما إذا طلقتها فيما بعد مبلغا من المال .

— هذا كلام معقول جداً . ولكن ما هو هذا المبلغ ؟

— آه ! هذا يتوقف على مايتفق عليه ، وعلى أية حال ينبغى ألا يقل عن مائتى قرش.

خمسين فرنكا ! لعمرى إنى أقبل الزواج ، ولن تكون تكاليفه باهظة !

— وهناك نوع آخر من الزيجات لذوى الضمائر الحية جداً ، وذلك هو الزواج من الأسر الكبيرة . وفى هذه الحالة تتم خطبتك أمام القسيس القبطى ، ثم يزوجك طبقا لتعاليم مذهبه ، وبعد ذلك لا يعود لك الحق فى الطلاق .

أه ! هذا أمر جد خطير : تمهل برهة !

— عفوا ! وينبغي عليك كذلك أن تضمن للعروس مبلغا من المال إذا ما غادرت البلاد .

وحينئذ تصبح المرأة حرة ؟

— بكل تأكيد ، وأنت كذلك . ولكن طالما أنت مقيم فى البلد ، فإنك تظل مرتبطا بها .

— الواقع أن هذا أيضاً حق . ولكن ما هو النوع الرابع من أنواع الزيجات ؟

هذا النوع لا أنصحك بالتفكير فيه . ففيه تعقد زواجك مرتين ، مرة فى الكنيسة القبطية ،ومرة أخرى فى دير الفرنسيسكان .

— أهو زواج مختلط ؟

— إنه زواج متين جداً . فإذا رحلت ينبغى لك اصطحاب زوجتك ، فلها الحق فى أن تتبعك إلى أى مكان ، وأن تضع الأولاد على كاهلك :

— معنى ذلك أن الأمر يكون قد قضى ، وأصبحت متزوجا دون رجعة !

هناك طرق عديدة تضيف بها إلى العقد ما يوقف إنجازه . ولكن هناك شيئاً أحذرك منه ، وهو أن تساق أمام القنصل :

ولكن هذا هو الزواج الأوربى :

— تماما : ففى هذه الحالة لا يكون لك سوى مهرب واحد ، وهو أن تتوصل . إذا كنت تعرف أحدا فى القنصلية ، إلى عدم نشر العقود فى بلدك» .

وقد تسببت لى معلومات هذا الرجل ، الذى يشبه من يتولون تربية دوذ القز ، فى ارتباك ذهنى . ولكن زال عجبى عندما أخبرنى أنه كثيراً ما يستخدم فى هذا النوع من الأمور . فهو يقوم بدور المترجم للوكيل الذى لا يعرف سوى العربية . وعلى كل حال كانت كل هذه التفاصيل تشوقنى إلى أقصى درجة .

وكنا قد بلغنا أقصى المدنية ، فى هذا الجزء من الحى القبطى الذى يطل على ميدان الأزبكية من جهة بولاق . وكان المكان الذى ينبغى أن يتم فيه التعارف هو بيت فقير المظهر يقع فى طرف شارع مزدحم بباعة الخضروات والطعام المقلى . وأخبرت أن هذا البيت ليس بيت أهل العروس ، ولكنه أرض محايدة .

وقال لى اليهودى : « سوف تشاهد فتاتين ، وإذا لم يروقا لك أحضرنا لك غيرهما » .

— هذا رائع ، ولكن لو ظلتا محجبتين ، فإنى أخبركما من الآن أننى لن أقبل الزواج

— آه ! ليطمئن قلبك ، فالأمر هنا يختلف عنه عند الأتراك

— إن الأتراك يملكون حق تغيير عدد الزوجات .

— إن الأمر فى الواقع جد مختلف .

كانت القاعة ذات سقف منخفض ، وكان بها ثلاثة أو أربعة من الرجال ، وقد ارتدوا جلابيب زرقاء ، وكانوا شبه نائمين . ومع ذلك فلم يكن ثمة ما يدعو للقلق ، لاسيما أن المنزل قريب من باب المدينة ومن فرقة الحرس المعسكرة عن كثب . وصعدنا سلماً حجرياً أوصلنا إلى شرفة داخلية . وكانت الغرفة التى دخلناها بعد ذلك تطل على الشارع ، وكانت النافذة

العريضة بحاجزها الخشبي المزخرف تمتد كالمعتاد نحو نصف متر خارج المنزل . وما إن يجلس المرء بالقرب من هذه النافذة الشبيهة بنملية الطعام ، حتى تغوص أنظاره إلى نهايتي الشارع ، فيرى المارة خلال الثقوب العرضية للنافذة . إن هذا المكان هو عادة مكان النساء ، ومنه تستطيع المرأة أن ترى كل شيء دون أن يراها أحد ، وكما تفعل من تحت خمارها . ودعيت للجلوس فجلست ، كما جلس الوكيل وابنه واليهودى على الأرائك . ولم تلبث أن حضرت امرأة قبطية محجبة . وبعد أن حيت رفعت برقعها الأسود فوق رأسها . فإذا أضفنا إلى ذلك البرقع خمارها الذى أرسلته إلى الخلف كان لها غطاء رأس يشبه غطاء رأس اليهوديات . كانت تلك هى « الخاطبة » أو وكيلة النساء . وأخبرتنى أن الفتاتين على وشك الانتهاء من ارتداء ملابسهما . وفى تلك الأثناء قدمت لنا جميعا الغلايين والقهوة . وأتى رجل ذو لحية بيضاء وعمامة سوداء فانضم إلى جماعتنا . وكان ذلك هو القسيس القبطى . وكانت هناك امرأتان محجبتان ظلتا واقفتين لدى الباب ، لاشك أنهما أما الفتاتين.

واتخذ الأمر طابع الجد ، وأعترف أن انتظارى كان ممزوجا ببعض القلق . وأخيراً قدمت الفتاتان ، وأقبلت الواحدة تلو الأخرى تقبل يدى ، وأشرت إليهما بالجلوس إلى جانبى .

وقال لى اليهودى :

ـــ دعهما واقفتين فهما خادمتاك .

ولكن طبيعتى الفرنسية دعتنى إلى الإلحاح عليهما فى الجلوس . وتكلم اليهودى وأفهم الجماعة أنها عادة غريبة لدى الأوربيين أن يدعوا النساء دائما للجلوس فى حضرتهم . وأخيراً جلست الفتاتان على جانبى ، كل واحدة من جهة .

كانتا ترتديان ملابس من « التافتاه » المنثور بالأزهار « والموسلين »

المطرز توحى بالربيع . أما غطاء الرأس فيتكون من الطربوش الأحمر المحاط بغلالات شفافة وتنسدل منه طائفة من الشرائط والضفائر الحريرية . وكانت عناقيد الذهب والفضة الصغيرة ، وأغلب الظن أنها مقلدة ، تخفى الشعر إخفاء تاما . ومع ذلك فقد كان من اليسير معرفة أن إحداهما كانت سمراء والأخرى شقراء . وهكذا احتاط القوم لكل اعتراض. أما الأولى فكانت فى رشاقة النخلة وعيناها سوداوان كعينى الغزالة، وكان لون بشرتها مائلا إلى السمرة . والثانية كانت أكثر رقة من الأولى ، وقوامها أكثر امتلاء . وأدهشنى أن تكون بشرتها بهذا البياض فى مثل هذه المنطقة ، كانت لها ملامح وهيئة مالكة شابة قد نمت وترعرعت فى بلاد الصباح .

كانت تلك الأخيرة تغرينى إغراء خاصا.وقد وجهت إليها عن طريق المترجم الكثير من عبارات الغزل الرقيق ، مع عدم إهمال رفيقتها إهمالا تاما . ومر الوقت مع ذلك دون أن تدخل فى المسألة الرئيسية . فما كان من الخاطبة إلا أن أنهضتهما وغطت أكتافهما وهى تضرب بيدها على تلك الأكتاف لترينى مقدار صلابتها. ومرت لحظة خشيت فيها أن تسير عملية العرض هذه إلى مدى بعيد، وغشينى أنا نفسى الارتباك أمام هاتين الفتاتين المسكينتين ، وهما تستران بغلالتهما الرقيقة مفاتنهن التى كادت أن تنكشف .

وأخيراً قال لى اليهودى :

ـــ ما رأيك ؟

— إن إحداهما تعجبنى كثيراً ، ولكنى أرغب فى التفكير فى الأمر ، فالحب لا يأتى طفرة واحدة . وسوف نعود لرؤيتهما ثانية .

وكان الحاضرون يطمعون فى جواب أكثر دقة من ذلك دون شك . وأخذت الخاطبة والقسيس يحثانى على اتخاذ قرارى . وانتهى الأمر بأن

نهضت واعداً إياهم بالعودة، ولكنى كنت أشعر أنهم ليسوا على ثقة كبيرة من صدقى ،

وكانت الفتاتان قد انصرفتا فى أثناء تلك المباحثة ، وعند اجتيازى الشرفة الموصلة إلى السلم كانت الفتاة التى حازت إعجابى تتظاهر بتنظيم بعض شجيرات الزينة،فنهضت مبتسمةو أسقطت طربوشها وهزت غدائرها الذهبية الرائعة فوق كتفيها، وكانت أشعة الشمس تضفى على تلك الغدائر بريقا قويا مائلا إلى الحمرة ، وأفلح هذا المجهود الأخير ، وهو مجهود مشروع ، فى إمالتى إليها والتغلب على ما بى من حذر وحيطة ، فأرسلت إلى الأسرة أبلغها أننى سوف أرسل لها الهدايا بكل تأكيد .

وقلت لليهودى الخدوم ونحن نخرج :

ــ سوف أتزوج من هذه أمام « الترك » .

فقال لى :

ــ إن أمها لن تقبل ذلك ، فهم متمسكون بالقسيس القبطى ، وهى أسرة من الأدباء ، وقدمات الأب . والفتاة التى حظيت بتفضيلك لم تتزوج سوى مرة واحدة ، ومع ذلك فعمرها ستة عشر عاما .

ــ ماذا ؟ أهى أرملة ؟

ــ كلا . مطلقة . ،

ــ آه ، ولكن هذا يغير وجه المسألة !

ومع ذلك فقد أرسلت لها قطعة من القماش على سبيل الهدية .

وانبرى الأعمى وابنه يعاودان البحث ، وعثرا لى على خطيبات أخريات ، وكنا نعود فى كل حالة إلى نفس الرسميات تقريبا ، وكنت قد استمرأت

هذا النوع من استعراض الفتيات القبطيات ، وكان ما أبعث به من قطع النسيج والجوهرات البسيطة يجعل القوم لا يضيقون ذرعا بترددى،بل وقد أحضرت إحدى الأمهات ابنتها لدى فى مسكنى.وأعتقد أن هذه كانت تقبل عن طيب خاطر أن تتم مراسم الزواج أمام «التركى» ، ولكن رغم هذه الميزة ، فإنه نظراً لكبر سن الفتاة ، فقد كان يبدو عليها أنها تزوجت مرات عديدة .

٩ — حدیث رشید

قد يكون البربرى الذى أحله عبد الله مكانه قد شعر بيعض الغيرة من كثرة زيارات اليهودى ووكيله ، فأتانى يومابشاب أنيق الملبس يتكلم الإيطالية ويسمى محمدا ، وقد قدم ليعرض على زيجة منتقاة .

وقال لى : أما هذه الزيجة فتتم أمام القنصل ، فهم قوم أغنياء ، ولم تتعد الفتاة عامها الثانى عشر .

فقلت له :

— إن سنها الصغيرة لا تناسبنى، ولكن يبدو أن هذه هى السن الوحيدة التى لا يجازف المرء فيها بأن يجد الزوجة أرملة أو مطلقة .

— هذا حق ياسيدى ! وهم فى شـــدة الشوق لرؤياك . وذلك لأنك تشغل منزلا كان من قبلك مشغولا ببعض الإنجليز . ولذلك فهم يحسنون الظن فى الطبقة التى تنتمى إليها . وقد قلت لهم إنك جنرال .

— ولكنى لست جنرالا .

لا عليك ! فأنت لست عاملا ولا تاجرا . أليس لك عمل ما !

— لا شيء يستحق الذكر .

— حسن ! إن معنى هذا هنا أنك على الأقل فى رتبة أمير لواء .

وكنت أعرف فى الواقع أن جميع المراكز فى القاهرة ، كما هى فى روسيا ، تقدر حسب ما تقارن به من الرتب العسكرية . فى باريس مؤلفون وكتاب قد تبدو لهم الجنرالات المصريين أمراً ليس فيه ما يغرى

كثيرا . أما بالنسبة إلى فإنى لم أر فى ذلك إلا نوعا من التفخيم الشرقى .
وركبنا الحمير واتجهنا إلى الموسكى . وقرع محمد باب منزل حسن المظهر .
وفتحت إحدى الجوارى السوداوات الباب وأطلقت بعض صيحات الفرح.
وانحنت جارية سوداء أخرى على حاجز السلم وصفقت بيديها ، وهى تضحك
بصوت مرتفع . وسمعت صوت أحاديث لم أحدس منها إلا أنها تتعلق
بأمير اللواء الذى ينتظرون مقدمه.

وفى الدور الأول وجدت شخصا نظيف الملبس يضع على رأسه عمامة
من الكشمير . وقد أجلسنى وقدم لى شابا طويل القامة على أنه ابنه . كان
هو والد العروس . وفى نفس اللحظة دخلت سيدة فى الثلاثين من عمرها
ما زالت على شىء من الجمال . ثم قدمت القهوة والغلايين . وعلمت من
المترجم أن القوم من الصعيد ، وهذا يعطى الأب الحق فى لبس العمامة
البيضاء . وبعد قليل حضرت الفتاة تتبعها الجوارى اللاتى وقفن خارج
الباب . وتناولت الفتاة منهن صينية ، وقدمت لنا المربى فى إناء من البللور
نغترف منه بملاعق من الفضة المذهبة . كانت ضئيلة الجسم طفلة الملامح
إلى حد أنى لم أستطع أن أتصور كيف يفكرون فى تزويجها . إن ملامحها
لم تكن بعد قد تم نضجها ، بيد أنها كانت تشبه أمها لدرجة أنه كان من
اليسير تصور نوع جمالها فى المستقبل بمقارنة وجهها بوجه أمها . كانت
تذهب إلى مدارس الحى الإفرنجى ، وقد تعلمت فيها بعض الكلمات الإيطالية .
وبدت لى هذه العائلة بأكملها جديرة بالاحترام ، وأسفت لأنى تقدمت لها
دون أن أكون جادا كل الجد فى نواياى . وقد أحاطونى بالكثير من
مظاهر الإكرام ، وغادرتهم وأنا أعديابلاغهم ردى العاجل . وكانت المسألة
تستحق الكثير من التفكير الناضج .

وبعد يومين من ذلك حل عيد الفصح عند اليهود ، وهو يعادل أحد
السعف . وبدلا من أغصان البقسى (الشمشار) . التى يحملونها فى أوربا

كان المسيحيون جميعا يحملون نفس نوع الأغصان المذكورة فى التوراة ، وكانت الشوارع تنص بالأطفال الذين يتقاسمون سعف النخيل . ولكى أصل إلى الحى الإفرنجى عبرت حديقة رشيد ، وهى أجمل مكان للنزهة فى القاهرة . إنها واحة خضراء وسط المنازل المتربة ، وعلى حدود الحى القبطى والموسكى . ويحف بهذا المكان المنعزل من إحدى جهاته منازل ثلاثة من القناصل ومنزل الدكتور كاوت بك . أما المنازل الإفرنجية التى تحف بممر «واجهورن» المغلق فتمتد حتى طرفه الآخر . والمسافة بينهما من الاتساع بحيث تصور للعين أفقا مليئا بالنخيل وأشجار البرتقال وأشجار الجميز الكثيفة .

والعثور على طريق جنة عدن العجيبة تلك ليس بالأمر الهين ، فليس لها باب عمومى . وإنما يجتاز الناس منزل قنصل سردينيا بعد منح رجاله بعض النقود ، فيجدون أنفسهم وسط البساتين والحدائق التابعة للمنازل المجاورة . وهناك ممر ضيق يمر وسطها شاقا إياها إلى شقين ، وينتهى بما يشبه الضيعة الصغيرة يحيط بها الأسوار وينتزه خلفها طائفة من الزراف . ويستخدم الدكتور كاوت بك فى تربيتها بعض النوبيين . وإذا ابتعدنا قليلا وجدنا غابة كثيفة من أشجار البرتقال ممتدة عن يسار الطريق ، أما عن يمينه فقد زرعت أشجار التوت ، ويزرع الفلاحون خلالها الذرة . ثم يلتوى الطريق بعد ذلك ، وينتهى الفضاء العريض الذى نلمحه من هذا الجانب بستار من أشجار النخيل المختلطة بأشجار الموز بأوراقها الطويلة ولونها الأخضر الزاهى . وهنا يوجد جناح مقام على أعمدة طويلة يغطى مساحة حوض مربع ، وكثيراً ما تؤمه إليه النساء جماعات . ففى يوم الجمعة تأتى المسلمات ، وهن دائما محجبات ، ويوم السبت اليهوديات ، ويوم الأحد المسيحيات . وفى هذين اليومين يكون الحجاب أقل تزمتا . وتقوم الجوارى بفرش البسط للكثيرات منهن بالقرب من الحوض ، ويقدمن لهن الفاكهة والحلوى . ويستطيع المار أن

يجلس فى الجناح نفسه ، دون أن تنسحب النساء هاربات لمرآه مشعرات إياه بأنه دخيل ، وهذا مايحدث أحيانا يوم الجمعة وهو يوم التركيات

كنت أمر قريبا من هذا المكان ، عندما أتى غلام حسن الهيئة بادى المرح نحوى ، وعرفت فيه أخا خطيبتى الأخيرة . كنت وحدى ، وقد أشار إلى ببعض إشارات لم أفهمها . ثم انتهى بأن طلب منى ، بحركات صامتة أكثر وضوحا ، انتظاره فى ذلك الجناح . وما هى إلا عشر دقائق حتى فتح باب إحدى الحدائق الصغيرة التى تحف بالمنازل ، وخرجت منه امرأتان يقودهما ذلك الفتى . وجلستا بالقرب من الحوض ورفعتا خماريهما . لقد كانتا أمه وأخته . كان بيتهما يطل على هذا المتنزه من الجهة المقابلة لتلك التى دخلت منها أمس الأول : وبعد تبادل التحيات الودية الأولى لم يكن أمامنا إلا أن نتبادل النظر ، وأن ننطق ببعض الكلمات حيثما اتفق ونحن نبتسم لجهلنا المتبادل . ولم تقل الفتاة الصغيرة شيئاً ، ولا ريب أن ذلك كان على سبيل التحفظ : ولكن لما تذكرت أنها تدرس الإيطالية حاولت أن أوجه إليها بعض كلمات بهذه اللغة ، فأجابت عليها باللهجة العربية الصادرة من الحلق ، مما جعل المحادثة قليلة الوضوح .

وحاولت أن أفسر ما فى الشبه بين السيدتين من غرابة ، فإحداهما كانت تمثالا مصغرا للأخرى ، إلا أن الملامح غير المكتملة النمو لدى الطفلة كانت أكثر وضوحا لدى الأم . ومن اليسير أن نتخيل ربيعا جميلا بين هذين العمرين ، ومن المتمع أن نراه يزدهر .

وكان إلى جوارنا جذع نخلة أطاحت بها الرياح منذ بضعة أيام ، وكانت فروعها تتدلى فى الحوض عندطرفه ، فأشرت إلى الجذع بأصبعى قائلا إن اليوم هو يوم السعف ، ولكن لما كانت الأعياد القبطية تتبع التقويم البدائى للكنيسة ، لذلك فهى لا تتفق فى مواعيدها مع أعيادنا . ومع ذلك فقد ذهبت الفتاة الصغيرة وقطفت فرعاً احتفظت به فى يدها ، وهى تقول : «هكذا أصبحت رومية» :

ومن وجهة نظر المصريين يعتبر الإفرنج جميعا من الأروام . كنت أستطيع إذن أن آخذ هذا الكلام على أنه مجرد مجاملة ، أو أن أجد فيه تلميحا خفيا لزواجنا المقبل . إيه أيها الزواج ! لقد رأيتك ذلك اليوم عن كثب! ولا ينبغي لك ، حسب أفكارنا الأوربية، أن تكون إلا أخا صغيرا للحب. ومع ذلك أليس جميلا أن نرى الزوجة التي نختارها لأنفسنا تكبر وتتفتح في كنفنا وأن نحل، بالنسبة لها ، بعض الوقت محل الأب قبل أن نقوم بدور الحبيب ؟ . . . ! ولكن بالنسبة للزواج ، لأى خطر يعرضه هذا !

ولما خرجت من الحديقة كنت أشعر بالحاجة إلى استشارة أصدقائي في القاهرة . وذهبت لرؤية سليمان أغا . فقال لي : « تزوج بحق الإله » قالها لي كما قالها « پانتا جرديل » (١) « لبانورج » (٢) ! ولما خرجت من لدنه توجهت إلى رسام فندق دومرج الذي صاح بي بكل ما يميز الأصم من ارتفاع الصوت :

— « إذا كان أمام القنصل فلا تتزوج » .

إن الأوربي في الشرق ، مهما بذل من جهد ، تسيطر عليه معتقدات دينية راسخة ، على الأقل في الظروف الخطيرة . فعقد الزواج على الطريقة القبطية ، كما يقولون في القاهرة ، أمر غاية في السهولة ، ولكن عقده على طفلة صغيرة يسلمونها إليك ، دون أن يكون بينكما إلا رباط وهمي ، إن ذلك قطعا مسئولية خلقية خطيرة .

وبينما أنا مستسلم لهذه المشاعر الرقيقة ، رأيت عبد الله قادما نحوي، وقد عاد من السويس . ولما شرحت له موقفي صاح بي :

— « كانت الهواجس تراودني ، وكنت أشعر أنهم سوف ينتهزون

(١ و ٢) شخوص الكاتب الفرنسي رابليه في روايتيه « جارجانتوا » و « بانتاجرديل »

فرصة غيابي ليحملوك على ارتكاب الحماقات . إني أعرف تلك الأسرة . هل استفسرت عن المهر ؟

— أه ! هذا أمر لا أهمية له ، فإني أعرف أنه هنا لن يتعدى مبلغا بسيطا.

— إنهم يقدرونه بعشرين ألف قرش (خمسة آلاف فرنك)

— حسن ! إنه دائما يصل إلى هذه القيمة !

— ولكن كيف ! إنك أنت الذي ينبغي أن تدفع هذا المبلغ .

— آه ! هذا يغير وجه المسألة . . . وإذن فينبغي لي أن أدفع المهر بدلا من أن يدفع لي ؟

— بطبيعة الحال . أتجهل أن هذا هو العرف هنا ؟

— لما كانوا يكلموني عن الزواج على الطريقة الأوربية . . .

— أما الزواج فنعم ، وأما المبلغ فأنت الذي تدفعه على أية حال . وهو نوع من التعويض للأسرة .

وفهمت حينئذ سر تعجل أهالي البنات في هذا البلد في تزويج الفتيات الصغيرات . وفي رأيي أنه من الحق أن نعترف عند الدفع بالجهد الذي بذله هؤلاء القوم الطيبون في ولادة وتربية الطفلة الصغيرة الرشيقة الجميلة وإعدادها لك . ويبدو أن المهر ، أو على أصح تعبير التعويض ، الذي بينت فيما سبق نهايته الصغرى ، يكبر كلما زاد جمال الزوجة وكبر مركز أهلها . أضف إلى ذلك تكاليف حفلة الزواج . وهكذا ترى أن الزواج على الطريقة القبطية يصبح هو الآخر أمراً شكليا باهظ النفقات . وأسفت لأن آخر ما عرض علي من زيجات كان يفوق مقدرتي على الدفع . وفوق ذلك فقد كان من رأي عبد الله أنه من الممكن الحصول ، بنفس القيمة ، على سراي كاملة من سوق الجواري .

٢ – الجـــوارى

١ – ذات يوم عند شروق الشمس

ما أكثر ما فى حياتنا من غرائب ! فنى كل يوم ، ووسط حالة شبه النوم التى يتغلب العقل فيها شيئاً فشيئاً على ما تصوره الأحلام من خرافات أشعر أنه من الطبيعى ومما يتفق مع المنطق ومع طبيعتى الباريسية ، أن أستيقظ على ضوء السماء الملبدة بالغيوم وصوت العجلات التى تكاد تطحن الطرق طحنا، فى غرفة ، ذات منظر حزين مفروشة بأثاث الأركان، ويصطدم فيها الخيال بزجاج النوافذ ، كما لو كان حشرة حبيسة . وإن دهشتى لتزداد كل يوم حدة عندما أجد نفسى على بعد ألف فرسخ من وطنى ، وعندما أفتح أحاسيسى شيئاً فشيئاً لانطباعات هذا العالم المناقض لعالمنا تمام التناقض ، وإن صوت هذا التركى الذى ينشد من المئذنة المجاورة ، والجمل ذا الجلاجل الذى يخب فى سيره خباً ثقيلا، ويجأر جؤاراً غريباً ، وذلك الضجيج والصفير غير المتميز اللذين يحركان الهواء والغابة والجدار ، والفجر العجل الذى يرسم على السقف آلاف الصور لأجزاء النوافذ ، ونسيم الصباح المحمل بالروائح النفاذة والذى يرفع ستار بابى ويجلعنى ألمح من فوق جدران الفناء رءوس النخيل الطافية ، كل ذلك يدهشنى ويملؤنى نشوة أو حزنا حسب الأيام . ذلك أننى لا أريد أن أقول إن الصيف الدائم فى مقدوره أن يخلق حياة سعيدة سعادة دائمة . وإن شمس الكآبة السوداء التى تصب أشعتها المعتمة على جبين الملاك الحالم الذى صوره « ألبير دورير » لترتفع أيضاً فى بعض الأحيان فوق سهول النيل الغارقة فى الضياء ، كما ترتفع فوق ضفتى الرين فى صورة الطبيعة فى ألمانيا الباردة . بل إنى أعترف أنه عندما لا يكون هناك ضباب ، فإن الأتربة تكون حجابا حزينا يحجب ضياء الصباح فى الشرق .

وقد أصعد أحيانافوق سطح المنزل الذى أسكنه فى الحى القبطى ، لرؤية الأشعة الأولى للشمس التى تلفح بحرارتها من بعيد سهل هليوبوليس ، وسفوح المقطم التى تمتد فيها مدينة الأموات بين القاهرة والمطرية ، ويكون هذا المنظر جميلا عادة عندما يصبغ الفجر بألوانه قباب المقابر المزينة المخصصة لأسر الخلفاء الثلاثة وللسلاطين الذين حكموا مصر منذ العام الألف . وفى هذا الوادى مازالت تقف إحدى مسلات معبد الشمس القديم ، وكأنها دورية حراسة منسية ، وهى تقف وسط باقة كثيفة من أشجار النخيل والجميز وتحظى دائماً بالنظرة الأولى للإله الذى طالما عبده الناس فى الماضى عند أقدامها .

إن الفجر فى مصر لا يتمتع بالألوان الجميلة القرمزية التى نعجب بها فى جزر أرخبيل اليونان أو على شواطىء جزيرة كريت . فالشمس هنا فى مصر تسطع طفرة واحدة لدى حافة السماء ، لا يسبقها إلا ضوء أبيض غامض . ويبدو أحيانا أنها تجد صعوبة فى رفع الثنيات الطويلة لكفنها الأغبر ، فتبدو لنا شاحبة محرومة من الأشعة ، كما حرم منها أوزيريس تحت الأرض ، فيشيع طابعها الباهت الحزن فى السماء الجرداء التى تبدو حينئذ مشابهة لسمائنا الأوربية المغطاة بالسحب ، لدرجة أن المرء يخطىء فى التمييز بينهما . ولكن بدلا من أن تجلب المطر ، فإنها تمتص من الجو كل رطوبة . إن هذا الغبار الكثيف الذى يثقل كاهل الأفق لا يتحول أبدا إلى سحاب رطب ، كما يحدث للضباب عندنا . وكل ما يحدث هو أن الشمس عندما تبلغ أقصى قوتها قد تتوصل إلى خرق الغلاف الجوى المغبر ، وتبدو فى صورة قرص أحمر قد نظنه خارجا من مصنع حديد الآله فتاح فى ليبيا . وحينئذ ندرك سر تلك الكآبة العميقة التى تميز مصر القديمة واهتمامها المستمر بالعذاب والقبور مما تنقله إلينا الآثار . إنه إله الأعاصير الذى ينتصر بعض الوقت على آلهة الخير ، فيثير الأعين ويجفف الرئتين ، ويقذف بسحب من الحشرات والجراد إلى الحقول والبساتين .

لقد رأيت أسراب الجراد تمر ، كما لو كانت رسل الفناء والجوع وامتلأ بها الجو . ولما كنت أنظر فوق رأسى كنت إحالها فى أول الأمر ، لجهلى بأمرها ، سحبا من الطيور . أما عبد الله الذى صعد فى نفس الوقت معى إلى الشرفة ، فقد رسم دائرة فى الهواء بخرطوم نرجيلة فأسقط اثنتين أو ثلاثا منها على الأرض . وهز رأسه وهو ينظر إلى ذلك الجراد الكبير الحجم أخضر أو وردى اللون .

وقال لى : ألم تجرب أكلها أبداً .

ولم أستطع أن أمنع حركة التقزز التى بدرت منى من هذا النوع من الطعام ، ومع ذلك فلو أننا نزعنا أجنحتها وأرجلها ، فإنها تصبح كبيرة الشبه بجمبرى البحار والمحيطات . وقال لى عبدالله : «إنها مورد كبير فى الصحراء ، فهى تدخن وتملح ، وطعمها يقترب من طعم الرنجة . وإذا أضيفت إلى عجينة الذرة صنع منها طبق رائع .

فقلت :

— ولكن ، بهذه المناسبة . أليس من الممكن أن نصنع هنا بعض الطعام المصرى ؟ فإنى أجد الذهاب إلى الفندق مرتين فى اليوم لتناول وجبات طعامى أمرا يدعو للسأم »

— فقال عبد الله :

— إنك على حق ، وينبغى أن نلحق طاهيا بخدمتك .

— حسن ! والبربرى ألا يؤدى أى عمل ؟

— إنه لا يؤدى أى عمل . إنه هنا ليفتح الباب ويحافظ على نظافة المنزل ، ولا شىء أكثر من ذلك .

— وأنت ، ألا تستطيع أن تضع على النار قطعة من اللحم ، أو أن تعد أى شىء نأكله.

فصاح عبد الله بلهجة من أوذى فى شعوره إيذاء عنيفاً .

— أتتكلم عنى ؟ كلا يا سيدى ، فأنا لا أعـــرف أى شىء من هذا القبيل .

فأردفت قائلا بلهجة من يستمر فى دعابته :

— هذا أمر مؤسف ، وإلا لتمكنا من أن نتناول إفطارنا من الجراد هذا الصباح . ولكنى أريد جادا أن أتناول طعامى هنا . ويوجد فى المدينة جزارون وبائعو فاكهة وأسماك . . . ولست أجد فى طلبى هذا شيئاً غير عادى .

— الواقع أنه ليس هناك أبسط من ذلك . وما عليك إلا أن تلحق طاهيا بخدمتك . ولكن طاهيا أوربيا يكلفك ريالا فى اليوم ، ولذلك فإن البشوات والبكوات ، بل وأصحاب الفنادق أنفسهم يجدون صعوبة فى الحصول على أحدهم .

— إنى أريد طاهيا من هذا البلد ، وأن يعدلى الأطباق التى يأكلها الناس جميعا هنا .

حسن جداً ، فى مقدورنا أن نعثر على ضالتك عند السيد جان. إنه واحد من مواطنيك ، ويدير ملهى فى الحى القبطى . ويتجمع لديه الباحثون عن أعمال .

٢ – السيد جان

إن جان يعتبر من المخلفات المشرفة لجيشنا في مصر . فهو أحد الفرنسيين الثلاثة والثلاثين الذى التحقوا بخدمة جيش المماليك بعد جلاء الحملة . وقد كان له كالآخرين ، ولبضعة أعوام ، قصر ونساء وجياد وجوار . وعندما تحطمت شوكة المماليك القوية ، عفى عنه لأنه فرنسى . ولكن لما دخل فى غمار الحياة المدنية لم تلبث ثروته أن ذابت ، وفكر فى أن يبيع النبيذ علنا ، وكان هذا شيئاً جديدا فى مصر ، حيث كان المسيحيون واليهود لا يجدون ما يسكرهم سوى ماء الحياة والعرق ونوع من البيرة يسمونه البوظة ، ومنذ ذلك الحين أخذ نبيذ مالطة وسوريا وأرخبيل اليونان ينافس المشروبات الروحية ، ولم يبد من مسلمى القاهرة ما يدل على أنهم يجدون فى هذه البدعة ما يسىء إليهم .

وأعجب السيد جان بالقرار الذى اتخذته بأن أهرب من حياة الفنادق، ولكنه قال لى:

– سوف تجد صعوبة فى إدارة منزلك . فى القاهرة ينبغى أن يكون لك من عدد الخدم مثل مالك من احتياجات مختلفة . فكل واحد منهم يركز كرامته فى عدم أداء عمل إلا عملا واحدا . ومهما يكن ، فهم من الكسل بحيث يحق لنا الاعتقاد أن المسألة لديهم ليست مسألة منطق ؛ ذلك أن أى تعقيد يجهدهم ويفوق إمكانياتهم . بل إنهم ليتركون خدمتك بمجرد حصولهم على ما يجعلهم يقضون بضعة أيام بلا عمل .

– ولكن كيف يتصرف أهل البلد ؟ .

– آه !! إنهم يتركونهم على راحتهم ، ويستخدمون اثنين أو ثلاثة للعمل

الواحد . وفى جميع الحالات يبق الأفندى فى خدمته دائماً كاتب سره وأمين مخازنه (خازنداره) وحامل نرجيلته والسلحدار ليحمل أسلحته والسراجاش ليلازم حصانه والقهوجى باشى ليعدله القهوة فى أى مكان يتوقف فيه ، هذا إلى جانب البيك لمساعدة كل هؤلاء . ويوجد غيرهم الكثير فى داخل منزله . فخادم الباب لن يوافق على العناية بالمسكن ، والطاهى لن يوافق على صنع القهوة . بل وينبغى أن يكون للمرء حامل للماء لحسابه . وصحيح أنه إذا وزعت على كل منهم قرشا أو قرشا ونصف ، أى من خمسة وعشرين إلى ثلاثين سنتيما فى اليوم ، فإن كل واحد من هؤلاء التنابلة سينظرون إليك على أنك سيد ممتاز . قلت :

ـ حسن ! إن كل هذه التكاليف ما زالت بعيدة عن الستين قرشا التى لابد من دفعها كل يوم فى الفنادق .

ـ ولكن فى ذلك من الإزعاج مالا يستطيع أى أوربى أن يقاومه .

ـ سأحاول ، وسوف يعود على ذلك بكثير من المعرفة .

ـ سوف يقدمون لك أطباقا مقززة .

ـ تلك فرصة للتعرف على أطباق البلد .

ـ عليك أن تمسك دفترا لذلك، وأن تناقش أسعار الحاجيات جميعها.

ـ إن ذلك سيعلمنى لغة البلد .

ـ على كل حال فى مقدورك أن تحاول . سوف أبعث إليك بأشدهم أمانة ، وعليك أن تختار .

ـ هل هم لصوص إلى درجة كبيرة ؟

فقال لى الجندى القديم ، وهو يتذكر لفظا من الألفاظ المستعملة فى الجيش :

ـ إنهم ليسو أكثر من سارقى جزر . لصوص ! المصريون ! إنهم ليس لديهم الشجاعة الكافية لذلك .

وعموما فإنى أرى أن الشعب المصرى المسكين يعامل من الأوربيين بازدراء شديد . فالافرنجى فى القاهرة ، وهو اليوم يقاسم الجنس التركى امتيازاته ، قد تبنى هو الآخر نفس معتقدات ذلك الجنس . إن هؤلاء القوم ولا ريب فقراء جهلة . وتعودهم العبودية لمدة طويلة قد أبقاهم فى نوع من الذلة . فهم يحلمون أكثر مما يعملون ، وذكاؤهم أكبر من عملهم . ولكنى أعتقد أنهم طيبون ، وطباعهم تشبه طباع الهنود . وقد يكون لنوع تغذيتهم دخل فى ذلك ، فهى لا تكاد تتعدى النباتات . أما نحن الذين نتغذى باللحوم فإننا ننظر باحترام كبير إلى التترى والبدوى ، لأنهم على شاكلتنا . ثم يدفعنا ذلك إلى إساءة استعمال قوتنا نحو الشعوب الضعيفة .

وبعد أن غادرت السيد جان عبرت ميدان الأزبكية ، وتوجهت إلى فندق « دوميرج » ، وهذا الميدان كما نعرف هو ساحة فسيحة تقع ما بين سور المدينة وأول صف من صفوف منازل الحى القبطى والحى الإفرنجى . وهناك كثير من القصور والفنادق الرائعة . ونلاحظ بصفة خاصة البيت الذى قتل فيه كليبر ، والبيت الذى كانت تعقد فيه جلسات « المعهد المصرى » وهناك غابة صغيرة من أشجار الجميز و « تين الفراعنة » ، وتربط الذاكرة بينها وبين نابليون الذى قام بغرسها . وفى موسم الفيضان يغمر كل الميدان بالماء ، وتسير فيه القوارب المطلية والمذهبة التى يملكها أصحاب المنازل المجاورة . وإن ما يطرأ على هذا الميدان سنويا من تغيير فيتحول من ميدان عام إلى بحيرة للنزهة ، لا يمنع من أن تخط به الحدائق وتحفر القنوات فى الأوقات العادية . وقد رأيت هنا عددا كبيراً من الفلاحين يعملون فى حفر أساس بعض الجدران . كان الرجال يحرثون الأرض بالفئوس والنساء يحملن منها الأحمال الثقيلة فى مقاطف من قش الأرز ، ومن بينهن كثيرات

من الفتيات، بعضهن يلبسن قصانا زرقاء . أما من هن دون الثمانى سنوات ، فكن عاريات تماما ، كما نراهن فى القرى على ضفتى النيل . وهناك مفتشون مسلحون بالعصى يقومون بمراقبة العمل ويضربون من وقت لآخر أقل العمال نشاطا . وكان الجميع يعملون تحت رئاسة رجل ، كأنه من رجال الجيش ويضع على رأسه طربوشا أحمر ، وينتعل حذاء ذا رقبة ومهماز ، ويحمل خنجرا من خناجر الفروسية ، ويمسك بيده سوطا من جلد فرس البحر المجدول. وكان هذا السوط يعمل فى أكتاف المفتشين، كما تعمل عصى هؤلاء فى عظام أكتاف الفلاحين .

ولما رأى المراقب أننى قد توقفت أتطلع إلى الفتيات المسكينات اللاتى كن ينثنين تحت وطأة أكياس التراب ، وجه إلى الحديث بالفرنسية . لقد كان هو الآخر مواطنا . ولم يدر بخلدى أن أتأثر لضربات العصى التى يوزعونها على الرجال ، وهى على كل حال ضربات لينة ، لأن لإفريقيا حول هذه النقطة أفكارا تختلف عن أفكارنا .

وقلت له :

ولكن ، لماذا تجعلون هؤلاء النسوة والأطفال يعملون ؟

فأجاب المفتش الفرنسى قائلا :

ـ إننا لا نجبرهن على ذلك ، وإنما يضطرهن إليه آباؤهن أو أزواجهن الذين يفضلون أن يروهن يعملن تحت أنظاوهم على أن يتركوهن فى المدينة. وهن يتقاضين عن ذلك أجرا يتراوح بين العشرين بارة والقرش حسب قوة كل منهن . أما أجر الرجل عادة عن اليوم فهو قرش واحد (خمسة وعشرون سنتيما)

ـ ولكن لماذا نرى بعضهم مقيدا بالسلاسل ؟ أهم من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ؟

ـ بل إنهم كسالى يفضلون قضاء وقتهم فى النوم ، أو الاستماع إلى القصص فى المقاهى على أن يؤدوا عملا ذا جدوى.

ـ وكيف يعيشون فى هذه الحالة ؟

ـ إنهم هنا يعيشون على النذر اليسير ! وإذا اقتضى الأمر ، أليس من اليسير عليهم الحصول على الخضروات والفاكهة بسرقتها من الحقول ؟ إن الحكومة تلاقى عناء كبيرا فى تنفيذ أشد الأشغال أهمية . ولكن فى حالة الضرورة القصوى يحاصر حى بأكمله ، أو يسد رجال الأمن أحد الشوارع ، ويقبضون على كل من يمر من الناس ويقيدونهم ويأتوننا بهم . هذا كل ما فى الأمر .

ـ ماذا ! كل الناس دون تفرقة ؟

ـ نعم كل الناس ! ومع ذلك فما إن يقبض عليهم ، حتى يشرح كل منهم حالته . أما الأتراك والفرنسيون فيعرفون بسيماهم . وأما بالنسبة للآخرين فيستطيع من يحمل نقودا منهم أن يعفى نفسه من السخرة . وكثيرون منهم يوصى بهم أسيادهم أو رؤساؤهم . أما البقية الباقية فينخرطون ويعملون لبضعة أسابيع أو بضعة أشهر حسب أهمية ما يراد إنجازه من أعمال .

ماذا أقول عن كل هذا ؟ إنه يدل على أن مصر مازالت فى العصور الوسطى . ولقد كانت السخرة فى هذه العصور لصالح البكوات والمماليك . أما اليوم فالباشا هو السيد الوحيد . ولم يلغ سقوط المماليك سوى العبودية الفردية ، هذا كل ما فى الأمر .

٣ — المخنثون

بعد أن تناولت غدائى فى الفندق ذهبت للجلوس فى أجمل مقهى بالموسكى ، وهناك رأيت لأول مرة « العوالم » يرقصن فى مكان عام . وأود أن أجسم نوعا ما ذلك المشهد . إن المكان غير مزدان لا بالبرسيم ولا بالأعمدة الصغيرة ولا بزينات القيشانى ولا ببيض النعام المعلق . فان المقاهى العريقة فى شرقيتها والمزدانة بمثل هذه الأشياء لا توجد إلا فى باريس . وإنما ينبغى أن تتخيل دكانا حقيرا مربعا مطليا بالجير الأبيض . وكل ما يحوى من فن عربى هو صورة مكررة مرسومة لرقاص ساعة معكوسا على منظر مراع محصور بين شجرتين من أشجار الجزورينا . أما بقية ما فى المكان من زينه فعبارة عن مرايا ملونة من شأنها أن تعكس عصا نخيل محمله بقنينات الزيت ، وعلى هذه العصا تسبح أسرجة صغيرة يحدث ضوؤها فى المساء تأثيرا طيباً .

أما الأرائك المصنوعة من الخشب الصلب ، والتى تمتد حول القاعة ، فيحف بها أقفاص من نخيل يسند إليها المدخنون أقدامهم ، وتدور عليهم من حين لآخر الفناجين الصغيرة الأنيقة التى سبق أن تحدثت عنها . وإلى هذا المكان يأتى الفلاح ذو القميص الأزرق والقبطى ذو العمامة السوداء والبدوى ذو العباءة المخططة فيجلسون بحذاء الجدران ، ولا تلحقهم الدهشة أو تخامرهم الريبة إذا وجدوا الإفرنجى يجلس بجوارهم . أما بالنسبة لهذا الأخير فإن « القهوجى » يعلم جيداً أن عليه أن يضيف السكر إلى الفنجان . ويبتسم الجميع لهذه الطريقة الغريبة فى إعداد القهوة . ويحتل الفرن ركنا من أركان الدكان ، ويمثل أغلى مافيه من زينة . أما الركن الذى يعلو الفرن ، وهو مزدان بالخزف المطلى ، فينقسم إلى تعريجات ونقوش بالحصى . وفى شكله ما يذكر بالأفران الألمانية . أما المدفأة فهى دائماً مليئة بمجموعة كبيرة من أوانى القهوة الصغيرة المصنوعة من النحاس الأحمر . وذلك أنه لا بد لمل‍ء

كل واحد من فناجين القهوة ، وهى فى حجم أظرف البيض ـ من أن يغلى الماء فى واحد من هذه الآنية .

والآن ها هن « العوالم » يظهرن أمامنا وسط سحابة من التراب ودخان التبغ . وقد أخذت لمرآهن أول الأمر لما للقبعات الذهبية التى تعلو شعورهن المجدولة من بريق . وحينما يضربن الأرض بأرجلهن وتكرر أذرعهن المرفوعة نفس تلك الهزة العنيفة ، فإن كعوبهن تسمعنا رنات مايلبسن من خلاخيل وجلاجل . وكانت أردافهن تهتز بحركة مثيرة ، ويبدو وسطهن عاريا تحت الغلالة التى يلبسنها فى الفراغ ما بين الجزء العلوى الذى يغطى الصدر والحزام الثمين الفضفاض الذى يتدلى إلى مسافة كبيرة تحت الوسط ، كما لو كان «حزام فينوس» ، ولا يكاد المرء وسط اللفات السريعة ، يفسر ملامح هؤلاء الفاتنات اللاتى يدققن بأصابعهن صاجات صغيرة تشذ فى دقاتها شذوذا كبيرا عن صوت القيثارة والطبلة البدائيتين وكان من بينهن اثنتان غاية فى الجمال تبدو عليهما العزة ، ويزيد الكحل من جمال عيونهما العربية ، وقد طليت خدودهما الممتلئة الرقيقة بقليل من الأصباغ . أما الثالثة فتبدو كما لو كانت من جنس أقل رقة ، ولها لحية كأنها لم تحلق منذ ثمانية أيام ، لدرجة أننى لما دققت النظر ، ولما سنحت لى الفرصة لفحص ملامح الآخريين بعد انتهاء الرقص ، لم ألبث أن أقنعت نفسى بأننا بصدد عوالم من الذكور .

إيه أيتها الحياة الشرقية ، هذه إحدى مفاجآتك !

وقد كنت على وشك التورط فى الإعجاب بتلك المخلوقات المشكوك فى جنسها ، وكنت أستعد لألصق فوق جبينهن بعض النقود الذهبية تبعا لتقاليد الشرق البريئة كل البراءة . لا بد أن الناس كانوا سيظنوننى متلافا . وأسارع بالتنويه إلى أن هناك قطعا ذهبية تسمى « غازى » ، وتبدأ قيمتها من خمسين سنتيما إلى خمس فرنكات . وطبيعى أن الفئات الصغيرة هى التى

يلصقونها بوجه الراقصات عندما يأتين ، بعد ما أدين من خطوات رشيقة، يحنين جبينهن المندى أمام كل واحد من المتفرجين . أما بالنسبة للراقصين الذين يرتدون ملابس النساء ، فمن الممكن أن تمتنع عن هذا الإكرام، وأن تقذف إليهم بيارة أو أكثر .

حقا إن الأخلاق فى مصر أمر فريد للغاية . فمنذ سنوات قليلة كانت الراقصات يجبن المدينة فى حرية تامة ويحيين الحفلات العامة ، وكن متع الملاهى والمقاهى . أما اليوم فلا يستطعن الظهور إلا فى المنازل أو الحفلات الخاصة ، ويجد المتزمتون أن الوضع أفضل وقد استبدلت الراقصات بالراقصين ذوى الملامح المخنثة والشعور الطويلة الذين يقلدون بأوساطهم ورقابهم العارية مفاتن الراقصات أنصاف العاريات تقليدا ممسوخا .

وعندما تكلمت عن هؤلاء وأطلقت عليهم « العوالم » رغبة فى مزيد من الوضوح ، كنت فى ذلك اخضع للمفاهيم الخلقية الأوربية . فالراقصات يسمين « الغوازى » . أما « العالمة » فهى المغنية . وجمع هذه الكلمة هو « عوالم » . أما الراقصون . فيسمون المخنثين .

ولما خرجت من المقهى عبرت من جديد الشارع الضيق الذى يصل إلى السوق الافرنجية ، لأدخل ممر «واجهورن» المغلق وأصل إلى حديقة رشيد . وأحاط بى باعة الملابس وهم يعرضون أمام عينى أغلى الملابس المطرزة والمنطفات الصوفية المذهبة والأسلحة المطعمة بالفضة والطرابيش ذات الزر الناعم على طريقة القسطنطينية ، وهى أشياء جد مغرية تبعث فى المرء شعوراً للأناقة يشبه شعور النساء ، ولو أتيح لى أن أشاهد نفسى فى مرايا المقهى ، وهى لا توجد للأسف إلا فى النقوش المرسومة على الجدران، لراقنى أن أجرب بعض هذه الملابس . ولكن من المؤكد أننى لا أرغب فى إضاعة كثير من الوقت قبل أن أرتدى الملابس الشرقية . ولكن ما زلت للآن مضطرا للتفكير قبل كل شىء فى تدبير أمور بيتى الداخلية .

٤ — الخانون

عدت إلى بيتى تشغلنى تلك الأفكار ، وكنت قد أرسلت الترجمان منذ وقت طويل لينتظرنى هناك ، وذلك لأنى كنت قد بدأت أعرف طريقى ولم أعد أضل فى الشوارع . وألفيت البيت يغص بالناس . كان فيه أولا جمع من الطهاة بعث بهم السيد جان ، وكانوا يدخنون فى هدوء تحت البهو حيث طلبوا لأنفسهم القهوة ، وفى الدور الأول كان اليهودى يوسف يستسلم لمتعة النرجيلة . وكان هناك آخرون يحدثون صخبا شديداً على سطح المنزل . وأيقظت الترجمان الذى كان قد استسلم لنوم القيلولة فى الغرفة الداخلية فصاح بى فى لهجة الرجل اليائس .

— لقد أنذرتك هذا الصباح .

— ولكن ماذا حدث ؟

— إنك تخطىء بجلوسك فوق سطح المنزل .

— لقد قلت لى : إنه من الأفضل ألا أصعد إلا ليلا حتى لا أزعج الجيران .

— ولكنك بقيت إلى ما بعد طلوع الشمس .

— وماذا حدث ؟

— ماذا حدث ؟ يوجد الآن عمال يعملون لحسابك فوق السطح ، وقد بعث بهم شيخ الحى منذ ساعة .

وفعلا وجدت بعض النجارين يعملون فى إقامة حاجز يحجب الرؤية عن ناحية بأسرها من السطح .

وقال لى عبد الله .

— من هذه الجهة توجد حديقة إحدى ربات البيوت (خانون) وقد تقدمت بشكوى من أنك قد نظرت إلى منزلها .

— ولكنى للأسف لم أرها .

— أما هى فقد رأتك ، وفى هذا الكفاية .

— وكم تبلغ هذه السيدة من العمر ؟

آه ! إنها أرملة ، وقد تعدت الخمسين .

وبدا لى ذلك سخيفا ، حتى أننى انتزعت العرائش التى كانوا قد بدءوا يحيطون بها السطح وقذفت بها إلى الخارج . وانسحب العمال وسط دهشتهم ، دون أن ينبسوا بكلمة ، لأن أحداً فى القاهرة ، اللهم إلا إذا كان من الجنس التركى ، لا يستطيع أن يقاوم الإفرنج . وهز الترجمان واليهودى رأسيهما دون أن يتفوها بشىء . وأمرت بأن يصعد الطهاة ، واستبقيت منهم من بدا لى أكثرهم ذكاء . وكان هذا عربيا أسود العينين يسمى مصطفى . وقد بدا راضيا كل الرضا بالقرش ونصف القرش الذى وعدته به عن اليوم الواحد ، وعرض أحد الآخرين أن يساعده بقرش واحد . ولكنى لم أجد من الصواب أن أوسع نطاق الحياة فى منزلى إلى هذا الحد .

وكنت قد بدأت أتحدث مع اليهودى الذى أخذ يشرح لى آراءه فى زراعة أشجار التوت وتربية دود القز حينما دق أحدهم الباب ، وكان الشيخ الهرم وقد عاد بعمامه . وأفهمنى عن طريق المترجم أننى أسأت تقدير معروفه عندما أجر لى بيته . وقال لى إن « الخانون » ثائرة لاسيما أنى قد قذفت بالعريشة التى أقاموها فوق السطح إلى حديقتها ، وأن فى إمكانها تقديم شكوى إلى القاضى .

وأدركت أن الأمر سيسبب لى سلسلة من المضايقات ، وحاولت الاعتذار بجهلى بالعادات مؤكدا له أننى لم أر ولم أتمكن من رؤية أى شىء لدى هذه السيدة لشدة ضعف بصرى .

بيد أنه أضاف قائلا :

— إنك تدرك إلى أى حد يخشون هنا أن تمتد العين الفضولية إلى داخل الحدائق والأفنية ، حتى أنهم يختارون ضعاف البصر وهم كبار السن دائماً لترتيل أذان الصلاة من فوق المآذن .

فقلت له :

— أعرف ذلك .

— من اللائق أن تقوم زوجتك بزيارة الخانون ، وتقدم لها بعض الهدايا كمنديل مثلا أو أى شىء صغير من الكماليات .

فقلت له فى ارتباك :

— ولكنك تعلم أننى حتى الآن . . .

فصاح وهو يضرب الأرض بقدمه :

— ما شاء الله ! إننى كنت قد نسيت هذا ! أى قدر جعل الإفرنج يسكنون هذا الحى ! لقد أمهلتك ثمانية أيام لتتصرف طبقاً للقانون . وحتى لو كنت مسلماً ، فإنك بلا زوجة لا تستطيع أن تسكن إلا فى الوكالة (وهو محل إقامة القبائل القادمة والأجانب) أنه من غير المسموح به لك البقاء هنا .

وبذلت قصارى جهدى لتهدئته ، وأفهمته أنه مازال أمامى يومان من المهلة التى منحها إياى . وكنت فى حقيقة الأمر أريد كسب بعض الوقت ، والتأكد من أن كل هذا لا يحتوى أية خديعة تهدف إلى الحصول على مبلغ ما مقدما فوق ما أدفعه من إيجار . ولذلك قررت ، بعد انصراف الشيخ ، أن أذهب لمقابلة قنصل فرنسا .

٥ — زيارة لقنصل فرنسا

إننى أحرم نفسى بقدر المستطاع من خطابات التوصية فى أسفارى ، ومنذ اليوم الذى يصبح المسافر فيه معروفا فى مدينة ما يستحيل عليه رؤية أى شيء . ورجال مجتمعنا أنفسهم عندما يكونون فى الشرق لا يقبلون الظهور إلا فى حدود بعض الأماكن المعروفة بأنها تناسبهم ، ولا يتحدثون فى مكان ما ، مع قوم من طبقة أقل منهم ، ولا يخرجون للنزهة فى ملابس الصباح فى ساعات معينة من النهار . وإنى لأرثى كثيراً لهؤلاء الوجهاء ذوى الشعور المرجلة دائماً ، المقيدى الحركة لابسى القفازات ، الذين لا يجرءون على الاختلاط بالشعب لمشاهدة بعض الأمور الصغيرة الطريفة أو لرؤية رقصة أو احتفال ، والذين يخشون أن يراهم الناس فى المقاهى أو الملاهى ، ويخشون أن يتبعوا إحدى النساء أو أن يعقدوا صلات أخوية مع عربى من العرب الكرماء الذى يهديك بدافع من شعور الود علبة غليونه الطويل ، أو الذى ما إن يراك تتوقف للاستطلاع أو بسبب التعب حتى يقدم لك القهوة أمام الباب . إن الإنجليز بصفة خاصة قد بلغوا درجة الكمال ، ولا أرى أحداً منهم يمر إلا وأتسلى لمرآه من كل قلبى . ولنتخيل سيدا على ظهر حمار تكاد ساقاه الطويلتان تبلغان الأرض من فرط طولها ، وقد اكتست قبعته المستديرة بكسوة كثيفة من القطن الأبيض المنجد . إنه اختراع ضد شدة حرارة الشمس التى يمتصها غطاء الرأس هذا ، وهو يعتبر فى الوقت نفسه (حشية) وقبعة . إن الوجيه منهم يغطى عينيه بشيء يشبه قشر الجوز محاطاً بشبكة من الصلب الأزرق لتخفيف شدة حرارة الأرض والجدران ، ثم هو يضع فوق ذلك كله وشاحا أخضر مما تستعمله النساء ليحميه من الأتربة . أما معطفه المصنوع من المطاط فهو الآخر محاط بنطاء خارجى من القماش المشمع ليحميه من الطاعون ، ومن الاحتكاك المباغت بالمارة . وتمسك يداه من داخل

قفازيهما بعصا طويلة تبعد عنه كل عـــربى موضع ريبة ، وعلى كل حال فسرعان ما يقذف تابعه ومرشده بهؤلاء العرب يمينا أو يساراً .

ومن النادر أن تسنح لنا الفرصة لعقد أية صلة مع أمثال هذه الصور الكاريكاتورية ، وذلك لأن الإنجليزى لا يوجـه الحديث أبداً لمن لم يقدم إليه . بيد أن كثيرا من مواطنينا يعيشون إلى حد ما على طريقـة الإنجليز هذه . وما إن نلتقى برحالة من هؤلاء الظرفاء حتى نفقد متعة الرحـلة ونغرق فى الحياة الاجتماعية الراقية المملة .

ومهما يكن من شيء فقد انتهى بى الأمر إلى أن قررت البحث فى قاع حقيبتى عن خطاب توصية إلى قنصلنا العام الذى كان يسكن بصفة مؤقتة فى القاهرة . وفى المساء نفسه تناولت عشائى معه ، دون أن يكون هناك من يرافقنا من وجهاء الإنجليز أوغيرهم. لم يكن هناك سوى الدكتوركلوت بك، الذى يسكن قريبا من القنصلية ، والسيد لوبير المدير السابق للأوبرا ، وقد أصبح الآن مؤرخ الباشا والى مصر .

كان هذان السيدان ، أو إذا شئت هذان الأفنديان ، وهذا هو اللقب الذى تحمله كل شخصية مرموقة فى العلوم والآداب أو الوظائف المدنية ، كان هذان السيدان يرتديان الملابس الشرقية فى سهولة ويسر . وكان قرص النيشان البراق يزين صدريهما ، وكان من العسير تمييزهما عن المسلمين العاديين. كان شعرهما الحليق ولحيتاهما والاسمرار الذى يكتسبه الجـلد فى البلاد الحارة ، كل ذلك يحول الأوربى بسرعة إلى تركى مقبول الشكل جداً .

وتصفحت باهتمام الجرائد الفرنسية المطروحة فوق أريكة القنصل . يا للضعف البشرى ! أنقرأ الصحـف فى بـلاد البردى والهيروغليفيـة ! ألا نستطيع أن ننسى ، كما فعلت مدام دى ستايل على شواطىء بحيرة ليمان النهر الصغير الذى يجرى فى شارع دى « باك » !

وجرى الحديث فى أثناء تناول الطعام عن مسألة يعتبرونها خطيرة جداً ، وكان لها دوى كبير فى المجتمع الإفرنجى . ذلك أن فرنسيا بسيطا ، خادما ، كان قد قرر أن يعتنق الإسلام . وكان أكثر ما فى الأمر غرابة أن زوجه هى الأخرى كانت تريد اعتناق الإسلام . وكان الجميع مهتمين بالبحث عن وسيلة لمنع تلك الفضيحة . واهتم رجال الدين الإفرنج بالموضوع ، بيد أن رجال الدين الإسلامى اعتبروا الانتصار فى تلك المسألة انتصارا لكرامتهم. فكان هؤلاء يعرضون على الخائنين النقود والمركز المرموق والامتيازات الأخرى الكثيرة ، وكان الآخرون يقولون للزوج : «حسنا ستفعل ، فإنك لو بقيت مسيحيا لظللت دائما حيث أنت ، ولتوقفت حياتك حيث هى ، فلم يحدث أن رأى أحد فى أوربا خادما يصبح سيدا . أما عندنا فإن أحقر الخدم ، العبد أو مساعد الطاهى مثلا ، قد يصبح أميرا أو باشا أو وزيراً ، وقد يتزوج من ابنة السلطان . وليس للسن دخل فى هذا ، فان أملنا فى الوصول إلى الصف الأول لا يتركنا إلا عند الموت » ، واستجاب ذلك الشخص البسيط لهذه الآمال ، وقد يكون الطموح هو الذى دفعه إلى ذلك. وكذلك الحال بالنسبة لزوجه ، فإن صورة المستقبل فى عينيها لا تقل بريقا عنها فى عينى زوجها . فهى ستصبح فى الحال سيدة عظيمة تتساوى فى المركز مع أعظم السيدات، وسيكون لها حق احتقار النساء المسيحيات أو اليهوديات جميعا ، وسوف تلبس الحبرة السوداء والطربوش الأصفر . وفى مقدورها أن تحصل على الطلاق ، وأكثر الأمور إغراء لها هو أن تتزوج من شخصية كبيرة ، وترث الأرض وتملكها بما هو محرم على الأجنبيات ، هذا بخلاف فرص الحصول على الحظوة لدى إحدى الأميرات أو السلطانة الأم التى تحكم الإمبراطورية من داخل سرايها .

. . . وينبغى الاعتراف بأن إمكان وصول من هم من الطبقة الدنيا ، سواء أكان ذلك بفضل الصدفة أم بفضل ذكائهم الطبيعى ، إلى أعلى المراكز

دون أن يعترض تقدمهم لا ماضيهم ولا ثقافتهم ولا مكانتهم الأولى ، يحقق بشكل مرضى مبدأ المساواة التى لا توجد عند إلا مسطورة فى الشرائع والقوانين . أما فى الشرق فإن المجرم نفسه ، إذا ما دفع ما عليه من دين للقانون ، فإن أية مهنة لا تقفل أبوابها أمامه ، وتزول من أمامه عقبات التعصب الخلقى.

حسن! ومع ذلك ينبغى أن نقول : إنه رغم كل مغريات القانون التركى ، فإن المرتدين عن دينهم جد نادرين ، والدليل على ذلك كل تلك الأهمية التى يعلقونها على هذه المسألة التى أتحدث عنها . وراودت القنصل فكرة اختطاف الرجل والمرأة فى أثناء الليل ، ولكن كيف السبيل إلى نقلهما من القاهرة إلى الاسكندرية ؟ إن الأمر يحتاج إلى خمسة أيام للهبوط عن طريق النيل إلى الاسكندرية ، وإذا وضعا فى قارب مقفل كانت فى ذلك مجازفة بأن يسمع صراخهما فى أثناء الطريق . ويعتبر تغيير الدين فى البلاد التركية هو الظرف الوحيد الذى يتوقف فيه سلطان القناصل على مواطنيهم.

وقلت للقنصل : ولكن لماذا تأمر باختطاف هذين المسكينين ؟ هل لك هذا الحق من وجهة نظر القانون الفرنسى ؟

ــ بالضبط . ولو أن هذا قد حدث فى أحد موانى البحار لما وجدت فى الأمر أية صعوبة.

ــ ولكن لو فرض أن لديهم عقيدة دينية راسخة ؟

ــ أتعتقد ذلك ؟ هل يتحول الفرنسى إلى تركى ؟

ــ أمامك هنا بعض الأوربيين الذين ارتدوا العمامة .

ــ بلا شك . إنهم من كبار موظفى الباشا . ولم يكونوا ليصلوا إلى الدرجة التى حصلوا عليها ، أو ليلزموا المسلمين بطاعتهم لولا هذه الطريقة .

— بودى أن أعتقد أن تغييرا حقا قد طرأ على أكثريتهم ، وإلا لما رأيت فى الأمر إلا مبررات مادية .

— إن لى نفس طريقتك فى التفكير . ولكن إليك الأسباب التى تجعلنا ، فى الحالات العادية ، نعارض بكل قوانا فى أن يغير فرنسى دينه . فى بلادنا ينفصل الدين عن القانون المدنى ، أما عند المسلمين فيختلط هذان المبدءان . ومن يعتنق الإسلام يصبح رعية تركية من جميع النواحى ، ويفقد جنسيته ولا يعود لنا أى سلطان عليه بأى شكل ، ويصبح تابعا للعصا والسيف ، ولو ارتد إلى المسيحية يحكم عليه القانون التركى بالموت . وهكذا فعندما يعتنق الفرنسى الإسلام فإنه لا يفقد إيمانه فحسب ، بل يفقد اسمه وأسرته ووطنه ولا يعد هو نفس الشخص ، ولكنه يصبح تركيا . وعلى ذلك فإن الأمر كما ترى جد خطير .

وفى أثناء الحديث أذاقنا القنصل تشكيلة كبيرة طيبة من نبيذ اليونان وقبرص ، فلم أكن أميز إلا بصعوبة ما بينها من فروق صغيرة بسبب طعم القطران الواضح فيها والذى ، حسب ما يقول القنصل ، يعتبر دليلا على أصالتها ، ولا بد من بعض الوقت ، إزاء هذه المغالاة فى الدقة التى تعتبر بلا شك ضرورية لحفظ النبيذ اليونانى الأصيل ، للتمييز بين نبيذ الجنود والنبيذ التركى المصنوع فى جزيرة تنيدوس .

وسنحت لى خلال الحديث لحظة لأشرح فيها وضعى المنزلى . وقصصت قصة تلك الزيجات التى لم تتم ومغامراتى المتواضعة ، وأضفت قائلا :

ليس لدى أية نية لأقوم هنا بدور الإغراء . فقد قدمت القاهرة للعمل ودراسة المدينة ولأسائل آثارها وأطلالها الماضية . وإذا بى أجد من المستحيل العيش فيها بأقل من ستين قرشا فى اليوم . وأعترف أن ذلك يصيب كل ما اتخذته من احتياطات بالاضطراب والفوضى .

وقال لى القنصل ·

ــ إنك تدرك جيدا أنه فى مدينة مثل هذه لايمر بها الأجانب إلا فى أشهر معينة من السنة فى طريقهم إلى الهند ، ويلتقى فيها اللوردات بأثرياء الهند فان الفنادق الثلاثة أو الأربعة الموجودة ، لن تجد صعوبة فى التفاهم على رفع الأسعار والقضاء على كل منافسة ،

ــ بلا شك ، ولذا فقد استأجرت منزلا لبضعة أشهر .

ــ هذا هو أرجح التصرفات .

ــ حسن ! ولكنهم الآن يريدون إخراجى منه بحجة أننى لست متزوجا .

ــ إنهم يملكون هذا الحق ، وقد سجل السيد كاوت بك هذا التفصيل فى كتابه . ويحكى مستر وليم لين القنصل الإنجليزى فى كتابه . أنه أجبر هو الآخر على هذه الضرورة . وفوق ذلك اقرأ كتاب « مايبه » القنصل العام فى عهد لويس الرابع عشر ، فستجد أن الأمر كان كذلك فى زمنه . ينبغى لك أن تتزوج .

ــ لقد عدلت عن ذلك ، فإن آخر امرأة عرضت على قد زهدتنى فى الأخريات ، ولسوء الحظ لم يكن لدى الاستعداد للزواج منها ·

ــ هذا يغير وجه المسألة

ــ ولكن الجوارى يكلفن أقل من ذلك بكثير ، وقد نصحنى ترجمانى بشراء واحدة وإقرارها فى بيتى

ــ إنها لفكرة طيبة

ــ هل أكون بهذه الطريقة متمشيا مع القانون ؟

ــ تماماً .

وطال الحديث حول هذا الموضوع ، وقد أبديت دهشتى لتلك السهولة التى يمنحونها للسيحيين فى اقتناء الجوارى فى البلاد التركية ، وقد فسر لى ذلك على أنه حق لا يتعلق إلا بالنساء الملونات إن قليلا وإن كثيراً . ولكن فى مقدورهم الحصول على حبشيات ، وهن تقريبا بيضاوات ، وأغلب التجار المقيمين فى القاهرة يقتنونهن ، ويربى السيد كلوت بك الكثير منهن ليجعل منهن قابلات ، ومن بين ما قدم إلى من أدلة على أن هذا الحق لا اعتراض عليه أن جارية سوداء هربت من منزل السيد لوبير (Lubbert) فأعادتها الشرطة إليه

ولما كنت ما أزال مشبعا بالمعتقدات والقيم الأوربية ، فلم تكن هذه التفاصيل تصل إلى على إلا لتسبب لى بعض الدهشة ، وينبغى أن يقيم المرء فى الشرق بعض الوقت ، ليدرك أن اقتناء الجوارى والعبيد ليس من ناحية المبدأ إلا نوعا من التبنى ، ذلك أن حالة العبد قطعا أحسن من حالة الفلاح والرباح[1] وهما من الأجرار ، وفهمت الآن ، حسب كل ما تعلمت من طرق الزواج ، أنه ليس هناك فرق كبير بين المصرية التى يبيعها أهلها والحبشية التى تعرض فى الأسواق .

ويختلف قناصل الشرق فى الرأى حول حق الأوربيين على الجاريات : فالقانون الديبلوماسى لا يحوى نصا صريحا فى هذا الموضوع ، ومع ذلك فقد أكد لى قنصلنا أنه متمسك جدا ببقاء الوضع الراهن فى هذا الصدد ، وهذه هى الأسباب التى أبداها : فالأجانب ليس لهم حق الملكية العقارية فى مصر ، بيد أنهم يلجئون إلى بعض الخدع القانونية التى تمكنهم من استغلال الأملاك والمصانع . وذلك أنه علاوة على الصعوبات التى يجدونها فى حمل أهل البلد على العمل ، (إذ أنهم ما إن يكتسبوا أقل كمية من المال ، حتى يذهبوا ليعيشوا فى دفء الشمس ، حتى ينضب ذلك المال) فإنهم يتعرضون كذلك لسوء

---

(١) تابع يعمل بأجر زهيد ، ويستغل سيده جهوده .

مايضمره لهم الشيوخ أو ذوو النفوذ ممن ينافسونهم فى الصناعة ، وهؤلاء فى مقدورهم أن ينتزعوا منهم فى لحظة كل مالديهم من صناع بحجة المصلحة العامة ، أما باقتنائهم العبيد فإنهم على الأقل يستطيعون أن ، يجعلوا عملهم منتظما ومتتابعا لو قبل هؤلاء العبيد ذلك ؛ إذ أن العبد إذا لم يكن راضيا فنى مقدوره دائما أن يجبر سيده على إعادة بيعه فى السوق ، وهذا من بين التفاصيل التى تشرح ماتتميز به العبودية فى الشرق من رحمة ولين.

٦ — الدراويش

عندما غادرت القنصل كان الليل قد تقدم، وكان «البربرى» ينتظرنى لدى الباب، مرسلا من قبل عبد الله الذى وجد من الأوفق أن يذهب هو لينام، تلك هى الحال عندما يكثر عدد الخدم، فإنهم يتقاسمون العمل، هـذا أمر طبيعى. ومع ذلك فعبد الله لا يقبل أن يعتبر ضمن تلك الطبقة، فإن الترجمان يرى نفسه رجلا مثقفا وعالما لغويا يقبل عن طيب خاطر أن يضع عله فى خدمة المسافر. وهو يريد فوق ذلك أن يقوم بدور مرشد الأجانب فى المدينة. بل هو لا يرفض، عند الضرورة، أداء الخدمات اللطيفة التى كان يؤديها السيد «بانداروس»(١) فى طروادة. ولـكن اختصاصاته لا تتعدى هذا الحد، وتـكون هـكذا قد أخذت حقك بالخمسة والعشرين قرشا التى تدفعها له فى اليوم

ولـكن كان ينبغى على الأقل أن يـكون موجودا هنا دائما، حتى يشرح لك كل ما يبدو غامضا. فمثلا كنت أحب معرفة سبب حركة معينة حدثت فى الشوارع أدهشتنى فى تلك الساعة من الليل. فالمقاهى كانت مفتوحة غاصة بالناس، والمساجد مضاءة تتردد فيها الأناشيد الدينية. وكانت مآذنها الفارعة محاطة بحلقات من الأنوار. وقد نصبت الخيام فى ميدان الأزبكية، وكانت دقات الطبول والمزامير تسمع فى كل مكان. وبعد أن تعدينا الميدان ودلفنا إلى الشوارع الداخلية وجدنا صعوبة فى اختراق الجماهير التى كانت تتزاحم محاذية الحوانيت المفتوحة، كما لو كانت فى وضح النهار. وقد أضىء كل حانوت بمئات من الشموع، وزين بأغصان من الورق المذهب المتعدد الألوان. وأمام مسجد صغير يقع وسط الشارع كان هناك شمعدان ضخم

---

(١) باندروس هو أمير شعراء الحب اليونانيين وقد ولد فى سينوسيفال سنة ٥٢١ — ٤٤١ قبل الميلاد.

يحمل عدداً كبيراً من المصابيح الزجاجية على شكل هرم . ومن حوله عناقيد معلقة من الفوانيس ، وجلس نحو ثلاثين منشدا فى حلقة بيضاوية حول الشمعدان ، وكان يبدو أنهم جاءوا ليرددوا ما كان أربعة آخرون وسط الحلقة يترنحون به الواحد تلو الآخر من مقاطع ، كان لهذا النشيد الليلى وقع لطيف مع ما فيه من الشعور الحزين الذى يضفيه الشرقيون على الفرح ، كما يُضفونه على الحزن .

وتوقفت أنصت إليه رغم إلحاح البربرى الذى كان يريد أن يجرنى بعيدا عن الجماهير ، وقد لاحظت أن معظم المستمعين من الأقباط الذين يُعرفون بعمائمهم السوداء ، وكان واضحا إذن أن الأتراك يقبلون عن طيب خاطر أن يشهد الأقباط هذا الحفل الدينى

ولحسن الحظ أتتنى فكرة ، إن حانوت السيد جان لايبعد عن هذا الشارع ، واستطعت أن أفهم « البربرى » رغبتى فى أن يصحبنى إليه . وقد وجدنا المملوك السابق مستيقظا وتجارة المشروبات فى حركة ورواج كبيرين . وكان فى أقصى الفناء الخلفى برميل يتجمع حوله بعض الأقباط واليونانيين الذين يأتون ليرووا ظمأهم ، ويستريحوا بعض الوقت من تأثيرات الحفل .

وأخبرنى السيد جان أننى عائد من حفلة ذكر تقام إحياء لذكرى شيخ من الدراويش مدفون فى المسجد المجاور . ولما كان هذا المسجد مقاما فى الحى القبطى ، فإن بعض أغنياء المسيحيين هم الذين يتولون كل عام نفقات هذا الحفل . وهذا يفسر اختلاط العمائم السوداء بالعمائم الأخرى من مختلف الألوان . ومهما يكن من أمر فإن عامة الشعب المسيحى تحتفل عن طيب خاطر بأعياد بعض الدراويش أو الشيوخ الدينيين من أصحاب الطرق الغريبة التى لا تمت غالبا لأى دين معين بأية صلة ، والتى قد تمتد أصول بعضها إلى خرافات العصور القديمة .

والواقع أنى لما عدت إلى مكان الحفل ، وقد شـــاء السيد جان أن يصحبنى إليه ، وجدت أن المشهد قد اتخذ طابعا أكثر غرابة . فقد أمسك الدراويش الثلاثون بعضهم بأيدى البعض ، وهم يهتزون كما تهتز السفينة من المقدمة إلى المؤخرة ، بينما كان الأربعة الذاكرون يدخلون شيئاً فشيئاً فى نوبة عصبية شاعرية تتأرجح بين الرقة والوحشية . أما شعورهم المراسلة ذات التصفيفات الطويلة والتى يتناقض طولها مع عادة العرب ، فكانت تهتز مع اهتزاز رءوسهم ،

ولم يكن الطربوش هو غطاء تلك الرءوس ، بل إن الطاقية ذات الطابع العتيق ، والتى تشبه طاقية الرومان هى غطاؤها : وكانت أناشيدهم الطنانة تتخذ أحياناً طابعاً دراميا . وطبيعى أنهم كانوا يتبادلون الأشعار ، وكانت الحركات الصامتة التى يؤدونها توحى بالرقة والشكوى ، وتخاطب حبيباً مجهولا . وربما كانت تلك هى الطريقة التى كان الكهنة القدامى فى مصر يحيون بها مراسم مأساة أوزيريس فى ضياعه وعودته . كانت تلك بلا شك أنات كهنة « الميثولوجيا » . إن هذا الجمع من الدراويش الذين يرجعون النغم الصارخ ، وهم يضربون الأرض ضربات رتيبة ، إنها فيما يبدو مازالت تلبى نداء تلك العادة القديمة ، عادة النشوة والجلالة ، التى كانت فيما سلف تتردد فوق هذا الشاطىء الشرقى من واحة آمون ، حتى جزيرة ساموتراس الباردة فى أرخبيل اليونان . وكانت عيناى تمتلئتان بالدموع لا لشىء إلا لمجرد الاستماع إليهم . وأخذ الحماس يسيطر شيئاً فشيئاً على جميع الحاضرين .

ولم يكن السيد جان ، وهو زنديق قديم من الجيش الجمهورى ، يشارك الناس مشاعرهم تلك ، ولكنه حكم على كل هذا بأنه سخيف جداً ، وقد أكد لى أن المسلمين أنفسهم يرثون لحال أولئك الدراويش . وأخذ يقول لى : إن عامة الشعب هم الذين يشجعونهم ، وليس هناك أبعد عن الإسلام الحق منهم ، بل إن جميع الشواهد لتدل على أن ما ينشدون لا معنى له . ومع ذلك فقد رجوته أن يشرح لى تلك الأناشيد فقال :

— إنها لا شيء ، إنها أغانى غرامية يرددونها ، لا ندرى لأى غرض : وإنى لأعرف الكثير منها ، وإليك واحدة مما غنوا :

« إن قلبى مضطرب من الحب ، ولا يغمض لى جفن ، فهل ترى عيناى المحبوب يوماً ؟

وبينما تمضى ليالى الحزينة منهكة حزينة يقتل الغياب الأمل . إن دموعى تجرى كاللآلى وقلبى يحترق . أيها الحمامة أخبرينى لماذا تئنين هكذا ؟

أهو النوى الذى تتأوهين منه أم أن جناحيك لايعرفان للانطلاق سبيلا ؟

وأجابت الحمامة إننا متشابهون فى الهموم فقدأضنانى الحب . واأسفاه ! إن هذا المرض نفسه ، فراق الحبيب هو الذى يجعلنى أتأوه » .

أما المقطع الذى يردده الدراويش الثلاثون ، فهو نفسه لا يتغير : لا إله إلا الله ! »

فقلت :

يبدو لى أن تلك الأغنية من الممكن حقاً أن توجه إلى الإله ، والأمر يتعلق هنا دون شك بالحب الإلهى .

— بل لا علاقة له به إطلاقا . فإننا نسمعهم فى مقاطع أخرى يشبهون حبيبتهم بغزال اليمن ، ويقولون لها إن بشرتها بضة ، وأنها لا تكاد تتعدى سن الرضاع .

وأضاف أنها من تلك الأغانى التى نسميها نحن « الأغانى الإباحية » .

ولم أقتنع بما يقول ، بل وكنت أجد فى الأبيات الأخرى التى ألقاها على بعض الشبه بنشيد « الإنشاد » .

واستطرد السيدجان قائلا ، « ومهما يكن من أمر فلسوف تراهم يقومون بأشكال أخرى من الجنون بعد غد فى أثناء عيد مولد النبى محمد . ولكنى أنصحك بأن ترتدى لباساً عربياً ، إذ أن العيد هذا العام يتفق وعودة الحجاج من مكة (١) وبين هؤلاء كثير من المغاربة (مسلمى الغرب) الذين لا يحبون الملابس الإفرنجية ، لاسيما بعد غزو الجزائر .

ووعدته بالامتثال لنصحه وسلكت بصحبة البربرى طريق بيتى . أما الحفل ، فقد ظل مستمراً طوال الليل .

(١) مولد النبى (ص) فى ربيع الأول والحجاج يعودون فى ذى الحجة أو فى محرم، وقد تكون بطء المواصلات ورغبة بعض الحجاج فى زيارات البقية فى مكة والمدنية تؤخرهم بعد ذى الحجة ومحرم وصفر فيأتون فى أول ربيع الأول .

٧ — مضايقات منزلية

وفى صبيحة اليوم التالى دعوت عبد الله ، لكى يطلب إلى الطاهى مصطفى إعداد طعام الإفطار . وأجاب هذا الأخير بأن الأمر يتطلب الحصول على أدوات المطبخ اللازمة ، وكان على حق فيما يقول . وينبغى أن نذكر أن المجموعة المطلوبة لم تكن على شىء من التعقيد . أما عن المواد الغذائية ، فإن الفلاحات يرابضن فى كل مكان فى الشوارع ، وأمامهن أقفاص مليئة بالدجاج والحمام والبط . بل وتباع الكتاكيت التى يتم تفريخها فى الأفران ذات الشهرة الكبيرة فى هذا البلد بالجوزين . ويجلب بعض البدو فى الصباح الديكة الرومية وطير الغر ويمسكون بها من أرجلها ، بما يحيط يدهم بما يشبه التاج . هذا بخلاف أسماك النيل والخضروات والفواكه الكثيرة التى تنتجها تلك الأرض الطيبة العريقة ، أرض مصر ، وتباع بأسعار خيالية .

فإذا قدرنا سعر الدجاج بعشرين سنتيما والحمام بنصف هذا السعر فإنه يحق لى أن أفخر ، ولمدة طويلة ، بالهرب من حياة الفنادق . ولكن ، للأسف كان من المستحيل الحصول على الدواجن السمينة ، وإنما كل ما حصلنا عليه هياكل عظمية صغيرة مغطاة بالريش . ذلك أن الفلاحين كانوا يجدون فى بيعها فى هذا الحجم وعدم تغذيتها بالذرة لمدة طويلة مكسبا ماديا . ونصحنى عبد الله بشراء عدد من الأقفاص حتى أستطيع أن أبقيها لتسمن . ولما اشتريتها أطلقوا الدجاج فى الفناء والحمام فى غرفة من الغرف . ولما لاحظ مصطفى وجود ديك يمتاز بأن عظامه أقل بروزا من الآخرى استعد بناء على طلبى لإعداد « الكسكسى » .

ولن أنسى أبدا منظر هذا العربى الخجول ، وهو يسحب من منطقته سلاحا خصص لذبح الديك المسكين كان الطائر التعس حسن المظهر ، ومع ذلك فقد

كان لحما قليلا جداً هذا الذى يخفيه تحت ريشه الذى يشبه فى بريقه ريش الدراج الذهبى ولما شعر بالسكن أطلق صرخات صدئة ذابت لها نفسى . وفصل مصطفى رأسه عن جسده فصلا تاما ، ثم تركه يجر نفسه ويطير هنا وهناك فوق السطح حتى توقف وفرد رجليه وسقط فى ركن من الأركان . وكانت تلك التفاصيل الدامية كافية لانتزاع شهيتى . فإنى أحب كثيرا ما يطهى دون أن أراه . كنت أعتبر نفسى مذنبا مسئولا عن موت الديك مسئولية أكبر مما لو كان قد مات بين يدى صاحب الفندق .

قد تجد فى هذا النوع من التفكير شيئاً من الجبن ، ولكن ماذا تريد ؟ لم يكن فى مقدورى أن أنجح فى انتزاع نفسى من الذكريات المعروفة عن مصر ، بل وربما مررت بلحظات يؤنبنى فيها ضميرى فأغرس نصل السكين فى بعض أنواع الخضار خوفا من أن يكون فى ذلك إهانة لبعض الآلهة الكامنة روحها فى حيوان من الحيوانات ، ومع ذلك فلست أريد أن أثير من الاهتمام لموت هذا الديك النحيف من الشفقة أكثر مما يثيرها بحق الرجل الذى يضطر إلى أكله . فنى مدينة القاهرة وفرة من غيره من الغذاء ، وإن فى البلح الطازج والموز الكفاية دائماً وهما غذاء مناسب . ولكن لم يمر وقت طويل إلا واعترافت بصحة ملاحظات السيد جان . فإن جزارى المدينة لا يبيعون إلا الضأن . ويضيف إليه جزار والضواحى لحم الجمال التى ترى أرباعها الضخمة معلقة داخل الدكاكين . ولا يشك أحد أبداً فى التحقق من لحم الجمال . أما عن الضأن فإن من أقوى دعابات السيد جان ادعاءه بأنه غالباً ما يكون من لحم الكلاب . وأعلن أنى لن أمكن أحدا من أن يخدعنى فى هذا الصدد . ولكنى لم أستطع أبدا أن أفهم نظام الوزن والإعداد الذى كان من شأنه أن يجعل الصحن يكلفنى دائماً عشرة قروش تقريباً يضاف إليها طبعا المكملات الضرورية من ملوخية إلى بامية ، وهما نوعان لذيذان من الخضروات يشبه أولهما الإسفاناخ تقريباً ، أما الآخر فلا شبيه له بخضرواتنا فى أوربا .

ولنعد إلى الأفكار العامة . فقد بدا لى أن أصحاب الفنادق والتراجمة والخدم والطهاة يتضامنون فى الشرق فى كل شىء ضد المسافر . وأدرك الآن جيداً أنه مالم يزود المرء بكثير من التصميم، بل وبكثير من الخيال فإنه لابد له من ثروة كبيرة ، حتى يتمكن من أن يقضى فى الشرق فترة إقامته، ويعترف الأديب شاتوبريان أنه أفلس فى ذلك، كما أنفق الشاعر لامارتين نفقات جنونية أما غيرهم من الرحالة فإن معظمهم لم يغادر الموانىء ، أو لم يفعل إلا أن مر بالبلد مروراً عابراً . أما أنا فإنى أرغب فى تجربة مشروع إخالة خيرا من ذلك، فسوف أشترى جارية ، مادمت فى الوقت نفسه فى حاجة إلى امرأة . وسوف أتوصل شيئاً فشيئاً إلى إحلالها محل الترجمان، بل وحتى محل البربرى وإلى مراجعة حسابى مع الطاهى بمزيد من الوضوح . وعندما أحسب بهذه الطريقة ، نفقات إقامتى الطويلة فى القاهرة والنفقات التى قد اضطر إليها فى المدن الأخرى يبدو واضحا أنى سأحقق هدفى وهو الاقتصاد .

أما إذا تزوجت فإنى الزواج سيؤدى بى إلى الإسراف ، ولما أدت هذه الأفكار إلى أن أتخذ قراراً طلبت من عبد الله أن يصحبنى إلى سوق الجوارى .

٨ ـ وكالة النخاسين

واجتزنا المدينة من أولها إلى آخرها . حتى وصلنا إلى حى الأسواق الكبيرة . وهناك ، وبعد أن قطعنا شارعا معتما يكون زاوية مع الشارع الرئيسى ، ودلفنا إلى فناء غير منتظم الشكل دون أن يضطرنا ذلك إلى النزول عن ظهور حميرنا . وكانت به بئر تظللها شجرة من أشجار الجميز . وعلى الجهة اليمنى بحذاء الجدار كان هناك اثنا عشر عبدا قد وقفوا مصطفين، وكان القلق يبدو عليهم أكثر مما يبدو عليهم الحزن . كان معظمهم يرتدون القمصان الزرقاء التى يرتديها عامة الشعب ، ويعرضون أمام العين كل ما يمكن أن يوجد بين الناس من فروق فى اللون والشكل . واستدرنا جهة اليسار حيث توجد سلسلة من الحجرات الصغيرة ترتفع أرضيتها الخشبية قرابة قدمين من الأرض حتى تصل إلى الفناء مكونة ما يشبه المنصة ، وأحاط بنا عدد كبير من التجار . وقد لفحت الشمس بشرتهم وجعلوا يقولون :

« أسود ؟ حبشى ؟ » أى هل تريدونهن سوداوات أم حبشيات؟وتقدمنا نحو الغرفة الأولى .

وهناك وجدنا خمس أو ست زنجيات جالسات فى دائرة على الحصير . وكان العدد الأكبر منهن يدخن . وقد استقبلننا وهن يقهقهن ضاحكات . ولم يكن يستر أجسادهن سوى خرق ممزقة ، وبهذه الطريقة لا يستطيع أحد أن يلوم البائع لأنه أفرط فى تزيين البضاعة . أما شعورهن المصففة فى مئات من الضفائر الصغيرة المتقاربة ، فكانت بصفة عامة مربوطة بشريط أحمر يقسمها إلى قسمين كبيرى الحجم . وكانت مفارق تلك الشعور مصبوغة بالزنجفر(١) وكن يحلين أذرعهن وسيقانهن بحلقات من الصفيح وعقود

(١) كبريتات الزئبق الطبيعية وهى التى يستخرج منها هذا المعدن. وتستعمل هذه الكلمة استعمالا عاما بمعنى أحمر .

من عقود الزجاج . وبعض منهن حلقات نحاسية فى أنوفهن وآذانهن مكملات بذلك الطابع الزنجى الذى يزيد الوشم وصبغ بعض مواضع من الجلد فى تمييزه . لقد كن زنجيات من « سنار » ! وكان طابع الجمال هذا هو دون ريب أبعد الأنواع عن طابع الجمال المتفق عليه بيننا : إن بروز الفك وضيق الجبهة وسمك الشفاه ،كل ذلك يدخل هذه المخلوقات المسكينة فى طبقة تندرج قريبة من طبقة الحيـــوان . ومع ذلك فلو تغاضينا عن هذا القناع الغريب الذى وهبته لهن الطبيعة ، فإن أجسامهن كانت ذات كمال نادر . كان قوامهن العذرى التى يرى مرتسما تحت ملابسهن ، وكانت أصواتهن تخرج هادئة رنانة من فم يتألق حيوية .

حسن ! إننى لن أتحمس لهذه الوحوش الجميلة . ولكن لابد أن نساء القاهرة الجميلات يحببن أن يحطن أنفسهن بوصيفات من هذا القبيل ، فذلك كفيل بأن يبرز ما بينهن من تناقض لطيف فى اللون والشكل . إن هؤلاء النوبيات لسن قبيحات بما لهذه الكلمة من معنى مطلق ؛ ولكنهن يمثلن نقيضا للجمال كما نفهمه نحن : فالمرأة البيضاء لابد أن تبرز بشكل يثير الإعجاب وسط فتيات الليل هؤلاء : ويبدو أن قوامهن الفارع قد خلق خصيصا لتصفيف الشعر وفرد الملابس وحمل القنينات والمزاهر ، كما يبدو ذلك فى الصور والنقوش العتيقة .

ولو سمحت لى ظروفى بأن أحيا الحياة الشرقية فى نطاق واسع ،فلن أحرم نفسى من هذه المخلوقات المثيرة . ولكن لما كنت لا أرغب فى الحصول إلا على جارية واحدة ، فقد طلبت مشاهدة أخريات تكون زاوية الوجه لديهن أكثر اتساعاً واللون الأسود أقل وضوحاً : فقال لى عبد الله :

ــ إن الأمر يتوقف على السعر الذى تريد تقديمه : ومن تراهن هنا لا يكلفنك سوى كيسين (مائتين وخمسين فرنكا) وهن مضمونات لمدة ثمانية أيام فى مقدورك ردهن خلالها لو ظهر لك فيهن عيب أو عاهة .

فقلت له ملاحظا ،

— إنى أقبل عن طيب خاطر أن أضيف شيئا إلى هذا المبلغ، فإن المرأة الجميلة لا تكلف فى تغذيتها أكثر من غيرها .

ولم يبد على عبدالله أنه يشاركنى رأيى هذا . ومررنا بالغرف الأخرى، وكانت هى الأخرى جميعا مليئة بفتيات سنار . كان بعضهن أصغر سنا وأكثر جمالا ، ولكن نوع الوجه كان سائدا بينهن بشكل موحد عجيب .

وكان التجــــار يعرضون أن يجردوهن من الثياب ، وكانوا يفتحون شفاههن حتى ترى أسنانهن ، وكانوا يأمرونهن بالمشى ويولون اهتماما خاصا لما تمتاز به نهودهن من مرونة . وتستسلم تلك الفتيات المسكينات لكل هذا فى شىء من عدم الاكتراث . ويقهقه أغلبهن ضاحكات بصفة مستمرة تقريبا ، مما يخفف من وطأة ذلك المشهد على النفس . كان مفهوما أن أى وضع بالنسبة لهن خير من الأيام التى يقضينها فى الوكالة ، بل وقد يكون خيرا من حياتهن السابقة فى بلادهن .

ولما لم أجد هنا الإثيوبيات أصيلات سألت الترجمان ماإذا لم يكن هناك حبشيات . فقال لى .

— آه ! ولكنهن لا يعرضن فى مكان عام . وينبغى الصعود إلى البيت ، وأن يقتنع التاجر بأنك لم تأت هنا لمجرد الاستطلاع، كما يفعل الكثرة من الرحالة. وفوق ذلك فهن أغلى ثمنا بكثير. وربما استطعت الحصول على امرأة تناسبك ضمن جوارى «دنقله» . وهناك وكالات اخرى تستطيع أن تشاهدها ، فبخلاف وكالة النخاس التى نحن فيها الآن هناك كشك دخان جعفر .

واقترب منا تاجر من التجار وأخبرنى أن بعض الحبشيات قد وصلن الآن فى الحال ، وقد أبقوهن خارج المدينة، حتى لا يدفع عنهن رسوم الدخول،

وكان ذلك فى الريف القريب فيما وراء باب المذبح . وأردت أن أبدأ بمشاهدة هؤلاء .

وسرنا فى حى شديد الإقفار ، وبعد دوران كثير إذ بنا فى سهل فسيح وسط المقابر لأن المقابر تحيط بكل هذا الجانب من المدينة ، وكانت آثار الخلفاء على يسارنا . ومررنا وسط تلال مترية تنتشر بها الطواحين وتتكون من أطلال المبانى القديمة . وأوقفنا الحمير عند باب سور صغير ربما كان من بقايا مسجد مهدم . وتولى ثلاثة أو أربعة من العرب إدخالنا . وكان زيهم غريبا عن أزياء القاهرة . وهكذا وجدت نفسى وسط مايشبه قبيلة نصبت خيامها فى هذا المكان المغلق من كل جانب . واستقبلتنى قهقهات بعض الزنجيات مثلما حدث فى الوكالة . إن هذه الطبائع الساذجة تعبر بوضوح عن كل انطباعاتها ، ولست أدرى لماذا كانت الملابس الأوربية تبدو لهن مضحكة كانت الفتيات جميعا منهمكات فى مختلف الأعمال المنزلية . وكانت هناك واحدة فارعة الطول مفرطة فى الجمال . وقد وقفت وسط المكان تراقب باهتمام محتويات قدر كبير موضوع على النار . ولما لم تفلح أية وسيلة فى انتزاعها عما يشغلها طلبت رؤية الأخريات . وقد سارعن بترك أعمالهن وأخذن يعرضن بأنفسهن تفاصيل محاسنهن . ولم تكن شعورهن المجدولة فى أحجام صغيرة تثير الدهشة ، كما رأيت من قبل ، ولكنها كانت أقل مايميز أناقتهن . بل كانت مطلية تماما بالزبد الذى كان يتساقط منها على أكتافهن وصدورهن . وظننت أن الغرض من ذلك قد يكون تخفيف حدة الشمس على رءوسهن ، ولكن عبد الله أكد لى أن الأمر لايعدو الأناقة والبحث عن المستحضرات الحديثة لجعل شعورهن براقة ووجوههن لامعة وقال لى :

« ولكن ما إن يشترهن أحد حتى يسارع بإرسالهن إلى الحمام ويحملهن على فك هذا الشعر المجدول الذى لايألفه إلا سكان جبال القمر » .

ولم يطل وقت الفحص والاختبار . فإن هذه المخلوقات المسكينة بمافى

أشكالهن من إثارة للاهتمام لم يكن يغرين بالمعاشرة . كان الوشم الكثير يشوههن وكذلك الشروط المحفورة فى جلودهن المضحكة من النجوم والشموس الزرقاء التى كانت تبرز لون جلودهن الأسود المائل للغبرة . ولدى رؤية تلك الهيا كل التعسة ، وينبغى أن نعترف أمام أنفسنا ببشريتها ، فإن وازع الخير يدفعنا إلى لوم أنفسنا لأ نتاقصرنا أحيانا فى تقدير القرد ، ذلك القريب الذى أنكرناه والذى ما زال غرور جنسنا يدفعنا إلى صده عنا . كانت حركاتهن وهيئتهن تزيد فى هذا التقريب . بل وقد لاحظت أن أقدامهن ، وقد شكلتها وأطالتها بلاشك عادة تسلق الأشجار ، ترتبط بشكل محسوس بذوات الأيدى الأربع .

وأخذن يصحن بى من كل جانب : « بقشيش ، بقشيش » وبشىء من التردد سحبت من جيبى بضعة قروش خوفا من أن يستأثر أسيادهن بها . ولكن راح هؤلاء يوزعون عليهن البلح والبطيخ والتبغ وحتى مشروب العرق ، وذلك ليدخلوا الطمأنينة إلى نفسى . وهنا سادت البهجة وانبرت الكثيرات منهن يرقصن على نغمات الدربكة والزمارة ، تلك الطبلة والقيثارة الحزينتين اللتين تميزان الشعوب الإفريقية .

أما الفتاة الطويلة الجميلة المنهمكة فى الطهو فلم تكد تلتفت إليهن واستمرت تقلب بليلة الذرة السميكة فى القدر . ولما اقتربت منها نظرت إلى باحتقار ، ولم يلفت نظرها سوى قفازى الأسود الذى ما إن رأته حتى عقدت ذراعيها وأرسلت بعض صيحات الدهشة ، إذ كيف يكون لى ذراعان سوداوان ووجه أبيض ؟ كان ذلك هو ما تعدى قدرتها على الفهم . وتضاعفت دهشتها حينما انتزعت أحد القفازين فأخذت تصيح : « بسم الله ! هل أنت عفريت؟ هل أنت شيطان » ؟.

ولم يكن ما أبدته الأخريات من دهشة بأقل من دهشتها ، ولا يستطيع أحد أن يتصور إلى أى حد أثارت تفاصيل ثيابى تلك النفوس الساذجة .

كان واضحا أنني لو كنت فى بلادهن لاستطعت أن أكسب عيشى بعرض نفسى. أما أكثر هؤلاء النوبيات حسنا فلم تلبث أن عادت إلى انهما كها الأول يدفعها إلى ذلك مايميز القرود من عدم الثبات، فهى تشغل بأى شىء، ولكن لاشىء يستطيع تثبيت أفكارها أكثر من لحظة.

وخطر لى أن أستفسر عن سعرها، ولكن الترجمان أخبرنى أن هذه بالذات هى محظية النخاس وهو لايرغب فى بيعها آملا أن تجعل منه أبا ... أو أن يبيعها بسعر أعلى. ولم أتوقف طويلا عند هذا التفصيل، وقلت للترجمان.

«إننى بلاشك أجد ألوانهن جميعا قاتمة بشكل غير مقبول، فهيا بنا إلى ألوان أخرى. هل الحبشية إذن نادرة فى السوق» ؟ فقال لى عبد الله:

— إنها تشح قليلا فى هذه الآونة. ولكن قافلة مكة الكبيرة على وشك العودة. وقد توقفت لدى بركة الحج لكى يحتفل بدخولها القاهرة غدا عند مطلع النهار. وحينئذ تتوفر لك حرية الاختيار إذ أن كثيرا من الحجاج عندما تعوزهم النقود يتخلصون من بعض نسائهم، وهناك أيضا التجار الذين يستجلبون النساء من الحجاز»

وخرجنا من هذه الوكالة دون أن يدهش أحد أدنى دهشة لأنى لم أشتر شيئا. ومع ذلك فقد عقد أحد القاهريين صفقة فى أثناء زيارتى، ثم سلك طريق باب المذبح ترافقه زنجيتان شابتان فارعتان، كانتا تسيران أمامه وهما تحلمان بالمجهول وتسائلان نفسيهما عما إذا كان مقدرا لها أن تصبحا من محظياته أم من خادماته، وكان زيت شعرهما يسيل على صدريهما المكشوفين من أشعة الشمس اكثر مما تسيل دموعهما على خديهما.

٩ - مسرح القاهرة

وعن طريق شارع الحسنية دلفنا إلى الشارع الذى يفصل الحى الإفرنجى عن حى اليهود ، و الذى يسير محاذيا الخليج الذى تعبره على مسافات متباعدة قناطر من طراز قناطر البندقية ، وهى التى تتكون من قوس واحد . وهنا كان مقهى جميل جداً تطل قاعته الخلفية على القناة ويتناول الناس فيه عصير الفواكه المخمرة وعصير الليمون . إن المرطبات ليست هى ماينقص القاهرة التى تضم حوانيت أنيقة هنا وهناك تقدم كئوس عصير الليمون وعصير الفواكه المختلفة المحلى بالسكر بأسعار فى متناول الجميع . وعندما غادرنا الشارع التركى لنعبر الممر الموصل إلى الموسكى رأيت على الجدران إعلانات لمساء اليوم نفسه فى مسرح القاهرة ولم يسؤنى للقائى بتذكار الحضارة هذا .

فصرفت عبد الله وذهبت لتناول عشائى لدى دومرج . وهنا تبادر إلى علمى أن الممثلين هم جماعة من الهواة فى المدينة يقدمون ذلك العرض لصالح الفقراء من العميان وهم ، لسوء الحظ ، كثيرون فى المدينة .

أما موسم الموسيقى الإيطالية فقد اقترب موعد افتتاحه . والآن فلن نشاهد مؤقتا سوى سهرة « فودفيل » بسيطة .

وفى حوالى الساعة السابعة كان الشارع الضيق الذى ينتهى إليه ممـــر واجهورن ، المسدود مزدحما بالناس ، وكان ذلك بمثابة عيد كبير للحشاذين والمكارين الذين كانوا من كل جانب ينفخون صدورهم صارخين : «بقشيش» وكان المدخل ، وهو جد مظلم ، يصل إلى ممر مفتوح يصل عند نهايته إلى حديقة رشيد . أما داخل المكان فكان يذكرنا بأصغر قاعات المسارح الشعبية عندنا . وكانت القاعة غاصة بالإيطاليين واليونانيين بطرابيشهم الحمراء

وكانوا يحدثون صخباً شديداً . وكان بعض ضباط الباشا ضمن الفرقة الموسيقية ، أما الشرفات فكانت مليئة بالنساء ، وأغلبهن فى ملابس شرقية .

وتتميز اليونانيات بغطاء رأسهن المصنوع من الصوف الأحمر ، وله طرف مذهب ذو تعاريج وهن يضعنه على رءوسهن بحيث يميل على آذنهن . أما الأرمينيات فكن يتميزن بأوشحتهن وبالفلالات الرقيقة التى يخلطنها بعضها ببعض لتكون غطاء كبيراً للرأس . ولا تسطيع اليهوديات المتزوجات إبداء شعورهن حسب تعليمات الحاخام ، ولذا فقد وضعن ريش الديكة الملفوف على أصداغهن فكان يبدو كأنه خصل من الشعر . إن غطاء الرأس وحده هو الذى يميز الأجناس المختلفة . أما لباس الأجزاء الأخرى من الجسم فكان واحداً تقريبا لدى الجميع . فكانت النساء على اختلاف أجناسهن يلبسن صديرية تركية منحورة وملتصقة فيما تحت الخصر ، ويلبسن كذلك المنطقة والسروال الذى يضفى على الواحدة منهن حينما تتجرد من الحجاب مشية غلام صغير .

وكانت الأذرع دائما مغطاة ، ولكنها ، ابتداء من الكوع تترك — أكمام الصديريات المختلفة التى يرتدينها معلقة . ويشبه الشعراء العرب أزرار تلك الصديريات بأزهار الأقحوان .

وإذا أضفت إلى ذلك ما يتحلين به من نياشين وزهور وفراشات من الماس يجعل ما يرتدين من أكثر الأثواب فخامة — فإنك تفهم حينئذ أن مسرح القاهرة المتواضع مدين ببعض بريقه لهذة الزينة الشرقية فى الملبس . أما أنا ، فقد كنت فى نشوة ، بعد كل ما رأيت من وجوه سوداء فى أثناء النهار لأنى أرحت ناظرى بالنظر إلى هذا الجمال الباهت . ولو أنى كنت أسوأ نية مما أنا لعبت على جفونهن المغالاة فى استعمال الأصباغ ، وعلى خدودهن استعمال المساحيق والنقط السوداء التى كانت تستعمل فى القرن الماضى .

وعلى أيديهن استعارتها للون الحناء البرتقالى الذى لا يمنحها أية ميزة . ولكن كان على فى كل الحالات أن أعجب ، دون تحفظ ، بالألوان المختلفة من الجمال المتناقض وبنوع المنسوجات وبريق الماس ، وكل ذلك مما تعتز به نساء هذا البلد ،لدرجة أنهن قد يحملن فوق أثوابهن عن طيب خاطر كل ما يملك أزواجهن من ثروة . وأخيراً لقد أفطرت فى تلك الأمسية من صيام طويل عن الوجوه المنعشة ، صيام كان قد بدأ يثقل على . ولم تكن واحدة منهن محجبة ، ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك امرأة واحدة مسلمة حقيقة تحضر هذا العرض . ورفعت الستار فتعرفت على المشاهد الأولى لمسرحية « غرفة الفنانين فوق السطح » .

أيها « الفودفيل » أين يتوقف نجاحك وعظمتك ؟ .

كان بعض شباب مرسيليا يقومون بالأدوار الهامة ، أما البطلة فكانت تقوم بدورها مدام « بونوم » صاحبة قاعة القراءة الفرنسية . وتوقفت عيناى وملؤهما الحبور على رأس أشقر تماما . وكانت قد راودتنى منذ يومين فى الأحلام سحب وطنى ونساء الشمال بجمالهن الشاحب . وسبب ذلك هو أول هبة من هبات الخماسين ، وكثرة ما أرى من وجوه الزنجيات ، وهذا وذاك كان أبعد ما يكون عن الإيحاء بمثل أعلى .

وعند الخروج من المسرح عادت النساء جميعا فارتدين الحبرة المصنوعة من «التافتاه» الأسود وغطين ملامحهن بالبرقع الأبيض واعتلين ظهور الحمير ، كما تفعل المسلمات الأصيلات ، بينما كان السياس يضيئون لهن الطريق بالمشاعل .

١٠ — دكان الحلاق

وفى اليوم التالى ، قررت ، وأنا أفكر فى الاحتفالات التى يستعدون لها بمناسبة وصول الحجاج أن أرتدى ملابس البلد ، حتى أتمكن من مشاهدة تلك الاحتفالات بحرية .

وكنت أملك أهم قطعة فى الملابس العربية وهى المشلح . وهو عبارة عن عباءة كعباءات القساوسة ، يمكن استعمالها على الكتفين أو توضع على الرأس حسب الرغبة، دون أن تكف ، فى كلتا الحالتين ، عن تغطية الجسم بأجمعه . وفى الحالة الأخيرة فقط تنكشف الساقان ويصبح الرأس مغطى ، على طريقة أبى الهول ، بما يضفى على الشخص طابعاً فذاً . واكتفيت مؤقتاً بالوصول إلى الحى الإفرنجى، حيث كنت أرغب فى إجراء تنكرى الكامل حسب نصائح رسام فندق « دومرج » .

وكان الطريق المسدود الذى ينتهى بالفندق ممتداً حتى التقاطع مع الشارع الرئيسى للحى الإفرنجى راسماً تعريجات كثيرة قبل أن ينتهى تحت أقبية الممرات المتصلة بحى اليهود . وكانت الأرستقراطية التجارية للأمة الإفرنجية تسكن هنا فى هذا الشارع متغير السمات الذى يضيق أحياناً ويغص بحوانيت الأرمن واليونانيين ، وأحيـــاناً أخرى يصبح أكثر اتساعاً ، وتحف به الجدران الطويلة والمنازل العالية . وهنا يعيش أصحاب البنوك والسماسرة والمستودعون لمنتجات مصر والهند . وعلى اليسار ، عند أكثر أجزاء الشارع اتساعاً ، كان هناك مبنى لا يدل مظهره الخارجى على مخبره ، فقد كان يضم فى آن واحد الكنيسة الرئيسية للكاثوليك ودير « الدومينيكان » .

ويتكون الدير من طائفة من الصوامع الصغيرة المطلة على دهليز

طويل . وكانت الكنيسة عبارة عن قاعة فسيحة في الدور الأول تزينها الأعمدة الرخامية ذات الذوق الإيطالي الأنيق .

وكانت النساء يجلسن في معزل في أماكن محاطة بالحواجز ، وهن لايخلعن معاطفهن السوداء المصممة على الطراز التركي أو الملطي . ولم نتوقف في الكنيسة ، لاسيما أن الأمر كان يتعلق بالتخلص من مظهري المسيحي ، حتى أتمكن من حضور حفلات المسلمين . وقادني الرسام إلى أبعد من ذلك ، إلى نقطة يضيق فيها الشارع ويظلم ، إلى حانوت حلاق هو تحفة في جمال زينته . ونستطيع الإعجاب به وباعتباره أثراً من الآثار الأخيرة للطراز العربي القديم الذي أخلى المكان في كل مجال ، سواء في الزخرفة أم في الهندسة ، لذوق القسطنطينية التركي ، وهو اقتباس نصف تترى ونصف تركي يتسم بالحزن والبرود .

وهنا ، في هذا الحانوت اللطيف ذي النوافذ الأنيقة المطلة على الخليج (أي قناة القاهرة) فقدت شعري المرجل على الطريقة الأوربية . فقد مر الحلاق عليه بمهارة فائقة ، وبناء على طلبي الملح لم يترك لي إلا خصلة واحدة في قمة الرأس كتلك التي يحتفظ بها الصينيون والمسلمون . ويختلف الرأي في سبب تلك العادة : فبعضهم يدعي أنها تيسر على يد ملك الموت ما يمسك به ، بينما يرى البعض الآخر فيها سبباً أكثر مادية من ذلك . فالتركي يضع دائماً في حسبانه حالة ما إذا قطع رأسه . ولما كانت العادة في ذلك الوقت قد جرت على عرضها على الجمهور ، فهو لا يريد أن ترفع له ممسكا بها من الأنف أو الفم . إذ أن في ذلك إهانة كبيرة . ويقص الحلاقون الأتراك الخبثاء للمسيحيين كل شعرهم . أما أنا فان ما لدى من شك يكفي لحملي على عدم رفض أية خرافة .

ولما أتم الحلاق عمله قدم لي حوضاً من الصفيح ، وجعلني أمسك به تحت

ذقنى . ولم ألبث أن شعرت بخيط من الماء يتصبب على رقبتى وأذنى . ذلك أنه كان قد صعد على المقعد الذى بجوارى وصب ملء ابريق كبير من الماء البارد فى كيس كبير من الجلد معلق فوق جبينى . ولما انتهت تلك المفاجأة كان على أن أتحمل كذلك الغسيل بالماء المضاف إليه الصابون . وبعد ذلك قص لى الحلاق ذقنى على أحدث طرق استانبول. ثم أخذ يرجل لى شعرى، ولم تكن مهمته فى ذلك بالعسيرة . وكان الشارع غاصاً بباعة الطرابيش وبالفلاحات المتخصصات فى صناعة غطاء الرأس الصغير الذى يسمونه «الطاقية» والذى يوضع رأساً على جلد الرأس ومنها ما هو مطرز تطريزاً رقيقاً بالخيط أو بالحـــرير . بل أن لبعضها حافة من « الدنتلة » جعلت لكى تتعدى حافة غطاء الرأس الأحمر . أما عن هذه الأغطية الأخيرة فهى عموماً صناعة فرنسية ، وأظن أن مدينة « تور » (Tours) هى التى تنفرد بإعداد غطاء الرءوس فى الشرق .

وحينما وضعت الغطاءين الواحد فوق الآخر ، وبدت رقبتى دون غطاء ولحيتى مرداء وجدت صعوبة فى التعرف على نفسى فى المرآة الأنيقة المطعمة بالصدف ، والتى قدمها لى الحلاق . وأكملت تبديل مظهرى بشراء سروال واسع من القطن الأزرق وصديرى أحمر مطرز بالفضة من باعة الملابس المستعملة ، وكان على قدر لا بأس به من النظافة . وبعدئذ قال لى الرسام مؤكداً: إننى أبدو كسورى من سكان الجبال قادم من صيدا أو من طرابلس . ومنحنى الحـــاضرون لقب « شلبى » وهى صفة تطلق على وجهاء البلد .

١١- قافلة مكة أو عودة الحجاج

وأخيرا خرجت من عند الحلاق، وقد تغيرت هيئتى وغمرنى الحبور والفخر، لأنى لن أدنس مدينة ذات طراز خاص بمعطفى الأوربى وقبعتى المستديرة. فإن هذا اللباس يبدو سخيفا فى نظر الشرقيين، لدرجة أنهم يحتفظون دائما فى المدارس بقبعة إفرنجية يضعونها على رءوس الأطفال الكسالى أو غير المطيعين، وهى بمثابة «الطرطور» بالنسبة للتلميذ التركى.

وكان على أن أذهب فى الحال لرؤية حفل دخول الحجاج الذى منذ بدء النهار، وكان لابد أن يستمر حتى المساء وحضور ثلاثة آلاف شخص تقريبا مرة واحدة ليزيدوا عدد سكان القاهرة — ليس بالأمر الهين. ولذا فقد كانت شوارع الأحياء الإسلامية مزدحمة، ونجحنا فى الوصول إلى باب الفتوح، أى باب النصر. كان الشارع الموصل إليه مزدانا بأجمعه بالمتفرجين، وكانت الكتائب العسكرية تتولى صفهم. وكان صوت الأبواق والصنائج والطبول يضبط وقع خطوات الموكب بما فيه من أمم ومذاهب مختلفة تتميز بأسلحتها وأعلامها.

أما أنا فاستغرقت فى أنغام أوبرا قديمة اشتهرت فى عهد الإمبراطورية وأخذت أدندن بمقطع من مقاطعها وهو مارش الجمال مترقبا فى كل لحظة ظهور الهودج البراق. كان هناك صف طويل من الجمال قد ربط أحدها فى الآخر، واعتلى ظهورها البدو ذوو البنادق الطويلة. ومع ذلك فقد كان ذلك الصف يتقدم ببعض الرتابة، فلم نستطع أن نرى ذلك المشهد الفريد فى العالم فى مجموعه إلا فى الحقول خارج المدينة.

كان المشهد يشبه أمة تسير وتأتى لتذوب فى شعب كبير. فكانت الجموع تملأ التلال والآكام القريبة من المقطم على اليمين، أما جهة اليسار فكانت

علوءة بالمبانى التى كانت عادة خالية فى مدينة الأمـــوات . كانت قمم أبراج صلاح الدين وجدرانها ذات الخطوط الصفراء والحمراء بما فيها من فتحات تغص هى الأخرى بالمشاهدين . ولم يعد هناك مجال للتفكير فى الأوبرا ، ولا فى القافلة المشهورة التى أتى نابليون لاستقبالها والاحتفال بها لدى باب الفتوح هذا بنفسه . كان يخيل إلى أن القرون تعود إلى وراء ، وأننى أحضر مشهداً من عهد الصليبيين . كانت هناك فيالق من حرس الوالى مندسة على مسافات متباعدة بين الجمهور بدروعها البراقة وخوذات الفرسان التى تضعها على رءوسها ، فكانت تكمل فى ذهنى هذا الخيال . وعلى مسافة أبعد من ذلك ، وفى السهل الذى ينساب فيه الخليج ، كنا نرى آلافاً من الخيام مختلفة الألوان يتوقف الحجاج لديها لتناول المرطبات . ولم يتخلف الراقصون والمطربون بدورهم عن الحفـــل . كان موسيقيو القاهرة جميعاً يتنافسون فى الصخب والضوضاء مع نافخى الأبواق وقارعى الدفوف فى الموكب، فى تلك الفرقة الموسيقية الهائلة الجاثمة على ظهور الجمال .

ولن نستطيع أن نتصور من هم أطول لحية ولا أشعث منظرا ولا أخشن مظهراً من خضم المغاربة الهائل الذى يتكون من التونسيين والطرابلسيين والمغاربة ، بل حتى من الجزائريين . وإن تشبيه ذلك المنظر بدخول باريس عام ١٨١٤ لن يعطيك إلا فكرة ضعيفة عنه . كنت تميز وسطهم أكبر طرق المشايخ والدراويش عدداً ، وكانوا يجأرون بحماس دائم بأناشيد الحب المختلطة باسم الله ، كانت الأعلام بألوانها العديدة والعصى الطويلة المحملة بالمتاع الخاص وعدد الأسلحة ، والأمراء الذين يرون هنا وهناك بملابسهم الفاخرة وشعورهم المزدانة والذهب والأحجار الكريمة تكاد تسقط منهم ، كل ذلك كان يضيف إلى هذا الموكب المضطرب كل ما يمكن تصوره من بريق . كذلك كانت الهوادج العديدة التى تحمل النساء مدعاة للإعجاب . وهى غريبة فى منظرها ، وتشكل مايشبه السرير تعلوه خيمة وقد استقر فى وضعه بالعرض

لا بالطول على ظهور الجمال . كانت هناك أسر بأكلها تجمعت ببساطة وفى يسر بأطفالها وأثاثها فى تلك السرادقات المزركشـــة ، والتى كثيراً ما تكون براقة .

ولما انقضى ثلث النهار تقريباً أعلنت طلقات مدافع القلعة والهتافات وأصوات الأبواق أن المحمل ، وهو شىء يشبه القبة المقدسة ويضم ثوب محمد الصوفى المذهب(١) ، قد وصل أمام المدينة . وكان أجمل أجزاء تلك القافلة وأروع فرسانها وأكثر شيوخها حماسة ، وأعلى طبقات المعممين ويميزهم اللون الأخضر، يحيطون بذلك الحرز من أحراز الإسلام. وتقدمت سبعة جمال متتالية وقد زينت رؤوسها بأفخر زينة وحليت بالريش وزودت هى بأجمل العدد وأبهى الطنافس ، فكانت تحت هذه الأغطية والزينات التى تخفى هياكلها تبدو وكأنها سحالى جهنم أو التنين التى تستخدم مطية للجنيات.

كانت الجمال الأولى تحمل قارعى دفوف من الشبان عارى الأذرع، وكانوا يرفعون عصامهم المذهبة ثم يتركونها تسقط وسط باقة من الرايات المرفرفة المصفوفة حول البردعة . يتلو ذلك شيخ هرم ذو لحية طويلة بيضاء ، وله فى الموكب مركز رمزى ، وقد توج بالأغصان وجلس على ما يشبه العربة المذهبة فوق ظهر الجمل ، ويأتى من بعده المحمل الذى يتكون من سرادق فاخر على شكل خيمة مربعة ، وقد غطى بالكتابة المطرزة ، وعلته عند القمة وفى كل ركن من أركانه الأربعة كرة ضخمة من الفضة .

وكان المحمل يتوقف بين الفينة والفينة ،فتخر الجماهير ساجدة فوق التراب، وهى تضع جبينها فوق أيديها . وكانت كتيبة القواصين تجد صعوبة كبيرة فى إبعاد الزنوج الذين كانوا بدافع من تعصب يفوق غيرهم من المسلمين يتوقون إلى أن يرتموا تحت أخفاف الجمال ، ليستشهدوا أو يسحقوا فكانت

(١) غنى عن الذكر أن هذا التفصيل غير صحيح . لأن المحمل يحمل كساء الكعبة .

ضربات العصى التى تنهال عليهم تمنحهم على الأقل جزءاً من عذاب الاستشهاد الذى يبغونه ، أما الشيوخ وهم نوع من القديسين أكثر تحمساً من الدراويش وعلى رجحان فى الرأى الدينى لا يعترف لهم الناس به ، كما يعترفون للدراويش ، فكنا نرى الكثير منهم وقد ثقبوا خدودهم بمسمار دقيق وساروا هكذا ملوثين بالدماء ، وآخرون منهم كانوا يلتهمون الثعابين وهى حية(١)، وغيرهم كانوا يحشون أفواههم بقطع الفحم المشتعلة . وكان دور النساء فى تلك الممارسات ضئيلا ، فلا يشاهد منهن وسط جماهير الحجاج سوى مجموعات من العوالم قد انضمت إلى القافلة وأخذت تنشد مع الجميع أناشيدهم الطويلة الصادرة من الحنجرة ، غير خائفات من إبداء وجوههن السافرة بما فيها من وشم أزرق وأحمر وأنوفهن ذات الحلقات الكبيرة .

واندسسنا أنا والرسام ، وسط الجماهير المختلفة التى تتبع المحمل ، ونحن نصيح : الله ! كما يفعل الآخرون كلما توقفت الجمال المقدسة التى كانت تهز فى جلال رؤوسها المزينة ، فتبدو رقابها المقوسة وجمجمتها الغريبة ، كما لو كانت تبارك الجماهير . ولدى مدخل المدينة بدأت طلقات المدافع تدوى واتخذت الجموع طريق القلعة خلال الشوارع ، بينما استمرت القافلة تزحم مدينة القاهرة بالآلاف الثلاثين الذين تضمهم من المؤمنين ، وقد أصبح لهم منذ الآن الحق فى لقب « حاج » .

ولم يلبث الجميع أن بلغوا الأسواق الكبيرة وشارع الصالحية الفسيح حيث الجامع الأزهر والمؤيد والبيمارستان بما يميزها من فن هندسى عجيب، وكانت تقذف إلى السماء بباقة من المآذن المختلطة بالقباب . وما إن تمر الجموع أمام مسجد من هذه المساجد حتى يتخفف الموكب من بعض حجاجه

(١) تلك أكاذيب ومبالغات يقصد الكاتب بها إثارة القارىء الفرنسى . ولم تكن أكثر من لعب الحواة وما شابه ذلك .

وتكون عند بابه أهرامات مايلبسون من أخفاف، إذ أن أحداً لا يدخل المسجد إلا حافى القدمين. ومع ذلك فلا يتوقف المحمل، بل يواصل سيره فى الشوارع الضيقة الصاعدة نحو القلعة ، ويدخلها من الباب الشمالى وسط فرق الجيش المتجمعة ووسط هتاف الجمهور المتجمع فى ميدان « الرميلية » . ولما لم أتمكن من دخول فناء قصر محمد على ، وهو قصر جديد مبنى على الطراز التركى له تأثير فى متواضع ، فقد ذهبت إلى الشرفة التى تشرف على القاهرة بأسرها . ولا يستطيع المرء أن يعبر إلا تعبيراً ضعيفاً عن تأثير ذلك المنظر ، فهو من من أروع المناظر فى العالم. وأول ما تؤخذ به العين هو مسجد السلطان حسن بتكوينه الضخم وخطوطه وألوانه الحمراء. وهو ما يزال يحتفظ بآثار ضربات مدافع الفرنسيين منذ ثورة القاهرة المعروفة. إن المدينة تستحوذ، أمام ناظريك، على الأفق بأسره الذى ينتهى لدى مزارع شبرا الظليلة. وإلى اليمين تمتد المدينة الكبيرة التى تضم مقابر المسلمين ومزارع هليوبوليس وسهل الصحراء الليبية الكبير الذى تعترضه سلسلة تلال المقطم. أما إلى اليسار فينساب النيل بمياهه المحمرة وما يحف به من أشجار النخيل والجميز القليلة . وتقع بولاق على ضفة النهر ، وهى بمثابة ميناء للقاهرة ، وتبعد عنها حوالى نصف فرسخ . وتقع جزيرة الروضة الخضراء المزهرة ، وقد نسقت على شكل حديقة إنجليزية وتنتهى بمقياس النيل ، فى مواجهة منازل الجيزة الرضية الضاحكة . وفيما وراء ذلك ترى أخيراً الأهرام المقامة على السفوح الأخيرة لسلسلة الجبال الليبية ، وإلى الجنوب عند سقارة توجد أهرام أخرى مختلطة بالمقابر الأثرية . وعلى مسافة أبعد من ذلك ترى غابة النخيل التى تغطى أطلال مدينة « منفيس » . وتشاهد ، وأنت فى طريق العودة إلى المدينة ، مصر القديمة التى بناها عمرو بن العاص فوق مدينة قديمة تعرف باسم « بابل المصرية » ، وقد حجبتها بعض الشىء أقواس قناة صناعية كبيرة ينفتح عند قدمها الخليج المار محازياً السهل الذى يضم المدافن « القرافة » .

هذا هو المنظر الفسيح الذى غص بالحياة التى تدفقت من الشعب المحتفل

بعيده بصخبه فى الميادين، وخلال الحقول المجاورة. ولكن ها هو الليل يقترب وجبين الشمس يغوص فى رمال صحراء آمون التى يسميها العرب بحرا بلا ماء. ولا يعود المرء يشاهد على بعد إلا مجرى النيل بما تجرى على صفحته من بلاماء. آلاف القوارب خاطة فوقه خطوطاً من الفضة، كما كان يحدث فى أعياد « بطليموس »، وحان وقت العودة، فكان لا بد من أن ندير أعيننا عن تلك الآثار الصامتة التى يحتفظ بسرها الأبدى أبو الهول المختفى وسط الرمال. ولنتأمل هل سيستطيع الإسلام بجلاله ومعتقداته تعمير سكون الصحراء والمقابر؟ أم أن علينا أن نبكى الماضى الشاعرى وهو فى طريقه إلى الزوال ترى هل هذه العصور الوسطى العربية المتخلفة ثلاثة قرون على وشك الانهيار بدورها، كما انهارت حضارة العصور اليونانية القديمة على أقدام الآثار الفرعونية الصامدة المتعالية؟

واحسرتاه! إنى عندما استدرت لمحت فوق رأسى الأعمدة الحمراء الأخيرة لقصر صلاح الدين القديم. وعلى أنقاض هذا الفن الهندسى الباهر الشبيه بالعبقريات فى جرأتها وجمالها مع وهنها وسرعة زوالها - أقيم حديثاً مبنى مربع بنى كله من الرخام والمرمر ولا يتميز بأى أناقة أو طابع خاص ويشبه سوق الغلال، ويقولون إنه سوف يكون مسجداً وسيصبح فعلا مسجداً كما أن « المادلين » كنيسة. ذلك أن المهندسين المحدثين يحرصون دائماً على أن يبنوا لله مبانى قد تصلح لغرض آخر عندما يكفون عن الإيمان به.

ومع ذلك فيبدو أن الحكومة قد احتفلت بعودة المحمل، فكان مصدراً للرضا العام عنها فتلقى الباشا وأسرته فى تبجيل ثوب محمد[1]، الذى أحضر له من مكة، وماء بئر زمزم المقدس وبعض أشياء أخرى تتعلق بالحج. وقد عرض الثوب على الشعب على باب مسجد صغير يقع خلف القصر.

---

(١) كسوة الكعبة.

وكانت الأضواء المتلألئة فى المدينة عندما ترى من فوق الشرفات ذات تأثير رائع . فالمنشآت الكبيرة قد بعثت ، من جديد ، الحياة فى خطوطها الهندسية الضائعة فى الظلال . وكانت هناك مسابح من الأنوار تحيط بقباب المساجد والمآذن وترتدى من جديد عقود النور التى كنت قد لاحظتها من قبل . وكانت الآيات القرآنية تتألق على الواجهات ، وقد كتبت فى كل مكان بالزجاج الملون ، وبعد أن تأملت هذا المشهد فى إعجاب أسرعت بالتوجه إلى ميدان الأزبكية حيث يعرض أجمل ما فى الحفل .

كانت الأحياء المجاورة تزدهى بلألاء الحوانيت . واستولى صانعو الفطائر والأطعمة المقلية وبائعو الفاكهة على الأدوار الأرضية جميعها . وكان صانعو الحلوى يعرضون روائعها فى شكل أبنية أو حيوانات أو أفكار أخرى ، وكانت أهرامات الضوء والشمعدانات المضيئة تنير كل شىء ، كما لو كنا فى وضح النهار . وفوق ذلك فقد كانوا يعرضون ، بين مسافة وأخرى، وعلى حبال ممدودة ، سفناً صغيرة تتألق نوراً ، وقد يكون ذلك أثراً من من آثار حفلات إيزيس يحتفظ شعب مصر الطيب بذكراها ، كما يحتفظ بذكريات أخرى كثيرة . وكان الحجاج ، وأكثرهم فى ملابس بيضاء وقد لفحت الشمس بشرتهم أكثر من أهل القاهرة ، يستقبلون فى كل مكان بمظاهر التكريم الأخرى . وكانت المتع الرئيسية تدور فى الجزء الجنوبى من الميدان ، فى الجزء الملامس للحى الإفرنجى . ونصبت الخيام فى كل مكان ، لا لإقامة المقاهى فحسب، بل لحلقات الذكر أى اجتماعات المنشدين الدينيين . وكان الدراويش الدوارة يستخدمون فى دورانهم عصيا طويلة محملة بالرايات والثريات . ولا ينبغى الخلط بينهم وبين الدراويش الصائحين ، فلكل له طريقته فى الوصول إلى حالة الإرهاص التى تحقق أنواعاً من من التجلى والنشوة . فالأولون يلفون ويدورون حول العصى الطويلة ولا يصيحون إلا بكلمة « الله حى ! » ، أى إن الله يحيا ويعيش ، فى صوت

حبيس . وهذه العصى التى يصفون كل أربع منها صفاً واحداً تسمى سارية . وتزاحم الجماهير خارج هذا المكان لرؤية المشعوذين والراقصين على الحبال ، أو للاستماع إلى الرواة الذين يروون نبذا من قصه أبى زيد . وتتابع هذه القصص كل مساء فى مقاهى المدينة ، وكما يحدث فى المسلسلات التى تنشر فى جرائدنا ، فإنها تتوقف لدى أكثر المواضع تشويقاً حتى تضمن ، فى اليوم التالى ، عودة الرواد المتطلعين إلى نفس المقهى للاستماع إلى نبذ أخرى.

أما الأراجيح وألعاب المهارة والقراقوز فى أشكاله المختلفة ، إلى العرائس إلى خيال الظل ، فتزيد فى إحياء ذلك العيد الشعبي الذى ينبغى أن يستمر مدة يومين آخرين بمناسبة مولد النبي، كما يسمون عيد ميلاد النبي محمد.

وما إن طلع نهار اليوم التالى حتى ذهبت برفقة عبد الله إلى سوق الجوارى الواقع فى حى سوق العربى . وقد اخترت حماراً رائعاً مخططاً كالحمار الوحشى ، وأحطت ثيابى الجديدة بشيء من التأنق . فما دمت ذاهباً لشراء بعض النساء ، فلا ينبغى أن أجعلهن يخفلن منى . فذلك ما علمتنى إياه الضحكات المستهزئة التى كانت ترسلها الزنجيات .

١٢ — عبد الكريم

ووصلنا إلى بيت رائع الجمال ، ولابد أنه كان منزلا لكاشف أو بك من بكوات المماليك . وكان البهو يمتد فى دهليز طويل ذى أعمدة ، ويطل على ناحية من نواحى الفناء . وفى اقصى المكان كانت هناك أريكة خشبية ذات وسائد يجلس عليها مسلم من المسلمين ، وكان بادى الطيبة . أنيق الملبس وراح يحرك فى تراخ حبات مسبحته المصنوعة من عود الند وكان هناك زنجى صغير منهمك فى إعادة إشعال فحم الترجيلة ، بينما جلس كاتب من الكتاب القبط عند قدميه ، إنه لابد أن يكون كاتم سره .

وقال لى عبدالله : «هذا هو السيد عبد الكريم ، وهو أشهر تجار الجوارى وفى مقدوره أن يقدم لك نساء رائعات الجمال لو أراد ذلك . ولكنه ثرى وكثيراً يحتفظ بهن لنفسه » .

وأومأ إلى عبدالكريم إيماءة لطيفة من رأسه ، وهو يضع يده على صدره وقال لى : « صباح الخير » . ورددت على هذه التحية بجملة عربية مماثلة ، ولكن بلهجة دلته على أصلى . ومع ذلك فقد دعانى إلى الجلوس إلى جواره واستحضر لى النرجيلة والقهوة . وقال لى عبدالله : إنه يراك بصحبتى ، وهذا يعطيه فكرة حسنة عنك ، وسوف أقول له إنك آت لتقيم إقامة دائمة فى البلد ، وأنك على استعداد لإعداد بيتك إعداداً فخما .

ويبدو أن كلام عبد الله قد أثر تأثيراً طيبا فى عبد الكريم الذى وجه إلى بعض كلمات المجاملة بلغة إيطالية رديئة .

وكان وجه عبد الكريم الدقيق الوقور ونظرته النفاذة وحركاته الرقيقة تجعل المرء يشعر أنه من الطبيعى أن يكون هو الذى أضفى على قصره هذا

الجاه والعزة . ومع ذلك فهو يمارس فيه تجاره جد بائسة . إن به خليطاً غريباً من بشاشة الأمراء وتصميم القراصنة المجرد من الرحمة . وقد تمكن من ترويض الجوارى بذلك التعبير الثابت الصادر من عينيه الحزينتين ، وجعلهن يشعرن، حتى ولو أذاقهن العذاب ، بالأسف إنه لم يعد سيدهن . وقلت لنفسى إن المرأة التى سأبتاعها هنا لابد أنها قد عشقت عبد الكريم ولكن لاعليك ، فقد كان فى عينيه من السحر ماجعلنى أوقن أنه من المستحيل ألا أعقد صفقة معه .

كان الفناء المربع الذى يمرح فيه عدد كبير من النوبيين والأحباش يبدى لنا عدداً كبيراً من الأقبية والدهاليز العاليا ذات الطراز الأنيق . وكانت المشربيات الخشبية الكبيرة تحيط ببهو ذى درج مزدان بأروقة مغربية ، ويصعد بنا هذا الدرج إلى أكثر الجاريات جمالا .

كان كثير من المشترين قد دخلوا فعلا وأخذوا يتفحصون الزنوج المتجمعين فى الفناء بلونهم المتفاوت فى الحلكة . كانوا يطلبون منهم المشى أمامهم ويضربون على ظهورهم وصدورهم ويجعلونهم يخرجون ألسنتهم . واحد فقط من هؤلاء الشبان، وكان يرتدى مشلحا ذا خطوط صفراء وزرقاء، وله شعر أصفر مجدول منسدل على الطريقة التى كانت تصفف بها الشعور فى العصور الوسطى ، كان يمسك بيده سلسلة طويلة يصلصل بها وهو يسير فى تيه وخيلاء . كان حبشيا من شعب جالا ، ولابد أنه أسير حرب .

كان الفناء محاطا بعدد كبير من الغرف المنخفضة التى تسكن فيها الزنجيات، كما رأيت من قبل ، وكان يبدو على أغلبهن عدم الاكتراث والخبل فيضحكن بلا مناسبة . ومع ذلك فقد كانت هناك امرأة أخرى ملتفة بغطاء أصفر ، وهى تبكى وتخفى وجهها فى عمود من أعمدة البهو . وكان صفاء السماء الحزين والنقوش الضوئية التى كانت أشعتها ترسمها وهى ترسل زواياها الطويلة فى

الفناء . كل ذلك يعترض عبثا على هذا اليأس البليغ . وشعـــرت بقلبي يملؤه الحزن .

ومررت خلف العمود ، ورغم أن وجهها كان مختفيا ، فقد رأيت أن تلك المرأة بيضاء تقريباً . وكان هناك طفل يضم نفسه إليها وهو نصف متدثر بمعطفها . ومهما بذلنا من جهد لتقبل الحياة الشرقية ، فإننا نشعر فى داخلية أنفسنا أننا فرنسيون مرهفو الحس فى مثل هذه المناسبات . وقد مرت بخاطرى لحظة فكرة شرائها لو استطعت ثم عتقها .

وقال لى عبد الله : لا تلق إليها بالا ، فهذه المرأة هى الجارية المحظية لدى أحد الأفندية ، وقد أرسلها إلى السوق عقابا لها على خطأ ارتكبته . وهم هنا يتظاهرون ببيعها هى وطفلها ، وبعد أن تمضى هنا بضع ساعات يأتى سيدها لاستلامها ، ولابد أنه غافر لها خطأها » .

وهكذا كانت الجارية الوحيدة التى تبكى هنا إنما تبكى سيدها ، أما الأخريات فكن فى قلق خوفا من البقاء مدة طويلة دون العثور على سيد . وإن فى ذلك ولا ريب ما يشهد فى صالح أخلاق المسلمين . قارن ذلك بمصير العبيد فى البلاد الأمريكية . الحقيقة أن فى مصر لا يعمل فى الأرض سوى الفلاح ، فهم لا يفرطون فى قوى العبد لأنه غالى الثمن ، وإنما يحتفظون بها للأعمال المنزلية . هذا هو الفارق الشاسع بين حالة العبيد فى البلاد التركية وحالتهم فى البلاد المسيحية .

١٣ — الجاوية

كان عبد الكريم قد تركنا لحظة ليرد على التجار الأتراك . ثم عاد إلى وأخبرنى أنه جارى إلباس الحبشيات اللاتى يريد أن يعرضهن على . وقال :

إنهن يقمن فى حريمى ويعاملن معاملة أفراد أسرتى تماماً . وزوجاتى يسمحن لهن بمشاركتهن الطعام . وفى انتظار حضورهن فسآتيك بصغار السن منهن إذا كانت بك رغبة لرؤيتهن .

وفتح باباً ، واندفعت منه فى الفناء نحو اثنتى عشرة فتاة . صغيرة نحاسية اللون . وكأنهن أطفال فى وقت فسحة المدرسة . لقد تركوهن يمرحن فى بئر السلم مع البط والدجاج البرى الذى كان يسبح فى بركة نافورة منحوته ، وهى من بقايا أبهة الوكالة المضمحلة .

وأخذت أتأمل تلك الفتيات المسكينات بعيونهن النجلاء السوداء ، وقد بدت فى ثيابهن كسلطانات صغيرات ، ولا بد أنهن قد انتزعن من أحضان أمهاتهن ليشبعن فجور أغنياء المدينة . وأخبرنى عبد الله أن كثيرات منهن لا ينتمين إلى النخاس ، وإنما يعرضن للبيع لحساب آبائهن الذين يسافرون خصيصاً إلى القاهرة من أجل ذلك ، معتقدين أنهم يهيئون لبناتهم هكذا أسعد مصير .

ثم أضاف عبدالله : « ومع ذلك فاعلم أنهن أغلى ثمناً من النساء البالغات » .

وقال عبد الكريم بإيطاليته الركيكة :

ـــ هؤلاء الفتيات الصغيرات جميلات .

وقال عبد الله ملاحظاً بلهجة العارف :

— أه أيمكن أن تطمئن وتشترى فى ثقة تامة ، فقد حسب آباؤهن حساباً لكل شىء .

وقلت فى نفسى :

— حسن ! سأترك هؤلاء الأطفال لغيرى . فالمسلم الذى يعيش طبقاً لقوانين دينه يمكنه ، بكل ما فى ضميره من قوة ، أن يكون مسئولا أمام الله عن مصير تلك الأرواح الصغيرة المسكينة . أما أنا فإنى إذا اشتريت جارية فإنما أفعل ذلك ولدى فكرة منحها حريتها حتى حريتهـــا فى أن تهجرنى .

ولحق بى عبد الكريم ، وصعد بى إلى البيت ، بينما انتظر عبد الله بدافع الحياء عند بداية السلم .

وفى قاعة فسيحة ذات نقوش منحوته تزيد فى فخامتها الكتابات العربية المخطوطة والمذهبة رأيت خمس نساء على شىء من الجمال ، وقد اصطففن محاذيات للحائط . وكان لون بشرتهن يذكرنى ببريق برونز فلورنسا . كانت وجوههن منتظمة وأنوفهن مستقيمة وأفواههن دقيقة . وكان شكل رؤوسهن البيضاوى الكامل واستقامة رقابهن الرشيقة وصفاء ملامحهن يضفى عليهن شكل أولئك القديسات الإيطاليات المصورات اللاتى شحب لونهن مع الزمن . كن حبشيات مسيحيات ، وربما كن من سلالة القسيس يوحنا أو الملكة كانداس(١) .

وكان الاختيار شاقاً ، فقد كن متشابهات جميعاً ، كما يحدث لدى هذه الأجناس البدائية . ولما لاحظ عبد الكريم حيرتى وأعتقد أنهن لم يرقن لى أمر بإدخال واحدة أخرى ذهبت بخطى متكاسلة ، واتخذت مكانها إلى جوار الحائط .

---

(١) ملكة حبشية قديمة اشتهرت بالجمال .

وصدرت منى صيحة حماس ، فقد تعرفت على العين اللوزية الشكل والجفن المائل المميز للجاويات ، وكنت قد رأيت بعض رسومهن فى هولندا . لا بد أن تلك المرأة تنتمى ، من ناحية التكوين ، إلى الجنس الأصفر . ولست أدرى أى ميل إلى الأشياء الغريبة غير المتوقعة دفعنى فلم أستطع أن أحمى نفسى ، فقد جعلتنى أتخذ قراراً فى صالحها . كانت جميلة جداً قد فصل جسمها تفصيلا متيناً بشكل لا يدع مجالا للخوف من كثرة الإعجاب بها . كان بريق عينها المعدنى ، وبياض أسنانها ، ورخص يدها ، وطول شعرها ذى اللون البنى الغامق الذى أرونى إياه عندما رفعوا طربوشها ، كل ذلك لا يدع مجالا للاعتراض على المديح الذى كان عبد الكريم يعبر عنه بصياحه : « حسن ، حسن » .

ونزلنا وأخذنا نتحدث يساعدنا فى ذلك عبد الله . كانت هذه المرأة قد وصلت الليلة البارحة إثر القافلة ، ولم تحضر لدى عبد الكريم إلا منذ ذاك الوقت . وكانت قد احتفظت فى صغرها فى الأرخبيل الهندى بواسطة قرصان إمام مسقط .

وقلت لعبد الله :

— ولكن إذا كان عبد الكريم قد وضعها أمس مع نسائه . . .

— حسن . . .

ورأيت أن ملاحظتى لم تبد له على شىء يذكر من الأهمية .

وأخيراً فهم عبد الله قصدى فقال :

« أتظن أن نساءه الشرعيات سيتركنه يغازل غيرهن ؟ . . وفوق ذلك فهو تاجر ، ولو فكرت فى الأمر جيداً لأدركت أنه لو عرف عنه ذلك يفقد عملاءه جميعاً .

وكانت تلك حجة وجيهة . ثم لقد أقسم لى عبد الله أن عبد الكريم ، كمسلم مخلص ، لا بد أن يكون قد قضى الليل فى الصلاة فى المسجد نظراً لقداسة يوم مولد النبى .

ولم يبق إلى الكلام فى الثمن . وطلب منى خمسة أكياس (أى ستمائه وخمسةوعشرين فرنكا) . وراودتنى فكرة الاكتفاء بدفع أربعة أكياس . ولكن لما فكرت أنى أساوم على امرأة بدت لى هذه الفكرة غير نبيلة . وفوق ذلك فقد أرانى عبد الله أن النخاس التركى لا يعرض أبداً ثمنين مختلفين .

وسألت عن اسمها ، واشتريت الاسم كذلك بطبيعة الحال ، وقال لى عبد الكريم :

— ز ن ب . وكرر عبد الله ذلك باذلا جهداً كبيراً لربط الحروف بصوت صادر من الأنف : ز ن ب .

ولم أستطع أن أفهم أن منطوق ثلاثة حروف ساكنة بصوت صادر من الأنف يمكن أن يكون اسماً . وكان لابد لى من بعض الوقت ، لكى أحدس أن ذلك من الممكن أن ينطق به : زينب .

وغادرنا عبد الكريم بعد أن قدمنا له العربون ، وذهبنا لنأتى بالمبلغ الموجود لحسابى لدى صاحب بنك من بنوك الحى الافرنجى . وعندما عبرنا ميدان الأزبكية شاهدنا منظراً ممعناً فى الغرابة . كان هناك جمهور كبير قد تجمع لرؤية الدوسة . وفيها يمر شيخ القافلة أو أميرها ، وهو على ظهر حصانه ، على أجسام الدراويش الدوارة والصائحين الذين كانوا منذ البارحة يتدربون حول السوارى وتحت الخيام . كان هؤلاء التعساء منبطحين على بطونهم على أرض الطريق الموصل إلى منزل الشيخ البكرى ، رئيس

الدراويش جميعاً ، والذى يقع فى الطرف الجنوبى من الميدان ، مكونين بذلك طريقاً مرصوفاً بأجساد بشرية تبلغ حوالى الستين جسداً .

وكانت هـذه الطقوس تعتبر معجزة يقصد بها إقناع غير المؤمنين . ولذا فهم يتركون الإفرنج عن طيب خاطر يجلسون فى الأماكن الأولى . وكما قال الأديب هنرى هين (Henri Heine) إن المعجزة العامة قد أصبحت شيئاً نادراً منذ أن تنبه الإنسـان إلى النظر فى أحكام الإله (أى منذ أخذ الإنسان يتفحص كل شىء بدقة) .

وإذا كان هـذا الشيخ إلهاً فهو إله مشكوك فى ألوهيته . وقد رأيت بعينى رأسى شيخ الدراويش ، وقد تدثر بغطاء أبيض وتعمم بعمامة صفراء وقد أخذ يمر فوق أحشاء الستين مؤمناً التصق بعضهم بالبعض غير تاركين أى فراغ بينهم ، وقد عقدوا أذرعهم تحت رؤوسهم . وكان الحصـــان ذا حدوات حديدية . وبعد ذلك نهضوا جميعاً صفاً واحداً وهم يصيحون : الله ! .

وتدعى العقول الناضجة فى الحى الإفرنجى أن هذه الظاهرة تماثل الظاهرة التى كانت تجعل المتشنجين قديماً يتحملون ضربات حديد المدفأة على بطونهم . إن حالة الانتشاء التى يكون فيها هؤلاء الناس تخلق عندهم المقدرة العصبية التى تزيل شعورهم بالألم وتزود أعضاءهم بقوة عجيبة على المقاومة .

ولا يقبـل المسلمون هـذا التعليل . ويقولون إن الحصان قد مر فوق الزجاج وفوق القوارير دون أن يكسر شيئا منها .

إن هذا المشهد هو ما كنت أود رؤيته . ولم يكن يكفينى أقل من هذا المشهد لكى أنسى لحظة ما حصلت عليه . وفى المساء نفسه عدت إلى بيتى فى الحى القبطى ظافراً تصحبنى الجارية المحجبة . وكان الوقت مناسباً ، فقد

كان ذلك هو آخر يوم للمهلة التى منحنى إياها شيخ الحى . وكان يتبعها خادم من الوكالة ومعه حمار يحمل صندوقاً أخضر .

لقد أحسن عبد الكريم التصرف ، فقد كان فى الصندوق ثوبان كاملان . وقال لى :

ــ إنهما لها ، وقد آلا إليها من شيخ فى مكة كانت فى حوزته ، وهما الآن لك » .

إنه لا يمكن للمرء أن يصادف أسلوباً فى التصرف أكثر رقة من ذلك !

فهرست الجزء الأول

صفحة

صفحة



الجزء الثاني

نساء القاهرة

٣ — الحريم

١ — الماضى والمستقبل

لم أندم أبداً على أنى استقررت بعض الوقت فى القاهرة ، وأنى جعلت من نفسى ، فى جميع علاقاتى مواطناً لتلك المدينة ، إذ أن هذه ، دون أدنى ريب ، هى الطريق الوحيدة لفهمها ولحبها . والرحالة فى العادة لا يمنحون أنفسهم الوقت الكافى للتغلغل فى حياة المدينة الخاصة أو للتعمق فى جمال مناظرها وما تحويه المدينة من متناقضات وذكريات . ومع ذلك فالقاهرة هى المدينة الشرقية الوحيدة التى فى مقدورك أن تعثر فيها على طبقات العصور التاريخية الكثيرة المتميزة كل منها عن الأخرى . فلا بغداد ولا دمشق ولا القسطنطينية قد احتفظت بشىء من مواضيع الدراسة والتفكير تلك . وفى المدينتين الأوليين لا يصادف الأجنبى سوى أبنية هشة من الآجر واللبن ؛ ولا يرى الزخارف الرائعة إلا فى الأبنية من الداخل ، إلا أن تلك الزخارف لا تخضع أبداً لما للفن الجاد والخلود الباقى من شروط . والقسطنطينية بمنازلها الخشبية المطلية تتجدد كل عشرين عاماً ، ولا تحتفظ إلا بطابع وحيد الشكل من القباب المائلة للزرقة والمآذن البيضاء . أما القاهرة فإنها تدين لمحاجر المقطم التى لا تنضب وللصفاء الدائم الذى يسود جوها ببقاء آثارها التى لا حصر لها . ويرتبط عهد الخلفاء والسلاطين وسلاطين المماليك بطبيعة الحال بطرائق مختلفة فى فن العمارة لا تحتفظ منها أسبانيا وصقلية جزئياً إلا بالطبعة الحديثة لها أو بنماذج منها . إن عجائب الفن المغربى فى غرناطة وقرطبة لتعلق فى كل خطوة نخطوها فى شوارع القاهرة بذاكرتنا ، وذلك بسبب باب مسجد أو شباك أو مئذنة أو كتابة بالخط

العربى ، يحدد طابعها أو طرازها بدقة تاريخها البعيد . إن المساجد وحدها كفيلة بأن تقص علينا تاريخ مصر الإسلامية بأسره . ذلك أن كل أمير قد شيد على الأقل مسجداً واحداً ، وكان يهدف بذلك إلى حفظ ذكرى عصره وعظمته عبر الأجيال القادمة حتى أبد الآبدين . فهذا هو عمرو ، وذاك هو الحاكم أو ابن طولون أو صلاح الدين أو بيبرس أو برقوق .

وهكذا تبقى أسماؤهم محفوظة فى ذاكرة هذا الشعب ، ومع ذلك فإن أقدم هذه الآثار لم يعد إلا جدرانا متداعية أو أسواراً محطمة .

ومسجد عمرو ، وهو أول مسجد يشيد بعد فتح مصر ، أصبح اليوم مهجوراً بين المدينة الجديدة والمدينة القديمة . ولم يعد هناك ما يحمى هذا المسجد ، الذى كان فيما مضى محاطا بالتبجيل ، من أن يدنس . ولقد جبت غابة الأعمدة التى مازالت قبة المسجد العتيقة تستند إليها ، واستطعت أن أصعد إلى منصة الإمام المنحوتة ، والتى يرجع تاريخها إلى العام الرابع والتسعين للهجرة ، وقيل إنه ليس هناك أجمل ولا أنبل مظهراً منها سوى منصة النبى . وكذلك مررت بدهاليز المسجد وتعرفت ، وسط رحبته ، على المكان الذى كانت تقام فيه خيمة قائد الخليفة عمر بن الخطاب وقت أن واتته فكرة بناء القاهرة القديمة .

ويروى أن يمامة جاءت وبنت عشها فوق الخيمة ، فلم يشأ عمرو ، وهو قاهر مصر اليونانية وقد فرغ فى الحال من قهر الإسكندرية ، أن يقلق ذلك الطائر الرقيق . وبدا له كأن مشيئة السماء قد أحاطت بذلك الموضع . فأمر أولا بإقامة مسجد حول خيمته ثم مدينة حول المسجد تسمت باسم الفسطاط أى الخيمة . واليوم لا يدخل هذا الموضع فى حدود المدينة ، وإنما يقع ، كما تصوره التآريخ فى الماضى ، وسط الكروم والحدائق وغابات النخيل .

وقد وجدت مسجد الخليفة الحاكم فى حالة ليست أقل من ذلك إهمالا . بيد أنه يقع فى طرف آخر من مدينة القاهرة داخل إطار جدران المدينة بالقرب من باب النصر . وقد أنشىء هذا المسجد بعد الأول بثلاثة قرون ، ولكنه يرتبط بذكرى بطل من أغرب الأبطال فى العصور الوسطى الإسلامية . فإن الحاكم ، الذى يطلق عليه مستشرقونا القدامى اسم «شاكامبريل» ، لم يكفه أن أصبح ثالث الخلفاء الإفريقيين ، ووارث كنوز هارون الرشيد بطريق الغزو ، والسيد المطلق لمصر والشام ، فإن العظمة والثروة قد اصابتاه بدوار حوله إلى شبيه لنيرون أو لهليوجابال . وكما فعل الأول أشعل الحاكم النار فى عاصمته فى يوم من أيام نزواته ، وكما فعل الثانى نادى الحاكم بنفسه إلها وخطط ورسم عقيدة اعتنقها جزء كبير من شعبه ، وهى التى أصبحت عقيدة الدروز . والحاكم هو آخر ملهم ، أو إذا شئت آخر إله ، عاش على الأرض ومازال يحتفظ بعدد من المؤمنين يزداد كثيراً أو قليلا . وإن المنشدين والرواة بمقاهى القاهرة ليقصون عنه آلاف المغامرات . ولقد أرونى ، فوق قمة من قمم المقطم ، المرصد الذى كان يذهب إليه ليستطلع الكواكب . ولذلك فإن أولئك الذين لا يؤمنون بألوهيته يصورونه على الأقل ساحراً قديراً .

ولقد عبث التخريب بمسجده أكثر مما فعل بمسجد عمرو ، فجدرانه الخارجية وبرجان من أبراجه أو مآذنه المشيدة فى زواياه هى وحدها التى تعرض لنا هياكل هندسية من المستطاع التعرف على ماهيتها . إنها من العهد الذى يقابل أقدم الآثار الأسبانية . أما اليوم فإن إطار المسجد الغارق فى التراب والذى انتثرت فوقه الأنقاض يحتله بعض الفتالين الذين يجدلون القنب فى هذا المكان الفسيح . وقد حلت عجلتهم بصوتها الرتيب محل همهمة المصلين . ولكن هل ما شيده المؤمن عمرو بن العاص أقل إهمالا مما أنشأه الحاكم المارق الملحد الذى يمقته المسلمون الصادقون ؟ إن مصر الهرمة ، وهى سريعة

النسيان بقدر ما هى سريعة التصديق ، قد طوت تحت ترابها كثيرين غيره من الأنبياء أو الآلهة .

ولذا فإن الأجنبي فى هذا البلد لا يخشى من التعصب للدين ولا للجنس الذى يصادفه فى الأجزاء الأخرى من الشرق ؛ لأن الغزو العربى لم يقدر على تحويل أخلاق شعوبها إلى هذا الحد . ولا عجب أفليست هى الأرض الأم العتيدة التى تشعر أوربا أن أصولها ، من خلال العالمين اليونانى والرومانى ترجع إليها ؟ إن الدين والأخلاق والصناعة كلها قد انطلقت من هذا المركز الغامض السهل المنال فى آن واحد ، ذلك النبع الذى نهل منه عباقرة العصور الأولى الحكمة ونقلوها إلينا . لقد كانوا يهرعون ، والهلع يملؤهم ، إلى تلك المحاريب الغريبة التى كانت تدبر فيها مصائر الناس ، ثم يخرجون منها وقد أحيطت جباههم بهالة من الأنوار الإلهية ، لكى يوحوا إلى شعوبهم بتقاليد ما قبل الطوفان التى تنتمى إلى أيام العالم الأولى . هكذا كان «أورفيوس» و «موس» ، وذلك المشرع الذى تقل معرفتنا به عن هؤلاء ، والذى يسميه الهنود «راما» . لقد كانوا جميعاً يحملون نفس القدر من التعاليم والعقائد التى مهما تباينت باختلاف المكان والجنس ، فإنها كانت فى كل مكان تقيم حضارات باقية . إن مايضفى على العصور القديمة سمتها هو فكرة العمومية هذه بالذات ، بل وحتى فكرة الجهاد فى سبيل نشر الدعوة التى لم تقلدها روما إلا فى سبيل نشر نفوذها وعظمتها . إن شعباً ينشىء آثاراً لا تهدم ليحفر عليها كل طرائق الفن والصناعة ويتحدث إلى الأجيال القادمة بلغة بدأت تلك الأجيال تفهمها ، ليستحق بكل تأكيد أن يعترف له الناس جميعاً بالجميل .

٢ ــ الحيـاة الخاصة

فى موسم الخماسين

استفدت ، بالانهماك فى الدراسة والقراءة إلى أكبر حد ممكن ، من أيام البطالة الطويلة التى كان يفرضها على موسم الخماسين . فمنذ الصباح يصير الهواء حارقا مثقلا بالأتربة ، ونظل خمسين يوما كلما هبت علينا فيها رياح الجنوب نجد من المستحيل علينا الخروج من المنازل قبل الساعة الثالثة مساء ، وهى الساعة التى ينشط فيها النسيم الآتى من البحر .

ويبقى الناس فى الغرف السفلى المزينة بالقيشانى والرخام ترطب جوها النافورات . ومن الممكن قضاء سحابة اليوم كذلك فى الحمامات وسط الضباب الدافىء الذى يملأ مساحتها الواسعة ، والتى تشبه قبابها المثقبة السماء المزدانة بالنجوم . إن أغلب تلك الحمامات تعتبر آثارا حقيقية ، ومن الممكن تحويلها بسهولة إلى مساجد أو كنائس . وهى بيزنطية الطراز . وقد تكون الحمامات اليونانية هى أول ما أوحى بنماذجها . ووسط الأعمدة التى تستند إليها القبة الدائرية توجد مقصورات صغيرة من الرخام تستخدم نافوراتها وصنابيرها الأنيقة فى الاغتسال بالماء البارد . ولك إما أن تختلى بنفسك أو أن تنضم إلى مجموع الناس . وهم ليسوا بادى المرض كما هى حال جماعات المستحمين عندنا ، وإنما يتكونون عادة من أناس أصحاء من سلالة طيبة وقد التفوا على الطريقة القديمة بقطعة طويلة من الكتان . وإن هياكلهم لتبدو غامضة وسط الضباب اللبنى الذى تخترقه الأشعة البيضاء الصادرة من القبة . ويمكننا أن نتصور أنفسنا فى جنة عامرة بالأشباح السعيدة . ولكن المطهر فى انتظارك فى القاعات المجاورة . فهناك توجد أحواض مليئة بماء يغلى يتعرض فيها المستحم لأنواع شتى من الطهو . وفيها ينهال عليك خدم ذو هيئة مروعة ،

قد تسلحت أيديهم بقفازات من الشعر ، وينتزعون بالفرك من جلدك أسطوانات مجزأة طويلة يدهشك سمكها ، حتى لتخشى أن يتآكل جسمك تدريجيا كآنية بولغ فى تلميعها . ومع ذلك ففى إمكان المرء أن يخلص نفسه من تلك الإجراءات ، وأن يكتفى بالنشوة التى يسببها الجو الرطب فى القاعة الكبيرة للحمام . وإن تلك الحرارة الصناعية لذات فاعلية غريبة فى الإراحة من الحرارة الأخرى . إن النار السفلى للإله « فتاح » تحارب الحرارة الشديدة التى يرسلها الإله السماوى « حوريس » . هل تتكلم كذلك عن لذة التدليك والراحة اللطيفة التى تتذوقها على تلك الأسرة المرصوصة حول دهليز مرتفع ذى درابزين ، وهو يطل على مدخل الحمام ؟ إن القهوة وعصير الفواكه والنرجيلة تعترض هذه السنة الخفيفة من نوم القيلولة أو لعلها تهيئنا لها . وإن تلك الغفوة الخفيفة وسط النهارذات قيمة كبيرة بالنسبة لأهل المشرق .

ومع ذلك فرياح الجنوب لا تهب هبوبا دائما فى أثناء موسم الخماسين ، وإنما كثيرا ما تتوقف أسابيع برمتها ، وتتركنا نتنفس الصعداء بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . وحينئذ تستعيد المدينة طابعها النابض بالحياة وتنتشر الجماهير فى الميادين والحدائق ويغص ممر شبرا بالمتنزهين . وتذهب المسلمات المحجبات للجلوس فى أكشاك النزهة وعلى شواطىء النافورات ووسط المقابر التى تتخللها الأماكن الظليلة . وهناك يستسلمن للأحلام طيلة النهار ويحيط بهن أطفالهن الفرحون ، بل وإن الطعام ليؤتى به إليهن فى هذا المكان ، إن نساء الشرق يلجأن إلى وسيلتين كبيرتين للهرب من وحدة الحريم ، أولاهما المقابر ، حيث يجدن دائما أحدا يبكينه ، والحمام العام الذى تضطر تقاليد أزواجهن إلى تركهن يذهبن إليه مرة فى الأسبوع على الأقل .

وإن هذه المعلومة الصغيرة التى كنت أجهلها ، كانت بالنسبة لى مثارا لبعض المضايقات . وينبغى أن أحذر منها من قد يميل إلى أن يحذو حذوى

من الأوربيين . فما إن عدت من السوق بالجارية حتى وجدت نفسي محاصراً بطائفة من الأفكار التي لم تكن قد خطرت بفكري قبل ذلك . فالخوف من تركها يوما آخر وسط نساء عبد الكريم جعلني أعجل في اتخاذ قراري. وهل أقولها بصراحة؟ إن أول نظرة ألقيتها عليها كانت ذات أثر شديد .

هناك شيء ما شديد الإغراء في المرأة التي تنتمي إلى بلد بعيد وغريب وتتكلم لغة مجهولة . إن ملابسها وعاداتها تؤثر فينا لا لشيء إلا لغرابتها . ثم إنه ليس بها أي شيء من ذلك الابتذال الذي يخلقه تعود رؤية تفصيلات حياة المرأة كما هي الحال مع نسائنا . ولقد خضعت بعض الوقت لفتنة ذلك الطابع المحلي ، فكنت كلما استمعت إليها وهي تهذر ورأيتها وهي تعرض ثيابها المبرقشة خلتها طائراً رائع الجمال في قفص أملكه . ولكن هل تدوم تلك الانطباعات الأولى ؟

وكنت قد أحطت علما بأنه لو كان التاجر قد غشني فيما يختص بمزايا الجارية ، أو لو اكتشفت بها أي عيب مبطل لعملية البيع ، فإن أمامي ثمانية أيام لإلغاء الصفقة . ولم أكن أظن قط أنه في مقدور الأوربي أن يلجأ لتلك الطريقة غير اللائقة، حتى ولو كان قد خدع . غير أني تألمت إذ رأيت أن تلك الفتاة المسكينة كان بها تحت الشريط الأحمر الذي يحيط بجبهتها موضع حرق كبير في عرض القطعة الذهبية من فئة الخمسة جنيهات تبدأ من منبت الشعر . وكذلك كان هناك حرق آخر بنفس الشكل على صدرها . وفوق هاتين العلامتين كان هناك وشم يمثل شيئا يشبه الشمس . وكانت ذقنها كذلك موشومة بحديد رمح ، ومنخرها الأيسر مثقوبا لتزيينه بإحدى الحلقات. أما شعرها فقد كان مقصوصا ابتداء من الصدغين وحول الجبهة . وفيما عدا الموضع المحروق كان شعرها يتدلى حتى حاجبيها اللذين يزيد في طولهما خط أسود ويجمعهما معا حسب ما جرت به العادة في التزين . أما ذراعاها وقدماها المصبوغة بلون برتقالي ، فكنت أعرف ان

ذلك من أثر الحناء التى تزول بعد بضعة أيام دون أن تترك أى أثر .

ما العمل الآن ؟ إن إلباس امرأة صفراء الملابس الأوربية هو أكثر ما يدعو للسخرية والهزء . ولذلك فقد اكتفيت بالإشارة إليها بأن تترك شعرها المقصوص فى استدارة إلى الأمام ينمو . وقد أدهشها ذلك كثيراً. أما عن الحرق الموجود فى جبهتها والآخر فى صدرها ، واللذين قد يكونان نتيجة عادة ما فى بلادها ، وذلك لأنه لا يرى له مثيل فى مصر ، فإن ذلك مما يمكن إخفاؤه بواسطة حلية أو أية وسيلة من وسائل الزينة . وعلى ذلك فبعد هذا الفحص والاختبار لم يكن ثمة ما يدعو كثيرا للشكوى .

٣ – أعمال البيت

نامت الطفلة الصغيرة بينما أنا أتفحص شعرها بتدقيق المالك الذى يقلق لأن أحداً قد تسبب فى إحداث قطوع فى ملك خاص حصل عليه حديثا . وسمعت إبراهيم يصيح فى الخارج : « ياسيدى » ، تتلوها كلمات أخرى فهمت منها أن هناك زائرا قد قدم . وخرجت من الغرفة فوجدت اليهودى يوسف فى الدهليز يطلب أن يتحدث إلى . وقد لاحظ أننى لا ألح عليه فى دخول الغرفة فأخذنا نتجول وندخن خلال تجوالنا .

وقال لى :

– علمت أنهم حملوك على شراء جارية ، ولقد ضايقنى ذلك كثيراً .

– ولماذا إذن ؟

– لأنهم لابد قد خدعوك أو سرقوا منك الكثير . وهناك تفاهم دائم بين التراجمة والنخاسين فى هذا الشأن .

– إن هذا محتمل كما يبدو لى .

– لا بد أن عبد الله قد استولى لنفسه على كيس من النقود .

– وما العمل ؟

– إن تلك ليست نهاية متاعبك . فسوف تسبب لك تلك المرأة الكثير من المضايقات لدى رحيلك . وسيعرض عليك عبد الله أن يعود فيشتريها منك ، فهذا هو ما تعود عمله ، ولذلك فقد نحاك عن عقد الزواج على الطريقة القبطية ، رغم أن هذا كان أبسط كثيراً وأقل نفقات .

— ولكنك تعلم أنى كنت بصفة خاصة أخشى إتمام إحدى الزيجات التى كانت تستلزم دائما نوعا من المراسم الدينية .

— حسن ! ولماذا لم تخبرنى بذلك ؟ إذن لعثرت لك على خادم عربى يقبل أن يتزوج من أجلك بقدر ما تشاء من مرات !

وجعلتنى غرابة هذا العرض أغرق فى الضحك . ولكن المرء فى القاهرة يتعلم ألا يدهش من شىء . وإن التفاصيل التى أعطانى يوسف إياها قد علمتنى أن هناك أناسا من البؤس بحيث يقبلون عقد مثل تلك الصفقات . فإن السهولة التى يتسم بها الشرقيون فى مسائل الزواج والطلاق حسب أهوائهم ، تجعل تنظيم الأمر بهذه الطريقة من الممكن أن يحدث . ولا ينكشف الأمر إلا إذا تقدمت المرأة المعنية بالشكوى . ولكنها ، قطعا ، ليست إلا حيلة لتجنب قسوة الباشا فيما يختص بالأخلاق العامة . فإن كل امرأة لا تعيش ، بمفردها أو فى أسرتها ينبغى لها الحصول على زوج شرعى ، حتى ولو أدى الأمر إلى طلاقها فى ظرف ثمانية أيام ، اللهم إلا إذا كانت جارية وظفرت بسيد .

وأطلعت اليهودى يوسف على مدى ما كان يسببه لى مثل هـذا العرف من ثورة فقال :

— لا يهم ! . . . فمع العرب !

— فى مقدرك أن تقول كذلك مع المسيحيين .

فأضاف قائلا :

— إنه عرف أدخله الإنجليز ، فلديهم الكثير من النقود .

— إذن فهذا يكلف كثيراً ؟

ـ كان غاليا فيما مضى ، أما الآن فقد تدخلت المنافسة ، وغدا ذلك فى متناول الجميع .

هذا هو ما تنتهى إليه الإصلاحات الأخلاقية التى يحاولونها هنا . فإنهم يفسدون شعباً بأسره ، لكى يتجنبوا شرا هو قطعاً أقل من ذلك ضرراً بكثير . فمنذ عشر سنوات كان بالقاهرة راقصات كما فى الهند ، وعاهرات كما كان فى العصور القديمة . واشتكى العلماء ، ومضت مدة طويلة دون أن تحقق شكواهم أى نجاح ، لأن الحكومة كانت تجنى ضرائب على قدر من الأهمية من هؤلاء النسوة ، اللاتى انضممن فى طائفة كان الجزء الأكبر منها يقيم خارج المدينة ، فى المطرية . وأخيراً عرض أتقياء القاهرة أن يتولوا هم تسديد الضريبة المعنية .

وهكذا تم نفى هؤلاء النسوة جميعاً إلى إسنا فى صعيد مصر . واليوم تعتبر تلك المدينة من مملكة طيبة القديمة بالنسبة للأجانب الذين يصعدون أعالى النيل شيئاً شبيها بكابو مدينة المتعة فى إيطاليا . ففيها شبيهات «للاييس» «وأسبازى» ، ممن يحيين حياة البذخ ، وقد أثرين ثراء خاصا على حساب إنجلترا . وهن يمتلكن القصور والجوارى ويستطعن إقامة الأهرامات مثلما فعلت «رودرب» الشهيرة ، هذا لو كانت بدعة تركيم الحجارة فوق جسد المرء للدلالة على مجده مازالت باقية . بيد أنهن يفضلن الماس على ذلك .

وقد كنت أدرك جيداً أن اليهودى يوسف لا ينمى معرفته بى إلا لأمر فى نفسه . وإن عدم تأكدى من هذا الأمر هو الذى منعنى من إنبائه بزيارتى لأسواق الجوارى . فالأجنبى فى الشرق يجد نفسه فى وضع العاشق الساذج أو ابن العائلة كما تصورهما مسرحيات موليير . فهو يضطر إلى أن يحاور ويداور كما يفعل الخادم الماكر ماسكاريل وسبريجانى . ولكى أضع حداً لأية فاتشه حسابية من طرفه جعلت أشكو من أن ثمن الجارية قد أتى تقريباً على ما فى حافظتى .

فصاح اليهودى :

ـ يا للمصيبة ! فقد كنت أريد أن أشركك بالنصف فى صفقة رائعة كفيلة بأن ترد لك مالك مضاعفا إلى عشرة أمثاله فى خلال بضعة أيام . فنحن أصدقاء عديدون نشترى كل محصول ورق التوت فى ضواحى القاهرة ثم نبيعه بالتجزئة بالثمن الذى نريد إلى من يقومون بتربية دودة القز . ولكنا فى حاجة إلى بعض المال السائل ، وهذا هو أندر ما فى البلد ، والفائدة القانونية هى أربع وعشرون فى المائة . ومع ذلك فإن اللجوء إلى المضاربات الرزينة كفيل بمضاعفة المال .. وعلى كل حال فلنكف عن الكلام فى هذا الموضوع . ولكنى سوف أعطيك نصيحة : حيث إنك لا تعرف العربية ، فلا تستخدم الترجمان فى الحديث مع جاريتك ، فإنه لا يتورع عن أن ينقل إليها أفكاراً سيئة دون أن تشك أنت فى الأمر ، وقد تهرب منك فى خلال بضعة أيام : إن هذا أمر متوقع .

وحملنى ذلك الكلام على التفكير .

إذا كانت حراسة المرأة أمر صعب على الزوج ، فلماذا لا تكون كذلك بالنسبة للسيد ! إن هذا هو الوضع الذى كان فيه «أرنولف»(١) أو جورج داندان »(٢) كيف أتصرف إذن ؟ إن الأجنبى لا يستطيع أن يولى ثقته لا للأغا ولا للمربية . وإن منح الجارية نفس الحرية التى تتمتع بها المرأة الفرنسية طفرة واحدة لأمر يصعب فهمه . . . كيف أخرج من منزلى بمفردى ؟ وكيف أخرج برفقتها فى بلد لم ير أحد فيه امرأة مستندة إلى ذراع رجل ؟ هل يصدق أحد أننى لم أفكر فى شىء من هذا قبل ذلك .

وكلفت اليهودى بأن يطلب إلى مصطفى إعداد الغداء ، فلم أكن أستطيع بطبيعة الحال أن أصحب الجارية إلى مائدة فندق « دومرج » . أما الترجمان فكان قد ذهب ينتظر وصول عربة السويس . ذلك أنى لم أكن أشغل

---

(١) بطل مسرحية « مدرسة النساء » لموليير (٢) بطل المسرحية التى تحمل هذا الاسم لنفس الكاتب .

وقته بالدرجة التى تعوقه عن أن يصحب بعض الإنجليز فى جولة فى المدينة من حين لآخر . وحان دوره لكى أقول له إننى لم أعد أستخدمه إلا فى أيام معينة ، وأننى لن احتفظ بكل هذا الحشد الذى يحيط بى ، وحيث أنى أملك جارية فسأتوصل بسرعة إلى تبادل بضع كلمات معها وهذا يكفينى . ولما كان يظن أنه الآن أكثر من أى وقت مضى قد أصبح لاغنى عنه ، فإن هذا التصريح قد أدهشه بعض الشىء . ومع ذلك فقد انتهى بأن أخذ الأمر على محمل حسن ، وقال لى إنى أستطيع أن أجده فى فندق « واجهورن » كلما احتجت إليه .

لقد كان يتوقع دون شك أن أستخدمه كترجم حتى يستطيع على الأقل التعرف بالجارية . ولكن الغيرة شعور جد مفهوم فى الشرق ، والتحفظ فى كل ما يتعلق بالنساء أمر طبيعى ، ولذلك فإنه لم يشر إلى ذلك ولا حتى بإشارة عابرة .

ولما دخلت إلى الغرفة التى تركت فيها الجارية نائمة وجدتها مستيقظة مستندة إلى النافذة ، وهى تنظر إلى الطريق يمينا ويساراً من خلال حاجز المشربية المقام بالعرض على النافذة . كان هناك بيتان على مبعدة من البيت ، وكان بعض الشبان فى ملابسهم التركية التى ترجع إلى عصر الإصلاح يدخنون فى تراخ أمام الباب ، ولابد أنهم كانوا ضباطا تابعين لإحدى الشخصيات . وفهمت أن هناك مصدر خطر من هذا الجانب . وبحثت عبثا فى رأسى عن كلمة تستطيع أن تفهمها أنه ليس من المستحب أن تنظر إلى العسكريين فى الشارع ، ولكنى لم أعثر إلا على الكلمة العالمية « طيب » وإذا كانت تلك الكلمة هى صيحة تعجب متفائلة جديرة بتمييز روح ألطف شعب على الأرض ، فإنها لم تكن كافية إطلاقا فى هذا الموقف .

إيه أيتها النساء ! فبصحبتكن يتغير كل شىء ! لقد كنت سعيدا وراضيا وكنت أقول « طيب » فى كل مناسبة ! وكانت مصر تبتسم لى . أما اليوم

فينبغي لى أن أبحث عن كلمات قد لا تكون موجودة فى لغة تلك الشعوب سليمة الطوية . حقيقة أنى قد صادفت لدى بعض أهل البلد كلمة أو حركة نفى . فإنه إذا لم يرقهم شيء ما وهذا نادر يقولون لك « لا » مع رفع اليد فى تراخ إلى ارتفاع الجبهة . ولكن كيف أنطق « لا » بلهجة جافة وبحركة متباطئة من اليد ؟ ومع ذلك فهذا ما فعلته لعدم وجود أفضل منه . وبعد ذلك أعدت الجارية إلى الأريكة بإشارة من يدى أفهمتها أن البقاء هنا أكثر لياقة من البقاء أمام النافذة . ثم أفهمتها علاوة على ذلك ، أن موعد الغداء قد قرب ولن يتأخر .

والأمر الآن يتعلق بمعرفة ما إذا كنت سوف أسمح لها بأن تسفر عن وجهها فى حضرة الطاهى . إن ذلك يبدو لى مخالفا للعرف ، ولم يحاول أحد حتى الآن أن يراها . والترجمان نفسه لم يصعد معى حينما أرانى عبد الكريم نساءه . كان واضحا إذن أنى سأتعرض للاحتقار لو اختلف تصرفى عن تصرف أهل البلاد .

ولما أعد الغداء صاح بى مصطفى من الخارج : سيدى ، ! وخرجت من الغرفة فأرانى قدر الفخار الذى يحتــــوى على دجاجة مقطعة فى الأرز فقلت له :

— « مرحى ! مرحى ! ودخلت لكى أطلب إلى الجارية إعادة إسدال خمارها وهذا ما فعلته .

ووضع مصطفى المائدة وفرد عليها مفرشاً من الجوخ الأخضر . ولما أعد هرم البقلاوة فى صحفته أحضر الكثير من الخضراوات فى صحون صغيرة ، وأهمها القلقاس المتبل بالخل وكذلك بعض شرائح من البصل الكبير عائمة فى صلصة المسطردة . إن هذا الشخص الغامض ذو سمة لا بأس بها . وبعد ان قام بكل هذا انسحب فى احتشام .

٤ — الدروس الأولى فى العربية

لما أشرت إلى الجارية بالجلوس على كرسى (ذلك أنى لم أستطع مقاومة ضعفى واشتريت بعض الكراسى) هزت رأسها ، ففهمت أن فكرتى تدعو للسخرية بسبب قلة ارتفاع المائدة ، وعلى ذلك فقد وضعت الوسائد على الأرض واتخذت مكانى ودعوتها للجلوس فى الجهة المقابلة . لكن شيئا لم يستطع حملها على قبول ذلك ، بل كانت تدير رأسها وتضع يدها على فمها . فقلت لها : « يا طفلتى ، أتريدين أن تدعى نفسك تموتين من الجوع ؟ »

وكنت أشعر أنه من الأفضل أن أستمر فى الكلام مع تأكدى من أنها لن تفهمنى ، فهذا أفضل من الدخول فى مهزلة الإشارات الصامتة . وأجابت ببضع كلمات قد يكون معناها أنها لا تفهمنى ، وأجبت عليها قائلا : « طيب » ، وكان هذا على أية حال بداية للحديث .

كان لورد بايرون يقول عن تجربة أن خير طريقة لتعلم لغة من اللغات هى أن تعيش وحيداً لفترة ما مع امرأة . ولكن ينبغى أيضا إضافة بعض الكتب الأولية إلى ذلك ، وإلا فلن تتعلم إلا الأسماء أما الفعل فسينقصك ثم إنه من العسير جدا حفظ الكلمات دون كتابتها . واللغة العربية لا تكتب بحروفنا ، أو على أقل تقدير إن حروفنا لا تعطينا إلا فكرة ناقصة عن منطوق تلك اللغة . أما عن تعلم الكتابة العربية فإن ذلك أمر معقد بسبب حركات الوصل ، حتى أن العالم « فولنى » وجد أنه من الأبسط أن تخترع حروف أبجدية مشتركة ، ولكن ، مع الأسف ، لم يشجع غيره من العلماء على استعمالها . إن العلم يحب الصعوبات ولا يتمسك أبدا بشدة تبسيط الدراسة . وإذا كنا سوف نقدر على التعلم من تلقاء أنفسنا فماذا يكون مصير المدرسين ؟

وفوق ذلك فقد قلت لنفسى : إن تلك الفتاة ، وهى من مواليد جاوة ، قد تكون من معتنقى الديانة الهندية . وهى قطعا لا تتغذى إلا بالفواكه والأعشاب فأتيت بحركة من حركات العبادة وأنا أنطق اسم براهما بلهجة استفهامية ، فلم يبد عليها أنها فهمت شيئا . لابد إذن أن نطقى كان رديئا . وأخذت أعدد كل ما أعرفه من أسماء تتصل بهذه الطريقة فى فهم تكوين العالم فكنت كما لو كنت أتحدث الفرنسية . وبدأت آسف لأنى صرفت الترجمان ، بل وحنقت على النخاس لأنه باعنى هذا العصفور الذهبى دون أن يخبرنى ماذا أقدم له من طعام .

وقدمت لها خبزا جافا ، ومن أجود ما يصنع فى الحى الإفرنجى . فقالت بلهجة حزينة : « مفيش » وهى كلمة مجهولة لدى. أثار نطقها الحزن فى نفسى كثيراً . وحينئذ عاد بى الفكر إلى الراقصات الهنديات المسكينات اللاتى كن قد جلبن إلى باريس منذ بضع سنوات ، واللاتى رأيتهن فى أحد بيوت « الشانزليزيه » . إن هؤلاء الهنديات لا يتناولن إلا الأغذية التى يعددنها بأنفسهن فى أوان جديدة . وطمأنتنى هذه الذكرى قليلا فقررت أن أخرج ، بعد تناول الطعام ، بصحبة الجارية حتى أجلو ما غمض حول تلك النقطة .

إن عدم الثقة التى أوحى إلى بها اليهودى من ناحية الترجمان كان تأثيرها الثانى على أن اتخذت جانب الحيطة منه هو . وهذا هو ما أوصلنى إلى هذا الوضع التعس .كان ينبغى إذن أن أختار مترجما موثوقا به حتى أستطيع على الأقل توثيق صلتى بمن ملكت يداى . وفكرت لحظة فى السيد جان ، المملوك ، وهو رجل فى سن الوقار . ولكن كيف السبيل إلى إحضار تلك المرأة إلى الملهى ؟ ومن جهة أخرى لم أكن أستطيع تركها فى المنزل مع الطاهى و « البربرى » لحين ذهابى لاستدعاء السيد « جان » . وإذا أمرت هذين الخادمين الخطرين بالمكث خارج البيت ، أيكون من الحذر ترك

الجارية بمفردها فى مسكن مقفل بقفل من الخشب ؟

ورن صوت أجراس صغيرة فى الشارع . ورأيت من خلال ثقوب النافذة راعيا من رعاة الماعز فى قميص أزرق ، وهو يقود بعض الماعز فى اتجاه الحى الإفرنجى . فأريته للجارية التى قالت لى مبتسمة :

« أيوه » ، وهذا ما ترجمته بكلمة « نعم »

ودعوت الراعى ، وهو صبى فى الخامسة عشرة قد لفحت الشمس بشرته ، وكان ذا عينين كبيرتين وأنف كبير شبيه بأنف أبى الهول وشفة سميكة . لقد كان من أنقى سلالات الجنس المصرى . ودخل الفناء مع دوابه وأخذ فى حلب إحداها فى إناء من الصينى الجديد كنت قد أريته للجارية قبل أن يستعمله الراعى . وكررت تلك الكلمة : « أيوه » . ومن أعلى الدهليز كانت تتأمل ، رغم تحجبها ، مهارة الراعى .

كل ذلك كان بسيطا كقصيدة رعوية ، حتى أنى وجدت من الطبيعى جداً أن توجه له هاتين الكلمتين : « تعال بكره » ، وفهمت أنها لابد تطلب منه أن يعود فى اليوم التالى . ولما امتلأ الإناء نظر إلى الراعى بطريقة وحشية وهو يصيح : « الفلوس » ، « النقود » وكنت قد اختلطت بالمكارين ما فيه الكفاية لأفهم أن ذلك يعنى : « أعطنى نقوداً » ، ولما سددت إليه حقه صاح ثانية : بقشيش ! وهو تعبير محبب جدا إلى المصرى الذى يطلب البقشيش بمناسبة وبدون مناسبة . وأجبته : « تعال بكرة » ! كما قالت الجارية ، وابتعد راضيا . إن هذه هى الطريقة التى نتعلم بها اللغة تدريجيا .

واكتفت بشرب ما أمامها من لبن دون أن تضيف إليه الخبز ، ومع ذلك فإن تلك الوجبة الخفيفة قد بعثت الطمأنينة فى نفسى . فقد كنت أخشى أن تكون من هذا الجنس الجاوى الذى يتغذى على نوع من الطعام

الدسم الذى قد لا يكون من اليسير الحصول عليه فى القاهرة . وبعد ذلك أرسلت فى طلب الحبر وأشرت إلى الجارية أن تأخذ معها مئزرها «الملاية» . فنظرت بشىء من الاحتقار إلى هذا المنسوج القطنى ذى المربعات ، والذى كثيرا ما ترتديه النساء فى القاهرة وقالت لى :

— « إنى أريد حبره ! »

كم يتعلم الإنسان ! فقد فهمت من ذلك أنها تطمع فى أن تلبس الحرير بدلا من القطن ، وملابس سيدات الطبقة الراقية بدلا من ملابس البورجوازيات البسيطات . فقلت لها وأنا أهز يدى وأطوح رأسى على طريقة المصريين : « الله ! الله ! »

٥ — المترجمة اللطيفة

لم تكن بى رغبة للذهاب لشراء الحبرة ولا للقيام بنزهة قصيرة . فقد خطرت لى فكرة أنه لو أننى اشتركت فى قاعة المطالعة الفرنسية ، فإن مدام بونوم الرقيقة سوف تقبل عن طيب خاطر أن تقوم لى بدور المترجم فى تفاهمى الأول مع أسيرتى الشابة .

ولم أكن قد رأيت مدام بونوم إلا فى عرض الهواة الذى سبق أن تحدثت عنه والذى افتتح به الموسم فى مسرح القاهرة . ومع ذلك فإن « الفودفيل » الذى قامت بتمثيله قد أضفى عليها فى نظرى ، صفات شخصية ممتازة خـــدوم . فالمسرح من خصائصه أنه يوهمك أن تعرف المرأة التى تجهلها ، معرفة وثيقة . وهذا هو سبب العواطف الجامحة التى توحى بها الممثلات ، فى حين لا يتعلق الناس ، عموماً بنساء لم يروهن إلا من بعيد .

وإذا كانت الممثلة تتمتع بميزة عرض مثل أعلى أمام الجميع ، مثل يفسره خيال كل منهم ويحققه كما يحلو له ، فلماذ لا نسلم باستعداد هذه التاجرة الجميلة ، بل إذا شئت هذه التاجرة الفاضلة ، للقيام بهذه المهمة الخيرة ، والتى يمكن أن نعتبرها تدريبية ، والتى تتيح للأجنبى علاقات مجدية سعيدة ؟

وإنا لنعرف إلى أى حد سعد « يوريك » ، وهو شخص مجهول كان نهبا للقلق وسط خضم الحياة الباريسية عند استضافته صانعة القفازات اللطيفة المجاملة . ولكن كم يحقق مثل ذلك اللقاء مزيدا من الفائدة فى مدينة من مدن الشرق ؟ .

وقبلت مدام بونوم بكل ما يلزم من رقة وأناة أن تقوم بدور المترجم

بين الجارية وبينى . ولما كان هناك بعض الناس بقاعة المطالعة فقد أدخلتنا دكانالأدوات الزينةوغيرهامن الأدوات ملحقا بالمكتبة . وفى الحى الأفرنجى يبيع جميع التجار كل شىء . وبينما كانت الجارية المأخوذة تتفحص فى نشوة روائع الترف الأروبى قمت أنا بشرح وضعى لمدام بونوم . وكانت هى الأخرى تملك جارية سوداء كنت أسمعهامن حين لآخر تصدر إليها الأوامر باللغة العربية .

ولقد كانت قصتى مثار التشويقها . ورجوتها أن تسأل الجارية عما إذا كانت سعيدة لأنها فى حوزتى ، فأجابت :

ـــ « أيوه » (نعم) . وأضافت إلى توكيدها هذا أنه يسعدها أن تلبس كما تلبس الأروبيات . وأثارت هذه الرغبة ابتسامة مدام بونوم التى ذهبت وأحضرت قبعة من التل محلاة بالشرائط وثبتت وضعها على رأس الجارية وينبغى أن أعترف أن ذلك لم يكن مناسبا لها تماماً ، فإن بياض القبعة كان يجعلها تبدو مريضة . وقالت لها مدام بونوم :

ـــ « يا طفلتى ، ينبغى أن تظلى كما أنت ، فالطـــربوش أكثر ملاءمة لك » .

ولما لم تعدل الجارية عن القبعة إلا بصعوبة ، فقد ذهبت وأتت لها بالغطاء الذى تضعه اليونانيات على رءوسهن (تا كتيكوس) . وهو ذو طرف معرج مذهب ، وكان تأثيره هذه المرة أحسن . وشعرت أن هناك رغبة خفية لدى مدام بونوم لحثنا على الشراء ، ومع ذلك فقد كان الثمن معتدلا رغم ما بالغطاء من دقة صنع رائعة .

ولما تأكدت هكذا من حسن النية المزدوج لدى السيدة ، طلبت منها أن تقص على فى تفصيل مغامرات هذه الفتاة اللطيفة . وكانت قصتها تشبه كل قصص الجوارى ، تشبه قصة « اندريانا » لتيرانس، وتشبه مد موازيل

أبيه ... وطبيعى أننى لم أكن أطمع فى الحصول على الحقيقة كاملة . إنها وليدة أبوين من النبلاء ،وقد اختطفت وهى صغيرة من على شاطىء البحر. وقد يبدو هذا بعيدا عن التصديق اليوم فى البحر الأبيض ، أمامن وجهة نظر بحار الجنوب فإنه يظل محتملا ... ثم من أين عساها قد قدمت ؟ فليس هناك شك فى أنها من الهند الشرقية ، فرعايا الإمبراطورية العثمانية لا يمكن أن يباعوا مهما كان السبب . وكل من لم يكن أبيض أو أسود ،فيما يختص بالجوارى والعبيد ، لا يمكن إلا أن يكون من الحبشة أو الأرخبيل الهندى .

وكانت قد بيعت لشيخ طاعن فى السن من مكة . ولما مات هذا الشيخ اصطحبها تجار القافلة وعرضوها للبيع فى القاهرة .

كل هذا كان طبيعيا جداً ، وكنت سعيدا حقا لأنها لم تكن ملكا لأحد غيرى إلا هذا الشيخ الذى أثلجه الهرم . وقالت لى مدام بونوم :

— « إنها فى الثامنة عشرة ولكنها ناضجة جداً ، ولو لم تكن من جنس لا يرى هنا كثيرا لدفعت فيها أكثر مما دفعت . إن الأتراك قوم عادات ، وهم يرغبون الحبشيات والسوداوات . وتأكد أن النخاسين قد مروا بها من مدينة إلى أخرى دون أن يتمكنوا من التخلص منها » .

فقلت لها :

— حسن ! معنى هذا أن القدر كان يريد أن أمر بهذا المكان ، وكان مقدرا لى أن أكون ذا تأثير فى حظها سواء أكان حسنا أم تعساً .

وقد نقلت السيدة هذه الطريقة فى فهم الأمور ، ذات الصلة بالقضاء والقدر الشرقيين ، إلى الجارية التى ردت عليها مؤمنة على قولها .

وسألتها ، عن طريق السيدة ، عن السبب الذى جعلها تمتنع عن الأكل

فى الصباح ، وعما إذاكانت تعتنق الديانة الهندية . فقالت لى مدام بونوم بعد تبادلت معها الحديث :

— كلا إنها مسلمة ، ولم تأكل اليوم لأنه يوم صيام حتى غروب الشمس .

وأسفت لأنها لاتنتمى إلى العقيدة البرهمانية التى كنت دائما أشعر نحوها بشىء من الضعف. أما عن لغتها فكانت العربية الصحيحة ، ولم تحتفظ من لغتها الأصلية إلا بذكرى بعض الأغانى التى منيت نفسى بأن أطلب إليها ترديدها .

وقالت لى مدام بونوم :

— والآن ، ماذا تفعل لكى تتحدث معها؟

فقلت :

— إنى ، ياسيدتى ، أعرف كلمة يبدو معها المرء راضيا عن كل شىء . فدلينى ، بربك على كلمة أخرى تدل على العكس ، وسيعوض ذلك فى مابقى من نقص فى انتظار أن أزداد علماً .

فقالت :

أوصلت إذن إلى باب الرفض !

فأجبت .

— إن لى بعض التجارب ، وينبغى توقع كل شىء .

فقالت السيدة بونوم هامسة :

— ياللأسف ! إن تلك الكلمة المروعة هى « مفيش » وهى تضم كل وسائل النفى الممكنة .

فتذكرت حينئذ أن الجارية قد نطقت بها من قبل فى أثناء الحديث معى .

٦ - جزيرة الروضة

دعانى القنصل العام إلى القيام برحلة إلى ضواحى القاهرة . ولم يكن هذا العرض مما يرفض ، لأن القناصل كانوا يتمتعون بامتيازات وتسهيلات لا حصر لها، حتى يتمكنوا من زيارة ما يريدون من أماكن فى راحة ويسر . وفوق ذلك فقد كان ، فى هذه الرحلة سيتاح لى ركوب عربة أوربية ، وهو شيء نادر فى الشرق . فإن عربة فى القاهرة تعد ترفاً يبلغ من الجمال مبلغاً يستحيل معه استخدامه فى التجول فى شوارع المدينة . إن حق صدم الناس والكلام فى الشوارع ممنوح للعظماء فقط ومن يمثلهم ، هذا إذا سمح لهم ضيق تلك الشوارع وشكلها الملتوى بالاستفادة من هذا الحق . والباشا نفسه يضطر إلى جعل عطات عرباته قريبا من الأبواب ولا يستطيع أن يستقل عربة إلا فى منازله العديدة فى الريف . وحينئذ لا يكون هناك أشد إثارة من رؤية عربة مقفلة أو عربة خفيفة ، على آخر ما أنتج ذوق باريس أو لندن، تحمل على مقعدها سائقاً معمماً وقد أمسك السوط بإحدى يديه ، وغليونه الطويل المصنوع من خشب الكرز باليد الأخرى .

وهكذا تلقيت ذات يوم زيارة أحد الأنكشارية التابعين للقنصلية .وقد دق الباب دقات شديدة بعصاه الضخمة ذات القبضة الفضية ، وذلك حتى يشرفنى وسط سكان الحى . وقال لى إنهم ينتظروننى فى القنصلية بشأن الرحلة المتفق عليها . وكان علينا أن نرحل فى اليوم التالى لدى مطلع النهار . ولكن القنصل لم يكن يعلم أننى ، منذ زيارتى الأولى له . قد حولت مسكن الأعزب الذى كنت أعيش فيه إلى بيت للأسرة . وكنت أسائل نفسى ماذا عساى فاعل برفيقتى اللطيفة فى فترة غيابى التى تبلغ يوماً بطوله . إن اصطحابى لها يعد تصرفا غير رزين ، كما أن تركها بمفردها مع الطاهى والبواب فيه خروج على

أبسط قواعد الحرص. وحيرنى ذلك كثيراً. وأخيراً فكرت أنه ينبغى إما أن أقرر شراء بعض الخصيان أو أن ألجأ إلى من أثق به. وأركبتها حمارا، ولم نلبث أن توقفنا أمام دكان السيد جان. وسألت المملوك القديم عما إذا كان يعرف أسرة أمينة أستطيع أن أعهد بالجارية إليها لمدة يوم واحد. ودلنى السيد جان، وهو رجل ذو معين لا ينضب، على رجل قبطى يدعى منصور. ولما كان قد أدى الخدمة لمدة بضع سنوات فى الجيش الفرنسى فقد كان، بتقرير الجميع، أهلا للثقة.

وقد كان منصور مملوكا مثل السيد جان، ولكنه من مماليك الجيش الفرنسى. وكما أخبرنى كان معظم هؤلاء من الأقباط الذين تبعوا جنودنا لدى انسحاب الحملة من مصر. ولقد ألقى الغوغاء بمنصور المسكين مع كثير من رفاقه إلى البحر فى مرسيليا، لأنه ساند حزب الإمبراطور لدى عودة آل بوربون إلى الحكم. ولكن ابن النيل الحق هذا تمكن من النجاة والسباحة حتى بلغ نقطة أخرى على الشاطىء.

وتوجهنا إلى هذا الرجل الشجاع الذى كان يعيش مع زوجته فى منزل فسيح نصف متهدم. كانت الأسقف مقبية تهدد رءوس السكان. وقد انفصلت بعض تقسيمات النوافذ الخشبية من بعض مواضعها، فبدت وكأنها «دنتلة» ممزقة. ولم يكن يزين هذا المسكن القديم إلى بقايا أثاث صار، بتأثير الشمس والتراب، مقبضاً للنفس. كما يحدث عندما ينفذ المطر والوحل إلى أفقر المنازل فى مدننا. وشعرت بقلبى ينقبض وأنا أتذكر أن السواد الأعظم من سكان القاهرة يسكنون المنازل التى هجرتها الفئران حينما وجدتها غير مطمئنة. ولم تراودنى لحظة فكرة ترك الجارية، ولكنى رجوت القبطى الهرم وزوجته أن يأتيا إلى منزلى. ووعدتهما بإلحاقهما بخدمتى وبتسريح أحد خادمى الحاليين فى مقابل ذلك. وعلى كل حال فإن إنفاق قرش ونصف، أى أربعين سنتيماً عن الرأس الواحد فى اليوم لا يعتبر تبذيراً.

وبعد أن أقررت الطمأنينة فى بيتى على هذا النحو ، وأحللت به ، كما يفعل الطغاة المهرة ، أمة مخلصة مكان شعبين غير أهل للثقة كان فى استطاعتهما أن يتحدا ضدى ، لم أجد أية صعوبة فى الذهاب إلى القنصل . وكانت عربة تنتظرنى لدى الباب وقد امتلأت بالمأكولات ، ومعها اثنان من الانكشارية ممتطيان صهوتى جواديهما ليكونا فى رفقتنا . وكان يرافقنا ، خلاف أمين القنصلية ، شخص ذو مظهر جاد يرتدى الملابس الشرقية واسمه الشيخ أبو خالد . وقد دعاه القنصل ليقدم لنا ما يلزم من شرح . كان يتكلم الإيطالية فى سهولة ويعد شاعراً من أكثر الشعراء أناقة وعلماً فى الأدب العربى .

وقال لى القنصل :

— إنه ينتمى قلباً وقالبا إلى الزمن الماضى . إن الإصلاح بالنسبة له أمر مستنكر ، ومع ذلك فمن الصعب مصادفة ذهن أكثر تسامحا منه ، إنه من ذلك الجيل من العرب الفلاسفة ، بل ويحق لنا أن نسميهم الفولتيريين ، وهو جيل متميز فى مصر ولم يكن معاديا للاحتلال الفرنسى »(١) .

وسألت الشيخ عما إذا كان هناك كثير غيره من الشعراء فى القاهرة ، فأجاب :

— للأسف نحن لم نعد نعيش فى الزمن الذى كان فيه عظيم البلد يأمر ، نظير مقطوعة جميلة من الشعر ، بأن يملأ فم الشاعر بالقطع الذهبية ما استطاع ذلك الفم أن يتسع . أما اليوم فما نحن إلا أفواه لا فائدة منها . فيم يستخدم الشعر الآن ؟ أنه لا يستخدم إلا فى تسلية الدهماء فى الميادين ! .

---

(١) لم يوجد أى جيل من علماء العرب غير معاد للاحتلال ، وصداقة بعضهم لفرنسا كانت بقصد محاربة احتلال آخر أشد خطراً .

فقلت له :

ــ حسن ، إن كل هذا شبيه بما يحدث لدينا .

واستطرد الشيخ قائلا :

أما عن أشعار عنتر وأبي زيد الشهيرة فإن أحداً لا يريد الاستماع إليها،إلا فى الأعياد الدينية وبحكم العادة . ثم يا ليتنا واثقون من أنهم يفهمون ما فيها من جمال ؟ إن الناس فى زماننا لم يكونوا يعرفون القراءة . من يصدق أن أكثر الناس علماً بالعربية الفصحى اليوم هما فرنسيان ؟

فقال لى القنصل :

ــ إنه يعنى بذلك الدكتور « بيرون » والسيد « فرسنيل » قنصلنا فى جدة .

وأضاف وهو يلتفت إلى الشيخ :

ــ ومع ذلك فلديكم الكثير من علماء الدين ذوى اللحى الذين يقضون وقتهم فى مكتبات المساجد .

فقال الشيخ :

ــ أيتعلم المرء إذا كان يقضى حياته كلها يدخن نرجيلته ويعيد قراءة عدد قليل مكرر من الكتب بحجة أنه ليس هناك أجمل منها ، وأن ما بها من معرفة يفوق كل شىء ؟ من الأفضل إذن أن ننصرف عن ماضينا المجيد ، وأن نفتح عقولنا لعلم الفرنجه . . . الذين أخذوا كل شىء عنا .

وغادرنا أسوار المدينة مخلفين وراءنا بولاق وما يحيط بها من بيوت

صغيرة باسمة . وجعلنا نطوى طريقا فسيحا ظليلا قد شق وسط المزارع يخترق أرضا واسعة منزرعة يملكها إبراهيم . وإبراهيم هو الذى زرع ذلك السهل كله ، وقد كان فيما مضى مجدبا ، بأشجار النخيل والتوت والتين ، وهو يبدو اليوم وكأنه بستان . وكانت هناك أبنية كبيرة تستخدم كمصانع وتحتل قلب هذه الأراضى المنزرعة على مسافة قصيرة من النيل . ولما تجاوزناها واستدرنا يمينا وجدنا أنفسنا أمام رواق يعتبر مهبطا إلى النهر ومنه إلى جزيرة الروضة .

إن فرع النيل يبدو فى هذا الموضع وكأنه نهر صغير يسرى خلال أكشاك النزهة والحدائق . وكانت شجيرات البوص الكثيفة تحف بالضفة . وتقول القصص التاريخية المتوارثة إن هذا الموضع هو المكان الذى عثرت فيه ابنة فرعون على موسى فى مهده .

وإذا ما التفتنا ناحية الجنوب وجدنا باب القاهرة القديمة ، وإلى اليسار مبانى المقياس مختلطة بالمآذن والقباب ، وهذا الموضع هو رأس الجزيرة .

إن تلك الجزيرة ليست مقر المسكن الرائع للأمير فحسب ، بل لقد أصبحت كذلك ، بفضل عناية ابراهيم ، حديقة نباتات القاهرة . ونستطيع أن ندرك أنها لا بد أن تكون نقيضا لمثيلتها لدينا . فبدلا من حصر الحرارة فى بيوت النبات ، كما يحدث لدينا ، ينبغى هنا خلق الأمطار والبرد والضباب الصناعى حتى يتسنى حفظ نباتات قارتنا أوربا . إلا أن ماحدث هو أنهم ، من بين أشجارنا جميعا ، لم يتمكنوا إلا من تربية شجرة بلوط صغيرة ، وحتى هذه لا تعطى ثمارا . وكان إبراهيم أسعد حظا فى غرس نباتات الهند . إنها أنواع مختلفة كل الاختلاف عن نباتات مصر وتبدو شديدة الخوف فى تلك المنطقة الجغرافية . وجعلنا نتريض فى نشوة تحت ظلال أشجار التمر الهندى والباوباب . وكانت أشجار الكاكاو ذات السيقان الباسقة تهز هنا وهناك أوراقها التى تشبه أوراق الخنشار . وقد استطعت أن أميز ، وسط آلاف

من النباتات الغريبة ، بمرات من أشجار الخيزران لرشاقتها المتناهية ، وهى تكون ما يشبه الستائر، كما تفعل أشجار الحور عندنا . وكأن جدول صغير ينساب وسط الحشائش وكانت كذلك مجموعة من طيور الطاووس والنعام الأحمر تتألق وسط مجموعة أخرى من الطيور الخاصة . وكنا نستريح من حين لآخر تحت ظل فرع من أشجار أم الشعور التى ينشر جذعها ، الذى يشبه فى ارتفاعه استقامة صارى السفينة ، من حوله بسطا من الأوراق شديدة الكثافة . وهكذا كنا نخال أنفسنا فى خيمة من الحرير الأخضر . منغمسة فى الضوء الهادىء .

وبعناء كبير استطعنا انتزاع أنفسنا من هذا الأفق السحرى ، من هذا الجو المنعش وذاك العبير النفاذ وكأنما هو آت من مكان آخر من العالم كان يخيل إلينا أننا انتقلنا إليه بمعجزة . ولكن لما سرنا فى شمال الجزيرة لم نلبث أن صادفنا وجها آخر من وجوه الطبيعة يختلف كل الاختلاف عن سابقه ، لا بد أنه جعل ليكمل مجموعة النباتات الاستوائية . فوسط غابة مكونة من الأشجار ذات الأزهار التى تبدو كأنها باقات ضخمة ، ومن خلال طرق ضيقة مختفية تحت قباب من اللبلاب ، نصل إلى شبه تيه يتسلق صخورا صناعية تعلوها منظرة . ووسط الحجارة على حافة الممرات الطبيعية وفوق رأسك وتحت قدميك تتلوى وتتداخل وتنتصب وتنقبض أغرب أنواع الزواحف فى عالم النباتات . وإن القلق ليستبد بناحينا نضع أقدامنا فى معزل الثعابين وأفاعى الماء النائمة وسط هذه النباتات التى تكاد الحياة تدب فيها . وبعضها يحاكى الأطراف البشرية ويذكرنا بالتكوين المروع لآلهة الهند الأخطبوطية الشكل .

ولما وصلت إلى القمة أخذت إعجابا وأنا ألمح فوق الجيزة ، التى تحف بالضفة الأخرى للنهر ، الأهرام الثلاثة بادية بكل هيئتها ، واضحة المعالم والخطوط وسط زرقة السماء . ولم أكن قد رأيتها من قبل قط بمثل هذا الوضوح . وساعدت شفافية الجو على تمييز كل تفاصيلها رغم أنى كنت منها على بعد ثلاثة فراسخ .

ولا أشارك فولتير رأيه إذ يدعى أن أهرام مصر أقل من أن تساوى مايملك من أفران للتفريخ . ولا يتساوى لدى أبدا أن تتأملنى أربعون قرنا أولا تتأملنى . ولكن من وجهة نظر ذكريات القاهرة والأفكار العربية كان ذلك المشهد يثير لدى فى تلك اللحظة اهتماما خاصاً . فأسرعت بأن طلبت إلى الشيخ ، رفيقنا ، أن يقول ما يظنه عن الآلاف الأربعة من السنين التى ينسبها العلم الأوربى لهذه الآثار .

فاتخذ هذا الشيخ الهرم مكانه على أريكة الكشك الخشبية وقال ، لنا :

— يظن بعض الكتاب أن الأهرام قد شيدها الملك قبل الآدمى جيان ابن جيان . ولكن إذا صدقنا قصة من قصصنا المتوارثة ، وهى أكثر انتشارا عندنا ، فإنه قبل الطوفان بثلاثمائة عام ، كان هناك ملك يسمى « سوريد » ، وهو ابن سالاهوك ، الذى رأى ذات ليلة فى المنام أن كل شىء ينهار فوق الأرض ، والناس يسقطون على وجوههم والبيوت من فوقهم . كانت النجوم تتصادم فى السماء ، وتناثرت بقاياها تغطى الأرض إلى ارتفاع كبير . واستيقظ الملك فزعاً ودخل معبد الشمس وظل طويلا يبلل خديه ويبكى .

وبعد ذلك دعا إليه الكهنة والمنجمين . وأعلن إليه الكاهن أكليمان ، وهو أعلمهم جميعاً ، أنه هو الآخر قد رأى نفس الرؤيا فى المنام وقال له:

— لقد رأيت فى المنام أننى معك فوق جبل من الجبال ، ورأيت السماء قد انخفضت حتى كادت تلامس رءوسنا ، وكان الشعب يجرى نحوك فى جماعات ، كما لو كنت ملجأه وملاذه . وحينئذ رفعت يديك فوقك محاولا إبعاد السماء لمنعها من الانخفاض أكثر من ذلك . ولما رأيتك تتحرك حذوت حذوك . وفى تلك اللحظة سمعنا صوتا من الشمس يقول لنا « إن السماء ستعود إلى مكانها الطبيعى حينما أكون قد درت ثلاثمائة دورة » .

وما إن أتم الكاهن كلامه حتى أمر الملك ســـوريد بقياس ارتفاع الكواكب ومحاولة معرفة كنه الحادث الذى تنذر به. وكانت نتيجة الحساب أن طوفانا من الماء لابد أن يحدث يتلوه طوفان من النار . وهكذا أمر الملك ببناء الأهرام فى هذا الشكل ذى الزوايا الذى يستطيع أن يتحمل حتى ضربات النجوم . وجعل تلك الحجارة الضخمة مرتبطة بقضبان من حديد . وقد بلغت فى نحتها من الدقة بحيث لا نار السماء ولا الطوفان يستطيعان اختراقها . هذا هو المكان الذى كان ينبغى للملك وعظماء المملكة أن يلجئوا إليه عند الحاجة ،ومعهم كتب العلوم وصورها والطلاسم وكل مايجب الحفاظ عليه لمستقبل الجنس البشرى .

واستمعت إلى تلك الأسطورة بانتباه كبير ، وقلت للقنصل إنها تبدو أدعى إلى التصديق من الافتراض الذى قبلته أوربا، والذى يقول بأن تلك المنشئات لم تكن سوى قبور .

وقلت :

— ولكن كيف كان يتسنى لمن آووا إلى قاعات الأهرام أن يتنفسوا ؟

فاستأنف الشيخ كلامه قائلا :

— ما زلنا نرى آبارا وقنوات تختفى تحت الأرض . إن بعضها متصل بماء النيل والبعض الآخر متصل بمغارات واسعة تحت الأرض . كانت المياه تدخل بواسطة ممرات ضيقة ثم تخرج بعيدا مكونة شلالات ضخمة ومحركة للهواء تحريكا مستمرا مصحوبا بضوضاء مروعة .

ولم يتقبل القنصل ، وهو رجل واقعى ، تلك القصص الموروثة إلا بابتسامة . وكان قد انتهز فرصة توقفنا للاستراحة فى الكشك فأمر برص المأكولات التى أحضرها فى عربته على مائدة من الموائد . وأتى بستانيو

إبراهيم ليقدموا لنا الزهور والفواكه النادرة التي من شأنها أن تكمل متعتنا الآسيوية .

فني إفريقية يحلم الناس بالهند ، كما يحلمون فى أوربا بإفريقية . إن مثلنا الأعلى يشع دائماً خارج أفقنا الحقيقى. أما أنا فقد استمررت فى نهم أوجه الأسئلة إلى الشيخ الطيب ، وجعلته يقص على كل قصص آبائه الخرافية ، وآمنت معه بالملك سوريد إيماناً أعمق وأثبت من إيمانى بخوفو الإغريق وخفرعهم ومنقرعهم .

وكنت أقول له :

— وماذا عثروا فى الأهرام حينما فتحوها لأول مرة تحت حكم السلاطين العرب ؟

فقال :

— لقد عثروا على التماثيل، وكذلك على الطلاسم التى كان الملك سوريد قد أعدها لحراسة كل تمثال منها. إن حارس الهرم الشرقى كان إلهاً من الصدف الأبيض والأسود ، وكان جالساً على عرش من الذهب ، وقد أمسك بحربة لا ينظر إليها أحد إلا أدركه الموت . وكانت الروح المتعلقة بهذا الآله هى روح امرأة جميلة ضاحكة . وهى ما زالت تظهر فى وقتنا هذا وتذهب بعقل من يقابلها . أما حارس الهرم الغربى فهو إله من الحجر الأحمر ، وهو بدوره مسلح بحربة، ويضع على رأسه ثعباناً ملتفاً . والروح التى تخدمه قد اتخذت شكل نوبى هرم يحمل سلة على رأسه ويمسك بمبخرة فى يده . أما عن الهرم الثالث فإن حارسه إله صغير من البازلت على قاعدة من نفس هذا النوع من الحجارة ، وهو يجذب إليه كل من ينظر إليه فلا يستطيع منه خلاصاً . وروح هذا الإله تظهر فى شكل شاب عار غير وسيم أما عن الأهرام الأخرى فى سقارة ، فإن لكل منها كذلك شبحها : وأحد

هذه الأشباح رجل هرم أسمر يميل إلى السواد ذو لحية قصيرة ، أما الثانى فامرأة شابة سوداء تحمل طفلا أسود ، وحينما ينظر إليها أحد تكشر عن أسنان طويلة بيضاء وعينين بيضاوين ، والثالث له رأس أسد ذى قرون ، وغيره يبدو وكأنه راع يرتدى ملابس سوداء ويمسك بعصا. وغيره أخيرا يبدو فى صورة رجل من رجال الدين يخرج من البحر ، وتنعكس صورته فى الماء . ومن الخطر أن تقابل هؤلاء الأشباح ساعة الظهيرة .

فقلت له :

— وعلى ذلك فلدى الشرق أشباح النهار ، كما أن لدينا أشباح الليل .

فقال القنصل ملاحظا :

— ذلك أن كل فرد ينبغى أن ينام ساعة الظهيرة فى هذه البلاد ، وهذا الشيخ الطيب يقص علينا قصصا من شأنها أن تجلب النوم .

فصحت قائلا :

— ولكن هل تجد كل هذا أشد غرابة من كثير من الأشياء الطبيعية التى يستحيل علينا تفسيرها ؟ وما دمنا نعتقد فى الخليقة وفى الملائكة والطوفان ولا نستطيع أن نشك فى سير النجوم ، فلماذا إذن لا نعتقد أن هناك أرواحا متعلقة بتلك النجوم ، وأن الأولين قد استطاعوا أن يرتبطوا بها بالعقيدة وبالآثار ؟

فقال الشيخ :

— إن هذا كان ، فى الواقع هدف السحر البدائى . إن هذه الطلاسم وتلك الوجوه لا تستمد القوة إلا بوقف كل منها على أحد الكواكب وبالأبراج الملازمة لشروقها وغروبها . إن أمير الكهنة كان يسمى «كاتر»

أى سيد التأثيرات ، وكان لكل كاهن من تحت إمرته نجم يقوم هو بمفرده على خدمته كزحل والمشترى وغيرهما .

ولذا فنى كل صباح يقول «كاتر» لأحد الكهنة :

— «أين يوجد الآن النجم الذى تقوم على خدمته ؟ فيجيب الكاهن قائلا :

— «إنه فى برج كذا ، وفى درجة كيت ، وفى الدقيقة كذا» . وطبقا لحساب معلوم كانوا يكتبون الأعمال التى يكون إنجازها فى ذلك اليوم أمرا ملائما . إن الهرم الأول إذن قد خصص للأمراء وأسرهم ، والثانى كان يضم آلهة النجوم والصواوين التى تحتوى على الأجساد السماوية ، وكذلك كتب الفلك والتاريخ والعلوم ، وهنا أيضا كان الكهنة يجدون المأوى . أما الثالث فلم يكن مخصصاً إلا لحفظ توابيت الملوك والكهنة . ولما لم تلبث تلك الأهرام أن بدت غير كافية بالغرض أمروا بإنشاء أهرام سقارة ودهشور . وكان الهدف من متانة البناء هو منع تلف الأجسام المضمخة بالعطور والتى ، حسب أفكار ذلك الزمن ، كان لابد أن تولد من جديد بعد ثورة معينة للنجوم . وهم لا يحددون الزمن الذى سوف تقع فيه تلك الكارثة على وجه الدقة .

فقال القنصل :

— لو سلمنا بهذه القصة فإن هناك كثيرا من المومياء سوف تدهش يوما إذ تستيقظ فتجد نفسها تحت زجاج أحد المتاحف أو فى قاعة عرض التحف لدى بعض الإنجليز .

فقلت ملاحظا:

— إنها فى الواقع ، حوريات بشرية لم ينض عنها فراشها بعد . من يقول لنا إنه لن يخرج يوما ما؟ ولقد كنت دائما أعتبر تعرية مومياء المصريين المساكين وتشريحها عملا من أعمال الكفر . كيف إذن لم تتوصل تلك

العقيدة المطمئنة التى لا تقهر، عقيدة الأجيال الكثيرة المتراكمة بعضها فوق بعض، إلى تقليم أظفار حب الاستطلاع الأبله لدى الأوربيين؟ إننا نحترم موتى الأمس، ولكن هل للموتى من سن؟

فقال الشيخ:

— لقد كانوا من غير المؤمنين.

فقلت :

— للأسف! فنى ذلك العهد لم يكن قد ولد بعد محمد ولا المسيح.

وجعلنا نتناقش بعض الوقت حول هذا الموضوع. وكنت أدهش لرؤية مسلم من المسلمين يقلد التعصب الكاثوليكى. لماذا يلعن أبناء إسماعيل مصر القديمة، وهى التى لم تحول إلى عبيد إلا أبناء اسحق؟ ومع ذلك، فالحق يقال، إن المسلمين عموما يحترمون المقابر والآثار المقدسة لمختلف الشعوب. ولم يضطر أحد الخلفاء إلى فتح الأهرام إلا أملا فى العثور على الكنوز الضخمة. وإن تاريخهم ليقص علينا أنهم عثروا فى الحجرة التى تسمى حجرة الملك على تمثال لرجل من الحجر الأسود وتمثال لامرأة من الحجر الأبيض، وقد وقفا على مائدة من الموائد، وكان أحدهما يمسك رمحا والآخر قوسا. وفى وسط المائدة كانت هناك آنية زهور مقفلة إقفالا محكما. ولما فتحت وجد أنها مليئة بدم ما زال طازجا، وكان هناك كذلك ديك من الذهب الأحمر مزين باليواقيت الزعفرانية، وقد صاح وأخذ يضرب بجناحيه حينما دخلوا عليه. إن كل هذا يدخل فى نطاق ألف ليلة وليلة. ولكن ما الذى يمنعنا أن نظن أن تلك الغرف كانت تحتوى على طلاسم ووجوه متآمرة؟ إن ماهو موثوق به أن المحدثين لم يعثروا بها على أية عظام سوى عظام ثور. وما قالوا عنه إنه تابوت حجرة الملك لم يكن فى الواقع إلاصحفة كبيرة للماء المطهر. ومهما يكن من أمر أفليس أصعب على الفهم، كما لاحظ فولنى، أن نفترض أنهم كدسوا كل تلك الحجارة لكى يقبروا فيها جثة من خمسة أقدام؟

٧ - حريم الوالى

وبعد قليل استأنفنا نزهتنا ، وذهبنا لزيارة قصر من القصور الساحرة مزدان بالحصى ، وتأتى نساء الوالى أحياناً لتمضية الصيف فيه . والأرض التى تحيط بهذا القصر الذى صرح لنا بدخوله دون صعوبة معدة على الطريقة التركية ، وتمثل رسوم السجاد .

وكانت الطيور قد هجرت أقفاصها ، ولم يكن فى قاعات القصر من أحياء سوى بعض البندولات ذات الأنغام الموسيقية التى تعلن عن كل ربع ساعة يمر بنغمة صغيرة من نغمات الأرغن الآلى، مقتطفة من الأوبرات الفرنسية. إن نظام « الحريم » واحد فى كل القصور التركية ، وقد رأيت حتى منها الآن الكثير . وهى تتكون دائماً من مقصورات صغيرة تحيط بقاعات كبيرة للاجتماعات تنتشر بها الأرائك فى كل مكان . وكل ما فيها من أثاث هو مناضد صغيرة مطعمة بالصدف . وكانت هناك تجاويف مقتطعة فى خشب الجدران ، وقتها على شكل قوس مدببة ، وهى تستخدم كمكان للنرجيلة وأوانى الزهور والقهوة . ولم يكن هناك سوى أربع غرف فقط ذات زخرفة أوربية ، وكانت تضم بعض الأثاث الردىء الذى قد يكون أنسب لغرفة البواب . ولكن مثل تلك الأشياء مما يتغاضى عنه من أجل التقدم ، وهى ولا ريب من نزوات إحدى المحظيات ، ولا يعتبر أى شىء من هذه الأشياء فى نظرهن ذا فائدة جدية .

ولكن الأسرة هى الشىء الذى ينقص عادة ، حتى فى أكثر قصور الحريم فخامة . وأخذت أقول للشيخ :

— أين تنام إذن تلك النساء وجواريهن ؟

— على الأرائك .

— أليس لديهن أغطية ؟

— إنهن ينمن مرتديات ملابسهن، ومع ذلك فهناك أغطية من الصوف أو الحرير للشتاء .

— لست أجد فى كل هذا مكانا للزوج .

— حسن ! ولكن الزوج ينام فى غرفته ، والنساء فى غرفهن ، والجاريات على الأرائك فى القاعات الكبرى . وإذا كانت الأرائك والوسائد لا تبدو مريحة فى النوم فإنهن يرصصن الحشايا وسط الغرفة وينمن عليها .

— بملابسهن ؟ .

— دائماً ، ولكنهن لا يحتفظن إلا بأبسط الملابس، السروال والصديرى والثوب . إن القانون يحرم على الأزواج الرجال والنساء أن يكشفوا عن أجسادهم أمام بعضهم البعض،وذلك ابتداء من الرقبة فما تحت. وإن الامتياز الذى يحصل عليه الزوج هو رؤية وجه زوجاته كما يشاء . وإذا دفعه حب الاستطلاع إلى أبعد من ذلك، فإن اللعنة تصب على عينيه: إنه نص صريح(١)

— فقلت له .

— وعلى ذلك فإنى أفهم أن الزوج لا يتمسك بقضاء الليل فى غرفة مليئة بنساء مرتديات ملابسهن، ويفضل النوم فى غرفته . ولكن لو حدث وصحب معه اثنتين أو ثلاثا من تلك السيدات . . .

فصاح الشيخ فى غضب :

— اثنتين أو ثلاثا ! أى كلاب تظنهم هؤلاء الذين يتصرفون على هذا

(١) تلك خرافة من خرافات نرفال الكثيرة .

النحو ؟ الله حى ! أتوجد امرأة واحدة ، حتى ولو كانت خائنة ، تقبل أن تشارك أخرى شرف النوم بجوار زوجها ؟ أهكذا يفعلون فى أوربا ؟

فأجبت :

— فى أوربا ؟ كلا بكل تأكيد . ولكن ليس للمسيحيين سوى زوجة واحدة . وهم يفترضون أن الترك ، ولهم من النساء الكثير ، يعاشرون نساءهم كما لو كن امرأة واحدة .

فقال لى الشيخ .

— لو كان هناك مسلمون من الفسق بحيث يتصرفون كما يفترض المسيحيون فإن زوجاتهم الشرعيات لن يلبثن أن يطلبن الطلاق ، بل وحتى الجوارى يصبح لهن الحق فى تركهم .

فقلت للقنصل :

— تأمل أى خطأ آخر خاص بعادات تلك الشعوب تقع فيه أوربا . إن حياة الأتراك بالنسبة لنا مثال فى قوة النفوذ والمتعة . وإنى لأرى أنهم لم يتوصلوا حتى الآن لأن يكونوا سادة فى منازلهم .

فأجابنى القنصل قائلا :

— إن جلهم لا يعيشون فى الحقيقة إلا مع امرأة واحدة . وفتيات العائلات الكريمة يجعلن ، فى معظم الأحيان ، ذلك شرطا لإتمام الزواج . إن الرجل الذى يكون من سعة العيش بحيث يقدر على إطعام وإيواء عدة نساء بشكل لائق ، أى يخصص لكل منهن مسكنا مستقلا وخادمة وطاقين كاملين من الملابس فى السنة ، هذا عدا مبلغا معينا من المال كل شهر لإيوائها ،

يستطيع حقيقة أن يتزوج لغاية أربع زوجات . ولكن القانون يضطره إلى أن يخصص لكل منهن يوما من أيام الأسبوع ، وهذا مالا يكون دائما مستحبا . تصور إلى جانب هذا ، كم تجعل مؤامرات النساء الأربع ، المتساويات فى الحقوق تقريبا ـ حياته متناهية فى التعاسة ، اللهم إلا إذا كان ثريا جدا وصاحب مركز كبير جدا . وإن هؤلاء يعتبرون النساء نوعا من الترف كالجياد، بيد أنهم ، عموما يفضلون الاقتصار على زوجة شرعية واحدة، واقتناء الجاريات الجميلات . ولا تكون العلاقات بينهم وبين تلك الجاريات دائما سهلة ، لاسيما إذا كانت زوجاتهم من الأسر الكبيرة .

فصحت :

ـ يا للأتراك المساكين ! كم يسيء الناس إلى سمعتهم ! ولكن إذا كان كل ما فى الأمر هو الحصول على عشيقات هنا وهناك . فإن كل رجل غنى فى أوربا يتمتع بنفس هذه التسهيلات .

فقال لى القنصل :

ـ بل إن لديهم من التسهيلات ما هو أكبر . فإذا كانت التشريعات تنفر من هذه النقطة فإن الأخلاق تعوض ذلك . إن الدين هنا ، وهو الذى ينظم كل شيء ، يسيطر على النظام الاجتماعى والخلقى فى وقت واحـــد . وحيث أنه لا يأمر بأى شيء غير مستطاع ، فإنهم يعتبرون احترامه شرفا . وليس معنى ذلك أنه ليس هناك خروج على القاعدة . إلا أن ذلك الخروج نادر الحدوث ، ولم يستطع أن يظهر إلا بعد عصر الإصلاح . إن أتقياء القسطنطينية قد ثاروا ضد محمود لما علموا أنه أمر بإنشاء قاعة حمام رائعة يستطيع فيها أن يرى زوجاته وهن يستحممن ، ولكن تلك الحادثة على درجة قليلة جدا من الاحتمال ، وهى ليست ، ولا ريب ، إلا اختراعا من بدع الأوربيين .

وأخذنا نجوب الطرقات الضيقة المرصوفة بالحصى البيضاوية مكونة

رسوماً بيضاء وسوداء ، والحاطة بحافة مرتفعة من شجر الشمشار المقصوص .
وكنت أرى بفكرى ، ونحن نتحدث هكذا ، تلك النساء البيضاوات
يتفرقن فى الممرات وهن يزحفن بأخفافهن على أرض من الفسيفساء ،
ليتجمعن ثانية فى المقاصير الخضراء ، حيث تتشكل أشجار السرو الكبيرة
فى شكل درابزين وأروقة . وكانت الحمائم تحط عليها أحياناً ، وكأنها الأرواح
الشاكية من تلك الوحدة .

وعدنا إلى القاهرة بعد أن زرنا مبنى مقياسى النيل ، حيث يغوص عمود
كبير مدرج ، كان قديماً مخصصاً لسرابيس ، فى حوض عميق ، ويستخدم فى
تقرير ارتفاع الفيضان كل عام . وأراد القنصل أن يصحبنا بعد ذلك إلى
مقابر أسرة الباشا . ولكن رؤية المقابر بعد رؤية الحريم قد توحى بمقارنة
محزنة . إلا أنها تحوى فى الواقع نقداً لتعدد الزوجات . فهذه المقبرة ،
المخصصة لأبناء تلك الأسرة دون غيرهم ، تبدو كما لو كانت مقبرة مدينة
بأسرها . فيها أكثر من ستين قبراً بين صغير وكبير ، وأغلبها جديدة ، وهى
مكونة من أعمدة من الرخام الأبيض لا رءوس لها . وكل عمود من تلك
الأعمدة تعلوه إما عمامة وإما غطاء رأس نسائى ، وهذا مما يضفى على القبور
التركية طابعاً واقعياً جنائزيا ، حتى لنخال أننا نسير وسط جموع متحجرة .
وأكثر هذه القبور أهمية تجدها ملتفة بالثمين من المنسوجات ، وتحمل عمائم
من الحرير والكشمير . وهنا يصبح الوهم أمضى أثراً .

ومما يبعث العزاء فى نفوسنا أن نعتقد أن أسرة الباشا ، رغم كل ما فقدت
من أفرادها ، ما زالت كبيرة العدد . والحقيقة أن وفاة الأطفال الأتراك
فى مصر يبدو أمرا واقعا قديما ولا جدال فيه . إن هؤلاء المماليك الذين
حكموا البلد حقبة طويلة من الزمن ، والذين كانوا يجلبون أجمل نساء العالم ،
لم يتركوا من ورائهم أية ذرية .

٨- خفايا الحريم

وأخذت أتأمل فيما سمعت .

لم يكن ذلك إذن إلا وهماً وخيالا ينبغى هو الآخر أن نفقده : ملذات الحريم وسلطان الزوج أو السيد المطلق ، والنساء الساحرات اللاتى يجتمعن ليبنين سعادة شخص واحد ، إن الدين والعادات قد خففت بشكل غريب من حدة ذلك المثل الأعلى الذى طالما أغرى كثيراً من الأوربيين . ولذا فإن كل الذين فهموا الحياة الشرقية بهذه الطريقة ،مصداقاً لما كنا نعتقده، لم يلبثوا أن أصيبوا بخيبة أمل . إن أغلب الإفرنج الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة الباشا ، والذين اعتنقوا الإسلام ، سواء للمصلحة أم للمتعة ، قد عادوا اليوم إما إلى أحضان الكنيسة أو إلى المتع التى يحققها القانون المسيحى فى الزواج من واحدة .

ولنعتقد تماماً هذه الفكرة : إن المرأة المتزوجة فى جميع أرجاء الإمبراطورية التركية تتمتع بنفس الامتيازات التى تتمتع بها المرأة لدينا ، بل وأنها تستطيع أن تمنع زوجها من الزواج بأخرى إذا ما جعلت من ذلك فقرة من فقرات عقد زواجها ، وإذا حدث وقبلت الإقامة فى بيت واحد مع امرأة أخرى ، فإن لها الحق فى أن تستقل بحياتها ، وألا تشارك أبدا ، كما يعتقد البعض ، فى تكوين لوحات رشيقة مع الجوارى تحت عينى الزوج والسيد . ولنحذر من الظن بأن تلك السيدات الجميلات يقبلن حتى الغناء أو الرقص للترفيه عن مولاهن ، فتلك مواهب يرين أنها لا تليق بسيدة كريمة . ولكن لكل امرىء الحق فى أن يستقدم « العوالم » و « الغوازى » إلى منزله ، وأن يسلى بهن نساءه . وسيد السراى ينبغى له كذلك أن يحذر من الاهتمام بالجوارى اللاتى يمنحهن لزوجاته ، لأنهن

أصبحن ملكا خاصا لهن . وإذا راق له أن يقتنى منهن لنفسه فينبغى أن يتخذ جانب العقل ويفردلهن منزلا آخر ، مع أنه ليس هناك ما يعوقه عن اللجوء إلى تلك الطريقة للإكثار من ذريته .

وينبغى أن نعلم الآن كذلك أنه ، حيث أن كل منزل ينقسم إلىقسمين منفصلين تماماً ، أحدهما للرجال والآخر للنساء ، فإن هناك فىالواقع سيداً فى قسم من القسمين ، ولكن هناك سيدة فى القسم الآخر . وهذه الأخيرة هى إما الأم أو زوجة الأب أو أقدم الزوجات ، أو التى أنجبت أكبر الأولاد سناً . والزوجة الأولى تسمى السيدة الكبيرة ، والثانية الدرة (البيغاء) . وفى حالة ما إذا كانت النساء كثيرات عدداً ، وهذا مالا يحدث إلا لدى العظماء . فإن الحريم يصبح أشبه شىء بالدير الذى تسيطر عليه قاعدة صارمة . ويكون الشغل الأول فيه هو تربية الأولاد والتطريز وتوجيه الجوارى فيما يختص بالأعمال المنزلية . وزيارة الزوج تتم فى احتفال ، وكذلك زيارة أقرب الأقارب . ولما كان الزوج لا يأكل مع زوجاته ، فكل ما يستطيع فعله لقضاء الوقت هو تدخين نرجيلته فى وقار وشرب القهوة أو عصير الفواكه . وقد جرت العادة بأن يعلن عن حضوره مقدما . وفوق ذلك فإنه إذا وجدت مداساً على باب الحريم ، فإنه يمتنع عن الدخول ، إذ أن ذلك يعنى أن زوجته أو زوجاته يستقبلن صديقاتهن . وكثيراً ما تستمر زيارة الصديقات يوما أو يومين .

أما عن حرية الخروج والزيارات ، فهذا حق لا جدال فيه لأية امرأة حرة المولد . ويقتصر حق الزوج على أن تصطحب معها بعض العبيد . ولكن هذا الاحتياط لاقيمة له ، إذ تستطيع النساء أن يكسبنهم إلى صفهن بسهولة ، أو أن يخرجن متنكرات سواء من الحمام أو من بيت إحدى الصديقات ، بينما يظل المراقبون منتظرين لدى الباب . إن الحجاب وحده هو الذى يمنحهن فى الواقع حرية أكثر مما للأوربيات ، إذا كان لديهن

الاستعداد للغش والخداع . وإن القصص المرحة التى تروى مساء فى المقاهى تدور غالبا حول مغامرات العشاق الذين يتخفون فى زى النساء حتى يتمكنوا من دخول الحريم . والواقع أنه ليس هناك ماهو أسهل من ذلك . ولكن ينبغى القول بأن ذلك يتصل بنسج الخيال العربى أكثر مما يتصل بالأخلاق التركية المسيطرة من قرنين على الشرق كله . ولنضف إلى ذلك أن المسلم لا استعداد لديه للزنى ، ويجد أن امتلاك امرأة ليست ملكا مطلقا له يعتبر أمراً مشيناً .

أما عن حظ المسيحيين السعيد فى هذا المجال فهو نادر الحدوث . وفى الماضى كانت هناك مخاطرة مزدوجة بالموت . أما اليوم فالمرأة وحدها هى التى تخاطر بحياتها ، ولكن فى حالة التلبس فى بيت الزوجية فقط . وإلا فحالة الزنى ليست سببا للطلاق أو لأى عقوبة أخرى .

إن القانون الإسلامى لا يحتوى إذن ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، على أى شىء من شأنه أن يغرى النساء بالعبودية والذل . وهن يرثن ويمتلكن ملكا خاصا بهن ، كما يحدث فى كل مكان ، بل وإن ذلك يحدث خارج نطاق سلطة الزوج . ولهن الحق فى طلب الطلاق لأسباب ينص عليها القانون . وإن امتياز الزوجة ، فى هذه النقطة ، ينحصر فى القدرة على الطلاق دون إبداء الأسباب . وحسب الرجل أن يقول لزوجته أمام شهود ثلاثة : « أنت طالق » فلا تستطيع منذ تلك اللحظة أن تطالب إلا بمؤخر الصداق الذى ينص عليه عقد زواجها . والناس جميعا يعرفون أنه ، إذا أراد استعادتها بعد ذلك ، فهو لا يصل إلى مايريد إلا إذا تزوجت خلال تلك الفترة ، ثم أصبحت حرة من جديد . أما قصة ذلك الذى يسمونه فى مصر «بالمحلل» والذى يقوم بدور المزوج الوسيط فإنها تتكرر فى مصر بالنسبة للأغنياء وحدهم أما الفقراء وهم يتزوجون دون عقد مكتوب ، فإنهم ينفصلون ويعودون دون

صعوبة ، وأخيراً ورغم أن الكبراء وحدهم هم الذين يمارسون تعدد الزوجات سواء أكان ذلك بدافع حب الظهور أو لمزاجهم الخاص ، فإن فى القاهرة تنابلة يتزوجون من نساء كثيرات ليعيشوا من كدهن . وهكذا تجد أن لهم بيتين أو ثلاثة فى المدينة يجهل كل بيت منها الآخر تمام الجهل . وإن اكتشاف مثل هذه الأسرار يسبب عادة المشاجرات المضحكة التى تنتهى بطرد هذا الفلاح الكسول من بيوت زوجاته الثلاث ، ومن جهة أخرى يفرض عليه الالتزام بإعالتهن .

٩ — درس الفرنسية

ولما عدت إلى بيتى وجدته كما تركته : فالقبطى الهرم وزوجته منهمكان فى إعادة تنظيم كل شىء ، والجارية تنام على الأريكة ، والديكة والدجاج فى الفناء تلتقط الذرة ، « والبربرى » الذى كان يدخن فى المقهى المواجه ينتظرنى بلا أدنى شك . وكان من المستحيل العثور على الطاهى من جديد ، فإن حلول القبطى جعله يعتقد دون شك أنه سيحل محله ، فرحل على الفور دون أن يقول شيئاً . وهذا الأسلوب كثير الحدوث بين الخدم والعمال فى القاهرة ، ولذلك فإنهم حريصون على تسلم أجورهم كل مساء ، حتى يستطيعوا التصرف كما يحلو لهم .

ولم أجد ضرراً فى أن أحل منصور محل مصطفى ، وزوجته ، التى كانت تأتى لمساعدته فى أثناء النهار ، كانت فى نظرى حارسة ممتازة للأخلاق فى داخل بيتى . ولكن كان هذان الزوجان يجهلان مبادىء الطهو ، حتى المصرى منه ، جهلا تاما . أما غذاؤهما هما فيتكون من بليلة الذرة ومن الخضراوات المقطعة فى الخل ، وهذا لم يقربهما لا من فن صانع الصلصة ولا من فن شاوى اللحم . وإن محاولاتهما فى هذا السبيل كانت تجعل الجارية تطلق الصيحات المدوية ، وتنهال عليهما سبا وشتما . ولقد ساءنى جداً هذا الجانب من أخلاقها .

وكلفت منصور بأن يخبرها أن دورها قد حان للقيام بالطهو ، وأنه من الأفضل أن تستعد لذلك ، حيث أريد أن أصحبها فى أسفارى . وإنى لأعجز عن وصف تعبير الكبرياء المجروحة أو الكرامة المهدرة الذى حدجتنا به جميعاً .

وأجابت قائلة لمنصور :

— قل لسيدى إننى سيدة لا خادمة ، وإنى سأكتب للباشا إذا لم يضعنى فى الموضع اللائق .

فصحت قائلا :

— للباشا ! ولكن ما دخل الباشا فى هذا الموضوع ؟ .

لقد اشتريت جارية ، أنا ، لخدمتى ، فإذا لم تكن لدى القدرة على كراء الخدم ، وهذا ماهو محتمل الحدوث ، فإنى لاأرى سببا يجعلها تحجم عن القيام بأعمال المنزل ، كما تفعل النساء فى كل البلاد .

وقال منصور :

— إنها تقول : إن لكل جارية الحق ، بتوجهها إلى الباشا ، فى طلب إعادة بيعها وتغيير سيدها ، وأنها مسلمة ولن تقبل أبداً أداء الأعمال المهينة » .

وإنى لأقدر الاعتزاز الخلق . ولما كان لها هذا الحق ، وهذا ما أكد لى منصور صحته ، فقد اكتفيت بأن قلت لها إننى كنت أمزح ، وأنه ينبغى عليها على الأقل أن تعتذر لهذا الشيخ الهرم عن فورة الغضب التى صدرت منها ، ولكن منصور ترجم لها ذلك بطريقة جعلت الاعتذار يصدر من ناحيته هو .

وغدا واضحا منذ تلك اللحظة أننى ، بشرائى تلك المرأة ، قد تصرفت تصرفا أخرق . وإذا كانت تتمسك برأيها فى إصرار ولا يمكنها أن تكون لى ، فيما تبقى لى من الرحلة ، إلا مصدر إنفاق ، فلا أقل من أن تقوم لى بدور المترجم . فأعلنت إليها أنه حيث أنها شخصية مرموقة فإنه من الأفضل أن تتعلم الفرنسية فى الوقت الذى أتعلم أنا فيه العربية . ولم تستبعد تلك الفكرة .

وهكذا أعطيتها درسا فى اللغة والخط ، وجعلتها ترسم عصيا على الورق كما نفعل فى تعليم الأطفال ، كما علمتها بعض الكلمات . وكان ذلك يسليها بما فيه الكفاية ، وقد جعلها نطق اللغة الفرنسية تتخلص من نغمة صوتها الأجوف ، وهى نغمة غير مستحبة فى فم النساء العربيات . وكنت أتسلى كثيراً بحملها على نطق جمل كاملة لا تفهمها . كهذه الجملة مثلا :

« إننى وحش صغير . . » ولما رأتنى أضحك اعتقدت أننى أحملها على أن تتفوه بأشياء غير لائقة، ودعت منصور ليترجم لها الجملة. ولما لم تر فيها كثيراً من الضرر أخذت ، تكرر فى رقة كبيرة .

ــ أنا ؟ وحش صغيرة ؟ « مفيش (أبداً) وكانت ابتسامتها ساحرة .

ولما ستحب الجارية رسم العصى والأجزاء الدقيقة والسحية للحروف أفهمتنى أنها تريد أن تكتب حسب أفكارها، وظننت أنها تعرف الكتابة بالعربية فأعطيتها ورقة بيضاء . ولم ألبث أن وجدت أصابعها قد رسمت مجموعة غريبة من الحروف الهيروغليفية من المؤكد أن لا علاقة لها بكتابة أى شعب من الشعوب . ولما امتلأت الصحيفة سألتها بواسطة منصور عما تعنى بذلك .

ــ فقالت :

ــ لقد كتبت لك .

ــ ولكن ، يا طفلتى العزيزة ، إن هذا لا يدل على شىء . إن ذلك هو ما تستطيع القطة أن تخطه عندما تغمس مخالبها فى الحبر .

ولقد دهشت لذلك كثيراً . فقد ظننت أنه إذا فكر المرء فى شىء وهو يمر بالريشة على الورق كيفما اتفق، فإن الفكرة تترجم هكذا بوضوح لعين

القارىء وأفهمتها خطأها وطلبت إليها أن تعلن ماذا أرادت أن تكتب ، حيث أنه يلزم لتثقيفها من الوقت أكثر مما افترضت .

وكان طلبها البرىء يتكون من بنود كثيرة :

وكان البند الأول يجدد الرغبة التى سبق أن أبدتها بلبس حبرة من التافتاه الأسود ، على شاكلة نساء القاهرة ، حتى لايظن أحد أنها من نساء الفلاحين .

أما البند الثانى فيحتوى على رغبة فى الحصول على فستان من الحرير الأخضر ، والثالث يعبر عن رغبتها فى شراء حذاء أصفر برقبة ، ولا يستطيع أحد ، بصفتها مسلمة ، أن يحرم عليها حق ارتدائه .

وينبغى أن نقول هنا إن تلك الأحذية رديئة جداً ، وتضفى على النساء هيئة الخفافيش المنفرة .

أما غير ذلك فيجعلهن أشبه شىء بيالة ضخمة . أما الأحذية الصفراء ذات الرقبة بصفة خاصة فإنها مرتبطة بمسألة رفعة الطبقة الاجتماعية . ولقد وعدتها بالتفكير فى كل ذلك .

١٠ — شبرا

ولما بدا لها جوابى مرضيا نهضت الجارية، وهى تصفق بيديها وتكرر مرات عديدة : الفيل ! الفيل ،

فقلت لمنصور : ماذا تعنى ؟

فقال لى بعد أن استفسر منها :

— إن ستى تريد الذهاب لرؤية الفيل الذى سمعت عنه، والذى يوجد فى قصر محمد على فى شبرا .

وكان من العدل أن نكافىء اجتهادها فى الدراسة ، فأرسلت فى طلب المكارية . إن باب المدينة ، من ناحية شبرا ، لم يكن يبعد عن بيتنا إلا مسيرة مائة متر ، وهو الآخر مسلح بأبراج ضخمة أنشئت أيام الحروب الصليبية . ومررنا بعد ذلك على قنطرة فوق قناة من القنوات التى تنتشر جهة اليسار مكونة بحيرة صغيرة محاطة بالمزارع النضرة . وقد استفادت الملاهى والمقاهى والحدائق من ذلك الفىء وتلك الظلال ، ففى يوم الأحد نصادف عندها عددا كبيرا من اليونانيات والأرمينيات وسيدات الحى الإفرنجى . وهن لا يتخلصن من حجابهن إلا داخل الحدائق . وهنا تتاح لنا كذلك فرصة تفحص الأجناس المتناقضة المتباينة التى ترى بشكل مثير فى الشرق . وإذا نظرنا إلى بعيد وجدنا مواكب الفرسان التى تحجبها عن أعيننا ظلال ممر شبرا ، وهو أجمل ممر فى العالم دون شك . إن أشجار الجميز والأبنوس التى تظله على امتداد فرسخ جميعها فى حجم هائل ، والقبة التى تكونها أغصان هذه الأشجار من الكثافة بحيث تسيطر العتمة على الطريق كلها ، ولا تزيلها من بعيد إلا حافة الصحراء الملتهبة التى ترى لامعة عن اليمين

فيما وراء الأراضى المزروعة .

وإلى اليسار يجرى النيل محاذيا الحدائق الشاسعة إلى مسافة نصف فرسخ، حتى يأتى ويحاذى الممر نفسه ،ويضفى عليه بعض الضوء الأحمر الذى ينعكس من مياهه . وهناك مقهى تزينه النافورات والعرائش ، يقع فى منتصف طريق شـــبرا ويرتاده كثير من المتنزهين . وتمتد مزارع الذرة وقصب السكر ، وكذلك يمتد هنا وهناك إلى يمين بعض أمكنة النزهة ،حتى تصل إلى بعض الأبنية الكبيرة التى يملكها الباشا .

وهناك كان يعرض فيل أبيض أهدى إلى سموه من الحكومة الإنجليزية. وكانت رفيقتى ، وهى تكاد تطير فرحا ، لا تكف ولا تمل الإعجاب بهذا الحيوان الذى كان يذكرها بوطنها ، والذى يعتبر ، حتى فى مصر ، من الغرائب . كانت أنيابه محلاة بحلقات من الفضة ، وكان حارسه يجعله يقوم بتمرينات كثيرة أمامنا . بل ذهب به الأمر إلى جعله يتخذ أوضاعا قد لا تكون لائقة . ولما أشرت إلى الجارية ، وهى رغم حجابها ليست عمياء ، بأننا قد رأينا ما فيه الكفاية ، قال لى أحد ضباط الباشا فى وقار :

— انتظر ، فإن ذلك قد جعل لتسلية النساء .

وكان هناك منهن الكثير . ولم يكن ذلك يخدش حياءهن فى شىء ، بل كن يقهقهن ضاحكات .

إن شبرا مقر ممتع ، وقصر باشا مصر ، وهو بسيط على طراز قديم ، يقع فى مواجهة امبابة ، وهى موقع شهير بسبب هزيمة المماليك بالقرب منه. وقد شيد من ناحية الحدائق ، كشك ذو ممرات مطلية ومذهبة ، شـديدة البريق فى مظهرها . إن هنا ينتصر الذوق الشرقى حقيقة .

وفى إمكاننا زيارته من الداخل حيث توجد حظائر للطيور النادرة وقاعات للاستقبال وحمامات وقاعات « للبلياردو » . وإذا ما توغلنا فى

القصر نفسه عدنا فالتقينا بتلك القاعات ذات الشكل الواحد والزينة التركية بأثاثها الأوربى ، وفيها نستطيع أن نميز فى كل مكان ما فى مساكن الأمراء من ترف . ونرى على الجوانب وعلى أعالى الأبواب لوحات بيضاوية مرسومة من الذاكرة . إنها لوحات متزمتة (يطغى عليها التزمت الدينى) لا يظهر فيها أى كائن حى . وهى تعطينا فكرة متواضعة عن الفن المصرى. ومع ذلك فالفنانون يسمحون لأنفسهم برسم بعض الحيوانات الخرافية كالخنزير الجوى(الدولفين) والحصان المجنح وأبى الهول . أما فيما يختص بالمعارك فهم لا يستطيعون تصوير مناظر الحصار والمعارك البحرية . لذا نجد سفنا لا نرى ملاحيها يقاومون القلاع التى تدافع حاميتها عن نفسها دون أن تظهر . إن النيران المتقاطعة والقنابل تبدو كأنها تندفع من تلقاء نفسها . إن الخشب فيها يريدأن يتغلب على الحجارة، أما الإنسان فغائب . ومع ذلك فهذه هى الطريقة الوحيدة التى اهتدوا إليها لتصوير المشاهد الرئيسية من حملة ابراهيم على أرض اليونان .

وفى أعلى القاعة التى يحكم فيها الباشا بين الناس نقرأ تلك الحكمة الجميلة :
« إن ربع ساعة من الرحمة خير من سبعين ساعة من الصلاة »

ثم عدنا فهبطنا إلى الحدائق . يا إلهى ! ما أكثر الورود ! إن ورود شبرا هى كل شىء فى مصر ، أما ورود الفيوم فلا تستخدم إلا لاستخراج الزيت وعمل «المربى» وقد أتى البستانيون من كل مكان يقدمون لنا بعضها.

وهناك نوع آخر من الترف لدى الباشا، فالليمون والبرتقال لا يقطف، وذلك حتى يظل ذلك التفاح الذهبي أطول مدة ممكنة متعة لأعين المتنزهين، ولمن يشاء فى التقاطها بعد سقوطها .

ولكننى لم أذكر شيئا بعد عن الحديقة . وقد يكون من المستطاع انتقاد ذوق الشرقيين فى الأبنية من الداخل، أما حدائقهم فليس فى مقدور

أحد مهاجمة ذوقها . فني كل مكان تجد البساتين وأحـواض الزهور ومقاصير السرو المقصوص التى تذكرنا بطراز عصر النهضة ... ومن المحتمل أن تكون النماذج الأولى لتلك الحدائق من عمل مهندسى حدائق من إيطاليا. ولا نجد فيها أية تماثيل، ولـكن ما بهامن نافورات ينطق بذوق ساحر .

وهناك جناح زجاجى يتوج سلسلة من الشرفات المدرجة الهرمية الشكل. وترتسم خطوطه فى الأفق فى شكل جميل خلاب ، ولا ريب أن الخليفة هارون الرشيد لم يكن لديه ماهو أجمل منه . ولـكن ليس هذا هو كل شىء . فبعد أن تأملنا فى إعجاب ترف القاعة الداخلية والستائر الحـــريرية التى تهفهف مع الهواء وسط أكاليل الخضرة وتعاريجها ، عدنا فهبطنا وتبعنا الممرات الطويلة المحفوفة بأشجار الليمون والمقصوصة فى شكل مغزلى . ثم اخترقنا غابات من أشجار الموز تلمع أوراقها الشفافة كأنها الزبرجد . ووصلنا إلى طرف الحديقة الآخر ، وهناك ألفينا قاعة حمام رائعة الجمال، ولست أجد ضرورة هنا لوصفها بالتطويل إذ أنها معروفة لدى الجميع . إنها عبارة عن حوض ضخم من الرخام الأبيض محاط بدهاليز مستندة إلى أعمدة ذات ذوق بيزنطى . وبه ينبوع مرتفع فى الوسط تخرج منه المياه من أفواه التماسيح . وتضاء الأسوار كلها بالغاز ، وفى ليالى الصيف يخرج الباشا للتريض على صفحة الحوض فى زورق مذهب تقوم نساء حريمه بالتجديف فيه . وإن تلك النساء الجميلات ليستحممن كذلك أمام سيدهن ، ولكنهن يكن مؤتزرات بمآزر من الحرير .. ..

العفاريت

لم يكن فى رأيى من باب عدم الاهتمام أنى درست ، فى امرأة شرقية واحدة ، ما قد تتصف به كثيرات غيرها من طباع . ولكنى كنت أخشى أن أعلق على التفاصيل الدقيقة من الأهمية مالا تستحق . ومع ذلك فلتتصور دهشتى عندما دخلت ذات صباح غرفة الجارية فوجدت إكليلا من البصل معلقا بعرض الباب ، ومجموعة أخرى من الثوم مرصوصة فى انتظام فوق الموضع الذى تنام فيه . فما كان منى إلا أن انتزعت تلك الزينات غير اللائقة لتزيين الغرفة ، وقذفت بها فى غير اكتراث إلى الفناء ظنا منى أن الأمر لا يعدو عبث أطفال بسيط ، ولكن ما كدت أفعل ذلك حتى هبت الجارية ثائرة يائسة ، وهرولت لالتقاط البصل وهى تبكى ، ثم أعادته إلى مكانه مصحوبا بحركات تعبدية كثيرة . وكان لا بد من انتظار عودة منصور لاستفسر منه عن ذلك . وفى انتظار أوبته تلقيت طوفانا من اللعنات كان أوضحها كلمة « فرعون » ! ولم أدر ما إذا كان ينبغى أن أغضب أم أرثى لها . وأخيرا حضر منصور وعلمت منه أنى قد سكبت « عملا » سحريا وأننى سأكون السبب فى التعاسات المروعة التى ستنصب عليها وعلى . وقلت لمنصور :

— إننا ، ولا غرو ، فى بلد كان فيه البصل الها . فإذا كنت قد أهنته فإنى لا أبغى أكثر من أن أعترف بالخطأ ، ولا بد أن هناك وسيلة للتخفيف من غضب بصل مصر ! ولكن الجارية لم تكن تريد الاستماع إلى شىء ، بل كانت تردد وهى تلتفت نحوى : « فرعون » .

وأخبرنى منصور أن ذلك يعنى « شخصا كافرا أو طاغية .

ولقد تألمت من هذا التأنيب ، ولكن راقنى أن أرى اسم الملوك القدامى

لهذا البلد تتحول إلى شتائم . ومع ذلك فلم يكن فى الأمر ما يغضب . وعلمت أن استعمال البصل بهذه الطريقة فى بيوت القاهرة من الطقوس المعروفة التى يؤدى فى يوم معين من السنة . ويؤدى هـــذا إلى القضاء على الأمراض الوبائية .

وتحققت مخاوف الفتاة المسكينة ، وقد يكون تأثير مخيلتها هو السبب فى ذلك . فرضت مرضا على شيء من الخطورة ، ورغم كل ما بذلت من جهد لم تقبل أن تتبع أية تعليمات للأطباء . وقد استدعت فى أثناء غيابى ، سيدتين من المنزل المجاور ، وذلك بأن بادلتهما الحديث من فوق سطح المنزل وألفيتهما جالستين بجوارها ، وهما تردد ان الدعوات ، كما أخبرنى منصور وتعدان التعاويذ ضد العفاريت أو الأرواح الشريرة .ويبدو أن أنتهاك حرمة البصل قد أثارت ضدنا هذه العفاريت .وكان من هذه العفاريت . عفريتان معاديان لنا نحن الاثنين ، بصفة خاصة ، ويسمى أحدهما الأخضر والآخر الذهبى .

ولما رأيت أن المرض كامن فى مخيلتها تركت المرأتين تفعلان ما يحلو لهما ، فاستدعيتا ثالثة طاعنة فى الهرم .وكانت تلك «شيخة» مشهورة وقد أحضرت موقداووضعته وسط الغرفة وأحرقت عليه حجرا أظنه حجر الشب . ومن شأن هذا الطبخ أن يضايق العفاريت مضايقة شديدة ، وللنساء القدرة على رؤيتها بوضوح خلال الدخان وهى تطلب الرحمة .ولكن لما كان من الضرورى اجتثاث الداء من جذوره فقد أنهض الجارية فانحنت على الدخان مما سبب لها سعالا شديدا . وفى تلك الأثناء كانت العجوز تضرب على ظهرها والجميع يغنين بصوت مسترسل بعض الدعوات واللعنات بالعربية .

وكان منصور ، لأنه مسيحى قبطى ، يخجل من كل هذه الأعمال . ولكن إذا كان سبب المرض معنويا فأى ضير يأتى من السماح بمثل هـذا العلاج ؟ وفعلا فإن ماحدث هو أنه ، ابتداء من اليوم التالى ، بدأ التحسن المؤكد يبدو وواضحا ، ولم يلبث أن تلاه الشفاء .

ولم ترد الجارية أن تفترق عن جارتيها اللتين استدعتهما واستمرت تكلفهما بخدمتها. وكانت إحداهما تسمى « خرطوم »(١) والثانية « زبيدة »، أما أنا فلم أكن أرى ضرورة فى الاحتفاظ بكل هؤلاء القوم فى بيتى وامتنعت عن منحهما أى مرتب . ولكنها كانت تقدم لهما الهدايا من مالها الخاص. ولما كان ذلك المال مما تركه لها عبد الكريم، فلم يكن هناك ما أعترض عليه. ومع ذلك فكان من الضرورى إحلال غيرهما محلهما، وأن أشترى لها الحبرة « والبلك » اللذين طالما تمنت الحصول عليهما .

ما أكثر ما تلعب الحياة الشرقية معنا من أمثال تلك الحيل : إن كل شىء يبدو فيها لأول وهلة بسيطا وقليل التكاليف ويسيرا ، ثم ما يلبث الأمر أن يتعقد بالضروريات والعادات والأهواء ، فنجد أنفسنا قد اقتدنا إلى حياة الباشوات التى إذا أضيفت إلى الفوضى وعدم الأمانة فى الحسابات كانت كفيلة بامتصاص أكثر حافظات النقود امتلاء ، ولم أكن أريد إلا أن أمرن بعض الوقت على الحياة الخاصة فى مصر ، بيد أنى كنت أرى شيئاً فشيئاً نفاذ ما لدى من موارد ادخرتها لسفرى المقبل .

فقلت للجارية شارحا لها الموقف :

« يا طفلتى الصغيرة ، إذا كنت تريدين البقاء فى القاهرة فأنت حرة :

وكنت أتوقع منها فورة من الاعتراف بالجميل ، ولكنها قالت :

— حرة ! وماذا تريد أن أصبح ؟ حرة ! ولكن أين أذهب ؟ الأوفق أن تبيعنى ثانية لعبد الكريم .

ولكن ، يا عزيزتى ، إن الأوربى لا يبيع النساء، فقبوله مثل هذه النقود أمر شائن » .

---

(١) قد تكون كلثوم .

فقالت باكية .

« وماذا إذن ؟ هل أستطيع أنا أكسب عيشى ؟ هل أستطيع القيام بأى عمل ؟

ـــ ألا تستطيعن الالتحاق بخدمة سيدة من دينك :

ـــ أنا أصبح خادمة ؟ أبداً بعنى ثانية ، فسيشترينى مسلم من المسلمين شيخ مثلا ، وربما باشا من الباشوات ، فأصبح ، من جديد ، سيدة عظيمة! إذا كنت تريد هجرى . فعد بى إلى السوق » .

لعمرى إنه لبلد غريب ذلك الذى ترفض الجوارى فيه الحرية .

ومع ذلك فقد كنت أشعر أنها على حق . وكنت قد عرفت الكثير عن حياة المجتمع الإسلامى الحقيقية ، لكيلا أشك فى أن حياتها كجارية أرق بكثير من حياة المصريات البائسات اللاتى يستخدمن فى أعنف الأعمال ويلقين التعاسة مع أزواج بؤساء . إن منحها الحرية يعنى تسليمها إلى أحزن الأوضاع ، وربما إلى العار . ولما كنت أعتبر نفسى مسئولا عن مصيرها فقد قلت لها:

ـــ حيث أنك لا ترغبين فى البقاء فى القاهرة فينبغى أن تتبعينى إلى بلاد أخرى »

فقالت :

ـــ « أنا وأنت سوا سوا

وأسعدنى هذا القرار ، فذهبت إلى ميناء بولاق لحجز زورق ليقلنا فى فرع النيل من القاهرة إلى دمياط .

٤ - الأهرام

١ ـــ الصعود

كنت قد قررت قبل رحيلى أن أزور الأهرام ، فذهبت لزيارة القنصل العام ، لأطلب إليه رأيه فى هذه الرحلة . فإذا به يصر على مشاركتى مرة ثانية هذه الرحلة ، وعلى ذلك فقد توجهنا ناحية القاهرة القديمة . وبدا لى القنصل حزينا فى أثناء الطريق . وفى أثناء اجتيازنا لسهل « القرافة » رأيته يسعل سعالا جافا كثيراً .

وكنت أعلم أنه مريض منذ مدة طويلة . وقد أخبرنى هو نفسه أنه يتوق إلى رؤية الأهرام قبل أن يموت . وقد اعتقدت أنه يبالغ فى تصوير حالته ، ولكن لما وصلنا إلى شاطىء النيل قال لى :

ـــ « إنى أشعر بالتعب . . وأفضل البقاء هنا . فلتستقل أنت الزورق الذى أعددته ، وسأتبعك بعينى متوهما أنى برفقتك . وكل ما أرجوه منك هو أن تعد لى بدقة درجات الهرم الأكبر ، إذ أن العلماء قد اختلفوا فى فى ذلك . وإذا ذهبت ناحية الأهرام الأخرى فى سقارة ، فإنى أكون شاكراً لو أحضرت لى مومياء طائر أبى منجل . فإنى أود مقارنة أبى منجل المصرى القديم بهذا الجنس المنحل لطائر الكروان الذى مازلنا نصادفه على شواطىء النيل .

واضطررت إزاء ذلك إلى الأقلاع بمفردى من رأس جزيرة الروضة ، وأنا أفكر بأسى فى ثقة المرضى فى الحياة التى تدفعهم إلى أن يحلموا بمجموعات من المومياء وهم على حافة القبر .

إن فرع النيل بين الروضة والجيزة من الاتساع بحيث تحتاج إلى حوالى

نصف ساعة لعبوره . وعبرنا الجيزة دون أن نولى مدرسة الفروسية اهتماما بما فيها من أفران تفريخ الدجاج ، ودون أن نحال ما بها من أطـــلال . إن الجدران السميكة لتلك الأطلال مبنية بفن خاص من الأوانى الفخارية المنضدة والممتزجة بمواد البناء . وتلك طريقة فى البناء تمتاز بالخفة وقابليتها للتهوية أكثر مما تمتاز بالمتانة . وبعد ذلك كان مايزال أمامنا فرسخان نسيرهما وسط سهول منزرعة قبل أن نصل إلى الهضاب الجرداء التى تقع فوقها الأهرام على حافة الصحراء الليبية .

وكلما اقتربنا صغر حجم تلك الأهرام الشامخة . ولا شك أن رؤياها من بعيد هى التى تجعل عرضها يبدو مساويا لارتفاعها . ومع ذلك فإذا ما وصلنا إلى قاعدتها ، وصرنا فى ظلال تلك الجبال التى شيدها الإنسان ، تملكتنا الروعة واستبد بنا العجب . فإن السلم الذى علينا أن نجتازه لنصل إلى قمة الهرم الأول تبلغ ارتفاع الدرجة من درجاته متراً .

وقد تولت قبيلة من الأعراب مهمة حماية المسافرين وإرشادهم فى صعودهم الهرم الأكبر . فما إن يلمح هؤلاء القوم أحد المستطلعين يقترب من منطقة نفوذهم حتى يهرولوا لاستقباله راكضين بجيادهم ، فى مظاهرة سلمية ، وهم يطلقون الأعيرة النارية للدلالة على استعدادهم لخدمته والدفاع عنه ضد هجمات بعض البدو من محترفى السلب والنهب الذين قد يتصادف وجودهم .

أما اليوم فإن هذا الافتراض يقابل من المسافرين بالابتسام. فقد اطمأنوا مقدماً لزوال هذا الخطر. أما فى القرن الماضى فإن جماعة من ممثلى قطاع الطرق المزيفين كانت تفرض عليهم الأتاوات . وبعد أن ترهبهم وتسلبهم أموالهم تعيد الأسلحة إلى القبيلة التى تتولى حمايتهم ، وكانت هذه الأخيرة تتقاضى بناء على ذلك جزاء سخيا فى مقابل الأخطار والجروح التى قد تحدث نتيجة لهذه المعركة التمثيلية .

ولقد خصصوا لى أربعة من الرجال لإرشادى ومساندتى فى أثناء صعودى. ولم أكن أفهم أول الأمر ، كيف يتسنى لى اجتياز درجات تصل أولاها فى ارتفاعها إلى صدرى . ولكن ما هى إلا لمحة عين حتى قفز اثنان من الأعراب فوق هذه المصطبة الهائلة ، وأمسك كل منهما بأحد ذراعى ، بينما دفعنى الآخــــران من تحت كتفى . وكان الأربعة لدى كل حركة من هذه المناورة ينشدون فى صوت واحد الآية التى تنتهى بالترنيمة العتيقة ياليسون ! (١)

وعدوت هكذا سبع درجات بعد المائتين ، ولم يكن أمامى سوى ربع ساعة لأصل إلى القمة ، وكلما توقفنا لحظة لالتقاط أنفاسنا وجدنا أمامنا فتيات صغيرات لا يكاد يستر أجسادهن سوى قيص من النسيج الأزرق . ومن الدرجة التى تعلو تلك التى تقف عليها يقربن من فمك قلة فخار طينية فتنعشك مياهها الباردة لحظة .

وليس هناك أكثر جموحا من تلك البدويات الصغيرات اللاتى يتسلقن الهرم كالقردة بأقدامهن الصغيرة العارية، واللاتى يعرفن كل ما بين الأحجار الهائلة المتراصة من التواءات . وحينما نصل إلى القمة تنفحهن منحا مالية ونقبلهن، ثم مانشعر إلا وأذرع الأعراب الأربعة ترفعنا وتصل بنا إلى جهات الأفق الأربعة .

إن سطح ذلك الهرم تبلغ مساحته مائة متر مربع تقريبا، ويدل مابه من كتل غير منتظمة على أن ذلك السطح لم يتكون إلا على إثر تهدم القمة المدببة التى كانت تشبه ولا ريب قمة الهرم الأوسط . ومازالت تلك القمة سليمة ونتأملها فى إعجاب بروائها الجرانيتى من تلك المسافة القريبة . لقد كانت الأهرام الثلاثة ، هرم خوفو وخفرع ومنقرع ، مزدانة جميعا بمثل هذا الغطاء المائل للحمرة والذى كان يرى إلى عهد هيرودوت . ثم تعرت منه

---

(١) لا توجد آية فى القرآن الكريم تنتهى بهذا اللفظ القبطى .

شيئاً فشيئاً ، كلما كانوا يحتاجون فى القاهرة إلى بناء قصور للخلفاء والسلاطين .

إن المنظر ، كما تستطيع أن تتصور ، بالغ الروعة من فوق ذلك السطح. فالنيل يمتد ناحية الشرق ابتداء من رأس الدلتا إلى ما وراء سقارة ، حيث نستطيع أن نلمح أحد عشر هرماً أصغر من أهرام الجيزة . أما من جهة الغرب فتبدو سلسلة الجبال الليبية محددة لتموجات الأفق المغبر . وغابة النخيل التى تحتل مكان منف القديمة تمتد ناحية الجنوب ، كما لو كانت ظلا مائلا للخضرة . ولدى مدخل صحراء الشام ترسل القاهرة المستندة بظهرها إلى سلسلة جبال المقطم الجرداء قبابها ومآذنها الشامخة . إن كل هذا يعرفه الناس جميعاً ، فلست أرى داعياً لوصفه بالتطويل . ولكن إذا منحنا الإعجاب هدنة يستريح فيها وتجولنا بأنظارنا وسط أحجار السطح عثرنا على مايعوضنا عن مبالغات الحماس . إن جميع الإنجليز الذين جازفوا وصعدوا إلى هذا المكان قد حفروا ، بطبيعة الحال ، أسماءهم على الحجارة . وخطر لبعض المضاربين منهم أن يعطوا عناوينهم للجمهور . بل وقد خطر لتاجر من تجار السيجار فى « بيكاوللى » أن يحفر بعناية فوق كتلة حجرية مزايا اختراعه . . إلى غير ذلك من الغرائب الكثيرة التى غرسها فنانونا الرحالة ، لتكون بتناقضها خروجا مريحا عمـــا يميز الذكريات الكبيرة من رتابة .

٢ - السطح

أخشى أن اضطر إلى تصديق ما يقال من أن نابليون نفسه لم ير الأهرام إلا من السهل . فهو لم يكن ليضطر إلى تعريض هيبته إلى درجة أن يترك نفسه بين أذرع أربعة من الأعراب كبالة من البضاعة صغيرة تتداولها يد بعد يد . ولا بد أنه اكتفى بأن يرد التحية من أسفل على الأربعين قرناً ، طبقاً لحسابه ، التى كانت تتأمله فى إعجاب . وهو على رأس جيشنا المظفر .

وبعد أن جبت بعينى كل ذلك المنظر الفسيح المحيط بنا ، وقرأت بعناية تلك الكتابات الحديثة التى تهيء لعلماء المستقبل أكبر الصعوبات ، أخذت أستعد للنزول حينما عبر سيد أشقر فارع القامة مورد الوجه ، يرتدى قفازيه بعناية ، عبر السلم ذا الأوجه الأربعة ، كما فعلت أنا من قبله بقليل ، وحيانى بتحية متكلفة كنت أستحقها بصفتى أول من احتل هذا المكان . وظننته بادىء ذى بدء وجيها إنجليزيا . أما هو فقد عـــرف فى الحال أننى فرنسى .

ولم ألبث أن ندمت لحكمى السريع عليه . فلو كان إنجليزيا لما حيانى، لأنه لا يوجد هنا على سطح هرم خوفو شخص آخر يستطيع أن يقدم أحدنا للآخر . وقال لى ذلك السيد المجهول بلهجة ألمانية خفيفة :

— إننى سعيد يا سيدى إذ أجد هنا شخصا متمدينا . فإننى بكل بساطة ضابط من حرس صاحب الجلالة ملك بروسيا ، وقد حصلت على أجازة للحاق بحملة السيد « لبسيوس ». ولما كانت تلك الحملة قد مرت بهذا المكان منذ بضعة أسابيع ، فإننى مضطر إلى أن أوجه نفسى فى تيارها .. وذلك بزيارة الأماكن التى لا بد أنها قد ارتادتها .

وما إن أتم حديثه هذا،حتى قدم لى بطاقة،وإذاهو يدعونى إلى الذهاب لزيارته إذا ما تصادف ومررت بيوتسدام .

ولما لاحظ أنى أستعد للنزول أضاف قائلا :

ولكنك تعلم أن العرف قد جرى بأن يتناول الناس هنا وجبة خفيفة. وهؤلاء القوم الكرماء الذين يحيطون بنا ينتظرون أن نشركهم فى طعامنا المتواضع . فإذا كانت شهيتك مفتوحة ،فإنى أقدم إليك نصيبك من كعكة أعدها لى أحد عربانى :

وإذاكان التعارف يتم بسرعة فى الأسفار، فإنه فى مصر ، وعلى قمة الهرم الأكبر على وجه الخصوص ، يصبح الأوربى للأوربى إفرنجيا أى مواطنا . إن الخريطة الجغرافية لقارتنا الصغيرة أوربا تفقد من تلك المسافة البعيدة ما بها من تقسيمات مختلفة،وأستثنى من ذلك الإنجليز الذين يقيمون خارج القارة فى جزيرة بمفردهم .

ولقد راقنى كثيراً حديث البروسى فى أثناء تناول الطعام . وكان يحمل معه خطابات تحوى أحدث أخبار رحلة السيد « لبسيوس » التى كانت فى تلك اللحظة تستكشف المناطق المجاورة لبحيرة موريس والمدن تحت الأرضية التى توجد فى التيه القديم . فقد كان العلماء فى برلين قد اكتشفوا مدنا بأسرها مدفونة تحت الرمال ومبنية بالآجر . إنها مدن كبومبى وهركولانوم مبنية تحت الأرض ولم تر أبداً النور . وقد يعد تاريخها إلى زمن سكان الكهوف فى جنوب شرق مصر . ولم أستطع إلا الاعتراف بأن تلك ، بالنسبة للعلماء البروسيين ، مهمة نبيلة أن يوالوا السير فى طريق معهدنا المصرى ، وإنهم ولا ريب قادرون على إتمام أعماله المجيدة .

إن وجبة الطعام فوق سطح هرم خوفو وجبة اضطرارية فى الواقع بالنسبة للسياح . مثلها فى ذلك مثل الوجبة التى يتناولونها على رأس عمود

يومي فى الإسكندرية. وقد كنت سعيداً بمقابلة ذلك الرفيق المثقف اللطيف الذى ذكرنى بذلك . وكانت البدويات الصغيرات قد احتفظن بما يكفى من الماء فى جرارهن الفخارية ذات المسام، متيحات لنا بذلك فرصة ترطيب جوفنا بالماء، وبعد ذلك نرطب حلوقنا بماء العرق من قنينة كان أحد الأعراب ممن يتبعون البروسى يحملها معه .

وفى هذا الوقت اشتد لهب الشمس بدرجة لا تسمح لنا بالبقاء طويلا فوق السطح . وكان الهواء المنعش قد جعلنا لا نشعر بلهيبها مدة طويلة . كان علينا أن نترك السطح وندخل الهرم الذى يقع مدخله لدى الثلث الأول من ارتفاعه تقريبا . وعلى ذلك فقد أنزلونا مائة وثلاثين درجة، وذلك بأن لجئوا إلى طريقة مضادة لتلك التى أصعدونا بها . كان اثنان من الأعراب يتوليان تدليتنا من أكتافنا من أعلى كل درجة ، ثم يسلماننا إلى أذرع زملائهما الممتدة . ولا تخلو تلك الطريقـــة فى الهبوط من الخطر ، وقد تهشمت رأس أكثر من مسافر أو أطرافه . ومع ذلك فقد وصلنا إلى مدخل الهرم دون أن تحدث لنا حادثة .

إنه أشبه شيء بمغارة ذات أعمدة رخامية وقبة مثلثة يعلوها حجر عريض تسجل عليه الكتابات الفرنسية حادثة وصول جنودنا إلى هذا الأثر . إنه بطاقة زيارة الجيش الذى غزا مصر قد حفرت على كتلة رخامية ، يبلغ عرضها ستة عشر قدماً، وبينما كنت اقرأ فى إجلال أرانى الضابط البروسى أسطورة أخرى محفورة فى مكان أسفل من ذلك، ومكتوبة باللغة الهيروغليفية والغريب أنها حديثة الحفر . وكان يعرف معنى هذه الكتابة الهيروغليفة الحديثة المكتوبة طبقا لطريقة شامبليون فى قواعد اللغة . وقال إنها تعنى أن الحملة العلمية التى بعث بها ملك بروسيا والتى يقودها لبسيوس قد زارت أهرام الجيزة ، وهى تأمل أن تصادف نفس التوفيق فى اجتياز ما يعترضها من صعاب أخرى فى مهمتها .

وكنا قد عبرنا مدخل المغارة . ولدى دخولنا هب نحو عشرين أعرابيا من ذوى اللحى ممنطقين بنطاق محشو بالمسدسات والخناجر واقفين من المكان الذى كان يرقدون فيه فترة القيلولة . وقال لنا أحد قادتنا الذى كان يبدو أنه قائد الآخرين كذلك :

ـــ انظروا كم هم مروعين . : انظروا إلى مسدساتهم وبنادقهم .

ـــ هل يريدون سرقتنا ؟

ـــ بالعكس ! فهم هنا لحراستكم فى حالة ما إذا هاجمتكم الجماعات الهمجية فى الصحراء .

ـــ يقولون إنها اندثرت منذ حكم محمد على !

ـــ آه ! ما زال هناك كثير من الأشرار ، هناك خلف الجبال .. ومع ذلك فبقرش إسبانى تحصلون من هؤلاء الشجعان الذين ترونهم هنا على الحماية من أى اعتداء خارجى .

وقام الضابط البروسى بتفتيش أسلحتهم، ولم يبد عليه أنه مقتنع بقدرتهم على التخريب . ولكن لم تكن المسألة تزيد فى نظرى عن خمس فرنكات وخمسين سنتيما أو « تالرى » ونصف بالنسبة للبروسى . وقبلنا العرض وتقاسمنا التكاليف مع جعلهم يلاحظون أننا لم نصدق ما ادعوا من افتراضات .

وقال المرشد .

ـــ كثيراً ما يحدث أن تغير القبائل المعادية على هذه المنطقة، وخصوصا حينما تشم رائحة بعض أغنياء الأجانب ...

ومن المؤكد أن الأمر ليس مستحيل الوقوع ، وأنه لابد أن يكون وضعا محزنا أن نجد أنفسنا سجناء داخل الهرم الأكبر. إن القرش الأسبانى الذى سوف نمنحه للحرس يؤكد لنا أن ضمائرهم لن تطاوعهم على أن يوجهوا لنا تلك الدعاية المكشوفة .

ولكن هل هناك مظهر يدل على أن هؤلاء القوم الشجعان قد خطرت

لم تلك الفكرة لحظة واحدة ؟ إن جدية ما اتخذوه من استعدادات ، ثمان شعلات أضيئت فى لمح البصر ، واهتمامهم بأن يجعلوا الفتيات الصغيرات اللاتى تحدثت عنهن يسبقننا ، كل ذلك ولا شك كان جد مطمئن .

كان علينا أولا أن نحنى الرأس والظهر ، وأن نضع أقدامنا بحذق فى شرخين من الرخام . يحفان بهذا المهبط من جهتيه . وبين الشرخين توجد شبه هوة يبلغ عرضها مسافة ما بين الساقين المنفرجتين . وينبغى أن يحـــذر المرء من أن يدع نفسه يسقط . ونتقدم هكذا خطوة خطوة مرسلين أقدامنا ما استطعنا ذات اليمين وذات اليسار ، تسندنا فى الواقع أيدى حاملى المشاعل .

وهكذا نهبط ونحن فى انحناء دائم إلى نصفنا مسيرة مائة وخمسين خطوة تقريبا .

وابتداء من تلك اللحظة ينمحى فجأة خطر السقوط فى الشرخ الكبير الذى كنا نراه بين قدمينا ، وتحل محله مشقة الزحف على بطوننا تحت قبة مردومة ردما جزئيا بالرماد والرمال . والأعراب لا ينظفون هذا الممر إلا بقرش أسبانى آخر ، والأغنياء الممتلئو الجسم هم عادة الذين يمنحونهم هذا القرش .

وبعد أن نزحف بعض الوقت تحت هذه القبة الخفيضة مستعينين على ذلك بالأيدى والركب تنهض لدى مدخل دهليز جديد لايزيد فى ارتفاعه عن سابقه . وبعد مسيرة مائتى خطوة صعودا نصادف ما يشبه الميدان يتوسطه جب عريض عميق مظلم ينبغى أن تلف حوله لكى تصل إلى السلم المؤدى إلى غرفة الملك .

وهناك يطلق الأعراب طلقات نارية، ويوقدون النار فى بعض الحطب

لإخافة الخفافيش والثعابين على حد قولهم . إن القاعة التى توجد بها ، وهى ذات سقف محدودب كظهر الحمار يبلغ طولها سبعة عشر قدما وعرضها ستة عشر .

ولما عدنا من استكشافنا العقيم هذا كان لزاما علينا أن نستريح لدى مدخل المغارة الرخامية . وكنا نتساءل عما عسى أن يعنى ذلك الدهليز الغريب الذى صعدنا إليه فى الحال ، وماذا يعنى قضيبا الرخام اللذان تفصلهما الهوة واللذان ينتهيان على بعد بملتقى فى وسطه ذلك الجب الغامض الذى لم نتمكن من رؤية قاعه .

وبعد أن استعاد الضابط البروسى ذاكرته قدم لى شرحا لا يخلو من المطابقة للمنطق عن الغرض من مثل هذا الأثر . وليس هناك أقدر من الألمانى على فهم خفايا الآثار . أما الغرض من الدهليز المنخفض المزدان بالقضبان والذى هبطنا وصعدنا عليه بكل هذه المشقة فهو ، حسب ما يقول الآتى : لقد كانوا يجلسون الرجل الذى يتقدم لتحمل تجارب الإعداد للكهنوت فى عربة . وتهبط العربة تدفعها إلى الهبوط قوة انحدار الطريق ولما تصل إلى مركز الهرم يستقبله الكهنة السفليون الذين يشيرون له إلى الجب ويحملونه على أن يلقى بنفسه فيه .

وطبيعى أن يتردد طالب الكهنوت ، فكانوا يعتبرون تردده هذا دليلا على الحذر . وحينئذ كانوا يأتون له بشبه خوذة يعلوها مصباح مشتعل . وبعد أن يزود بهذا الجهاز كان ينبغى عليه أن يهبط فى حذر إلى الجب . وكان يعثر هنا وهناك على فروع حديدية يستطيع أن يسند إليها قدميه .

وتستمر عملية الهبوط طويلا . ولا يزوده المصباح الموضوع فوق رأسه إلا ببصيص ضعيف من النور . وعلى عمق مائة قدم تقريبا يصادف مدخل دهليز يحيط به سور ما يلبث أن ينفتح أمامه . وفى الحال يظهر ثلاثة رجال ذوو أقنعة من البرونز تحاكى وجه أنوبيس الإله الكلب .

وعليه ألا يخاف تهديداتهم ويستمر يسير قدما بعد أن يلقيهم أرضاً . ثم يسير بعد ذلك قرابة فرسخ ، حتى يصل إلى مكان فسيح يبدو كأنه غابة كثيفة مظلمة .

وما أن يضع قدمه في الممر الرئيسي ، حتى تسطع الأنوار في كل مكان، كما لو كانت حريقا كبيراً . ولكنها ليست إلا نيرانا صناعية ومواد حمرية متداخلة مع فروع من حديد. وينبغي للطالب أن يجتاز الغابة ولو كلفه ذلك بعض الحروق ، وعادة كان يفلح في ذلك .

وفي نهاية الغابة يوجد نهر يجب عليه عبوره سباحة . وما يكاد يصل إلى نصف المسافة حتى تضطرب مياهه ـ بشده نتيجة لحركة عجلتين هائلتين ، فتوقفه تلك الحركة وتصده . وفي الوقت الذى تكاد قواه تخور فيه يظهر أمامه سلم من حديد يبدو أنه وجد لينتزعه من خطر الموت في الماء .وهذا هو الاختبار الثالث . ولكن ما إن يضع قدمه على درجة من درجاته حتى تفلت الدرجة التي تعداها وتسقط في الماء . وتهب ريح عاتية فتزيد في في تعقيد ذلك الوضع الأليم فتهز ضرباتها السلم والطالب على السواء .

وفي اللحظة التي يوشك أن يفقد فيها كل قواه يجب عليه أن يكون من حضور الذهن بحيث يمسك بحلقتين من الصلب يراهما تتدليان نحوه . وعليه أن يظل معلقا بهما مشدود الذراعين ، حتى يرى بابا ينفتح فيصل إليه بعد مجهود عنيف .

وهنا تنتهي الاختبارات الأربعة الأولية : وحينئذ يصل طالب الكهنوت إلى المعبد، فيدور حول تمثال إيزيس وتتلقاه الكهنة بالتهاني .

٣ — الاختبارات

تلك هى الذكريات التى حاولنا أن نبدد بها وحشة ذلك المكان الضاربة . وقد أخذنا نضيف مختلف الافتراضات على الأحداث الحقيقية التى أقرت بها التقاليد العتيقة . كل هذا والأعراب يحيطون بنا وقد عادوا يغطون فى نومهم فى انتظار أن يرطب نسيم المساء الجو ، حتى نستطيع الخروج من المغارة الرخامية . إن طقوس الكهنوت الغريبة التى طالما وصفها الكتاب الإغريق ممن شاهدوا إجراءها كانت لنا ذات أهمية كبيرة نظراً لأن حكايتها كانت مطابقة تماما لطبيعة الأماكن .

وقلت للألمانى : كم يكون جميلا لو عرض هنا « الناى المسحور » لموزار . ودهشت كيف لم يفكر أى ثرى فى منح نفسه لذة إشباع هواه بمثل هذا المشهد ؟ فبمبلغ بسيط جداً يمكن تنظيف كل هذه الممرات وتخليصها مما تزدحم به . ثم يكفى بعد ذلك استقدام كل الفرق الإيطالية التى تعمل بمسرح القاهرة بالملابس الملائمة . تخيل صوت « زاراسترو » الراعد عندما يدوى فى أقصى قاعة الفراعنة ، أو « ملكة الليل » حينما تظهر على عتبة الغرفة التى تسمى غرفة الملكة ، وترسل إلى القبة المعتمة معزوفاتها الرائعة على « البيانو » . تصور أنغام الناى السحرى خلال تلك الممرات الطويلة ، ثم تقطيب « بابانو » وارتياعه وهو يسير خلف سيده طالب المسوح ، وقد أجبر على أن يواجه أنوبيس المثلث ، ثم الغابة المحترقة تليها القناة المظلمة التى تخضها العجلات الحديدية ، ثم السلم العجيب بدرجاته التى تنفصل الواحدة إثر الأخرى بمجرد أن يصعد فوقها محدثة فى سقوطها خريراً مشئوماً .

فقال الضابط :

— من الصعب تنفيذ كل ذلك فى داخل الأهرام . . . فقد قلنا إن

طالب الكهنوت كان يتبع ، ابتداء من الجب ، دهليزا يبلغ طوله نحو فرسخ . وهذا الطريق تحت الأرضى كان يوصله إلى معبد يقع على أبواب منفيس التي رأيت موقعها من أعلى الهرم . ولدى انتهاء هذه الاختبارات كان يرى نور النهار ، أو تمثال إيزيس فيظل محجوباً عن نظره . ذلك أنه ما زال أمامه اختبار أخير ، اختبار معنوى ، لا ينبئه شيء عنه ، ويظل هدفه مكتوماً عنه . وكان الكهنة قد حملوه على الأكتاف احتفالا به بصفته قد أصبح واحداً منهم ، وردد المرددون والآلات الموسيقية أنغام انتصاره . ولكن ما زال أمامه أن يتطهر بالصوم واحداً وأربعين يوماً قبل أن يصبح فى مقدوره أن يتأمل الإلهة الكبيرة أرملة أوزيريس . وهذا الصوم يتوقف كل يوم لدى غروب الشمس ، فيسمح له بأن يستعيد قواه ببعض أوقيات من الخبز وكأس من ماء النيل . وفى أثناء طقوس تلك التوبة الطويلة يستطيع الطالب أن يتحدث ، فى ساعات معينة ، مع الكهنة والراهبات الذين تنقضى حياتهم كلها فى المدن تحت الأرضية . وله الحق فى أن يوجه الأسئلة إلى أى منهم . ويلاحظ عادات هذا الشعب المتصوف الذى اعتزل العالم الخارجى ، والذى روع عدده الهائل الملكة سميراميس الظافرة حينما شاهدت ، وهى تبنى أساس مدينة بابل المصرية (القاهرة القديمة) انهيار قباب إحدى مدن الموتى ، ورأت أن ساكنيها من الأحياء .

— وبعد انقضاء الواحد والأربعين يوماً ، ماذا يكون مصير طالب الكهنوت ؟

— عليه أيضاً أن يتحمل ثمانية عشر يوماً من العزلة يلتزم فيها بالصمت المطلق . ولكن يسمح له بالقراءة والكتابة . وبعد ذلك يجتاز امتحانا يحلل فيه وينتقد كل ما أتى فى حياته من أعمال . ويستمر هذا اثنى عشر يوماً أخرى . ثم يرقد ثمانية أيام أخرى خلف تمثال إيزيس بعد أن

يتوسل إلى تلك الآلهة أن تظهر له فى أحلامه، وأن تلهمه الهداية . وأخيراً وبعد حوالى ثلاثة أشهر ، تنتهى الاختبارات . وإن ما يأمل الكاهن الجديد فى الحصول عليه من قداسة ، تعززها القراءات والتعاليم والصوم ، قد أوصله إلى درجة من الحماس جعلته جديراً بأن يرى ما كان يخفى الآلهة عنه من حجاب مقدس ، فيراه يسقط أخيراً أمام ناظريه . وهنا تصل دهشته إلى ذروتها ، إذ يرى ذلك التمثال البارد يدب فيه الحياة ، ويرى ملامحه قد شابهت المرأة التى يحبها أكثر قدر من حبه ، أو المثل الذى اتخذه لنفسه عن الجمال الكامل .

وفى اللحظة التى يمد فيها ذراعه ليمسك بها ، تختفى فى سحابة من العطر . وحينئذ يدخل الكهنة فى أبهة كبيرة ويعلنون أن الكاهن الجديد قد صار مثيلا للآلهة ثم يتخذ مكانه فى وليمة الحكماء ، ويسمح له بأن يتذوق أفخر الأطعمة وينتشى بالنوطاب من أطعمة الدنيا مما لا تخلو منه هذه الحفلات . وهكذا لم يعد عنده إلا شىء واحد يأسف عليه ، هو أنه لم تتح له إلا لحظة واحدة يتأمل فيها الآلهة التى ظهرت وتنازلت وابتسمت له . إن أحلامه سوف تردها إليه ، فإن النوم الطويل الذى استغرق فيه ، والذى سببه له رحيق اللوتس الذى سكبوه له فى كأسه فى أثناء المأدبة ، سمح للكهنة بنقله إلى بعد بضع فراسخ من منفيس ، على شاطىء البحيرة الشهيرة التى ما زالت تحمل اسم قارون . وهناك كان زورق من الزوارق فى استقباله ، فحمله ، وهو لم يزل نائما ، إلى إقليم الفيوم هذا . وهو واحة رائعة ما زالت حتى اليوم موطن الورود. وهناك واد سحيق تحيط الجبال ببعض أجزائه ، وتفصل البعض الآخر عن باقى أجزاء البلاد هوات حفرتها يد البشر . وقد عرف الكهنة كيف يجمعون فى تلك الهوات ما تبعثره الطبيعة كلها من ثروات إن أشجار الهند واليمن ترى فيها وقد تعانقت أوراقهما الكثيفة وأزهارهما الغريبة مع أغنى ما فى أرض مصر من مزروعات .

وكان هناك بعض الحيوانات المستأنسة مما يحلى تلك الزخرفة الرائعة ويحييها . ويرقد طالب الممسوح ، وهو مستغرق فى نومه ، على العشب . ولدى إفاقته يلقى نفسه فى عالم يبدو أنه صورة مجسمة لما فى الطبيعة التى خلقها الله من كمال . وينهض ليستنشق هواء الصباح النقى ، وقد انعشته حرارة الشمس التى لم يرها منذ مدة طويلة . ويأخذ ينصت إلى تغريد الطيور المنتظم ، ويعجب بالأزهار الشذية وبسطح الماء الساكن يحف به نبات البردى وتتألق فيه زهور اللوتس الحمراء كأنها الكواكب ، ويخط له طائر النحام الوردى والبشاروش خطوطا منحنية رشيقة . ولكن مازال هناك شىء ناقص حتى تبدو تلك الوحشة . إنها امرأة ، عذراء بريئة ، من الشباب بحيث تبدو هى نفسها ، وكأنها خرجت من حلم صباحى طاهر . لقد كانت من الجمال بحيث لو نظرنا إليها من قريب لاستطعنا أن نتعرف فى شخصها على ملامح إيزيس الرائعة تبدو لنا من خلال سحابة . هكذا كانت تلك المخلوقة المقدسة التى أصبحت رفيقة طالب الكهنوت الظافر وما نال من جزاء .

وهنا رأيت من الضرورى أن أقاطع قصة العالم الألمانى البرلينى المصورة تلك . فقلت له :

— يخيل إلى أنك تقص على قصة آدم وحواء .

فأجاب :

— تقريباً .

والواقع أن ذلك الاختبار الأخير الرائع وغير المتوقع الذى يجتازه طالب الكهنوت فى مصر هو نفسه الذى قصه موسى فى « سفر التكوين » ففى هذه الحديقة الرائعة توجد شجرة معينة كانت فاكهتها محرمة على الكاهن الجديد الذى استقبل فى الفردوس . ومن المقطوع به أن ذلك

الانتصار الأخير على النفس هو خاتمة فترة الإعداد للرهبنة . والدليل على ذلك أنه عثر فى مصر العليا على رسوم بارزة عمرها أربعة آلاف سنة، وتمثل رجلا وامرأة تحت شجرة ، والمرأة تقدم الفاكهة لرفيق وحدتها . وحول الشجرة ثعبان ملتو يمثل « تيفون » إله الشر . والواقع أنه كان يحدث عادة أن يخضع طالب الكهنوت ، بعد أن توصل إلى قهر تلك الأخطار المادية جميعا ، لهذا الإغراء الذى تكون خاتمته طرده من الجنة الأرضية . ويكون عقابه حينئذ أن يهيم فى الأرض ، وأن ينشر فى الأمم الأخرى التعاليم التى تلقاها من الكهنة .

أما إذا حدث عكس ذلك ، وقاوم ذلك الإغراء الأخير ، وهو أمر نادر الحدوث ، فإنه يصبح معادلا للملك فى مركزه ، ويتجول فى شوارع منفيس وسط موكب النصر ، ويصبح شخصه مقدساً .

وقد حرم موسى من الشرف الذى كان يتوقعه ، لأنه فشل فى الاختبار الأخير . ولما جرح كبرياؤه لتلك النتيجة دخل فى حرب سافرة مع الكهنة المصريين ، وكافح ضدهم بالعلم والمعجزات ، وانتهى بتخليص أمته بأن لجأ إلى مؤامرة نعرف جميعاً نتيجتها .

ولا بد أن البروسى الذى قص على كل هذا كان ابنا لفولتير ... فهذا الرجل كان زنديقا كفردريك الثانى . ولما لم أستطع منع نفسى من إبداء تلك الملاحظة له قال لى :

— إنك على خطأ : فنحن معشر البروتستانت نميل إلى تحليل كل شىء . ولكننا لسنا أقل تدينا من غيرنا فإذا ظهر لنا واضحا أن قصة الجنة الأرضية والتفاحة والثعبان قد عرفها قدماء المصريين، فهذا لا يدل فى شىء على أن تلك القصة ليست مقدسة . وإنى على استعداد للاعتقاد بأن

الأسرار الأخير هذا ما هو إلا عرض صوفى للشهد الذى حدث فى الأيام الأولى للعالم . وإذا كان قد وصل إلى موسى عن طريق المصريين ، أمناء الحكمة الأولى ، أو إذا كان قد استعان ، لدى كتابة « سفر التكوين » بما خبر هو نفسه من انطباعات ، فإن ذلك لا يضعف الحقيقة الأولى ... إن تريبتو ليموس وأورفيوس وفيثاغورس قد مروا بمثل ذلك من اختبارات .

وكان ما حصل عليه أورفيوس من نجاح أقل من موسى . فقد فشل فى الاختبار الرابع الذى سيتحتم عليه فيه أن يكون حاضر الذهن لدرجة ، أن يمسك بالحلقات المعلقة فوق رأسه عندما تبدأ الدرجات الحديدية فى أن تهرب من تحت قدميه .. فسقط فى القنال وانتشل منها بصعوبة . وبدلا من أن يصل إلى المعبد كان عليه أن يعود أدراجه ، وأن يصعد من جديد حتى مخرج الأهرام . وفى أثناء الاختبار خطفت منه زوجته فى حادث من تلك الحوادث المألوفة التى يسهل على الكهنة تدبيرها . وبفضل مواهبه وسمعته حصل على حق إعادة الاختبارات من جديد وفشل فى اجتيازها مرة أخرى . وهكذا فقد يوريديس زوجته إلى الأبد ، واضطر إلى أن يبكيها فى منفاه .

فقلت له :

— إن هذا السر يجعل من اليسير تفسير جميع الأديان من الوجهة المادية . ولكن ماذا نجنى من وراء ذلك ؟

— لا شىء .. وإنما قد توصلنا إلى قضاء ساعتين فى حديث عن الأصول الأولى والتاريخ . والآن لقد حل المساء ، وينبغى أن نبحث عن مكان نأوى إليه .

وقضينا الليل فى فندق إيطالى يقع بالقرب من هذا المكان . وفى اليوم التالى قادنا الأعراب إلى مكان منفيس التى تقع على بعد يقارب فرسخين إلى الجنوب . ولا يمكن التعرف على أطلالها .وفوق ذلك فهناك غابة من النخيل تغطيها.ويوجد وسطها تمثال سيزوستريس الضخم الذى يبلغ ارتفاعه ستين قدما . إلا أنه يرقد على وجهه فوق الرمال . هل أعيد الحديث عن سقارة التى تصل إليها بعد ذلك ، وعن أهرامها ،وهى أصغر حجما من أهرام الجيزة ، ونميز وسطها الهرم الآجرى الكبير الذى بناه العبرانيون؟ أن هناك مشهدا أكثر إثارة للاستطلاع ، ألا وهو الجزء الداخلى من مقابر الحيوانات التى نعثر عليها فى أعداد كبيرة فى الوادى . فهناك مقابر للقطط والتماسيح وطيور أبى منجل ، والدخول إلى تلك المقابر جد عسير ؛ فالرماد والتراب يزكم أنوفنا ، وقد نضطر إلى الولوج فى ممرات لا نمر فيها إلا على ركبنا . ثم إذا بنا نلقى أنفسنا فى أماكن فسيحة تحت الأرض نعثر فيها على ملايين الحيوانات فى أكوام مرتبة ترتيبا حسنا . وتلك الحيوانات من التى تصادفها فى الوادى فى أعداد كبيرة . وقد أجهد المصريون الخيرون أنفسهم فى تضميخها بالعطور وتكفينها كما يفعلون بالآدميين . إنك تجد مومياء كل قطة ملفوفة بلفائف يبلغ طولها هندازات(١) كثيرة وقد تغطت بالكتابات الهيروغليفية من أولها الى آخرها . وقد تكون تلك الكتابات خاصة بحياة الحيوان وفضائله . ويحدث نفس ذلك فيما يختص بالتماسيح ... أما عن طائر أبى منجل ،فإن بقاياه تحفظ فى أوان من فخار طينية ، وترص على مساحة لا حصر لها كما لو كانت أوانى للمربى فى مخزن ريفى .

واستطعت أن أقوم بالمهمة التى كلفنى بها القنصل فى سهولة . ثم

---

(١) مقياس كان مستعملا فى مصر فى أوائل هذا القرن ، ومازال معروفا فى بعض البلاد العربية ،وهو أكثر قليلا من نصف المتر.

افترقت عن الضابط البروسى الذى واصل رحلته إلى صعيد مصر . وعدت إلى القاهرة فى زورق فى النيل .

وأسرعت بالتوجه إلى القنصل حاملا الطائر الذى حصلت عليه بكثير من التعب . ولكنى علمت أن القنصل المسكين قد شعر بأن حالته تزداد سوءا خلال الأيام الثلاثة التى استغرقتها أعمالى الكشفية ، فتوجه إلى الإسكندرية عن طريق النيل .

ثم علمت بعد ذلك أنه مات فى أسبانيا .

٤ — الرحيل[٢]

إننى أغادر آسفا مدينة القاهرة العتيقة التى عثرت فيها على آخر ما خلف الفن العربى من آثار ، والتى لم تكذب ما كان لدى من أفكار عنها استقيتها من القصص والحكايات المتوارثة عن الشرق . وكنت قد رأيتها مرات كثيرة فى أحلام الشباب،حتى أنه كان يخيل إلى أننى عشت فيها يوما ما . وقد استطعت أن أكون لنفسى فكرة عن القاهرة فى الماضى من خلال الأحياء المهجورة والمساجد المتداعية ! وكان يخيل إلى أننى أطبع أقدامى فى آثار خطواتى الماضية ، وكنت فى سيرى أقول لنفسى : « حينما أدور حول ذلك الجدار أو أعبر ذلك الباب ، فإننى سوف أرى كذا وكذا . . . وكنت أجد ما أتوقع ، مهدماً ، ولكنه حقيقة واقعة .

ولكن لنترك ذلك جانبا . إن قاهرة الماضى تلك ترقد تحت رفات الموتى والتراب . إن الفكر والتقدم الحديثين قد تغلبا عليها كما تغلب عليها الموت . ولن تمضى بضعة أشهر حتى تكون الشوارع الأوربية ذات الزوايا القائمة قد قسمت تلك المدينة المغبرة الصامتة العتيقة التى تتهدم فى هدوء على رءوس الفلاحين المساكين . أما ما يضىء ويتألق وينمو فيها فهو الحى الإفرنجى ، الذى يعتبر مدينة الإيطاليين والبروفانسيين والملطيين ، ومخزن المستقبل للهند الإنجليزية . إن « شرق » الأيام الخالية يوشك أن يستهلك ملابسه القديمة وقصوره العتيقة وعاداته البالية . ولكنه يمر بيومه الأخير ، وفى إمكانه أن يقول ما كان يقوله أحد سلاطينه : « إن القدر أطلق سهمه ، وقد أصابنى وانتهيت ! »

إن الذى ما زالت الصحراء تفرض عليه حمايتها ، بأن تغمر شيئا فشيئا فى رمالها يقع خارج جدران القاهرة . إنها مدينة المقابر ووادى الخلفاء.

الذى يبدو أنه كان يظل تحت جناحه ، كمدينة هركولا نوم ، أجيالا طواها الزمن ، ولم تستخدم قصوره وأروقته وأعمدته ورخامه الثمين وسقوفه وجدرانه الداخلية المطلية والمذهبة وأسواره وقبابه ومآذنه ، التى تكاثرت فى جنون ، إلا فى تغطية النقوش .

إن عقيدة الموت صفة خالدة من صفات مصر ، وهى تفيد على الأقل فى حماية تاريخ البلاد الرائع ونقله إلى العالم كله .

٥ ـ الـزورق

١ ـ استعدادات الإبحار

كان الزورق الذى أقلنا إلى دمياط يحتوى كل أثاث البيت الذى جمعته فى القاهرة خلال إقامتى التى دامت ثمانية أشهر . . وكان يتكون من : الجـــارية ذات البشرة الذهبية التى باعنى إياها عبد الكريم ، والصندوق الأخضر الذى يضم الأشياء التى تركها لها بائعها وصندوق آخر يضم ما أضفت أنا من أشياء ، وآخر يحتوى على ملابسى أزيا كإفرنجى ، وهى آخر ما نلجأ إليه إذا ما صادفنا سوء الحظ ، مثلها مثل ملابس الراعى التى احتفظ بها أحد الأباطرة لتذكره بحالته الأولى . وفوق ذلك كل أدوات المنزل والأثاث التى كان لا بد منها لفرش منزلى فى الحى القبطى ، والتى كانت تتكون من بعض القلل والأباريق المرطبة للماء ، والغلايين والنرجيلات والحشايا القطنية وأقفاص من سعف النخيل تستخدم كأرائك وأسرة ومناضد ، كما أنها تيسر لك فى السفر امر نقل الدواجن المختلفة والحمام .

وقبل رحيلى توجهت إلى السيدة بونوم مستأذنا فى السفر ، تلك الشقراء الساحرة التى تعتبر منقذة المسافر . وكنت أقول : « ياللأسف ! ستمر بى فترة طويلة لا أرى فيها إلا وجوها ملونة ، وسأتحدى الطاعون الذى استقر فى دلتا مصر ، وعواصف خليج الشام الذى ينبغى عبوره فى زوارق واهية . إن رؤيتى تلك السيدة ستكون لى بمثابة ابتسامة أخيرة أتلقاها من أرض الوطن !

إن مدام بونوم من ذلك النوع من الجمال الأشقر الذى نراه فى جنوب فرنسا ، والذى أبرزه الفنان جوزى فى « نساء البندقية » التى تغنى بها بترارك احتفاء بنساء مقاطعة بروفانس الفرنسية . ويبدو أن تلك الجميلات اللطيفات

الخارجات على قياس الطبيعة يدن بشعورهن الذهبية إلى مجاورتهن للبلاد الآلية ، وأن عيونهن السوداء هى وحدها التى استسلمت لحرارة شواطىء البحر الأبيض المتوسط . إن لون بشرة الفلامنديات الرقيقة الصافية وكأنها من الأطلس الوردى تتكون فى المواضع التى توجه إليها الشمس لفحة بسيطة من عنبرها فتذكرنا بعرائش الكروم فى الخريف ، حيث تحتجب إلى الأعناب البيضاء نصف احتجاب تحت الأغصان الحمراء المحملة بالعناقيد. أيتها الوجوه الحبيبة ، أهكذا ، وعلى ضفاف النيل تتركن الأسى فى نفسى ، وتخلفن لى الذكريات ؟ ومع ذلك فقد كانت بجوارى سيدة أخرى ذات شعر أسود كالأبنوس وقناع ثابت يبدو كأنه قدمن رخام أسود ذى عروق ذهبية . إنه نوع من الجمال الصارم الجاد كالتماثيل التى كانوا يعبدونها فى آسيا . ويذكرنا سحره المستضعف المتوحش ، إذا أمكننا الجمع بين هاتين الصفتين ، بمرح الحيوان السجين ، وما يمتزج به مرحه من جد وصرامة .

وقادتنى مدام بونوم إلى حانوتها الذى يغص بكل ما يلزم السفر من أدوات . وكنت أستمع إليها فى إعجاب وهى تعدد مزايا تلك الأدوات اللطيفة التى يرى الانجليز أنها كفيلة بأن تخلق فى الصحراء ، عند الحاجة ، كل ماعرفته الحياة الحديثة من وسائل الراحة . كانت تشرح لى بلهجة بروفانسية خفيفة كيف يمكننا أن نقيم ، لدى أقدام نخلة أو مسلة ، شققا كاملة للسادة والخدم بما فى ذلك الأثاث والمطبخ ، وكل هذا محمل على ظهر جمل، كما يمكننا إعداد ولائم عشاء أوربية لا ينقصها أى شىء من لحم بالصلصة بأنواعه المختلفة إلى بشائر الخضر والفاكهة ، وكل ذلك بفضل المعلبات التى ينبغى أن نعترف أنها أحياناً تكون بالنسبة لنا ذات مورد عظيم .

فقلت لها :

— واحسرتاه ! لقد أصبحت بدويا قلبا وقالبا ، فأنا آكل وأستطيب الذرة المشوية على قرص ذى أسياخ ، والعجوة المقلية فى الزبد وعجينة

المشمش والجراد المدخن .. وأعرف كيف أحصل فى الصحراء على دجاجة مسلوقة ، دون أن أتكلف عناء نزع ريشها :

فقالت مدام بونوم :

— إنى أجهل هذا النوع من الترف .

— إليك هذه الوصفة التى أعطانيها أحد الذين اعتنقوا الإسلام من المسيحيين، وهو شخص حاذق . وقد رآها تنفذ فى الحجاز : فأتى بدجاجة :

— فقاطعت مدام بونوم قائلة :

— هل الدجاجة ضرورية ؟

— إنها ضرورة مطلقة ، مثلما يكون الأرنب البرى ضرورى لطبخ صحن الأرنب بصلصة النبيذ والبصل :

وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك نوقد النار بين حجرين ، ونأتى بالماء .

— ها نحن قد أحضرنا عددا لا بأس به من الأشياء !

— إن الطبيعة هى التى تزودنا بها . ولن نحتاج إلا لماء البحر .. فهو يؤدى نفس الغرض ويغنى عن استعمال الملح .

— وأين تضع الدجاجة ؟

— آه ! هنا يتجلى الذكاء . ماعلينا إلا أن نصب الماء على رمل الصحراء الناعم ... وهذا عنصر آخر تمنحه لنا الطبيعة . وينتج عن ذلك نوع من دقيق الفخار ، وهو نظيف ذو فائدة عظيمة فى عملية الإعداد .

— ثم تأكل دجاجة مسلوقة فى الرمل .

— إنى أطلب منك دقيقة أخيرة من الإصغاء . وسوف نصنع من هذا الفخار كرة سميكة ، على أن ندخل فيها هذا الطائر أو أى طائر آخر .

— إن هذا جد مثير .

— ثم نضع كرة الرمل على النار ، مع تقليبها من حين لآخر . وحينما تجمد القشرة بدرجة كافية وتتخذ ، فى جميع مواضعها ، لونا جميلا نرفعها من فوق النار ، ويكون الطائر قد تم نضجه .

— وهذا كل ما فى الأمر ؟

— لا .. لم ينته كل شىء بعد : بعد ذلك نكسر الكرة التى تكون قد تحولت إلى آجر ، فينزع ريش الطائر ، الذى التصق بالفخار ، بمجرد أن نخلصه من بقايا ذلك القدر المرتجل.

ولكن تلك وليمة المتوحشين !

— كلا ! إنها بكل بساطة دجاجة مطهوة فى حمام مائى .

ورأت مدام بونوم أنه لافائدة من الجدال ، مع مسافر على هذا القدر من الحنكة والتجارب . فوضعت جميع الأفران المصنوعة من الحديد الأبيض والخيام والوسائد والأسرة المصنوعة من المطاط والمختومة بالخاتم الإنجليزى فى أماكنها .

فقلت لها :

— ومع ذلك فإننى أود أن أجد لديك شيئاً ينفعنى .

فقالت مدام بونوم .

— إليك ما تريد ، فإنى واثقــــة أنك نسيت شراء راية . لابد لك من راية .

— ولكنى لست ذاهبا للحرب .

— إنك ستهبط النيل .. إذن فأنت محتاج إلى علم مثلث الألوان فى الجزء الخلفى من زورقك ، لكى تكسب احترام الفلاحين .

ثم أخذت تعرض على مجموعة من الأعلام تحمل الشعارات البحرية لجميع البلدان ، وهى مرصوصة بطول الحائط .

وكنت على وشك أن أجذب إلى القناة ذات الطرف الذهبى المدبب التى تتدلى منها أنواتنا ؛ ولكن مدام بونوم أمسكت بذراعى قائلة :

إن لك حرية الاختيار ، فلست مضطراً لإظهار جنسيتك . ويختار أمثالك من السادة عادة الأعلام الإنجليزية . فهذا كفيل بتأكيد طمأنينتهم .

فقلت لها :

— آه يا سيدتى ! إننى لست من هؤلاء السادة !

فقالت مبتسمة :

— هذا ما كنت أعتقده .

إنى أحب الاعتقاد بأن أهل باريس ليسوا هم الذين يقبلون أن يتجولوا على صفحة النيل العتيد ، حيث رفرف علم جمهوريتهم فيما مضى ، حاملين الأعلام الإنجليزية . إن المنادين بالحقوق الشرعية منا عندما يذهبون إلى بيت المقدس يختارون علم سردينيا ، وهذا مثلا أمر لا أرى غضاضة فيه .

٢ - الحفل العائلى

أبحرنا من ميناء بولاق. وفى دقائق اختفت عن أنظارنا قصر البك المملوك الذى تحول اليوم إلى مدرسة للهندسة ، والمسجد الأبيض المجاور له ، ومعارض بائعى الأوانى الفخارية الذين يعرضون على الشاطىء أباريق الفخار المصنوعة فى « طيبة » ، والتى تجلبها السفن من أعالى النيل ، وورش بناء السفن التى تحف من بعيد بضفة النهر اليمنى . وسرنا حذاء الشاطىء نحو جزيرة من طرح النهر تقع مابين بولاق وامبابة . ولكن لم يلبث شاطئها الرملى أن صدم بمقدمة السفينة . وأخذ قلعا الزورق يرتعشان ، دون أن يمتلئا بالريح . وصاح ربان المركب أو الريس .

— بطال ! بطال !

وربما كان يقصد بذلك الريح . والواقع أن الأمواج الحمراء ، وقد تغضن سطحها بتأثير هبة من الهبات الهوائية المضادة ، كانت تقذف وجوهنا برغائها . وأخذ الماء فى دورانه خلف القارب يتخذ ألوانا أرتوازية عاكسا ألوان السماء .

ونزل الرجال إلى البر لتخليص الزورق والالتفاف به . وهنا بدأ الغناء الذى يلازم به النوتية المصريون كل مناوراتهم والذى لا تتغير لازمته أبداً : « ياليسون » ! وفى لحظة تخلص خمسة أو ستة من الرجال الشجعان من قيصهم الأزرق وبدوا كأنهم تماثيل من برونز فلورنسا . وانهمكوا فى هذا العمل ، وقد انغمست أقدامهم فى الوحل . وكان الريس جالسا فى مقدمة الزورق كالباشا ، وهو يدخن نرجيلته فى غير اكتراث . وبعد مضى ربع ساعة عدنا ادراجنا إلى بولاق ، وقد انحنينا على صفحة الماء نغمس فيها طرف الصارى .

ولم نكد نتعدى مائتى خطوة على صفحة النهر، حتى كان علينا من جديد أن ندير القارب الذى جنح هذه المرة فى البوص، ثم عاد مرة أخرى فاصطدم بالجزيرة الرملية . وأخذ الريس يردد بين الفينة والفينة : بطال ! بطال !

وتعرفت إلى اليمين على الحدائق والبيوت الصغيرة الضاحكة التى تحف شبرا . كان شجر الجميز الضخم الذى يحيط بذلك الممر يردد صياح الغربان تقاطعها أحيانا صيحات الحدئات المقبضة .

لم تكن هناك أية زهرة من زهور اللوتس ، ولا أى طائر من طيور أبى منجل ، ولا شىء من مميزات الطابع المحلى فى الماضى . وإنما كنا نرى هنا وهناك الجاموس بأجساده الضخمة ، وقد انغمر فى الماء . وكذلك ديكة فرعون ، وهى أنواع من الطيور ذات الريش الذهبى كنا نراها تطير فوق غابات البرتقال والموز النامية بالحدائق .

وكنت قد نسيت مسلة هليوبوليس التى تشير بأصبعها الحجرى إلى الحد بين المدينة وصحراء الشام المجاورة ، والتى كنت آسفاً لأنى لم أرها إلا من بعيد . ولم يكن لهذا الأثر أن يختفى من أفق المنظر أمامنا طيلة اليوم ، لأن سير الزورق استمر فى خط ملتو ..

وحل المساء ، وأخذ قرص الشمس يهبط خلف حاجز الجبال الليبية قليل التعاريج .. وانتقلت الطبيعة طفرة واحدة من الظلال البنفسجية التى تميز الغروب إلى ظلام الليل المائل للزرقة .. ولمحت من بعيد أضواء مقهى من المقاهى، وهى تسبح فى زيتها الشفاف . وكان صوت الناى والربابة الحاد الكريه يرافق هذه الأنشودة المصرية المعروفة : ياليل !

وكانت هناك أصوات أخرى تعتبر ردا على البيت الأول : « ياليل الفرح ! » كانوا يتغنون بسعادة الأصدقاء المنسجمين المجتمعين ، بالحب

وبالرغبة ، وهى لهب مقدس ينبعث من النور الصافى الذى لايوجد إلا فى السماء . وكانوا يدعون أحمد المختار زعيم الأنبياء . وكانت هناك أصوات أطفال مجتمعين تردد المقطع الثانى من تلك الدفقة الحية اللذيذة التى تطلب إلى الله أن ينزل بركته على أفراح الأرض الليلية .

كان واضحا أن الأمر يتعلق بمناسبة عائلية مقدسة . وكانت زغاريد الفلاحات ذات الوقع الغريب تتبع ترديدات الأطفال ، وكان ذلك الوقع يلائم مناسبة الموت، كما يلائم مناسبة الزواج . ذلك أنه فى جميع احتفالات المصريين نجد ذلك الخليط من الفرح الشاكى أو الشكوى التى تقاطعهافورات من الفرح ، وهو ما كان يلاحظ، فى العالم القديم ، على قائمة كل مايؤدون فى حياتهم من أعمال .

وأرسى الريس قاربنا وربطه إلى وتد مغروس فى الرمال، وأخذ يستعد للنزول . وسألته عما إذا لم نكن سنفعل أكثر من التوقف لدى القرية التى نراها أمامنا . فأجاب بأنه ينبغى لنا قضاء الليل فيها ، بل البقاء حتى الساعة الثالثة من اليوم التالى ، وهو الوقت الذى تهب فيه الرياح الجنوبية الغربية (وكنا فى موسم الرياح الموسمية) .

فقلت له :

— كنت أعتقد أننا سنسحب القارب بالحبال، حينما لا تكون الريح موائية

فأجاب :

— إننا لم ننص على ذلك فى اتفاقنا ..

والواقع أنه قبل رحيلنا ، حررنا عقدا مكتوبا أمام القاضى . ولكن هؤلاء القوم قد دسوا عليه قطعاً كل ما يريدون . ومع ذلك فلست عجلا

فى الوصول الى نهاية الرحلة . وان الظروف التى قد تجعل المسافر الإنجليزى يقفز من الغيظ لم تفعل سوى أن منحتنى فرصة التعمق فى دراسة فرع النيل ، النيل العتيد ، الذى يهبط منه النيل من القاهرة إلى دمياط ، وذلك لقلة من ارتادوه من قبلى .

وأعجب الريس بهدوئى فقد ،كان يتوقع من جانبى اعتراضات عنيفة . وسحب القوارب غالى التكاليف نسبيا . فبخلاف العـــدد الكبير من النوتية الذين يحتاجهم على القارب ، فإنه يتطلب مساعدة بعض الرجال الاحتياطيين الذين تختلف درجاتهم وأعدادهم من قرية إلى قرية .

ويتكون الزورق من غرفتين مطليتين ومذهبتين من الداخل فى فى أناقة . ولهما نوافذ ذات قضبان حديدية تطل على النهر ،وتحصر فى إطارها منظر الضفتين بشكل يروق للنفس : وتزين جوانب الزورق باقات الورود والكتابات العربية المعقدة. وفى جانب كل غرفة يوجد صندوقان من الخشب فيتيحان لك فى أثناء النهار ، الجلوس معقود الساقين ،وفى أثناء الليل ، الاستلقاء على الحصر أو الوسائد . وتستخدم الغرفة الأولى عادة للاستقبال والثانية للحريم . والغرفتان تقفلان بالقفل فى إحكام ، فلا يستطيع دخولهما سوى الفئران وهى صاحبة امتياز ، وعلينا أن نقبل رغم أنفنا مشاركتها لنا فى مجتمعنا. إلا أن البعوض والحشرات الأخرى تعتبر رفاق سفر أقل لطفا من الفئران.

ولكنا نتجنب قبلاتها الغادرة فى أثناء الليل بأن نرتدى قمصانا فضفاضة نعقد فتحتها بعد أن ندخل فيها كما لو كانت أكياساً.وهى تغطى الرأس بغلالة مزدوجة نستطيع من تحتها أن نتنفس فى سهولة ويسر .

وكان واضحا أن علينا قضاء الليل فى القارب . وأخذت أستعد لذلك حينما أتى الريس ، وكان قد نزل إلى البر ، للقائى مهللا ودعانى لمرافقته . وراودنى قليل من الخوف من ترك الجارية فى القمرة ، ولكنه قال لى هو نفسه : أنه من الأوفق اصطحابها معنا .

٣ - الختان

حينما نزلنا إلى ضفة النهر لاحظت أن المكان الذى نزلنا فيه ، ما هو إلا شبرا . كانت أمامنا حدائق الباشا بما فيها من أحواض نبات الرند التى تزين مدخلها . وكان إلى يسارنا طائفة من البيوت الفقيرة المبنية من اللبن تمتد على جانبي الطريق ، وكان المقهى الذى لفت نظرى يحاذى النهر ، أما البيت المجاور له فكان بيت الريس ، وقد ألح علينا فى أن ندخله .

وقلت فى نفسى إن قضاء اليوم بطوله على شاطىء النيل أمر يستحق هذا العناء . إننا لم نبعد عن القاهرة إلا فرسخا واحداً . وكم كانت تحدونى الرغبة فى العودة إليها لقضاء الأمسية وقراءة الصحف لدى مدام بونوم، لولا أن الريس كان قد أوصلنا أمام منزله ، وكان واضحا أن هناك حفلا من الملائم أن نحضره .

وفى الواقع كان الغناء الذى وصل إلى سمعنا صادرا من هنا . كان هناك جمع من الناس سمر البشرة مختلطين بزنوج حقيقيين ، وقد انغمس الجميع فى اللهو والمرح . وتوصل الريس ، ولم أكن أفهم لهجته الإفرنجية المطعمة بالعربية إلا فهما ناقصا ، إلى إفهامى أنه حفل عائلى بمناسبة ختان ابنه . وحينئذ أدركت لماذا لم نقطع من الطريق إلا ذلك القدر اليسير .

لقد تمت طقوس الحفل البارحة فى المسجد ، وما نحن إلا فى اليوم الثانى من أيام الفرح . إن الحفلات العائلية لفقراء المصريين هى حفلات عامة ، ولذا كان الطريق غاصا بالناس : كان هناك نحو ثلاثين طفلا من زملاء المختون الصغير يملئون قاعة من القاعات المنخفضة . وكانت النساء من أقارب زوجة الريس أو صديقاتها يكون حلقة فى القاعة الداخلية .

وتوقفنا نحن قريباً من باب تلك القاعة . وأشار الريس إلى الجارية التى كانت تتبعنى ودلها على مكان إلى جوار زوجته . فتوجهت إليه تلك دون تردد وجلست على بساط السيدة ، بعد أن قدمت اليها التحيات التقليدية .

وأخذ القوم يوزعون القهوة والغلايين وبدأ بعض النوبيين فى الرقص على نغمات الدربكة (وهى طبلة من الفخار) . وكانت كثيرات من النساء يمسكن بها بإحدى أيديهن ويقرعنها بالأخرى . ولابد أن أسرة الريس كانت فى فقر مدقع، فلم تتمكن من استقدام « العوالم » البيضاوات . بيد أن النوبيين كانوا يرقصون لمزاجهم الخاص. وكان رئيس الفرقة يأتى بالحركات التهريجية المعتادة ،وهو يقود خطوات أربع من النساء قد اندفعن فى تلك الحجلة المخبولة التى سبق لى أن وصفتها ، والتى لا تختلف فى أى مكان عن الآخر، إلا بنسبة تقل أوتكثر طبقا لحماس القائمين بتنفيذها .

وخلال فترة من فترات الاستراحة من الموسيق والرقص أجلسنى الريس إلى جوارشيخ هرم،قال لى إنه أبوه . ولما علم هذا الشيخ بالبلدالذى أنتمى إليه استقبلنى بجملة ترحيبيةأصلها فرنسى ،ولكنطريقة نطقه جعلتها مضحكة . وكانت هذه هى كل ما حفظته ذاكرته عن غزاة عام ١٨٩٨ . وأجبته صائحا : « نابليون» ! فلم يبد عليه أنه فهم . وأدهشنى ذلك ، إلا أننىعدتفتذكرتأن هذا الاسم لم يبدأ استعماله إلامنعهدالإمبراطورية، فقلت له بالعربية :

— هل عرفت بونابرت ؟

فمال برأسه إلى الخلف بطريقة حالمة ، وبدأ يغنى بأعلى صوته :

« يا سلام بونابرته »

. . ولم يول الريس تلك الذكريات اهتماما،وذهب قريبا من الأطفال، وكان يبدو أنهم يعدون العدة لحفل جديد .

ولم يلبث الأطفال فى الواقع أن اصطفوا صفين ، ونهض غيرهم من الناس ممن كانوا مجتمعين فى البيت .

كان القوم يستعدون للتجول بالطفل فى القرية،بعدأن تجولوا به البارحة فى القاهرة . وأحضروا لذلك جوادا ذا رشمه ثمينة . وأجلس الصبى الصغير الذى يبلغ السابعة من عمره على البردعة ، وأمسك به اثنان من أقاربه من الجهتين . وكان مغطى بملابس وزينات نسائية ،من المحتمل أن تكون كلها مستعارة . وكان مزهوا كإمبراطور ، يغطى فمه ، حسب التقاليد ، بمنديل ولم أجرؤ على النظر إليه فى إمعان ،لأنى أعرف أن الشرقيين يخشون ، فى هذه الحالة ، عين الحسود . ولكننى كنت ألاحظ جيدا كل دقائق الموكب التى لم أتمكن أبداً من ملاحظتها جيداً فى القاهرة، حيث لا تكاد تختلف تفاصيل حفل الختان عن حفل الزواج .

ولم يكن فى هذا الحفل مهرجون عراة الأجسام يمثلون المعارك بحرابهم ودروعهم ، ولكن كان بعض النوبيين يسيرون على عكاكيز ويتسابقون بعصى طويلة ، وذلك لجذب الجماهير . وبعد هؤلاء يبدأ الموسيقيون سيرهم يليهم الأطفال،وقدارتدوا أجمل حللهم ، ويقودهم خمسة أوستة من الشيوخ الذين كانوا يرددون المواويل الدينية. يلى ذلك الطفل وقد امتطى صهوة حصانه وأحاط به أقرباؤه ، وأخيرا نساء الأسرة تتوسطهن الراقصات فى غير حجاب . وكلما توقف الركب كانت تلك الراقصات يعاودن حجلهن المثير ولم ينس القوم حاملى قنينات العطور ولا الأطفال الذين يهزون القماقم (وهى قنينات من ماء الورد يرشون بها المتفرجين) إلاأن أهم شخصيات الموكب كانت ولا ريب شخصية الحلاق ، وهو يمسك بيده الآلة العجيبة (التى سوف يجربها الصبى المسكين فيما بعد) بينما كان مساعده يمسك بطرف حربة تتأرجح فوقها لافتة محملة بمزايا مهنته . وكان زميل من زملاء المختون

يسير أمامه، وقد علق فى رقبته لوح الكتابة، وقد زينه مدرس المدرسة ببعض الكلمات المنسوخة نسخا جميلا . وخلف الحصان كانت هناك امرأة ترش الملح رشا مستمرا لإبعاد الأرواح الشريرة . وينتهى الموكب ببعض النساء المأجورات اللاتى يستخدمن كذلك كندابات فى احتفالات الدفن . وهن يرافقن مواكب الزواج والختان بنفس الولولة التى يمتد اصلها إلى الماضى السحيق .

وبينما كان الموكب يجوب شوارع قرية شبرا الصغيرة القليلة السكان بقيت أنا مع جد المختون، بعد أن حاولت عبثا بكل ما لدى من جهد منع الجارية من اللحاق بالنساء الآخريات . وكان لابد من استعمال كلمة «مفيش» تلك الكلمة نافذة المفعول لدى المصريين ، لكى أمنعها من القيام بما ترى أنه من واجبات اللياقة والدين . وأخذ الزنوج يعدون الموائد ويزينون القاعة بالأغصان .

٤- الصـــرافه (١)

ولدى عودة المختون ، أتى جميع الأطفال للجلوس أربعة أربعة حول الموائد المستديرة التى احتل مدرس المدرسة والحلاق والمشايخ أماكن الشرف فيها . أما غيرهم من كبار الشخصيات ،فينتظرون نهاية الوجبة حتى يشتركوا هم بدورهم فيها .

أما التربيون فقدجلسوا أمام الباب،وتناولوا ماتبقى فى الصحاف،ووزعوا ما زاد عن حاجتهم على الفقراء الذين اجتذبتهم ضوضاء الحفل . ولا تصل العظام إلى الحلقة الأخيرة من المدعوين ، وتتكون من الكلاب الضالة التى اجتذبتها رائحة اللحم ، إلا بعد أن تكون قد مرت بمجموعتين أو ثلاث من المدعوين الأقل شأنا . إن شيئا لا يضيع هباء فى مثل تلك الوليمة الحافلة بالمدعوين. فمهما كان الداعى فقيرا فإن كل كائن حى من حقه أن يطالب بنصيبه من الحفل . صحيح أن من كان منهم على سعة يدفع ثمن نصيبه فى صورة هدايا صغيرة ،وهذا مما يخفف قليلا من العبء الذى تفرضه ، فى هـــذه المناسبات ، عائلات الشعب على نفسها .

وهنا حلت ، بالنسبة للمختون ، اللحظة الأليمة التى ينتهى بها الحفل . فأنهض الأطفال ودخلوا بمفردهم القاعة التى تجلس بها النساء . وأخذوا ينشدون : « أنت يا عمته ، وأنت يا خالته : هيا أعدوا صرافته ! » وابتداء من تلك اللحظة تولت الجارية إعطائى باقى التفاصيل ، فقد حضرت حفل الصرافة .

لقد أتت النساء بشال ناولنه للأطفال ، فأمسك أربعة منهم بأطرافه .

---

(١) تعنى حسب المعنى حفل الختان وما يقدم فيه من « نقوط » .

ووضع لوح الكتابة. فى وسطه. وأخذ الطالب الأول فى المدرسة (العريف)(١) يترنم بلحن كان باقى الأطفال والنساء يرددون من ورائه كل مقطع منه مجتمعين كانوا يسألون الله العالم بكل شىء « والذى يعلم دبة النملة السوداء وما تقوم به من عمل فى الظلمات(٢) أن يمنح هذا الطفل الذى يعرف الآن القراءة ويستطيع فهم القرآن بركته. وأخذوا يشكرون باسمه الأب الذى دفع للأستاذ أجره ، والأم التى علمته الكلام مذ كان فى المهد .

وكان الطفل يقول لأمه : « أطلب من الله أن يجعلنى أراك جالسة فى الجنة تحييك مريم وزينب بنة على وفاطمة بنة النبى ! » :

أما ماعدا ذلك من مقاطع فكانت فى مدح الفقراء ومدرس المدرسة، لأنه تولى شرح سور القرآن المختلفة للطفل وأفهمه إياها .

وتلا تلك الترانيم أناشيد أخرى أقل جدية .

قال العريف :

« يا من يستمعن إلينا من الفتيات ، إنى أتركـكن لعناية الرحمن حينما تكحلن أعينكن وتنظرن فى المرآه ! وأنتن أيتها النساء المتزوجات المجتمعات هنا ، باسم السورة السابعة والثلاثين(٣) ، سورة الاخصاب(٣) ، لتحل بكن البركة .

أما إذا كانت هنا نساء هرمن فى العزوبة فليطردن إلى الخارج بضربات الأحذية القديمة ! . وفى أثناء تلك الطقوس كان الفتيان يتجولون حول القاعة وهم يحملون « الصرافة » . وكانت كل امرأة تضع على اللاح هدايا من قطع

---

(١) العريف مساعد الشيخ فى الكتاب .

(٢) ليست آية قرآنية .

(٣) السورة السابعة والثلاثين من القرآن هى سورة الصافات . يترجمها المؤلف إلى « الإخصاب »

النقود الصغيرة . وبعد ذلك أفرغوا القطع النقدية في منديل، كان على الأطفال أن يهبوا ما فيه إلى « الشيوخ » .

ولما عاد المختون إلى غرفة الرجال أجلس على مقعد مرتفع . ووقف الحلاق ومساعده على جانبيه وقد أمسكا بآلاتهما . ووضع أمام الطفل حوض من النحاس كان على كل من الحاضرين أن يضع فيه هبته . وبعد ذلك أصطحبه الحلاق إلى غرفة منفصلة حيث تمت العملية تحت أعين اثنين من أقاربه ، بينما كانت الصنج تدق لتغطية صرخاته .

ودون أن يولى الجمع هذا الحادث مزيدا من الاهتمام ، استمروا فى قضاء جانب كبير من الليل فى تناول الشراب والقهوة ونوع من البيرة الكثيفة التى يسمونها « البوظة » ، وهو شراب مسكر يستعمله السود بصفة خاصة . ولا ريب أنه هو الشراب الذى أشار اليه هيرودوت وسماه نبيذ الشعير .

٥ - الغابة المتحجرة

لم أكن أدرى كيف أمضى صباح اليوم التالى فى انتظار الساعة التى تهب فيها الريح. واستسلم الريس وجماعته كلها للنعاس، غير مكترثين لتقدم النهار، وذلك أمر يجد أهل الشمال صعوبة فى فهمه. وخطرت لى فكرة ترك الجارية فى الزورق طيلة اليوم، وأن أذهب للنزهة فى طريق هليوبوليس التى تبعد نحو فرسخ واحد على أكثر تقدير.

وفجأة تذكرت وعدا كنت قطعته على نفسى لوكيل من وكلاء البحرية كان قد أعارنى قربته فى أثناء الرحلة من سيرا (إحدى جزر أرخبيل اليونان) إلى الإسكندرية. ولما وجهت إليه شكرى ساعة الوصول قال لى:

« لست أطلب منك إلا شيئا واحدا هو أن تجمع لى بعض قطع من الغابة المتحجرة التى توجد فى الصحراء على مسافة غير بعيدة من القاهرة. وعندما تمر بأزمير تسلمها إلى مدام كارتون بشارع الورد».

إن هذا النوع من الخدمات مقدس بالنسبة للمسافرين. وقد اعترانى الخجل لنسيانى تلك الخدمة، ولذا فقد قررت فى الحال القيام بتلك الرحلة اليسيرة. وبجانب ذلك كنت تواقاً لرؤية الغابة التى لم أكن قادرا على فهم طريقة تكوينها. فأيقظت الجارية التى كانت معتلة المزاج، إلا أنها طلبت البقاء مع امرأة الريس. وعلى ذلك فقد أتتنى فكرة مصاحبة الريس، فإنه بشىء من البساطة فى التفكير، وبفضل ما اكتسبت من تجارب فى دراسة أخلاق هذا البلد، أثبت لنفسى أن طهارة زينب لن تتعرض لأى خطر فى كنف هذه الأسرة المحترمة.

وبعد أن قمت بالاستعدادات الضرورية، وأخطرت الريس نادى على

مكارى ذكى، وتوجهت إلى هليوبوليس تاركا إلى يسارى قناة أوريانوس التى كانت فيما مضى محفورة بين النيل والبحر الأحمر، والتى اتخذنا من مجراها الجاف طريقاً لنا فيما بعد وسط الكثبان الرملية .

إن ضواحى شبرا كلها منزرعة بشكل يدعو إلى الإعجاب . فبعد أن نمر بغابة من أشجار الجميز تمتد حول ثكنات الحرس ، نترك إلى يسارنا مجموعة من الحدائق قد زرعت فيها أشجار البرتقال وسط أشجار النخيل المغروسة على شكل رقعة الشطرنج . وبعد ذلك ، ولدى عبورنا فرعاً من فروع الخليج ، أى قناة القاهرة ، نصل بعد قليل إلى حافة الصحراء التى تبدأ لدى أقصى حد تصل إليه مياه فيضان النيل. هنا تتوقف رقعة السهل الخصبة التى تروى بواسطة قنوات تنساب من السواقى أو الآبار ذات العجلات . وهنا يبدأ هذا الحى الغريب بمقابره التى لا تنتهى إلا عند جبل المقطم ، الذى يسمونه ، فى هذه الناحية ، وادى الخلفاء ، كما تبدأ تشع روح الحزن والموت ، هذا الروح الذى قهر الطبيعة نفسها . هنا يرقد طالون وبيبرس وصلاح الدين والملك العادل وآلاف غيرهم من أبطال الإسلام ، لا فى قبور بسيطة وإنما فى قصور فسيحة ما زالت تتألق بكتاباتها العربية وطلائها الذهبى ، وبما يتخللها من مساجد . ويبدو أن الأشباح التى تسكن تلك المنازل الفسيحة كانت ترغب ، إلى جانب المسكن ، فى أماكن للصلاة والاجتماع تمتلىء فى بعض الأيام ، إذا ما صدقنا القصة المتوارثة عن الأشباح التاريخية .

وبابتعادنا عن تلك المدينة الحزينة التى تبدو فى مظهرها الخارجى كحى من أحياء القاهرة المزدهرة . كنا قد بلغنا مطلع هليوبوليس التى شيدت فيما مضى لحماية تلك المدينة من الفيضانات شديدة الارتفاع . إن ذلك السهل المنبسط الذى نراه فيما وراء ذلك تنتشر فيه نتوءات من التلال الصغيرة تتكون من أكوام من الأنقاض . إنها أطلال قرية من القرى التى تغطى هنا الآثار

المفقودة للمبانى الأولية . ولم يبق فيها أى حائط يقف على قدميه . ولا حجر قديم واحد ينتصب فوق الأرض إلا المسلة التى زرعت حولها حديقة واسعة .

والمسلة تكون المركز لممرات أربعة من أشجار الأبنوس تقسم المكان الفسيح . وقد بنت جماعة من النحل خلاياها فى فجوة وجه من وجوهها ، وهو — كما نعلم — مدرج . وقد قدم . لى البستانى . وهو معتاد زيارة المسافرين ، والزهور والفاكهة . واستعطت أن أجلس برهة ، وأن أسبح بفكرى بعض الوقت فى تلك الفخامة التى وصفها المؤرخ «سترابون» وفى المسلات الثلاث الأخرى الخاصة بمعبد الشمس . وتوجد اثنتان منها فى روما . أما الثالثة فقد تحطمت . وفى تلك الممرات التى تحفها تماثيل أبى الهول المصنوعة من الرخام الأصفر . والتى لم يشاهد منها . فى القرن الماضى ، سوى واحد فقط ، وأخيرا أسبح بفكرى فى تلك المدينة ، مهد العلوم ، التى أمها هيرودوت وأفلاطون ليتعلما أسرارها . ولهليوبوليس من وجهة نظر التوراة ، ذكريات أخرى . فهنا ضرب يوسف الصديق ذلك المثل فى التعفف الذى لم يعد عصرنا ينظر إليه إلا بابتسامة ساخرة . وتأخذ تلك الأسطورة ، فى نظر العرب ، طابعاً يختلف تماما عن مثيله لدينا ، فيوسف وزليخا يعتبران مثلا حيا للحب الخالص وللتغلب على الحس بالواجب والانتصار على الإغراء المزدوج . ذلك أن رب يوسف كان أحد خصيان فرعون . وفى الأسطورة الأصلية التى كثيرا ما يتناولها الشعراء فى الشرق لا يضحى بزليخا العاطفية ، كما هو الحــــال فى الأسطورة التى نعرفها . وقد أساءت نساء منفيس ، فى أول الأمر ، الحكم عليها . ولكن ما لبث الجميع أن التمسوا لها الأعذار حينما خرج يوسف من السجن ، فأخذ كل من فى بلاط فرعون بسحر جماله .

إن شعور الحب العذرى الذى يفترض شعراء العرب أنه كان يعيش فى قلب يوسف وزليخا ، والذى يزيد تضحيته جمالا على جمالها . لم يمنع ذلك القديس من أن يقترن فيما بعد بابنة راهب من رهبان هليوبوليس تدعى

« عظيمة» وقد أسكن يوسف أسرته فى مكان يبعد عن ذلك شمالا ، ويسمى « جسن » ، وهو المكان الذى ظنوا ، فى أيامنا هذه ، أنهم عثروا فيه على بقايا معبد يهودى بناه « أونياس » .

ولم أجد متسعا من الوقت لزيارة ذلك الموطن من مواطن أبناء يعقوب . ولكنى لن أدع الفرصة تفلت منى ، لكى أغسل عن شعب بأسره ، شعب أقررنا عظمة تراثه وعاداته الدينية ، عار خيانة لامه عليها الفلاسفة لوما شديدا . وكنت ذات يوم فى القاهرة ، ناقشت رجلا حاضر البديهة من برلين ، وكان عالما من علماء بعثة السيد لبسيوس ، موضوع هرب شعب الله من مصر .

فقال لى :

— « أتظن أن كل هؤلاء العبرانيين الشرفاء قد قبلوا على رفعتهم استعارة الآنية من قوم كانوا قطعاً ، رغم أنهم مصريون ، جيرانهم أو أصدقاءهم ؟»

فقلت ملاحظا :

— ومع ذلك . فإما أن نصدق ذلك ، أو أن ننكر التوراة .

— قد يكون هناك خطأ فى النص المنقول أو تحريف فى الكلمات .

ولكن تنبه جيدا إلى ما أقول : إن العبرانيين قد اتصفوا فى كل زمان بعبقرية الأعمال المصرفية والحسابات . وفى ذلك العصر الذى كان يتسم بالسذاجة ، لم يكن هؤلاء العبرانيون يقرضون إلا بفائدة ... ولتقتنع جيداً بأن تلك كانت صناعتهم الرئيسية فى ذلك الوقت .

— ولكن المؤرخين يصورونهم ، وقد انهمكوا فى صب الطوب فى

القوالب لبناء الأهرام ، مع أنها فى الحقيقة مبنية بالحجارة ، وكان أجر تلك الأعمال يحسب بالبصل أو غيره من الخضراوات :

— حسن ! فلو أنهم استطاعوا جمع كية من البصل ، فثق تماما أنهم عرفوا كيف يرفعون ثمنها ، وأنها عادت عليهم بفوائد كثيرة غيرها .

— وماذا تستنتج من ذلك ؟

— لا شىء سوى أن الفضيات التى حملوها معهم كانت تكون على وجه الدقة من الرهائن التى رهنت لديهم فى مقابل الديون التى كانت لهم فى منفيس . ولا ريب أن المصريين قد تركوا الفوائد والنفقات تتراكم عليهم ، والدخل بالفائدة القانونية . . .

— بحيث لم تكن هناك جدوى من طلب استرداد رهائنهم .

— إنى لعلى ثقة من ذلك . إن العبرانيين لم يحملوا معهم إلا ما اكتسبوه طبقا لقوانين الحق الطبيعى والتجارى . وبهذا التصرف ـ المشروع قطعا ، قد أسسوا ، منذ ذلك الوقت ، المبادىء الصحيحة للأقراض بالأجل . وإلى جانب ذلك فإن « التلمود » يقول بالحرف الواحد : « إنهم لم يأخذوا معهم إلا ما كان لهم .

وإنى أقدم هذا الزعم « البرلينى » الغريب على علاته .

ولقد كنت أنتظر ، بفارغ الصبر ، أن ألتقى على بعد خطوات من هليوبوليس بذكريات أكبر من تلك عن التاريخ كما تصوره التوراة . وأمر البستانى الساهر على سلامة الأثر الأخير فى تلك المدينة الشهيرة ، التى كانت تسمى فى بادىء الأمر «عين شمس » فلاحا من فلاحيه بمرافقتى إلى المطرية . وبعد بضع دقائق من السير فى الأتربة ، وجدت واحة جديدة ، أى غابة كاملة من أشجار الجميز والبرتقال .

وكان هناك جدول ينساب لدى مدخلها المحاط بالسياج، ويقولون إن هذا هو النبع الوحيد ذو المياه الحلوة الذى رشحته أرض مصر النطرونية . ويرى السكان أن الفضل فى ذلك يرجع للقدرة الآلهية المباركة ، ففى خلال مدة إقامة العائلة المقدسة فى المطرية ، يقولون إن مريم العذراء كانت تأتى إلى هذا المكان لغسل ثياب الطفل الآله . وبخلاف ذلك فهم يفترضون أن تلك المياه تشفى الجذام . وإلى وجوار النبع ترى بعض النساء الفقيرات وقد وقفن يقدمن لك قدحا منه فى مقابل نفحة صغيرة من المال .

وبقى أن أشاهد فى الغابة « شجرة البلسم » التى احتمت تحتها العائلة المقدسة هربا من عصابة قاطع طريق يدعى « ديسما » ، إلا أن « ديسما » هذا الذى أصبح فيما بعد « اللص الطيب » . اكتشف مكان الهاربين . ولكن فجأة لمس الإيمان قلبه لدرجة أنه استضاف يوسف ومريم فى بيت من بيوته يقع فى مكان بمصر القديمة ، وهى التى كانت تسمى فى ذلك الوقت ، بابل المصرية : و « ديسما » هذا ، ويبدو أن أعماله كانت تدر عليه ربحا وفيراً ، كانت له أملاك فى كل مكان . وقد أرونى من قبل ؛ فى مصر القديمة وفى دير من أديرة الأقباط ، قبواً صغيراً قديما مسقفا بالآجر ، يقولون إنه من بقايا منزل « ديسما » الكريم المضياف ؛ بل يقولون أيضاً إنه نفس المكان الذى كانت ترقد فيه العائلة المقدسة .

إن هذا من المتعقدات القبطية . أما شجرة المطرية العجيبة فإنها تحظى بالتبجيل من كل الطوائف المسيحية . ودون ما حاجة الى تصديق أن شجرة الجميز هذه تنتمى إلى ذلك العهد القديم كما يفترضون ؛ فمن الجائز أن نقبل أنها وليدة طلع من طلوع تلك الشجرة القديمة . ولا يزورها أحد منذ قرن من الزمان إلا يعود حاملا معه جزءاً من خشبها أو قشرتها . ومع ذلك فما زالت ذات أبعاد ضخمة ، وتبدو كما لو كانت من أشجار « الباوباب » فى

الهند . وان ضخامة فروعها واتساع شكرها (١) لتتضاءل أمام التسابيح والتعاويذ والصور المقدسة التي يأتي الناس بها من كل فج لتعليقها عليها أو دقها فيها .

ولم نكد نغادر المطرية حتى عثرنا على أرقناة أو ريانوس التي تستخدم الآن كطريق،وتحدث فيها عجلات عربات السويس الحديدية آثارا غائرة . إن الصحراء ليست على ذلك القدر من الجدب الذي نتصوره . فبقايا النباتات البلسمية والأعشاب والـكمآت المتشابكة ونباتات الصبار تغطي الأرض بأكلها تقريبا ، هذا إلى جانب الصخور الـكبيرة التي ترتسم في الأفق وقد ازدانت بنبات العليق .

وتتراجع سلسلة جبال المقطم عن يميننا نحو الجنوب . ولم تلبث صفوفها الآخذة في الضيق ، أن حجبت عنا الرؤيا .

وأشار دليلي بأصبعه إلى التكوين الغريب للصخور التي تشرف على طريقنا : كانت كتلا من الأسماك والقواقع من جميع الأنواع . إن بحر الطوفان . أو لعله ليس إلا البحر الأبيض المتوسط ، كان حسب ما يقول العلماء ، يغطي فيما مضى وادي النيل بأكمله ، وقد خلف وراءه تلك العلامات التي لاشك فيها . ماذا يمكننا أن نتصور أغرب من ذلك ؟ إن الوادي ينبسط ، ويمتد أمامنا أفق شاسع إلى مدى البصر . لم تعد هناك آثار على الأرض ولاطرقات . إن الأرض تبدو مخططة بأعمدة محرفشة السطح رمادية . ياللمعجزة ! تلك هي الغابة المتحجرة .

أية هبة مخيفة تلك التي أرقدت على الأرض في لحظة واحدة جذوع النخيل الهائلة تلك ؟ ولماذا رقدت كلها في اتجاه واحد بفروعها وجذورها ولماذا جمد النبات وتصلب تاركا الألياف الخشبية ومسارب العصارة واضحة؟ إن كل فقرة من فقرات جذوع النخل قد اعتراها شبه انفصال ، ومع ذلك

(١) أي طلوعها .

فقد ظلت الفقرات جميعا من طرف الجذوع إلى طرفها ، باقية كما لو كانت حلقات أجسام الزواحف . ليس ما هو أكثر بعثا للدهشة من ذلك فى العالم . إنه ليس هناك تحجيراً ناتجا من تأثير الأرض الكيميائى ، إذ أن كلها راقدة على سطح الأرض . أهكذا أصاب انتقام الآلهة على رفاق «فينيه»؟ أتكون تلك أرض خلفها البحر ؟ ولكن ليس بها شىء يدل على أثر المياه العادى . أهو طوفان مفاجىء أو تيار من تيارات مياه الطوفان ؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف لم تطف الأشجار فوق سطح الماء؟ إن العقل ليهيم ويضل ، والأوفق ألا تفكر فى ذلك !

وأخيراً غادرت ذلك الوادى الغريب، وعدت مسرعا إلى شبرا . وكنت فى سيرى لا أكاد ألاحظ لجوات الصخور التى تسكنها الضباع والعظام المبيضة من بقايا الجمال التى بعثرتها القبائل المسافرة فى كل مكان .

وكنت أحمل فى فكرى انطباعة أكبر من تلك التى سيتهاروئية الأهرام للوهلة الأولى . إن القرون الأربعين التى عاشتها الأهــــرام لتبدو ضئيلة أمام أولئك الشهود الذين لا يمكن إنكارهم لعالم سابق حاق به الدمار على حين غرة !

٦ - الغذاء في الحجر الصحي

ها نحن من جديد على صفحة النيل. وحتى بلوغي «بطن البقرة»، حيث تبدأ الزاوية السفلى للدلتا، لم أشاهد جديدا، فهاتان الضفتان قد سبق لى رؤيتهما. وأخيراً اختفت اختفاء تاما من الأفق أطراف الأهرام الثلاثة التى تصبغ باللون الوردى صباحاً ومساء، والتى نعجب بها طويلا قبل أن نصل إلى القاهرة، إلا أننا نظل نعجب بها مدة أطول بعد مغادرتنا لبولاق. كنا نسير بحذاء الضفة الشرقية للنيل، أى على المجرى الأصلى للنهر. ذلك أن فرع رشيد، ويرتاده المسافرون الأوربيون أكثر من الآخر، ماهو إلا قصادة عريضة ماتلبث أن تضيع فى الغرب.

إن أهم قنوات الدلتا تنحدر من فرع دمياط. وهو الذى يعرض لنا أغنى المناظر وأكثرها تنوعاً. إنه يختلف عن الضفاف الرتيبة للفروع الأخرى التى لاتحف بها إلا بعض أشجار النخيل الهزيلة والقرى المبنية باللبن، وعليها ترى مقابر المشايخ ذات المآذن منتثرة هنا وهناك، وأبراج الحمام ذات الانتفاخات الغريبة، تلك الهياكل الرفيعة من الظلال التى تصور فى أفق بلا خلفية. وفرع دمياط يروى مدنا على جانب كبير من الأهمية، ويخترق فى كل مكان مزارع خصيبة. ونخيله أجمل من نخيل صنوه، وأكثف منه. وأشجار التين والرمان والتمر الهندى تمنحنا فى كل مكان درجات من الألوان لا نهاية لها فى الخضرة. وجانبا النهر، وهما ذوا روافد كثيرة من قنوات الرى العديدة، مكسوان بالزراعات البدائية. ومن قلب نبات البوص الذى كان يصنع منه فى الماضى البردى والنوفر (١) المختلف الأنواع، والذى قد تعثر فى وسطه على زهر اللوتس العتيد بلونه المائل

---

(١) نبات عرائس النيل

للحمرة، نرى آلاف الطيور والحشرات فى انطلاقها. إنها ترفرف بأجنحتها وتنطلق كالوميض وتحدث ما تشاء من ضجيج، دون أن تحسب حساباً للإنسان. ذلك لأن من يمر بهذا المكان من الأوربيين لا يزيد على عشرة. ومعنى ذلك أن طلقات البنادق قلما تأتى لتشيع الاضطراب فى تلك الوحشة الآهلة. ويرى الأوز البرى والبجع وطائر الغواص الوردى ومالك الحزين بلونه الأبيض وبط الماء وهى تلهو حول الزوارق. أما أسراب الحمام، وهى تستسلم للخوف بسهولة، فتنتشر هنا وهناك فى عقود طويلة وسط زرقة السماء.

ومررنا عن يميننا «بالشرقانية» التى تقع مكان «السركازوردم» القديم، و «دجوة»، وهى مأوى قديم لقراصنة النيل الذين كانوا يتبعون ليلا القوارب سباحة، وهم يخفون رءوسهم فى فجوة ترعة مجزمة، «وأتريب» التى تغطى أطلال «أتريبيس»، و«مترام» وهى مدينة حديثة كثيفة السكان، ويقولون إن مسجدها ذا البرج المربع كان، قبل الغزو العربى كنيسة مسيحية.

وعلى الضفة اليسرى نجد مكان «بوزيريس» واسمها الآن «بوزير»، ولكنها ليس بها أطلال على الإطلاق. وعلى الضفة الأخرى للنهر تجد مدينة سمنود التى كانت فى الماضى تدعى «سبنتيوس»، وهى ترسل قبابها ومآذنها من قلب الخضرة المحيطة بها. ونصادف فى سيرنا بقايا «معبد كبير هائل، يبدو أنه كان معبداً لإيزيس، وهو على مسيرة فرسخين من هذا المكان. ونلاحظ أن أعمدة ذلك المعبد تعلوها رءوس نسائية. وقد استخدم العرب أغلب تلك الأعمدة فى صنع رحى الطواحين.

وقضينا الليل تجاه المنصورة. ولم أستطع زيارة معامل التفريخ المشهورة فى تلك المدينة، ولا «بيت ابن لقمان» الذى عاش فيه لويس التاسع فى سجنه.

---

(١) اسم غير معروف اليوم

وكان هناك خبر سيء ينتظرنى حينما استيقظت من نومى .

كانت راية الطاعون الصفراء مرفوعة على المنصورة ، وكذلك كانت تنتظرنا فى دمياط ، حتى أنه كان من المستحيل أن نفكر فى تموين أنفسنا إلا بالحيوانات الحية . وكان فى هذا ما يكفى لتشويه أجمل منظر فى الدنيا . ولسوء الحظ كذلك أضحت الضفتان أقل خصوبة ، ومنظر مزارع الأرز المنغمرة بالمياه ، والرائحة الكريهة المنبعثة من المستنقعات ، كل ذلك أصبح مسيطراً سيطرة تامة ، فيما وراء فارسكور ، على كل ما ينطبع فى أنفسنا من جمال الطبيعة المصرية . وكان علينا أن ننتظر حتى المساء لكى نلتقى بمشهد النيل الساحر الذى يتسع كالخليج ، وبأكثف ماصادفنا من غابات النخيل ، وأخيراً بمشهد دمياط وهى تحيط الضفتين بمنازلها ذات الطابع الإيطالى ومدرجاتها المنزرعة . وهومشهد لاتستطيع مقارنته إلا بمدخل قناة البندقية ، وتبدو مآذن مساجده بازرة وسط ضباب المساء الملون .

ورسا القارب على الرصيف الرئيسى أمام مبنى فسيح مطلى يعلوه علم فرنسا . ولكن كان ينبغى الانتظار حتى اليوم التالى ، لكى نعرف القوم بأنفسنا ، أو نحصل على حق الدخول بصحتنا الطيبة وسط مدينة أضناها المرض . كانت الراية الصفراء ترفرف حزينة على مبنى البحرية ، وكانت الأوامر الصادرة بخصوص الدخول كلها فى صالحنا . وفى هذا الوقت كانت مئونتنا قد نفذت . ولم يكن ذلك ينذر إلا بغداء تعس فى اليوم التالى .

ومع ذلك فعند مطلع النهار لاحظ القوم علمنا ، وهذا يؤكد فائدة نصيحة مدام بونوم ، وأتى أحد الانكشارية إلى القنصلية الفرنسية ليعرض علينا خدماته . ولما كنت أحمل خطابا للقنصل فقد طلبت أن أرا بنفسه ، وذهب الإنكشارى لإخباره ثم عاد ليصحبنى ، وقال لى أن آخذ حذرى حتى لا ألمس أحدو لا يلمسنى أحد فى أثناء الطريق . كان يسير أمامى بعصاه ذات القبضة الفضية ، مبعداً المستطلعين . وأخيراً صعدنا إلى مبنى فسيح من

الحجر ذى أبواب ضخمة يبدو كأنه خان . ومع ذلك فقد كان مسكن القنصل ، أو على الأصح الوكيل القنصلى الفرنسى . وهو فى نفس الوقت واحد من أكبر تجار الأرز فى دمياط .

ودخلت إلى ديوان حامل الأختام ، ودلنى الإنكشارى على سيده . وبسذاجة كنت على وشك أن أسلمه خطابى فى يده حين صاح بى بلهجة أشد جفاء من لهجة الكولونيل « بارتليمى » عندما كانوا يريدون تقبيله : « قف مكانك » وأبعدنى بعصا بيضاء كان يمسك بها . وفهمت غرضه واكتفيت بعرض الخطاب . وخرج القنصل لحظة دون أن يتفوه بشىء ، ثم عاد وهو يمسك بزوج من الملاقط . وأمسك هكذا بالخطاب ، ووضع طرفا منه تحت قدمه ومزق الظرف بمهارة بحرف الملقط ، ثم فرد الورقة بعد ذلك ، وهو يحرص على أن يجعلها بعيدة بعض الشىء عن عينيه مستعنيا بنفس الأداة .

وحينئذ انبسطت أسارير وجهه بعض الشىء ، ودعا إليه حامل الأختام ، وهو الوحيد الذى يتكلم الفرنسية ، ودعانى إلى تناول الغذاء ، مع تنبيهى بأنه سيكون فى المحجر الصحى . ولم أكن أدرى ماذا عسى أن تكون قيمة دعوة من هذا القبيل . ولكنى فكرت أولا فى رفاقى فى الزورق ، واستفسرت عما يمكن أن تمدهم به المدينة من مئونة .

وأصدر القنصل بعض أوامره إلى الإنكشارى ، واستطعت أن أحصل لهم على بعض الخبز والنبيذ والدجاج ، وهى المواد الغذائية الوحيدة التى ظنوا أنها لا تنقل الطاعون .

ولما كانت الجارية المسكينة قد أدركها السأم فى القمرة ، فقد أخرجتها لتقديمها للقنصل .

ولما رآنى قد عدت بصحبتها قطب حاجبيه . وقال لى حامل أختامه :

ـــ أتريد اصطحاب تلك المرأة إلى فرنسا؟

ـــ ربما ، لو وافقت هى ،ولو تمكنت أنا من ذلك . وفى انتظار ذلك سوف نرحل إلى بيروت .

ـــ أتعرف أنها ما إن تصل إلى فرنسا حتى تصبح حرة ؟

ـــ إنى أعتبرها حرة منذ الآن .

ـــ أتعلم كذلك أنه لو أدركها الضجر فى فرنسا ، فسوف تضطر إلى إعادتها إلى مصر على نفقتك ؟

ولكنى لم أكن أعلم ذلك !

ـــ تحسن صنعا لو أنك فكرت فى ذلك . والأجدر أن تعيد بيعها هنا .

ـــ فى مدينة حل بها الطاعون ؟ لن يكون فى هذا شيء من كريم الأخلاق .

ـــ أيا ما كان فهذا شأنك .

وقد شرح الأمر كله للقنصل الذى انتهى بأن ابتسم ، ورغب فى تقديم الجارية إلى زوجته وفى انتظار ذلك أدخلنا قاعة الطعام . وكان هناك منضدة كبيرة مستديرة تحتل وسط القاعة . وهنا بدأت مراسم جديدة . فقد أشار القنصل إلى المكان الذى كان على أن أجلس فيه لدى طرف المائدة ، بينما اتخذ هو مكانه لدى الطرف الآخر مع حامل أختامه وصبى صغير ، لابد أنه ابنه ، كان قد أتى به من حجرة النساء . وظل الإنكشارى واقفا إلى يمين المائدة ليحمى المسافة التى تفصلنا .

وظننت أنهم سوف يدعون زينب كذلك ، ولكنها كانت قد جلست عاقدة ساقيها على حصيرة ، وعلى سيماها كل مايمكن أن يكون من عدم الاكتراث ، كما لو كانت مازالت في السوق . وربما تكون قد اعتقدت في دخيلة نفسها أنى قد اصطحبتها إلى هنا لبيعها .

وبدأ حامل الأختام الكلام قائلا : لى إن قنصلنا تاجر مسيحى من مواليد الشام . ولما لم يكن العرف يسمح ، حتى لدى المسيحيين ، بإفساح مكان للنساء على المائدة ، فإن سيدة البيت على وشك القدوم تكريما لى .

وفتح الباب فعلا وظهرت سيدة في نحو الثلاثين ، ممتلئة الجسم بشكل ظاهر . وتقدمت في جلال وسط القاعة واتخذت مكانها في مواجهة الإنكشارى على مقعد مرتفع بلا ظهر مسند إلى الحائط . وكانت تغطى رأسها بغطاء كبير في شكل قبة ، وقد التف بقماش الكشمير الأصفر مع بعض الحلى الذهبية . وكان شعرها المجدول وصدرها يتألقان بالماس . كانت تبدو كقديسة ، وكان لونها الأبيض الشاحب يظهر بريق عينيها السوداوين بمالها من جفنين وحاجبين مطليين حسب العادة . وفى جانبى القاعة كان هناك خدم يقومون على خدمتنا، ويقدمون لنا أصنافامتشابهة من الطعام في صحاف مختلفة الشكل . وقد بينوا لى أن الأصناف التى فى جهتى لاحجر عليها ، وليس هناك مايخشى منه لو حدث أن لامست ثيابى بالصدفة ، وكنت لا أكاد أفهم كيف يكون هناك أناس معزولون تماما عن العدوى في مدينة يسكنها الطاعون . ومع ذلك فقد كنت أنا نفسى مثالا لتلك الغرابة .

ولما انتهى الغداء ، وجهت السيدة التى كانت تنظر إلينا في صمت دون أن تتخذ مكانها على مائدتنا ، الكلام إلى الجارية بعد أن لفت زوجها نظرها إليها . فأخذت توجه إليها الأسئلة وأمرت بتقديم الطعام إليها .

فأحضروا منضدة مستديرة صغيرة شبيهة بمناضد أهل البلد ، وتم تقديم الطعام لها ، كما تم بالنسبة لنا ، فى المحجر الصحى .

ورغب حامل الأختام أن يصحبنى بعد ذلك لكى يرينى المدينة . إن صف المنازل الرائعة التى تحف بالنيل ما هو إلا زخرفة مسرحية . أما ما عدا ذلك فمغطى بالتراب له منظر قابض للنفس. كانت الحمى والطاعون تبدو كما لو كانت ترشح من الجدران . وكان الإنكشارى يسير أمامنا وهو يبعد عنا جماعة قذرة فى ملابس زرقاء مهلهلة .

ولم أر فى المدينة مايستحق الذكر سوى قبر شيخ مشهور يبجله البحارة الأتراك ، وكنيسة قديمة بناها الصليبيون على الطراز البيزنطى ، وتل بالقرب من أبواب المدينة يقولون إنه يتكون كله من عظام جيش لويس التاسع .

وكنت أخشى أن اضطر لقضاء أيام طويلة فى تلك المدينة المعزولة . ولكن ، لحسن الحظ ، أخبرنى الإنكشارى فى مساء اليوم نفسه أن السفينة الحربية « سانتا باربارا » ستنشر قلاعها عندمطلع النهار متجهة إلى شواطىء الشام . كان القنصل جادا حينما أراد تأخير سفرى أنا والجارية . ولكن ، فى مساء اليوم نفسه ، كنا نغادر دمياط لكى نلحق ، فى البحر ، بتلك السفينة التى يقودها قبطان يونانى .

الباخرة سانتا بربارا

١ — رفيق الطريق

« ايستمبولدان ! أه ! يلير فيرمان !

يلير ، يلير ، إيستمبولدان ! »

لقد كان صوتا جادا هادئا ، لعله صوت شاب أشقر أو فتاة سمراء . لقد كان ذا نغمة منتعشة أخاذة ، يرن كما لو كان أنشودة صرصور ظمآن وسط الضباب المغبر الذى يميز الصباح فى مصر . ولكى أسمع ذلك الصوت بوضوح فتحت إحدى نوافذ الزروق ، إلا أن حديد النافذة المذهب كان يطل ، للأسف ، على شاطىء قاحل ، كما أننا كنا قد ابتعدنا عن السهول المزروعة وبساتين النخيل الوفيرة التى تحيط بدمياط : فقد غادرنا تلك المدينة لدى مهبط الليل . ومالبثنا أن بلغنا شاطىء « العزبة » ، وهى السلم البحرى لدمياط مدينة الحروب الصليبية والمكان الذى كانت تقع فيه أول الأمر . وكنت على وشك أن أفيق من نومى ، وقد أدهشنى ألا أجد نفسى أتأرجح بتأثير الأمواج . وكان هذا النغم مازال يرن فى أذنى على فترات متقطعة ، كما لو كان صادراً من شخص جالس على الشاطىء ، ولكن تحجبه عنا الجسور المرتفعة ، وعاد الصوت من جديد تصحبه رنة رقيقة حزينة .

كايكلير ! ايستمبولدان !

يلير ، يلير ، ايستمبولدان !

وكان من اليسير على أن أدرك أن تلك الأنشودة تحيي استامبول بلغة جديدة على ، لا نجد فيها بحة الحروف الساكنة المميزة للعربية أو اليونانية

اللتين تعبت منهما أذنى . إن ذلك الصوت كان إعلاما بعيداً عن شعوب جديدة وشواطىء جديدة . وجعلت أتخيل منذ الآن ، وكأنها السراب ، ملكة البسفور وسط مياهه الزرقاء وخضرته الكابية . وهل أقولها صراحة ؟.

كان ذلك التناقض مع الطبيعة الرتيبة المحترقة فى مصر يجذبنى بشكل لايقاوم . لقد كنت أدعو هواء آسيا المنعش إلى نجدة حواسى التى أصابها الصيف بارتخاء ، ولوكلفنى الأمر أن أبكى شواطىء النيل فيما بعد تحت أشجار السرو الخضراء فى حى بيرا (بك أو غلو) الأوروبى فى استامبول. ولحسن الحظ كان وجود الإنكشارى الذى كلفه قنصلنا بمرافقتى يؤكد لى قرب الرحيل .

وكنا فى انتظار الساعة المواتية لعبور البوغاز ، أى الحاجز الذى كونته مياه البحر فى صراعها ضد مجرى النهر . وكان هناك زورق محمل بالأرز يملكه القنصل ، قد كلف بنقلنا إلى السفينة « سانتا بربارا » التى كانت تقف فى البحر على بعد فرسخ من دمياط .

وفى تلك الأثناء كان ذلك الصوت يردد .

« آه ! آه ! دروماتينا !

دروماتينا ديلجديليم ! . »

وكنت أقول فى نفسى . ماذا عسى أن يعنى ذلك ؟ لابد أن تلك اللغة هى التركية .

وسألت الإنكشارى ما إذا كان يفهمها فأجاب :

— « إنها لهجة من لهجات الريف ، ولست أفهم إلا لغة القسطنطينية، أما الشخص الذى يغنى فأفاق بلا مأوى !

ولقد كنت دائماً ألاحظ بألم-الاحتقار الذى يبديه من يشغل وظيفة تابع -للفقير الباحث عن المال أو الذى يحيا حياة مستقلة ، وكنا قد خرجنا من الزورق . ومن أعلى الطريق لمحت شابا راقداً فى غير اكتراث وسط ، باقة كثيفة من البوص الجاف . كان مديراً وجهه للشمس فى بدء طلوعها وقد أخذت تخترق الضباب المخيم على مزارع الأرز شيئاً فشيئاً . لقد كان مسترسلا فى أنشودتهاالتى استطعت أن التقط منها الكلمات التى كانت المقاطع العديدة تكررها .

« ديولدو ! دورو لدومو !

على عثمان يادجنا ماداه ! »

إن فى بعض لغات الجنوب من سحر مقاطع الكلمات ورقة وقع نغمتها التى تلائم أصوات النساء والشبان مايجعلنا نستطيع أن نستمع إليها ساعات طويلة دون حاجة إلى فهم معناها . وهذا اللحن الخامل والتنغيمات المتذبذبة التى تذكرنا بأغانينا الريفية ، كل ذلك كان يسحرنى بالإضافة إلى قـــوة أثر التناقض وأثر الشىء غير المتوقع فيه . كان بذلك اللحن شىء ما يتدفق إلى من كلماته الغنية بحروفها المتحركة والمضبوطة الإيقاع، كما لو كانت شقشقة الطيور ، شىء ما يمت إلى الريف والأحلام الجميلة . وكنت أقول فى نفسى: « لعله لحن من ألحان الرعاة فى مدينة «طرابيزون » أو بحر مرمره » . لقد كنت إخاله هديل الحمام على أطراف أشجار السرو . إنه لحن ينبغى أن يردد فى الوديان الصغيرة الزرقاء حيث ترسل مياهها الرقراقة أشعتها الفضية فتضىء الفروع القائمة لأشجار الشربية ،وحيث تتفتح الورود فى الممرات المرتفعة ، وحيث تتعلق الماعز بالصخور المخضرة ، كما يحدث فى قصائد ينوكريعس الرعوية .

وأخذت اقترب من الشاب الذى لمحنى ، أخيراً ، ونهض مجيبـــا وهو يقول :

— «عم صباحاً ياسيدى».

لقد كان فتى جميلا ذا ملامح شركسية وعينين سوداوين، وكان أبيض اللون أصفر الشعر حليقه. ولكنه لم يكن يحلقه على طريقة العرب. وكانت ملابسه تتكون من ثوب طويل من الحرير المخطط تعلوه عباءة من الصوف الرمادى. وكان يغطى رأسه بطربوش بسيط من الجوخ الأحمر، ولكنه كان أكثر اتساعا من طرابيش المصريين، كما كان زره أكثر تشبعا بالحرير الأزرق. كان ذلك يدل دلالة واضحة على أنه رعية مباشرة من رعايا السلطان عبد المجيد. كان حزامه المصنوع من الكشمير الرخيص يحمل — بدلا من مجموعة الغدارات والخناجر التى يضعها كل رجل، حراً كان أم عبدا فوق صدره — صندوقا من النحاس يبلغ طوله نصف قدم، ويحوى كل مايلزم للكتابة. وكانت يد ذلك الصندوق الشرقى تحتوى على الحبر، وغطاؤه يحتوى على البوص الذى يستخدم فى الكتابة. وكان يبدو من بعيد كأنه خنجر، ولكنه لم يكن سوى الشعار السلمى للرجل المثقف البسيط.

وشعرت طفرة واحدة أننى مفعم بالود لذلك الزميل، وخجلت من أدوات الحرب التى كنت أحملها، والتى كانت، على عكس حالته، تخز مهنتى، وقلت لهذا الرجل المجهول:

— هل تعيش فى هذا البلد؟

— كلا يا سيدى، وإنما قدمت معك من دمياط.

— كيف، قدمت معى؟

— نعم، فقد سمح لى النوتية بالبقاء فى القارب، وصحبونى حتى هنا. وكنت أود أن أقدم نفسى لك، إلا إنك كنت نائما.

فقلت:

— حسن جداً ، وإلى أين أنت ذاهب هكذا ؟

— سوف أطلب منك السماح لى بالولوج إلى الناقلة ، حتى ألحق بالسفينة التى سوف تبحر عليها .

فقلت وأنا ألتفت إلى الإنكشارى :

— لست أرى ضرراً فى ذلك .

إلا أن هذا الأخير انتحى بى جانبا وقال :

— لست أنصحك باصطحاب، هذا الفتى،فسوف تضطر إلى دفع نفقات رحلته ، إذ أنه لا يملك سوى صندوق الكتابة هذا.إنه أحد الرحل الهائمين على وجوههم ممن يكتبون الشعر وغيره من السخافات. وقد قدم نفسه للقنصل الذى لم يتمكن من استخلاص شىء منه .

فقلت لهذا الغريب :

— كان يسعدنى أن أسدى لك خدمة ، ولكنى لا أكاد أملك سوى ما يوصلنى إلى بيروت ، حيث أنتظر مددا من النقود .

فقال لى :

— حسن ! إن فى مقدورى أن أمضى هنا بضعة أيام لدى الفلاحين فى انتظار مرور أحد الإنجليز .

وقد سيت لى تلك الكلمة وخزا فى الضمير. وكنت قد ابتعدت بصحبة الإنكشارى الذى كان يقودنى وسط الأراضى المغمورة ،ويسلك بى طريقا مرسوماً هنا وهناك فوق الكثبان الرملية، حتى وصلنا إلى بحيرة المنزلة، لقد كان الوقت الطويل الذى يستغرقه شحن الناقلة بأكياس الأرز الذى تجلبه القوارب المختلفة يمنحنا الفسحة الكافية للقيام بتلك الرحلة .

٢ - بحيرة المنزلة

كنا قد غادرنا ، إلى يميننا ، قرية « العزبة » المبنية باللبن والتى تلاحظ بها بقايا مسجد عتيق وأروقة وأبراج من آثار دمياط القديمة التى دمرها العرب فى زمن لويس التاسع، لأنها كانت معرضة لضربات العدو المفاجئة. وكان البحر فى الماضى يغمر جدران تلك المدينة ، أما الآن فهو يبعد عنها حوالى فرسخ ، وهذه هى المساحة التى تكسبها أرض مصر كل ستمائة عام. إن القبائل التى تعبر الصحراء متجهة إلى الشام تصادف، فى أماكن عديدة خطوطا منتظمة ترى فيها ، بين كل مسافة وأخرى ، أطلالا قديمة مدفونة فى الرمال . إلا أن رياح الصحراء يحلو لها أحيانا أن تحى خطوطها الخارجية .وإن أشباح المدن تلك حينما تتعرى لفترة ما من أكفانها المغبرة تثير الرعب فى خيال العرب الذين ينسبون بناء تلك المدن إلى الجن . ويجد علماء أوربا ، وهم يقتفون آثارها ، سلسلة من المدن مبنية على شاطىء البحر فى عهد هذه الأسرة أو تلك من أسر ملوك الرعاة أو غزاة طيبة . وإذا قسنا عملية تراجع مياه البحر تلك، وقسنا طبقات النيل المختلفة المنطبعة فى الطمى والتى نستطيع أن نعد علاماتها المميزة بالحفر ، إذا فعلنا ذلك توصلنا إلى تقدير عمر آثار أرض مصر بأربعة آلاف سنة . وقد لا يتفق ذلك مع ماتذكره التوراة . ومع ذلك فإن تلك القرون الطويلة التى استغرقها ذلك التفاعل المتبادل بين الأرض والماء قد استطاعت أن تكون ما أسماه الكتاب المقدس « بالمادة التى لاشكل لها »، حيث أن عملية تكوين الكائنات هى الأساس الحقيقى الوحيد الذى بنيت عليه الخليقة .

وبلغنا الضفة الشرقية للسان الذى بنيت عليه مدينة دمياط . وكانت الرمال التى نسير عليها تلمع فى بعض الأماكن، فيخيل إلى أنها ألواح من الماء المتجمد، تحطم أقدامنا سطحها الزجاجى . ولم تكن تلك سوى طبقات من

ملح البحر . وكان هناك ستار من الأشجار الشوكية الفارعة مازالت تخفى عنا شواطىء البحيرة ، وقد تكون من تلك التى كان يستخرج منها البردى فيما مضى . وأخيرا وصلنا إلى ميناء مبنى بقوارب الصيادين . ومن هناك أعتقد أننى رأيت البحر نفسه فى يوم هادىء . إلا أن بعض الجزر البعيدة ، وقد صبغتها الشمس الصاعدة باللون الوردى ، وتوجت هنا وهناك بالقباب والمآذن ، كانت تدلنا على مكان أكثر هدوءاً ، وكانت هناك مئات من القوارب ذات الأشرعة المثلثة تجوب صفحة الماء الملساء .

كانت تلك هى بحيرة المنزلة ، وهى مريوط القديمة . وما زالت خرائب تنيس تحتل الجزيرة الرئيسية . أما « بيلوز » أو تينة فتحد الطرف المجاور للشام ، و « بيلوز » ثغر مصر القديم الذى مر به قمبيز والاسكندر وپومپى ، وكما هو معروف لقد أتى هذا الأخير ليلتقى بالموت عنده .

كنت آسفا لأننى لم أستطع أن أجوب الأرخبيل فى مياه البحيرة ، وأن أحضر إحدى جولات الصيد الرائعة التى تمون مصر كلها بالسمك . إن الطيور من مختلف الأنواع تحلق فوق هذا البحر الداخلى ، وتسبح بالقرب من الشواطىء أو تحتمى وسط أوراق أشجار الجميز والتمر هندى . وإن جداول وقنوات الرى التى تخترق مزارع الأرز فى كل مكان تقدم لنا صورا مختلفة لنباتات المستنقعات : نبات البوص والأشواك والنوفر ، ولابد أن زهور اللوتس القديمة تنمو كذلك بينها ، ولقد وجدنا تلك النباتات تعج بأصوات الحشرات الهاربة أمام الطيور التى تلاحقها .وهكذا تتم تلك الحركة الخالدة للطبيعة الأولى تتصارع فيها الخصوبة والرغبة فى القتل .

وبعد أن عبرنا السهل عدنا فصعدنا إلى الجسر . وحينئذ طرق سمعى من جديد صوت ذلك الشاب الذى كان قد تحدث إلى . كان مازال يردد :

« يلير ، يلير استمبولدان ! » (١)

ولما كنت أخشى أن أكون قد أخطأت فى رفضى لطلبه ، فقد أردت أن أعود للتحدث إليه سائلا إياه عن معنى الكلمات التى يتغنى بها . فقال لى :

— إنها أغنية ترجع إلى وقت مذبحة الإنكشارية . وقد كنت فى المهد أيام تلك الأغنية .

قلت فى نفسى :

« كيف ! أتحوى هذه الكلمات الرقيقة والنغمة المسترسلة كلمات الموت والمذابح ! إن فى ذلك ما يبعدنا عن قصائد الرعاة » .

وهذا بالتقريب هو ما تقوله الأغنية :

« إنه قادم من استامبول ، الفرمان (الذى يعلن تحطيم الإنكشارية !) إن سفينة قد أتت به ، وعلى عثمان ينتظره . وتأتى إحدى السفن ولكن الفرمان لا يصل . إن الشعب بأسره يتخبط فى القلق . وتصل سفينة أخرى إنها هى التى ينتظرها على عثمان . ولبس المسلمون جميعا ملابسهم الموشاة وذهبوا للنزهة فى الريف ، إذ أن الفرمان قد وصل بصفة مؤكدة هذه المرة » .

ما جدوى الرغبة فى تعمق كل شىء ؟ لقد كنت أفضل أن أظل جاهلا معنى هذه الكلمات . فبدلا من أنشودة راع من الرعاة أو حلم رحالة يفكر فى استامبول ، إذا بى لا أحمل فى ذاكرتى سوى أغنية سياسية سخيفة .

وبصوت منخفض قلت لذلك المتسول : « بودى أن أسمح لك بالصعود إلى الناقلة ، ولكن لابد أن أغنيتك قد آذت الإنكشارى ، رغم أنه تظاهر بعدم فهمها » .

---

(١) ترجم المؤلف نفسه هذه الأنشودة فى الصفحات التالية .

فقال لى :

— « أإنكشارى هو؟ لم يتبق منهم أحد فى جميع أرجاء الإمبراطورية. إن القناصل يطلقون هذا الاسم ، بحكم العادة ، على قواصيهم . إنه ليس إلا ألبانى كما أننى أرمنى . وهو حانق على لأننى لما كنت فى دمياط ، صحبت بعض الأجانب لزيارة المدينة . أما الآن فأنا ذاهب إلى بيروت » .

وأفهمت الإنكشارى أن غضبه قد صار الآن بلا مسببات . فقال لى :

— « سله عما إذا كان يحمل نقودا لدفع نفقات الرحلة » .

وأجاب الأرمينى .

— « إن القبطان نيقولا صديقى » .

وهز الإنكشارى رأسه ، ولكنه لم يبد أية ملاحظة . ونهض الشاب فى خفة والتقط لفافة صغيرة لا تكاد تظهر تحت إبطه وتبعنا . وكانت كل امتعتنا قد نقلت فوق الناقلة ذات الحمولة الثقيلة . أما الجارية الجاوية التى جعلتها لذة التنقل والتغيير لا تأبه بمغادرة مصر ، فقد كانت تضرب بيديها السمراوين فى سعادة ، وهى ترى أننا قد أوشكنا على الرحيل ، واهتمت بنقل أقفاص الدجاج والحمام . إن الخوف من عدم العثور على الطعام يهز تلك النفوس الساذجة هزا عنيفا . ولم تسمح لنا الحالة الصحية فى دمياط بأن نجمع مئونة أكثر من ذلك تنوعاً . ولما لم يكن ينقصنا الأرز ، فقد كان مقدراً علينا أن نقتصر فى رحلتنا على أكل الفت .

٣ - البارجة

وسرنا فى مجرى النيل هابطين مسيرة فرسخ تقريبا . وكانت الضفتان المستويتان الرمليتان تتسعان على مدى البصر ، والبوغاز الذى يمنع السفن من الوصول إلى دمياط لم يكن يبدو ، فى تلك الساعة ، أكثر من حاجز بسيط لا يكاد يحس به . وكانت هناك قلعتان تحميان هذا المدخل ، الذى كثيراً ، ما كانت تعبره السفن فى العصور الوسطى ، ولكنها فى معظم الحالات ، كانت تلقى لديه حتفها .

إن السفر فى البحر اليوم ، بفضل البخار، قد أصبح خالياً من أية أخطار، حتى أن المرء حينما يجازف بالسفر على مركب شراعى يراوده شيء غير قليل من القلق. فهنا تسنح للأسماك من جديد الفرصة المميتة التى تمكنها من الانتقام من شره الإنسان ، أو على الأقل يراود المرء الخوف من أن يهيم على وجهه طيلة عشر سنوات بين شواطيء لا ترحب به ،وذلك كما كان يفعل أبطال « الأوديسا » و « والاينادة » . « وإذا كانت هناك سفينة بدائية ، من تلك التى يخشى فيها من أمثال تلك المداعبات ، قد خطت مياه خليج الشام الزرقاء ، فإن تلك السفينة هى البارجة المسماة « سانتا بربارا » ، فهى تضرب لنا مثلا خالصاً لذلك .

ومن أبعد مكان رأيت منه هيكلها القاتم الشبيه بسفن الفحم، وهى ترفع على صاريها الوحيد السارية الطويلة المعدة لشراع واحد مثلث الشكل ، فأدركت أن حظى سيكون سيئاً ، وخطرت لى فكرة رفض هذه الوسيلة من وسائل النقل. ولكن فى هذه الحالة ما العمل ؟ أأعود إلى مدينة ينهشها الطاعون، لكى أنتظر مرور سفينة شراعية أوربية (فالسفن البخارية لا تسير على هذ الخط)؟ إن حظى حينئذ لن يكون أفضل من ذلك فى أى شيء .

ونظرت إلى رفيق اللذين لم يكن يبدو عليهما لا الاستياء ولا الدهشة ، كان الإنكشارى يبدو مقتنعا بأن الأمور تسير فى أحسن صورة لها . ولم تكن هناك أية فكرة تهكمية تطل من تحت القناع البرونزى الذى يغطى وجوه المجدفين فى الناقلة . كان يبدو إذن ، طبقا لعادات هذا البلد ، أن تلك السفينة ليس بها مايدعو للسخرية ولاما يبدو متعذر الاستعمال . ومع ذلك فإن هيئة تلك السفينة العتيقة التى لاشكل لها ، ذلك القبقاب الخشبى الهائل ، الذى جعله ثقل مايحمل من أكياس الأرز يغوص فى الماء حتى حافته — لم تكن تبشر برحلة سريعة . ولو حدث وعاكستنا الريح فإننا لابد مخاطرون بالذهاب إلى وطن الصقليين غير المضياف أو إلى الصخور الرخامية .

إيه يا أو ليس ، ويا تليماك ويا إينيه ! أكان مقدرا على أن أحقق بنفسى الطريق المضلل الذى سلكتموه فى رحلاتكم ؟

وفى ذلك الوقت اقتربت الناقلة من السفينة ، وألقى إلينا بسلم من الحبال تعترضه عصى ، وها نحن نصعد إلى ظهر السفينة ونشاهد ما بداخلها من روائح . وقال لنا القبطان باليونانية :

« عموا صباحاً »

وكان يرتدى مايرتديه بحارته ، إلا أنه كان يعرف الناس به بتلك التحية اليونانية . وأسرع مهر ولا ليشرف على شحن البضائع ، وهى أكثر أهمية منا . كانت أكياس الأرز تكون ما يشبه الجبل فى مؤخرة السفينة . ومن خلفه كان هناك مكان صغير فى نهاية المركب خصص لماسك الدفة وللقبطان . كان من المستحيل إذن التجول على ظهر المركب إلا فوق أكياس الأرز ، إذ أن وسط السفينة كان يحتله القاربان ، كما ازدحم الجانبان بأقفاص الدجاج ، ولم يتبق سوى مكان ضيق أمام المطبخ الذى كان يشرف عليه فتى تحت التمرين شديد اليقظة .

وما إن رأى هذا الفتى الجارية حتى صاح :

« كوكونا ! كالا ! كالا ! أى (امرأة جميلة ، جميلة !)

وكان هذا التصرف بعيداً عن التحفظ العربى الذى لا يسمح بأن يبدى المرء ما يدل على أنه لاحظ المرأة أو الطفل .

وكان الإنكشارى قد صعد معنا ، وأخذ يراقب شحن البضائع التى كانت ملكا للقنصل . فقلت له :

— يا للمشكلة ! أين عساهم يبيتوننا ؟ . وقد قلت لى إنهم سيفردون لنا غرفة القبطان .

فأجاب :

— كن مطمئنا ! إنهم سينظمون تلك الأكياس ، وحينئذ سوف توفر لك الراحة .

وعلى أثر ذلك ودعنا ونزل إلى الناقلة التى لم تلبث أن ابتعدت .

ها نحن إذن ، ويعلم الله إلى متى ، على ظهر إحدى تلك السفن الشامية ، التى تستطيع أدنى العواصف أن تهشمها على الشاطىء ، وكأنها قشرة جوز . وكان علينا انتظار الرياح الغربية التى تهب فى الساعة الثالثة حتى يفرد شراع السفينة . وفى انتظار ذلك أخذوا يهتمون بإعداد الغداء . وأصدر القبطان نيقولا أوامره ، فأخذوا يعدون له طعامه على الفرن الوحيد فى المطبخ ، وتبعا لذلك لن يحل دورنا إلا بعد ذلك بوقت طويل .

وفى ذلك الوقت أخذت أبحث عن غرفة القبطان المزعومة التى منينا بها ، وكلفت الأرمينى بأن يستفسر عنها من « صديقه » الذى لم يكن

يبدو عليه ما يدل على أنه يعرف عنها شيئاً حتى الآن . ونهض القبطان فى برود وقادنا إلى ما يشبه المخزن الذى يقع على السطح فى مقدمة السفينة . ولا يمكن الدخول إليه إلا بالانحناء إلى منتصفنا . وتمتاز أعمدته جميعا بأنها مغطاة بالصراصير الحمراء ، وهى فى طول الأصبع ، ولاشك أن شحنة سابقة من السكر أو السكر نصف النقى هى التى اجتذبتها . وتراجعت فى ارتياع متظاهرا بالغضب . فقال لى القبطان :

— تلك هى غرفتى ، ولا أنصحك بالإقامة فيها إلا إذا أمطرت السماء . ولكنى سوف أدلك على مكان أكثر طراوة وأكثر ملاءمة لك .

ثم قادنى بالقـــرب من القارب الكبير المربوط بالحبال بين الصارى والمقدمة ، وطلب إلى أن أنظر بداخله .

وقال :

— هذا هو المكان الذى تجد فيه الراحة فى النوم . فلديك حشايا من القطن تفردها به من أوله إلى آخره . وسوف أنشر فوقها منسوجا يكون بمثابة الخيمة . وهكذا تكون قد حصلت على مكان مريح فسيح لإقامتك . أليس كذلك ؟

ولو لم أوافق على ذلك ، لكنت قليل الذوق . فهو بلا شك أكثر الأماكن بعثا على الانشراح وسط درجة الحرارة الإفريقية تلك ، وكذلك هو أنسب مكان نظرا لعزلته .

٤ — على سطح البحر

وأقلعنا . وكنا نرى الحافة الرملية ، التى تحيط بشكل حزين بكل ما فى مصر العتيدة من روائع ، تضيق وتهبط ثم تختفى أخيرا تحت زرقة مستوى البحر . ولم يبق فى الأفق إلا وهج الصحراء المتربة . ورافقتنا طيور النيل حينا ، ثم غادرتنا ، طائرا تلو الآخر ، كما لو كانت ذاهبة للحاق بالشمس الهابطة فى الإسكندرية . وفى ذلك الوقت أخذ كوكب وضاء يعبر منحنى السماء شيئا فشيئا ، ويقذف بلهيبه المتوهج إلى الماء . إنه كوكب المساء ، أستارتيه ، إلهة الشام العتيقة . لقد كان يتلألأ بنور لا مثيل له فوق تلك البحار المقدسة التى عرفته فى كل زمان .

أيتها الإلهة كونى مواتية لنا ! إن لونك ليس باهتا كلون القمر ، بل تتألقين فى عليائك ، وتصبين أشعتك الذهبية على الكون وكأنك شمس الليل !

وبعد أن تغلبنا على تلك الانطباعة الأولى ، وجدنا أن منظر سانتا بربارا ، من الداخل ، رغم كل شىء ، لا يخلو من الجمال التصويرى . ومنذ اليوم التالى كنا قد تأقلمنا تماما ، وأخذت الساعات تمر علينا كما تمر على النوتية ، ونحن فى حالة عدم اكتراث تامة للمستقبل . وأعتقد أن السفينة تتبع فى سيرها طريق السفن القديمة ؛ فتهتدى بالشمس طيلة النهار ، وتسير بالليل على هدى النجوم . وأرانى القبطان بوصلة ، ولكنها كانت تالفة تماما .

لقد كانت ملامح هذا الرجل الشجاع هادئة مصممة فى وقت واحد ، تطبعها فوق ذلك سذاجة غريبة منحتنى الثقة فيه أكثر من سفينته . ومع ذلك فقد اعترف لى بأنه عمل قرصانا لفترة وجيزة ، وذلك فى زمن استقلال اليونان فقط . وجرى هذا الحديث بعد أن دعانى لمشاركته الغداء المكون

من فت فى شكل هرمى كان كل واحد منا ، حسب دوره ، يعمل فيه ملعقته الخشبية الصغيرة . وكان فى ذلك نوع من التقدم على الطريقة التى يأكل بها العرب ، ولا يستخدمون فيها إلا أصابعهم .

وتولت قارورة فخارية مليئة بنبيذ قبرصى ، من ذلك الذى يسمونه «كوماندرى» ، أمر إشاعة المرح فى فترة مابعدالغذاء . وشاء القبطان الذى أصبح أكثر ميلا لفتح قلبه ، أن يطلعنى ، بواسطة الأرمنى الشاب كالمعتاد ، على أعماله . ولما سألنى عما إذا كنت أستطيع أن أقرأ اللاتينية أخرج من علبة من العلب لوحة كبيرة من البردى كانت تحوى أكثر الألقاب تأكيدا لحسن سمعة سفينته . وكان يريد أن يعرف ماذا تعنى هذه الوثيقة . وأخذت أقرأ ، وعلمت أن «الآباء ، كاتمى أسرار الأرض المقدسة ، يستنزلون بركة العذراء والقديسين على السفينة ، ويؤكدون أن القبطان ألكسيس اليونانى الكاثوليكى ، وهو من مواليد طرابلس ، كان دائما يتمم واجباته الدينية » .

وأبدى لى القبطان ملاحظة أنهم كتبوا «ألكسيس» حيث كان ينبغى أن يكتبوا «نيقولا» ، وهو خطأ من أخطاء الكتابة وقعوا فيه .

وأقررته على ذلك ، وأنا أقول فى نفسى : إنه إذا لم يكن يحمل شهادة رسمية أفضل من تلك ، فمن الخير له أن يتجنب الاقتراب من الأوربيين . إن الأتراك يكتفون بأى شىء . ففى مقابل بطاقة الاعتراف تلك يكفى الختم الأحمر وصليب أورشليم لنيل موافقة القانون الإسلامى نظير نفحة من المال .

ليس هناك أكثر مرحا من فترة ما بعد الغذاء فى البحر إذا طاب الجو . لقد كان النسيم دافئا ، والشمس تدور حول الشراع فيهرب ظله ويضطرنا إلى تغيير أماكننا من وقت لآخر . وأخيرا ولى ذلك الظل الأدبار ، وقذف إلى

البحر بغيثه الذى لا طائل منه . وربما كان من الخير أن ننشر مظلة من النسيج فوق ظهر السفينة لحمايته . ولكن أحدا لم يفكر فى ذلك . لقد كانت الشمس تذهب جباهنا ، كما تذهب الفواكه الناضجة . وهنا انتصر جمال الجارية الجاوية . فلم أكن قد فكرت حتى الآن لحظة فى حملها على الاحتفاظ بنقابها ، وقد دفعنى إلى ذلك شعور طبيعى يوحى للافرنجى بأنه لا حق له فى إخفاء المرأة التى يملكها . وكان الأرمنى جالساً إلى جوارها فوق أكياس الأرز ، بينما كنت أنا أشاهد القبطان وهو يلعب الشطرنج مع الملاح . وقال لها عدة مرات بطريقة صبيانية : «كده يا ستى !» وقد ظلت بعض الوقت دون أن تجيب تحدوها تلك العزة التى تنبعث من شعورها المعتاد بالهيبة ، إلا أنها انتهت بأن التفتت نحو الشاب وانعقد الحديث بينهما .

ومنذ تلك اللحظة أدركت مقدار ما فقدت نتيجة لعدم استطاعتى التحدث بالعربية بسهولة . فقد استضاء محياها وتبسمت شفتاها ، ولم تلبث أن استلمت لتلك الثرثرة التى لا تستطيع الكلمات وصفها والتى تبدو ، فى كل البلدان ، وكأنها ضرورة لأجمل شطرى الإنسانية . ومع ذلك فقد كنت سعيدا إذ أتيحت لها تلك السعادة . كان الأرمنى يبدو شديد الوقار ، وكان يلتفت من حين لآخر ناحيتى ويقص عليها ، دون شك ، كيف تعرفت عليه واستقبلته . ولا ينبغى تطبيق أفكارنا على ما يدور فى الشرق فنعتقد أن الحديث بين رجل وامرأة يصبح للتو جريمة . ففى طباع الناس هنا من البساطة أكثر كثيراً مما يشاهد عندنا . وكنت مقتنعا بأن الأمر لا يعدو أن يكون ثرثرة لا معنى لها ، فإن تعبير ملامحهما وفهمى لبعض عباراتهما العابرة قد دلانى بما فيه الكفاية على براءة حديثهما . ولذلك فقد ظللت وكأنى مستغرق فى مشاهدة لعبة الشطرنج (وأى شطرنج !) بين القبطان وملاحه وكنت أشبه نفسى بهؤلاء الأزواج الظرفاء الذين يقضون السهرة على موائد اللعب ، تاركين نساءهم يتحدثن بلا قلق مع الشبان .

ومع ذلك فماذا يكون هذا الأرمنى الأفاق الذى التقطناه من وسط شجيرات البوص على شاطىء النيل، إذا قورن بافرنجى قادم من القاهرة بعد أن عاش فيها حياة أمير لواء ، حسب تقدير المرشدين وتقدير حى بأسره ؟ وإذا كان البستانى ، كما كانوا يقولون فى فرنسا فى القرن الماضى ، أثبت أنه رجل من أجل راهبة ، فلا ينبغى لنا أن نعتقد أن أول قادم يعتبر شيئا يذكر بالنسبة لسيدة مسلمة . فإن لدى النساء المهذبات ، ومثلهن فى ذلك مثل الطيور الرائعة الجمال ، نوعا من العزة يحميهن من الإغراء المبتذل . ومع ذلك فقد كان يبدو لى أنى إذ أترك تلك الجارية لكرامتها الشخصية ، فإنى أضمن لنفسى ثقتها وإخلاصها . وكما سبق أن قلت ، كنت أعتبرها حرة ما دامت قد غادرت أرض مصر ، ووضعت قدمها على سفينة مسيحية .

مسيحية ؟ أتلك هى الكلمة المناسبة ؟ إن « سانتا بربارا » لا تحمل إلا ملاحين أتراكا ، ويمثل القبطان وصبيه الكنيسة الرومانية ، والأرمنى يمثل بدعة ما من البدع الدينية ، وأنا نفسى .. ولكن من يدرى ماذا يمثل فى الشرق الباريسى المطعم بالأفكار الفلسفية ، ترى أأكون ابن فولتير أم الكافر الزنديق فى رأى هؤلاء القوم الطيبين ؟ فنى كل صباح ، فى اللحظة التى تبزغ فيها الشمس خارجة من البحر ، وفى كل مساء ، فى اللحظة التى يختنى فيها قرصها فى طرفة عين ، بعد أن يغمره خط الماء المعتم ، تاركا وراءه فى الأفق تلك الأصباغ الحمراء تمتزج فى لذة بزرقة السماء ، يتجمع النوتية ، فى صف واحد ، ويولون وجوههم شطر مكة النائية ، ويترنم أحدهم بنشيد الصلاة كما يفعل المؤذن الوقور من أعلى مئذنته . ولم أستطع منع الجارية من الانضمام إلى هذا التدفق الدينى المؤثر بما له من جلال شديد . وهكذا ألفينا نفسينا منذ اليوم الأول، وقد وزعنا وسط الطقوس الدينية المختلفة . أما عن القبطان فقد كان من حين لآخر يوجه عبارات الرثاء إلى صورة معلقة فوق إحدى السوارى ، ولعلها هى سميه الباخرة « سانتا بربارا » . وبعد أن يغسل الأرمنى

رأسه وقدميه بالصابون ينهض ويترنم بالتسابيح فى صوت منخفض . وهكذا كنت وحدى الذى لا أمارس أية شعائر منظمة ، وذلك لعجزى عن ادعاء الإيمان الدينى ، ومع ذلك فقد كان بى بعض الخجل ، إذ أبدو أقل تديناً من هؤلاء القوم . ولدى الشرقيين تسامح متبادل بالنسبة للديانات الأخرى . وما على الواحد منهم إلا أن يكتب اسمه فى قائمة الأديان فى مكان ممتاز . ولكن مع قبول مبدأ أن الآخرين ، إذا دعت الضرورة ، قد يكونون جديرين بأن يتحولوا بالنسبة له إلى ظهور مقاعد . ولا يعكر صفاء وهذا الامتزاج إلا الفليسوف وحده . فأين عسى يكون مكانه ؟ إن القرآن نفسه الذى لعن عابدى الأوثان وعابدى النار والنجوم لم يتنبأ بزندقة زماننا هذا .

٥ — الأنشودة الرعوية

وفى اليوم الثالث لرحلتنا تقريبا ، كان ينبغى أن نلمح شواطىء الشام . ولكن خلال فترة الصباح كنا لانكاد نتحرك من أماكننا ، وكانت الرياح التى تهب فى الساعة الثالثة تبعث بنفحاتها إلى الشراع فينتفخ، ثم تعود فتتركه يسقط بطول الصارى . ويبدو أن ذلك كان يقلق القبطان الذى كان يوزع وقت فراغه بين لعب الشطرنج والعزف على آله تشبه الجيتار، وكان يعزف عليها دائما لحنا لايتغير . ففى الشرق يتخذ كل امرىء لحنا مفضلا، يكرره دون كلل أو ملل من الصباح إلى المساء ، إلى أن يتعلم آخر أحدث منه . وكانت الجارية ، هى الأخرى ، قد تعلمت فى القاهرة أغنية من أغانى الحريم كانت لازمتها تنتهى دائما بنغمة مسترسلة تبعث على النوم . وأذكر أنها كانت تتكون من هذين البيتين :

« ياحبيبى ! سا كل نو ! (١)
يامحبوبى ! ياسيدى »

وكنت أفهم بعض كلماتها ، أما كلمة « حبيبى » فلم يكن لها مكان فى مفردات اللغة العربية التى تعلمتها . فسألت الأرمينى أن يفسر لى معناها فأجاب :

— « إنها تعنى شخصا تافها لا أهمية له » .

وأدرجت هذا الاسم فى قوائمى مصحوبا بذلك الشرح ، وهذا ماينبغى أن يفعله كل من يريد أن يتعلم .

---

(١) لامعنى لهذه الكلمة بالعربية ، ولابد أن الكاتب الفرنسى قد أخطأ فى التقاط منطوقها .

وفى المساء أخبرنى الأرمينى أن الرياح ، ليست لسوء الحظ، أكثر توفيقا ، وأن ذلك يقلقه بعض الشيء .

فقلت له :

— لماذا ؟ كل مافى الأمر أننا سنجازف بالبقاء هنا يومين آخرين ، ومن المؤكد أننا فى حالة طيبة على ظهر تلك السفينة .

فقال لى :

— ليس هذا هو ما أقصد ، وإنما قد يعوزنا الماء .

— يعوزنا الماء !

— بلا شك ! فإنك لاتدرى شيئا عما يمتاز به هؤلاء الناس من عدم المبالاة . فلكى يحصلوا على الماء كان عليهم أن يبعثوا بقارب إلى دمياط ، إذ أن مياه مصب النيل مالحة . ولما كانت المدينة فى حالة حجر صحى، فقد خشوا إجراءاته ، أو هذا هو ، على الأقل ، مايدعونه . ولكن الحقيقة أنهم لم يفكروا فى عمل شيء من ذلك .

فقلت :

— إن هذا لأمر غريب ! إن القبطان مسترسل فى غنائه ، كما لو كان موقفنا من أبسط المواقف .

وذهبت برفقة الأرمنى لسؤاله عن هذا الموضوع . فنهض وأرانى براميل المياه على سطح المركب. وقد خلت تماما من الماء ، إلا واحدة كان بها ما يقرب من ملء خمس أوست قارورات . إلا أنه عاد وذهب ليجلس على مؤخرة المركب ، ثم عاد فأمسك بقيثارته وبدأ من جديد أغنيته التى لاتنتهى ؛ وهو يهز رأسه إلى الوراء فى اتجاه الحاجز .

وفى صبيحة اليوم التالى استيقظت مبكرا ،وصعدت إلى مقدمة السفينة تحدونى فكرة وهى إمكان مشاهدة شواطئ فلسطين . ولكن عبثا كنت أنظف زجاج نظارتى، فإن خط البحر النهائى كان واضحا كحد سيف دمشق مقدس . بل ومن المحتمل جدا ألا نكون قد تحركنا من مكاننا منذ الليلة البارحة . ونزلت ثانية وتوجهت إلى مؤخرة السفينة. وكان الجميع منغمسين فى نومهم الهادىء . ولم يكن هناك سوى صبى الطاهى . وكان واقفا يغتسل ويرش وجهه ويديه ، فى عدم اكتراث ، بالماء الذى يغترفه من آخر ما تبقى لنا من ماء الشرب .

ولم استطع أن أمنع نفسى من إبداء ما بى من غيظ . وقلت له ، أو اعتقدت أنى أفهمته ، أن مياه البحر صالحة لاغتسال شخص تافه على شاكلته . ولتأكيد ذلك استعملت كلمة «ياحبيبى» التى دونتها من قبل فى قوائمى . ونظر إلى الصبى باسما ولم يبد عليه أى تأثير لتأنيبى. فاعتقدت أنى لم أحسن النطق بالكلمة ، وتركت الأمر جانبا .

ومضت بضع ساعات ، وفى فترة ما بعد الغداء التى يطلب القبطان نيقولا فيها من صبى المطبخ أن يحضر له قارورة كبيرة من نبيذ قبرص لا يدعو إليها إلا الأرمنى وأنا ، بصفتنا مسيحيين ، فالنوتية لا يشربون إلا شراب العرق باليانسون ، وذلك احتراما لشريعة محمد التى يسيئون تفسيرها — أخذ القبطان يتحدث هامسا فى أذن الأرمنى .

وقال لى هذا الأخير :

— إنه يريد أن يعرض عليك عرضا .

— فليفعل .

— إنه يقول إن الأمر دقيق ، وهو يأمل ألا تغضب منه إذا لم يلق العرض منك قبولا .

ـــ لن أغضب إطلاقا .

ـــ حسن ! إنه يسألك عما إذا كنت ترغب فى مبادلة جاريتك بالصبي ، فهو أيضاً قد اشتراه وهو ملك له.

وكنت على وشك أن أنفجر ضاحكا . ولكن الطابع الجاد للرجلين الشرقيين أثار القلق فى نفسى . وظننت أن فى الأمر دعابة غير لطيفة ، مما لا يسمح الشرقيون لأنفسهم بها إلا فى الظروف التى لايستطيع الإفرنجى فيها أن يعاقبهم عليها . وقلت ذلك للأرمنى ، فأجابنى فى دهشة :

ـــ كلا ، فهو جاد فى كلامه . فإن الصبي الصغير شديد البياض ، فى حين أن الجارية سمراء .

وأضاف بلهجة تقدير خالصة :

ـــ إنى أنصحك بالتفكير ، فإن الصبي الصغير خير من المرأة .

ولم أكن معتادا أن أستسلم بسهولة للدهشة ، فذلك جهد ضائع فى مثل هذه البلاد . واكتفيت بالرد بأن هذا العرض لايلائمنى . ولما كنت قد أبديت بعض الغضب ، فقد قال القبطان للأرمنى إنه آسف لتدخله ، ولكنه كان يعتقد أن ذلك سيسرنى . ولم أعرف ماذا يقصد بذلك ، وشعرت بأن فى حديثه شيئا من السخرية . فألححت على الأرمنى أن يطلب منه تفسير تلك النقطة بوضوح

فقال لى هذا الأخير :

ـــ حسن ! إنه يدعى أنك قد وجهت هذا الصباح بعض المجاملات إلى الصبي ، أو هذا على الأقل هوما ادعاه هذا الأخير .

فصحت قائلا :

ـــ أنا ! لقد لقبته بالشخص التافه ، لأنه كان يغسل يديه بمياه الشرب

الخاصة بنا . لقد كنت ، على العكس من ذلك ، حانقا عليه .

وجعلتني الدهشة التي ارتسمت على وجه الأرمني أفطن إلى أن في الأمر التباسا ، أحد تلك الالتباسات اللغوية التي كثيرا ما يقع فيها من لا يتقنون اللغات . فكلمة « حبيبي » التي أساء الأرمني ترجمتها البارحة ، لم يكن لها إلا أجمل المعاني وأحبها إلى النفس . ولست أدري لماذا رأى أن عبارة « شخص تافه » تترجم تلك الفكرة باللغة الفرنسية .

وانهمكنا في ترجمة جديدة مصححة لمقطع الأغنية التي ترددها الجارية، وهذا ، في الواقع ، هو ما كانت تعنيه تقريبا :

— « ياعزيزي الصغير ، ياحبيبي ، ياأخي ، ياسيدي

ذلك هو مطلع كل أغاني الحب العربية تقريباً ، وهي تتعرض لأكثر التفسيرات تباينا ، وهي تذكر المبتدئين بالالتباس الكلاسيكي الذي يوجد في قصيدة كوريدون الرعوية(١)

(١) قصيدة Corydon المقصودة فرعويات فير جيل الجزء الثاني

٦ - مذكرات فوق سطح الباخرة

إن الحقيقة المتواضعة لاتملك الموارد الواسعة التى تملكها المسرحيات أو الروايات، ولكنى أستقبل الأحداث ، التى لم تستمد قيمتها إلا من بساطتها ذاتها ، الواحد تلو الآخر ، وأعلم أنه من اليسير مع ذلك أن تخلق منها مراحل قصص جديرة حقا بالانتباه ، حتى ولو كان الأمر يتعلق برحلة عادية كرحلة خليج الشام تلك . إلا أن الحقيقة تقبض أسارير وجهها بجانب الكذب ، ولذا فيبدو لى من الأوفق أن نقـــول بسذاجة ما كان يقوله البحارة القدامى :

« فى ذلك اليوم لم نر فى البحر إلا قطعة من الخشب تطفو على غير هدى، وفى ذلك اليوم الآخر لم نر إلا طائرا بحريا ذا جناحين رماديين » . وذلك إلى أن تأتى اللحظة النادرة التى يحمى فيها وطيس الحوادث وتنعقد بقوارب النجاة التى تأتى بالخضر والخنازير الرضيعة المشوية .

ومع ذلك إذا لم تكن هناك عاصفة ، فإن الهدوء الذى ساد البحر ، الهدوء الجدير بالمحيط الهادى ، بالإضافة إلى نقص مياه الشرب فى سفينة مبنية على طريقة سفينتنا ، قد يتسببان فى مشاهد جديرة بأوديسا حديثة . إن القدر قد انتزع منى تلك الفرصة حين بعث إلينا ذلك المساء بنسمة خفيفة من الغرب جعلتنا نتقدم حثيثا فى سيرنا .

ولقد كنت سعيداً بذلك الحادث الصغير ، وأخذت ألح على القبطان لكى يكرر لى تأكيده بأننا سوف نتمكن غدا صباحا من أن نلمح فى الأفق قمم جبال كرمل المائلة للزرقة . وفجأة صدرت من مقدمة السفينة صرخات ارتياع .

— دجاجة فى البحر ! دجاجة فى البحر ! ما هذا ؟ دجاجة فى البحر !

وبدا لى ذلك الحادث قليل الأهمية . إلا أن النوتى التركى صاحب الدجاجة كان بادى التعاسة بشكل مؤثر .

وأخذ رفاقه يرثون لحاله فى جدية شديدة . وكانوا يمسكون به ليمنعوه من إلقاء نفسه إلى الماء . وأخذت الدجاجة وهى تبتعد تأتى بحركات مؤلمة كانوا يتتبعون مراحلها بتأثر .

وأخيراً وبعد لحظة تردد أمر القبطان بإيقاف المركب .

ورأيت أن توقفنا . والريح مواتية من أجل دجاجة غارقة ، لاسيما بعد أن فقدنا يومين — أمر مبالغ فيه ، فمنحت النوتى قرشين ظنا منى أن فى ذلك حلا للمشكلة .

وهنا هدأت أسارير وجهه، ولكنه عاد فى الحال فحسب أنه لو عادت له الدجاجة فسوف يكون مكسبه مضاعفا .

وعلى ذلك فقد تخلص من ملابسه فى لمح البصر ، وألقى بنفسه إلى البحر .

وكانت المسافة التى قطعها سباحة كبيرة . وكان علينا أن ننتظر نصف ساعة فى قلق من موقفه ومن اقتراب الليل . وأخيراً لحق بنا الرجل وهو فى حالة إرهاق . وقد اضطروا إلى سحبه من الماء ، لأنه لم يكن لديه القوة التى التى تعينه على تسلق الحاجز . وما إن صار فى أمان حتى اهتم بدجاجته أكثر من اهتمامه بنفسه ، فأخذ يدفئها ويجففها، ولم يرتح بالا إلا حينما رآها تتنفس بسهولة وتقفز على ظهر السفينة .

واستأنفت السفينة سيرها وقلت للأرمينى :

— فلتذهب الدجاجة إلى الشيطان ! فقد فقدنا ساعة بسببها .

— ماذا تعنى ! أ كنت تريد أن يتركها تغرق ؟.

— ولكن لدى أنا الآخر بعض الدجاج ، وكان باستطاعتى أن أمنحه الكثير منها فى مقابل دجاجته تلك !

— إن الأمر لا يستوى.

كيف إذن ؟ إننى لأضحى بكل ماعلى الأرض من دجاج فى سبيل ألا نفقد ساعة طابت فيها الريح فى سفينة نخاطر فيها بالموت غدا عطشا .

فقال الأرمينى :

— هل لاحظت أن الدجاجة قد طارت من يساره فى اللحظة التى كان يتهيأ فيها لذبحها.

فأجبت :

إنى أقره عن طيب خاطر على تفانيه ، كمسلم لإنقاد كائن حى . ولكنى أعرف أن احترام المؤمنين الصادقين للحيوانات لا يذهب أبدا إلى هذا الحدما داموا يذبحونها لغذائهم .

— إنهم يذبحونها بلا شك ، ولكن وسط الطقوس الدينية وتلاوة الدعوات . وفوق ذلك فهم لا يستطيعون ذبحها إلا بسكين ذى مقبض مربوط بثلاثة مسامير ، على أن يكون سلاحه مشذبا لاخدش . ولو أن الدجاجة قد غرقت منذ قليل ، لتأكد الرجل المسكين من أنه لابد ميت فى ظرف ثلاثة أيام .

— فقلت للأرمينى.

— إن الأمر جد مختلف .

وهكذا يبدو ذبح الحيوان فى نظر الشرقيين أمرا خطيراً ، لا يسمح به إلا لغذائهم فقط ، وبصورة تذكرنا بعدوسة القرابين القديمة . ونعرف أن هناك ما يشبه ذلك لدى الإسرائيليين . فالقصابون مضطرون إلى استخدام ذباحين ينتمون إلى نظامهم الدينى ، ولا يذبحون ماشية إلا مع تلاوة العبارات المقدسة . إن هذه العقيدة الموروثة توجد فى صور مختلفة فى كل الديانات الشرقية . والصيد نفسه لا يسمح به إلا ضد الحيوانات الضارية كعقاب لها على الخسائر التى تسببها . ومع ذلك فقد كان الصيد أو القنص بواسطة الصقور أو الباشق فى زمن الخلفاء تسلية للعظماء . ولكنهم يحللونه بأن يلقوا على عاتق الطائر الجارح مسئولية الدم الذى أريق . وفى الواقع ، ودون أن نضطر إلى اعتناق آراء الهند ، نستطيع أن نوافق على أن تلك الفكرة لا تخلو من العظمة ، فكرة تحريم قتل أى حيوان إلا للضرورة .

أما الصيغ التى يوصى بتلاوتها فى حالة إزهاق أرواح الحيوانات لضرورة اتخاذها طعاما ، فإنها تهدف بلا شك إلى منع تعذيبها من أن يطول أكثر من لحظة ، والعادات المتبعة فى القنص تجعل ذلك ، لسوء الحظ ، مستحيلا .

وبتلك المناسبة قص على الأرمنى أنه ، فى زمن السلطان محمود ، كانت القسطنطينية مليئة بالكلاب لدرجة أن العربات كانت تجد صعوبة فى المرور فى الشوارع . ولما لم يكن من المستطاع التخلص منها لا كحيونات ضارية ولا من أجل الطعام ، فقد خطرت لهم فكرة نقلها إلى جزر صغيرة مقفرة لدى مدخل البسفور . وكان لزاما أن تنقل بالألوف فى زوارق طويلة ضيقة . وفى اللحظة التى استقرت الكلاب فيها فى مقرها الجديد ، وهى جاهلة بمصيرها ، ألقى فيها أحد الأئمة خطابا شرح لها فيه حالة الضرورة القصوى التى استلزمت ذلك ، وطلب إلى أرواحها ، ساعة الاحتضار ، ألا تحمل أية حفيظة للمؤمنين المخلصين ، ومع ذلك فلو أرادت لها السماء النجاة فلا بد

من أن يحدث ذلك . ولما كانت تلك الجزر تحوى الكثير من الأرانب فلم تشك الكلاب ، أول الأمر ، من هذا التفكير المتزمت ، ولكن ما كادت تنقضى بضعة أيام،حتى عضها الجوع بنابه فأخذت ترسل أنينا بلغ من القوة بحيث كان يسمع فى القسطنطينية.وتأثر الأتقياء لذلك الاحتجاج المروع ، ووجهوا إلى السلطان احتجاجات خطيرة ، ،وعابوا عليه ميوله الأوربية ؛ ولذا اضطر إلى أن يأمر بإعادة الكلاب . فرجعت منتصرة وقد ردت إليها كافة حقوقها المدنية .

٧ — كارثة

لقد خفف الأرمنى عنى بعض الشىء سأم تلك الرحلة . ولكنى كنت أسر كذلك إذ أجد أن مرحه وثرثرته التى لا تنتهى وحكاياته وملاحظاته كانت تمنح زينب المسكينة فرصة قلما تسنح لنساء ذلك البلد ، فرصة التعبير عن أفكارها بفيض من المقاطع الساكنة التى تنطق بها من الأنف والحلق حيث يتعذر على أن أفهم ، ليس فقط معنى كلامها ، ولكن حتى نغمة هذا الكلام .

وكنت أسمح ، بدفعنى إلى ذلك كرمى الأوربى ، لهذا النوتى أو ذاك ، عن قد يحدث أن يجلسوا إلى جوارها فوق أكياس الأرز ، بأن يوجهوا إليها بعض عبارات المجاملة . وفى الشرق يحدث عادة أن يتآلف أبناء الشعب ، أولا لأن الشعور بالمساواة مستقر بينهم بصورة أكثر جدية مما هى عليه بيننا ، وثانيا لأن الأدب الفطرى موجود لدى جميع الطبقات . أما عن الثقافة فهى واحدة لدى الجميع ، وهى إن كانت مختصرة جداً إلا أنها منتشرة بين الجميع. وهذا ما يساعد الرجل الوضيع النشأة على أن يصبح طفرة واحدة شخصاً ذا حظوة لدى عظيم من العظماء ، ويتقدم إلى الصفوف الأولى ، دون أن يبدو عليه ما يدل على أنه ليس فى المكان المناسب له .

وكان بين النوتية تركى من الأناضول ذو لحية شهباء قد لفحت الشمس بشرته لفحاً شديداً . وكان يكثر من الحديث إلى الجارية ويطيل أكثر مما يفعل الآخرون . وقد لاحظت عليه ذلك وطلبت من الأرمنى أن يخبرنى ماذا عساه أن يقول لها . فانتبه الأرمنى لبعض ما يقول ثم قال لى : « إنهما يتحدثان عن الدين » . وبدا لى ذلك مدعاة لاحترام الرجل ، ولا سيما إنه يقوم للآخرين بدور الحاج العائد من مكة ، أو دور الإمام ، فيؤمهم فى

صلاة الصبح والمساء . ولم أكن قد فكرت لحظة فى أن أسبب لتلك المرأة المسكينة أية مضايقات بسبب صلواتها اليومية ، رغم أن أمرها قد صار فى يدى إثر نزوة لم تكلفنى كثيراً وهى نزوة شراء الجارية . ولكن لما كنا فى القاهرة ، حدث أن ألمت بها وعكة خفيفة ، فحاولت حملها على الإقلاع عن عادة غمس يديها وقدميها فى الماء البارد كل صباح ومساء وهى تؤدى صلاتها لكنها لم تكن تأبه كثيرا لتعاليمى الصحية . والشىء الوحيد الذى قبلت الإقلاع عنه هو استعمال الحناء ، التى تضطر نساء الشرق إلى الإكثار من إعدادها المقزز لا سيما لمن يراها عن كثب ، وذلك لأنها لا تدوم إلا خمسة أو ستة أيام تقريباً . وأنا لا أكره صبغ الحاجبين والجفون ، بل فوق ذلك أقبل الأحمر القانى الذى يضعنه على الخدود والشفاه . ولكن أى فائدة تجنى من صبغ إياد ، هى من أول الأمر نحاسية ـ باللون الأصفر فتصبح فى لون الكركم ؟ لقد أبديت حول هذه النقطة حزما قاطعا ولم أتراجع .

لقد عاد شعر جبهتها فنبت ، وكاد يلحق من الجانبين بضفائرها الطويلة المختلطة بالأربطة الحريرية، والتى كانت تهتز بما فيها من نقود مثقوبة (نقود غير حقيقية للأسف) تتأرجح من الرقبة حتى الكعبين حسب آخر المستحدثات الشرقية . وكانت القبعة اليونانية ذات الحافة الذهبية المموجة تميل فى رشاقة على أذنها اليسرى ، وكان ذراعاها تحملان مجموعة من الأساور الثقيلة من النحاس المطلى بالفضة، وقد شدت بعضها إلى بعض بخيط كما طليت جميعاً ، بطريقة بدائية ، بالأحمر والأزرق ، وكانت تلك زينة مصرية خالصة . وكانت هناك أساور أخرى ترن فوق معصم ساقها رغم نهى القرآن عن ذلك ، إذ أنه لا ينبغى أن تضرب المرأة برجليها ليرن صوت ما تزين به قدميها من مجوهرات .

كنت أعجب هكذا بجاذبيتها فى ثوبها ذى الخطوط الحريرية، وقد التفت بالملاءة الزرقاء وبدا عليها طابع التمثال القديم ، وهو الطابع الذى يميز نساء

الشرق ، دون أن يكون لديهن أدنى إحساس بذلك . لقد كان الاهتمام البادى فى حركاتها ، والتعبير غير العادى الذى يبدو على ملامحها يؤثران فى أحيانا دون أن يوحيا إلى بالقلق ، لاسيما أن النوتى الذى يتحدث إليها فى سن جدها ، ولا يبدو عليه ما يدل على أنه يخشى أن يسمع أحد ما يقوله لها .

وقال لى الأرمنى الذى كان قد اقترب بعد ذلك بقليل من النوتية وسمع حديثهم فيما بينهم :

— إن هؤلاء الناس يقولون : إن المرأة التى برفقتك ليست ملكا لك .

فقلت له .

— إنهم مخطئون ، وفى إمكانك أن تخبرهم أن عبد الكريم قد باعنى إياها فى القاهرة بخمسين كيساً . وأنى أحمل إيصال البيع فى حافظتى . ومع ذلك فهذا أمر لا يعنيهم .

— إنهم يقولون إن النخاس لا يملك حق بيع امرأة مسلمة لرجل مسيحى

إن رأيهم لا يهمنى ، وفى القاهرة يعرف القوم عن ذلك أكثر مما يعرفون هم . وكل الإفرنج فيها يقتنون العبيد والجوارى سواء أكانوا من المسلمين أو من المسيحيين .

— ولكن هؤلاء العبيد والجوارى ليسوا إلا زنوجا أو أحباشا ، فهم لا يستطيعون الحصول على عبيد من الجنس الأبيض .

أترى أن تلك المرأة بيضاء ؟

وهز الأرمنى رأسه دلالة الشك .

فقلت له :

— أصغ إلى . أماعن حتى فأنالا أشك فيه، فقد قت قبل ذلك بالاستعلامات اللازمة . والآن عليك أن تقول للقبطان : إنه من غير اللائق أن يتحدث نوتيته إلى الجارية .

وبعد أن ذهب وتحدث مع هذا الأخير عاد وقال لى :

— إن القبطان يقول إنه كان فى مقدورك أن تبدأ بنهيها هى عن ذلك .

فأجبت :

— لم أشأ أن أحرمها متعة التحدث بلغتها، أو أن أمنعها من الانضمام إليهم للصلاة . وأيا ما كان الأمر فإن الحياة على ظهر السفينة تضطر الجميع إلى أن يكونوا معا . ومن الصعب منع تبادل بعض الكلمات .

لم يكن يبدو على القبطان نيقولا الكثير من الاستعداد الطيب ، وقد أرجعت ذلك إلى غضبه لرفضى عملية التبادل التى عرضها على . ومع ذلك فقد استدعى النوتى الحاج ، الذى حددته له بصفة خاصة كشخص سيء الطوية وتحدث إليه . أما أنا فلم أشأ أن أذكر أى شيء من ذلك للجارية ، حتى لا أفرض على نفسى دوراً بغيضاً ، دور السيد كثير الطلبات .

وبدا أن النوتى يرد على القبطان بطريقة متعالية . وقد طلب إلى القبطان عن طريق الأرمنى ، ألا أشغل نفسى بهذا بعد الآن ، فهذا الرجل ملهم ، وهو شبه قديس يحترمه جميع زملائه لتقواه . وعلاوة على ذلك فإن مايقوله ليست له أية أهمية .

ولم يعد هذا الرجل ، فى الواقع ، يتحدث إلى الجارية . ولكنه كان يتحدث مع زملائه أمامها بصوت مرتفع . وفهمت أن الأمر يتعلق بالمسلم

و « الروى » . وكان ينبغي وضع حد لهذا الموضوع، كما أنى لم أجد أية وسيلة لتجنب طريقة التلبيح تلك .

ولذا قررت أن استدعى الجارية إلى جوارنا . وبمساعدة الأرمنى دارت بيننا ، على وجه التقريب ، تلك المحادثة :

— ماذا قال لك هؤلاء الرجال الآن ؟

— قالوا لى إننى مخطئة ، وأنا المؤمنة ، بيقائى مع هذا الـكافر .

— ولـكن ألا يعلمون أننى قد اشتريتك ؟

— إنهم يقولون إن أحداً لا يملك حق بيعى لك .

— أتظنين أن هذا صحيح ؟

— الله أعلم .

— إن هؤلاء الرجال مخطئون ، ويجب ألا تتحدثى معهم بعد الآن

— حسن .

ورجوت الأرمنى أن يقوم بتسليتها قليلا وأن يقص عليها الحـكايات، لقد أصبح هذا الفتى بالنسبة لى بالغ النفع . وكان يتحدث إليها دائماً بذلك الصوت القيثارى الرقيق الذى يستعملونه لإشاعة المرح فى نفوس الأطفال. وكان يبدأ حديثه دائماً بقوله :

— كده يا ستى؟ ماذا هناك يا سيدتى؟ ألا نضحك قليلا ؟ أتريدين سماع مغامرات الرأس المطهو فى الفرن ؟

وعلى أثر ذلك يبدأ يقص عليها قصة قديمة من القسطنطينية تحكى قصة خياط حمل إلى بيته رأس أغا سلم إليه خطأ ، ظنا منه أنه يحمل ثوب السلطان لإصلاحه . ولما لم يجد طريقة للتخلص من ذلك الحمل التعس ، أرسله إلى

الفرن فى قدر من الفخار ، لدى صانع فطائر يونانى . وأهداه هـذا الأخير إلى حلاق أفرنجى،بعد أن وضعه سراً مكان تمثال رأس يحمل « بروكة » من الشعر المستعار . وقام الأفرنجى بتصفيف شعر الرأس ، ولما لاحظ خطأه حمل الرأس خارج حانوته . وهكذا تتوالى سلسلة من الالتباسات المضحكة إن قليـــلا وإن كثيراً . إن تلك القصة تنتمى إلى الدعابات التركية ذات الذوق الرفيع .

وحل وقت صلاة المغرب بشعائرها المعتادة. ولكيلا أصدم شعور أحد ذهبت للتنزه لدى الطرف الأمامى للسفينة ولأرقب طلوع النجوم . وقد أديت أنا الآخر صلاتى ، صلاة الحالمين والشعراء ، أى الإعجاب بالطبيعة والحماس للذكريات . نعم كنت أعجب بها فى هواء الشرق هذا الذى بلغ من النقاء حداً جعله يقرب السماء من الإنسان ، كنت أعجب بتلك الكواكب الآلهة ذات الصور المختلفة المقدسة التى خلقتها العناية ، الواحدة تلو الأخرى كأقنعة لإزيس الخالدة ، وأوجه حديثى إلى أورانوس استارتيه(١) وزحل والمشترى قائلا :

إنكم ما زلتم تمثلون لى التغيرات التى طرأت على معتقدات أجدادنا المتواضعة . إن أجدادنا الذين جابوا تلك البحار بالملايين قد التبس عليهم الأمر دون شك فظنوا أن الأشعة هى الشعلة المقدسة وأن العرش هو الآله. ولكن من ذا الذى لا يجد فى كواكب السماء الأدلة القاطعة على القدرة الخالدة ، وفى سيرها المنتظم العمل الساهر لعقل خفى؟

(١) آلهة السماء لدى الشعوب السامية

٨ – التهديد

ولما قفلت راجعا نحو القبطان ألفيت الجارية والنوتي العجوز (الحاج) وقد استأنفا حديثهما الديني لدى قدم القارب ، رغم تحذيري .

وفي هذه المرة لم يبق ما أحرص عليه ، فجذبت الجارية من ذراعها في عنف ، حتى لقد اندفعت وسقطت في رخاوة شديدة ، فوق كيس من أكياس الأرز .

وصاحت قائلة يا غول !

وقد وصلت الكلمة إلى سمعي بوضوح ، ولم يكن هناك مجال للضعف فأجبت .

– بل أنت « غول » دون أن أعلم ما إذا كانت تلك الكلمة الأخيرة تقال بتلك الصورة في المؤنث أم لا « بل أنت التي لست مخلصة » ثم أضفت وأنا أشير إلى الحاج :

« وهو كلب »

ولست أدري ما إذا كان الغضب الذي عصف بي ناشئا من أنني قد عوملت باحتقار بصفتي مسيحيا ، أم من التفكير في جحود تلك المرأة التي كنت دائماً أعاملها معاملة الند للند ؟

ولما سمع « الحاج » وصفه بالكلب قام بحركة تهديد ، ولكنه سرعان ما عاد إلى زملائه . . ولم يجرؤ على مهاجمة أحد الإفرنج . وتقدم اثنان أو ثلاثة منهم وهم يلفظون بعض الشتائم . وبحركة آلية أمسكت بأحد المسدسات الموضوعة في منطقتي ، دون أن أفكر في أن تلك الأسلحة ذات

المقبض البراق ، والتى اشتريتها من القاهرة لإكمال مظهر ثوبى ـ ليست ماضية إلا فى اليد التى تريد استعمالها . وعلاوة على ذلك فإنى أعترف أنها لم تكن محشوة .

وقال لى الأرمنى وهو يوقف ذراعى .

ـ أتفكر فى ذلك ؟ إنه مخبول ، وهو بالنسبة لهؤلاء القوم قديس . دعهم فى صياحهم فسوف يتحدث إليهم القبطان .

وتظاهرت الجارية بالبكاء ، كما لو كنت قد بالغت فى الإساءة إليها ،ولم ترد أن تتحرك من المكان الذى كانت تقف فيه . وأتى القبطان وقال بلهجته غير المكترثة . « ماذا تريد ؟ إنهم متوحشون ! » ثم وجه إليهم بعض الكلمات فى لهجة لينة .

وقلت للأرمنى : «وبالإضافة إلى ذلك فإنى ما إن أضع قدمى على الأرض حتى أذهب لمقابلة الباشا وأجعلهم يتلقون بعضا من ضربات العصى » .

وأعتقد أن الأرمنى قد ترجم لهم هذا القول بعض المجاملات معتدلة اللهجة ، لأنهم لم يعودوا يقولون أى شىء . ولكنى كنت أشعر جيداً أن ذلك السكون يتركنى فى وضع غامض محير . وتذكرت فى الوقت المناسب خطاب توصية كنت أحمله فى حافظتى لباشا عكا . وكان صديق « أ . ى » قد أعطانى إياه ، وقد كان هو عضوا بديوان القسطنطينية فترة من الوقت. وسحبت حافظتى من سترتى مما سبب قلقاً عاماً .

إن المسدس لم يكن ليفيد إلا فى قتلى .. لاسيما وهو صناعة عربية . ولكن أبناء الشعب فى الشرق يعتقدون دائماً أن الأوربيين نوع من السحرة فى استطاعتهم أن يسحبوا من جيوبهم فى أية لحظة ما يمكنهم من تحطيم جيش بأسره، إلا أنهم عادوا فاطمأنوا حينما رأوا أننى لم أسحب من الحافظة

إلا خطاباً ، وفوق ذلك فهو مكتوب بالعربية ، وموجه إلى « صاحب السعادة محمد باشا والى عكا الذى سبق أن أقام مدة طويلة فى فرنسا .

وبما كان ملائما لفكرتى ولموقفى أتناكنا ، فى ذلك الوقت فى مواجهة عكا ، حيث كان يجب أن نتوقف لنتزود بالماء . ولم تكن المدينة بعد بدت لأعيننا ، ولكن إذا استمرت الريح مواتية فلا بد أننا واصلون إليها فى اليوم التالى . أما عن محمد باشا ، فهناك صدفة أخرى جديرة بأن تسمى « عناية إلهية » بالنسبة لى وقدر محتوم بالنسبة لغرمائى . فقد كنت قد قابلته فى باريس فى سهرات متعددة . وكان قد قدم إلى التبغ التركى وأبدى لى الكثير من المجاملات .

وكان الخطاب الذى أحمله يذكره بذلك ، خوفا من أن يكون الزمن وما يحيط به الآن من عظمة جديدة قد محوا صورتى من ذاكرته . وأياما كان الأمر فقـــد أصبح واضحا من الخطاب أننى شخص موصى عليه بقوة كبيرة .

وكان لقراءة ذلك الخطاب نفس الوقع الذى كان لكلمة : «ينبغى أن» التى قالها نبتون وهو غاضب من الرياح العاتية التى كانت تهب على البحار . وبعد أن وضع الأرمنى الخطاب على رأسه دلالة على الاحترام ، نزع الغلاف الذى لم يكن ملصقا ، كما هى العادة فى خطابات التوصية ، وأرى النص للقبطان فى أثناء قراءته له . ومنذ تلك اللحظة لم تعد ضربات العصى التى وعدتهم بها خيالا بالنسبة للحاج وزمرته . وأحنى هؤلاء الشياطين الرءوس وفسر لى القبطان سلوكه بخوفه من الاحتكاك بآرائهم الدينية ، لاسيما أنه هو نفسه ، ليس أكثر من رعية يونانية بسيطة من رعايا السلطان لا يستمد سلطته إلا من العمل الذى يشغله ثم قال :

— « أما عن المرأة ، فإذا كنت صديقا لمحمد باشا فستظل لك ، إذمن

ذا الذى يجرؤ على معارضة ما يجود به العظماء من نعم ؟ » .

ولم تتحرك الجارية من مكانها ، ومع ذلك فقد سمعت جيداً ما قيل . ولا بد أن كل شك كان يساورها حول وضعها المؤقت قد تبدد . إذ أن الحماية فى البلاد التركية تعتبر أقوى من الحق . ومع ذلك فقد كنت ، منذ تلك اللحظة أصر على إقرار حق أمام الجميع .

وقلت لها موضحا الأمر :

— ألم تولدى فى بلد لا يخضع لسلطان الأتراك ؟

فأجابت :

— « هذا صحيح ، فأنا هندية .

— إذن ففى مقدورك أن تلتحق بخدمة الأفرنجى شأنك فى ذلك شأن الحبشيات ، وهن نحاسيات اللون مثلك ، وفى نفس مستواك » .

« فقالت كما لو كانت قد اقتنعت :

— نعم . أنا ملك لك ! أنا جاريتك.

— فأضفت قائلا :

— ولكن أتذكرين أننى ، قبل أن نغادر القاهرة ، قد عرضت عليك أن تبقى فيها حرة ؟ وقد أجبتنى بأنك لاتدرين إلى أين تذهبين ؟.

— « هذا ، صحيح ، وكان « الأحرى بك أن تعيد بيعى .

— اتبعتنى إذن لـكى تنقل إلى بلد آخر ، ثم تتركينى ؟ حسن ! بما أنك جاحدة إلى هذا الحد ، فإنك ستظلين دائما جاريتى ، ولن تعودى سيدة بل ستصبحين خادمة .

ومنذ الآن سوف تسدلين نقابك على وجهك ، وسوف تظلين فى غرفة القبطان .. مع الصراصير ، ولن تتحدثى إلى أى شخص هنا .

وأسدلت نقابها دون أن تجيب ، وذهبت للجلوس فى الغرفة الصغيرة التى توجد فى مقدمة السفينة .

وربما أكون قد استسلمت للرغبة فى التأثير على هؤلاء الناس الذين يتأرجحون بين العبودية والقحة ، وهم دائما تحت رحمة الانطباعات الحادة أو العابرة .. إن أكثر الرحالة تواضعا ليضطر سريعاً ، إذا لم يلجأ إلى الأبهة فيعرض عليهم احترامه من أول الأمر ، إلى الوقوف منهم مواقف مسرحية . وإنه ليضطر ، فى حالات ، عديدة ، إلى اتخاذ قرارات قوية ، يبديها من ذلك الحين دون خطر . إن الشرق لا يستغرب أى شىء ، وكل شىء محتمل الوقوع فيه ؛ فالأفاق يحتمل جدا أن يكون ابنا لأحد الملوك ، كما يحدث فى ألف ليلة وليلة .ألسنا نرى فيه أمراء أوربا يسافرون «بالفراك» الأسود والقبعة المستديرة ؟

٩ – شواطئ فلسطين

لما ظهرلى شاطىء آسيا بعد طول انتظار حييته فى نشوة . وكان قد مضى على فترة طويلة لم أر فيها أية جبال ! إن نضارة المنظر وما يحيط به من ضباب ، وما للمنازل المطلية والأكشاك التركية التى تنعكس فى المياه الزرقاء من رونق كبير ، ومناطق الهضاب المختلفة التى تتدرج فى جرأة بين البحر والسماء ، وحافة جبل الكرمل الرأسية وسوره المربع وقبته المرتفعة وديره الشهير - كل ذلك يتألق من بعيد بلونه الكرزى الزاهى الذى يذكرنا دائما بطراوة الفجر فى ألحان هوميروس . وتقع « حيفا » لدى أقدام تلك الجبال التى مررنا بها ، وهى مواجهة لعكا ، فهى تقع فى الطرف الآخر من الخليج ، وقد توقفت سفينتنا فى مواجهتها : لقد كان منظرا مليئا بالعظمة والرقة فى آن واحد . لقد كان البحر ، ولا يكاد تموج سطحه يبدو واضحا - يمتد كبحر من الزيت نحو الشاطىء حيث ترى حافة الموج الضيقة بما فيها من زبد ، وهى تقاوم بلونها الأزرق الأثير الذى بدأ يتذبذب تحت لهب الشمس التى لم تكن قد ظهرت بعد . . .

وهذا المنظر لا نراه أبدا لدى شواطىء مصر المنخفضة وآفاقها الملوثة بالأتربة . وأخيرا ظهرت الشمس لأنظارنا وبدت مدينة عكا واضحة جلية . وهى تتقدم فى البحر فوق الرأس الرملى الذى بنيت فوقه ، وذلك بقبابها البيضاء وجدرانها وبيوتها ذات الشرفات وبرجها المربع ذى الفتحات المعرجة ، وهو الذى كان فيما مضى مقراً للجزار باشا ، ذلك الرجل الرهيب الذى كافح نابليون ضده .

وكنا قد أرسينا السفينة على مسافة قليلة من الشاطىء . وكان علينا أن ننتظر زيارة الجهات الصحية ، قبل أن يسمح للقوارب بأن تأتى لتزويدنا

بالماء البارد والفاكهة . أما النزول إلى البر فكان محظورا علينا، اللهم إلا إذا توقفنا فى المدينة وقضينا فترة الحجر الصحى بها .

وما إن أتى قارب « الصحة » وقرر أننا مرضى لأننا قادمون من شواطىء مصر حتى سمح لقوارب الميناء الصغيرة بإحضار المرطبات اللازمة ، وأن تقبل نقودنا مع اتخاذ الاحتياطات المعتادة . ولذا كان علينا ،فى مقابل براميل الماء والبطيخ والشمام والرمان الذى كانوا يحضرونه لنا ، أن نصب لهم قطع النقود « الغازى » والقروش والبارات فى أحواض مليئة بمحلول الماء والخل كانوا يمسكون بها ، بحيث تكون فى متناول أيدينا .

وبعد أن زودنا أنفسنا بما نحتاج إليه من مؤن تناسينا مشاجراتنا الداخلية . ولما كان أمامنا بضع ساعات حتى ننزل إلى البر ، ولما كنت قد عدلت عن التوقف فى هذه المدينة، لذا لم أجد من الملائم أن أرسل الخطاب إلى الباشا ، رغم أنه كان فى مقدوره أنه يوصى بى فى أية نقطة من الشاطىء الفنيق العتيق الذى يتبع بوغاز عكا . إن تلك المدينة التى يسميها القدامى عكو أو « الضيقة » ، والتى يسميها العرب « عكا » كانت تسمى « بتوليمايس » فى زمن الحروب الصليبية .

وفردنا شراعنا وغدا رحيلنا ، منذ الآن ، عيداً . وظللنا نسير بحذاء شاطىء الشام على بعد ربع فرسخ .

وكان البحر بصفائه وزرقته الدائمين يعكس، وكأنه البحيرة ، سلسلة الجبال الرشيقة التى تمتد من جبل كرمل إلى لبنان . وعلى بعد ستة فراسخ من عكا ظهرت لنا « صور » ،وكان اسمها فى الماضى « تير » ، ومعها برزخ الإسكندر وهو يصل الشاطىء بالجزيرة الصغيرة، حيث بنيت عليها المدينة العتيقة التى كان لزاما عليه أن يحاصرها لمدة طويلة .

وبعد مسيرة ستة فراسخ التقينا « بصيدا » ، وهى سيدون « القديمة »

التى تكتظ فيها البيوت البيضاء لدى أقدام الجبال حيث يسكن الدروز .
إن تلك الشواطىء الشهيرة لاتملك إلا القليل من الأطلال التى تذكرنا بفينيقيا الغنية . ولكن ماالذى يمكن لمدن لم تزدهر إلا بالتجارة أن تترك لنا ؟ إن فخامتها قد اندثرت كالطيف والتراب ، وتحققت لعنة التوراة كاملة كما يتحقق كل ما يحلم به الشعراء وكل ما تنكره حكمة الأمم !

ومع ذلك فى اللحظة التى نكاد نبلغ فيها هدفنا تراانا نسأم كل شىء حتى تلك الشواطىء الجميلة، وتلك الأمواج الزرقاء . وأخيراً هاهو رأس بيروت وصخورها الشهباء التى تشرف عليها من بعيد قمة جبال السنين الثلجية . إن الشاطىء جدب . وكانت الصخور المكسوة بالحشائش المائلة للحمرة تبدو بكل تفاصيلها ودقائقها تحت أشعة الشمس المتوهجة . وسرنا بحذاء الشاطىء ودرنا جهة الخليج ، وفى الحال تغير كل شىء . إنه منظر ملىء بالنضارة والبهجة ، بالظل والسكون ، منظر يذكرنا بجبال الألب حينما تصور من قلب إحدى البحيرات السويسرية ، تلك هى بيروت فى جو صفا أديمه . إنها أوربا وآسيا وقد امتزجتا فى عناق متراخ؛ إنها ،لكل رحالة سئم الشمس والتراب ، واحة بحرية تجد فيها ، بمزيد من الفرح ، لدى جبهة الجبال ذلك الشىء الذى نجده شديد الكآبة فى الشمال ، شديد البهجة بحيث يتمناه الناس فى الجنوب ، ألا وهو السحب !

أيتها السحب المباركة ! سحب بلادى ! كنت قد نسيت أفضالك ! إن شمس الشرق تضفى عليك مزيداً من السحر ! فى الصباح تكتسبين لونارقيقا نصف وردى ونصف أزرق ، وكأنك سحب الميثولوجيا التى نتوقع دائماً أن نرى الآلهة الضاحكة تنبعث من داخلها . وفى المساء تراها ألسنة لهب رائعة وقبابا قرمزية ماتلبث أن تتهدم وتتحول إلى هضاب بنفسجية ، بينما السماء تتدرج من ألوان اللازورد إلى الزمرد، وهى ظاهرة شديدة الندرة فى بلاد الشمال .

وكلما تقدمنا فى سيرنا تألقت الخضرة بدرجاتها المختلفة الكثيرة ، ويضيف لون التربة القاتم ولون المبانى إلى بهجة المنظر الشىء الكثير . وتبدو المدينة داخل الخليج منغمسة فى الأغصان . وبدلا من أكوام المنازل المطلية بالجير التى يرهق مرآها النفس، والتى يتكون منها معظم المدن العربية ، كنت أعتقد أننى أرى مجموعة من البيوت الصغيرة الأنيقة الساحرة وقد انتثرت على مسافة فرسخين . إن المبانى كانت فى الواقع تتجمع حول نقطة ملحوظة تنطلق فيها الأبراج المستديرة والمربعة ، ولكن ذلك لم يكن يبدو سوى حى من أحياء وسط المدينة تميزه الأعلام العديدة ذات الألوان المختلفة .

وبدلا من أن نقترب من المرسى الضيق الغاص بالسفن الصغيرة ، كما كنت أحسب ، قطعنا الخليج فى خط منحرف ، وذهبنا لننزل فى جزيرة صغيرة محاطة بالصخور كان ما بها من أبنية منخفضة وعلم أصفر يمثل الحجر الصحى . وكان ذلك هو الشىء الوحيد الذى سمح لنا به مؤقتا .

١٠ – الحجر الصحي

إن القبطان نيقولا وطاقمه قد أصبحوا بالنسبة إلى غاية في اللطف وشدة المجاملة. لقد كانوا يقضون أيام الحجر الصحي على ظهر السفينة، ثم أتى قارب مرسل من قبل «الصحة» لينقل المسافرين إلى الجزيرة التي إذا رأيناها عن كثب وجدناها أقرب إلى شبه الجزيرة. فقد كان هناك امتداد بين الصخور تظلله الأشجار الطاعنة في القدم. وكان هذا الامتداد يصل إلى سلم مبنى يشبه الدير ترتكز قبابه المستديرة ذوات القمة المدببة على أعمدة حجرية وتحمل سقفا من خشب الأرز، وذلك كما يرى في الأديرة الرومانيـة. وكانت الأمواج تأتي لتتكسر حول ذلك المكان على الأحجار الرملية المغطاة بالنباتات البحرية. ولم يكن ينقصه إلا تواتيم الرهبان الجماعية والعاصفة لكي يذكرنا هذا بالفصل الأول من مسرحية «برترام»، لما توران.(١)

وكان علينا هنا أن ننتظر بعض الوقت لزيارة الناظر، أو المدير التركي، الذي قبل عن طيب خاطر أن يسمح لنا بالدخول والتمتع بما في منطقته من متع. وكانت هناك أبنية تشبه الأديرة تتلو البناء الأول، الذي كان يستخدم وحده، لأنه مفتوح من جميع الجهات، في تعقيم البضائع المشتبه فيها. وفي طرف الرأس كان هناك جناح منعزل يشرف على البحر، وهو الذي خصص لإقامتنا. إنه المركز الذي يخصص عادة للأوربيين. وكانت الأروقة التي تركناها عن يميننا تضم أسراً عربية تعسكر، إذا صح هذا التعبير، في قاعات فسيحة تقوم مقام المساكن والحظائر. وهناك كانت الجياد الأسيرة ترتعد، والجمال تخرج رقابها الملتوية ورءوسها المغطاة بالوبر من بين القضبان. وعلى

---

(١) ماتوري Materiu كاتب فرنسي والمسرحية Bertrann برتران

مسافة أبعد من ذلك كانت ترى بعض القبائل، وقد جلست القرصفاء حول النار التى يطهون عليها طعامهم . وقد التفتوا ناحيتنا فى شرود حينما رأونا نمر بالقرب من أبوابهم . وقدكان لنا حق التريض فى مساحة تقرب من الفدانين مزروعة بالشعير وأشجار التوت ، بل كان لنا الحق فى أن نستحم فى البحر تحت أعين حرس من الحراس .

وما إن ألفت هذا المكان البحرى الموحش ، حتى وجدت الإقامة فيه ساحرة .كنت أجد فيه الراحة والظل والمناظر المتنوعة الكفيلة بجعلنا نسترسل فى أسمى الأحلام . فمن هذه الجهة كنت ترى جبال لبنان الداكنة بنتوءاتها ذات الألوان المختلفة ، وهى تتألق هنا وهناك باللون الأبيض الذى تضفيه عليها القرى المارونية والدرزية العديدة والأديرة متعددة الطوابق فى أفق تبلغ مساحته ثمانية فراسخ . وفى الجهة الأخرى ، وفى مواجهة تلك السلسلة ذات الجبهة الثلجية التى تنتهى لدى رأس بوترون . كنت ترى الأرض المدرجة التى بنيت عليها بيروت بأجمعها ، تتوجها غابة الصنوبر التى غرسها الأمير فخر الدين ليوقف غزو رمال الصحراء . وكانت الأبراج ذات الثقوب ، والقصور الريفية بنوافذها ذات القمم الدائرية المدبية والمبنية بالأحجار المائلة للحمرة ، كل ذلك كان يضفى على هذا البلد طابعاً إقطاعياً ، وفى نفس الوقت أوربيا يذكرنا بالنماذج المصغرة لمخطوطات الفروسية فى العصور الوسطى . وكانت السفن الإفرنجية الراسية فى الميناء ، والتى لم يكن ميناء بيروت الضيق يتسع لها ، تزيد من معالم الحياة فى تلك اللوحة

كان الحجر الصحى فى بيروت محتملا جداً إذن . وانقضت أيامنا فيه إما فى الاسترسال فى الأحلام تحت الظلال الوارفة لأشجار الجميز والتين ، وإما فى التسلق فوق صخرة جميلة تحيط بحوض طبيعى يأتى البحر فيكسر فيه أمواجه، وقد أدركها الهدوء .وكان ذلك المكان يذكرنى بالمغارات الصخرية لبنات

« نيريه »[١]. وقد كنا نقضى فيه فترة وسط النهار، فى عزلة عن سكان الحجر الصحى الآخرين ، إما راقدين فوق النباتات البحرية الخضراء، وإما فى نضال لطيف مع الأمواج ذات الزبد . وفى الليل كانوا يحبسوننا فى الخيمة حيث كان البعوض وغيره من الحشرات يجعل وقتنا أقل متعة . وحينئذ كانت القمصان المقفلة ذات الأقنعة الرقيقة ، التى سبق أن تحدثت عنها ، تأتى لنجدتنا . أما عن الطعام فلم يكن يتكون إلا من الخبز والجبن المملح ، ويمنحها لنا « الكانتين » . وينبغى أن نضيف إلى ذلك البيض والدجاج الذى يجلبه لنا الفلاحون من الجبال - وفوق ذلك ففى كل صباح كانت الخراف تذبح أمام الباب ، وتباع لحومها بسعر الرطل قرش واحد (خمسة وعشرين سنتيما). أضف إلى ذلك أن نبيذ قبرص كان يباع بنصف قرش تقريباً للزجاجة ، فأمكننا ذلك من أن نجد فيه متعة دونها متعة الموائد الأوربية الكبيرة . ومع ذلك فإنى أعترف بأن المرء يتعب من هذا النبيذ الكحولى لدى شربه بالطريقة المعتادة ، وأفضل منه نبيذ لبنان الذهبى الذى يشبه المادير ا فى طعمه الجاف وحدته .

وذات يوم أتى القبطان نيقولا ليزورنا يرافقه اثنان من نوتيته وصبيه . وكانت مياه الصداقة قد عادت إلى مجاريها بيننا، وكان بصحبته كذلك « الحاج» الذى شد على يدى فى حماس كبير، ربما كان مبعثه أنه يخشى أن أقدم شكوى ضده بمجرد انتهاء الحجر الصحى وذهابى إلى بيروت . أما من ناحيتى فقد كنت مفعما بالود . وقد تناولنا الغذاء معاً ، ودعانى القبطان إلى الإقامة لديه إذا ماحدث وذهبت إلى طرابلس . وبعد الغذاء تنزهنا على الشاطىء . وانتحى بى جانبا ولفت نظرى إلى الجارية والأرمنى اللذين كانا يتبادلان الحديث، وقد جلسا فى مكان أكثر انخفاضاً من مكاننا على شاطىء البحر . وبخليط

«١» إله بحرى من آلهة الميثولوجيا وهو زوج الآلهة دوريس

من الإفرنجية واليونانية أفهمنى فكرته الى استبعدتها بشكل واضح . فما كان منه إلاأن هز رأسه ، وبعد قليل صعد إلى زورقه بعد أن استأذن منى بطريقة ودية . وقلت فى نفسى إن القبطان نيقولا مازال يحنق على لعدم قبولى مبادلته الجارية بالصبي . ومع ذلك فقد ظل الشك فى نفسى ليهاجم ، أقل ما يهاجم ، مابها من غرور .

وإنك لتدرك جيدا أن نتيجة المشادة التى حدثت على ظهر السفينة هى نوع من البرود سرى بينى وبين الجارية . وكانت قد تفوهت ، فيما بيننا ، بكلمة من تلك الكلمات التى لايزول أثرها كما يقول مؤلف رواية « أدولف »(١) ذلك أن صفة « غول » قد جرحتنى جرحا عميقا . وهكذا كنت أقول لنفسى . إنهم لم يجدوا صعوبة فى إقناعها بأنه لاسلطان لى عليها . وفوق ذلك ، سواء أكان ذلك نتيجة لنصائحهم أو لتفكيرها الخاص ، فقد كانت تشعر ببعض المذلة لانتمائها إلى رجل من جنس أقل من جنسها حسب ما توحى به الأفكار الإسلامية . وكانت تلك الأفكار تنعكس على الأوربى الذى كانت الناس تخشاه لدى السواحل لسبب مظهر النفوذ الذى يكشفه مرور السفن . أما فى المناطق الداخلية ، حيث عاشت تلك المرأة ، فقد كانت تلك الأفكار المتعصبة تحتفظ بكل مافيها من حيوية وقوة .

ومع ذلك فقد كنت ألقى صعوبة فى افتراض الخبث والرياء فى تلك النفس الساذجة ؛ فإن الشعور الدينى الواضح لديها كفيل بحمايتها من ذلك التدهور . ومن جهة أخرى لم أستطع أن أغفل عما فى الأرمنى من مزايا . فهو مازال فى ريعان الشباب ، وتميزه الوسامة الأسيوية ذات الملامح الواضحة النقية التى تميز تلك الشعوب التى ولدت والعالم لم يزل بعد فى المهد . لقد كانت له سيما فتاة ساحرة تخفت فى ملابس الرجال ، لتحقق نزوة من نزواتها . إن ثيابه نفسها ، فيما عدا غطاء رأسه ، لاتبدد هذا التصور إلا قليلا .

---

(١) مؤلفها هو الكاتب الفرنسى بنجمان كونستان .

وهأنذا قد أصبحت فى موقف «أرنولف» (١) ، أرقب مظاهر لاجدوى منها مع شعورى بأنى موضع استهزاء مزدوج ، إذ أننى ، علاوة على ذلك ، سيدها . لقد كان من نصيبى أن أكون فى آن واحد مخدوعا ومسروقا ، أردد فى نفسى ، كما يفعل بطل مسرحية تنهشه الغيرة :

— إن حراسة المرأة لعبة ثقيلة !

ثم أقول لنفسى بعد ذلك مباشرة : « ليس فى هذا ما يدهش ، فهو يسليها ويروح عنها بحكاياته ويوجه إليها آلاف المجاملات الرقيقة . أما أنا فإذا ما حاولت التحدث بلغتها لابد أن أحدث تأثيراً مضحكا كالذى يحدثه الإنجليزى ، رجل الشمال ، البارد الثقيل فى امرأة من بلدى . إن الشرقيين يمتازون بتدفق عاطفى حار ، لابد أنه فى واقع الأمر شديد الإغراء !

ومنذ تلك اللحظة ، هل أقولها صراحة ؟ خيل إلى ملاحظة تشابك أيد ، وكلمات حانية لم يعد حتى وجودى يضايقها . وأعملت فكرى بعض الوقت ، ولكنى اعتقدت أن من واجبى أن اتخذ قراراً حاسماً .

فقلت للأرمنى .

— أى عمل كنت تقوم به فى مصر ياعزيزى ؟

— كنت سكرتيراً لطوسون بك ، كنت أترجم له الكتب والجرائد الفرنسية ، وكنت أحرر خطاباته للموظفين الأتراك . وقد مات فجأة وأخرجت من عملى . هذا هو الوضع الذى أنا فيه .

— والآن ماذا تنوى أن تفعل ؟

— إنى آمل الدخول فى خدمة والى بيروت . إنى أعرف أمين خزانته وهو من قومى .

---

(١) بطل مسرحية (مدرسة النساء) لموليير ، وهو عجوز أحب ربيبته الشابة ، فآثرت عليه فتى فى ريعان الشباب مثلها .

— ألا تفكر فى الزواج ؟

— لست أملك مالا لكى أقدمه مهرا ، ولن تقبل أية أسرة أن تناسبنى أو تزوجنى بناتها بغير هذه الطريقة .

وبعد فترة سكون قلت فى نفسى : لتظهر كرم أخلاقنا ونمنح السعادة لاثنين .

وأشعرتنى تلك الفكرة بالسمو والنبل ، ولا غرو فسوف أعتق جارية ، وأتسبب فى عقد زواج شريف . لقد كنت إذن فى آن واحد محسنا وأبا ! فأمسكت بيدى الأرمنى .

وقلت له : « إنها تروق لك ، تزوجها فهى لك ! »

وكنت أود أن أشهد العالم بأسره على تلك الواقعة المؤثرة ، تلك اللوحة الأبوية التى تصور الأرمنى وقد علت الدهشة ملامحه وأدركه الارتباك لذلك الكرم ، والجارية جالسة إلى جوارنا ، وهى ماتزال تجهل موضوع حديثنا ، إلا أن القلق ، فيما يخيل إلى ، قد أدركها وهى مسترسلة فى أحلامها .

ورفع الأرمنى ذراعيه للسماء ، كما لو كان قد ذهل لتصرفى . فقلت له :

— كيف ، أيها التعس ! أتتردد فى القبول ! أبعد أن تغرى امرأة فى حوزة غيرك وتنحيها عن واجباتها ترفض أن تتكفل بها إذا ما أعطيتها ؟

إلا أن الأرمنى لم يفهم شيئا من عبارات اللوم تلك . وقد عبر عن دهشته بسلسلة من الاعتراضات القوية . فإن مثل تلك الأفكار التى خطرت لى لم تراوده مطلقا . بل لقد بلغ استياؤه من تلك الافتراضات أن أسرع

بإحاطة الجارية علما بها وإشهادها على صدق مايقول . ولما علمت الجارية فى نفس الوقت بما قلته بدا أن ذلك قد جرح كبرياءها ، ولا سيما افتراض أنها قد تكون وجهت التفاتها إلى « رعية » بسيطة، إلى خادم يخدم الأتراك تارة والإفرنج تارة أخرى ، إلى شىء ما كاليهودى .

وهكذا زج بى القبطان نيقولا فى سلسلة من الافتراضات السخيفة ... وفى هذا ما يدل دلالة واضحة على طريقة اليونانيين الماكرة فى التفكير .

الجبـل

١ - الأب بلانشيه

عندما خرجنا من الحجر الصحى استأجرت مسكنا ، لمدة شهر ، فى بيت يملكه بعض المسيحيين المارونيين ، ويبعد نصف فرسخ عن المدينة . إن معظم تلك المساكن ، التى تقع وسط الحدائق ، وتمتد حذاء الشاطىء كله على مدرجات مزروعة بأشجار التوت، تبدو كقصور ريفية إقطاعية ذات بنيان متين من الحجر العسلى تحليها النوافذ ذات الرأس الدائرى المدبب والأقبية الصغيرة . وكان بها سلم خارجى يصل إلى طوابقها المتعددة ، ولكل طابق منها حديقته ، حتى نصل إلى الحديقة التى تشرف على المبنى كله . التى تتجمع بها الأسر فى المساء للتمتع بمشاهدة الخليج . كانت أعيننا تلتقى فى كل مكان بالخضرة الكثيفة الناضرة ، ولا يميز تقسيماتها سوى حواجز نبات الصبار المنتظمة . ولقد انغمست فى أيامى الأولى ، فى تلك النضرة وتلك الظلال . لقد كانت الحياة واليسر يحيطان بنا فى كل مكان . كانت النساء أنيقات فى ملبسهن جميلات غير محجبات ، يرحن ويجئن وهن يحملن دائماً جراراً ثقيلة يذهبن لملئها من المساقى ويحملنها فى رشاقة على أكتافهن . وكانت مضيفتنا تضع على رأسها شبه قبة مغلفة بالكشمير تضفى عليها ، بضفائرها الطويلة المزدانة بالقطع الذهبية ، هيئة ملكة أشورية . ولم تكن سوى زوجة خياط يقع حانوته فى سوق بيروت . وكانت ابنتاه وأحفاده يقيمون فى الدور الأول ، فشغلنا نحن الطابق الثانى .

وسرعان ماألفت الجارية تلك الأسرة ، وجلست فى حرية فوق الحصير ، واعتبرت نفسها محاطة بمن هم أقل منها ، وأخذت تطلب منهم خدمتها . رغم كل مابذلت من جهد لمنع هؤلاء القوم الظرفاء من ذلك . ومع ذلك فقد كان يلائمنى أن أتركها فى أمان فى هذا البيت، حينما أذهب أنا إلى المدينة . وعبثا

كنت أنتظر الخطابات، فخدمة البريد الفرنسي رديئة فى تلك الجهات، لدرجة أن الجرائد والطرود كانت تتأخر دائماً قرابة شهرين. وكانت تلك الظروف تحزننى أشد الحزن، وتجعلنى أحلم أحلاماً كئيبة . وذات صباح استيقظت متأخرا وأنا بعد غارق فى أوهام أحد تلك الأحلام . فرأيت فوق رأسى قسيسا جالسا ينظر إلى بشىء من العطف . وقال لى بلهجة حزينة :

— كيف حالك الآن ياسيدى ؟

— إننى بخير ، وأستميحك عذراً ، فإنى أستيقظ و . . .

— لاتتحرك ! ابق هادئا . عد إلى نفسك وفكر أن اللحظة قد اقتربت،

-- أية لحظة ؟ !

— تلك الساعة النهائية ، المروعة لمن لم تكن لهم علاقة طيبة بالله !

— أه ، أه ! ماذا حدث إذن ؟

— إننى كما ترى على استعداد لتلقى رغباتك الأخيرة . فصحت قائلا :

— أه : هذا كثير ! ومن أنت ؟

— إننى أدعى الأب بلانشيه .

— الأب بلانشيه !

— من طائفة يسوع .

— لست أعرف هؤلاء الناس !

— لقد أتى من أبلغنى فى الدير أن أمريكيا شابا على وشك الموت ينتظرنى ، ليوصى ببعض ميراثه للطائفة .

— ولكنى لست أمريكيا ! إن هناك التباسا فى الأمر ! فضلا عن أننى لست على فراش الموت ، كما ترى .

ثم نهضت فجأة ... تحدونى بعض الحاجة إلى أن أقنع نفسى بأن صحتى على مايرام . وفهم الأب بلانشيه أخيرا أن المعلومات التى وصلته كانت خاطئة . فاستفسر عن فى البيت وعلم أن الأمريكى يسكن أبعد منا بقليل . فحيانى وهو يضحك من خطئه ووعدنى بالحضور لزيارتى لدى عودته ، إذ أن تعرفه بى ، بفضل تلك الصدفة الغريبة ، قد أسعده .

ولما عاد كانت الجارية فى الغرفة ، فأخبرته بتاريخها فقال لى :

— كيف تحمل ضميرك ذلك العبء ! . . لقد أشعت الاضطراب فى حياة تلك المرأة ، وأصبحت مسئولا على الدوام عن كل مايحدث لها . وحيث أنك لاتستطيع اصطحابها إلى فرنسا ، وطبعا لاترغب فى الزواج منها ، فماذا عسى يكون مصيرها ؟

— سوف أمنحها حريتها، وتلك هى أكبر نعمة تطلبها مخلوقة عاقلة .

— كان الأجدر بك أن تتركها حيث كانت . فقد كان من الممكن حينئذ أن تحصل على سيد أوزوج ... أما الآن ، أتدرى أية هوة من الضلال قد تتردى فيها لو تركت لشأنها ؟ إنها لاتستطيع أن تؤدى أى عمل ، ولا تريد أن تقوم على خدمة الناس ، فكر إذن فى كل هذا .

والواقع أننى لم أفكر أبداً فى كل هذا بطريقة جدية . وطلبت من الأب بلانشيه أن يسدى إلى النصيحة، فقال :

— ليس من المستحيل أن أجد لها وضعا ومستقبلا . وأضاف :

توجد فى المدينة نساء شديدات التقوى والورع، وسوف يتكفلن بمصيرها .

وأخبرته عن تبجيلها الشديد للدين الإسلامى . فهز رأسه وأخذ يحدثها ملياً .

وفى حقيقة الأمر كان الشعور الدينى لدى تلك المرأة أقرب إلى الشعور الطبيعى الذى نما بشكل عام منه إلى العقيدة المعينة . وفيما عدا ذلك كان طابع الشعب المارونى الذى نعيش بين ظهرانيه ، والأديرة التى نسمع رنين أجراسها فى الجبل، ومرور الأمراء المسيحيين والدروز المتكرر فى قدومهم إلى بيروت، وقد امتطوا صهوات جيادهم المطهمة وتزودوا بالأسلحة البراقة، وسار خلفهم جمع غفير من الفرسان والزنوج يحملون أعلامهم الملتفة حول الحراب ، كل ذلك الطابع الإقطاعى الذى كان يدهشنى، أنا نفسى ، كلوحة من لوحات الحروب الصليبية ، كان يعلم الجارية المسكينة أنه ، حتى فى البلاد التركية ، توجد الفخامة والقوة خارج التعاليم الإسلامية .

إن المظهر الخارجى كان دائما ، وفى كل مكان ، شديد الإغراء للنساء، ولا سيما الجاهلات منهن الساذجات . وكثيرا مايكون هو السبب الرئيسى لما يدين من ود أو ما يتخذن من عقائد . وكنا كلما ذهبنا الى بيروت واخترقت جموع النساء غير المحجبات ممن يغطين رءوسهن « بالطرطور » وهو مخروط من الفضة الموشاة والمذهبة تتأرجح عليه من خلف الرأس غلالة رقيقة ، وهو مما تبقى من مستحدثات الملابس فى العصور الوسطى ، وكلما رأينا كذلك الرجال بادى الغرة وقد حملوا الأسلحة الثمينة رغم أن عمائمهم الحمراء أو المتعددة الألوان تدل على أنهم ينتمون إلى عقائد خارج نطاق الإسلام ـ كانت تصيح قائلة :

« يا للغيلان ! » وكان هذا يخفف قليلا من غضبى منها ، لأنها نعتتنى يوما ما بتلك الكلمة .

كان الأمر يتوقف على اتخاذى موقفا محدداً . وكان المارونيون الذين استضافونا ، ولم تعجبهم حركاتها ، فأصدروا حكمهم عليها بطريقة تعصبية كاثوليكية ، يقولون لى : « بعها » بل وقد عرضوا على استحضار تركى لإتمام الأمر .

وإنك لتدرك أنى لم أعلق أية أهمية على تلك النصيحة البعيدة عن تعاليم الإنجيل .

وذهبت لزيارة الأب بلا نشيه في ديره الذى يقع تقريبا عند أبواب بيروت. وكان بالدير فصول للأطفال المسيحيين من يشرف هو على تعليمهم.

وتحدثنا مليا عن السيدى لامارتين الذى عرفه وأعجب كثيراً بشعره . ولقد شكالى كثيراً من صعوبة الحصول على تصريح من الحكومة التركية بتوسيع الدير ، ومع ذلك فقد كان بنيان الدير ، الذى لم يتم ، يدل على تصميم شامخ وسلم رائع من الرخام القبرصى يصل بين طوابق لم يتم بناؤها بعد . إن الأديرة الكاثوليكية تتمتع بحرية كبيرة فى الجبل . أما عند أبواب بيروت فلا يسمحون لها بالأبنية الكبيرة الهامة ، بل كان محظـــوراً على اليسوعيين استخدام الجرس . وقد استعاضوا عنه بجلاجل ضخمة أدخلوا عليها شيئاً فشيئاً من التعديلات ما جعل صوتها فى النهاية يقرب من صوت الجرس . كما كانت مبانى ديرهم تنمو تلقائيا تحت أعين الأتراك وحراستهم الضعيفة .

وقال لى الأب بلانشيه :

— لا بد لنا من مرونة الذئاب ، والصبر هو الطريق الموصل .

ثم عاد فحدثنى عن الجارية بنية خالصة . ومع ذلك فقد كنت فى نضال معمانى من تردد خاص . فالخطابات التى كنت فى انتظارها ربما تصل من يوم لآخر وتغير قراراتى . وكنت أخشى أن يندفع فى الخيال بدافع من قوة إيمانه ، ويفكر فى أن يمنح الدير شرف تنصير إحدى المسلمات ، وكنت أخشى أن يصبح مصير الفتاة المسكينة ، تبعا لذلك ، شديد التعاسة .

وذات صباح ، دخلت غرفتى وهى تضرب كفا بكف ، وتصرخ مرتاعة « درزى ! درزى بندقية » (الدروز ! الدروز ! طلقات البنادق !) .

والواقع ، كانت طلقات البنادق تتردد على بعد ، ولكنها لم تكن سوى احتفال للألبانيين الذين كانوا على أهبة الرحيل إلى الجبل . واستطلعت فعلمت أن الدروز قد أحرقوا قرية « بيت مرى » التى تقع على بعد أربعة فراسخ تقريبا . وقد أرسلت بعض القوات التركية ، لا لتحاربهم ، ولكن لتراقب حركات الطرفين اللذين مازالا يقتتلان حول ذلك الموضع .

وكنت قد ذهبت إلى بيروت حيث علمت تلك الأخبار . ولما عدت ، متأخرا ، أخبرت أن أميرا مسيحيا لمقاطعة من المقاطعات اللبنانية قد أتى ليقيم فى البيت . ولما علم أن بالبيت إفرنجيا من أوربا رغب فى رؤيتى ، وانتظرنى طويلا فى غرفتى حيث ترك أسلحته كدليل على الثقة والأخوة . وفى اليوم التالى أيقظتنى الضوضاء التى أحدثها أتباعه فى ساعة مبكرة .وكان برفقته ستة رجال كاملى التسلح ترافقهم جيادهم الرائعة . وما لبث التعارف أن تم بيننا . واقترح على الأمير أن أذهب لأمضى بضعة أيام لديه فى الجبل . وقبلت بسرعة تلك الفرصة الجميلة لدراسة ما يحدث به من مشاهد وما يميز تلك الشعوب الغريبة من عادات .

وفى تلك الآونة كان من الضرورى إحلال الجارية مكانا ملائما ، وذلك لأنه لم يكن فى إمكانى التفكير فى اصطحابها . ودلونى فى بيروت ، على مدرسة للبنات تديرها سيدة من مرسيليا تدعى مدام كارليس .

وكانت تلك هى المدرسة الوحيدة التى تدرس بها اللغة الفرنسية . وكانت مدام كارليس سيدة بالغة الطيبة ، ولم تطلب منى سوى ثلاثة قروش تركية فى اليوم نظير إقامتها وغذائها وتعليمها .

وكان على أن أرحل إلى الجبل بعد ثلاثة أيام من إنزالها فى ذلك البيت الذى لم تلبث أن اعتادت الإقامة فيه ، وابتهجت لاستطاعتها التحدث إلى

الفتيات الصغيرات اللاتى كن يرفهن عنها بأفكارهن وقصصهن .

وانتحت بى مدام كارليس جانبا وقالت : إنها لن تيأس من الوصول إلى تبشيرها بالمسيحية وأضافت بلهجتها البروفانسية :

ـ انظر كيف سأتصرف فى ذلك . سأقول لها ، ألا ترين ، يا فتاتى أن الآلهة فى كل بلدهم الله ؟ إن محمداً رجل ذو جدارة ولكن المسيح ، هو الآخر ، خير جداً .

وبدت لى تلك الطـــريقة السمحة الهادئة فى التبشير جد مقبولة . وقلت لها :

ـ لا ينبغى أبداً إكراهها .

فأجابت مدام كارليس .

ـ كن مطمئنا ، فقد وعدتنى هى نفسها بأن تحضر معى القداس فى الكنيسة يوم الأحد .

ومفهوم أننى لم أكن لأجد أيديا أكثر من تلك أمانة لتعليم الفتاة تعاليم الدين المسيحى واللغة الفرنسية . كما يتحدثون بها فى مرسيليا .

٢- الكيف

إن بيروت ، إذا لم نضع فى تقديرنا سوى المساحة التى تضمها أسوارها وعدد سكانها من الداخل ، لترد ردا خاطئا على الفكرة التى كونتها أوربا عنها إذ اعتبرتها عاصمة لبنان . وينبغى كذلك أن نضع فى حسباننا تلك المئات من المنازل المحاطة بالحدائق ، والتى تحتل المدرجات الأرضية الشاسعة التى يتوسطها الميناء . ويشبه الميناء قطيعا متفرقا يقوم على حراسته بناء مرتفع مربع الشكل مزود بالدوريات التركية ، ويسمونه برج « فخر الدين » .

ولقد كنت أقيم فى بيت من هذه البيوت المبعثرة على الشاطىء التى تشبه البيوت الصغيرة المحيطة بمرسيليا . ولما كنت قد اتخذت أهبتى للرحيل لزيارة الجبل ، فلم يكن أمامى سوى الوقت الكافى للتوجه إلى بيروت بغية الحصول على جواد أو بغل أو حتى جمل . بل وقد كنت على استعداد لقبول أحد تلك الحمير الجميلة ذات الرقاب العالية والوبر المخطط ، والتى يفضلونها على خيل مصر ، والتى تركض على الأرض والرمال بهمة لاتعرف الكلل . ولكن ، فى الشام ، لانجد فى هذا الحيوان من القوة مايمكنه من اجتياز طرق لبنان الحجرية . ومع ذلك أفلا ينبغى أن تظل سلالة هذه الحمير مباركة لأنها كانت مطية .. المسيح ؟

تلك كانت أفكارى ، وأنا فى طريق سيرا على الأقدام إلى بيروت فى تلك الساعة من النهار التى لانرى فيها ، على حد تعبير الإيطاليين ، من يسير تحت أشعة الشمس الحارقة سوى الكلاب والفرنسيين . ولقد كان ذلك المثل يبدو لى دائما خاطئا ، بالنسبة للكلاب التى تعرف جيدا كيف تستلقى فى استرخاء ، ساعة القيلولة ، فى الظل ، ولم تكن أبدا فى عجلة من أمرها

للحصول على ضربات الشمس. أما عن الفرنسى فحاول أن تضبطه مرة وقد تمدد فوق أريكة أو حصير، مادامت فى رأسه مسألة أو رغبة أو حتى مجرد حب للاستطلاع بسيط ! إن عفريت الظهر قلما يجثم على صدره، والقزم «سمارا» الذى لا شكل له إنما يقف ويدير حدقتيه الصفراوين وسط رأسه الضخم لغيره وليس له.

لقد أخذت إذن أعبر السهل فى تلك الساعة من النهار، التى يخصصها أهل الجنوب لراحة القيلولة، ويخصصها الأتراك «للكيف». إن الرجل الذى يتجول هكذا فى الوقت الذى ينام فيه الناس جميعا، إنما يجازف فى الشرق مجازفة خطيرة بإثارة الشبهات التى يثيرها من يهيم على وجهه ليلا فى بلادنا. ومع ذلك فإن حراس برج «فخر الدين» لم يوجهوا لى إلا الالتفاتة الودية التى يوجهها الجندى الساهر إلى المار وقد تأخر به الوقت عن الميعاد. وكان السهل الفسيح، ابتداء من ذلك البرج، يتيح للعين الإحاطة بالمشهد الجانبى للمدينة التى كانت أسوارها وأبراجها المثقبة تكبر وتتعدد حتى البحر. وطابع المدينة هو نفسه طابع المدن العربية فى زمن الحروب الصليبية. إلا أن التأثير الأوربى يبدو فى الصوارى العديدة التى ترى فوق بيوت القناصل، حيث ترفع عليها الأعلام فى أيام الآحاد والأعياد.

أما عن الحكم التركى، فقد دمغ هنا كما يدمغ فى كل مكان كل شىء بطابعه الخاص الغريب. فقد خطرت للوالى فكرة هدم جزء من جدران المدينة التى يستند إليها قصر «فخر الدين» لكى يبنى كشكا من تلك الأكشاك الخشبية المطلية على طريقة القسطنطينية، والتى يفضلها الأتراك على أفخم القصور المبنية بالحجر أو الرخام. أتريد معرفة السبب الذى يدفع الأتراك إلى عدم السكنى إلا فى منازل من الخشب؟ وهل تريد أن تعرف لماذا كانت قصور السلطان نفسه، رغم تزينها بالأعمدة الرخامية، لاتضم إلا

جدرانًا من خشب الصنوبر؟ إن هناك فكرة موروثة فى آل عثمان تقول بأن البيت الذى يبنيه التركى لاينبغى أن يعيش أكثر مما يعيش هو ؛ فهو ليس إلاخيمة تقام فى مكان مرور عابر ، ومأوى مؤقت لاينبغى للمرء أن يحاول فيه مقاومة القدر وتخليد سلالته باللجوء إلى ذلك التزاوج العسير بين الأرض والأسرة الذى تتجه إليه الشعوب المسيحية .

إن القصر يكون زاوية يفتح من خلفها باب المدينة بممره المعتم الرطب، الذى نستريح فيه قليلا من حر الشمس المنعكسة على رمال السهل الذى فرغنا لتونا من عبوره . وأول ماتقع عليه العين ، لدى دخول بيروت ، هو نافورة جميلة من الحجر تظللها شجرة جميز رائعة ، والقباب الشهباء لمسجد من المساجد ومآذنه الرشيقة ، ومبنى حمام جديد ذى طابع مغربى ، وفى هذامايبشر بإقامة طيبة ضاحكة . ومع ذلك فعلى إثر ذلك ترتفع الجدران وتأخذ طابع الأديرة الكئيب .

ولكن لم لاأدخل الحمام فى أثناء ساعات القيظ الشديد الكئيب التى كنت سأقضيها هائما فى الشوارع المقفرة؟ كنت أفكر فى ذلك حينما دلتنى الستارة المسدلة على باب الحمام على أن تلك هى الساعة التى لايفتح فيها إلا للنساء . فالصباح والمساء مخصصان للرجال ... والويل لمن ينسى نفسه على منصة أو تحت حشية . فى الساعة التى يتلو فيها أحد الجنسين الآخر . بصراحة إن الأوروبى وحده هو الذى يجرؤ على مثل تلك الفكرة الكفيلة بإلقاء عقل المسلم فى خضم من الحيرة والاضطراب .

ولم أكن قد دخلت أبدا بيروت فى تلك الساعة غير الملائمة ،ولذا فقد ألفيت نفسى شبيها بالرجل الذى دخل ، فى قصة ألف ليلة وليلة ، مدينة الأنبياء التى تحول شعبها إلى حجارة . لقد كان كل شىء فيها مستغرقا فى النوم : فالحراس نائمون تحت الباب ، والمكارية نائمون فى الميدان فى

انتظار أوبة السيدات ، وربما كن ، هن أيضا ، نائمات فى أروقة الحمام العالية . أما بائعو البلح والبطيخ فقد رقدوا إلى جوار النافورة ، ورقد « القهوجى » فى حانوته ومعه كل رواده ،ومال الحمال برأسه على ما يحمل ونام الجمال بالقرب من جمله وقد جلس القرفصاء . أما الألبانيون ضخام الأجسام الذين يقومون على حراسة سراى الباشا ، فقد كانوا جميعا نياما نوما بريئا ، تاركين المدينة بلا حراسة .

وقد حدث ، فى مثل تلك الساعة ، وفى أثناء مثل تلك السنة من النوم أن استولى ثلاثمائة درزى يوما على دمشق . إن كل ما فعلوه هو أن دخلوا المدينة متفرقين ،واختلطوا بجمهور المزراعين الذين يملئون الأسواق والميادين فى الصباح ، ثم تظاهروا بالنوم كغيرهم . إلا أن جماعاتهم ، وقد وزعت نفسها بلباقة ، استولت فى نفس تلك اللحظة على المراكز الهامة،بينما كانت الفرقة الرئيسية تنهب الأسواق المليئة وتشعل فيها النيران.وهب السكان من نومهم مذعورين، وظنوا أنهم فى مواجهة جيش كبير . فوضعوا المتاريس أمام بيوتهم ، وكذلك فعل الجنود فى ثكناتهم . وما هى إلا ساعة حتى كان الفرسان الثلاثمائة قـــد عادوا إلى حصنهم الأمين فى لبنان محملين بالغنائم .

هذا هو ما تخاطر به مدينة حينما تنام فى وضح النهار . ومع ذلك ففى بيروت لا تستسلم الجالية الأوروبية كلها للذة نوم القيلولة . فحينما اتجهت يمينا لم ألبث أن لاحظت حركة فى شارع من الشوارع التى تنتهى إلى الميدان . وكانت رائحة التحمير الحادة تدل على وجود مطعم قريب ، ولم تلبث لافتة مطعم « باتستا » الشهير أن جذبت ناظرى .

ولقد كنت أعرف جيداً الفنادق المخصصة فى الشرق للرحالة الأوروبيين، ولذا فلم أطمع لحظة فى الاستفادة من كرم السيد « باتستا » ، وهو صاحب

الخان الإفرنجى الوحيد فى بيروت ، وقد أفسد الإنجليز ، فى كل مكان ، أمثال تلك البيوت ، التى تمتاز بالتواضع فى المظهر لا فى الأسعار .

ورأيت فى تلك اللحظة أنه لاضير من التمتع بتناول الطعام فى الفندق، إذا تكرموا وقبلوا استضافتى ، واستعددت لجميع الاحتمالات وجازفت بالصعود .

٣- مائدة المضيف

ألفيت نفسى فى الطابق الأول ، فى شرفة محشورة وسط الأبنية وتشرف عليها النوافذ الداخلية . وكان هناك مفرش عريض من اللونين الأبيض والأسود يغطى مائدة طويلة معدة على الطريقة الأوربية . وكان كل ما حولها تقريبا من مقاعد مقلوبا للدلالة على الأماكن التى ما تزال شاغرة . وأمام باب مقصورة واقعــــة فى الداخـل فى مواجهـة الشرفة قرأت تلك الكلمات

« السعر هنا ستون قرشا فى اليوم »

وكان بعض الإنجليز يدخنون السيجار فى تلك القاعة فى انتظار قرع الناقوس . ولم نلبث أن رأينا امرأتين تنزلان وجلس الجميع إلى المائدة . وكان يجلس إلى جوارى انجليزى جاد المظهر ، ويقوم على خدمته شاب ذو وجه نحاسى يرتدى لباسا من قاش البازان الأبيض ويلبس أقراطا من الفضة . وقد ظننت فى بادىء الأمر أن الإنجليزى من « النابات » [١] اتخذ هنديا لخدمته . ولـكن لم يلبث هذا الشخص أن وجه إلى الـكلام ، وهذا ما أدهشنى بعض الشىء ، إذا أن الإنجليز لا يتحدثون أبداً إلا إلى من يقدمهم الغير إليهم ، ولـكن هذا الإنجليزى كان فى وضع خاص . لقد كان مبشراً ينتمى إلى الجمعية الإنجيلية فى لندن .

وقد كلف بأن يقوم فى كل بلد يرسل إليه بالتبشير على الطريقة الإنجليزية . وقد كان مضطرا فى مناسبات عديدة لـكى يجذب النفوس إلى شباكه . وكان قادماً لتوه من الجبل ، وسرنى أن أتمكن من استخلاص بعض

---

(١) لقب كان يمنح لـكبار ضباط القصر ومديرى الأقاليم فى الهند .

المعلومات منه قبل أن أنفذ أنا نفسى إلى الجبل. وطلبت منه أن يسرد لى أخبار الغارة التى هزت ضواحى بيروت فقال:

— لا شيء، لقد فشل الموضوع.

— أى موضوع؟

— هذا الصراع بين المارونيين والدروز فى القرى المختلطة.

فقلت له:

— إنك قادم إذن من البلد الذى يتقاتلون فيه هذه الأيام ؟

— نعم! لقد ذهبت لإقرار السلام . . . إقرار السلام فى كل مجال فى مركز بكفيا، لأن لانجلترا كثيرا من الأصدقاء فى الجبل.

— وهل أصدقاء انجلترا هؤلاء هم الدروز؟

— أه! نعم . إن هؤلاء القوم جد تعساء. فهم يقتلون ويحرقون وتبقر بطون نسائهم وتتلف أشجارهم ومحاصيلهم.

— عفوا! ولكنا نتخيل فى فرنسا أنهم هم — على عكس ما تقول — هم الذين يضطهدون المسيحيين.

— رباه! كلا! هؤلاء القوم المساكين.

إنهم مزارعون تعساء لايفكرون فى أى شيء. أما أنتم فلديكم ما لديكم من شمامسة ويسوعيين ورجال الحجر الذين يشعلون نار الحرب، ويثيرون ثائرة المارونيين ضدهم، وهم يفوقونهم عدداً. ويدافع الدروز عن أنفسهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ولولا انجلترا لكانوا قد سحقوا. إن انجلترا دائما فى صف الأضعف، فى صف من يذوقون العذاب..

فقلت :

ـ نعم ، إنها أمة كبيرة ... وهكذا تمكنت من تهدئة الاضطرابات التى وقعت هذه الأيام ؟

ـ آه ! بكل تأكيد . لقد كان هناك منا ، نحن الإنجليز ، عدد كبير . وقلنا للدروز إن انجلترا لن تتخلى عنهم ، وأنها ستعيد إليهم حقوقهم . فأشعلوا النار فى القرية ثم عادوا إلى بيوتهم فى هدوء .

وقد تقبلوا أكثر من ثلاثمائة نسخة من الإنجيل ، وتمكنا من التبشير لكثير من هؤلاء القوم الشجعان !

فقلت للأب المبجل ملاحظاً :

ـ لست أفهم كيف يمكن أن يعتنق المرء المسيحية طبقـا للمذهب الانجليكانى . إذ أنه ، لكى يتم له ذلك ، ينبغى أن يصبح إنجليزيا .

أه ! كلا ! فما دمت تنتمى للجمعية الإنجيلية فانجلترا تتولى حمايتك . أما أن تصبح إنجليزيا فهذا ما ليس فى مقدورك .

ـ ومن هو رئيس الدين ؟

ـ إنها صاحبة الجلالة الرقيقة ، إنها ملكتنا ، ملكة انجلترا .

ـ إنها والله لبابا ساحرة ، وأقسم لك أن فى ذلك مايحملنى ، أنا نفسى على أن إقرر اعتناق مذهبكم .

ـ أه ! أنتم ، معشر الفرنسيين ، لا تكفون عن المزاح . إنكم لستم أصدقاء مخلصين لانجلترا .

فقلت ، وأنا أتذكر فجأة واقعة حدثت فى شبابى الأول :

ـــ لقد كان هناك واحد من مبشريكم حاول التبشير لى ذات يوم فى باريس . وقد احتفظت حتى بالإنجيل الذى قدمه إلى ، ولكنى ما زلت لا أدرك كيف يتسنى تحويل الفرنسى إلى انجليكانى .

ـــ ومع ذلك فيوجد منهم الكثير بينكم ... وإذا كنت قد تلقيت فى طفولتك ، القول الحق، فقد يحدث أن ينمو ويترعرع فى نفسك فيما بعد .

ولم أحاول أن أطيل الجدل مع الأب المبجل ؛ إذ أن المرء يصبح شديد التسامح فى الأسفار ، ولا سيما حينما لا يكون لنا من هدف سوى الاستطلاع والرغبة فى ملاحظة العادات . ولكنى أدركت أن الظرف الذى جعلنى ألتقى بمبشر من المبشرين الانجليز فيما مضى هو الذى أكسبنى بعض الحق فى ثقة جارى فى المائدة .

وكانت السيدتان الإنجليزيتان اللتان لاحظتهما جالستين إلى يسار جارى المبجل . ولم ألبث أن علمت أن إحداهما هى زوجته ، أما الأخرى فأخته . إن المبشر الإنجليزى لا يسافر أبداً دون أسرته . ويبدو أن مبشرنا هذا يحيا حياة ميسرة ؛ إذ كان يشغل الجناح الرئيسى فى الفندق . ولما غادرنا المائدة دخل جناحه لحظة ثم ما لبث أن عاد حاملا نوعا من المجلدات ، مما يحتفظ فيه بالصور . وقد أرانيه فى زهو وهو يقول :

ـــ هاك تفصيل المرات التى توصلت فيها إلى التبشير للناس فى دورتى الأخيرة لصالح ديننا المقدس .

كانت بالمجلد طائفة من الاعترافات والإمضاءات والأختام العربية تغطى صفحاته . وقد لاحظت أن هذا السجل كان يستخدم لغرضين : فإلى جوار كل اعتراف كانت هناك قائمة بالهدايا والمنح المالية التى قدمت إلى من دخلوا

حديثا فى المذهب الإنجليكانى . ولم يتلق بعضهم سوى بندقية أو شالا من الكشمير ، أو بعض أدوات الزينة لزوجاتهم. وسألت الأب المبجل عما إذا كانت الجمعية الإنجيلية تقدم إليه مقابلا ماديا عن كل مرة يفلح فيها فى التبشير. ولم يجد الأب صعوبة فى الاعتراف لى بذلك . لقد كان يبدو له ، وكذلك لى ، أنه من الطبيعى أن يجزل العطاء فى مقابل تلك الأسفار باهظة التكاليف المحفوفة بالأخطار . وقد فهمت كذلك مما أضاف من تفاصيل ، كيف أن ثراء عملاء الإنجليز كان يعطيهم الأسبقية فى الشرق على عملاء الأمم الأخرى.

وقد اتخذنا أماكننا على أريكة فى قاعة الاستقبال . وكان خادم الأب المبجل ، بلونه البرونزى ، قد جلس أمامه على ركبتيه ليشعل له نرجيلته . وسألته عما إذا لم يكن ذلك الفتى هنديا . لقد كان من ضواحى بغداد ، وهو أحد أتباع زرادشت . وهو من أهم الحالات التى توصل الأب إلى إقناعها بالمذهب وهو يصطحبه معه إلى انجلترا كنموذج لما قام به من مجهود .

وفى انتظار الوصول إلى انجلترا كان الزرداشتى يقوم له بدور الخادم والتلميذ فى وقت واحد . كان يتولى تنظيف ملابسه بالفرجون فى همة ونشاط ويلمع حذاءه ذا الرقبة فى خشوع وخضوع . وكنت فى نفسى أرثى لحاله بعض الشىء ، لأنه تخلى عن عقيدة أهورمازدا لكى يصبح «جوكيا» إنجيليا . وكنت آمل أن يقدمنى الأب إلى السيدتين اللتين انسحبتا إلى الجناح . غير أن الأب المبجل لم يحتفظ بالوقار الإنجليزى إلا فى هذه النقطة فقط . وبينما نحن نتحدث دوت الموسيقى العسكرية بشدة فى آذاننا . فقال لى الإنجليزى:

— هناك حفل استقبال لدى الباشا . إنهم نواب من الشيوخ المارونيين قد أتوا ليقدموا له شكاواهم. إنهم قوم كثيرو الشكوى . إلا أن أذن الباشا ثقيلة .

— من السهل إدراك ذلك من موسيقاه . إننى لم أسمع أبدا ضوضاء بهذا الشكل .

ــ ومع ذلك فهو نشيدكم الوطنى الذى يؤدونه . إنه « المارسييز » .

ــ إن تلك الفكرة لم تكن لتخطر لى على بال .

ــ أما أنا فأعرف ذلك لأنى أسمعه كل صباح وكل مساء ، ولأنهم قد أحاطونى علماً بأنهم يعتقدون أنهم يؤدون ذلك اللحن .

والواقع أنى بمزيد من الانتباه ، توصلت إلى تمييز بعض النغمات الضائعة فى غمرة النغمات الخاصة بالموسيقى التركية .

وأخيراً بدا أن المدينة قد استيقظت . وكان نسيم البحر الذى يهب فى الساعة الثالثة يداعب الستائر المسدلة على شرفة الفندق فى رقة ولطف . وحييت الأب المبجل وأنا أشكره على المجاملات المهذبة التى وجهها إلى ، والتى لا نراها نادرة لدى الإنجليز إلا بسبب أفكارهم المتوارثة التى تحذرهم من كل من لا يعرفون . ويبدو لى أن فى ذلك ، على الأقل ، ما يدل على افتقارهم للكرم فضلا عن حب الذات .

ودهشت إذ وجدت أن كل ما على أن أدفعه للفندق لدى خروجى هو عشرة قروش (فرنكان وخمسون سنتيما) فى مقابل تناول الطعام . وانتحى بى السنيور باتستاجانيا ، وعتب على برفق لأنى لم أذهب للإقامة فى فندقه، فأشرت إلى اللافتة التى يعلن فيها أن أجر الدخول هو ستون قرشا ، مما يرفع النفقات إلى ألف وثمانمائة قرش فى الشهر . فصاح قائلا :

ــ إن هذا خاص بالإنجليز ، فهم يملكون مالا وفيرا وكلهم من الكفار . أما الفرنسيون والأروام وغيرهم فيدفعون خمسة فرنكات فقط .

فقلت فى نفسى :

ــ إن الأمر جد مختلف .

وهللت لأنى لا أنتمى إلى الديانة الإنجيلية ما دام ذلك يجعلنا نلقى من أصحاب الفنادق ، فى الشام ، مثل تلك المشاعر الكاثوليكية الرومانية .

٤ – قصر الباشا

لقد بلغ السنيور باتستا أقصى مبلغ فيما يقدم لى من منح لطيفة حينما وعدنى بأن يحصل لى على جواد لصبيحة اليوم التالى. ولما اطمأننت حيال هذه المسألة لم يعد أمامى سوى التنزه فى المدينة. وبدأت بعبور الميدان بغية التوجه إلى قصر الباشا ورؤية ما يحدث فيه. لقد كان هناك جمع من الناس يتقدمهم الشيوخ المارونيون اثنين اثنين، كما لو كان موكبا ابتهاليا، وكانت مقدمة الموكب قد دخلت فعلا فناء القصر. كانت عمائمهم الكبيرة الحمراء، أو المتعددة الألوان، ومشالحهم وقفاطينهم، ذات النسيج المطعم بالذهب والفضة، وأسلحتهم البراقة، كل تلك الفخامة فى المظهر، وهى فى بلاد الشرق الأخرى من نصيب الجنس التركى القديم وحده، كانت تضفى على ذلك الموكب طابعاً أخاذاً. وتوصلت إلى الدخول فى أثرهم إلى القصر، حيث كانت الموسيقى ما تزال مستمرة فى طمس معالم نشيد المارسييز بالنفخ الشديد فى النفير والضرب الشديد بالآلة المعدنية المثلثة والسنج النحاسية.

إن فناء القصر يحدده سور قصر فخر الدين العتيق. وما زلنا نستطيع أن نميز هناك آثار طراز عصر النهضة الذى كان هذا الأمير الدرزى يفضله على غيره منذ سفره إلى أوربا. ولا ينبغى أن ندهش إذا ما سمعنا فى كل مكان ترديد اسم «فخر الدين» فهو بطل لبنان. وهو، فى نفس الوقت، أول حاكم أسيوى تنازل وزار أجواءنا الشمالية. وقد استقبل فى بلاط آل مدسيس، وكأنه الطليعة لأمر لم يكن يتصوره العقل حينئذ. ومعنى ذلك أنهم قد وجدوا فى بلاد الإسماعيليين شعباً موالياً لأوربا إما بدافع الدين أو الود.

ولقد رأى الناس فى فلورنسا فى «فخر الدين» فيلسوفاً ووارثاً لعلوم

الإغريق فى الإمبراطورية الحديثة ، تلك العلوم التى يرجع فضل المحافظة عليها إلى التراجم العربية التى أنقذت الكثير من الكتب الثمينة ، ونقلت أفضالها إلى بقية الشعوب . وظنه الناس فى فرنسا من سلالة بعض قدامى الصليبيين ممن لجئوا إلى لبنان فى زمن القديس لويس (لويس التاسع). وقد وجدوا فى اسم الشعب الدرزى نفسه صلة صوتية قادتهم إلى إرجاع الاسم إلى من يدعى الكونت دريو . وقد تقبل فخر الدين كل تلك الافتراضات بذلك التسليم الحذر الماكر الذى يتسم به الشرقيون ، فقد كان فى حاجة إلى أوربا ليناضل ضد السلطان .

وقد ظنه الناس فى فلورنسا مسيحياً ، وربما يكون قد أصبح كذلك ، كما حدث أن تنصر فى أيامنا هذه الأمـــير بشير ، الذى حلت أسرته محل فخر الدين فى حكم لبنان . ومع ذلك فقد كان درزيا أى ممثلا لديانة غريبة تتكون من بقايا جميع العقائد التى سبقتها ، وتسمح للمؤمنين بها بأن يقبلوا بصفة مؤقتة أية صورة من صور الأديان ، كما كان يفعل الكهنة المصريون الجدد فى الماضى . وليست الديانة الدرزية ، فى واقع الأمر ، سوى نوع من الجمعيات السرية ، إذا أردنا أن نستعمل لغة الأفكار الحديثة .

وقد مثل فخر الدين ، لفترة ما ، المثل الأعلى الذى رسمناه لأنفسنا عن « حيرام » ملك لبنان القديم وصديق سليمان بطل الجماعات الصوفية . ولما كان سيداً لكل شواطىء فينيقيا القديمة وفلسطين، فقد حاول ضم الشام كله فى مملكة مستقلة . إلا أنه لم يحصل من ملوك أوربا على المساندة التى كان يصبو إليها لتحقيق أهدافه .وقد ظلت ذكراه حتى الآن بالنسبة للبنان مثلا للمجد والقوة . أما أطلال المبانى التى أنشأها ، وقد فعلت بها الحرب أكثر مما فعل الزمن ، فهى باقية لتنافس آثار الرومان القديمة . أما الفن الايطالى الذى لجأ إليه لزخرفة قصوره ومدنه ، فقد انتثر هنا وهناك فى

صورة زخارف وتماثيل وأعمدة . إلا أن المسلمين ، حينما غزوا البلد ، سارعوا إلى تحطيمها ،وهم فى دهشة من رؤية تلك الفنون الوثنية تبرز لهم فجأة، بعد أن كانوا قد أحاطوها ، فى غزواتهم ، بالامتهان والتحقير منذ زمن طويل .

إن الكشك الخشبي الذى أقامه الباشا قد أقيم إذن فى نفس المكان الذى وجدت فيه تلك الروائع الهشة وعاشت عدداً قليلا من السنين ، تلك الروائع التى أتتها نفحة من نفحات فنون عصر النهضة ، فغرست فيها ، من بعيد ، بعض بذور العصور الإغريقية والرومانية القديمة .وكان موكب المارونيين قد اصطف تحت النوافذ فى انتظار تفضل الباشا باستقبالهم . ولم يلبثوا أن سمح لهم بالدخول .

ولما فتحت الردهة لمحت بين أمناء الأمير والضباط المرابطين فى القاعة ذلك الأرمنى الذى رافقنى فى الرحلة على ظهر السفينة « سانتا بربارا » . وكان مرتديا ملابس جديدة، ويحمل فى منطقته لوحاً من الفضة و يمسك بيده بعض الرقاع والملازم . ولا ينبغى أن ندهش ، ونحن فى بلاد القصص العربية، عندما نعثر على أفاق غاب عن أعيننا، ونجده يحتل مركزاً مرموقاً فى البلاط. ولقد عرفنى ذلك الأرمنى فى الحال ،وبدا عليه السرور لرؤيتى . وكان يرتدى ملابس عصر الإصلاح بصفته موظفاً تركياً ، وأصبح يتحدث بلهجة أصحاب الجاه .

وقلت له :

— « إننى سعيد لرؤيتك فى مركز مناسب ، والتأثير الذى تحدثه على الآن هو تأثير رجل يملأ مركزه . وإنى آسف إذ لا أجد ما أطلب إليك تحقيقه » .

فقال لى :

— رباه ! ! إنى لم أكتسب بعد الكثير من الحظوة ، ولكنى

كلى فى خدمتك .

وجعلنا نتحدث خلف عمود من أعمدة الردهة ، بينما كان موكب الشيوخ يتوجه إلى قاعة استقبال الباشا .

وقالت للأرمنى .

— وماذا تؤدى هنا من أعمال ؟ .

— إنهم يستخدمونني كمترجم . وقد طلب منى الباشا أمس ترجمة تركية لهذه الملزمة .

وألقيت نظرة على تلك الملزمة المطبوعة فى باريس .

لقد كانت تحوى تقريراً من مسيو كرميو عن مسألة يهود دمشق ، وكانت أوربا قد نسيت هذه الحادثة ذات الصلة بمقتل الأب توماس التى اتهم فيها اليهود . وكان الباشا يشعر بحاجة إلى استيضاح هذه المسألة التى انتهت منذ خمس سنوات . إن فى هذا دليلا قاطعا على ضميره الحى .

وفوق ذلك كان الأرمنى مكلفا بترجمة « روح القوانين » لمنتسكيو وكتاب « الحرس الوطنى » الباريسى . وكان يجد هذا الكتاب الأخير صعبا ورجانى أن أساعده فى بعض التعبيرات التى كان يجد صعوبة فى فهمهما . لقد كان لدى الباشا فكرة إنشاء حرس وطنى فى بيروت ، كما يوجد الآن حرس فى القاهرة ، وفى كثير من مدن الشرق الأخرى . أما عن روح القوانين،فأظن أن اختيارهم لهذا الكتاب مبنى على عنوانه ، وذلك ظنامنهم أنه قد يحتوى على تنظيمات للشرطة يمكن تطبيقهافى كل بلد . وكان الأرمنى قد فرغ من ترجمة جزء منه ، وكان يجد الكتاب جميلا وسهل الأسلوب، بحيث لن تفقده الترجمة إلا القليل من جماله .

وسألته عما إذا كان فى استطاعته أن يمكننى من حضور استقبال الباشا للشيوخ المارونيين . إلا أنه لم يكن يصرح لأحد بالدخول مالم يكن يحمل ورقة أمان كانت قد أعطيت لكل منهم خصيصا ـ لغرض المثول بين يدى الباشا . ذلك لأنه من المعروف أن الشيوخ المارونيين أو الدرزيين ليس لهم حق دخول بيروت . إن عبيدهم يدخلونها دون صعوبة . أما بالنسبة لهم فهناك عقوبات قاسية تفرض عليهم إذا ماضبطوا بداخلها . فالأتراك يخشون من تأثيرهم السيء على الشعب أو من المشاجرات التى قد يسببها لقاء هؤلاء القواد، وهم دائماً مسلحون وترافقهم حاشية كثيرة العدد ، وكذلك هم دائما على استعداد للنضال دون توقف بخصوص مسائل الصدارة . وينبغى أن نضيف أن ذلك القانون لم يكن ينفذ بدقة . إلا فى زمن الاضطرابات .

وفوق ذلك فقد أخبرنى الأرمنى أن استقبال الباشا يقتصر على الشيوخ الذين يدعوهم إلى الجلوس على الأرائك حول القاعة . وهناك يأتى العبيد لكل منهم بنرجيلة ، وبعد ذلك يقدمون لهم القهوة . ثم يستمع الباشا لشكاواهم ويجيبهم إجابة لاتتغير بأن أعداءهم قد قدموا إليه بدورهم وقدموا شكاوى مماثلة ، وأنه سينظر فى الأمر بوضوح ليرى فى أى جانب يكون الحق، وأنه ينبغى توسم الخير من حكومة سموه الأبوية التى تتساوى أمامها جميع الأديان والأجناس فى الامبراطورية فى الحقوق ، أما فيما يختص بالطرق الديبلوماسية ، فقد بلغ الأتراك فيها على الأقل مستوى أوربا .

وينبغى الاعتراف بأن دور الباشا فى هذا البلد ليس سهلا . ويعرف الجميع اختلاف الأجناس التى تسكن السلسلة الطويلة من جبال الكرمل ولبنان ، والتى تشرف منها على الشام بأسره ، كما لو كانت تشرف من إحدى القلاع . ويعترف المارونيون بسلطة البابا الروحية ، وهذا مما يجعلهم تحت حماية فرنسا والنمسا . أما اليونانيون المتحدون فهم أكثر عدداً وأقل

تأثيراً ، لأنهم بصفة عامة ينتشرون فى الأماكن المفتوحة ، وتحميهم روسيا .

وفيما عدا ذلك من دروز وأنصار ومغوليين ممن ينتمون إلى عقائد ومذاهب لا تقبلها الحكمة الإسلامية ، فإنهم يعطون انجلترا وسيلة للتدخل تتركها لها القوى الأخرى عن طيب خاطر وبفيض من الكرم كبير .

٥ — الأسواق والميناء

خرجت من فناء القصر مخترقا الجموع الغفيرة المتماسكة التى لم يجتذبها سوى حب الاستطلاع . ولما دلفت إلى الشوارع المظلمة التى تكونها منازل بيروت المرتفعة المبنية كلها على شكل قلاع ، والتى تربطها هنا وهناك ممرات ذات قباب ، عدت فالتقيت من جديد بالحركة التى كانت قد توقفت فى ساعات القيلولة . كان رجال الجبل يملئون السوق الفسيحة التى تحتل أحياء وسط المدينة والذى ينقسم حسب نوع المأكولات أو البضائع . ويعتبر ظهور النساء فى بعض الحوانيت حدثا فريدا جديرا بالملاحظة فى الشرق . يفسره ندرة الجنس المسلم بين سكان هذا البلد .

وليس هناك أكثر تسلية من أن تجوب تلك الممرات الطويلة التى تستخدم فى عرض البضائع ، تحميها الصور مختلفة الألوان التى لا تمنع ، مع ذلك ، أشعة الشمس من أن تداعب الفاكهة والخضر ذات الألوان الزاهية ، ولا من أن تذهب إلى مدى أبعد من ذلك فتظهر بريق الوشى الذى يزين الملابس الفاخرة المعلقة على أبواب بائعى الملابس القديمة . وكانت بى رغبة شديدة فى أن أضيف إلى ثوبى بعضا من مميزات الزينة الشامية ، والتى تستلزم تغطية الجبهة والأصداغ بمنديل من الحرير المقلم بالذهب ، ويسمونه الكوفيه . وهم يمسكون به على الرأس بإحاطته بحبل من الشعر المجدول . ويستخدم هذا اللباس فى حمـــاية الأذنين والرقبة من التيارات الهوائية الخطيرة فى البلاد الجبلية . ولقد باعونى واحدا شديد البريق بأربعين قرشاً ، ولما جربته لدى أحد الحلاقين ألفيتنى أشبه بملك من ملوك الشرق

ان هذه المناديل تصنع فى دمشق ،وبعضها يستجلب من « بروسه » ، كما أن بعضها يستورد من ليون . وتنتشر الحبال الطويلة المجدولة من الحرير

بما فيها من عقد وشرابات ، وتنسدل فى رشاقة على الظهر والكتفين لتشبع رغبة الرجال للتأنق . وهذا أمر جد طبيعى فى البلاد التى مازال من المستطاع ارتداء الملابس الجميلة فيها . وإذا كان هذا يدعو عبث ، أطفال ، فإنى أرى مع ذلك أن كرامة المظهر تنعكس على أفكارنا وتصرفاتنا فى الحياة . ويضاف إليها ، فى الشرق ، نوع من الاعتداد الذى يميز الذكور ، وقد نشأ من عادة حمل السلاح لدى سكان تلك المنطقة ، فهم يشعرون أن من واجبهم أن يكونوا فى أية لحظة جديرين بالاحترام ومحاطين به فعلا . ولذلك فإننا نجد أن التصرفات المفاجئة والمشاجرات نادرة الحدوث ، لأن الكل يعرف أن أدنى الإهانات سوف تتسبب فى إراقة الدماء .

لم أر فى حياتى أجمل من هؤلاء الأطفال الذين يركضون ويلعبون فى أجمل ممرات السوق . وتتزاحم الفتيات خفيفات الحركة حول النافورات الرخامية الأنيقة المزينة على الطريقة المغربية ، ثم إذا بهن يتعدن الواحدة تلو الأخرى وهن يحملن على رءوسهن أوانى الزهور الكبيرة ذات الشكل العتيق . ويلاحظ فى هذا البلد لون الشعر الأحمر ، ويختلف لونه القاتم عن لونه لدينا ، فيقترب من اللون الأرجوانى أو القرمزى . ويعتبر هذا اللون دليل الجمال فى الشام ، حتى أن كثيرا من النساء يصبغن شعورهن الشقراء أو السوداء بالحناء التى لا تستعمل فى أى مكان آخر إلا فى صبغ بطن القدم والأظفار وراحة اليد باللون الأحمر .

وفى الميادين المختلفة حيث تتقاطع الممرات نرى بائعى المثلجات والشراب مكونين المشارب التى تتناسب مع الثلج الذى يجمعونه من قمم « صنين » ، وهناك مقهى جميل رائع يرتاده العسكريون بصفة خاصة . وهو أيضا يقدم المشروبات المثلجة المعطرة فى منتصف السوق . ولقد توقفت به بعض الوقت حينا وجدت نفسى لا أشبع من حركة تلك الجموع النشطة التى تجمع فى نقطة واحدة كل ما فى الجبل من ملابس متنوعة على كثرتها .

وفوق ذلك فهناك بعض الفكاهة التى تبعثها رؤية الطراطير الذهبية التى تهتز خلال مناقشات البيع والشراء. ويزيد ارتفاعها عن قدم، وترتديها النساء الدرزيات والمارونيات فوق الرأس، فتأخذ فى أرجحة غلالتهن الطويلة فوق رءوسهن، فيعدنها إلى مكانها بكل بساطة، وتضفى عليهن تلك الزينة شكل الحصان الخرافى ذى القرن الوحيد الذى يستخدم كحامل لعلم انجلترا. أما ملابسهن الخارجية فهى لدى الجميع إما بيضاء أو سوداء.

وأهم مسجد فى المدينة يطل على أحد شوارع السوق، هو كنيسة قديمة من عهد الصليبيين ما زال بها قبر أحد فرسان مقاطعة بريتانيا. وإذا ما خرجنا من ذلك الحى متجهين إلى الميناء، فإننا نهبط شارعا فسيحاً خصص لتجارة الإفرنج. وهناك تناضل مرسيليا بنجاح مع تجار لندن. وإلى اليمين يوجد حى اليونانيين، وهو ملىء بالمقاهى والملاهى. ويتجلى فيه تذوق تلك الأمة للفنون بطائفة كبيرة من الرسوم المصنوعة من الخشب الملون، وهى تبهج الجدران بالمشاهد الرئيسية لحياة نابليون وثورة سنة ١٨٣٠. ولكى أتمكن من تأمل هذا المتحف فى فسحة من الوقت طلبت زجاجة من نبيذ قبرص، سرعان ما جاءوا إلى بها فى المكان الذى كنت أجلس فيه، مع توصيتى بإخفائها فى ظل المائدة حتى لا أجرح شعور المارة من المسلمين برؤية أحد يشرب النبيذ. ومع ذلك فإن ماء العرق، وهو مشروب كحلى بالينسون يشرب علنا.

ويتصل الحى اليونانى بالميناء بواسطة شارع يسكنه أصحاب البنوك ومغيرو العملة. وهناك نرى الجدران الحجرية المرتفعة التى لا يكاد يتخللها سوى بعض النوافذ أو الفتحات ذات القضبان الحديدية. وتحيط تلك الجدران بالأفنية والأماكن الداخلية التى أنشئت طبقا لطراز مدينة البندقية، كما أنها تخفيها. وتلك هى بقية من الفخامة التى ظلت بيروت مدينة بها لمدة طويلة لحكومة الأمراء الدروز. وللصلات التجارية التى تربط بينها

وبين أوربا . وتقع معظم القنصليات فى هذا الحى الذى اجتزته بسرعة .
وكنت فى عجلة للوصول إلى الميناء لأسلم نفسى بكليتها إلى المنظر الرائع الذى
كان فى انتظارى . الطبيعة ! أيها الجمال والرقة اللذان يفوقان الوصف ويميزان
مدن الشرق المطلة على شواطىء البحار ، أيتها اللوحات الملونة التى تصور
الحياة وتصور أجمل الأجناس البشرية وتلتقى فيها الملابس والزوارق والسفن
فوق أمواج من الزرقة الصافية ، كيف أصف تلك الانطباعة التى توحون
بها إلى كل حالم، والتى ما هى فى الواقع إلا شعور متوقع وطبيعى ؟

لقد قرأنا وصف ذلك من قبل فى الكتب وأعجبنا به فى اللوحات ،
ولا سيما فى النقوش الإيطالية القديمة التى تتصل بعهد العظمة البحرية لمدينتى
البندقية وجنوا . ولكن ما ندهش له اليوم هو أن نجده ما زال مشابها
للفكرة التى كوناها لأنفسنا عنه . وإنك لتدفع بمرفقيك تلك الجموع الغريبة
التى يخيل إليك أن عمرها قرنان من الزمان ، كما لو كان العقل البشرى يصعد
مجرى القرون ، وكما لو كان الماضى الرائع للأزمنة المنصرمة قد عاد فتمثل
لمدة لحظة واحدة هل أنا حقا ابن بلد جاد حزين ظل قرنا يتشح بالسواد ،
كما لو كان يرتديه حداداً على القرون التى انقضت من قبل . ها أنذا قد تغيرت ،
أنا نفسى ، وأنا ألاحظ وأقف ساكنا فى وقت واحد ، كما لو كنت وجها
انتزع من لوحة من لوحات جوزيف فرينه (١) .

واتخذت مكانى فى مقهى أقيم على منصة تسندها كأوتاد البناء قطع الأعمدة
الغائرة فى الشاطىء . وكنا نرى الموج المخضر وهو يضرب الشاطىء تحت
أقدامنا من خلال ثقوب الألواح الخشبية . وكان البحارة من جميع البلدان
وبعض سكان الجبل والبدو بملابسهم البيضاء والملطيون وبعض سكان

---

١ ـ هو رسام فرنسى تخصص فى رسوم البحرية (١٧١٤ ـ ١٧٨٩) ـ فرينه اسم أسرة
فرنسية من الرسامين اشهر هم كلود جوزيف هذا

اليونانيين الذين تبدو عليهم سيما القرصنة ـ يدخنون ويتحدثون من حولى. وكان هناك صاحب مقهى أو اثنان يقومان على الخدمة، ويديران هنا وهناك الفناجين المليئة بالقهوة ذات الرغوة فى أظرفها المصنوعة من السلوك المذهبة، وكانت الشمس الهابطة نحو جبال قبرص، التى لا يكاد خط الموج البعيد يخفيها، تظهر بريق ذلك الوشى الجميـــل الذى ما زال يلمع فوق الملابس المفهفهة. وإلى يمين الرصيف نرى الظل الهائل للقصر البحرى الذى يحمى الميناء. وهو مجموعة من الأبراج تجمعت فوق الصخور. وقد تسبب ضرب الإنجليز لها بالقنابل فى سنة ١٨٤٠ فى تشقق جدرانها. وإحداث الثقوب بها. إن ذلك القصر لم يعد سوى حطام متماسك الكتلة يشهد بظلم ذلك التخريب الذى لا طائل تحته. وإلى اليسار كان هناك امتداد للأرض كونه ما يلقى فى البحر من حجارة وأتربة، وكان ذلك الامتداد يتقدم فى البحر ساندا مبانى الجمرك البيضاء، وهو مكون فى جملته، مثله فى ذلك مثل الرصيف ـ من بقايا أعمدة مدينة بيروت القديمة ومدينة « جوليا فيليكس » الرومانية.

ترى هل تسترد بيروت فخامتها التى جعلتها ثلاث مرات ملكة للبنان؟ أما اليوم فإن موقعها لدى قدم الجبال الخضراء. ووسط الحدائق والسهول الخصبة، وفى داخل الخليج الرشيق الذى تملؤه أوربا على الدوام بسفنها، كما أنها مركز تجارة دمشق والملتقى المركزى لسكان الجبل العاملين، ذلك هو ما يكون قوة بيروت ومستقبلها.

ولست أعرف ما هو أكثر حركة وحياة من ذلك الميناء، ولا ما يحقق بشكل أفضل الفكرة القديمة التى كونتها أوربا عن « سلم الشرق » حيث دار الكثير من القصص والمسرحيات. أفلا يحلم المرء بالمغامرات والغرائب لدى رؤية تلك المنازل المرتفعة والنوافذ ذات القضبان التى كثيرا ما نرى فيهـا أعين الفتيات المستطلعة وهى تومض! ولكن من يجرؤ على دخول قلاع السلطة الزوجية والأبوية تلك؟ أو على الأصح، من ذا الذى لا يشعر بالإغراء عـــلى الدخول؟ ولكن وا أسفاه! إن المغامرات

هنا أكثر ندرة من القاهرة . فالسكان جادون بقدر ما هم منهمكون فيما لديهم من أعمال . وهيئة النساء تدل على العمل والراحة المادية . إنشعورا بالجدية الإنجيلية هو الذى ينطبع علينا بتأثير تلك اللوحة . ذلك البحر الذى تحجزه الخلجان المرتفعة ، وتلك الخطوط العريضة لذلك المنظر ، وتتكون من الجبال الشاهقة والأبراج المثقبة والأبنية المستديرة ذات القمة المدببة ، كل ذلك يحمل الفكر على التأمل والاستغراق فى الأحلام .

ولكى أرى هذا المنظر الجميل فى صورة أكبر غادرت القهوة واتجهت ناحيه منتزه رأس بيروت الذى يقع إلى يسار المدينة . إن نار الغروب المائلة للحمرة تصبغ بلهب ساحر سلسلة الجبال الهابطة نحو صيدا . وشاطئ البحر إلى اليمين يكون قطوعا فى الصخور . ونرى هنا وهناك أحواضا طبيعية قد ملأها الموج فى أيام العاصفة . وكانت هناك بعض النساء والفتيات يغمرن أقدامهن فيها فى أثناء غمرهم للأطفال الصغار فيها . ويوجد الكثير من هذه الأحواض التى تبدو كأنها بقايا حمامات قديمة قد بطن قاعها بالرخام . وإلى اليسار ، بالقرب من مسجد صغير يشرف على مقبرة تركية نرى بعض الأعمدة الضخمة المصنوعة من الجرانيت الأحمر راقدة على الأرض . أحقيقة ، كما يقولون ، هذا هو المكان الذى كان بهسيرك هيرود أجريبا ؟ (١)

---

(١) هيرود أجريبا أيضا كاليجولا على هذه المنطقة من سنة ١ إلى ٤٤ ميلادية . وحكم بعده الرومان ومعاصيرو دأجريبا الثانى .

٦ – مقبرة ولى الله

كنت أحاول فى نفسى أن أجد حلا لتلك المشكلة حينما، تطرق إلى سمعى أصوات غناء وضوضاء آلات صادرة من خور يحف بجدران المدينة . وخيل إلى أنه ربما يكون عرساً لأن طابع الغناء كان فرحاً .

ولكن لم ألبث أن رأيت جمعا من المسلمين يبدو لعينى . وهو يلوح بالأعلام ، يتلوه جمع آخر يحمل على أكتافه جثمانا مسجى فوق ما يشبه المحمل . وفى أثر هؤلاء وهؤلاء تسير بعض النسوة صارخات مولولات ، يتبعهن رهط آخر من الرجال حاملى الرايات وفروع الأشجار .

وتوقف الجميع لدى المقبرة ووضعوا الجثمان على الأرض ،وقدغطى تماما بالزهور . وكان لجوار البحر أثره فى ،إكساب ، المشهدعظمة ، بل إكساب العظمة أيضاً للأنغام الغريبة التى كانوا يرددونها بصوت مسترسل . وتجمع زمرة المتنزهين لدى تلك النقطةوأخذوا يتأملون ذلك الاحتفال فى خشوع. وقال لى تاجر إيطالى كنت أقف إلى جواره إن تلك ليست مراسم دفن عادية ، وإن المتوفى ولى من أولياء الله يعيش منذ زمن طويل فى بيروت. وقد اعتبره الأفرنج فيها مجنونا، فى حين اعتبره المسلمون قديسا . وفى أيامه الأخيرة اتخذ إحدى المغارات التى تقع تحت شرفة من شرفات حدائق المدينة مقراً له . وهناك كان يعيش عاريا كما ولدته أمه ، وكأنه حيوان متوحش . وكانت الناس تأتى إليه لاستشارته من كل فج .

ومن وقت لآخر كان يقوم بجولة فى المدينة ويأخذ من حوانيت التجار العرب كل ما يلائمه . وحينئذ تمتلىء قلوب هؤلاء بالامتنان، ظنا منهم أن ذلك سوف يجلب لهم البركة . ولكن لما لم يكن الأوربيون عندهذا الرأى ، وبعد

أن قام بزيارتهم عدة مرات ، تقدموا بشكواهم إلى الباشا ، وحصلوا منه على أمر بالا يسمح لهذا الولى بالخروج من حديقته . ولم يعترض الأتراك ، وهم قلة فى بيروت ، على ذلك الإجراء ، وتكفلوا بإقامة أود ولى الله بما يقدمون له من مؤن وهدايا . أما وقد مات ذلك الشخص الآن فقد اندفع الشعب فى فرحته ، ذلك أنهم لايكون القديس التركى، كما يبكى الناس موتاهم الآخرين . فتأكدهم من أنه قد حصل على السعادة الأبدية بعد فترة طويلة من تعذيب النفس يجعلهم يعتبرون حادث موته سعيداً ، ويحتفلون به وسط ضرب الآلات الموسيقية . وقديما كان يحدث فى مثل تلك المناسبات أن يرقص الناس وتغنى « العوالم » وتقام الولائم الشعبية .

وفى تلك الأثناء كان قد تم فتح باب مبنى مربع صغير ذى قبة . وقد بنى خصيصا ليكون مقبرة لولى الله . وعاد الدراويش ، وكانوا وسط الجموع ، إلى حمل الجثمان على أكتافهم .

وفى لحظة الدخول بدا وكأن قوة مجهولة تصدهم ، وسقطوا جلهم ، بعضهم فوق بعض . فصدرت من الجمع صيحة ذهول . والتفت الدراويش ناحية الجماهير ،وقد بدا الغضب على وجوهم ، وادعوا أن الباكيات اللائى يتبعن الجثمان ومنشدى الترانيم قد توقفوا لحظة عن الصياح والغناء . فبدأ الغناء من جديد واشترك فيه الجميع . ولكن فى لحظة عبور الباب تكرر نفس المشهد . وحينئذ رفع بعض المسنين أصواتهم ،وقالوا :إن تلك نزوة من نزوات ولى الله . فهو لا يريد أن يدخل القبر وقدماه إلى الأمام . فأدير وضع الجثمان ، واستؤنف الغناء من جديد، ثم كانت بعد ذلك نزوة أخرى ثم سقطة أخرى للدراويش الذين يحملون النعش .

وأخذ الناس فى التشاور . وقال بعض المؤمنين بالشيخ :

— قد يكون معنى ذلك أن القديس يرى أن ذلك القبر لا يليق به .

وعلى ذلك ينبغى أن يقام له آخر أكثر لياقة .

ورد بعض الأتراك قائلين :

— كلا ، كلا ، فلا ينبغى أن تنفذ كل ما يعن له من أفكار ، لقد كان ذلك الرجل المقدس دائما ذا مزاج متضارب . فلنحاول أن ندخله ، فإذا أصبح بالداخل فقد يعجبه الحال . وإذ حدث عكس ذلك فسيكون أمامنا فسحة من الوقت لإخراجه .

وقال الدراويش :

— وما العمل ؟

— حسن ! ينبغى الالتفاف بسرعة لجعله يضطرب بعض الشىء ، ودون أن يمنح الوقت الكافى ليثوب إلى نفسه تدفعون به إلى الفتحة .

وأقرت جميع الأصوات تلك النصيحة ، وجلجل الغناء بحرارة جديدة ، بينما أمسك الدراويش بالنعش من طرفيه وداروا به لبضع دقائق . وبحركة مفاجئة اندفعوا ناحية الباب ، وصادفهم ، فى هذه المرة ، النجاح التام . وكان الشعب ينتظر نتيجة تلك المناورة الجريئة فى قلق بالغ . ولقد تبادرت إلى أذهانهم لفترة فكرة الخوف من أن يقع الدراويش ضحية جرأتهم ، وأن تهدم الجدران فوقهم . بيد أنهم لم يلبثوا أن خرجوا ظافرين معلنين أن القديس ، بعد شىء من الصعوبة ، قد استقر به المقام . وعلى إثر ذلك أرسلت الجموع صيحات الفرح وتفرقوا إما فى الحقول وإما فى المقهيين اللذين يشرفان على شاطىء رأس بيروت .

وكانت تلك هى ثانية المعجزات التركية التى سمح لى برؤيتها (وإن معجزة الدوسة ، حيث يمر شريف مكة بجواده فوق طريق مرصوف بأجسام المؤمنين

ما زالت ماثلة فى الذاكرة) . إلا أن مشهد ذلك الميت ، وهو فى حالتناهذه كثير النزوات ، الذى يضطرب بين أيدى حامليه ويرفض أن يدخل المقبرة، قد أعاد إلى ذهنى فقرة من فقرات «لوسيان»(١) ، وينسب فيها نفس النزوات إلى تمثال أبولو البرونزى ، إله الشمس ، الموجود بالشام . وكان ذلك فى معبد يقع شرقى لبنان ويحج إليه القساوسة مرة فى كل عام ، حسب العادة ، ليغسلوا آلهتهم فى إحدى البحيرات المقدسة . لقد كان أبولو يرفض دائماً ذلك الطقس من طقوس الدين ... لم يكن يحب الماء ، وذلك بلاشك بصفته أميرا للنيران السماوية . وكان يضطرب بشكل ظاهر فوق أكتاف حامليه ويتسبب فى سقوطهم عدة مرات .

وحسب ما يقول « لوسيان » ، كانت تلك المناورة ترجع إلى براعة رياضية من طرف القساوسة . ولكن هل لنا أن نثق ثقة مطلقة فيما يزعم لوسيان ، فولتير العصور القديمة ؟ أما بالنسبة لى فقد كان لدى دائماً الاستعداد للاعتقاد فى كل شىء بدلا من نكران كل شىء . ولما أقرت التوراة المعجزات التى نسبت إلى أبولو الشام ، وهو ليس إلا بعال (٢) ، لست أرى لماذا لا تستطيع تلك القدرة المنسوبة إلى الأرواح الثائرة أن يكون لها مثل تلك التأثيرات ، كما أنى لست أرى لماذا لا يكون لروح ولى الله الخالدة تأثير مغناطيسى على المؤمنين بقداسته .

وأيا ما كان الأمر فمن ذا الذى يجرؤ على التعبير عن شكوكه لدى أقدام جبل لبنان ؟ أليس هذا الشاطىء هو مهد جميع أديان العالم ؟ وتسأل أول من يمر بك من سكان الجبل ، وسيقول لك إن تلك النقطة من الأرض كانت

---

(١) لوسيان هو كاتب يونانى من القرن الحادى عشر وهو مؤلف يعتنق مذهب الشك ومن مؤلفاته : « أحاديث الموتى » وطريقة كتابة التاريخ » .

(٢) أهل مدينة بعلبك تنسب إليه

مسرح المشاهد الأولى للتوراة . وسوف يقودك إلى المكان الذى تصاعد فيه دخان القرابين الأولى ، وسوف يريك الصخرة الملطخة بدم هابيل . وعلى مسافة منها توجد مدينة دانوشيا التى بناها العمالقة الذين ما زلنا نميز آثارهم . وفى مكان آخر توجد مقبرة كنعان ابن الشام . وإذا وضعت نفسك فى جو الميثولوجيا الإغريقية ، فسترى كذلك موكب الآلهة الضاحك الذى آمنت به اليونان وحولته إلى عقيدة ، سوف تراه يهبط من تلك الجبال ، وتساعده الهجرات الفينيقية على الانتشار . إن صيحات فينوس وهى تبكى أدونيس قد جلجلت فى تلك الغابات والجبال وفى تلك المغارات الغامضة حيث مازالت بعض المذاهب الوثنية تقيم فيها الحفلات الليلية الصاخبة . وحيث كانوا يذهبون فى الماضى ويكون على صورة الضحية ، وهى تمثال شاحب من الرخام أو العاج ينزف الدم من جروحه ، ومن حوله تلتف النساء الغارقات فى دموعهن ويحاكين صرخات الإلهه الشاكية . إن مسيحي الشام يقيمون مثل تلك الطقوس ليلة الجمعة اليتيمة . وتحل أم باكية محل الحبيبة ، إلا أن محاكاة المشهد بالتمثال لا تقل عن ذلك روعة .

وهكذا نراهم قد احتفظوا بمظاهر الاحتفال التى وضعها تيوقريطس وضعا شاعريا .

ولتصدقنى إذا ما قلت لك إن كثيرا من المعتقدات البدائية لم تفعل سوى أن تحورت أو تجددت فى الأديان الجديدة . ولست أدرى ما إذا كانت كنيستنا تتمسك كثيراً بأسطورة « سيميون ستيليت » . وأظن أن فى استطاعتنا ، دون أن يكون فى ذلك خرق لما نكنه لها من تبجيل ، أن نرى أن الوسيلة التى عذب بها ذلك القديس مبالغ فيها . ولكن لوسيان يخبرنا كذلك أن بعض الورعين الأتقياء من القدامى كانوا يقفون على أقدامهم أياماً طوالا فوق أعمدة مرتفعة من الحجر ، كان « باكوس » قد أقامها ، على مسافة

بسيطة من بيروت ، وذلك تكريما للآلهة رياب(١) وجونون(٢) .

ولكن لنتخلص من جعبة الذكريات القديمة تلك ، ومن الأحلام الدينية التى لا مناص من أن تقودنا إليها مشاهدة تلك الأماكن وأولئك السكان المكونين من شعوب كثيرة مختلطة ، ربما كانت تلخص فى ذاتها كل ما على ظهر الأرض من معتقدات وخرافات . فموسى وأورفيوس وزرادشت وعيسى ومحمد ، بل حتى بوذا الهندى لهم فى هذا المكان أتباع زاد إخلاصهم أم نقص . ألا نعتقد أن ذلك ينبغى أن يجعل الحياة تدب فى المدينة ويملؤها بالطقوس الدينية والأعياد ويجعل منها إسكندرية أخرى من العهد الرومانى ؟ ولكن كلا ، فكل شىء اليوم هادىء وحزين تحت تأثير الأفكار الحديثة ولكن ما من شك فى أننا لا نلتقى بتلك العادات التصويرية وتلك المتضادات الغريبة ، التى أشار إليها الكثير من الكتاب ، والتى لم يتمكن إلا عدد قليل جداً منهم من مشاهدتها ، إلا فى جبل لبنان .

(١) إله الحدائق .

(٢) زوجة جوبيتر وابنه ساتورن ، وهى إلهة الزواج .

أمير من أمراء لبنان

كنت قد قبلت بلهفة الدعوة التى وجهها إلى أمير لبنان ، الذى كان قد حضر لزيارتى ، لكى أقضى فى مسكنه ، الواقع على مسافة قصيرة من عنتورة ، فى القسروان ، بضعة أيام . ولما كان ينبغى لنا السفر فى صبيحة اليوم التالى ، لم يكن لدى من الوقت إلا ما يكفى للعودة إلى فندق « باتستا » حيث كان ينبغى التفاهم على قيمة إيجار الحصان الذى وعدونى به .

وصحبونى إلى الحظيرة ، حيث لم أجد إلا خيولا مسنة بارزة العظام ذات سيقان قوية وظهر حاد كظهر السمك ... وهى خيول لا تمت بكل تأكيد إلى سلالة الجياد النجدية . ولكنهم أخبرونى أنها خير الجياد وآمنها لتسلق سفوح الجبال الوعرة . أما الخيول العادية العربية الرشيقة ، فلا تتألق إلا فى الصحراء الرملية .

ولقد صادفت واحداً منها ووعدونى بأن يحضروه لى أمام بابى فى فجر اليوم التالى . واقترحوا لمصاحبتى صبياً اسمـــه موسى كان يجيد التحدث بالإيطالية .

وكان الليل قد حل ، إلا أن ليالى الشام فى الواقع ليست إلا نهاراً يميل إلى الزرقة . كان الناس جميعا قد خرجوا لاستنشاق الهواء على الشرفات . وكنت كلما نظرت إلى تلك المدينة وأنا أصعد التلال الخارجية بدت لى ذات طابع يذكرنا بمدينة بابل . كان القمر يرسم أشكالا بيضاء على الدرج الذى تكونه من بعيد المنازل التى رأيناها فى أثناء النهار ، منازل شديدة الارتفاع

والظلة تغير من رتابة أشكالها الموحـــدة أشجار السرو والنخيل هنا وهناك .

إنك لا ترى حين تخرج من المدينة أول الأمر سوى خضرة متنوعة كعود الند والصبار التى يبدو لها ، كآلهة الهند ، آلاف الرءوس المتوجة بالزهور الحمراء والتى تقيم تحت قدميك سيوفاً ونبالا يخشى بأسها . إلا أننا خارج تلك الأسوار نعود فنلتقى بظل أشجار التوت البيضاء المتألقة وأشجار الغار وأشجار الليمون ذات الأوراق المعدنية اللامعة . وكان ثمة ذباب مضىء يطير هنا وهناك ناشراً البهجة فى ظلال الأشجار الكثيفة .

وكانت المساكن المرتفعة المضيئة تظهر من بعيد أقواسها المدية والمستديرة ، وكنا نسمع أحياناً من داخل تلك القصور الريفية ذات الطابع المتزمت نغمات الجيتار تصاحب أصواتا منغمة جميلة .

وفى ناصية الطريق الدائر صاعداً إلى البيت الذى أقيم فيه كان مقهى قد أنشىء فى تجويف شجرة ضخمة . وهنا كان يجتمع شباب الجهات المجاورة الذين يقضون الوقت فى الشراب والغناء عادة إلى الساعة الثانية صباحاً . وكانت رنة أصواتهم الصادرة من الحلق ، والنغمة المرسلة لنشيدهم غير المنتظم الذى تغلب عليه الرنة الخنفاء تتـــوالى كل ليلة غير عابئة بآذان الأوروبيين التى ربما كانت تنصت لها فى الجهات القريبة . وأعترف مع ذلك بأن تلك الموسيقى البدائية الإنجيلية لم يكن ينقصها السحر أحيانا لمن يعرف كيف يضع نفسه فوق أحكام القواعد الموسيقية .

ولدى عودتى وجدت مضيفى المارونى وأسرته كلها فى انتظارى على الشرفه المجاورة لمسكنى . إن هؤلاء القوم الطيبين يعتقدون أنهم يكرمونك باصطحاب جميع أقاربهم وأصدقائهم لديك . وكان ينبغى تقديم القهوة

لهم وتوزيع الغلايين عليهم ، وقد قامت بذلك سيدة البيت وبناتها ، طبعاً على نفقة المستأجر .

وكان الحديث يسير بصعوبة بواسطة جمل مختلطة من الإيطالية واليونانية والعربية . ولم أكن أجرؤ على إخبارهم بأنى كنت أحب العودة إلى فراشى، حيث أنى لم أنم قط أثناء النهار، وسوف أرحل فى فجر اليوم التالى . ولكن مع ذلك فإن هدوء الليل والسماء المزدانة بالنجوم والبحر الذى يعرض تحت أقدامنا بدرجات مختلفة لزرقته الليلية التى تبيض هنا وهناك تحت ضوء النجوم ، كل ذلك كان يجعلنى أتحمل بشىء من طيب الخاطر مضايقات ذلك الاستقبال . وأخيراً ودعنى هؤلاء القوم الطيبون، إذ كان ينبغى على الرحيل قبل أن يستيقظوا . والواقع أنى لم أكد أنام ثلاث ساعات نوماً يقطعه صياح الديكة .

ولما استيقظت وجدت الصبى موسى جالساً أمام بابى على حافة الشرفة . وكان الحصان الذى اقتاده ينتظر أسفل الدرج وقد ثنيت إحدى أقدامه تحت بطنه بحبل ، وهى طريقة عربية لإيقاف الخيول فى مكانها .

ولم يكن أمامى إلا أن أحشر نفسى فى واحدة من تلك البرادع المرتفعة على الطريقة التركية التى تضغطك كالكلابة ، وتجعل سقوطك من فوقها شبه مستحيل .

وكان ثمة ركب عريضة من النحاس تشبه فى شكلها مجرفة اللهب قد ثبتت فى مكان مرتفع حتى أن الراكب كان مضطراً إلى ثنى ساقيه . وكانت أطرافها البارزة تستعمل فى نخس الحصان . وقد ابتسم الأمير قليلا أمام الصعوبة التى وجدتها فى اتخاذ وضع الفارس العربى ، وأعطانى بعض النصائح . لقد كان شابا ذا سحنة صريحة معبرة، وقد أغرانى استقباله لى أول الأمر ، وكان يدعى أبا ميران وكان ، ينتمى إلى فرع من عائلة حبيش أشهر

عائلات قسروان . وإن لم يكن من أغنى الناس، فقد كان ذا نفوذ على عشر قرى يتكون منها البندر الذى يقدم عنه الجزية إلى باشا طرابلس .

ولما كان الجميع على أهبة الاستعداد، فقد نزلنا إلى الطريق الذى يحازى الشاطىء، والذى كان لا يعدو فى أى جهة خارج الشرق أن يكون طريقا خطته السيول . وبعد مسيرة فرسخ تقريبا أرونى المغارة التى خرج منها التنين الشهير الذى كان على وشك افتراس ابنة ملك بيروت، حينما اخترقه القديس جرجس بحربته .

ويقدس اليونانيون هذا المكان تقديسا عظيما ، بل ويقدسه كذلك الأتراك أنفسهم الذين بنوا مسجدا صغيراً فى المكان الذى حدثت فيه هذه المعركة .

إن جميع الخيول الشامية قد دربت على السير الرهو ، مما يجعل خببها ممتعا للغاية ، وكنت أعجب بثبات خطواتها خلال الأحجار سهلة الحركة والجرانيت البارز الحواف والصخور الملساء التى كان المرء يصادفها فى كل لحظة . وكان النهار قد نشر ضوءه ، كما كنا قد تعدينا رأس بيروت الخصب الذى يمتد فى البحر حوالى فرسخين بمرتفعاته التى تتوجها أشجار الصنوبر الظليلة وشرفاته المدرجة التى حولوها إلى حدائق .

وكان الوادى الفسيح الذى يفصل سلسلتين من الجبال يمتد إلى مدى النظر بمدرجاته المزدوجة ذات اللون البنفسجى الذى تتألق فيه هنا وهناك نقط طباشيرية تميز عدداً كبيرا من القرى والأديرة والقصور . إنه منظر من أكثر المناظر امتداداً فى العالم، إنه مكان من تلك الأماكن التى تمتدفيها النفس، كما لو كانت تبغى بلوغ اتساع مثل اتساع المنظر أمامها . وفى أعماق الوادى ينساب نهر بيروت ، وهو فى الصيف نهر وفى الشتاء سيل ، ويصب فى الخليج ، وقد عبرناه تحت ظل أقواس قنطرة رومانية .

ولم تتعد المياه منتصف سيقان الخيول، فإن مرتفعات من الأرض تغطيها أدغال من الغار الوردى كانت تفصل مجرى الماء، وتغطى بظلالها فى كل مكان المجرى العادى للنهر. وكانت ثمة منطقتان من الرمال تبينان الخط النهائى للفيضانات وتفصلان هذا الشريط الطويل من الخضرة والزهور وتظهرانه وسط أعماق الوادى كله. وفيما وراء ذلك تبدأ السفوح الأولى للجبل. وكانت أحجار «الكوارتز» التى اخضرت بفعل النباتات والأعشاب المائية وأشجار الخروب الملتوية، وأشجار البلوط الهزيلة ذات الأوراق الخضراء القاتمة، وأشجار الندو الصبار المنحشرة فى الحجارة، كأنها أقزام مسلحة تهدد الناس لدى مرورهم، ولكنها تمنح المأوى للسحالى الضخمة الخضراء التى تندفع هاربة بالمئات تحت حوافر الخيل: هذا ما يصادفه المرء لدى عبوره للمرتفعات الأولى. وهناك إلى جانب ذلك مساحات طويلة من الرمل الجاف تمزق هنا وهناك هذه البردة من الخضرة العذراء. وأبعد قليلا تجد أن تلك الأراضى البور المصفرة قد استصلحت للزراعة وأنبتت لنا خطوطا منتظمة من أشجار الزيتون.

وكنا قد بلغنا قمة المنطقة الأولى للمرتفعات التى تبدو من أسفل، وكأنها تختلط بكتلة جبل «صنين». وفيما وراء ذلك ينفتح واد مكونا ثنية موازية لنهر بيروت، وكان ينبغى عبوره للوصول إلى القمة الثانية التى نكتشف منها واديا آخر. وقد لاحظنا أن تلك القرى العديدة، التى تبدو من بعيد، وكأنها تحتمى بالسفوح السوداء لجبل واحد، تسيطر، على العكس من ذلك على سلاسل من المرتفعات تفصلها الوديان والهوات وتتوجها وكذلك فقد أدركنا تلك الخطوط المزدانة بالقصور والأبراج لا بد أن تكون بالنسبة لأى جيش سلسلة من الاستحكامات التى لا يمكن عبورها، إذا ما أراد السكان مجتمعين الحرب من أجل مبادىء الاستقلال نفسها، كما كان يحدث فى الماضى. ولكن لسوء الحظ نجد أن عدداً كبيراً من الناس يستفيدون من انقسام هؤلاء القوم على أنفسهم.

وتوقفنا لدى الهضبة الأولى، حيث تنتصب إحدى الكنائس المارونية المبنية على الطراز البيزنطي. وكان ثمة قداس يقام بها، وقد هبطنا إلى الأرض أمام بابها، لنستمع إلى شيء مما يقال فى القداس. وكانت الكنيسة غاصة بالناس، لأن اليوم كان يوم أحد ولم نستطع العثور على مكان لنا إلا فى الصفوف الخلفية.

وبدا لى أن القساوسة يرتدون تقريبا زى القساوسة اليونانيين نفسه. لقد كان لباسهم جميلا إلى حد ما، واللغة التى يستعملونها هى اللغة السريانية القديمة التى ينطقها القساوسة مع التفخيم أو ينشدونهـــا بالرنة الخنفاء التى تميزهم. وكانت النساء جميعاً يجلسن على منصة مرتفعة يحميهن حاجز من الحواجز. ولدى تأملى لزينات الكنيسة البسيطة التى تم إصلاحها حديثا، رأيت بصعوبة أن النسر النمساوى الأسود ذا الرأسين كان يزين كل عمود من أعمدتها، كرمز لحماية كانت فى الماضى تخص فرنسا وحدها. ولم يحدث إلا ابتداء من ثورتنا الأخيرة أن أخذت النمسا وسردينيا يصارعاننا النفوذ على شئون الكاثوليك فى الشام بل على عقولهم أيضاً.

إن قداساً فى الصباح لا يمكن أن يؤذى أحداً إلا إذا تصبب المرء عرقاً داخل الكنيسة وتعرض للظل الرطب الهابط من القباب والأعمدة. ولكن بيت الله هذا كان نظيفاً بهيجاً، ولقد دعتنا الأجراس بصوتها الجميل ونبرتها الفضية، ثم أننا قد جلسنا بالقرب من المدخل، ولذا فقد خرجنا من المكان فى انشراح وقد تهيأنا لما بقى علينا من الرحلة. وقد أستأنف فرساننا المسير ركضاً، وهم يتصايحون بصرخات مرحة. كانوا يتظاهرون بأنهم يتبعون بعضهم البعض ويقذفون أمامهم بحرابهم ورشاقهم المزدانة بالحبال والكرات الحريرية، ثم يسحبونها دون توقف من الأرض أو من جذوع الأشجار التى تكون قد انغرست فيها بعيداً.

وقد استمرت ألعاب المهارة هذه فترة قصيرة، ذلك أن المهبط أصبح

صعباً، كما أن حوافر الخيل أصبحت ترتكز فى حذر على أحجار «الكوارتز» الناعمة أو المهشمة فى قطع صغيرة حادة الحوافى . وإلى هنا كان الصبى موسى قد تبغى سيرا على الأقدام كعادته المكارية، رغم أنى قد عرضت عليه الركوب على ناصية الجواد . ولكنى كنت بدأت أحسده على حظه . ولما أدرك ما يدور بخلدى عرض على أن يقود الحصان . وهكذا استطعت عبور بطن الوادى باختصار الطريق وسط الأدغال والأحجار . ووجدت فرصة للراحة على الحافة المقابلة ، وكذلك لتأمل مهارة مرافقينا والإعجاب بها وهى تتجلى فى اجتياز سفوح نعتبرها فى أوربا غير صالحة للعبور .

وكنا قد صعدنا إلى ظلال غابة من الصنوبر ، وهبط الأمير إلى الأرض وكذلك فعلت أنا . وبعد ربع ساعة ألفينا أنفسنا على حافة واد أقل عمقاً من الآخر يكون ما يشبه المدرج من الخضرة . وكانت القطعان ترعى الكلأ حول بحيرة صغيرة ، وقد لاحظت فيها بعض الخراف الشامية التى قد يصل وزن ذيلها المثقل بالدهن إلى عشرين رطلا .

وترجلنا لنرطب الخيول بالقرب من نافورة مغطاة بقبو عريض من الحجارة ذى بناء قديم، كما كان يبدو لى . وكان هناك عدد كبير من النساء ذوات الثياب الرشيقة ، وقد أتين لملء جرارهن الكبيرة التى كن يضعنها بعد ذلك على رءوسهن . ولم يكن بطبيعة الحال يضعن على رءوسهن الغطاءات العالية التى تميز النساء المتزوجات ، لقد كن من الفتيات أو الخادمات .

١١ — قرية مختلطة

ولما تقدمنا بضع خطوات فيما وراء النافورة، ونحن مازلنا تحت ظلال الصنوبر ألفينا أنفسنا لدى مدخل قرية « بيت مرى » التى تقع على هضبة يمتد منها المنظر من ناحية نحو الخليج ومن ناحية أخرى على وادعميق تبدو من ورائه قمم جبال جديدة وسط الضباب المائل للزرقة .

وإن التناقض بين هذا الفيء والظل الساكن وبين حرارة السهول ورمال الشاطىء التى غادرناها منذ ساعات قليلة لهو إحساس لا يقدره المرء حق قدره إلا فى مثل هذه الأجواء . وانتشر نحو عشرين بيتاً تحت الأشجار مبدية للعين صورة أشبه بصور تراناا فى الجنوب . وذهبنا إلى مسكن الشيخ الذى كان متغيباً ، إلا أن زوجته قدمت لنا اللبن الحمض والفاكهة .

وكنا قد تركنا إلى يسارنا بيتاً كبيراً يدل سقفه المنهار وأعمدته الخشبية الملطخة بالدخان الأسود على حريق قريب العهد . وأخبرنى الأمير أن الدروز هم الذين أشعلوا النار فى هذا المبنى فى الوقت الذى كان فيه عدد كبير من الأسر المارونية متجمعاً بمناسبة عرس . ولحسن الحظ استطاع المدعوون الهرب فى الوقت المناسب . ولكن أغرب ما فى الأمر أن المذنبين كانوا هم أنفسهم سكان البيت . وكانت قرية بيت مرى ، كقرية مختلطة تضم تقريبـــاً مائة وخمسين مسيحياً وستين درزياً . وكانت بيوت هؤلاء يفصلها عن بيوت الآخرين ما لا يزيد عن مائة خطوة . ونتيجة لهذه العداوة حدث بينهما صراع دام، وسارع الباشا بالتدخل فأقام وسط الفريقين معسكراً صغيراً للألبانيين الذين كانوا يعيشون على نفقة السكان المتنافسين.

وكنا قد انتهينا من تناول طعامنا حينما عاد الشيخ إلى البيت. وبعد المجاملات

الأولى بدأ حديثا طويلا مع الأمير، وشكا كثيراً من وجود الألبانيين ومن نزع السلاح العام الذى أقر فى بندره . وكان يبدو له أن هذا الإجراء ما كان ينبغى أن يتم إلا بالنسبة للدروز ، فهم وحدهم المسئولون عن الهجوم الليلى والحرائق . ومن وقت لآخر كان الرئيسان يخفضان صوتيهما ، ورغم أنى لم أستطع أن أفهم نقاشهما كل الفهم ، فقد رأيت من الأنسب أن أبتعد قليلا بحجة الذهاب للنزهة .

وأخبرنى مرشدى فى أثناء السير أن المسيحيين المارونيين فى مقاطعة الغرب ـ حيث كنا ـ قد حاولوا من قبل طرد الدروز المنبثين فى عدد كبير من القرى ، وأن هؤلاء قد دعوا لنجدتهم إخوانهم فى الدين فى جبل الشام (الموازى لجبل لبنان) . ومن ثم فقد بدأ الكفاح الذى كان يتجدد كل يوم . لقد كانت القوة الكبرى للمارونيين فى مقاطعة القسروان التى تقع خلف الجبل وطرابلس ، كما كانت أقوى فئة من الدروز تسكن المقاطعات الواقعة من بيروت إلى عكا . وكان شيخ بيت مرى يشكو للأمير بلا شك من أن الناس فى قسروان فى الظروف الأخيرة التى تحدثت عنها لم يحركوا ساكنا . ولكن لم يكن لديهم الوقت الكافى فإن الأتراك تدخلوا بسرعة لم يعتدها الناس منهم . وذلك لأن العداء قد نشب فى الوقت الذى كان ينبغى فيه دفع الجزية « الميرى » . وكان الأتراك يقولون : « ادفعوا أولا ثم تشاجروا بعد ذلك كما يحلو لكم » . وكيف السبيل فى الواقع إلى جمع الضرائب من أناس يتحاربون ويتناحرون فى موسم المحصول نفسه ؟ .

وفى نهاية خط البيوت المسيحية توقفت تحت باقة من الأشجار ، حيث يظهر البحر الذى كان يحطم من بعيد موجه الفضى على الرمال . إن العين لتسيطر من هذا المكان على القمم المدرجة للجبال التى عبرناها ، وعلى مجارى الأنهار الصغيرة التى تخطط الوديان ، وعلى الشريط المصفر الذى يخطه طريق أنطونين الجبل بطول البحر ، وحيث يرى المرء على الصخور نقوشا رومانية

ورسوما بارزة فارسية . وكنت قد جلست فى الظل ، حينما حضروا لدعوتى لتناول القهوة لدى المدير أو القائد التركى الذى يمارس على ما أظن سلطة مؤقتة إثر احتلال الألبانيين للقرية .

واصطحبونى إلى بيت زين حديثا ، تكريما لهذا الموظف بلا شك، بحصير هندى يغطى الأرض، وبأرائك منجدة وستائر حريرية . وقد دخلت منتعلا حذائى ضاربا بالآداب عرض الحائط، رغم ملاحظات الخدم الأتراك التى لم أكن أفهمها. وأشار إليهم المدير بالصمت وأرشدنى إلى مكان على الأريكة دون أن ينهض هو نفسه . وأمر بإحضار القهوة والغلايين ووجه إلى بعض عبارات التحية ، وهو يتوقف من وقت لآخر ليضع ختمه على مربعات من الورق كان أمين سره الجالس إلى جواره يقدمها له على منضدة صغيرة .

وكان هذا المدير شابا ذا سحنة على شىء من الزهو. وقد بدأ يستفسر منى فى إيطالية ركيكة وبكل ماهناك من ابتذالات معتادة عن البخار وعن نابليون وعن الاكتشاف الحديث لوسيلة عبور الجو . وبعد أن أرضيت فضوله فى هذا المجال ظننت أننى أستطيع سؤاله عن بعض التفاصيل بخصوص السكان المحيطين به . ولكنه كان يبدو شديد التحفظ فى هذا الصدد . ومع ذلك فقد أخبرنى أن القتال أو العداء حدث هنا كما يحدث فى أماكن أخرى كثيرة بسبب أن أن الدروز لا يريدون مطلقا دفع الضرائب للشيوخ المارونيين المسئولين أمام الباشا . والوضع ذاته يوجد بطريقة معكوسة فى القرى المختلطة فى بلاد الدروز . وسألت المدير عما إذا كانت هناك صعوبة أمام زيارتى للجزء الآخر من القرية . فقال : « اذهب حيث شئت . إن هؤلاء القوم جميعا قد أصبحوا غاية فى اللطف منذ أن حللنا بينهم . وإلا لكان عليك أن تحارب من أجل هؤلاء أو هؤلاء ، من أجل الصليب الأبيض أو اليد البيضاء» . وهى الشعارات التى تميز أعلام المارونيين وأعلام الدروز، رغم أن اللون الرئيسى للعلم فى كلتا الحالتين أحمر .

واستأذنت من هذا التركى . ولما كنت أعلم أن رفاقى سيمكثون فى بيت مرى فى فترة القيلولة ، فقد توجهت إلى حى الدروز لا يرافقنى إلا موسى. وكانت الشمس قد بلغت أقصى حدتها . وبعد أن سرنا عشر دقائق صادفنا أول بيتين . وكان أمام البيت الواقع إلى اليمين حديقة على شرفة كان يلهو بها بضعة أطفال . وقدجروا ليشاهدونا ونحن نمر، وهم يرسلون صيحات كبيرة خرجت لها امرأتان من البيت . وكانت إحداهما ترتدى « التنتور » مما يدل على صفتها كزوجة أو أرملة . أما الأخرى فكانت تبدو أصغر سناً، وكانت لا تغطى رأسها إلا بوشاح خفيف تسدله على جزء من وجهها . ومع ذلك فقد كنا نستطيع تمييز ملامحهما التى كانت تظهر وتلتقى مع حركاتهما، كما يظهر ويختفى القمر وسط السحاب .

وقد اكملت الفحص السريع الذى استطعت إجراءه بواسطة وجوه الأطفال التى كانت مكشوفة كلها، والتى كانت ملامحها الكاملة التكوين تشبه ملامح المرأتين، ولما رأتنى صغراهما سناً أتوقف دخلت ثانية إلى البيت، وعادت تحمل قلة وأمالت فوهتها نحوى خلال أوراق الصبار السميكة التى تحف بالشرفة . واقتربت لأشرب ، رغم أنى لم أكن أشعر بالعطش ، لأنى شربت المرطبات منذ قليل لدى المدير . ولما رأت المرأة الأخرى أننى لم أشرب سوى جرعة واحدة قالت لى : « أتريد لبناً ؟ » ، وأشرت لها بالرفض، ولكنها كانت قد دخلت إلى البيت فعلا .

ولما سمعت هذه الكلمة « لبن » ، تذكرت أنها تعنى بالألمانية « الحياة» . وإن لبنان قد استخلص هو أيضاً اسمه من هذه الكلمة «لبن» ويرجع ذلك إلى بياض الثلوج التى تغطى جباله ، والتى يحلم بها العرب من بعيد وسط رمال الصحراء الملتهبة ، كأنها اللبن أو كأنها الحياة !

ولقد هرعت المرأة الطيبة مرة ثانية تحمل كوباً من اللبن ذى الرغوة . ولم أستطع أن أرفض الشرب منه ، وكنت على وشك إخراج بعض قطع

النقود من منطقتي حين أعطت المرأتان ، إزاء تلك الحركة وحدها ، علامات رفض شديدة القوة . وكنت أعرف من قبل أن كرم الضيافة له في لبنان عادات أثبت من عادات البخل عند الاسكتلنديين (أهل سكتلاندا مشهورون بالبخل) ولذا لم ألح عليهما .

وبقدر ما استطعت الحكم بناء على مقارنة مظهرها تين المرأتين وهؤلاء الأطفال، فإن ملامح السكان الدروز لها بعض الصلة بملامح الجنس الإيراني. إن هذا الاسمرار الذي ينشر لون العنبر على وجوه الفتيات الصغيرات لا يؤثر في البياض الشديد لهاتين المرأتين نصف المحجبتين، حتى ليظن المرء أن عادة تغطية الوجوه لدى الشرقيات ليست إلا ضربا من التأنق . إن هواء الجبل المنعش واعتياد العمل يضفي لونا يانعا على الشفاه والخدود، ولذا فإن مساحيق التركيات لا جدوى فيها بالنسبة إليهن . ومع ذلك فكما يحدث لدى التركيات، فإن الأصباغ تظلل جفونهن وتطيل قوس حواجبهن .

وتابعت سيري بعيد : كانت المنازل دائماً مكونة من طابق واحد على الأكثر ومبنية بالطين النيء المضغوط ، وأكبرها بالحجارة المائلة للحمرة وأسقفها مسطحة تحملها أقواس داخلية ، والدرج بها خارجي يصعد حتى السطح ، وأثاثها كله ، كما نستطيع أن نراه من الشبابيك ذات القضبان الحديدية أو الأبواب نصف المفتوحة يتألف من مصحفات الحائط من خشب الأرز المنحوت ومن الحصير والأرائك. ويشيع الأطفال والنساء الحياة في كل هذا، دون أن يدهشهم كثيراً مرور أحد الغرباء ، إنهن يوجهن إلى فطية كلمة « صار الخير (١)» المعتادة .

ولما وصلت إلى نهاية القرية حيث تنتهي هضبة بيت مري لمحت من الطرف الآخر من الوادي ديراً أراد موسى اصطحابي لزيارته. ولكن كان التعب قد أخذ

---

(١) هي صالخير (اختصار صباح الخير)

يحل بي، وقد أصبحت الشمس لا تطاق : فجلست في ظل حائط، واستندت إليه فيما يشبه النوم ، وكان سبب ذلك عدم الراحة التي قضيت عليها كل ليلتي . وخرج رجل مسن من البيت وألح في دعوتي للراحة في بيته . ولكني شكرته خشية أن يكون الوقت قد تأخر بي ، وأن يقلق رفاقي لغيبتي . ولما رأى كذلك أني أرفض أية مرطبات قال إنني لا ينبغي أن أتركه دون أن أقبل منه شيئاً . ولذا فقد ذهب لإحضار بعض ثمار المشمش وأعطاني إياها ، وأراد كذلك مرافقتي إلى نهاية الشارع . وبدا عليه عدم الارتياح لما علم من موسى أني تناولت غذائي لدى الشيخ المسيحي، وقال : « إنني أنا الشيخ الحقيقي ، ولي الحق في استضافة الأجانب » .

وقال لي موسى حينئذ : إن هذا الشيخ كان في الواقع شيخاً أو سيداً للقرية في عهد الأمير بشير . ولكن لما كان قد انضم إلى صف المصريين، فلم تعد السلطات التركية تعترف به ، واتجه الاختيار إلى شخص ماروني .

٣ - القصر الريفى

وعدنا صاعدين على صهوات الخيل حوالى الساعة الثالثة ، ثم عدنا فهبطنا الوادى الذى ينساب فى قاعه نهر صغير . وقد حازينا مجراه المتجه نحو البحر ، ثم عدنا فصعدنا وسط الصخور وأشجار الصنوبر مخترقين هنا وهناك أودية خصبة مزروعة كلها بأشجار التوت والزيتون والقطن التى تتخللها شجيرات القمح والشعير . وأخيراً ألفينا أنفسنا على حافة نهر الكلب ، وهو الذى كان يسمى قديماً « بليكوس » ، الذى ينشر ماءه الشحيح بين الصخور المائلة للحمرة وأحراش الغار . إن هذا النهر الذى يصبح فى الصيف نهراً صغيراً ينبع من أعالى جبل لبنان المغطاة بالثلوج، كما تفعل جميع مجارى المياه التى تخطط هذا الشاطىء خطوطاً متوازية حتى أنطاكية ، والتى تصب فى بحر الشام . وكانت شرفات دير عنتوره العالية ترتفع إلى يسارنا والأبنية تبدو جد قريبة منا ، رغم أن وديانا عميقة كانت تفصلها عنا . وكذلك بدت لنا أديرة أخرى يونانية أو مارونية أو تنتمى إلى طائفة القديس لازار من الأوربيين، وتشرف على عدد كبير من القرى . إن كل هذا قد يقترب من الناحية الوصفية من سمات جبال الابنين أو الألب السفلى، غير أن له تأثيراً متناقضا كبيرا إذا ما تذكرنا أننا فى بلد اسلامى ، وعلى بعد بضعة فراسخ من صحراء دمشق ومن أطلال بعلبك المتربة . ومما يجعل كذلك من لبنان أوربا صغيرة صناعية وحرة وتتميز بذكاء خاص : أن الحرارة التى تجعل السكان فى آسيا عصبيين تتوقف هنا . فالشيوخ والسكان الميسور والحال يملكون ، حسب الموسم ، محال للإقامة ، سواء فوق الجبل أو فى أسفل الوديان المدرجة بين الجبال تتيح لهم الحياة فى ربيع دائم .

وبدت لى المنطقة التى دخلنا إليها عند غروب الشمس ، منطقة ذات جو

رائع، وهى منطقةشديدةالارتفاع،إلاأنسلسلتينمنالقمم المغطاة بالأشجار تحميها ، هنا كانت تبدأ ممتلكات الأمير كما أعلنى موسى . لقدقربنا إذن من هدف رحلتنا ، ومع ذلك فلم نلمح مجموعة من الأبنية تشرف على قمة صغيرة يلتف حولها طريق وعر إلا بعد أن خيم الليل تماماً ، وبعد أن اجتزنا غابة من أشجار الجوز كان من العسير جداً اقتياد الخيول فيها ، لقد كان هذا المظهر يتسم واضحاً بسمة قصر من القصور القوطية . كانت بعض النوافذ المضيئة تبدى أقواسها المدببة الضيقة ، التى تتكون منها الزينة الخارجية الوحيدة لفناء مربع وسور من الجدران العالية .

وبعد أن فتحوا لنا باباً واطئاً ذا قوس خفيض ألفينا أنفسنا فى فناء فسيح تحيط به أروقة تستندإلى أعمدة . وقدهرع الخدم العديدون والزنوج حول الخيول ثم اصطحبونى إلى القاعة المنخفضة أو « السردار » ، وهى قاعة فسيحة مزدانة بالأرائك ، حيث اتخذنا أماكننا فى انتظار العشاء . وبعد أن أمر الأمير بتقديم المرطبات إلى رفاقه وإلى اعتذر بأن الوقت المتقدم لا يسمح له بتقديمى لأسرته ودخل إلى ذلك الجزء منالبيتالمخصص لدى المسيحيين والأتراك علىالسواء لسكنى النساء . ولم يكنقد تناول معنا سوى كوب من النبيذ الذهبى ، لحظة إحضار العشاء .

وفى اليوم التالى استيقظت بسبب الضجيج الذى كان يحدثه فى الفناء السياس والعبيد السود المكلفون بالعناية بالخيول . وكذلك جاء عدد كبير من سكان الجبال يحضرون المؤن،وبعض رجال الدينالمارونيين الذين كانوا يرتدون غطاء رأس أسود وثياب زرقاء ، وينظرون إلى كل شىء نظرة تنم على طيب النفس . ولم يلبث الأمير أن نزل إلينا وقادنى إلى حديقة ذات شرفة تحميها جدران القصر من الجانبين ، وإن كانت تطل من الخارج على الوادى الذى ينساب فيه نهر الكلب ذو الضفاف شديدة الوعورة . لقد كانت تلك المساحة الصغيرةمزروعة بأشجار الموز والنخيلالقصير وأشجار الليمون وغيرها من أشجار السهول التى أصبحت فى هذه الهضبة المرتفعة

شيئا نادرا وتفننا فى حب الترف ، وفكرت قليلا فى نساء القصر اللاتى ربما كانت تطل نوافذهن على هذه الجنة الصغيرة ، ولكن لم أر واحدة منهن . ولقد حدثنى الأمير طويلا عن أسرته وعن الأسفار التى قام بهـا جده فى أوربا وما حظى به من تكريم . ولقد كان يجيد الحديث بالإيطالية كما كان يفعل جل أمراء لبنان وشيوخه ، وكان يبدو على استعداد للسفر يوما ما إلى فرنسا .

وفى ساعة الغذاء ، أى حوالى الظهر ، أصعدونى إلى رواق مرتفع ، يطل على الفناء ، ويشكل داخله شيئا أشبه بالمخدع مزدانا بالأرائك ذى أرضية ذات منصة . وكانت ثمة امرأتان شديدتى التزين والتأنق جالستين على الأرائك ، وقد عقدتا سيقانهما على الطريقة التركية ، وما إن دخلت حتى أتت فتاة صغيرة كانت جالسة إلى جوارهما لتقبيل يدى طبقا لعاداتهم . وكنت أودعن طيب خاطر رد تلك التحية بدورى إلى السيدتين ، لولا أننى تذكرت أن ذلك مخالف للعادات المتبعة . واكتفيت بالتحية واتخذت مكانى مع الأمير إلى منضدة منقوشة كانت تحمل صحفة كبيرة مملوءة بأصناف الطعام . وفى اللحظة التى هممت فيها بالجلوس أحضرت لى الفتاة الصغيرة منشفة طويلة من الحرير مزركشة بالفضة من طرفيها . واستمرت السيدتان خلال تناولنا للطعام جالستين فى وضع واحد فوق المنصة ، كما لو كانتا تمثالين من تماثيل الآلهة . ولكن لما رفعت المائدة ذهبنا للجلوس قبالتهما ، وأحضرت النرجيلات بناء على أمر أصدرته أكبرهما سنا .

لقد كانت السيدتان ترتديان ، فوق الصديرى الذى كان يضغط الصدر والشنتيان (السروال) ذى الثنيات الطويلة ، ثوبا من حرير مخطط طولا . وكان الحزام الذهبى الثقيل والحلى المرصعة بالماس والياقوت تدل على ترف هو فى الواقع عام فى الشام ، حتى لدى النساء اللاتى ينتمين إلى طبقة أقل . أما القرن الذى كانت سيدة البيت تتوجه على جبينها والذى كان يدفعها إلى

إتيان حركات كحركات البجع،فقد كان قرمزى اللون . ومطعماً بالفيروز . أما الضفائر التى تتخللها عنا قيد من قطع النقود الذهبية فقد كانت تنساب على الأكتاف على ماهو متبع حسب آخر مبتكرات الزينة فى الشرق .

وكانت أقدام السيدتين المطوية فوق الأريكة تجهـل عادة استعمال الجوارب ، وهو أمرعام فى هذه البلاد، وتضيف إلى الجمال طريقة للإغراء بعيدة كل البعد عن آرتنا . إن نساء لايكدن يمشين ويغتسلن بضع مرات فى اليوم بالماء المعطر ، ولا تضغط الأحذية قط على أصابعهن يستطعن كما نتصور جيدا أن يجعلن أقدامهن فى مثل سحر أيديهن . وإن صبغة الحناء التى تلون أظافرهن باللون الأحمر والخلاخيل التى يلبسنها فوق كعوبهن ، وهى قيمة كالأساور لتكمل جمـال ذلك الجزء من المرأة وسحره الذى نضحى به كثيراً فى بلادنا من أجل أمجاد صانعى الأحذية ومكاسبهم .

ووجهت إلى الأميرتان الـكثير من الأسئلة عن أوربا وحدثتانى عن كثير من المسافرين الذين رأتاهم من قبل . وقد كانوا على وجـه العموم من المدافعين عن الأسرة المقدسة صاحبة الحق الشرعى ، وهم فى طريقهم إلى زيارة بيت المقدس . وإن المرء ليتصوركم من الأفـكار المتناقضة تنتشر هكذا عن الحالة فى فرنسا وسط مسيحى لبنان . ونستطيع أن نقول فقط إن اختلافات السياسة ليس لها إلا تأثير قليل على شعوب يختلف تـكوينها الاجتماعى كثيراعن تـكويننا . فالـكاثوليكيون وهم مضطرون إلى الاعتراف بامبراطور الترك رئيسا ، لا يمـكن أن يكون لهم رأى واضـح عن حالتنا السياسية . ومع ذلك فهم لايعتبرون أنفسهم قبل السلطان إلا دافعى ضرائب . أما سيدهم الحقيق فهو مايزال الأمير بشير الذى أسلـه الإنجليز إلى السلطان بعد حملة سنة ١٨٤٠ .

وما هو إلا وقت قصير جدا حتى أرسلت نفسى على سجيتها وسط تلك

الأسرة ، وسررت إذ رأيت اختفاء مظاهر الحفاوة الرسمية والكلفة التى أحاطونى بها فى اليوم الأول .

إن الأميرتين ترتديان الملابس البسيطة ، وتشاركان أتباعهما العمل ، كما تفعل النساء العاديات ، بل إن أصغرهما سنا تنزل إلى عيون المياه كما تفعل فتيات القرية ، وكما كانت تفعل ربيكا المذكورة فى التوارة أو نوسيكا التى ذكرها هوميروس .

لقد كان الأهتمام شديدا فى ذلك الوقت بمحصول الحرير ، ولقد أرونى « الكابان » ، وهو بناء ذو هيكل بنيانى خفيف يستخدم لتربية الدود . لقد كانت هناك قاعات مازال يربى فيها الدود فى إطارات متقابلة ، وأخرى قد غطيت أرضها بالشوك ، وتركت فوقهـا اليرقات لتتم مراحـل تطورها المختلفة .

أما الشرانق فكانت تتلألأ كحبات الزيتون الذهبية على الأغصان المجمعة فى أكوام والتى تمثل الأحراش الكثيفة . لقد كان ينبغى بعد ذلك انتزاعها وتعريضها للبخار الكبريتى لقتل اليرقة، ثم حل الخيوط التى لاتكاد العين تميزها .

وكانت مئات من النساء والأطفال يستخدمون لهذا العمل ، الذى كانت الأميرتان تقومان بالإشراف عليه فى الوقت نفسه .

٤ – رحلة صيد

فى اليوم التالى لوصولى ، وكان يوم عيد ، أيقظونى لدى الخيط الأول من النهار من أجل رحلة صيد ، كانت تقام فى احتفال كبير . وكنت على وشك الاعتذار بحجة قلة براعتى فى هذا الشأن ، خشية التعريض بكرامة الأوروبيين أمام سكان الجبال هؤلاء . ولكن الأمر كان يتعلق فقط بصيد الصقور ، إن الاعتقاد الذى لم يكن يبيح للشرقيين إلا صيد الحيوانات الضارة قد دفعهم منذ أجيال طويلة إلى استخدام الطيور الجارحة التى يقع عليها حينئذ وزر إراقة الدماء . وعلى الطبيعة وحدها تقع مسئولية العمل القاسى الذى يقترفه الطائر الجارح . هذا ما يفسر كيف أن هذا النوع من الصيد كان فى كل وقت خاصا بالشرق ، ثم انتشر لدينا بعد الحروب الصليبية .

ولقد ظننت أن الأميرتين سوف تتنازلان وترافقاننا ، مما كان من شأنه أن يضفى على هذه التسلية طابع الفروسية ، ولكنهما لم تظهرا قط . وذهب الخدام المكلفون بالعناية بالطيور لإحضار الصقور من مقصورات صغيرة مقامة داخل الفناء وسلموها إلى الأمير وإلى اثنين من أبناء عمومته ، وكانوا هم أظهر من فى الفريق . وأعددت كفى لاستقبال أحدها ، ولكنهم أخبرونى أن الصقور لا يمكن أن يمسك بها إلا أشخاص معروفون لديها . وكان هؤلاء الأشخاص ثلاثة ، وكانوا شديدى التأنق فى ملبسهم . وقد كانوا ينتمون كما ذكروا لى إلى تلك السلالة الخاصة بالشام ، والتى تمتاز عيونها ببريق الذهب .

وهبطنا إلى الوادى متبعين مجرى نهر الكلب ، حتى النقطة التى يتسع فيها الأفق ، والتى تنتشر فيها المراعى الواسعة فى ظلال أشجار الجوز والحور . وكان النهر لدى إحدى انثناءاته تفلت منه إلى الوادى مساحات واسعة من المياه قليلة العمق ، تغطيها أشجار الشوك والبوص نصف تغطية . وتوقفنا

وانتظرنا أن تسترد الطيور ، وقد أفزعتها فى بادىء الأمر أصوات حوافر الخيل-عاداتها الأولى فى الحركة أو السكون . ولما استتب السكون استطعنا أن نميز بين الطيور التى تطارد حشرات المستنقع - اثنين من طير البلشون (مالك الحزين) ربما كانا منهمكين فى صيد السمك ، وكانا فى طيرهما يخطان من وقت لآخر الدوائر فوق الأعشاب . وحلت اللحظة الحاسمة ، وأطلقت بعض طلقات البنادق للتحرش بالبلشون ، ثم نزعت العصابات عن رءوس الصقور وقذف بها الفرسان الذين كانوا يمسكون بها ، وهم يرسلون الصيحات لتشجيعها .

وبدأت هذه الطيور أول الأمر تطير اعتباطا بحثا عن أى فريسة . ثم لمحت طيور البلشون التى دافعت عن أنفسها بمنقارها ، وقد هاجمتها الصقور كل على حدة . وأتت لحظة خشينا فيها أن يكون أحد الصقور قد اخترقه منقار الطائر الذى يهاجمه بمفرده . ولكنه ربما لأنه كان قد احترس من خطر هذا الصراع ذهب وانضم إلى رفيقه من الطيور ولما تخلص هكذا أحد طيور البلشون من عدوه اختفى وسط الأشجار الكثيفة ، أما الآخر فقد ارتفع فى خط مستقيم نحو السماء . وهنا بدأت الأهمية الحقيقية للصيد . عبثا حاول طير البلشون الاختفاء فى الفضاء ، حيث لم تعد أعيننا قادرة على رؤياه ، فإن الصقور التى كانت تلاحقه كانت تراه بالنيابة عنا ، ولما كانت عاجزة عن ملاحقته إلى ذلك العلو الشاهق ، فقد كانت تنتظره حتى يهبط .

لقد كان منظرا مليئاً بالمشاعر الدافقة أن نرى هؤلاء المقاتلين الثلاثة أنفسهم وهم لايكاد يراهم وهم أحد ، يحلقون فى الجو ويختلط بياض أجسامهم بزرقة السماء .

وما هى إلا عشر دقائق حتى عاد طير البلشون إلى الظهور ، وقد أنهكه التعب ، أو ربما لم يعد يستطيع تنفس الهواء فى منطقة الهواء النذر القليل

التي ارتفع إليها ، فظهر على مسافة قليلة من الصقور التي انقضت عليه . ودام النضال لحظة سمح لنا اقترابه من الأرض أن نسمع صيحات الطيور ورؤية خليط جائش من الأجنحة والرقاب والأقدام المتشابكة . وفجأة سقطت الطيور الأربعة ككتلة واحدة وسط الأعشاب واضطر ملتقطوها إلى البحث عنها بضع دقائق . وأخيراً التقطوا طير البلشون الذي كان ما زال حيا وقطعوا رقبته، حتى لا يتعذب وقتا أطول . ثم ألقوا إلى الصقور بقطعة من اللحم اقتطعت من بطن الفريسة وأحضروا في انتصار البقايا الدامية للطائر المهزوم . وحدثني الأمير عن جولات الصيد التي قام بها في وادي « بقعة » حيث كانوا يستخدمون الصقر لا صطياد الغزلان . وللأسف فقد كان في هذا النوع من القنص شيئاً أشد قسوة من استخدام الأسلحة ، فإن الصقور كانت مدربة على أن تستقر فوق رءوس الغزلان المسكينة وتفقأ أعينها . ولم أكن مطلقا في شوق إلى مشاهدة مثل هذه التسليات الحزينة .

وأقيمت في ذلك المساء وليمة فخمة دعي إليها كثير من الجيران . وصفت كثير من المناضد الصغيرة في الفناء على الطريقة التركية ، ورتبت طبقا لمكانة المدعوين . وكان طير البلشون ضحية تلك الحملة وموضع النصر - يزين برقبته المثبتة بخيوط من السلك وجناحيه المفرودين على شكل مروحة - النقطة المركزية في مائدة الأمير التي وضعت على منصة ، والتي دعيت إلى الجلوس إليها إلى جوار أحد القساوسة العازريين في دير عنتورة ، وقد كان حاضرا بمناسبة العيد . واتخذ المنشدون والموسيقيون مكانهم فوق درجات الفناء ، وكان الرواق الأسفل غاصاً بالناس وقد جلسوا إلى موائد أخرى صغيرة من خمسة أو ستة أشخاص . وكانت الصحاف تمر من الموائد الأولى إلى الأخرى دون أن تمس تقريباً وانتهت بأن دارت في الفناء حيث تلقاها بدورهم سكان الجبل الجلوس على الأرض : لقد قدمت لنا أكواب بوهيميا القديمة أما سائر المدعوين فقد كانوا يشربون في فناجين يمرون بها عليهم . وكانت الشموع الطويلة تضيء المناضد الرئيسية . وكان

الصحن الرئيسى يتكون من خروف مشوى ومن أهرامات من الأرز متبل بالدارصيني والكركم ، ثم بالعصاج والسمك المسلوق والخضر المحشوة باللحم المفروم والبطيخ والموز وغيرها من فواكه البلاد . وفى نهاية الوجبة تبودلت الأنخاب على صوت الآلات الموسيقية وصيحات الجماعة المرحة . ونهض نصف الجلوس إلى الموائد وشربوا فى صحة النصف الآخر واستمر هذا طويلا . وبدهى أن السيدات بعد أن شهدن بداية الوليمة ، دون أن أن يشاركن فيها انسحبن إلى داخل البيت .

واستمر الحفل إلى ساعة متقدمة من الليل . وعلى العموم لا يستطيع المرء أن يميز فى حياة الأمراء والشيوخ المارونيين شيئاً يختلف كثيرا عن غيرها من الشرقيين، إلاأن يكون الخلط بين العادات العربية وبعض عادات عصور الإقطاع لدينا. إنها فترة الانتقال بين حياة القبيلة كمالازلنا نراها فى أسفل هذه الجبال ، فى عصر الحضارة الحديثة هذا الذى امتد فعلا إلى مدن الصناعة فى هذا الشاطىء . ويبدو أنهم يعيشون فى القرن الثالث عشر الفرنسى .

ولكن فى نفس الوقت لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من التفكير فى صلاح الدين وأخيه الملك العادل اللذين يفخر المارونيون بهزيمتهم لهما بين بيروت وصيدا . وقد زودنى القسيس العازرى الذى كنت أجلس إلى جواره فى أثناء الوليمة (وكان يدعى الأب آدم) بالكثير من المعلومات الدقيقة حول رجال الدين المارونيين. وكنت أعتقد حتى الآن أنهم ماهم إلا من الكاثوليك المتواضعى الشأن، نظراً لأنهم يملكون الحق فى الزواج . ولم يكن هذا الحق مع ذلك إلا تساعاً منح بصفة خاصة للكنيسة الشامية. ونساء القسس كن يسمين قسيسات لتكريمهن ، ولكنهن لم يكن يمارسن أى عمل كهنوتى. ويسمح البابا كذلك بوجود بطريق مارونى يعينه بجمع الكرادلة ويحمل من وجهة النظر القانونية لقب أسقف أنطاكية . ولكن لا البطريرك ولا الأساقفة الاثنا عشر التابعون له لهم الحق فى الزواج .

٥ - القـــروان

وذهبنا فى اليوم التالى لاصطحاب الأب آدم إلى عنتورة . انها مبنى على شىء من الاتساع فوق شرفة تشرف على البلاد كلها ، وفى أسفلها توجد حديقة شاسعة مزروعة بأشجار البرتقال الضخمة . ويخترق سور الحديقة جدول ينساب من الجبال ويتلقاه حوض كبير . والكنيسة مبنية خارج الدير الذى يتكون من الداخل من مبنى على شىء من الاتساع مقسم إلى صفين من الصوامع . ويهتم القساوسة كغيرهم من رهبان الجبل بزراعة أشجار الزيتون والكروم . وقد فتحوا فصولا لتعليم أبناء البلد . وتضم مكتبتهم الكثير من الكتب المطبوعة فى الجبل ، وذلك لأن بعض الرهبان هنا من أصحاب المطابع . بل وقد وجدت فيها مجموعة من مجلة يومية تسمى «ناسك الجبل» ، توقف صدورها منذ بضع سنوات . وقد أخبرنى الأب آدم أن أول مطبعة قد أنشئت منذ مائة عام فى بلدة القديس حنـــا ، وقد أنشأها رجل دين من حلب يدعى عبد الله زكير ، وكان يحفر الحروف ويصبها بنفسه . وكثير من الكتب الدينية وكتب التاريخ، بل وحتى مجموعات من القصص قد خرجت من هذه المطابع المباركة . ومن الطريف أن نرى ونحن نمر تحت جدران دير أوراقاً مطبوعة تجف فى الشمس .

وعلى كل فإن رهبان لبنان يمارسون كل أنواع المهن، ولا يمكن لأحد أن يوجه إليهم لوماً على الكسل .

وبخلاف الأديرة الكبيرة العدد للعزاريين واليسوعيين الأوربيين ؛ الذين يتصارعون النفوذ اليوم وليسوا على حالة دائمة من الصداقة يوجد فى القسروان حوالى مائتى دير للرهبان النظاميين ، هذا عدا عدد كبير من الصوامع فى بلاد القديس اشعيا . ونصادف كذلك عـــدداً كبيراً من أديرة النساء

وأغلبها مخصص للتعليم . فهل كل هذا لا يكون هيئة دينية جديرة بالاعتبار بالنسبة لبلد يتكون من مائة فرسخ مربع وعشرة ، ولا يزيد سكانه عن مائتى ألف نسمة ؟ حقيقة أن هذا الجزء من فينيقيا القديمة قد اشتهر دائماً بحرارة العقيدة . وعلى بعد بضعة فراسخ من النقطة التى كنا نقف عندها ينساب نهر ابراهيم ، الذى كان يدعى قديماً « أدونيس » والذى يتلون كذلك باللون الأحمر فى الربيع،فى الموسم الذى كانوا يكون فيه قديماً موت الكائن الرمزى المقرب إلى فينوس . وعلى مقربة من المكان الذى يصب فيه هذا النهر فى البحر تقع مدينة « جبيل » ، وهى مدينة بيبلوس القديمة ، حيث ولد أدونيس ، وهو كما نعرف أبن سينير وميرا ، ابنةذلك الملك الفينيقى نفسه .

إن ذكريات الأساطير هذه ، وتلك العبادات والتكريم الدينى الذى يسبغ منذ القدم على هؤلاء المتزوجين بالمحارم أوالزانين فى عرف المسيحية يثير رجال الدين الطيبين من العازاريين . أما الرهبان المارونيون فيسعدهم أن يجهلوا ذلك جهلا عميقاً .

وتفضل الأمير فصحبنى وتولى إرشادى فى كثير من الرحلات خلال مقاطعة قسروان تلك التى لم أكن أظنها بمثل هذا الاتساع ولا بمثل هذه الكثافة فى السكان . ومدينة جزير ، المدينة الرئيسية ، التى يوجد بها خمس كنائس ويسكنها ستة آلاف نفس ، هى مقر أسرة حبيش ، وهى إحدى ثلاث أسر من أعرق أسر الشعب المارونى ، أما الأسرتان الأخريان فهما أسرتا أفاك وخازن . وسلالة هذه البيوت الثلاثة تعد بالمئات . والعادة اللبنانية التى تحتم تقسيم الثروة بالتساوى بين الإخوة قللت كثيرا بالضرورة من دخل كل منهم . وهذا يفسر المزاحة المحلية التى تسمى بعض هؤلاء الأمراء «أمراء الزيتون والجبن » ، مشيرة بذلك إلى ضآلة مواردهم .

وأكثر الملكيات اتساعاً تنتمى إلى أسرة خازن التى تقطن فى « سوق ميكل » وهى مدينة أشد ازدحاماً من جزير ،وقد أسهم لويس الرابع عشر

كثيراً فى مجد تلك الأسرة ، إذ منح كثيراً من أفرادها وظائف قنصلية . وتوجد خمسة بنادر فى جزء المقاطعة المسمى بقسروان جزير ، وثلاثة فى قسروان بكفيا الواقعة جهة بعلبك ودمشق . وكل من هذه البنادر له حاضرة يحكمها عادة أحد الأمراء ، واثنتا عشرة قرية أو « خورية » تقع تحت سيطرة الشيوخ . وهكذا ينتهى البنيان الإقطاعى فى تشكيله هذا إلى أمير المقاطعة الذى يستمد هو نفسه سلطته من الأمير الكبير القاطن فى « دير القمر » . ولما كان هذا الأخير دائما أسير الترك فقد عهد بسلطته إلى اثنين من القائمقامات ، أى الحكام ، أحدهما مارونى والآخر درزى، وهما مضطران إلى أن يعهدا بالمسائل السياسية إلى الباشوات .

وهذا النظام من مساوئه خلق عداوة على المصالح والنفوذ بين الشعبين لم تكن توجد إلا حينما كانا يعيشان مجتمعين تحت لواء أمير واحد . وهكذا قلبت الفكرة الكبيرة التى اتخذها الأمير فخر الدين والتى تقضى بخلط الشعبين وبإزالة عصبيات الجنس والدين بينهما ، وجرى الاتجاه إلى تكوين شعبين عدوين ، حيث لم يكن يوجد سوى شعب واحد تربطه أواصر التضامن والتسامح المشتركة .

ونتساءل أحياناً كيف أن كبراء لبنان قد توصلوا إلى تحقيق الميل والإخلاص لأنفسهم من كل هؤلاء القوم ذوى الأديان المختلفة . وقد كان الأب آدم يقول لى فى هذا الصدد إن الأمير بشير كان مسيحياً بتعميده ، تركيا بنوع الحياة التى يحياها ودرزيا بوفاته ، إذ أن للدروز منذ القدم حقا لا يناقش فى دفن كبراء الجبل . وقد قص على كذلك قصة محلية مماثلة . ذلك أن درزيا ومارونيا كانا رفيقى طريق فتساءلا : « ترى أى دين يعتنق أميرنا ؟ فقال أحدهما : « انه درزى» ، وقال الآخر « إنه مسيحى » . وتصادف أن متوليا (وهو رجل دين مسلم) كان يمر آنذاك فاتخذاه حكماً . ولم يتردد فى تقديم الإجابة التالية :

« إنه ترك » ، واتفق هؤلاء القوم الطيبون ،وقد تبلبلت أفكارهم أكثر من ذى قبل على الذهاب للأمير وأن يطلبوا إليه التوفيق بينهم . واستقبلهم الأمير بشير استقبالا طيباً ، ولما علم بما بينهم من خلاف قال وهو يلتفت إلى وزيره « إن أمر هؤلاء القوم لغريب ،فلتقطع رؤوس ثلاثتهم!» ودون حاجة إلى المبالغة فى تصديق هذه القصة الدامية ، واستخلاص مغزاها ، فإنه يمكن منها التعرف على السياسة الأبدية لكبار أمراء لبنان . صحيح أنه من المؤكد الذى لا يقبل الشك أن قصورهم تضم كنيسة ومسجدا وخلوة (أى معبد درزى) . لقد حقق ذلك انتصار سياستهم لمدة طويلة ،وربما كان ذلك فى نفس الوقت الصخرة التى اعترضت سبيل تلك السياسة .

٦ - معركة

وتقبلت فى سعادة حياة الجبال تلك فى جو معتدل وسط عادات لا تكاد تختلف عن العادات التى نراها فى مقاطعاتنا فى الجنوب . وكان فى ذلك إراحة من عناء الأشهر الطويلة الماضية تحت شمس مصر الحارة . أما عن الناس فقد كانوا هم الذين تحتاج إليهم النفس إذ نجد لديهم الميل إلينا ، ذلك الميل الذى لا نجده أبداً كاملا لدى المسلمين ، أو الذى تعترضه لدى أغلبهم تعصبات الجنس . وقد وجدت فى القراءة والحديث والأفكار تلك الأشياء التى تمت إلى أوربا والتى نهرب منها بدافع الملل والتعب إلا أننا نعود فنحلم بها بعد فترة من الوقت، كما نحلم بغير المتوقع وبالغريب أو بالأحرى بالمجهول. وليس فى ذلك اعتراف بأن عالمنا يساوى أكثر من هذا العالم ، إلا أن فيه عودة لا شعورية إلى انطباعات الطفولة وتقبل للنير المشترك .

ونقرأ فى مقطوعة شعرية « لهنرى هاينه » مديحاً موجها لشجرة بلوط من الشمال مغطاة بالثلوج تتوق إلى رمال الصحراء القاحلة وسمائها حينا ، تتوق فى نفس اللحظة نخلة أحرقها جو سهول القاهرة القاحلة إلى التنفس وسط ضباب الشمال والاستحمام فى ثلوجه الذائبة وإلى غمس جذورها فى تربته الثلجية .

بروح هذا التناقض والقلق كنت أفكر فى العودة إلى السهل ، وكنت أقول لنفسى اننى لم آت إلى الشرق لكى أقضى وقتى فى منظر من مناظر جبال الألب . ولكن ذات مساء سمعت الناس جميعا يتحدثون بقلق . كان الرهبان يهبطون من الأديرة المجاورة مرتاعين ، كان الناس يتحدثون عن الدروز الذين قدموا فى أعداد كبيرة من مقاطعاتهم وانقضوا على المناطق المختلطة العزلاء بأمر من باشا بيروت . وقد احتفظ القسروان الذى ينتمى إلى باشا

طرابلس بأسلحته . ومعنى هذا أنه ينبغى الذهاب ومساندة إخوة بلاسلاح، ينبغى عبور نهر الكلب وهو الحد الفاصل بين الإقليمين ، وهو يشبه نهر رو بيكون(١) ، والذى لا يعبره الناس إلا فى الظروف الخطيرة . واندفع رجال الجبال المسلحون بفارغ الصبر حول القرية وفى المراعى . وكان الفرسان يجوبون القرى المجاورة ، وهم يرسلون صيحات الحرب القديمة : « الله أكبر وحى على الجهاد » .

وانتحى بى الأمير ناحية، وقال لى : «إننى لاأدرى ماالأمر ، إنالتقارير التى تقدم إلينا ربما كانت مبالغا فيها ، ولكننا سنقف على كل حال على أهبة الاستعداد لنجدة جيراننا . إننجدة الباشوات تأتى دائما بعدحدوثالبلاء... أما أنت فتحسن صنعاً بالذهاب إلى دير عنتورة أو العودة إلى بيروت عن طريق البحر . فقلت له :

لا ، دعنى أرافقك . إذلما كان من سوء حظى أن ولدت فى عصر لم ير من الحروب إلاالقليل ، فلم أر المعارك إلا فى داخل مدننا الأوربية ، وهى معارك تعسة ! إن جبالنا نحن كانت مجموعات من المنازل ووديانتا ميادين وشوارع ! وكم أتمنى فى حياتى شهود كفاح كبير ، حرب دينية . وكم يكون جميلا أن أموت فى سبيل القضية التى تدافعون عنها » .

لقد كنتأقول ذلكوأفكرفيه ، وقد تملكنى الحماس المحيطبى. وقضيت الليلة التالية أحلم بالانتصارات التى سوف تفتح أمامىقطعاً أحسن المصائر

وفى مطلع النهار حين امتطى الأمير صهوة جواده فى الفناء مع رجاله كنت أعد نفسى لأحذو حذوه . إلا أن الصبى موسى اعترضنى فى إصرار ومنعنى من استعمال الجواد الذى استأجرته فى بيروت:لقدكانمكلفابإعادته حيا ، وكان على حق إذ يخشى مجازفات حملة حربية مثل هذه .

وأدركت ما فى اعتراضه من صواب وقبلت جواداً من جياد الأمير

---

(١) نهر صغير كان يفصل بين إيطاليا والغال خلف الإلبيه .

واجتزنا أخيراً النهر ، ولم نكن نزيد على اثنى عشر فارساً وسط حوالى ثلاثمائة رجل .

وبعد مسيرة أربع ساعات توقفنا قرب دير «القديس حنا» حيث انضم إلينا الكثير من رجال الجبل . وقدم لنا الرهبان الباسيليون الغذاء، ولكنهم كانوا يرون أن نتريث : فلم يكن ثمة ما يؤكد أن الدروز قد أغاروا على البندر . ومع ذلك فقد كان المنضمون إلينا من غير المسلمين يرون غير ذلك، وقررنا الاستمرار فى التقدم . وكنا قد تركنا الخيل لاختصار الطريق وسط الغابات .

وقرب حلول المساء ، وعلى أثر بضعة تحذيرات سمعنا بضع طلقات تتردد وسط الصخور .

وكنت قد انفصلت عن الأمير ، وأنا أعبر شاطئا لأصل إلى قرية كنا نراها فوق الأشجار ، وألفيت نفسى مع بضعة رجال أسفل درج من الشرفات المزروعة . وبدا على الكثير منهم أنهم يتفقون على أمر ما ، ثم أخذوا فى مهاجمة سور الصبار الذى يكون حاجزا .

وظنا منى أن الأمر يتعلق بالدخول إلى أعداء مختبئين حذوت حذوهم مستعملا سيفى . وتدحرجت الأوراق الشوكية العريضة على الارض، وكأنها رؤوس مقطوعة ولم تلبث الثغرة أن فتحت لنا طريقاً للمرور. وهنا انتشر رفاقى فى الأرض المسورة، ولما لم يجدوا أحداً أخذوا يضربون بفئوسهم جذوع أشجار التوت والزيتون فى غيظ غريب . ولما رأى أحدهم أننى لا أفعل شيئاً هم بضربى ضربة من فأسه ، ولكنى تمكنت من صده ، وكان منظر التخريب يجعلنى فى حالة ثورة . وأدركت أن المكان الذى كنا فيه لم يكن سوى الجزء الدرزى من قرية بيت مرى الذى استقبلت فيه أحسن استقبال منذ بضعة أيام مضت .

ولحسن الحظ رأيت من بعيد الجزء الأكبر من رجالنا يتقدم فوق الهضبة ولحقت بالأمير الذى كان يبدو فى حالة غيظ شديد . واقتربت منه لأسأله ما إذا لم يكن لنا من أعداء نحاربهم سوى أشجار الصبار والتوت . إلا أنه كان يأسف فعلا على كل ما حدث ، وكان منهمكا فى منع إشعال النار فى المنازل . ولما رأى بعض المارونيين يقتربون حاملين أفرع البلوط المشتعلة أمرهم بالعودة . وأحاط به المارونيون وهم يصيحون : « لقدفعل الدروز هذا بالمسيحيين ، واليوم نحن أقوياء ويجب أن نكيل لهم بالمثل » .

وتردد الأمير إزاء هذه الكلمات، لأن قانون القصاص مقدس بين رجال الجبل . فالقتل جزاؤه قتل آخر ، وكذلك الإتلاف والحريق . وحاولت أن أجعله يلاحظ أنهم قد قطعوا فعلا الكثير من الأشجار، وأن هذا يمكن أن يعتبر تعويضاً . لكنه وجد سببا أقوى يختم به الموضوع فقال لهم : «ألا ترون أن الحريق سوف يشاهد فى بيروت؟ وسوف يرسل الألبانيون من جديد إلى هنا ! »

وانتهى هذا الاعتبار بتهدئة الخواطر . ومع ذلك فلم يجدوا فى البيوت سوى شيخ معمم بعمامة بيضاء فاقتادوه . وقد عرفت فيه للتو الرجل الطيب الذى عرض على لدى مرورى ببيت مرى أن أستريح لديه . واقتادوه أمام الشيخ المسيحى الذى كان يبدو عليه بعض الضيق لهذا المهرج والذى كان يسعى، كما كان يفعل الأمير إلى قمع الاضطراب. وكان الشيخ الدرزى يحتفظ بمظهر جاد هادىء ، وقال وهو ينظر إلى الأمير :

« السلام عليك ياميران ، ماذا أتيت تفعل هنا؟

فقال الأمير :

— أين إخوتك ؟ لقــــد هربوا بلا شك وهم يلمحوننا من بعيد »

فقال الشيخ :

— « إنك تعلم أن ذلك ليس من عاداتهم، ولكنهم كانوا نفرا قلة ضد شعبك بأسره . وقد اصطحبوا النساء والأطفال بعيداً عن هنا . أما أنا فقد أردت البقاء .

— « ومع ذلك فقد قيل لنا إنكم دعوتم الدروز فى الجبل الآخر وأن عددهم كبير .

— لقد خدعوكم. لقد أصغيتم إلى رجال السوء ، الأجانب الذين يسرهم أن تقطع رقابنا ، حتى يأتى إخوتنا إلى هنا لينتقموا لنا منكم ! »

وقد ظل الشيخ واقفا خلال هذا الشرح . وبدا أن الشيخ الذى كنا فى ضيافته قد تأثر لهذا القول، فقال له : « أتظن أنك أسيرهنا ؟ لقدكنا أصدقاء فى الماضى ، لماذا لاتجلس معنا ؟ » فقال الشيخ الهرم :

— « لأنك فى بيتى .

وقال الشيخ المسيحى :

— « هيا ، لننس كل هذا . اجلس على هذه الأريكة، وسوف يحضرون لك القهوة والغليون .

فقال الشيخ :

— ألا تعلم أن الدرزى لايقبل شيئاً مطلقا من الترك أو من أصدقائهم، خوفا من أن يكون ما يقدم إليه إنما هو من الضرائب الباهظة الظالمة ؟

— أصديق للترك أنا ؟ إننى لست كذلك !

— ألم يجعلوا منك شيخا ، فى حين كنت أنا ذلك الشيخ فى القرية فى عهد إبراهيم ، وفى ذلك الوقت كان شعبك وشعبى يعيشان معاً فى سلام ؟ ألست أنت كذلك الذى ذهبت تشكو إلى الباشا من أجل مسألة شغب ، بيت أحرق أو شجار وقع بين جيران طيبين كان فى إمكاننا تسويته بسهولة فيما بيننا؟ »

وهز الشيخ رأسه دون أن يجيب . إلا أن الأمير منع أى تفسير حين خرج من البيت وهو يمسك بالدرزى من يده ويقول له :

« سوف تتناول معى القهوة ، أنا الذى لم يقبل شيئا من الترك » .

وأمر « القهوجى » بأن يقدم لهما القهوة تحت الأشجار .

وقال الشيخ الهرم : لقد كنت صديقا لوالدك ، وفى هذا الوقت كان الدروز والمارونيون يعيشون معاً فى وئام .

وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث طويلا عن العهد الذى كان فيه الشعبان متحدين تحت حكم أسرة شهاب ، ولم يكونا تحت رحمة تسلط المنتصرين .

واتفق على أن يعود الأمير بجميع أتباعه ، وأن يعود الدروز إلى القرية دون طلب النجدة من بعيد ، وأن تعتبر الخسائر التى حدثت لديهم مقابلا للحريق الذى حدث من قبل فى بيت من البيوت المسيحية .

وهكذا انتهت هذه الحملة المروعة التى منيت فيها نفسى بالحصول على كثير من المجد ، إلا أن جميع المشاجرات فى القرى المختلطة لا يتسنى لها الحصول على حاكم مصلح كالأمير أبى ميران . ومع ذلك فينبغى القول بأنه إذا كنا نستطيع أن نذكر بعض حوادث القتل الفردية فإن المشاجرات عموماً

نادراً ما تكون دامية . إنها أشبه شيء بالمعارك الأسبانية ، حيث يتطارد فيها المتشاجرون فى الجبال ، دون أن يلتقوا الآن أحد الطرفين يختفى دائما إذا كان الطرف الآخر قويا . إنهم يصيحون كثيرا ويحرقون المنازل ويقطعون الأشجار ، ولا يعطينا عـــدد الموتى سوى النشرات التى يحررها المغرضون .

وفى واقع الأمر إن هذين الشعبين يكنان التقدير لبعضهما البعض أكثر مما نظن ، ولا يستطيعان نسيان الروابط التى كانت تربط بينهما فى الماضى . لقد ذاقا العذاب والإثارة إما على يد المبشرين أو على يد الرهبان لصالح النفوذ الأوربى ، ولذا فإنهما يسوسان بعضها البعض على طريقة « الكوندوتييرى » فى الماضى ، الذين كانوا يشنون المعارك الكبار دون إراقة للدماء . إن الرهبان يقومون بالوعظ فيبتغى حمل السلاح ؛ والمبشرين الإنجليز يلقون الخطب الطنانة ويدفعون المبالغ الطائلة فيجب أن يظهروا شجاعتهم، ولكن فى باطن كل هذا يوجد الشك وثبوط الهمم. إن كل فرد يفهم فعلاماذا تريد بهم بعض القوى الأوربية التى تفرقها الأهداف والمصالح، إلا أن قصر نظر الأتراك يساعدهم . وهم يظنون أنهم بإثارة المعارك فى القرى المختلطة يثبتون ضرورة الفصل الكامل بين الجنسين اللذين كانا فى الماضى متحدين ومتضامنين . إن العمل الذى يتم الآن فى لبنان تحت اسم نشر السلام عبارة عن تبادل الملكيات فيعطى للسيحيين مايملكه الدروز فى مناطقهم، كما يعطى للدروز مايملكه المسيحيون فى مناطقهم؛ وهكذا يتوقف الصراع الداخلى الذى بولغ فيه كثيراً . إلا أن ذلك سوف يتسبب فى إيجاد شعبين متميزين تماماً ، وربما فرضت على أحدهما الحماية النمساوية وعلى الآخر الحماية الإنجليزية . وسوف يكون من العسير حينئذأن تسترد فرنسا نفوذها الذى كان فى عصر لويس الرابع عشر مبسوطا على الدرزى والمارونى على حد سواء .

وليس لى أن أصدر حكما على مسائل لها مثل هذه الخطورة. ولكننى سوف آسف لأننى لم أشترك فى لبنان فى معارك (هومرية)[1] أكثر من ذلك.

واضطررت إلى مفارقة الأمير بعد قليل، لأذهب إلى نقطة أخرى فى الجبل. وفى هذا الوقت كان صيت مسألة بيت مرى يكبر ويكبر فى طريق بفضل خيال الرهبان الإيطاليين الفائز، واكتسبت المعركة التى حدثت ضد أشجار التوت أبعادا وهمية ونسباً خيالية من حروب الصليبين وذكراها.

---

(١) نسبة لهومير شاعر اليونان وخلد حروب اليونان فى إلياذته الخالدة.

- ٢ -

السجين

١ — الصباح والمساء

ما تقول عن الشباب ياصديق ! لقد تخطينا سنواته الفائرة الحارة ، ولم يعد ينبغي أن نتحدث عنه إلا بتواضع، ومع ذلك فلم نكد نعرفه ! لم نكد ندرك أننا لابد أن نصل قريبا إلى أن نغني لأنفسنا أنشودة هوراس . ولما نكد نتعلم كيف نشرحها (١) .. آه ! إن الدراسة قد سلبتنا أجمل لحظات العمر ! إن النتيجة الكبرى لكل هذا الجهد الضائع هي أن نستطيع مثلا ، كما حدث لي هذا الصباح ، أن نفهم معنى أغنية يونانية ترن في أذني ، وهي تخرج من فم أحد البحاره الشرقيين وقد التوى بتأثير النبيذ .

لا صباح الخير ! ولا مساء الخير

هذا هو المقطع الذي كان يردده هذا الرجل ويلقي به بلا اكتراث إلى نسيم البحر وإلى الأمواج الصاخبة التي تضرب الشاطىء : لا صباح الخير ! ولا مساء الخير ! ،

هذا هو المعنى الذي فهمته من هذه الكلمات ، وقد تضمنت الأبيات الأخرى لهذه الأغنية الشعبية ، على ما أظن ، هذه الفكرة التالية :

لقد ولى الصباح ولم يأت المساء بعد !

---

(١) يشير إلى قصيدة هوراس التي أولها . زمان يفر وميلاد بعد موت إلخ.

ومع ذلك فقد شحب الضياء من أعيننا .

ثم يردد الترنيمة الأولى :

لا صباح الخير ! ولا مساء الخير .

إلا أن الأغنية تضيف :

ولكن المساء القرمزى يشبه الفجر

والليل فيما بعد يأتى بالنسيان ؟

يا له من عزاء حزين أن نفكر فى أمسيات الحياة القرمزية تلك ، وفى الليل الذى سوف يتبعها ! وسوف نصل سريعا إلى تلك الساعة الجليلة التى لا هى بالصباح ولا هى بالمساء ، ولا يستطيع شىء فى العالم أن يجعلها غير ذلك ، وأى دواء سوف تجده فيها ؟ .

أما أنا فأجد لنفسى دواء . ألا وهو الاستمرار فى الحياة على هذا الشاطىء الآسيوى الذى ألقانى إليه القدر، إذ يبدو لى منذ أشهر قليلة أنى قد عدت إلى أيامى الأولى ، وصرت أشعر بأنى أكثر شبابا ؛ والواقع أنى أصبحت أكثر شبابا ، وكأنما ليس لى من العمر سوى عشرين عاماً !

إننى أجهل لماذا يهرم المرء سريعا فى أوربا . إن أجمل سنوات حياتنا نقضيها فى المدرسة ، بعيدا عن النساء . وما إن نجد الوقت لنرتدى ثوب الرجولة حتى نجد أنفسنا قد هرمنا ولم نعد شبانا ، وتستقبلنا عذراء الحب الأول بضحكة ساخرة ، وربما أخذت النساء الجليلات الأكثر خبرة يحلمن إلى جوارنا بتنهدات شيروبان (١) الغامضة .

(١) شيروبان شخصية هزلية فى مسرحية « زواج فيجارو » لبومارشيه .

ولا نشك فى أن هذا من تقاليدنا ، لاسيما فى أوربا حيث يندر وجود الرجال من طراز شيروبان . ولا أعرف شيئاً أسوأ صنعا وأقل جمالا ،فى كلمة واحدة، من الأوربى فى سن السادسة عشرة. إتنانلوم الفتيات الصغيرات جداً لاحمرار أيديهن ونحول أكتافهن والتواء حركاتهن وارتفاع أصواتهن. ولكن ماذا تقول فى المراهق ذى الخطوط الخارجية الهزيلة الذى يتسبب فى خيبة أمل مجالس التربية والمراجعة لدينا ؟ ولا تتخذ الأعضاء أشكالها ، ولا تظهر الخطوط الخارجية ولا تتكون العضلات واللحم بقوة فوق الجهاز العظمى للشباب إلا فيما بعد حين يتكون الرجل .

أما فى الشرق فالأطفال ربما كانوا أقل جمالا عما هم لدينا، فأطفال الأغنياء مكتنزون وأطفال الفقراء هزيلون وبطونهم ضخمة لاسيما فى مصر . إلا أن السن الثانية جميلة عادة لدى كلا الجنسين ؛ فعلى الشبان سيماء النساء ومن، نراهم منهم فى ملابسهم الطويلة لا نكاد نميزهم عن أمهاتهم وأخواتهم .

ولكن لهذا السبب لا يصبح الرجل موضع إغراء فى الحقيقة إلا حين تضفى عليه السنون مظهر الرجولة ، وعلى ملامحه طابعا أكثر وضوحا . والعاشق الأمرد لا تكترث له نساء الشرق، حتى أن من أعطته السنون لحية جليلة جيدة التكوين تعرض له مئات الفرص لكى يصبح ملتقى الأعين الملتهبة التى ترسل بريقها من خلال ثقوب اليشمك ، أو التى لا يكاد النقاب الشفاف الأبيض يخفى سوادها .

ولتدرك جيدا أنه فى هذا الوقت الذى تكتسى فيه الخدود بالشعر الكثيف يأتى زمن الامتلاء الذى يجعل الجسم أكثر جمالا بلاشك، ولكنه يجعله يبدو غير أنيق ألبتة تحت ثياب أوربا الضيقة التى يبدو معها أنتينوس(١) نفسه ، كما لو كان قرويا غليظا . وهذا هو الوقت الذى تأتى فيه الثياب الفضفاضة

---

(١) أنتينوس : عبد ذو جمال رائع كان العبد المفضل للامبراطور أدريان .

الفضفاضة والسترات المطرزة والسراويل ذوات الثنيات والأحزمة العريضة التى تبرز منها أسلحة الشرقيين ، لتضفى عليهم مظهراً هو من أكثر المظاهر جلالا . ولنتقدم مرحلة أخرى : ها هى خيوط الفضة تختلط باللحية وتغزو الشعر ، الذى يزداد بياضا . ومنذ ذلك الحين ينبغى لأكثر الرجال عندنا نشاطاً وقوة وأقدرهم على العواطف والحنان أن يعدل إطلاقاً عن كل أمل فى أن يصبح بطلا من أبطال الروايات . أما فى الشرق فتلك هى أجمل فترات الحياة ؛ فتحت الطربوش أو العمامة لا يهم فى شىء أن يصبح الشعر خفيف الكثافة أو يغلب عليه الشيب ، بل إن الشبان أنفسهم لم يستطيعوا الإفادة من تلك الزينة الطبيعية فهم حليقو الرءوس . والشاب يجهل منذ المهد ما إذا كانت الطبيعة قد جعلت شعره مسترسلا أو مجعداً . وإذا صبغ الرجل شعر رأسه بمزيج فارسى وكحل عينيه بظل خفيف من الكحل فإنه يصبح واثقاً من أن يحوز الإعجاب حتى سن الستين طالما كان يشعر بالقـــدرة على الحب .

نعم ، لكن شبابافى أوربا مااستطعنا إلى ذلك سبيلا ، ولكن لنذهب ونهرم فى الشرق، بلد الرجال الجديرين بهذا الاسم وأرض البطارقة ! ففى أوربا حيث ألفت الأنظمة القوة المادية غدت المرأة ذات نفوذ مفرط فى القوة . وبكل قوة الإغراء والحيلة والمثابرة والإقناع التى منحتها لها السماء ، فإن المرأة فى بلادنا أصبحت من الناحية الاجتماعية نداً للرجل ، وهذا أكثر مما يجب لكى يصبح هذا الأخير منهزماً على طول الخط . وآمل ألا تعترض على بتقديم لوحة سعادة الأسر الباريسية لكى تثنينى عما صممت عليه من حيث مستقبلى .

وقد أسفت إذ تركت مناسبة مشابهة تفلت منى فى القاهرة . ينبغى أن أرتبط بإحدى الفتيات الصافيات القلب فى هذه الأرض المقدسة ، التى هى

الوطن الأول لنا جميعاً ، وأن أرطب نفسي بينا بيعها المنعشة للإنسانية التي انبثقت منها أشعار آبائنا وعقائدهم .

إنك لتضحك من هذا الحماس الذي أعترف أنه انصب على مواضيع شتى منذ بداية الرحلة . ولكن لتذكر جيداً كذلك أن الأمر يتعلق بقرار خطير وأن ليس ثمة شعور طبيعي أكثر من التردد في هذا المجال . إنك تعرف ذلك وربما كان هذا هو ما جعل نجواى حتى الآن شيقة بعض الشيء ، فأنا أحب أن أوجه حياتي كقصة ويطيب لي أن أضع نفسي مكان أحد هؤلاء الأبطال الإيجابيين ذوي الرأي الثابت الذين يصممون بأي ثمن على خلق جو من « الدراما » والعقد والتشويق حولهم ، أي في كلمة واحدة الحركة . والقدر مهما كانت قوته لم يجمع أبداً عناصر موضوع مقبول ولم يفعل ، على أكثر تقدير ، إلا ترتيب الإخراج . ولذا فلنتركه يفعل ، ويفشل كل شيء رغم أفضل الترتيبات . ولما كان من المتفق عليه أن هناك نوعين من الخواتيم الزواج أو الموت ، فلنهدف على الأقل إلى أحدهما . . إذ أن مغامراتي حتى الآن قد توقفت دائماً لدى العرض : ولم أكد أتم جزءاً يسيرا من القصة ، بأن ربطت مصيري بالجارية اللطيفة التي باعني إياها عبد الكريم .

ولم يكن الأمر صعبا بكل تأكيد ، إلا أنه كان يتطلب إيجاد الفكرة وخصوصاً إيجاد المال . وقد ضحيت من أجل ذلك بكل أمل في القيام بجولة في فلسطين ، وقد كان ذلك مقرراً في خطتي ، وكان لا بد من العدول عنها . فبالخمسة أكياس التي كبدتني إياها فتاة الملايو الذهبية تلك كان في استطاعتي زيارة فلسطين وبيت لحم والناصرة والبحر الميت والأردن !

وكما حدث للنبي الذي عاقبه الله فقد توقفت على حدود أرض الميعاد ، ولم أكد من أعلى الجبل أن ألقي عليها نظرة يائسة . وقد يقول أصحاب الجد هنا : إن المرء يخطىء دائماً إذا تصرف مخالفا للناس جميعاً ويقلد الترك

بينما هو ليس إلا ناصريا من أوربا ، فهل هم على حق؟ من يعلم؟ .

مما لا شك فيه أننى غير حذر ، ومما لا شك فيه أننى قد ربطت حجراً ضخماً فى عنق ، وكذلك مما لا شك فيه أننى قد تحملت مسئولية أدبية كبيرة. ولكن ألا ينبغى كذلك الاعتقاد فى القضاء والقدر الذى ينظم كل شىء فى هذا الجزء من العالم؟ إنه القضاء والقدر الذى شاء أن يجعل نجم زينب المسكينة يلتقى بنجمى وأن أغير ، ربما لصالحها ، ظروف مصيرها ! أهذا عدم حذر ! هأنتذا ما زالت تحمل معتقداتك الأوربية ! ومن يدرى فلعلى لو كنت قد اتخذت طريق الصحراء وحدى ومعى خمسة أكياس فوق ماممى لهاجمتنى عصابة من البدو وسلبتنى وقتلتنى فربما تكون قد شمت من بعيد رائحة ثروتى ! حسن ! إن كل ما حدث وكان من الممكن أن يكون أسوأ يعتبر حسنا كما عرفت الأمم ذلك منذ أمد طويل .

وربما ظننت إزاء تلك الترتيبات أننى قد اتخذت قراراً بالزواج من جارية هندية، وقررت التخلص بهذه الطريقة المبتذلة من تعصبى الدينى . إنك تعلم أننى على قدر من الحساسية لا يبيح لى التفكير لحظة واحدة فى إعادة بيعها. لقد منحتها حريتها فرفضتها وهذا لسبب بسيط بعض الشىء وهو أنها لن تعــــرف ماذا تفعل بها ، ثم إننى لم أضف إليها التوابل التى كانت تحتمها تضحية جميلة كهذه ، ألا وهى منحها منحة تكفى لوضع الشخص المعتق فوق الاحتياج ، ذلك أنهم قد بينوا لى أن ذلك هو المتبع فى مثل هذه الحالات. ولكى أحيطك علما بالصعاب الأخرى التى تحيط بموقفى ينبغى أن أقص عليك ما حدث لى منذ قليل .

٢ — زيارة للمدرسة الفرنسية

عدت بعد رحلتي إلى الجبل إلى « نزل » السيدة كارليس ، حيث كنت قد أنزلت زينب المسكينة ، ولم أشأ أن أصحبها في مثل تلك الجولات الخطرة .

كان ذلك في بيت من تلك البيوت العالية ، ذات الهندسة الإيطالية التي يحيط بناؤها ذو الرواق الداخلي بمساحة واسعة نصفها شرفة ونصفها فناء يرفرف عليها ظل ستارة مخططة . وقد كان ذلك البناء فيما مضى مقر قنصلية فرنسا ، ومازالت تشاهد على واجهاته الشعارات المزينة بأزهار الزنبق التي كانت في الماضي مذهبة . وكانت أشجار البرتقال والرمان المزروعة في ثقوب مستديرة صفت بين بلاط الفناء تشيع البهجة قليلا في ذلك المكان المنعزل من جميع الجهات عن الطبيعة الخارجية . وكلما كان يظهر لتلميذات المدرسة المسكينات من الأفق هو جزء من السماء الزرقاء التي تبدو من خلال حديد السور والتي تخترقها من وقت لآخر حمائم المسجد القريب . وتبادر إلى سمعي منذ مدخل المدرسة طنين الدروس التي تلقى ، ولما صعدت سلم الطابق الأول ألفيت نفسي في رواق من الأوروقة التي تسبق المساكن . وهناك فوق حصير هندي كانت الفتيات الصغيرات يكون حلقة ، وقد جلسن القرفصاء على الطريقة التركية حول أريكة كانت تجلس عليها السيدة كارليس ، وكانت أكبر فتاتين فيهن تجلسان بالقرب منها وقد تعرفت في إحداهن على الجارية التي أقبلت على وهي ترسل تهليلات الفرح .

وأسرعت السيدة كارليس وقادتنا إلى غرفتها تاركة مكانها للفتاة الكبيرة الثانية التي بمجرد أن لمحتني أسرعت ، بحركة فطرية طبيعية لدى نساء هذا البلد

بإخفاء وجهها بكتابها. قلت لنفسى: إنها إذن ليست مسيحية، إذ أن المسيحيات يظهرن دون صعوبة داخل المنازل . وكل ما استطعت أن ألمحه من مظهرها الرشيق هو ضفائر شعرها الذهبي الطويلة المختلطة بحبال رفيعة من الحرير ويديها البيضاوين ذات الأصابع الطويلة النحيلة والأظافر الطويلة التى تدل على جنسها ؛ أما سائر مافيها فلم أكد ألتفت إليه .

وكنت على شوق لمعرفة كيف تعيش الجارية فى وضعها الجديد .

يا للفتاة المسكينة ! لقد كانت تذرف الدموع الحارة وهى تضغط يدى فوق جبينها . وكنت شديد التأثر دون أن أعرف بعد ما إذا كان لديها من الشكاوى ما تبثنى إياهـــا ، أو ما إذا كانت غيبتى الطويلة هى سبب هذا الاندفاع .

وسألتها ما إذا كانت تطيب لها الإقامة فى هذا البيت ، فألقت بنفسها بين ذراعى مدرستها وهى تقول إنها أمها . .

وقالت لى مدام كارليس بلهجة إقليم بروفانس : « إنها طيبة جداً إلا أنها لا تريد أداء أى عمل، وهى تتعلم بعض الكلمات مع الصغيرات فحسب ،أما إذا أردنا تعليمها الكتابة أو الحياكة فهى لا تريد . وقد قلت لها : « إننى لا أستطيع معاقبتك ، فإذا عاد سيدك فسيرى كيف يتصرف معك » .

ولقد ضايقنى كثيراً هذا الذى ذكرته لى مدام كارليس ، أنا الذى كنت قد ظننت أننى حللت مسألة مستقبل تلك الفتاة بتعليمها ما يجب أن تتعلمه ، حتى تستطيع فيما بعد أن تجد عملا وأن تعيش من كدها . لقد كنت فى وضع رب الأسرة الذى يجد مشاريعه تنقلب رأساً على عقب بسوء نية ابنه أو كسله . ومن جهة أخرى فربما كان مالى عليها من حقوق ليس له من الأسس ما يمكن أن تقوم عليها حقوق الأب . واتخذت أكثر السمات صرامة ، وكان لى مع

الجارية ذلك الحديث الذى أسوقه، والذى ساعدتنى فيه وساطة المدرسة .

« ولماذا لا تريدين تعلم الحياكة ؟

— لأن الناس ماأن يرونى أعمل كخادمةفسوف يجعلون منى خادمة .

— إن نساء المسيحيين، وهن من الحرائر ، يعملن دون أن يكن خادمات .

فقالت الجارية :

— حسن ! إننى لن أتزوج من مسيحى ، وفى قومى ينبغى على الزوج أن يحضر خادمة لزوجته » .

وهمت بأن أجيبها بأنها وهى جارية أقل شأنا من الخادمة ، إلا أننى تذكرت التمييز الذى أقرته هى بين وضعها كسيدة بيت ووضع الخادمات اللاتى جعلن للعمل .

واستأنفت الحديث قائلا :

« ولماذا ترفضين كذلك تعلم الكتابة ؟ وسوف يعلمونك بعد ذلك الغناء والرقص ، وليس هذا من عمل الخادمات فى شىء » .

— كلا ، ولكن ذلك فن « العوالم » والمهرجات كله ، وأفضل أن أظل كما أنا » .

نحن نعلم قوة المتقعدات الموروثة على عقول نساء أوربا ، ولكن ينبغى القول بأن الجهل والعادات حينما تستند إلى تقليد موغل فى القدم ، فإنها من تغدو لدى نساء الشرق غير قابلة للتحطيم. فأسهل لديهن الخروج عن عقائدهن من ترك أفكار تتعلق بها كرامتهن ، ولذا فقد قالت لى السيدة كارليس :

« لتطمئن. فإن تصبح مسيحية حتى ترى أن نساء ديننا يستطعن العمل دون أن يهدرن كرامتهن . وحينئذ فسوف تتعلم ما نريدها أن تتعلم . لقد حضرت مرات عديدة القداس فى دير الكبوشيين وقد اقتنع الرئيس تماماً بتقواها » .

فقلت : « ولكن هذا لا يدل على شيء ، فقد رأيت فى القاهرة شيوخا ودراويش يدخلون الكنائس، إما بدافع حب الاستطلاع أو لسماع الموسيقى ويبدون الكثير من الاحترام والانتباه » .

وكان على المائدة بالقرب منا « العهد الجديد » بالفرنسية ، وفتحت هذا الكتاب بحركة آلية ووجدت على رأسه رسماً للسيد المسيح وأبعد منه رسماً لمريم . وفى أثناء تأملى لهذين الرسمين اقتربت الجارية منى وقالت لى وهى تضع أصبعها على الصورة الأولى . « عيسى » ثم وهى تضع أصبعها على الصورة الثانية : « مريم » . فقربت الكتاب المفتوح من شفيتها وأنا ابتسم ، إلا أنها ابتعدت بارتياع وهى تصيح (لا) .

وقلت لها :

« لماذا تتراجعين ، ألا تبجلون فى دينكم عيسى كنبي ومريم كإحدى القديسات الثلاث ؟ » .

فقالت : « نعم ولكن الله كتب يقول : إنك لن تعبد الصور (١)

فقلت للسيدة كارليس .

— « أرأيت أن الحديث لم يتقدم كثيرا ؟

فقالت لى السيدة كارليس :

— انتظر ، انتظر » .

---

(١) ليست آية فى القرآن الكريم .

٣ – العاقلة [1]

حينما استيقظت كنت فريسة لحالة شديدة من عدم الاستقرار فى الرأى، وكنت أقارن نفسى توا بالأب، والواقع أنى كنت أشعر بشعور ذى طبيعة عائلية نحو تلك الفتاة المسكينة التى لم يكن لها من سند سواى. وهذا ولاريب هو الجانب الوحيد الجليل للعبودية كما يفهمونها فى الشرق. فهل لفكرة الامتلاك التى تجعل المرء يتعلق تعلقا قويا بالأشياء المادية وكذلك بالحيوانات تأثير أقل نبلا وأقل قوة إذا ما طبقت على مخلوقات مثلنا؟ إننى لا أريد تطبيق تلك الفكرة على العبيد السود التعساء فى البلاد المسيحية، وإنما ينصب حديثى هنا على العبيد الذين يمتلكهم المسلمون والذين يقر الدين والعادات وضعهم.

وأمسكت يد زينب المسكينة ونظرت إليها بتأثر كبير، حتى أن السيدة كارليس أخطأت بلاشك فى شهادتها إذ قالت:

« هذا ما أردت إفهامها إياه: أترين يا فتاتى؟ إذا أردت أن تصبحى مسيحية، فربما تزوجك سيدك واصطحبك إلى بلاده ».

فصحت قائلا:

ـــ آه! يا سيدة كارليس، لا تتعجلى الأمور هكذا فى طريقتك فى التبشير.. أية فكرة تلك التى راودتك!»

ولم أكن قد فكرت بعد فى هذا الحل.. نعم! فما لاشك فيه أنه من المحزن فى اللحظة التى أغادر فيها الشرق إلى أوروبا، ألا أعرف ماذا أفعل بجارية

---

(١) فى الأصل نجد كلمة العقالة ونظنه يقصد العاقلة.

اشتريتها ، ولكن فكرة الزواج بها ! إنها فكرة مفرطة فى المسيحية .

إنك لا تأخذين الأمر على محمل الجد ياسيدة كارليس ! إن هذه المرأة قد بلغت الثامنة عشرة ، وهى سن تعتبر فى الشرق متقدمة نوعاً ما ، وليس أمامها إلا عشر سنوات تبدو فيها جميلة، وبعدها سأكون أنا الذى ما زلت شابا ، زوجا لامرأة صفراء تحمل على جبينها وصدرها سموماً من الوشم ، وفى فتحةأنفها اليسرى ثقباً لحلقة كانت تحملها فيه . قدرى جيداً انها تتلاءم مع الثياب الشرقية التى ترتديها ،ولكنها تبدو بشعة إلى جانب المستحدثات الأوربية . أتستطعين تصورى وأنا أدخل صالونا ، مصطحبا نوعاً من الجمال قد يظن أنه من آكلى لحوم البشر ! إن ذلك كفيل بإثارة السخرية بها وبى .

كلا ، إن ضميرى لا يتطلب منى ذلك ، والعاطفة هى الأخرى لاتعطينى مثل هذه النصيحة . إن تلك الجارية عزيزة على بلا شك ، إلا أنها مع ذلك كانت ملكا لسادة غيرى . إن الثقافة تنقصها وليس لها رغبة فى التعلم . كيف يمكننى أن أجعل ندا لى امرأة أمية بلا شك ، وإن كانت ليست فظة ولا غبية ، ؟ هل ستفهم فيما بعد ضرورة الدراسة والعمل ؟ ثم هل أقولها بصراحة ؟

إننى أخشى أن يكون من المستحيل قيام ود كبير بين شخصين من جنسين مختلفين تماماً كجنسينا .

ومع ذلك فسوف يؤلمنى ترك هذه المرأة . .

وليفسر من يستطيع التفسير تلك المشاعر غير المستقرة وتلك الأفكار المتناقضة التى كانت تختلط فى هذه اللحظة فى ذهنى . وكنت قد نهضت كما لو كان الوقت يحثنى لكى أتجنب الإجابة الدقيقة على السيدة كارليس ، وذهبنا من غرفتها إلى الرواق ، حيث كانت الفتيات منخرطات فى الدراسة تحت إشراف كبراهن .

وذهبت الجارية و ألقت بنفسها بين أحضان تلك الأخيرة مانحة إياها هكذا من إخفاء وجهها كما فعلت لدى وصولى . وصاحت بها « يا محبوبة » ولما تركت الفتاة أخيراً نفسها لأراها أتاحت لى فرصة الإعجاب بملامحها التى كانت تمزج بين البياض الأورنى وتلك الصورة الصافية لهذا النموذج الآقى الذى يحتفظ سواء فى آسيا أم فى بلادنا بشىء من الطابع الملكى ، إن طابع الفخر الذى تحده جاذبيتها لينشر على وجهها شيئاً ما يمت إلى الذكاء ، كما أن طابعها الجدى المعتاد يعطى قيمة للابتسامة التى وجهتها إلى حينما حيتها .

وقالت لى السيدة كارليس :

إنها فتاة مسكينة تستحق الاهتمام ، وأبوها هو شيخ من شيوخ الجبل . ولكن لسوء الحظ اعتقله الترك أخيراً فى الجبل . وقد كان من قلة الحذر بحيث جازف بالذهاب إلى بيروت فى وقت الاضطرابات ، وقد زج به فى السجن ، لأنه لم يدفع الضرائب منذ سنة ١٨٤٠ . ولم يكن يريد الاعتراف بالسلطة الحالية . ولذا فقد فرضت الحراسة على ممتلكاته . ولما رأى نفسه هكذا أسيرا وتخلى عنه الجميع أحضر ابنته التى لا تستطيع الذهاب لرؤيته إلا مرة واحدة فى اليوم، أما بقية الوقت فهى تمكث هنا. وأنا أعلمها الإيطالية وهى تقوم بتدريس العربية الفصحى للفتيات الصغيرات، ذلك لأنها عالمة . وفى قومها تستطيع النساء ذوات المولد المعين تثقيف أنفسهن ، بل إنهن يهتممن بالفنون ، وهذا لدى المسلمات يعتبر دلالة على نشأة وضيعة .

فقلت .

— من أى قوم هى ؟

فأجابت السيدة كارليس :

— إنها تنتمى إلى الجنس الدرزى .

ومنذ ذلك الحين أخذت أنظر إليها بمزيد من الاهتمام . وقد رأت جيداً أننا نتحدث عنها ، وضايقها هذا بعض الشىء . وكانت الجارية قد رقدت نصف رقدة إلى جوارها على الأريكة ، وأخذت تعبث بضفائر شعرها الطويلة وقالت لى السيدة كارليس :

إنهما سعيدتان معاً ، كالليل والنهار . ويسليهما أن تتجاذبا أطراف الحديث معا ، لأن الأخريات صغيرات جدا .

وإنى أقول أحياناً لفتاتك « إذا اقتديت على الأقل بصديقتك ، فسوف تتعلمين شيئاً . . ولكنها لا تصلح إلا للعب وغناء الأغنيات طوال اليوم . ماذا تريد ؟ إن الحصول عليهن فى مثل هذه السن المتأخرة يجعل من المستحيل تغييرهن » .

ولم أعر شكاوى السيدة الطيبة كارليس هذه ، التى كانت تنطقها بلكنتها البروفانسية ، إلا القليل من الاهتمام . وفى غمرة اهتمامها بأن تبين لى لها أنه لا ينبغى مؤاخذتها على قلة تقدم الجارية لم تلاحظ أننى فى هذه اللحظة كنت أود أن تزيد معلوماتى عن نزيلتها الأخرى . ومع ذلك فلم أكن أجرؤ على إظهار حب استطلاعى الوضوح أزيد . كنت أشعر أنه لا ينبغى استغلال طيبة سيدة اعتادت استقبال أرباب الأسر ورجال الدين وغيرهم من أصحاب الجد . . . ولم تكن تنظر إلى إلا كعميل لا يقل عن ذلك جدية .

ووقفت مستنداً إلى سور الرواق بادى التفكير خفيض الجبين ، واستفدت من الوقت الذى كانت تمنحه لى ثرثرة أهل الجنوب لدى تلك المربية الممتازة لأتأمل فى إعجاب اللوحة الرائعة التى كانت أمام ناظرى . كانت الجارية قد أمسكت بيد الفتاة الأخرى وأخذت تقارنها بيدها .

وبمرح أرعن استمرت في إتيان هذه الحركات الصامتة بتقريب ضفائرها القاتمة من شعر جارتها الذهبي ، وكانت تلك تبتسم لهذه الحركات الصبيانية. وكان من الواضح أن تلك المقابلة لم تكن تضايقها ، ولم تكن تجد فى ذلك إلا فرصة للعب والضحك بما يتميز به الشرقيون من لطف ساذج . ومع ذلك فإن هذا المشهد كان بالنسبة لى ذا سحر خطر لم ألبث أن شعرت به .

وقلت للسيدة كارليس، كما لو كان الأمر لا يعدو حب استطلاع بسيط: «كيف وجدت هذه الفتاة الدرزية المسكينة فى مدرسة مسيحية ؟ » .

— « لا يوجد فى بيروت مدارس على ديانتها ، ولم تنشأ فيها أبداً ملاجىء عامة للنساء ، فهى لذلك لا تستطيع الحصول على إقامة طيبة إلا فى بيت كبيتى هذا . ثم إنك تعلم أن للدروز عقائد كثيرة مشابهة لعقائدنا : فهم يعترفون بالتوراة والإنجيل ويصلون على قبور قديسينا » .

ولم أشأ الاسترسال فى توجيه الأسئلة إلى السيدة كارليس، فقد شعرت أن الدروس قد توقفت لزيارتى ، وأن الفتيات الصغيرات كن يتحدثن فيما بينهن وقد عرتهن الدهشة .

كان يجب إعادة هذا الملجأ إلى هدوئه المعتاد ، وكان ينبغى كذلك الحصول على الوقت الكافى للتفكير فى هذا العالم من الأفكار الجديدة الذى انبثق للتو أمامى .

وأستأذنت السيدة كارليس واعـــدأ إياها بالعودة لرؤيتها فى اليوم التالى .

إنك تبتسم وأنت تقرأ صفحات هذه المذكرات ، أليس كذلك ؟ تبتسم من تحمسى لفتاة عربية صغيرة قابلتها مصادفة على مقاعد فصل مدرسى ، وأنت لا تعتقد فى العواطف المفاجئة ، بل وأنك تعلم أننى قد مررت

بعددمن التجارب فى هذا المجال، لا يسمح لى بسهولة بتجارب جديدة . وسوف تدخل فى الموضوع بلا شك السحر والجو وشاعرية المكان والملابس وكل ما تتميز به الجبال والبحار ، وكذلك الانطباعات الكبيرة للذاكرة والأماكن التى تهيىء الذهن لمثل هذا الوهم العابر . ويبدو لك أننى لم أصبح عاشقا ، ولكنى أصبحت أعتقد ذلك ... كما لو كانت النتيجة ليست واحدة فى كلتا الحالتين

لقد سمعت أناساجادين يمزحون فى حديثهم عن الحب الذى يشعر به البعض نحو الممثلات والملكات والنساء الشاعرات وكل ما فى نظرهم يثير المخيلة أكثر مما يثير القلب ، ومع ذلك فإن هذا الحب المجنون يقودهم فى النهاية إلى الموت أو إلى تضحيات لا يتصورها العقل من الوقت والمال والذكاء . آه ! إننى أعتقد أننى عاشق آه ! إننى أعتقد أنى مريض ، أليس كذلك ؟ نعم ولكن إذا كنت أعتقد ذلك فإنى لكذلك !

إننى أعفيك من عواطفى ، ولتقرأ كل قصص الحب الممكنة ، منذ الديوان الذى كتبه عنه بلوتارك حتى قصة فرتر(١) ، وإذا كان فى قرننا هذا مازلنا نصادف بعض هؤلاء ، فلتكن على يقين من أن لهم مزيدا من الفضل لأنهم تغلبوا على كل وسائل التحليل التى تقدمها لنا التجربة والمشاهدة . والآن لنهرب من العموميات .

حينما غادرت بيت السيدة كارليس حملت معى حبى كغنيمة فى الوحدة . آه ! كم كنت سعيداً إذ وجدت لى فكرة وهدفا وإرادة وشيئاً أحلم به وأحاول الوصول إليه ! .

إن هذا البلد الذى نشط كل قواى وإيحاءات شبابى ، لا يدين لى دون شك بأقل مما أدين له . ولقد شعرت وأنا أضع قدمى على تلك الأرض الحنون ، وأنا أغمر نفسى فى منابع تاريخنا ومعقداتنا المبجلة أننى سوف أوقف سير سنوات عمرى وسأعود طفلا فى مهد العالم هذا وشاباً على صدر ذلك الشباب الأبدى .

---

(١) آلام فرتر للشاعر الألمانى جوته ترجمها أحمد حسن الزيات إلى العربية .

واجتزت المدينة وقد شغلتني تلك الأفكار ، دون أن ألتفت إلى حركة الجماهير العادية . كنت أبحث عن الجبل والظل وأشعر بأن عقارب مصيري قد غيرت مكانها فجأة . كان ينبغي لي التفكير طويلا والبحث عن وسائل لتثبيتها . ولدى اجتياز الأبواب المحصنة من الجهة المضادة للبحر تجد طرقا عميقة تظللها الأكمات وتحفها الحدائق الكثيفة التي توجد في البيوت الريفية. وأعلى من ذلك تجد غابات الصنوبر المظلية الشكل والتي غرست منذ قرنين لتحول دون العواصف الرملية التي كانت تهدد رأس بيروت . أما الجذوع المحمرة لتلك المزروعات المنتظمة التي كانت تمتد في تبادل على مساحة عدة فراسخ،فقد كانت تبدو كأنها أعمدة معبد شيد لعبادة الطبيعة العالمية،يشرف من ناحية على البحر ومن ناحية أخرى على الصحراء ، هذين الوجهين المكتئبين للعالم . لقد أتيت لأحلم في هذا المكان دون هدف محدد ، دون أية فكرة أخرى سوى تلك المشاكل الفلسفية الغامضة التي تضطرب دائماً في الأذهان التي لا يشغلها شيء أمام مثل تلك المشاهد . ولقد أتيتها الآن بفكرة خصبة : أنني لست وحدي ، لقد كان مستقبلي يرسم على الخلفية المضيئة لتلك اللوحة : إن المرأة المثالية التي يتتبعها كل منا في أحلامه قد تحققت بالنسبة إلى ، ولقد نسيت كل ما عداها .

ولا أجرؤ أن أذكر لك أي حدث مبتذل انتزعني من هذه الأفكار العالية، بينما كنت أضرب بقدم فرحة الرمال الحمراء في الطريق العتيق ، لقد كانت ثمة حشرة ضخمة تعبره ، وهي تدفع أمامها كرة أكبر منها: لقد كانت نوعاً من الخنافس ذكرني بالجعارين المصرية التي تحمل العالم فوق رأسها . وأنت تعلم أنني أتطير وأنني أرى في الظهور الرمزي لتلك الحشرة في طريقي فألا معينا. وعدت أدراجي معتقداً أن هناك عقبة ينبغي لي أن أكافح ضدها .

وأسرعت منذ اليوم التالي بالعودة إلى السيدة كارليس . ولكي أقدم لها عذراً عن هذه الزيارات المتقاربة ذهبت إلى السوق وابتعت بعض ملابس

الزينة النسائية ، منـديل من بروصه(١) وبعض قطع الحرير المشغولة على شكل ضفائر وتعاريج لتزيين الثياب وأكاليل من الزهور الصناعية الصغيرة التى تخلطها الشرقيات بشعورهن .

وحينما أتيت الجارية بكل هـذا ، وكانت السيدة كارليس قد أدخلتها عندها وهى ترانى مقبلا ، نهضت وهى ترسل صيحات الفرح ، وذهبت إلى الرواق لتطلع صديقتها على كل هـذه الثروة الثمينة . وتبعتها لأعود بها وأنا أعتذر للسيدة كارليس لأنى تسببت فى هذا الجنون . إلا أن تلميذات الصف جميعاً تشاركن فى شعور الإعجاب وألقت على الفتاة الدرزية نظرة اهتمام باسمة دخلت إلى أعماق نفسى . وقلت لنفسى : ماذا عساها تظن ؟ لابد أنها ستعتقد أنى أهيم بجاريتى حباً وأن قطع الزينة هذه ماهى إلا تعبير عن المحبة، وربما كان كل ما أحضرته ذا بريق لا يتناسب مع حياة المدارس .

لقد كان ينبغى لى اختيار أشياء أكثر نفعاً كالأخفاف مثلا ، فإن ما ترتديه زينب المسكينة منها قد فقد بعض رونقه . بل ولاحظت أنه كان من الأفضل أن اشترى لها ثوبا جديداً بدلا من وشىء جميـل تحيكه على ثيابها. وكانت هذه هى نفس ملاحظة السيدة كارليس التى كانت قد انضمت بظرف إلى الحركة التى حدثت فى فصلها . وقالت :

« يلزمها ثوب جميل جداً لمثل هذه الزينات البراقة !

ثم قالت للجارية :

« أترين ؟ إذا أردت تعلم الحياكة فسوف يحضر لك سيدك من السوق سبع أو ثمانى قطع من « التافتاه » تصنعين منها ثوبا جديراً بسيدة عظيمة » : إلا أن الجارية كانت تفضل بلاشك الحصول على الثوب جاهزاً .

وخيل إلى أن الفتاة الدرزية كانت تلقى نظرة حزينة بعض الشىء

---

(١) العاصمة القديمة للدولة العثمانية .

على هذه الزينات التى لم تخلق لمركزها ولا للمركز الذى تستطيع الجارية أن تستمده منى. لقد اشتريت قطع الزينة تلك، حسبما اتفق لى دون أن أفكر كثيرا فى اللياقات والإمكانيات. ومن الواضح أن زينة من الدنتلا يلزمها ثوب من القطيفة أو الساتان، وكان هذا هو المأزق الذى زججت بنفسى فيه دون حذر. ثم إننى كنت أبدو وكأننى ألعب الدور الصعب لرجل نرى على استعداد لأن يعرض مانسميه نحن بالترف الآسيوى، الذى يذكر فى آسيا بالترف الأوروبى.

وأظن أننى لاحظت أن ذلك الفرض لم يكن على العموم غير ملائم بالنسبة إلى. فإن النساء للأسف متشابهات فى جميع البلاد. وربما أخذت السيدة كارليس أيضا تنظر إلى بمزيد من الاعتبار منذ ذلك الحين، ولم تشأ أن ترى فى الأسئلة التى كنت أوجهها إليها عن الفتاة الدرزية إلا مجرد حب استطلاع من أحد المسافرين. ولم أجد صعوبة كذلك فى إفهامها أن القليل الذى ذكرته لى فى اليوم الأول قد أثار اهتمامى بسوء حال والدها.

وقلت للمربية:

« ربما لم يكن من المستحيل أن أستطيع أن أفيد هؤلاء الناس. فأنا أعرف أحد موظفى الباشا؛ ثم إنك تعرفين أن الأوروبى المعروف بعض الشىء له تأثير على القناصل.

— فقالت السيدة كارليس بحيويتها البروفانسية:

— آه! نعم، افعل ذلك إن استطعت، فهى تستحقه وكذلك أبوها بلاشك. إنه مايسمونه بالعقال، أى الرجل المقدس أو العالم. وابنته التى ثقفها تحمل فى قومها نفس لقب أبيها: الست العاقلة.

وقلت:

— ولكن هذا هو لقبها، فهل لها اسم آخر؟

— إنها تسمى سلى ، والاسم الآخر أكثر شيوعا بالنسبة لها ولغيرها من النساء اللاتى ينتمين إلى النظام الدينى .

وأضافت السيدة كارليس :

— لقد بذلت كل مافى وسعى لكى أقنع تلك الطفلة المسكينة أن تصبح مسيحية ، ولكنها تقول إن دينها هو نفس الشىء وأنها تعتقد فى كل مانعتقد فيه ، وهى تأتى إلى الكنيسة كغيرها ... حسن ! ماذا تريد أن أقول لك ؟ إن هؤلاء الناس يتصرفون نفس هذا التصرف مع الترك ، وجاريتك ، وهى مسلمة ، تقول لى إنها تحترم كذلك معتقداتهم، حتى أننى لم أعد أطرق معها هذا الحديث . ومع ذلك فحينما يعتقد المرء فى كل شىء، فهو لايعتقد فى شىء ! هذا هو ما أقوله » .

٤ — الشيخ الدرزي

وأسرعت ، بعد مغادرتي المنزل ، بالتوجه إلى قصر الباشا تحثني الرغبة في أن أخدم الست العاقلة الصغيرة . ووجدت صديقي الأرمني في مكانه المعتاد في قاعة الانتظار ، وسألته عما يعرف عن اعتقال زعيم درزي سجن لأنه لم يؤد ما عليه من ضرائب . فقال لي :

ـــ أه ! لو لم يكن هناك غير ذلك ، فإني أشك في أن تكون المسألة خطيرة ، لأنه لا يوجد شيخ درزي واحد قد أدى ما عليه من الأموال الأميرية منذ ثلاث سنوات . ولابد أن هناك خطأ آخر خاصاً بالإضافة إلى ذلك .

وذهب للحصول على بعض المعلومات من الموظفين الآخرين، ثم عاد بعد قليل ليخبرني بأن الشيخ سيد الشيرازي متهم بإلقاء خطب ثورية بين قومه . وأضاف الأرمني : « إنه رجل خطير في زمن القلاقل . ثم إن باشا بيروت لا يستطيع إطلاق سراحه ، فهذا أمر يتعلق بباشا عكا . . فصحت قائلا :

ـــ «باشا عكا ! ولكنه هو نفسه الذي أحمل له خطاب توصية ، والذي عرفته معرفة شخصية في باريس » !

وأظهرت لهذه الظروف من الفرح ما جعل الأرمني يظنني مجنونا . لقد كان طبعا بعيداً عن أن يعرف السبب أو يحدس ماذا هو .

ليس ثمة ما يضيف إلى الحب الوليد من القوة مثل تلك الظروف غير المنتظرة التي تبدو ، رغم ضآلة أهميتها ، وكأنها دليل على فعل القدر . وسواء أكان الأمر قضاء وقدراً أو عناية إلهية ، فيبدو أننا نرى تحت نسيج الحياة

الموحد الشكل خطا مرسوماً على تصميم غير مرئى يدل على طريق ينبغى أن نتبعه وإلا ضللناه . وتخيلت للتو أنه كان مكتوبا علىّ فى كل وقت أن أتزوج فى الشام ، وأن القدر قد قدرهذا الحدث الضخم الذى كان لابد لإتمامه من ترابط آلاف من الظروف ترابطا غريبا فى حياتى ، مما كنت بلاشك أبالغ فى تخيل العلاقة بينها .

وبفضل جهود الأرمنى حصلت بسهولة على تصريح بزيارة سجن الدولة الواقع بين مجموعة من الأبراج ، ويشكل جزءا من السور الشرقى للمدينة . واتجهت إليه برفقته ، وبفضل « البقشيش » الذى كنت أنفح به أهل البيت استطعت أن أسأل الشيخ الدرزى عما إذا كان يلائمه أن يلقانى . إن حب الاستطلاع لدى الأوربيين أمر معروف تماما ومقبول من أهل البلاد ، ولذا فلم يثر الأمر أية صعوبة . وتوقعت أن أجد معزلا كئيباً وجدرانا ملزجة . وزنزنات ، إلا أنى لم أجد شيئا من ذلك فى الجزء من السجن الذى سمح لى برؤيته . لقد كان هذا المكان يبدو مشابها تماما للبيوت الأخرى فى بيروت ، وليس معنى ذلك أننا نكيل لها المديح ، ولم يكن ثمـــة ما يزيد عليها إلا المشرفين والجند .

أما الشيخ ، الذى كان يحتل جناحاً كاملا ، فقد كانت له حرية التنزه فى الشرفات . واستقبلنا فى قاعة تستخدم للاستقبال وأحضر لنا القهوة والغلايين بواسطة عبد يمتلكه . أما عن نفسه فقد كان ممتنعا عن التدخين كعادة العقال ، ولما اتخذنا أماكننا واستطعت تأمله بانتباه دهشت إذ رأيته شابا فى مقتبل العمر . كان يبدو لى أنه لا يكاد يكبرنى سنا . وكانت ملامح الرجولة والنبل لديه تترجم فى جنس آخر ملامح ابنته . ولهذا السبب نفسه أثرت فى رنة صوته العميقة تأثيراً قوياً .

وكنت قد تمنيت دون تفكير كبير ذلك اللقاء ، وألفيت نفسى متأثرا ومضطربا أكثر مما ينبغى ان يكون مجرد زائر أجنبي محب للاستطلاع .

وطيب خاطرى الاستقبال البسيط المطمئن الذى أولانى إياه الشيخ . وكنت على وشك أن أطلعه على أعماق نفسى، إلا أن التعبيرات التى أخذت أبحث عنها لهذا الغرض لم تفعل سوى أن أنذرتنى بغرابة مسعاى . ولذا فقد اكتفيت هذه المرة بحديث السائح . وكان قد رأى من قبل فى سجنه الكثير من الإنجليز واعتاد الاستفسارات عن جنسه وعن نفسه .

لقد كان وضعه يجعله شديد الصبر ، ويعطيه بعض الرغبة فى الحديث والصحبة . وأفادتنى معرفتى لتاريخ بلاده وخصوصا لكى أثبت له أننى لا يدفعنى إلا أسباب علمية . ولما كنت أعرف كيف يصعب استخلاص المعلومات من الدروز عن دينهم ، فقد اكتفيت باستعمال التعبير نصف الاستفهامى : « هل صحيح أن . . ؟ » ، واستخدمت جميع تكهنات نيبور وفولنى وساس[1] وكان الدرزى يهز رأسه بتحفظ الشرقيين الحذر، ويكتفى بأن يقول : « كيف ؟ هل الأمر كذلك ؟ هل المسيحيون علماء إلى هذه الدرجة ؟ . . . كيف استطاعوا معرفة ذلك ؟ » ، وغير ذلك من الجمل التى يراد بها التهرب .

واتضح لى جيدا أن ليس ثمة شىء كثير يستخلص منه هذه المرة . وقد جرى الحديث بيننا بالإيطالية التى كان يتقنها نوعا ما . وسألته السماح لى بالعودة لزيارته لأسلمه أجزاء من تاريخ الأمير الكبير فخر الدين الذى قلت له إننى مهتم به . وكنت أتوقع أن تدفعه العزة القومية على الأقل إلى تصحيح ما لا يراه فى صالح قومه . ولم يخب ما توقعت . وربما يكون قد أدرك أنه فى ذلك الزمن الذى تمارس فيه أوربا تأثيرا كبيرا على وضع الشعوب الشرقية ، فمن الملائم التخلى بعض الشىء عن ادعاء نظرية سرية لم تستطع مقاومة تعمق علمائنا الثاقب .

---

(١) رحالة فرنسيون قاموا برحلات إلى الشرق قبل نرفال .

وقلت له : «أذكر أننا نملك فى مكاتبنا مائة من كتبكم الدينية، وأنها جميعها قد قرئت وترجمت وشرحت»

فقال وهو يتنهد :

— «إن ربنا لكبير !»

وأظن أنه هذه المرة قد ظن أنى أحد المبشرين ، إلا أنه لم يظهر شيئا من ذلك ورجانى بحرارة أن أعود لزيارته ما دمت أجد فى ذلك بعض السرور .

ولا أستطيع إلا أن أقدم لك ملخصا لما جرى بينى وبين الشيخ الدرزى من حديث رغب فيه أن يصحح الأفكار التى كنت قد كونتها لنفسى عن دينه، حسب أجزاء من الكتب العربية التى ترجمت جزافا وقام علماء أوربا بتفسيرها . ولقد كانت هذه الأمور فى الماضى سراً يحال بينه وبين الأجانب، وكان الدروز يخفون كتبهم بعناية فى أكثر الأماكن انعزالا فى بيوتهم ومعابدهم .

ولم يتمكنوا من جمع عدد كبير من هذه المخطوطات ، ولا أن يكونوا لأنفسهم فكرة عن مجمل عقيدتهم إلا إبان الحروب التى خاضوا غمارها سواء ضد الأتراك أو المارونيين . بيد أنه كان من المستحيل على ديانة تكونت منذ ثمانية قرون ألا تنتج خليطا من المقالات المتناقضة ، تحت تأثير المذاهب المختلفة والأطوار المتتالية التى جرها الزمن . ولقد رأى بعض الكتاب فى هذه العقيدة مثلا من أكثر الأمثلة تعقيداً للشذوذ البشرى. أما البعض الآخر فقد نوه بالعلاقة بين الديانة الدرزية ونظرية الإلهام القديمة . وقد كان الدروز يقارنون على التوالى بالفيثاغورسيين

الاسينين والغنوسيين . ويبدو أن المعبديين وأصحاب الوردة والصليب والماسونيين المحدثين قد استعاروا منهم الكثير من الأفكار . ولاشك فى أن الكتاب الذين كتبوا عن الحروب الصليبية كانوا كثيرا مايخلطون بينهم وبين الإسماعيليين الذين يدينون بمذهب جماعة السفاحين الذين كانوا فى وقت ما يثيرون الهلع فى قلوب ملوك العالم جميعاً . إلا أن هؤلاء كانوا يعيشون فى كردستان ، ورئيسهم شيخ الجبل لاعلاقة له ألبتة بأمير الجبل فى لبنان.

ومن خصائص ديانة الدروز ادعاؤها أنهاآخر دين سماوى أنزل . والواقع أن مسيحهم قد ظهر حوالى سنة ألف ميلادية أى بعد محمد بما يقرب من أربعمائة عام . وكما حدث لمسيحنا فقد تقمص جسد إنسان ولكنه لم يسىء اختيار غلاف نفسه ، واستطاع أن يعيش كإله حتى على الأرض ، إذ أنه لم يكن سوى أمير المؤمنين وخليفة مصر والشام الذى يتضاءل أمامه جميع أمراء الأرض فى هذه السنة العظيمة سنة ألفين .وحينما ولد تجمعت جميع الكواكب فى برج السرطان وكان زحل الكوكب ذو الشرر يقود المجموعة ساعة مولده . ثم إن الطبيعة قدمنحته كل مايكفل له القيام بهذا الدور : فقدكان له وجه أسد وصوت جهورى كالرعد ، ولم يكن أحد يستطيع مقاومة بريق عينيه ذات اللون الأزرق القاتم .

وقد يبدو صعب التصديق أن ملكا له كل هذه الصفات لايستطيع بمجرد كلمة منه إقناع الناس بأنه إله . ومع ذلك فلم يكن ثمة إلا عدد قليل من رعايا الحاكم يدينون بمذهبه . وعبثا أمر بإغلاق المساجد والكنائس والمعابد اليهودية ، وعبثا أنشأ دوراً للخطابة حيث كان يكلف العلماء من اتباعه بشرح ديانته ، فقدكان ضمير الشعب يرفض الإله رغم احترامه للخليفة. ولقد حصل وريث الفاطميين القوى من التأثير على النفوس أقل من نصيب ابن النجار فى بيت المقدس ومن تأثير البدوى محمد فى المدينة . إلا

أن المستقبل احتفظ له مع ذلك بشعب من المؤمنين المخلصين الذين يعتبرون أنفسهم ، رغم قلة عددهم، كما حدث للعبرانيين فى الماضى ، أمناء على القانون الحقيق والقاعدة الخالدة وأسرار المستقبل . وهم يعتقدون أن الحاكم لابد أن يظهر من جديد فى وقت قريب وفى صورة جديدة ويقر التفوق والسيادة لشعبه فى كل مكان ، ذلك الشعب الذى سوف يخلف المسلمين والمسيحيين فى العظمة والمجد . والزمن الذى تحدده الكتب الدرزية لذلك هو الزمن الذى ينتصر فيه المسيحيون على المسلمين فى الشرق كله .

ولقد كانت ليدى ستانهو (١) ، التى كانت تعيش فى بلاد الدروز وتشربت بأفكارهم — تحتفظ فى فناء بيتها ، كما يعلم الجميع، بجواد معد للمهدى وهو تلك الشخصية الغامضة نفسها ، وكانت تأمل أن ترافقه فى انتصاره . إلا أن هذه الأمنية قد منيت بالخيبة كما يعلم الجميع. أما الجواد الذى سيمتطيه المهدى فى المستقبل والذى يحمل على ظهره بردعة طبيعية مكونة من ثنايا الجلد مازال موجودا وقد اشتراه أحد شيوخ الدروز .

أيحق لنا أن نعتبر كل ذلك ضربا من الجنون ؟ الواقع أنه ليس ثمة دين من الأديان الحديثة لا يضم مثل هذه المفاهيم . بل إن عقيدة الدروز ماهى إلا تجميع لجميع الأديان والفلسفات السابقة .

إن الدورز لايعترفون إلا بإله واحد هو الحاكم . إلا أن هذا الإله قد ظهر فى العالم ، كما حدث لبوذا إله الهندوس فى صور عديدة مختلفة . فقد ظهر عشر مرات فى أماكن مختلفة من العالم : فى الهند أولا ثم فى فارس فيما بعد ، ثم فى اليمن وتونس وغيرها . وهذا مايسمى بالمحطات .

---

(١) أسرة انجليزية من النبلاء شهر منها أكثر من واحد . تعرف هذه السيدة بأنها عملت سكرتيرة لوليم بت . وكانت تلبس ملابس الرجال الشرقيين ساحت فى الشام وادعت النبوة بين الدورز . ليدى هسترلوسى ١٧٧٦ — ١٨٣٩ .

إن الحاكم يسمى فى السماء « البار »

ويلى الحاكم خمسة وزراء ينحدرون رأسا من الإله ، وأسماؤهم كأسماء الملائكة هى : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ومتاترون(كذا) أما أسماؤهم الرمزية فهى : الذكاء والروح والكلمة والسابق واللاحق. وهناك ثلاثة وزراء آخرون من طبقة أقل يطلق عليهم معنويا التطبيق والفتح والخيال . ولهم خلاف ذلك أسماء بشر تنطبق على أشكالهم الجسدية المختلفة ؛ إذ أنهم هم أنفسهم يتدخلون من وقت لآخر فى القصة الكبيرة للحياة البشرية .

وهكذا نرى فى تعاليم الديانة الدرزية أن الوزير الأول ويدعى حمزة ، وهو نفسه جبريل ، يعتبر فى نظرهم كما لو كان قد ظهر سبع مرات . وقد كان يدعى سكانتيل فى عهد آدم ثم فيثاغورث وداود وشعيب . وفى عهد عيسى كان هو المسيح الحقيق وكان يدعى إليازار . وفى عهد محمد كان يدعى سلمان الفارسى . وأخيراً فقد ظهر الخليفة الحاكم باسم حمزة كخليفة وكإله والمؤسس الحقيق للديانة الدرزية.

تلك حقا عقيدة تهتم فيها السماء بالبشرية . أما العهود التى تتدخل فيها هذه القوى فتسمى بالثورات . وفى كل مرة تنحرف فيها البشرية وتهبط إلى الدرك الأسفل فى نسيان واجباتها يتجسد الإله وملائكته فى صورة بشر ويعيدون النظام إلى الأمور باستعمال الوسائل البشرية وحدها .

وهذه فى الواقع هى الفكرة المسيحية مع مزيد من التدخل من جانب الإله ، إلا أنها الفكرة المسيحية بدون عيسى ، لأن الدروز يفترضون أن الرسل قد أسلموا إلى اليهود مسيحاً كاذبا ضحى بنفسه لإخفاء المسيح الحقيق « حمزة » الذى كان موجوداً فى زمرة المريدين تحت اسم إليازار ، وكان كل همه أن يوحى بفكرة إلى عيسى بن يوسف . أما عن الإنجيليين فهم يطلقون

عليهم اسم « أقدام الحكمة » وليس بين قصتهم وما يقصه الإنجيليون سوى هذا الاختلاف . وصحيح أن قصتهم تحذف فكرة عبادة الصليب وفكرة الإله الذى يغتاله الناس .

أما الآن فإن الدروز بطريقة التنزيلات السماوية المتتالية من عصر إلى عصر قد أصبحوا يقبلون كذلك الفكرة المسلمة ولكن بدون محمد . والنبى الذى تولى غرس تلك الكلمة الجديدة هو حمزة تحت اسم سلمان الفارسى .

وبعد ذلك فإن آخر مرة تجسد فيها الحاكم وحمزة قد نسقت بين تعاليم مختلف الرسل الذين أنزلوا إلى العالم سبع مرات من عهد آدم، والذين يرتبطون بعهود نوح وإبراهيم وموسى وفيثا غورس والمسيح ومحمد .

وكما ترى فإن هذه النظرية ترتكز فى واقع الأمر على تفسير خاص للتوارة، إذ أنه ليس ثمة أى إله للوثنيين فى هذا الترتيب التاريخى ، وفيثا غورس وحده هو الذى يشذ هنا عن التقليد الذى سنه موسى . وفى مقدورنا كذلك أن نفسر كيف أن هذه الطائفة من العقائد قد اعتبرت الدروز أحياناً من الترك وأحياناً أخرى من المسيحيين .

لقد عددنا ثمانى شخصيات سماوية تتدخل فى زمرة البشر ، ويكافح بعضها بالكلمة كما فعل المسيح والبعض الآخر بالسيف كآلهة هوميروس . وتوجد بالضرورة كذلك ملائكة للظلمات تلعب دوراً عكسيا . ولذا فنحن نجد فى تاريخ العالم كما كتبه الدروز كلا من هذه المراحل السبع تقدم عملا ضخما يسعى فيه الأعداء الدائمون كل نحو الآخر تحت قناع البشرية، ويعرفون بتفوقهم أو بما يعتمل فى صدورهم من كراهية .

وهكذا نجد أن روح الشر تتخذ صوراً مختلفة، فهى طوراً إبليس أو الثعبان أو ميثوزايل ملك مدينة العمالقة فى زمن الطوفان، وطوراً آخر النمرود فى عصر

إبراهيم وفرعون فى عهد موسى . ثم فيما بعد أنتيوخوس وهيرود وغيرهما من بشعاء الطغاة يساعدهم شمامسة مشئومون يظهرون فى تلك العهود نفسها لمقاومة حكم الله . وتقول بعض المذاهب إن هذه العودة تخضع لدورة ألفية تتكرر بتأثير بعض النجوم. وفى هذه الحالة لا يحسب عهد محمد كثورة كبيرة دورية : أما القصة الصوفية التى تجدد فى كل مرة وجه العالم ، فهى تارة الجنة المفقودة أو الطوفان وتارة أخرى الهروب من مصر أو حكم سليمان . وتشكل رسالة المسيح وحكم الحاكم اللوحتين الأخيرتين لهذه القصة . وبناء على وجهة النظر هذه فإن المهدى لن يظهر إلا فى سنة ألفين .

ولا نجد فى هذه النظرية كلها أى أثر للخطيئة الأصلية . ولا نرى فيها كذلك لا جنة للأخيار ولا نارا للأشرار . فالجزاء الطيب والتكفير عن الخطأ قائمان على الأرض بعودة الأرواح إلى أجسام أخرى . فالجمال والغنى والنفـــوذ تمنح للزمرة المختارة ، أما غير المؤمنين فهم العبيد والمرضى والمعذبون . ومع ذلك فالحياة الطاهرة تستطيع أن تعيدهم إلى الطبقة التى انحدروا منها ، ليحل محلهم الذين غرتهم الرفاهية من الزمرة المختارة .

أما عن تناسخ الأرواح فهو يتم بطريقة غاية فى البساطة : فعدد الناس على الأرض لا يتغير أبداً ، إذ فى كل لحظة يولد واحد ويموت آخر . والروح التى تخرج تلتقط بطريقة مغنطيسية إلى دائرة الجسد الذى يتكون. ويتولى تأثير النجوم تنظيم عملية تبادل المصير هذا بطريقة قدرية. إلا أن الناس لا يشعرون كما تشعر الأرواح السماوية بعملية التناسخ هذه .

ومع ذلك فإن المؤمنين فى ارتفاعهم خلال درجات التأهيل التسع يستطيعون التعرف على كل شىء وعلى أنفسهم. وتلك هى السعادة التى يختص بها العقلاء .

وفى مقدور جميع الدروز الارتقاء إلى هذه الدرجة بالدراسة والفضيلة.

أما هؤلاء الذين يتبعون القانون دون السعى وراء الحكمة، فيطلق عليهم الجهلاء. ولهم مع ذلك فرصة الارتقاء فى حياة أخرى وتطهير أنفسهم المرتبطة ارتباطا شديدا بالمادة .

أما عن المسيحيين واليهود والمسلمين والوثنيين فن الواضح أن وضعهم أقل من ذلك كثيراً . ومع ذلك فينبغى أن نذكر أن من فضائل الديانة الدرزية أنها الوحيدة التى لا تسلم أعداءها إلى العذاب الأبدى ؛ فحين يظهر المهدى يكون الدروز قد استقرت بهم الأمور فى جميع الممالك والحكومات والممتلكات على ظهر الأرض بفضل ما يمتازون به من جدارة، أما الشعوب الأخرى فسينتقلون إلى حالة الخدم والعبيد والعمال ، وتتكون منهم طبقة الدهماء . . وقد أكد لى الشيخ فى هذا الصدد أن المسيحيين لن يكونوا أسوأ الناس معاملة ، ولتأمل أن يكون الدروز سادة طيبين .

ولقد بلغ اهتمامى بهذه التفصيلات حداً جعلنى أرغب فى معرفة حياة ذلك الرجل العظيم الحاكم الذى صوره المؤرخون كمجنون ثائر يعتبر وسطا بين نيرون وهليوجابال (١) .

وقد فهمت من وجهة نظر الدروز أن سلوكه يجب أن يفسر بطريقة مختلفة كل الاختلاف .

ولم يكن الشيخ الطيب يشكو من زياراتى المتكررة . كما أنه كان يعلم أنى أستطيع أن أكون نافعا بالنسبة إليه عند باشا عكا ، وهكذا أخذ يقص على عن طيب خاطر ، وبكل ما يمتاز به الفكر العربى من عظمة قصصية ، قصة الحاكم هذه التى أنقلها تقريبا كما قصها على . إن كل شىء فى الشرق يتحول

---

(١) إمبراطور رومانى من أصل سورى ولد سنة ٢٠٤ وحكم من ٢١٨ إلى ٢٢٢ وقد اشتهر بجونه ومجونه .

إلى قصة . ومع ذلك فإن الأحداث الرئيسية لتلك القصة ترتكز على تقاليد حقيقية . ولم أشعر بأى استياء ، بعد أن شاهدت القاهرة الحديثة ودرستها إذ أجد ذكريات القاهرة القديمة مازالت تحتفظ بها فى الشام الأسر التى نفيت من مصر منذ ثمانمائة عام .

(٣)

قصة الخليفة الحاكم

١ - الحشيش

على الضفة اليمنى للنيل ، وعلى مسافة قصيرة من ميناء الفسطاط حيث توجد أطلال القاهرة القديمة ، ، وفى مكان ليس ببعيد عن جبل المقطم الذى يشرف على المدينة الجديدة كانت توجد بعد العام الألف من التاريخ المسيحى، وهو يعادل القرن الرابع للهجرة الإسلامية ، قرية صغيرة تسكنها غالبية ممن يعتنقون مذهب الصابئين عباد النار والنجوم .

ومن أخريات المنازل التى تحف بالنهر يستمتع المرء بمنظر ساحر ، فالنيل يحيط بأمواجه الحانية جزيرة الروضة ويبدو وكأنه يمسك بها كسلة من الزهور يحملها عبد بين ذراعيه . وعلى الضفة الأخرى ترى الجيزة من بعيد، وفى المساء حينما تغيب الشمس تمزق الأهرام بمثلثاتها العملاقة ضباب الغروب البنفسجى . و تبدو أشجار نخيل الدوم والجميز والتين ككتل سوداء فوق هذه القاعدة الفاتحة اللون . وتهبط قطعان الثيران التى يبدو أن أبا الهول يحرسها من بعيد ، وقد مد جسده فى السهل الفسيح ككلب يتوثب - تهبط فى صفوف طويلة إلى مورد الماء ، وتمزق شعلات الصيادين ظلام الضفتين الكثيف، وكأنها نجوم ذهبية .

وفى قرية الصابئين عباد النار كان أفضل مكان للاستمتاع بهذا المشهد هو وكالة ذات جدران بيضاء تحيط بها أشجار الخروب وتحاذى شرفتها سطح الماء . وفى كل ليلة يشاهد النوتية أى البحارة الذين يهبطون نحو مصب النيل أو يصعدون إلى أعاليه السرج غارقة فى أوانى الزيت .

ويستطيع المحب للاستطلاع أن يرى بسهولة من زورق وسط النهر ، ومن خلال أقواس الأروقة ، المسافرين والرواد داخل الوكالة ، وهم جلوس أمام مناضد صغيرة على أقفاص من خشب النخيل أو أرائك مغطاة بالحصير ويدهش لمنظرهم الغريب . إن حركاتهم الغريبة التى يتلوها ركود ذاهل وضحكات بلامعنى وصرخات جوفاء كانت تفلت من صدورهم بين الفينة والفينة تحمله على الإعتقاد بأن هذه الوكالة ماهى إلا إحدى الدور التى يتحدى فيها الفاسقون المحظورات ، ويغرقون أنفسهم فى النبيذ والبوظة أو الحشيش .

وذات مساء أقبل زورق تحدوه ثقة من يعرف المكان ورسا متسترا فى ظل الشرفة عند أقدام سلم تنغمس أولى درجاته فى الماء ، واندفع منه شاب وسيم الطلعة يبدو عليه طابع الصيادين وصعد درجات السلم بخطوات سريعة ثابتة ، وجلس فى زاوية القاعة فى مكان يبدو أنه كان معتادا الجلوس فيه . ولم يلتفت أحد لمقدمه مما يحمل على الاعتقاد بأنه من الرواد الدائمين .

وفى اللحظة نفسها ومن الباب المقابل أى من ناحية البر دخل رجل يرتدى لباسا من الصوف الأسود ، وقد غطى رأسه بخلاف المألوف بشعر طويل تحت « الطاقية » .

وقد أحدث ظهوره غير المنتظر بعض الدهشة . وجلس الرجل فى ركن معتم . وسرعان ما تغلب السكر العام الذى يغرق فيه الجميع على القوم ، فلم يعد أحد يلتفت إليه . ورغم ملابسه الرثة فإن وجه القادم الجديد لم يكن يعبر عما يتميز به البؤس من ذلة وقلق . لقد كانت ملامحه الواضحة تذكرك بالخطوط الصارمة لقناع يمثل وجه الأسد . أما عيناه ذوات اللون الأزرق القاتم كالزمرد الأزرق فقد كان لهما قوة لا يمكن تعريفها ، لقد كانتا فى وقت واحد مخيفتين وساحرتين .

أما يوسف ، وهو اسم الشاب الذى قدم فى الزورق ، فقد شعر فى الحال بميل خفى إلى هذا الرجل المجهول الذى لاحظ قدومه غير المعتاد . ولما لم يكن بعد قد اشترك فى الثمل العام ، فقد اقترب من الأريكة التى كان الرجل قد جلس عليها القرفصاء وقال له :

— « يبدو عليك التعب أيها الأخ . ولا شك أنك قادم من بعيد . هل لك فى بعض المرطبات ؟ فأجاب الغريب :

ـ الواقع أن طريقى كان طويلا . وقــد دخلت هذه الوكالة بقصد الراحة . ولـكن ماذا عساى أشرب هنا حيث لا تقدم إلا المشروبات المحرمة ؟

— أنتم معشر المسلمين لا ترطبون شفاهكم إلا بالماء الطاهر . أما نحن الصابئين فنستطيع أن نعب من عصارة الكرم الطيبة وشراب الشعير الأشقر دون أن يكون فى ذلك أى خرق لقوانيننا .

— ومع ذلك فلا أرى أمامك أى مشروب مخمر !

فقال يوسف وهو يشير إلى زنجى كان يضع على المنضدة كئوساً زجاجية صغيرة يحيط بها آنية من خيوط الفضة وعلبة مليئة بعجينة مائلة للخضرة وقد انغمس فيها مغراف صغير من العاج . كانت هذه العلبة تحوى الجنة التى وعدها نبيكم للمؤمنين .

واسترسل يوسف ضاحكا :

— ولو لم تكن متزمتا إلى هذا الحد لألقيت بك بعد ساعة بين ذراعى الحور دون أن تمر بالسراط المستقيم .

فأجاب الغريب وهو يبعد عنه الكأس الذى كان يوسف قد وضع فيها شيئاً من الخليط العجيب :

— لولم أكن مخطئا، فإن هذه العجينة هى الحشيش . والحشيش محرم .

فقال يوسف وهو يزدرد الملعقة الأولى :

— إن كل ما هو ممتع محرم » .

وسلط عليه الغريب بريق عينيه ذا اللون الأزرق القاتم ، بينما تقلص جلد جبهته محدثا ثنيات كانت من الشدة بحيث جعلت شعر رأسه يتبع تموجاتها ،حتى أن المرء ليخال أنه سوف ينقض على الشاب المستهتر ويمزقه إربا . إلا إنه تمالك نفسه وانبسطت أساريره.وسرعان ما غير رأيهومديده وأمسك بالكأس وأخذ يتذوق العجينة الخضراء يبطء .

وماهى إلا بضع لحظات حتى بدأ مفعول الحشيش يبدو على يوسف والرجل الغريب . وانتشر الارتخاء اللذيذ فى أطرافهما جميعا ، وأخذت الابتسامة الغامضة ترفرف علىشفاههما. ورغمأنالزمن الذىقضاه أحدهما مع الآخر لا يكاد يعدو نصف الساعة فقدكان يبدو لهاكما لوكانا قد تعارفا منذ أكثر منألف عام . ولما اشتد مفعول الحشيش عليهما أخذايضحكان ويهتزان ويتحدثان بطلاقة شديدة ، لاسيما الغريب الذى لم يكن ، لاقتناعه الشديد بأن المحرمات محرمات ، قد تذوق هذا المستحضر من قبل، ولذا فقد شعر بتأثيره الشديد . لقدكان تحت تأثير نشوة غريبة وكانت هناك خلايا من الأفكار الجديدة غير المعقولة ولا المفهومة تجوب نفسه فى دوامات نارية . وكانت عيناه ترسلان الشرر ،كما لو كان يضيئهما من الداخل نور عالم مجهول، واكتست هيئتهبهيبة فوق البشرية .ثم زالت عنه الرؤيا فاستسلم فى استرخاء إلىكل متع « الكيف » فوق الوسائد المربعة .

وانتهز يوسف فترة السكون هذه فى ثمل الرجل الغريب فقال له :

— « حسن أيها الرفيق ، كيف وجدت مربى الفستق الطيب هذه ؟ هل

ستستمر فى لعنة هؤلاء القوم الطيبين الذين يجتمعون فى هدوء فى قاعة منخفضة ليسعدوا بطريقتهم الخاصة ؟

فأجاب الغريب بصوت بطىء عميق :

— إن الحشيش يجعلك شبيها بالله .

فأجاب يوسف فى حماس ،

— نعم ، إن شاربى الماء لا يعرفون من الأشياء إلا مظهرها المادى الخشن. أما الثمل فإنه إذ يصيب عينى الجسد بالاضطراب يضىء عينى النفس. وحينما تتحرر الروح من الجسد، أى من سجنها الثقيل ، فإنها تهرب كسجين نام حارسه تاركا المفتاح فى باب الزنزانة. فتنطلق فى مرح وحرية إلى الفضاء والنور وتتحدث بلا كلفة إلى الأرواح التى تصادفها والتى تسحرها بما تكشفه لها من مفاجآت رائعة : وتجوب النفس فى سهولة ويسر أجواء من السعادة لا توصف ، وهذا فى زمن لا يتعدى دقيقة تبدو لا نهاية لها إزاء هذه المشاعر التى تتوالى عليها بسرعة. أما أنا فإنى أرى حلما لا يفتأ يظهر لى هو نفسه، إلا أنه يبدو دائما متغيرا: فحينما أنسحب إلى زورقى وقد اهتزت ساقاى تحت تأثير ما يبدو لى من رؤى رائعة، وحينما أقفل جفنى على اليواقيت والزبرجد التى يصور عليها الحشيش خيالاته الرائعة فإنى ألمح فى قلب اللا نهاية وجها سماويا أجمل من أى مخلوق صوره الشعراء يبسم لى فى رقة أخاذة ويهبط من السماء ليأتى إلى . أملاك هى أم جنيه؟ لا أدرى إنها تجلس إلى جوارى فى الزورق الذى ما يلبث خشبه الخشن أن يتحول إلى صدف لؤلئى ويطفو على نهر من اللجين يدفعه نسيم محمل بالعطور الشذية .

فتمتم الغريب وهو يهز رأسه :

— يالها من رؤيا جميلة غريبة ! .

فاسترسل يوسف قائلا :

ليس هذا هو كل شىء . فذات ليلة وكنت قد أخذت جرعة أقل تأثيراً أفقت من ثملى حينما كان الزورق يمر برأس جزيرة الروضة . لقد كانت هناك امرأة شبيهة بفتاة حلى تحنو على بعينين لم يجردهما تجسدهما البشرى من بريقهما السماوى . وكان خمارها المفتوح قليلا يظهر فى ضوء القمر تألق سترتها المثقلة بالأحجار الكريمة . والتقت يدى بيدها، لقد كان جلدها رقيقا رخصا طريا كأوراق الزهور . وأقنعتنى خواتمها حين لامست نقوشها يدى بالحقيقة .

وقال الغريب فى تأمل :

— بالقرب من جزيرة الروضة ؟

فاسترسل يوسف دون أن يأبه بملاحظة كاتم سره المرتجل هذا :

— ولم أكن أحلم . إن الحشيش لم يفعل سوى تنمية ذكرى كانت هاربة فى أعماق نفسى . إذ أن هذا الوجه السماوى كان معروفا لدى ؛ ترى أين رأيته من قبل ؟ فى أى عالم التقينا ؟ وأى حياة سابقة ربطت بيننا ؟ هذا مالا أستطيع تبيانه . إلا أن هــذا التقارب الغريب وهذه المغامرة الفذة لم تكن تحدث فى نفسى أية دهشة . كان يبدو لى طبيعيا أن توجد هذه المرأة، التى تحقق مثلى الأعلى تماماً ، فى زورق وسط النيل كما لو كانت قد انطلقت من كأس إحدى هذه الزهور العريضة التى تعلو سطح الماء . ودون أن أطلب منها أى تفسير ألقيت بنفسى عند قدميها وأخذت أوجه إليها ، كما لو كنت أتحدث إلى جنية أحلامى ، كل ما يستطيع الحب فى نشوته أن يتصوره من مشاعر مضطرمة سامية . لقد كانت ترد على لسانى كلمات ذات معان واسعة وعبارات تحتوى على عوالم من الأفكار وجملا غريبة تهتز فيها أصداء عوالم اندثرت . لقد كانت نفسى تكبر وتكبر فى الماضى والمستقبل .

أما الحب الذى كنت أعبر عنه ، فقد كنت على يقين من أننى شعرت به منذ زمن سحيق .

وكلما استرسلت فى الحديث كنت أرى عينيها الواسعتين تتألقان وترسلان شحنات من الضوء . وكانت يداها الشفافتان تمتدان نحوى وقد تحولتا إلى أشعة من النور . كنت أشعر أننى محاط بشبكة من الشعلات فأعود رغما عنى من صحوتى إلى حلمى . وحينما تمكنت من التغلب على النشوة اللذيذة التى لا تقاوم والتى تربط أطرافى كنت على الضفة المقابلة فى الجيزة ، وقد أسندت ظهرى إلى شجرة من أشجار النخيل ، وكان عبدى الأسود ينام فى هدوء إلى جوار الزورق الذى كان قد سحبه فوق الرمال .

وكان الضوء الوردى ينير أطراف الأفق ، والنهار على وشك الطلوع .

فقال الغريب دون أن يبدى أى اعتراض على استحالات قصة يوسف ، إذ أن الحشيش يجعل الخوارق سهلة التصديق :

ــ « إن هذا الحب لا يشبه الحب الأرضى فى شىء » .

ــ « إنى لم أذكر هذه القصة التى لا تصدق لأحد . فلماذا أسررت بها إليك أنت الذى لم أره من قبل ؟ إن تفسير ذلك يبدو لى عسيراً . إن ثمة جاذبية خفية تدفعنى نحوك . وحينما دلفت إلى هذه القاعة صاح صوت فى أعماق نفسى يقول : « ها هو ذا أخيراً » . إن مقدمك قد هدأ قلقا خفيا كان يحرمنى من كل راحة . إنك أنت الذى كنت أنتظره دون أن أدرى . إن أفكارى تندفع نحوك ، وهذا ما حدا بى إلى أن أقص عليك كل خفايا قلبى » .

فأجاب الغريب :

ــ إن ما تشعر به أشعر به أنا كذلك ، وسوف أقص عليك ما لم أجرؤ حتى الآن على الاعتراف به لنفسى . إن عاطفتك مستحيلة ، أما عاطفتى فمروعة . إنك تحب جنية أما أنا فأحب . . وسوف ترتعد لذلك . . أحب أختى ! ومع ذلك فمن الغريب أننى لا أشعر بأى ندم لهذا الميل غير الشرعى .

وعبثا أصدرت الأحكام ضد نفسى ، فقد كانت هناك قوة خفية أشعر بها داخل نفسى تبرئنى . ولم يتلوث حبى بأى دنس أرضى فليست الشهوة هى التى تدفعنى نحو أختى ، رغم أنها تعدل طيف رؤياى جمالا . إنه ميل لا يمكن تعريفه ، عاطفة عميقة كالبحر فسيحة كالسماء ، كتلك التى قد يشعر بها الآلهة . وإن فكرة اقتران أختى برجل ما توحى إلى بالتقزز والهلع كما لو كان فى الأمر خرق للدين . إن بها شيئاً سماوياً ألمحه من خلال أغطية الجسد .

ورغم ذلك الاسم الذى تحمله على الأرض فإنها قرينة نفسى السماوية والعذراء التى كتبت لى منذ الأيام الأولى للخليقة .

وثمه لحظات أعتقد فيها خلال العصور والظلمات أنى اكتشفت بعض مظاهر تناسخنا الخفى وتعود إلى ذاكرتى مشاهد كانت تدور قبل ظهور الإنسان على الأرض ، فأرى نفسى تحت أغصان عدن الذهبية جالساً إلى جوارها وتقوم الأرواح الطيعة على خدمتنا . وإنى لأخشى إذا اقترنت بامرأة أخرى أن أدنس وأبدد روح ذلك العالم الذى يخفق فى دخيلة نفسى . وبودى أن أحصل ، بتركيز دمنا المقدس ، على جنس خالد ، على إله نهائى أقوى من جميع الآلهة الذين ظهروا حتى الآن فى صور ومظاهر مختلفة ! » .

وبينا كان يوسف والغريب مسترسلين فى هذه المفاجأة الطويلة كان رواد الوكالة قد استسلموا بتأثير الثمل إلى تشنجات غريبة وضحكات بلامعنى وغيبوبات بتأثير النشوة ورقصات تشنجية . إلا أن تأثير العقار أخذ يزول عنهم شيئاً فشيئاً ، فعاد إليهم الهدوء فتمددوا بطول الأرائك وأسلموا أنفسهم لحالة انحطاط القوى التى تتبع عادة هذا الإفراط .

ودخل إلى الوكالة رجل عليه مهابة البطارقة ، وتتدلى لحيته فتغطى ثوبه الطويل ، وتقدم حتى وسط القاعة وقال بصوت رنان :

« أيها الأخوة انهضوا فقد شاهدت السماء الآن ، والساعة ملائمة لتضحية ديك أبيض أمام أبي الهول فى سبيل هيرمس وأجاتوديمون »

ونهض الصابئون على أقدامهم وبدا عليهم الاستعداد لاتباع قسيسهم . أما الغريب فحينما استمع إلى هذا الاقتراح تغير لونه مرتين أو ثلاثاً . فقد غدا لون عينيه أسود وخطت وجهه ثنيات مروعة وأفلت من صدره زئير أصم جعل الرعدة تسرى فى أوصال الجمع ، كما لو كان ثمة أسد حقيق قد سقط وسط الوكالة.

لقد صاح بصوت يرن كالرعد قائلا : « أيها الزنادقة الكفرة ! أيتها الحيوانات الملعونة ! ياعباد الأصنام ! » .

وسرت فى الجمع حركة ذهول إثر انفجار الغضب هذا.

فقد كان الغريب ذا هيئة مهيبة متسلطة ، وكان يرفع ثنيات صديريته بحركات تنم عن العزة والزهو حتى أن أحدا لم يجرؤ على الرد على شتائمه .

واقترب منه الشيخ قائلا : « أى ضرر تجده أيها الأخ فى تضحية ديك طبقا لشعائر فى سبيل روحى هيرمس وأجاتوديمون الطيبين ؟ :

وصر الغريب على أسنانه لدى سماعه هذين الاسمين .

ــ إذا لم تكن تؤمن بمعتقدات الصابئين، فما الذى أتى بك إلى هنا؟ هل أنت من أتباع عيسى أو محمد ؟ .

فصاح الغريب بقدرة غريبة على توجيه اللعنات :

ــ إن محمدا وعيسى دجالان ».

ــ مما لا شك فيه أنك على دين زرادشت ، إنك تقدس النار . . .

كل أولئك أشباح وهراء وأكاذيب .

هكذا صاح الرجل ذو الصديرى الأسود مقاطعا بغيظ مضاعف .

— فمن تعبد إذن ؟

— إنه يسألنى من أعبد ! . . إننى لا أعبد أحداً ، حيث أنى أنا نفسى إله ! إننى الأله الأوحد ، الحق ،الأحد ، أما الآخرون فليسوا إلاظلالا ».

وإزاء هذا الزعم الخبل غير المفهوم أو المعقول انقض الصابئون على هذا المهرف . ولقد كان فى مقدورهم أن يلحقوا به ضرراً بالغا ، لو لم يغطه يوسف بجسده ويجره إلى الخلف حتى الشرفة التى يغمرها النيل رغم أنه كان يقاوم ويصيح كالمخبول . وبضربه قدم قوية موجهة إلى الشاطىء دفع يوسف الزورق إلى وسط النهر ولما صارا مع التيار قال يوسف لصديقه « أين تريد أن أوصلك ؟ .

— فأجاب الغريب وقد هدأ نسيم الليل من روعه :

— هناك فى جزيرة الروضة حيث تبصر هذه الأنوار »

وما هى إلا بضع ضربات من مجدافه حتى وصل يوسف إلى الضفة، وقبل أن يقفز الرجل ذو الصديرى الأسود إلى البر قال لمنقذه، وهو يقدم له خاتما قديم الصياغة انتزعه من إصبعه : « فى أى مكان تصادفنى فيه ما عليك إلا أن تقدم لى هذا الخاتم فأحقق لك ما تريد » ثم ابتعد واختفى تحت الأشجار التى تحف بالنهر . ولكى يعوض يوسف مافاته من وقت ، وقد كان يرغب فى مشاهدة تضحية الديك ، أخذ يضرب ، ماء النيل بمجدافه بقوة مضاعفة .

٢ – المجاعة

وبعد بضعة أيام خرج الخليفة من قصره كالمعتاد متجها إلى مرصد المقطم . ولقد اعتاد الجميع رؤيته يخرج هكذا من وقت لآخر على ظهر حمار يرافقه عبد وحيد أبكم . ولقد كان الناس يفترضون أنه يقضى الليل فى تأمل النجوم، لأنهم كانوا يرونه يعود لدى مطلع النهار فى نفس الموكب. ولم يكن ذلك يدهش خدامه كثيراً ، إذ أن أباه العزيز بالله وجده المعز لدين الله مؤسس مدينة القاهرة كانا يتصرفان مثل هذا التصرف لشدة تغلغلهما فى علوم السحر . إلا أن الخليفة الحاكم بعد أن يتأمل وضع النجوم ويدرك أن ليس ثمة خطر مباشر يتهدده كان يغير ملابسه العادية ويلبس ملابس عبده الذى كان يظل فى انتظاره فى البرج ، وبعد أن يطلى وجهه قليلا بالسواد حتى يخفى ملامحه كان ينزل إلى المدينة ليختلط بالشعب ويتعرف على الأسرار التى يستفيد منها فيما بعد كحاكم . ولقد كان متخفيا هكذا حين دخل إلى وكالة الصابئين .

وفى هذه المرة هبط الحاكم إلى ميدان الرميلة حيث يزداد ازدحام الشعب : كان الناس يتجمعون فى الحوانيت وتحت الأشجار للاستماع إلى القصص والأشعار أو لقولها ويشربون المشروبات السكرية وعصير الليمون ويأكلون الفواكه المسكرة . وكان المشعوذون والعوالم وعارضو الحيوانات يجذبون عادة حولهم جمعا شديد الرغبة فى التسلية بعد عناء الأعمال اليومية. إلا أن كل شيء كان قد تغير هذا المساء، وكان الشعب كبحر هادر بأمواجه الصاخبة وصخوره الناتئة . ولقد كانت ثمة أصوات مروعة تعلو الصخب العام هنا وهناك ، بينما كانت الخطب الغاصة بالمرارة ترن فى كل مكان . وسمع الخليفة هذه الصيحة من الجميع : « إن مخازن الغلال فارغة ! » .

والواقع أن مجاعة شديدة كانت تهدد الشعب منذ بعض الوقت . ولقد كان للأمل فى وصول قمح الصعيد قريبا مفعوله فى تهدئة المخاوف مؤقتا : وكان كل فرد يبذل قصارى جهده فى حسن تصريف موارده . ومع ذلك فنى هذا اليوم ، بسبب كثرة عدد قافلة الشام، أصبح من المستحيل تقريبا أن يحصل أى فرد على غذائه ، فاتجه جمع خفير سام الأجانب فى إثارتهم إلى مخازن الغلال العامة فى مصر القديمة ، وهى المورد الأكبر لأكبر المجاعات فقد كان عشر كل محصول يخزن هنا فى صوامع ضخمة ذات جدران مرتفعة وقد أنشأها عمرو فى سالف الزمان . وبناء على أمر فاتح مصر ظلت هذه المخازن بلاسقف حتى تحصل الطيور على نصيبها منها . ولقد ظل هذا التقليد الدينى متبعا ، ولم يكن يتسبب إلا فى فقدان جزء يسير من احتياطى الحبوب ، ويبدو أنه كا يجلب الحظ للمدينة . إلا أنه فى ذلك اليوم حينما طلب الشعب الهائج أن يحصل على الحبوب أجابه العاملون بأن أسرابا من الطيور قد حلت وأتت على كل شىء . وظن الشعب إزاء هذا الجواب بأنه مهدد بأكبر الشرور ومنذ تلك اللحظة ساد الوجوم على كل مكان .

وأخذ الحاكم يقول لنفسه :

« كيف لم أعلم أى شىء من هذا ؟ وهل من الممكن أن تتم أعجوبة كهذه؟ لو كان ذلك صحيحا لرأيت خبره فى النجوم ، إن شيئا لم يتغير فى النظام الذى خططته » .

وكان مستغرقا فى هذا التأمل حين اقترب منه شيخ يرتدى ملابس شامية وقال له . لماذا لا تعطيهم الخبز يامولاى ؟ »

ورفع الحاكم رأسه فى دهشة وسدد نظراته التى تشبه نظرات الأسد إلى الرجل الغريب ، وظن أن هذا الرجل قد عرفه رغم تخفيه.

لقد كان هذا الرجل ضريراً .

وقال له الحاكم :

« هل بك خبل حتى توجه مثل هذا القول إلى رجل لا تراه ، ولم تسمع إلا وقع خطواته فى التراب ؟ .

فقال الشيخ :

— « إن كل الناس جميعا عميان تجاه الله » .

— « أتوجه قولك هذا إلى الله إذن ؟ »

— « إنى أوجهه إليك يا مولاى »

وفكر الحاكم برهة، ودار فكره من جديد فى دوامة كما حدث حينما ثمل تحت تأثير الحشيش .

وقال الشيخ .

— « أنقذهم » ، لأنك أنت وحدك القوة ، وأنت وحدك الحياة ، وأنت وحدك الإرادة » .

— فأجاب الحاكم وهو نهب لفكرة لا يمكن تحديدها :

— « أتظن إذن أنه فى مقدورى خلق القمح هنا للتو ؟

— إن الشمس لا تضىء خلال السحاب ، إنها تبدده ببطء .

والسحابة التى تغطيك فى هذه اللحظة هى الجسد الذى تنازلت ودخلت فيه ، والذى لا يستطيع أن يتحرك إلا بقوة البشر . إن كل مخــــلوق يتبع قانون الأشياء التى أمر بها الله . والله وحده هو الذى لا يتبع إلا القانون الذى وضعه هو لنفسه . إن العالم الذى خلقه بفن السحر ليتفكك حالا لو قصر فى اتباع إرادته .

فقال الخليفة، وهو يتكلف الاتزان :

— « أرى جيداً أنك لست إلا شحاذاً ، وقد عرفت من أنا تحت هذا التخفي، ولكن تملقك جاف . إليك هذا الكيس من الدراهم الذهبية واتركني وشأني .

— إنني أجهل مكانتك يا مولاى ، لأنني لا أرى إلا بعيني الروح .

أما عن الذهب فإني متعمق في الكيمياء، وأعرف كيف أصنع منه الكثير حين أحتاج إليه . إني أعطى هذا الكيس لشعبك . إن الخبز غالى الثمن ، ولكن في هذه المدينة الطيبة مدينة القاهرة يستطيع المرء بالذهب أن يحصل على كل شيء .

فقال الحاكم في نفسه :

— « لابد أنه من مستحضرى الأرواح »

وفى هذا الوقت كانت الجموع منهمكة في جمع القطع الذهبية التى نثرها الشيخ الشامى على الأرض، ثم تهرع إلى أقرب خباز . وفى هذا اليوم لم تكن تباع أقة الخبز إلا بقطعة ذهبية .

وقال الحاكم :

« آه ! هكذا ، لقد فهمت ! إن هذا الشيخ القادم من بلاد الحكمة قد عرفني وتحدث إلى بالرموز . إن الخليفة هو صورة الله ويجب أن أعاقب الناس كما يعاقبهم الله .

واتجه إلى القلعة حيث وجد رئيس الحراس ، أبو عروس ، الذى كان على علم بتخفيه . وأمر هذا الضابط وجلاده باتباعه ، كما فعل من قبل في ظروف

عديدة ، إذ أنه كان يفضل ـ شأنه فى ذلك شأن معظم أمراء الشرق ـ هذه الطريقة السريعة فى القضاء ، وعاد بهما إلى بيت الخباز الذى باع الخبز بوزنه ذهبا .

وقال لرئيس الحراس :

« هذا لص »

فقال الضابط :

— يجب إذن أن ندق أذنه فى نافذة حانوته الخشبية .

فقال الخليفة :

— نعم ، ولكن بعد قطع رأسه .

أما الشعب الذى لم يكن يتوقع مثل هذه الحفلة ، فقد تجمع فى حلقة فى الشارع ، حينما كان الخباز يعترض عبثا ببراءته ، وكان الخليفة مرتديا جبة سوداء أخذها من القلعة فبدا فيها ، كما لو كان مجرد قاض يؤدى وظيفته .

وجثا الخباز على ركبتيه ومد رقبته ، وهو يوصى الملكين ناكر ونكير خيرا بروحه . وفى هذه اللحظة اخترق شاب الجمع ، واندفع نحو الحاكم وهو يقدم له خاتما من الفضة المرصعة . ولم يكن إلا يوسف الصابىء .

وصاح يوسف :

« إنى أشفع لهذا الرجل لديك » .

وتذكر الحاكم وعده وعرف صديقه الذى تعرف به على شاطىء النيل . وبإشارة منه ابتعد الجلاد عن الخباز الذى نهض مسرورا . ولما سمع الحاكم همهمات الشعب الذى لم يرضه هذا التصرف ، أسر ببعض الكلمات فى أذن رئيس الحرس الذى صاح قائلا فى صوت مرتفع :

« إن السيف معلق حتى الغد فى مثل هذه الساعة . ولذا فعلى كل خباز أن يبيع الخبز بسعر قطعة ذهبية واحدة لكل عشر أقات .

فقال الصابى للحاكم :

— لقد فهمت ذلك اليوم أنك من رجال القضاء حينما شاهدت غضبك من المشروبات المحرمة . وهذا الخاتم يمنحنى حقاً سوف أستعمله من وقت لآخر .

فأجاب الخليفة وهو يعانقه :

— لقد قلت صدقاً أيها الأخ . إن سهرتى الآن قد انتهت ، فهيا بنا نستمتع بتعاطى الحشيش فى وكالة الصابئين » .

٣ — سيدة الملك

حين دخل يوسف إلى البيت انتحى برئيس الوكالة جانبا، ورجاه أن يلتمس الأعذار لصديقه للمسلك الذى اتخذه منذ بضعة أيام. وقال إن لكل امرىء أفكاره الثابتة فى حالة السكر وفكرة صديقه هى أنه إله! ونقل رئيس الوكالة هذا التفسير إلى الرواد الذى أبدوا ارتياحهم له.

وجلس الصديقان فى نفس المكان الذى كانا يجلسان فيه الليلة البارحة. وأحضر لهم الزنجى الصغير العلبة التى تحوى العجينة المسكرة وتناول كل منهما جرعة لم تلبث أن أحدثت مفعولها. إلا أن الخليفة بدلا من أن يستسلم لنزوات التهريف، وينطلق فى أحاديث غريبة نهض كما لو كانت ثمة فكرة ثابتة تدفعه بذراع من حديد. لقد كانت سماته المنحوته فى وضوح تعبر عن فكرة لا تتزعزع، وقال ليوسف بنبرة متسلطة لا تقاوم.

« أيها الأخ، يجب أن تستقل الزورق وتقودنى إلى نفس المكان الذى أنزلتنى فيه بالأمس فى جزيرة الروضة بالقرب من شرفات الحديقة».

وإزاء هذا الأمر غير المتوقع شعر يوسف بشاهد من المستحيل عليه تبيان كنهها، رغم ما كان يشعر به من غرابة لمغادرة الوكالة فى اللحظة نفسها التى تتطلب فيها متع الحشيش الراحة والأرائك لتنمو وتتكون كما يحلو لها. إلا أن الإرادة القوية كانت تطل من عينى الخليفة لدرجة حدت بالشاب إلى أن يهبط فى سكون إلى زورقه، وجلس الحاكم فى الطرف بالقرب من مقدمة الزورق، بينما انحنى يوسف على المجاديف.

أما الخليفة الذى استسلم خلال تلك الرحلة القصيرة إلى أعنف درجات النشوة، فقد قفز إلى الأرض دون أن ينتظر محاذاة القارب للشاطىء. وصرف

صديقه بإشارة ملكية جليلة . وعاد يوسف إلى الوكالة واتخذ الأمير طريق القصر .

ودخل من باب سرى لمس زمبركه الخفى ، وما كاد يعبر بضعة ممرات مظلمة ، حتى ألقى نفسه فى أجنحته وأدهش ظهوره المفاجىء حاشيته التى اعتادت ألا تراه يعود إلا لدى ظهور أضواء النهار الأولى . وأحدثت ملامحه التى تنبعث منها أشعة من نور ومشيته غير الثابتة والمتوترة فى الوقت نفسه وحركاته الغريبة رعبا غامضا فى نفوس الخصيان . لقد ظنوا أن ثمة شيئا غير عادى سوف يحدث فى القصر . فوقفوا ملتصقين بالجدران ، وقد خفضوا الرءوس وعقدوا الأذرع فى انتظار ماسوف يحدث ، يحدوهم قلق مهذب . فقد كانوا يعلمون أن ظلم الحاكم مفاجىء ومروع وبغير ماسبب ظاهر ، لقد كان كل واحد منهم يرتجف ، لأن أحدا منهم لم يكن يشعر أنه طاهر الذيل.

ومع ذلك فلم يطح الحاكم بأى رأس . لقد كانت ثمة فكرة أكثر خطورة تشغله تماما . ودون أن يعبأ بأية تفاصيل نظامية اتجه إلى جناح أخته الأميرة ست الملك ، وهو عمل مضاد لجميع الأفكار الإسلامية . واجتاز الباب ودلف إلى القاعة الأولى وسط ارتياع خصيان ووصيفات الأميرة اللاتى سارعن بتغطية وجوههن .

وكانت ست الملك (أى سيدة المملكة) جالسة داخل قاعة منعزلة فوق رص من الوسائد المربعة تغطى سريراً أعد داخل سمك الجدار . لقد كانت هذه القاعة تبهر العين لفخامتها . كانت سماؤها ذات القباب الصغيرة تشبه قرصا من العسل أو مغارة ذات بروز كروية جيرية ، وذلك لما تمتاز به زيناتها من تعقيد فنى حاذق تختلط فيه الألوان الحمراء والخضراء واللازوردية والذهبية البراقة . وكانت القسيفساء الزجاجية تغطى الجدران

إلى ارتفاع قامة الرجل بلصائقها الرائعة. وكانت ثمة أقواس مفرغة فى شكل قلب تلتق من عل فى رشاقة بأعالى الأعمدة التى اتخذت شكل عمامة تحملها أعمدة صغيرة من المرمر. وكنت تجد أعالى الجدران والأبواب وإطارات النوافذ وقد ازدانت بكتابات بالخط الكوفى التى كانت تختلط فيه الحروف الرشيقة بالزهور والأغصان والكتابة العربية الملتوية. وفى وسط القاعة كنت ترى نافورة من الرخام الأبيض كانت المياه تنبثق فى حوضها المنحوت كالبلور وتندفع حتى القبة، ثم تعود فتسقط كالرذاذ محدثة رنينا كرنين الفضة.

ولما وصلت إلى مسامع ست الملك الهمهمة التى سببها دخول الحاكم نهضت فى قلق ومشت بضع خطوات تجاه الباب. وهكذا بدت قامتها الجليلة بكل ما فيها من ميزات ؛ إذ أن أخت الخليفة كانت أجمل أميرات العالم. كان لها حاجبان كالقطيفة السوداء يعلوان بقوسيهما المنتظمين عينيها اللتين تنخفض لها جميع العيون وكأنها الشمس. أما أنفها فكان دقيقاً وذا قوس أقنى طفيف مما يدل على جنسها الملكى. ووسط شحوبها الذهبى الذى يغطيه فوق خديها سحابتان خفيفتان من المساحيق ترى فمها القرمزى الساحر يتألق كرمانة مليئة باللؤلؤ.

وكان ثوب ست الملك غاليا نفيسا بشكل لا يتصوره العقل. كان ثمة قرن من المعدن مطعم بالماس يرتبط به خمارها الشفاف المزين هنا وهناك بحبات الترتر. أما ثوبها وكان نصفه من القطيفة الخضراء ونصفه الآخر من القطيفة الوردية، فقد اختفى تقريبا تحت الوشى والأغصان المطرزة الكثيفة. وعلى الأكمام وفوق الكوع وعلى الصدر تكونت بؤر من النور ذى البريق الشديد كانت تلتق فيه أشعة الذهب بأشعة الفضة. وكنت ترى المنطقة المكونة من رقائق من الذهب المجدول المرصع بفصوص كبيرة من اليواقيت وهى تتزلق لثقل وزنها حول وسط رشيق رائع الجمال، ويوقفها

امتلاء دوران الردفين . وهكذا كانت تبدو ست الملك فى ثيابها كإحدى ملكات الإمبراطوريات المندثرة التى كان أجدادها من الآلهة .

وانفتح الباب فى عنف وبدا الحاكم على عتبته . ولما رأت ست الملك أخاها لم تستطع حبس صرخة دهشة كان مبعثها مظهر الخليفة الغريب لا تلك الحركة غير العادية . والواقع أن الحاكم كان يبدو وكأنه لا يمت إلى هذه الأرض . كان لونه الشاحب يعكس أنوار عالم آخر . لقد كانت صورة الخليفة تحمل عقلا آخر وروحاً أخرى . كانت حركاته حركات أشباح وكان يبدو وكأنه عفريت مجسد . وتقدم نحو ست الملك تدفعه الإرادة لا الحركات البشرية . ولما صار قريبا منها أحاطها بنظرة عميقة نفاذة متغلغلة ومحملة بالأفكار، حتى أن الأميرة ارتجفت وعقدت ذراعيها فوق صدرها ، كما لو كانت ثمة يد خفية تريد تمزيق ثيابها .

وقال الحاكم :

« ياست الملك، لقد فكرت طويلا فى تزويجك ، إلا أنه ليس هناك من هو جدير بك . إن دمك الملكى لا ينبغى أن يختلط بدم آخر . يجب أن ننقل إلى الأجيال القادمة الكنز الذى تلقيناه من الماضى سليما . إننى أنا الحاكم والخليفة وسيد السماء والأرض الذى سيكون زوجا لك . وسوف يتم الزواج خلال ثلاثة أيام . تلك هى إرادتى المقدسة » .

وبلغت دهشة الأميرة لهذا الاعتراف غير المتوقع حدا جعل الإجابة تتوقف على شفتيها ، فقد تحدث الحاكم بتسلط وسيطرة مذهلتين ، مما جعل ست الملك تشعر أن أية معارضة له تعتبر مستحيلة .ودون أن ينتظر رد أخته تراجع الحاكم حتى الباب ، ثم دخل إلى غرفته . وهزمه الحشيش الذى كان مفعوله قد وصل إلى ذروته ، فسقط فوق الوسائد كتلة واحدة واستسلم للنوم

وما كاد أخو ست الملك ينصرف حتى استدعت إلى حضرتها الوزير الأكبر أرجفان وقصت عليه كل ما حدث . وقد كان أرجفان وصيا على المملكة فى حداثة الحاكم الذى نودى به خليفة وهو فى الحادية عشرة من عمره . وظل يحتفظ فى يده بسلطة لا حد لها وساهمت قوة العادة فى جعله يحتفظ بسلطات الملك الحقيق التى لم يكن للحاكم منها سوى المظاهر الشرفية .

وإن ما تبادر إلى ذهن أرجفان بعد ما قصته عليه ست الملك من أمر تلك الزيارة الليلية للخليفة لا يمكن أن يصفه بشر . ولكن من كان يستطيع سبر غور هذه النفس العميقة ومعرفة مابها من أسرار ؟ أهما الدراسة والتأمل اللذان تسببا فى هزال خديه وظلام نظرته الصارمة ؟ أهما التصميم والإرادة اللذان خطا على خطوط جبهته علامة الأقدار المنحوسة المشئومة ؟ أكان وجهه الشاحب كقناع لا يتحرك ولا ينثنى من لحظة لأخرى إلا فيما بين الحاجبين ـ لا يدل إلا على أنه ينتمى إلى سهول المغرب الملتهبة ؟ هل كان الاحترام الذى يوحى به إلى سكان القاهرة والتأثير الذى يمارسه على الأثرياء وذوى النفوذ دليلا على اعترافهم بالحكمة والعدل اللذين طبقهما فى إدارة شئون الدولة ؟

مهما يكن من أمر فإن ست الملك التى تولى هو تربيتها كانت تحترمه كما تحترم أباها الخليفة السابق . وشارك أرجفان السلطانة غضبها ، ولكنه اكتفى بأن قال : « يا للأسف ! أى تعاسة تلك للإمبراطورية ! لقد فقد أمير المؤمنين عقله ... إنها مصيبة أخرى تصيبنا بها السماء بعد المجاعة . يجب أن نأمر بإقامة الصلوات .

إن ملكنا قد جن .

وصاحت ست الملك :

— ليحفظنا الله .

وأضاف الوزير :

— حين يستيقظ أمير المؤمنين آمل أن يكون ذلك الضلال قد انقشع ، حتى يستطيع كالمعتاد أن يترأس المجلس الكبير » .

وانتظر أرجفان فى مطلع النهار صحوة الخليفة . إلا أن الخليفة لم يدع إليه عبيده إلا فى وقت متأخر جداً ، فأعلنوا إليه أن قاعة الديوان قد غصت بالعلماء ورجال القانون والقضاة . ولما دخل الحاكم إلى القاعة انحنى الجميع كالمعتاد . وحين نهض الوزير أخذ يفحص بنظرة مستطلعة وجه السيد المستغرق فى التفكير .

ولم تفت تلك الحركة فطنة الخليفة . وخيل إليه أن ملامح وزيره كانت تحمل معنى التهكم البارد . وكان الأمير آسفا منذ زمن للسلطة الكبيرة التى تركها لبعض الأتباع .وكان يدهش حين يريد التصرف الفردى من أنه كان يصادف دائما معارضة من قبل العلماء والكشاف والمديرين وكلهم من أتباع أرجفان المخلصين . وإذا كان قد قرر من قبل اللجوء إلى التخفى والجولات الليلية ، فما كان ذلك إلا للهرب من هذه الوصاية وللحكم على الأشياء بنفسه .

ولما رأى الخليفة أن الاهتمام لا يوجه إلا إلى الأمور الجارية أوقف المناقشة ، وقال بصوت رنان .

« لنتحدث قليلا عن المجاعة . ولقد عزمت اليوم على قطع رءوس جميع الخبازين » . ونهض أحد الشيوخ من مقاعد العلماء وقال :

« يا أمير المؤمنين ، ألم تعف عن أحدهم الليلة البارحة ؟ »

ولم تكن رنة ذلك الصوت بغريبة على الخليفة الذى أجاب قائلا :

« هذا صحيح ، ولكنى عفوت بشرط أن يباع الخبز بسعر قطعة ذهبية واحدة لكل عشر أقات » .

وقال الشيخ :

— « فكر فى أن هذا التعس يشترى الدقيق بسعر عشر قطع للأردب . والأجدر أن تعاقب من يبيعونه بهذا السعر » .

— ومن هم هؤلاء ؟

— الملتزمون والكشاف والمديرون والعلماء أنفسهم الذين يمتلكون أكواماً منه فى منازلهم » .

وسرت رعدة فى أوصال أعضاء المجلس والحاضرين الذين يشكلون أهم سكان القاهرة .

وأحنى الخليفة رأسه بين يديه واستغرق بضع لحظات فى التفكير . وأراد أرجفان الإجابة على ماقال العالم الشيخ بدفعه الغيظ ، إلا أن صوت الحاكم الهادر مالبث أن رن فى المجلس قائلا :

— « سوف أخرج هذا المساء من قصرى فى الروضة ، وسوف أجتاز فرع النيل بزورق . وعلى الشاطىء سوف يكون رئيس الحراس فى انتظارى ومعه الجلاد . ثم سوف أحاذى الضفة اليسرى للخليج وسأدخل القاهرة من باب النهلة لأذهب إلى مسجد الرشيد . وسوف أطلب من كل بيت أصادفه للملتزمين والكشاف والعلماء ما إذا كان لديهم قمح . وفى كل بيت لا أجد فيه قمحا سوف آمر بقطع رأس صاحبه » .

ولم يجرؤ الوزير أرجفان على رفع صوته فى المجلس بعد ما قال الخليفة ، ولكن لما رآه يعود إلى جناحه اندفع فى إثره ، وقال له : « إنك لن تنفذ

ما قلت يامولاى ! »

فقال له الحاكم فى غضب :

— « انسحب ! أتذكر حينما كنت طفلا أنك كنت تلقبنى بالضب ؟ .. حسن ! إن الضب قد صار الآن تنينا .

٤- المارستان

فى مساء ذلك اليوم نفسه ، وحينما أتت ساعة الصلاة ، دخل الحاكم المدينة من حى الجند لا يتبعه إلا رئيس الحرس وجلاده. ولاحظ أن جميع الطرقات فى طريقه قد ازدانت بالأنوار . كان أبناء الشعب يمسكون بالشموع فى أيديهم لإضاءة طريق الأمير ، وتجمعوا بصفة خاصة أمام كل بيت من بيوت الفقهاء ، والكشاف والمسجلين وغيرهم من الشخصيات العظيمة التى وردت فى أمر الخليفة . كان الخليفة حيثما دخل يجد كومة كبيرة من القمح ، فيأمر للتو بتوزيعها على الجوع ويسجل اسم صاحبها . وكان يقول لهم : «إن رءوسكم لن تمس بناء على وعدى ، ولكن من الآن فصاعدا اعملوا على ألا تجمعوا لديكم أكوام القمح لتعيشوا فى رفاهية وسط البؤس العام أو لتبيعوها بوزن الذهب وتجتذبوا إليكم فى بضعة أيام جميع الثروة القومية » .

وبعد أن زار الخليفة بضعة منازل بهذه الطريقة ، بعث بضباط إلى إلى البعض الآخر واتجه إلى مسجد الرشيد ليؤدى الصلاة ؛ إذ أن اليوم كان يوم جمعة . إلا أنه لدى دخوله كانت دهشته شديدة إذ وجد المنصة مشغولة ووجه إليه المديح التالى: «ليمجد اسم الحاكم على الأرض كما هو ممجد فى السماوات والشكر الأبدى لله الحى ! » .

ومهما بلغ تحمس الشعب لما فعله الخليفة منذ لحظة . فإن من شأن هذه الدعوات غير المتوقعة أن تثير غضب المؤمنين المخلصين . ولذا فقد صعد الكثير إلى المنبر ليلقوا بالكافر إلى الأرض. إلا أن هذا الأخير نهض ونزل فى جلال ، وفى كل خطوة يبعد عنه المهاجمين ويخترق الحشود المدهوشة التى كانت تصيح لدى رؤيته من قرب « إنه أعمى ! يد الله معه» وعرف الحاكم فيه

ذلك الشيخ الذى صادفه فى ميدان الرميلة . وكما يحدث فى حالة السهر حين تتسبب قصة غير متوقعة أحياناً فى ربط بعض الأحداث المادية بظروف حلم كان مطويا فى زوايا النسيان حتى الآن ، رأى الحاكم نوعى الحياة اللذين يحياهما، الحياةالحقيقية وحياة النشوة ، يختلطان كما لو كان ذلك بضربة صاعقة . ومع ذلك فقد كان ذهنه يقاوم هذه الانطباعة الجديدة ، حتى إنه بدلا من أن يتوقف مدة أطول فى المسجد امتطى جواده واتخذ طريق قصره .

وأمر باستدعاء الوزير أرجفان إلا أن أحداً لم يعثر عليه . ولما كانت الساعة قد حانت للذهاب للقطم واستطلاع النجوم ، فقد اتجه الخليفة إلى برج المرصد وصعد إلى الطابق الأعلى حيث تبين قبته المثقبة أبراج الكواكب الاثنى عشر . وكان زحل ، وهو كوكب الحاكم ، شاحبا ومعتما ، أما المريخ الذى منح اسمه لمدينة القاهرة فقد كان يتوهج ببريق أحمر دام يعتبر نذير حرب وخطر . وهبط الحاكم إلى الطابق الأول من البرج حيث كانت توجد مائدة للسحر أعدها جده المعز لدين الله . وفى وسط دائرة كتب حولها باللغة الكلدانية أسماء جميع بلاد الأرض ـ كان يوجد تمثال من البرنز لفارس مسلح بحربة كان يمسك بها عادة مستقيمة . إلا أنه فى حالة توجه شعب عدو لقتال مصر كان الفارس يخفض حربته فى توثب ويتجه نحو البلد الذى يصدر منه العدوان. ورأى الحاكم أن الفارس قد اتجه إلى الجزيرة العربية ، فصاح :

« أهم العباسيون دائماً ! أبناء عمر المنحلون الذين حطمناهم فى عاصمتهم بغداد ! ولكن لن آبه الآن بهؤلاء الكفار ، فإنى أملك الصاعقة فى يدى ! »

ومع ذلك فلما فكر فى الأمر مليا شعر بأنه مازال رجلا ، كما كان فى

الماضى . ولم تضف اللوثة إلى تأكده من أنه إله أية ثقة فى أن له قوة خارقة .

وقال الخليفة فى نفسه : « لنذهب ونأخذ النصح من النشوة » .

وذهب ليسكر من جديد بهذه العجينة ، التى ربما كانت هى نفسها الكوثر غذاء الخالدين .

وكان الصديق المخلص يوسف قد وصل فعلا ، واستغرق بعين حالمة فى تأمل مياه النيل المستوية الكئيبة ، والتى هبطت إلى حد مازال يهدد بالجفاف والمجاعة .

وقال له الحاكم : « أيها الأخ ، أتحلم بحبك؟ قل لى من هى حبيبتك وأقسم لك أنك ستحصل عليها » فقال يوسف :

ـــ يا للأسف ! وهل أعلم أنا من هى ؟ منذ أصبحت الليالى خانقة بفعل الخماسين لم أعد ألتقى بزورقها الذهبى على صفحة النيل . فهل أجرؤ ، حتى لو رأيتها على سؤالها من تكون .

إنى لأعتقد أحياناً أن كل ذلك لا يعدو أن يكون وهما من أوهام هذا الحشيش اللعين الذى ربما كان يصارع ذهنى لدرجة تجعلنى لا أميز بين الحلم والحقيقة .

فقال الحاكم فى قلق :

ـــ « أتعتقد ذلك ؟ » . ثم قال لرفيقه بعد لحظة من التردد :

وماذا يهم ؟

لننس الحياة اليوم أيضا » .

وما إن انغمسا فى ثمل الحشيش حتى حدث لهما أمر عجب ! لقد دخل الاثنان فى حالة من المشاركة فى الأفكار والخواطر . لقد كان يوسف يتصور كثيرا أن رفيقه فى انطلاقه نحو السماء راكلا الأرض غير الجديرة بمجده بقدمه يمد إليه يده ويجره فى الفضاء خلال النجوم الدوارة والأجواء الوضاءة بتأثير النجوم المنثورة . وما لبث زحل الشاحب رغم إحاطته بهالة من النور أن كبر وأخذ يقترب تحيط به الأقمار السبعة التى يجرها فى حركته السريعة . ثم من يدرى بعد ذلك ماذا دار لدى وصولهما إلى وطن أحلامهما المقدس ؟ إن لغة البشر لن تقدر إلا على التعبير عن مشاعر تتفق مع طبيعتنا، إلا أن الصديقين فى حديثهما خلال هذا الحلم السماوى كان كل منهما يطلق على الآخر اسما ليس من الأسماء المستعملة على الأرض .

ووسط هذه النشوة التى بلغت حد إعطاء جسديهما مظهر كتل بلا حراك التوى الحاكم فجأة وهو يصيح : إبليس ! إبليس ! وفى نفس اللحظة اخترق رجال الشرطة باب الوكالة وعلى رأسهم الوزير أرجفان الذى أمرهم بمحاصرة القاعة والقبض على جميع هؤلاء الكفرة خارقى أوامر الخليفة الذى كان يمنع تعاطى الحشيش والمشروبات الخمرية . فصاح الخليفة وقد استعاد حواسه وأفاق من غفلته: « يا للشيطان! لقد أرسلت فى البحث عنك للحصول على رأسك ! فإنى أعلم أنك أنت الذى نظمت المجاعة ووزعت احتياطى مخازن الدولة على أتباعك ! لتجثو على قدميك أمام أمير المؤمنين! ولتبدأ بالإجابة وتنتهى بالموت ».

وقطب أرجفان حاجبيه وأضاءت الابتسامة الباردة عينيه القاتمتين ، وقال لحراسه بازدراء :

« إلى المارستان ، هذا المجنون الذى يظن أنه الخليفة ! » .

أما يوسف فكان قد قفز فعلا إلى زورقه ، وقد قدر أنه لن يستطيع الدفاع عن صديقه .

وكان المارستان حنيئذ ، وهو الآن ملاصق لمسجد قلاوون ـ سجنا كبيرا وقد خصص جزء منه فقط للمجانين الثائرين.

وإن احترام الشرقيين للمخبولين لا يصل إلى حد ترك الحرية لمن قد يكون منهم ذا أذى . ولما استيقظ الحاكم فى اليوم التالى فى زنزانة مظلمة سرعان ما أدرك أنه لن يكسب شيئا إذا ثار وقال إنه الخليفة متخفيا فى ملابس فلاح ، لاسيما أنه كان ثمة خمسة آخرون فى المبنى وعدد من الآلهة . وهكذا لم تكن صفة الاله أفضل صفات الخليفة .

ثم إن الحاكم كان جد متقنعاً بعد الجهود الكبيرة التى بذلها فى الليل لتحطيم سلسلته بان ألوهيته السجينة فى صدره الضعيف ستسلمه كما حدث لمعظم البوذيين فى الهند وغيرهم ممن جسدوا الإله الأعظم ـ إلى كل ما فى البشرية من لؤم وقوانين القوة المادية . بل قد تذكر أن الوضع الذى هو فيه الآن ليس جديدا بالنسبة إليه وقال : لنحاول على الأخص تجنب الجلد بالسياط » . فذلك ليس بالأمر الهين ، إذ أن الجلد كان حينئذ الوسيلة المستعملة عادة ضد اضطراب المخيلة . ولما حانت زيارة الطبيب كان فى صحبته طبيب آخر يبدو أجنبيا .

ولقد كان حذر الحاكم شديدا ، لدرجة أنه لم يبدأية دهشة لتلك الزيارة ، واكتفى بالرد بأن تأثير الحشيش قد تسبب له فى ذلك التيه الذهنى المؤقت ، وأنه الآن يشعر بأنه فى حالته الطبيعية . واستشار الطبيب زميله ، وكان يتحدث إليه بكثير من التبجيل . وهز هذا الأخير رأسه ، وقال إن المخبولين كثيرا ما يمرون بلحظات من صفاء الذهن فيحصلون على حريتهم بتقديم مثل هذه المبررات اللبقة . ومع ذلك فهو لا يجد صعوبة فى منح هذا المريض حرية التجول فى الأفنية .

فقال الخليفة للطبيب الغريب : « هل أنت أيضا طبيب ؟ »

فصاح طبيب المجانين :

«إنه أمير العلم ، إنه ابن سينا الكبير الذى حضر من الشام منذ قليل وتفضل بزيارة المارستان» .

وأحدث اسم ابن اسينا الشهير ، ذلك العالم العظيم الموقر والمسيطر على صحة الناس وحياتهم، والذى يعتبره العامة ساحراً قادراً على أكبر المعجزات — تأثيرا قويا أعلى ذهن الخليفة ، فتخلى عنه حذره وصاح : «أنت الذى ترانى هنا مهجورا ، كما حدث لعيسى من قبل ، على تلك الصورة وفى حالة عجز بشرى عن مقاومة مؤامرات الجحيم ، وقد أنكر الناس على صفتى الخليفة والإله ، فكر أنه من الأفضل أن أخرج من هذا الوضع المهين بأسرع وقت ممكن . فإذا كنت فى صفى فأخبرهم بذلك ، أما إذا لم تصدق ما أقول فلتحل عليك اللعنة» .

ولم يرد ابن سينا، وإنما التفت إلى الطبيب وهز رأسه، وقال «أترى ... سرعان ما غاب عنه ذهنه» ثم أضاف : «لحسن الحظ أن مثل تلك التخيلات لا تضر أحداً . ولقد قلت دائماً إن القنب الذى تصنع منه عجينة الحشيش هو نفسه ذلك العشب الذى قال عنه أبقراط إنه يسبب للحيوانات نوعا من مرض الكلب يدفعهم إلى الإلقاء بأنفسهم إلى البحر . لقد كان الحشيش معروفا فى عصر سليمان وفى استطاعتك أن تقرأ كلمة الحشيش فى نشيد «الأنشاد» حيث تذكر الصفات المسكرة لذلك المستحضر ..» ولم يستطع الحاكم متابعة ما يقولان بسبب ابتعـــاد الطبيبين اللذين دلفا إلى فناء آخر .

وظل الحاكم وحده نهباً لأكثر التأملات تناقضا ، فتارة يشك فى ألوهيته، بل وتارة يشك فى كونه خليفة ، ويجد صعوبة فى تجميع شتات أفكاره . وانتهز فرصة الحرية النسبية التى تركت له ، واقترب من البؤساء المنتشرين هنا وهناك فى أوضاع عجيبة ، وأصاخ السمع إلى أناشيدهم وخطبهم والتقط بعض الأفكار التى لفتت انتباهه .

وكان أحد هؤلاء المخبولين قد توصل بجمع فضلات مختلفة من صنع شبه تاج مرصع بقطع الزجاج، كما لف حول كتفيه قطعا ممزقة مغطاة بنقوش براقة رسمها بيقايا من الرقائق المعدنية التى تستخدم فى التطريز .

وكان يقول : « إنى أمير الزمان ، وإنى أخبركم بأن الوقت قد حان .

فقال له : آخر :

إنك تكذب، فلست أنت أمير الزمان الحقيق، ولكنك تنتمى إلى الجن، وتحاول خداعنا .

فقال الأول .

— « فمن أكون إذن فى رأيك » ؟

— إنك لست إلا تاموراه آخر ملك من ملوك الجن المتمردين !

ألا تتذكر من هزمك فى جزيرة سر نديب ، والذى لم يكن سوى آدم أى أنا نفسى ؟ إن حربتك ودرعك مازالتا معلقتين كغنيمة حرب على قبر (*)

فصاح الآخر وهو يقهقه ضاحكا :

— قبره ! إن أحدا لم يعثر له قط على مكان . وأنصحه بأن يحدثنا عنه .

— إن لى الحق فى الحديث عن القبر ، إذ أننى عشت ست مرات بين البشر،

(*) تفترض تقاليد العرب والفرس أن الأرض خلال سلسلة طويلة من السنين كانت تسكنها

ومت كذلك ست مرات، كما ينبغى لى أن أفعل .

ولقد شيدت لى المقابر الفاخرة . أما قبرك أنت فهو الذى يصعب اكتشافه ، لأنكم معشر الجن لا تعيشون إلا فى أجساد ميتة .

وكانت صيحة الاستنكار العام التى تلت هذه الكلمات موجهة إلى إمبراطور الجن المسكين الذى نهض ثائراً وقد أطاح آدم المزعوم بتاجه بضربة بظهر يده . فانقض عليه المخبول الآخر ، وكاد يتجدد النضال بين العدوين بعد خمسة آلاف سنة (حسب ما يعدون) لو لم يتقدم أحد المراقبين ويبعد أحدهما عن الآخر بضربات سوط كان يوزعها بالعدل والقسطاس .

وقد نتساءل فيم اهتمام الحاكم بهذه الأحاديث المخبولة التى كان يستمع إليها فى انتباه ملحوظ ، بل والتى ربما كان يثيرها ببعض كلمات منه ؟! . لقد أعادته هذه الأحاديث وهو الوحيد المالك لعقله وسط هذه العقول التائهة أعادته فى سكون إلى عالم من الذكريات . لقد كان يبدو أن المخبولين يحترمونه وربما كان ذلك ناجما عن التأثير الغريب الذى تحدثه عليهم هيئته الوقورة ، ولم يكن أحد منهم يجرؤ على رفع عينيه إلى وجهه . ومع ذلك فقد دفعهم شىء ما إلى التجمع حوله ، كتلك النباتات التى تتجــــه فى آخر ساعات الليل جهة الضوء الذى لم يظهر بعد .

وإذا كان الناس لا يستطيعون بأنفسهم تبين ما يدور فى نفس رجل شعر فجأة بأنه نبى ، أو رجل شعر أنه إله ، فإن الأساطير والتاريخ قد سمحت لهم على الأقل بافتراض أية شكوك وأى قلق لابد أن يعتمل فى تلك النفوس المقدسة فى العصر الحائر الذى تحررت فيه أذهانهم من روابط التجسد الزائلة . لقد كان يحدث للحاكم أحياناً أن يشك فى نفسه ، كابن لصاحب جبل الزيتون .

وعما كان يصيب فكره بالدوار هو فكرة أن قد سيته لم توح إليه إلا وسط نشوة الحشيش، وكان يقول لنفسه .

« يوجد إذن شيء أقوى من الصمد . ولكن هل من الممكن أن يخلق عشب من أعشاب الحقول كل هذه الأمور الخارقة ؟ صحيح أن دودة بسيطة أثبتت أنها أقوى من سليمان حينما خرقت العصا التي يتوكأ عليها أمير الجن هذا، وتسببت في كسرها . ولكن من يكون سليمان بالنسبة إلى، لو كنت أنا حقا الإله البار ؟ » .

٥ - حريق القاهرة

ومن السخريات التى لا يتصور فكرتها إلا روح الشر أن السلطانة ست الملك أتت ذات يوم لزيارة المارستان لتقديم المعونات والتسرية عن المساجين كعادة الأشخاص الملكيين. وبعد أن زارت الجزء المخصص للمجرمين من الدار أبدت رغبتها فى رؤية مكان المخبولين. وكانت السلطانة محجبة، إلا أن الحاكم عرفها من صوتها، ولم يستطع كبح جماح غضبه حين رأى الوزير أرجفان يبتسم فى هدوء بالقرب منها، وهو يغدق لها التحايا المناسبة.

لقد أخذ يقول لها: «هؤلاء هم التعساء الذين أسلمهم القدر لآلاف التهريفات. فأحدهم يدعى أنه أمير الجن والآخر أنه آدم. أما أكثرهم طموحا فهو هذا الذى ترين هناك والذى يشبه أخاك الخليفة شبها ملحوظا.

فقالت ست الملك:

— إن هذا لأمر غريب فى الواقع.

فاسترسل أرجفان قائلا:

— حسن. لقد كان هذا الشبه وحده هو سبب تعاسته.

فلكثرة ما سمع أنه صورة طبق الأصل من الخليفة تخيل أنه الخليفة، ولم يكتف بهذه الفكرة فزعم أنه الله. إنه مجرد فلاح بائس أضاع ذهنه بكثرة تعاطى المواد المسكرة... ولكن كم يكون مشوقا أن نسمع ما يقول فى حضرة الخليفة نفسه».

فصاح الحاكم:

أيها التعس ! هل خلقت إذن شبحا يشبهنى ويحتل مكانى ؟ » .

ثم توقف وقد ظن لجأة أن حذره قد غاب عنه ، وأنه ربما يعرض حياته بذلك إلى أخطار جديدة، ولحسن الحظ حالت الضوضاء التى يحدثها المجانين دون سماع ما يقول .

وأخذ جميع هؤلاء التعساء يكيلون اللعنات لأرجفان، بل وأخذ ملك الجن يوجه إليه تحديات هائلة . وصاح به .

لتهدأ ! بالا ما عليك إلا أن تنتظر حتى أموت . وسوف نلتقى فى مكان آخر » .

ورفع أرجفان كتفيه فى استخفاف ، وخرج برفقة السلطانة

ولم يحاول الحاكم مجرد اللجوء إلى ذكريات هذه الأخيرة . فكلما فكر فيما كان يرى المؤامرة من حسن السبك لدرجة لا يمكن فصمها بمجهود واحد . فهو إما أن يكون غير معروف حقيقة لصالح أحد الخونة الغادرين ، وإما أن أخته ووزيره قد تواطئآ على إعطائه درساً فى العقل بأن يجعلاه يمضى بضعة أيام فى المارستان . وربما كان هدفهما فيما بعد هو الحصول على الشهرة الناجمة عن هذا الموقف للاستيلاء على الحكم ووضعه هو نفسه تحت الوصاية . لابد أن فى الأمر شيئاً من ذلك . ومما كان يعطيه مجالا للتفكير هو أن السلطانة وعدت إمام المسجد لدى انصرافها بتخصيص مبلغ كبير لتكبير المقر المخصص للمخبولين وإعادة بنائه بفخامة ، حتى يكون مسكنهم كما تقول ـ جديراً بأحد الخلفاء . (*)

وبعد رحيل أخته ووزيره لم يتفوه الحاكم إلا بهذه الكلمات : « كان

(*) الواقع أن المبنى الحالى وهو من أفخم مبانى القاهرة قد أنشئ فى هذا الوقت .

يجب أن يكون الأمر كذلك ! ، واستعاد طريقته المألوفة فى الحياة ،دون أن يخرج عن هدوئه وصبره اللذين أثبتهما بتصرفه حتى الآن ، إلا أنه لم يكن يتحدث إلا مع رفاق شقائه الذين كانوا يمرون بلحظات من الصفاء ، ومع نزلاء الجزء الآخر من المارستان الذين كانوا كثيرا ما يأتون إلى الحواجز الحديدية التى تفصل بين الفناءين ليسلوا أنفسهم بما يأتيه جيرانهم من غرائب، وقد كان الحاكم يستقبلهم بكلمات كان تأثيرها يدفع هؤلاء التعساء إلى التجمع هنا ساعات بطولها ينظرون إليه كما لو كان من الملبوسين الملهمين . أليس من الغريب أن يكون أول المؤمنين دائماً بالكلمة المقدسة من بين التعساء ؟ ولذا فقد كان المسيح منذ ألف عام مضت يرى أن المستمعين إليه معظمهم ممن يعيشون حياة شاقة من رجال المرور على القناطر والعشارين(١) .

وما إن حصل الخليفة على ثقتهم، حتى أخذ يستدعيهم الواحد تلو الآخر ويجعلهم يقصون عليه قصتهم والظروف التى ارتكبوا فيها أخطاءهم أو جرائمهم ، ويتعمق فى بحث الدوافع الأولى لهذا الاضطراب . وقد وجد أن الجهل والبؤس يكمنان فى أعماق كل شىء . لقد كان هؤلاء الناس يقصون عليه كذلك خفايا الحياة الاجتماعية ومناورات المرابين والمحتكرين ورجال القانون ورؤساء الهيئات العمالية والمتسوقين وأكبر تجار القاهرة الذين كانوا يتساندون ، ويشدون أزر بعضهم البعض ويضاعفون من قوتهم ونفوذهم بالمصاهرة ، كانوا راشين ومرتشين يرفعون الأسعار التجارية ويخفضونها كما يحلو لهم . وكانوا سادة سواء فى وقت المجاعة أم فى وقت الرخاء ، فى وقت الفتنة أو وقت الحرب، وكانوا بذلك يضطهدون شعبا لا يجد ضروريات الحياة دون مارقيب أو حسيب . تلك كانت نتيجة حكم الوزير أرجفان طيلة فترة الوصاية على الحاكم .

---

(١) محصلى الضرائب .

ثم إن شائعات مؤلمة كانت تنتشر فى السجن ، ولم يكن الحراس أنفسهم يخشون إذاعتها . كانوا يقولون إن جيشا أجنبيا يقترب من المدينة ، وقد عسكر فعلا فى سهل الجيزة وأن الخيانة سوف تسلم إليه القاهرة دون مقاومة ، وأن الكبراء والعلماء والتجار الذين كانوا يخشون على ثرواتهم من الحصار كانوا يستحدون لتسليم أبواب المدينـــة ، وأنهم قد أغروا بذلك القواد العسكريين بالقلعة . لقد كان القـوم ينتظرون فى الغد بالذات دخول قائد الأعداء إلى المدينة من باب الحديد . ومنذ تلك اللحظة سوف ينتزع العرش من سلالة الفاطميين وسوف يحكم الخلفاء العباسيون القاهرة كما يحكمون بغداد ، وسوف يذكر اسمهم فى الصلاة . وقال الخليفة فى نفسه : « هذا ما أعـده لى أرجفان وهذا ما كان يخبرنى به الطلسم الذى أعده لى والدى والذى كان يتسبب فى أن يبـدو زحل شاحبا فى السماء ! ولكن اللحظة قد حانت لأرى ماذا تستطيع كلمتى أن تصنع ، وما إذا كنت سوف أتيح لهم فرصة هزيمتى ، كما فعل عيسى الناصرى من قبل » .

واقترب المساء ، وكان المسجونون مجتمعين فى الفناء من أجـل الصلاة كالمعتاد وبدأ الحاكم الكلام موجها حديثه لهـذا الجمع المكون من المخبولين والمذنبين يفصلهم باب من القضبان . وأخبرهم من يكون هو وماذا يريد منهم. وقد اتسم حديثه بالسيطرة وزود بالبراهين الدامغة مما لم يتح لأحد فرصة الشك فيما يقول . وما هى إلا لحظة حتى حطم بجهـــود مائة ذراع الحواجز الداخلية ، وروع الحراس فأسلموا الأبواب المطلة على المسجد . وما لبث الخليفة أن دخل المسجد محمولا على أذرع هذا الجمع من التعساء الذين أسكرهم تأثير صوته من الحماس والثقة وكان المذنبون يتصايحون : « إنه الخليفة ! أمير المؤمنين الحقيق » بينما كان جمع المخبولين يصيح : « إنه الله الذى أتى ليحكم العالم » . واتخذ اثنان من هؤلاء المخبولين مكانيهما إلى اليمين وإلى اليسار من الحاكم وهما يصيحان : « هيا جميعاً إلى المجلس الذى يعقده مولانا وسيدنا الحاكم » .

ولم يكن المؤمنون الذين تجمعوا فى المسجد يفهمون من ذلك أن الصلاة قد شابها الاضطراب ، إلا أن القلق الذى انتشر فى النفوس بسبب اقتراب الأعداء قد أعد الجميع لتقبل الأحداث الغريبة . كان بعض الناس يهربون ناشرين الذعر فى الطرقات والبعض الآخر يصيحون . « إن اليوم هو يوم الحشر ! » وكانت تلك الفكرة تسر أكثر الناس فقراً أو بؤساً فكانوا يرددون: « أخيرا يا إلهى ! أخيرا هذا يومك » .

ولما بدا الحاكم على درج المسجد كان يضىء وجهه نور فوق البشرى ، وكان شعره الذى يحتفظ به طويلا ومشعثا بخلاف مااعتاده المسلمون ينشر خصلاته الطويلة على معطف من القطيفة الحمراء . كان رفاقه قد أسدلوه على كتفيه . وكان اليهود والمسيحيون وهم كثيرو العدد فى شارع السكرية هذا الذى يخترق الأسواق ينحنون كذلك له ، وهم يقولون « : إنه المسيح الحقيق أو إنه المهدى المنتظر الذى بشرت به الكتب المقدسة وقالت إنه سيظهر بعد الميسح بألف عام ! » .

وقد تعرف بعض الناس على الخليفة ، ولكن أحدا لم يستطع أن يفسر وجوده وسط المدينة ، حينما كانت الشائعات تقول فى نفس هذه الساعة إنه يسير على رأس قواته لملاقاة العدو المعسكر فى السهل المحيط بالأهرام .

وقال الحاكم للتعساء الذين أحاطوا به : « يا شعبى ويا أبنائى الحقيقيين ، ليس هذا هو يومى بل يومكم . لقد وصلنا إلى ذلك العهد الذى يتجدد كلما فقدت كلمة السماء تأثيرها على النفوس ، ذلك الزمن الذى تتحول فيه الفضيلة إلى جريمة والحكمة إلى جنون والمجد إلى عار ، ويسير كل شىء هكذا ضد العدالة والحقيقة . إن صوت السماء لم يكف أبدا عن إنارة العقول ، كما يفعل البرق قبل الصاعقة . ولذا فقد قيل : سحقا لإيتوقيا مدينة أبناء قابيل ، مدينة الدنس والظلم ! تعسا لك يا نينوى يا عمورية ، وتعسا لك يا بابل ! بل

تعسا لك يا مدينة القدس ! إن هذا الصوت الذى لا يكل يدوى هكذا من عصر إلى عصر وكانت ، ثمة فرصة للندم بين فترة التهديد والعذاب . ومع ذلك فإن الفرصة تقل من يوم لآخر ، وحينا تقترب العاصفة فإن النار تتبع البرق من قريب ، لتبين أن الكلمة كانت دائما مسلحة وأن الحكم الذى بشر به الأنبياء سوف يستقر أخيراً على الأرض ، اليكم أيها الأبناء هذه المدينة التى أثرت بالغش والربا والظلم والسلب والنهب ، إليكم هذه الكنوز المنهوبة والثروات المسروقة .

احكموا على هذا الترف الخداع وهذه الفضائل الكاذبة وهذه الجدارة التى اكتسبت بوزن الذهب وهذه الخيانات المنمقة التى باعتكم للعدو بحجة المحافظة على السلام .

أشعلوا النار ، النار فى كل مكان فى هذه المدينة التى أسسها جدى المعز لدين الله تيمنا بالنصر ، القاهرة ، والتى سوف تصبح أثراً يرمز إلى جبنكم .

هل كان الخليفة يتحدث إلى الجوع بصفته إلها أم بصفته خليفة ؟ من المؤكد أن دافعا أسمى يفوق العدالة العادية كان يدفعه وإلا خبط غضبه ، خبط عشواء ، كما يفعل غضب المجرمين الذين فك وثاقهم . وما هى إلا لحظات حتى كان اللهب قد التهم الأسواق التى كانت مسقوفة بأسقف من خشب الأرز والقصور ذات السقوف المنحوتة والأعمدة الواهية . وأسلمت أجمل وأغنى مساكن القاهرة محتوياتها إلى الشعب ينهبها ما شاء له أن يفعل . لقد كانت ليلة هائلة اتخذت فيها سلطة الخليفة صورة الثورة واستخـــدم فيها انتقام السماء أسلحة الجحيم .

لقد استمر حريق المدينة ونهبها ثلاثة أيام، واستعمل سكان أغنى أحياء المدينة السلاح للدفاع عن أنفسهم ، وأخذ فيها جزء من الجنود اليونانيين والقوات الهمجية بقيادة أرجفان تقاوم ضد المساجين والغوغاء الذين كانوا

ينفذون أوامر الحاكم . ونشر أرجفان إشاعة أن الحاكم ماهو إلا دعى، وأن الخليفة الحقيق كان يرافق الجيش فى سهل الجيزة وتسبب بذلك فى نشوب معركة مروعة على ضوء الحرائق فى الميادين الكبيرة والحدائق . وكان الحاكم قد انسحب إلى مرتفعات « القرافة » حيث عقد محكمته الدامية فى الهواء الطلق وكان يبدو فيها ، كما تقضى بذلك التقاليد ، وكأن الملائكة تقوم بمساعدته وأن بالقرب منه يوجد آدم وسليمان أحدهما كشاهد على الإنس والآخر على الجن . وكانوا يجرون إليه كل من يتعرض لغضب الشعب وتتم محاكمتهم فى كلمات قلائل . وكانت الرءوس تتساقط مع هتاف الجوع . ولقى هكذا آلاف مؤلفة من الناس حتفهم فى هذه الأيام الثلاثة . ولم تكن الجوع فى وسط المدينة أقل من ذلك سفكا للدماء . وأخيراً أصيب أرجفان فيما بين كتفيه بضربة حربة وجهها له المدعو ريدان، وأتى برأسه إلى أقدام الخليفة. ومنذ تلك اللحظة توقفت المقاومة . ويقال إنه فى اللحظة ذاتها التى سقط فيها هذا الوزير ، وهو يطلق صرخة مروعة صاح نزلاء المارستان الذين كشف عنهم الحجاب ، كما يحدث للمخبولين صاحوا قائلين : إنهم قد رأوا فى الجو إبليس، وقد خرج من جسم أرجفان وأخذ يدعو إليه ويجمع العفاريت الذين تجسدوا حتى تلك اللحظة فى أجسام أتباعه . وهكذا امتدت المعركة التى بدأت على الأرض إلى الفضاء . وأخذت قوات هذين العدوين الأبديين تتجمع وتناضل بقوة العناصر . وقد قال أحد الشعراء العرب فى هذه المناسبة مصر ! مصر ! إنك تعرفين هذه الأنواع من النضال بين أخيار الجن وأشرارها حينما يمتص التيفون ذو النفس الخانق الهواء والنور ، وحينما يهلك الطاعون شعبك المجد ، وحينما يقلل النيل من فيضانه السنوى ، وحينما يهلك الجراد بسحبه الكثيفة كل ما فى الحقول من خضرة فى يوم واحد .

وقد لا يكتفى الجحيم بهذه النوائب وإنما فى مقدروه كذلك أن يملأ الأرض بالنفوس القاسية الجشعة التى تخفى تحت الصورة البشرية الطبيعة الخبيثة لابن آوى والثعبان !

ومع ذلك فلما حل اليوم الرابع، وكانت المدينة قد احترقت إلى منتصفها، تجمع الأشراف فى المساجد ورفعوا المصاحف بأيديهم وهم يصيحون : « يا حاكم ! يا الله ! » إلا أن قلوبهم لم تكن متضامنة مع دعواتهم . وتقدم الشيخ الذى كان قد حيا ألوهية الحاكم من قبل أمام هذا الأمير وقال له :

« مولاى ، إن فى هذا لكفاية . مر بإيقاف أعمال التحطيم باسم جدك المعز لدين الله » . وأراد الحاكم سؤال هذا الشخص الغريب الذى لم يكن يظهر إلا فى ساعات الشدة . إلا أن الشيخ كان قد اختفى وسط جموع الحاضرين .

وامتطى الحاكم مطيته المعتادة ، حماره الرمادى ، وأخذ يجوب المدينة وهو ينثر عبارات الصلح والتسامح وقام منذ تلك اللحظة بتعديل القرارات القاسية التى كان قد اتخذها ضد المسيحيين واليهود ،وأعفى المسيحيين من حمل الصليب الخشبي الثقيل على أكتافهم واليهود من حمل « قرمة » ، معلقة فى أعناقهم .

وبدافع من هذا التسامح نفسه تجاه المذاهب والأديان الأخرى أراد الحاكم تمهيد العقول شيئاً فشيئاً لتقبل دين جديد ، فأنشأ أماكن للخطب لاسيما فى مبنى اطلق عليه اسم « دار الحكمة » وأخذ عدد كبير من العلماء فى تأييد ألوهية الحاكم علناً . ومع ذلك فإن العقل البشرى يتمرد دائماعلى العقائد التى لم يقدسها الزمن ، ولذا فلم يسجل فى عداد المؤمنين بتلك العقيدة سوى ثلاثين ألفا من سكان القاهرة .

وثمة شخص يدعى المشجر أخذ يقول لمعتنق مذهب الحاكم : « إن الذى تدعونه من دون الله لا يستطيع أن يخلق ذبابة ولا منع ذبابة من مضايقته » ولما سمع الخليفة بهذه العبارات منحه مائة قطعة ذهبية ، ليدله بذلك على أنه لا ينبغى استعمال القوة ضد ضمائر الناس . وقال آخرون :

، إن كثيراً من أعضاء الأسرة الفاطمية قد أصيبوا بهذا الوهم . وقد كان جد الحاكم المعز لدين الله ، يعتزل النـــاس طوال أيام كثيرة ، ويدعى أنه قد رفع إلى السماء . ثم بعد ذلك انسحب إلى مخبأ تحت الأرض وقال الناس إنه اختفى من الأرض ، دون أن يموت كما يحدث لسائر الناس ، وكان الحاكم يلتقط هذا الكلام الذى كان يسلمه إلى التأملات الطويلة .

٦ – الخليفتان

كان الخليفة قد عاد إلى قصره على ضفاف النيل، واستعاد حياته المعتادة، وقد اعترف به الجميع وتخلص من أعدائه .

وكانت الأمور قد عادت إلى مجراها الطبيعي منذ بعض الوقت .

وذات يوم ذهب إلى أخته ست الملك، وطلب إليها إعداد كل شيء لزواجهما الذى يريد تنفيذه سراً خوفا من إثارة غضب الشعب الذى لم يكن قد اقتنع بعد بألوهية الحاكم الاقتناع الراسخ الذى يجعله لا يصدم بهذا الخرق الصارخ للقوانين المعمول بها . وكان من المقرر ألا يشهد الحفل إلا الخصيان والعبيد، وأن يتم فى مسجد القصر . أما عن الأفراح التى لابد من أن تتبع هذا الرباط، فإن سكان القاهرة – وقد اعتادوا رؤية القصر وقد بددت المصابيح ظلامه كما اعتادوا سماع الموسيقى التى يحملها إليهم منه نسيم الليل من الضفة الأخرى للنهر – فلن يلاحظوا شيئاً أو لن يدهشهم من ذلك شيء . ولما يحين الوقت المناسب وتستعد عقول الناس لتلقى مثل هذا النبأ فإن الحاكم سيتولى بنفسه إعلان هذا الزواج الدينى المقدس .

ولما حل المساء خرج الخليفة متخفيا كالمعتاد، واتجه نحو مرصده بالمقطم ليستشير النجوم . ولم يكن فى السماء شيء مطمئن للحاكم : كانت ثمة تجمعات مشئومة للكواكب وعقد مختلطة من النجوم تنذره بموت قريب . ولما كان كالإله مؤمنا بخلوده، فلم يأبه كثيراً لهذه التهديدات السماوية التى لم تكن تهم إلا جسده الفانى . ومع ذلك فقد شعر بقلبه ينقبض بحزن حاد فعدل عن جولته المعتادة . ورجع إلى القصر فى الساعات الأولى من الليل .

وحين عبر النهر بزورقه رأى – والدهشة تغمره – حدائق القصر مضاءة،

كما لو كان ذلك بمناسبة حفل يقام ، فدخل . كانت المصابيح معلقة فى جميع الأشجار كثماره من اليواقيت واللازورد والزبرجد. وكانت النافورات المعطرة ترسل مياهها الدافقة الفضية تحت الأغصان المرمقتجرى مياهها فى قنوات من المرمر فينبعث من الطريق المرمرى الذى شق وسط الأكشاك فى خطوط حلزونية خفيفة دخان أزرق لأثمن الروائح العطرية التى يختلط شذاها بعبير الأزهار. وكانت همسات الموسيقى المختفية تبادل الطيور الأنغام ، تلك الطيور التى خدعها الضياء فاعتقدت أنها تحيى طلوع الفجر .

ووسط هذا الإطار الوضاء وهذا النور المتوهج كانت واجهة القصر تبدو وقد حددت خطوطها الهندسية بخطوط من النور .

وكم كانت دهشة الحاكم بالغة . كان يتساءل : « من هذا الذى يجرؤ على إقامة حفل فى قصرى فى غيابى ؟ وأى ضيف مجهول يحيونه فى هذه الساعة ؟ إن هذه الحدائق كان ينبغى أن تكون خالية ساكنة . ومع ذلك فإنى لم أتعاط الحشيش هذه المرة ولست نهبا للتهريف والأوهام .

وواصل الحاكم الدخول . كانت الراقصات فى ملابسهن الباهرة يتلوين كالثعابين فوق بساط عجمى محاط بالثريات حتى لا يفقد أحد شيئاً من حركاتهن وأوضاعهن . ولم يبد أنهن قد لاحظن مقدم الخليفة . ولدى باب القصر تقابل الخليفةمع جمع من العبيدوالخدم يحملون الفاكهة المسكرة والمربى فى أوان عميقة من الذهب والأباريق الفضية المليئة بالشراب .

ورغم أنه كان يسير بجوارهم وذراعه ملتصقة بأذرعتهم فلم يلتفت أحد إليه . وبدأت هذه الأمور الغريبة تملأ قلبه بقلق خفى . لقد بدأ يشعر أنه يتحول إلى ظل ، إلى روح غير مرئية . واستمر يتقدم من غرفة إلى غرفة مخترقا الجماعات، كما لو كان يحمل بإصبعه خاتم الإخفاء السحرى .

وما إن وصل إلى عتبة القاعة الأخيرة حتى بهر عينيه سيل من النور .

كانت ثمة آلاف من الشموع فى شمعداناتها الفضية تتلألأ كباقات من النار، وقد تقاطعت هالاتها وكانت آلات الموسيقيين المختفين تحت المنصات تدق بقوة النصر. واقترب الخليفة وهو يترنح واختفى خلف ثنيات ستارة من الديباج. وحينئذ أبصر فى أقصى القاعة على الأريكة وإلى جوار ست الملك رجلا غارقاً فى اللآلئ مرصعاً بالماس يتألق وسط لألاء من بريق الماس وأشعته، حتى ليقال إن كنوز هارون الرشيد قد استنفدت كلها فى تزيين هذا الخليفة الجديد.

ونستطيع أن نفهم ذهول الحاكم لهذا المشهد غير المعقول: ومد يده إلى خنجره فى منطقته لينقض على هـــذا المغتصب. إلا أن قوة لا تقاوم شلت حركته. وبدت له هذه الرؤيا كما لو كانت إنذاراً من السماء وزاد اضطرابه حينما تعرف أو خيل إليه أنه تعرف على ملامحه هو نفسه فى ملامح ذلك الرجل الجالس بجوار أخته. وظن أنه شبحه أو قرينه، وإن رؤية المرء لشبحه تعتبر لدى الشرقيين من أسوأ النذر، فإن القرين يضطر الجسد إلى أن يلحق به فى بحر يوم واحد.

ولقد كانت الرؤيا هنا تحمل نذر التهديد، لا سيما أن القرين هنا كان يبادر بتنفيذ خطة رسمها الحاكم. ألا يدل عمل هذا الخليفة الوهمى، حين يتزوج ست الملك التى قرر الخليفة الحقيق الزواج منها، على معنى غامض ورمز غريب مروع؟ ألا يكون هذا إلهاً غيورا يحاول اغتصاب السماء حين يختطف ست الملك من أخيها، ويفرق بين هذين الزوجين الخلاقين المقدسين أيحاول الجن بهذه الطريقة إيقاف نسل العقول الممتازة وإحلال جنسها الزنديق محلها؟ لقد مرت هذه الأفكار كلها مجتمعة برأس الحاكم. وكم كان يود فى غضبه إحداث هزة أرضية أو طوفان أو إنزال وابل من النار أو أية مصيبة أخرى. إلا أنه عاد فتذكر أنه مرتبط بتمثال من الفخار الأرضى هو جسده، ولا يستطيع هكذا إلا استخدام الوسائل البشرية.

ولما لم يستطع الحاكم إظهار نفسه باستعمال القوة فقد انسحب ببطء. وعاد إلى الباب المطل على النيل . وكان ثمة مقعد من الحجر فجلس عليه وظل بعض الوقت مستغرقاً فى أفكاره باحثاً عن مغزى هذه المشاهد الغريبة التى مرت به. وما هى إلا بضع دقائق حتى عاد الباب السرى فانفتح، ورأى الحاكم خلال الظلمة شبحين غامضين كان أحدهما أكثر حلكة من الآخر . وساعدت انعكاسات الأرض والسماء والماء التى لا تجعل الظلمات فى الشرق أبداً معتمة ساعدت الحاكم فتبين أن الأول كان شاباً من الجنس العربى ، أما الآخر فكان حبشياً عملاقاً .

ولما وصل الشاب إلى نقطة معينة فى الضفة تمتد إلى داخل النهر جثا على ركبتيه ، واتخذ الرجل الأسود مكانه بجواره ولمع بريق سيف فى الظلام كخط الصاعقة . ومع ذلك فإن رأس ذلك الشاب لدهشة الخليفة لم تقطع . وانحنى الرجل الأسود على أذنه وبدا كما لو كان يهمس إليه ببضع كلمات نهض الشاب على أثرها هادئاً ثابتاً ، دون حماس أو مرح ، كما لو كان الأمر يتعلق بأحد غيره .

وأعاد الحبشى سيفه إلى غمده واتجه الشاب إلى حافة النهر فى مكان الحاكم نفسه ، وذلك حتما لكى يستقل الزورق الذى أتى به . وهنا ألفى نفسه وجهاً لوجه مع الخليفة الذى تظاهر بالاستيقاظ ، وقال له : « سلام الله عليك يايوسف ، ماذا تفعل هنا ؟

وأجاب يوسف الذى لم يكن يعتبر صديقه سوى رفيق مغامرات ، ولم يدهش لرؤيته نائماً على الضفة، كما يفعل أبناء النيل فى ليالى الصيف الملتهبة .

« وعليك السلام » .

وأركبه يوسف الزورق وتركاه الاثنان للتيار يسيره بطول الضفة الشرقية . وكان الفجر قد أخذ يصبغ السهل المجاور بشريط مائل للحمرة،

ويرسم هيكل أطلال هليوبوليس ، التى كانت ماتزال قائمة ، على حافة الصحراء . وكان الحاكم يبد ومستغرقا فى الأحلام ، وهو يتفحص فى انتباه سمات رفيقه التى أخذ النهار يزيدها وضوحاً ، ووجد بين رفيقه وبينه نوعا من الشبه لم يكن قد تبنيه من قبل قط ، لأنه كان دائما يقابله فى الليل أو خلال الإفراط فى الثمل . ولم يعد يشك فى أن هذا هو قرينه صاحب رؤيا الليلة البارحة ، والذى ربما كانوا قد طلبوا إليه أن يلعب دور الخليفة فى أثناء إقامته فى المارستان . إلا أن هذا التفسير الطبيعى كان مازال يعطيه مجالا للدهشة .

وقال الحاكم : إن أحدنا يشبه الآخر كما لو كنا أخوين . وقد يكفى أحيانا لتبرير مثل هذه المصادفة أن يكون الشخصان من أبناء منطقة واحدة . فما هو مكان مولدك أيها الصديق ؟

فقال يوسف .

— لقد ولدت تحت أقدام جبال أطلس فى قطامة فى المغرب وسط البربر والقبائل ، ولم أعرف والدى الذى كان يسمى بدواس ، والذى قتل فى إحدى المعارك بعد مولدى بقليل . أما جدى الذى كان متقدما فى السن ، فقد كان شيخا من شيوخ هذا البلد الضائع فى الرمال .

فقال الحاكم :

— إن أجدادى كذلك من هذا البلد ، وربما كنا نحن الاثنين ننتمى إلى قبيلة واحدة ... ولكن ما أهمية ذلك ؟ إن صداقتنا ليست فى حاجة إلى روابط الدم ، لكى تظل باقية مخلصة . قص على لماذا لم أرك منذ أيام طويلة .

فقال يوسف :

« ماذا تطلب إلى ؟ » هل تقصد الأيام أم الليالى ، إذ أن الأيام أخصصها للنوم ، وقد مرت كأحلام لذيذة ملأى بالعجائب . ومنذ أن فاجأتنا العدالة فى

الوكالة وفرقتنا التقيت من جديد على النيل بالرؤيا الساحرة التي لن أستطيع الشك في صحتها . وكثيراً ما حدث لي وأنا أضع يدى على عينى لأمنع نفسى من التعرف على بابها ، أن أدخلتنى فى حدائق رائعة وفى قاعات ذات فخامة مذهلة تعدت فيها عبقرية المهندس جميع المبانى الوهمية التى ينشئها تأثير الحشيش فى السحب .

يا لغرابة مصيرى ! إن صحوتى أكثر امتلاء بالأحلام من نومى . وفى هذا القصر يبدو أن أحداً لا يدهش لوجودى ، وحينما أمر تنحنى جميع الجباه احتراماً وإجلالا أمامى . ثم هذه المرأة الغريبة تسكرنى بحديثها ونظرتها وهى تجلسنى تحت قدميها . وفى كل مرة ترفع فيها جفنها ذا الأهداب الطويلة يبدو لى أن جنة جديدة تتفتح أمامى . وإن تموجات صوتها الموسيقى لتغمسنى فى نشوات تفوق الوصف . فتذوب روحى لذة تحت تأثير هذه الأنغام الساحرة . ويحضر لنا العبيد الوجبات الخفيفة اللذيذة والورود المحفوظة والشراب المثلج فلا تكاد تلمسه بطرف شفتيها ، إذ أن مخلوقة سماوية فى مثل كمالها لا ينبغى أن تعيش إلا على العطور والندى والأشعة. وذات مرة حركت بعبارات سحرية إحدى قطع البلاط المغطاة بأختام غريبة، وأنزلتنى إلى الكهوف التى تحتوى على كنوزها وعرضت أمامى ما تحويه من ثروات وهى تقول لى: إنها ستكون كلها ملكالى لو كان لدى الحب والشجاعة. ورأيت هناك من العجائب أكثر مما يضم جبل قاف الذى يخفى فيه الجن كنوزهم ، ورأيت فيلة من البللور الصخرى وأشجاراً من الذهب تغرد فوقها وهى تضرب بأجنحتها طيور مرصعة بالأحجار الكريمة، ورأيت طواويس تفتح ذيولها المزدانة بشموس من الماس ، على شكل عجلة ، ورأيت أكواما من الكافور فى شكل كروى، وأحيطت بشبكة من الخيوط الذهبية ، وخياما من القطيفة والديباج ساريتها من الفضة الخالصة ، ثم إنى رأيت أكواما من القطع

الذهبية والفضية وأكواما من اللآلىء واليواقيت معبأة فى قرب وملقاة كالحبوب فى إحدى المطامير (١)

وقال الحاكم لصـــديقه يوسف ، وقد استمع باهتمام إلى هذا الوصف:

« أتعرف أيها الأخ أن ما رأيته هذا ما هو إلا كنوز هارون الرشيد وقد اختطفها الفاطميون ، ولا يمكن أن تكون إلا فى قصر الخليفة ؟

ـ كنت أجهل ذلك، إلا إنى أمام جمال فتاتى المجهولة وغناها قد حدست أنها لا بد أن تكون من أعلى الطبقات . ومن أدرانى ؟ لعلها إحدى قريبات الوزير الكبير أو زوجة أحد كبار السادة أو ابنته ، ولكن ما حاجتى إلى معرفة اسمها ؟ إنها تحبنى ، أليس فى ذلك الكفاية ؟ وبالأمس حينما وصلت إلى مكان لقيانا المعتاد تلقانى العبيد وأعطونى حماما ثم ضمخونى بالعطور وألبسونى من الملابس الرائعة مالا يمكن للحاكم نفسه أن يرتدى أفخر منها. وكانت الحديقة مضاءة بالأنوار ، وكل شىء ينم عن حفل كبير ، كما لو كان هناك عرس يعد . وسمحت لى من أحبها بالجلوس إلى جوارها على الأريكة وتركت يدها تسقط فى يدى وهى ترنو إلى بنظرة مليئة بالتدله والنشوة .

وفجأة شحب لونها ،كما لو كانت ثمة رؤيا كئيبة لا يراها سرها قد تبدت لها لتفسد عليها روعة الحفل، فصرفت الجوارى والعبيد بحركة منها، وقالت لى بصوت لاهث . « لقد ضعت ، فخلف ستار الباب رأيت بريق العينين الزرقاوين اللذين لا يرحمان . هل تحبنى بالقدر الكافى الذى يجعلك تموت من أجلى ؟ »

فأكدت لها إخلاصى الذى لا حد له . فأردفت قائلة :

(١) حفرة فى الأرض لحفظ وتخزين الحبوب .

يجب ألا تكون قد خلقت إطلاقا،وألا يترك مرورك بهذه الأرض أى أثر ، وأن تفنى وأن تقسم جثتك إلى أشلاء صغيرة لا يمكن مسها ، وألا يعثر أحد على ذرة منك ، وإلا فإن من أنتمى إليه سوف يخترع من أجلى من صنوف العذاب ما ترتاع له أشرار الجن وير تعد له المعذبون فى أعماق الجحيم فرقا . اتبع هذا الزنجى وسوف يتصرف فى حياتك كما ينبغى . وقد جعلنى الزنجى أجثو على ركبتى خارج الباب السرى، كما لو كان يريد أن يقطع رأسى وهز سيفه مرتين أو ثلاثا ، فلما رأى ثباتى قال لى أن كل هذا لم يكن سوى لعبة أو تجربة ، وأن الأميرة أرادت أن تعرف ما إذا كنت حقيقة على القدر الذى ادعيت من الشجاعة والوفاء . ثم أضاف قبل أن يعود إلى الحديقة : احرص على أن تكون فى القاهرة مساء الغد لدى نافورة المحبين ، وسوف يحدد لك موعد آخر .

وبعد كل هذه الإيضاحات لم يعد الحاكم يستطيع الشك فى الظروف التى قلبت مشاريعه رأساً على عقب . ولم يدهش إلا لأنه لم يشعر بأى غضب لا لخيانة أخته ولا لهذا الحب الذى أوحى به شاب من أصل وضيع إلى أخت الخليفة . فهى كان ذلك لأنه تعب من العقاب بعد كل ما سفك من دماء، أم لأن شعوره بألوهيته قد أوحى إليه بالشعور الأبوى الكبير الذى ينبغى أن يشعر به الإله تجاه مخلوقاته ؟ لقد شعر ، وهو الذى لا يرحم أمام الشر، بسحر الشباب والحب يهزمه. فهل كانت ست الملك مذنبة حين رفضت رباطا تعتبره عقيدتها جريمة ؟ وهل كان يوسف مذنبا حين أحب امرأة يجهل مكانتها؟ ولذا فقد اعتزم الخليفة الحضور فى ذلك المساء نفسه إلى الموعد الجديد الذى حدد ليوسف، ولكن لكى يعفو ويبارك هذا الزواج . ولم يعد يهتم فى هذه الفكرة إلا بما أسره إليه يوسف . إلا أن ثمة لمحة قاتمة مازالت تراود فكره ، إن مصيره هو الذى يقلقه الآن وقال لنفسه : إن الأحداث تجرى ضدى ، وإرادتى نفسها لم تعد تحمينى » . وقال ليوسف وهو يغادره « إنى أحن إلى ليالينا الجميلة فى الوكالة . وسوف نعود إليها، إذ أن الخليفة قد

سحب أوامره التى أصدرها ضد الحشيش والمشروبات المخمرة . وسوف نلتقى قريبا ياصديق ».

ولما عاد الحاكم إلى قصره دعا إليه رئيس حرسه . أبا عروس ، الذى يقوم بالحراسة الليلية مع قوة من ألف رجل وأعاد الأمر الذى كان قد توقف خلال أيام الاضطرابات والذى ينص على إغلاق جميع أبواب القاهرة فى الساعة التى يتجه فيها إلى مرصده ، وأن واحداً منها فقط يفتح بإشارة متفق عليها حين يحلو له أن يعود أدراجه . وفى هذا المساء صحبته الحراسة حتى آخر الشارع المسمى بدرب الصبا، وامتطى حماره الذى أعده رجاله لدى الخصى نسيم سايس الباب وخرج إلى الحقول لا يتبعه سوى خادم مترجل وعبد شاب كان عادة يرافقه . ولما صعد الجبل ، وقبل أن يصعد إلى برج المراقبة ، نظر إلى النجوم وضرب يداً بيد وهو يصيح : « لقد ظهرت إذن أيتها العلامة المشئومة ! » ، ثم قابل بعض الفرسان العرب الذين تعرفوا عليه وسألوه المعونة، فأرسل معهم خادمه إلى الخصى نسيم لمنحهم بعض الهبات.

وبدلا من أن يتجه إلى البرج اتخذ طريق المقابر الواقعة إلى يسار المقطم وتقدم حتى قبر فقاى بالقرب من المكان المسمى «بالمقصبة» نسبة إلى البوص الذى ينمو به . وهنا انقض عليه ثلاثة رجال بضربات خناجرهم . ولكن ما إن تلقى أولى الضربات حتى استدار أحدهم ، وقد تعرف على ملامحه فى ضوء القمر، ضد الآخرين وقاومهم حتى سقط هو نفسه بجوار الخليفة، وهو يصيح : « أيها الأخ ! ».

تلك كانت على الأقل القصة التى قصها العبد الهارب من هذه المذبحة وقد ولى الأدبار إلى القاهرة وذهب ليخطر أبا عروس . ولكن لما وصل الحراس إلى مكان الجريمة لم يجدوا إلا ملابس ملطخة بالدماء وحمار الخليفة المسمى كمار وقد قطعت عراقيبه .

٧ - الرحيل

وانتهت قصة الخليفة الحاكم، فتوقف الشيخ واستغرق فى تفكير عميق. وتأثرت أنا نفسى برواية هذه الآلام التى تقل بلا شك عن الآلام التى عاناها السيد المسيح حين صلب على جبل الجليل. إلا أنى شاهدت منذ وقت قليل مسرحها، إذ كثيراً ما كنت أتسلق خلال إقامتى فى القاهرة جبل المقطم هذا الذى ما زال محتفظاً بأطلال مرصد الحاكم. وكنت أقول لنفسى إنه سواء أكان الخليفة الحاكم هذا — الذى طالما ذكره المؤرخون من أقباط ومسلمين بالسوء — إلها أم رجلا فقد كان يريد بلا شك إقرار حكم العقل والعدالة. وأخذت أستعرض الحوادث التى قصها المسعودى [١]. والمقريزى والنويرى وغيرهم من الكتاب ممن كنت أقرأ لهم فى القاهرة، وأخذت أرثى لهذا القدر الذى يحكم على الأنبياء والمصلحين وأمثال المسيح مهما كانوا بالميتة العنيفة ثم بعد ذلك بالجحود البشرى.

وقلت للشيخ ملاحظاً،

«ولكنك لم تذكر لى من هم أعداء الحاكم الذين دبروا موته؟

فقال لى:

«لقد قرأت المؤرخين. أفلا تعرف أن يوسف بن دواس، وقد ذهب إلى الموعد المضروب لدى نافورة العشاق قابل العبيد الذين اصطحبوه إلى بيت كانت تنتظره فيه السلطانة ست الملك، التى توجهت إليه متخفية. فحصلت

---

(١) يقول المؤلف إنه مؤلف «القصة المحمدية» التى ترجمها الفرنسى فانييه سنة ١٦٢٧ وأنه ولد عام ١٢٢٣ وتوفى عام ١٢٧٣.

منه على موافقة بقتل الحاكم بعد أن أفهمته أن هذا الاخير يرغب فى موتها ، ووعدته بالزواج بعد ذلك؟ وقالت وهى تختم كلامها تلك العبارات التى احتفظ بها التاريخ : « توجه إلى الجبل فلا بد أنه سيأتى ويظل وحيداً لا يصاحبه إلا الرجل الذى يقوم على خدمته . وسوف يدخل إلى الوادى . وحينئذ تنقض عليه وتقتله ، واقتل كذلك الخادم والعبد الصغير إذا كان فى رفقته. ثم أعطته أحد هذه الخناجر التى يشبه طرفها المدبب طرف الحربة، والتى يسمونها «يافور» ، كما سلحت كذلك العبدين اللذين أصدرت إليهما الأوامر بمساعدته وقتله إذا حنث بقسمه . ولم يعرف يوسف أنه رفيق مغامراته الليلية ، إلا حين وجه إليه الضربة الأولى . فارتاع لفعلته وانقض على العبدين ، إلا أنه سقط بدوره تحت ضرباتهما » .

— وما هو مصير الجثتين اللتين يقول التاريخ عنهما إنهما اختفيتا ، مادام لم يعثر إلا على الحمار ومعاطف الحاكم السبعة التى لم تفك أزرارها؟

— هل قلت لك إنه كانت هناك جثث ؟ إن ذلك لا يدخل ضمن معتقداتنا. لقد كانت النجوم تعد الخليفة بحياة تبلغ ثمانين عاماً إذا استطاع الفرار من خطر تلك الليلة ، ليلة السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ للهجرة . ألا تعلم أنه بعد وفاته بستة عشر عاماً لم يكف شعب القاهرة عن القول بأنه مازال حياً .

فقلت له :

— الواقع أنهم قضوا على الكثير من أمثال ذلك ، إلا أنهم كانوا ينسبون ظهور الحاكم فى مناسبات عديدة إلى الدجالين من أمثال شيروت وسكين وغيرهما الذين كانوا يشبهونه فى الخلقة وقاموا بتمثيل هذا الدور. وهذا مايحدث لجميع العظماء الغامضين الذين تصبح حياتهم موضوع الأساطير

الشعبية . ويدعى الأقباط أن المسيح قد ظهر للحاكم الذى طلب إليه الصفح لما اقترفه من آثام، وحكم على نفسه بالعذاب سنوات طويلة فى الصحراء .

وقال الشيخ :

— إن كتبنا تذكر أن الحاكم لم يمت تحت الضربات التى وجهت إليه . لقد التقطه شيخ مجهول وعاش بعد الليلة المشئومة التى أمرت فيها أخته بقتله إلا أنه قد تعب من العرش ، فانسحب إلى صحراء آمون وكون نظريته التى نشرها فيما بعد تلميذه حمزة . أما المؤمنون به فقد طردوا بعد موته من القاهرة وانسحبوا إلى لبنان حيث كونوا شعب الدروز .

جميع هذه التفصيلات وكذلك الحقائق العامة لهذه الأسطورة قد قصها المؤرخون المذكورون فيما سبق، وأعيد ذكرها فى كتاب سيلفستر دى ساسى عن ديانة الدروز . ومن المحتمل أن تكون هذه القصة التى تعبر عن وجهة نظر الدروز الخاصة تتضمن وجهاً من أوجه الكفاح الأبدى بين الأرواح الخيرة والشريرة التى تتجسد فى صورة بشرية . وقد قدمنا فكرة سريعة عن ذلك .

وكانت هذه الأسطورة تدور فى رأسى كالدوامة ، وقد انتويت القدوم لطلب تفاصيل جديدة عن الديانة الدرزية إلى الرئيس الدرزى . إلا أن العاصفة التى اضطرتنى إلى التوقف فى بيروت كانت قد هدأت ، وكان على أن أسافر إلى عكا حيث كنت آمل جنب اهتمام الباشا لصالح السجين . وعلى ذلك فلم أر الشيخ إلا لوداعه دون أن أجرؤ على الحديث معه فى شأن ابنته، ودون أن أخبره أنى رأيتها من قبل لدى السيدة كارليس .

فهرس الجزء الثانى



دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح تليفون ٩٠١٧٢٥

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح تليفون ٩٠١٧٢٥

أغسطس ١٦٦